التذكير القويم

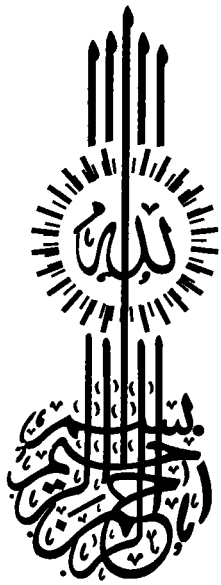
في

تفسير القرآن الحكيم

للعلامة / وحيد الدين خان

الجزء الثاني

دار الوفاء



التذكير القويم
في
تفسير القرآن الحكيم

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

خان ، وحيد الدين .
التذكير القويم فى تفسير القيرآن الحكيم / تفسير وحيد الدين خـــان . —
ط١ . — المنصورة : دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٨ .
٦٦٨ ص ، ٢٤ سم.
رقم الإيداع : ٢٠٠٧/١٥١٧٣
الترقيم الدولى : I.S.B.N:٩٧٧-١٥-٠٥٦٤-٥
تدمك ٩٧٧-١٥-٠٥٦٤٥
١- تفسير القرآن
أ — العنوان ٢٢٧

تحذير

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل (المعروفة منها حتى الآن أو ما يستجد مستقبلاً) سواء بالتصوير أو بالتسجيل على أشرطة أو أقراص أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن كتابي من الناشر.

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - جمهورية مصر العربية
الإدارة: المنصورة - ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ص.ب ٢٣٠ ت:٠٠٢٠٥٠٢٢٥٦٢٣٠+ فاكس: ٠٠٢٠٥٠٢٢٦٠٩٧٤+
e.mail:darelwafa@hotmail.com
www.darelwafaa.com

سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾

قَدَمَ صِدْقٍ: سابقة فضل ومنزلة رفيعة .

إن كلام النبي يكون مرتكزاً على دلائل محكمة للغاية، وهو بأسلوبه غير العادي يكون في ذاته برهاناً جلياً على أنه إنما يُبَلّغ عن الله، ولا يتكلم من عند نفسه، على أن الأنبياء - مع هذا كله - قوبلوا بالإنكار والتكذيب في كل العصور .

ورسالة النبى قوامها : الإنذار والتبشير، أي تخويف الناس من بطش الله، وتبليغ بشارة الجنة إلى من يرضى منهم بأن يعيش في هذه الدنيا خائفاً من الله، وإنما يُبعث النبي لكي يُعلِم الإنسان بهذه الحقيقة القائلة بأنه: ليس حراً مطلق الاختيار والتصرف في هذه الدنيا، وأن قصة الحياة ليست بمنتهيةٍ مع انتهاء أجل المرء على وجه الأرض، بل إن هناك حياة أبديةً بعد الموت، ينبغى للمرء أن يعيرها من اهتمامه الجانب الأكبر، وأن الشخص الذى يعيش هنا فى غفلة أو طغيان، لن يجد فى العالم الآخر بعد الموت سوى الألم وحده .

وقد ظل الإنسان العابد للظواهر يحسب دائماً أن العزة والرقي لا ينالهما إلا شخص يمتلك زمام سلطة الدنيا، والذي تتوفر لديه ثروات الدنيا وزخارفها، أما النبي فهو يهدم هذا التصور من أساسه، ويعلن صراحةً بأنه ليس إلا وهماً باطلاً وخداعاً محضاً،

حيث إنهما عزة ورقي يحظى بهما المرء بين بني جنسه في الحياة العابرة الراهنة وبصفةٍ مؤقتةٍ، فسرعان ما يصبحان أثراً بعد عينٍ، بينما العزة والرقي حقاً أن يوفق المرء للفوز بهما عند الله ربه في الحياة الأبدية القادمة، فذانك وحدهما عزة ورقي حقيقيان، كما أنهما دائمان لا يعتريهما الفناء أو الزوال، لكن المنكرين لا يلبثون أن يستخفوا به قائلين : إنه ساحر وما يقول إلا سحر البيان.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ: استواء يليق به سبحانه .

بِالْقِسْطِ: بالعدل .

حَمِيمٍ: ماء بالغ غاية الحرارة.

يزخر الكون بشتى أنواع المخلوقات، وتدلنا الدراسة العلمية للكون على أن كل هذه المخلوقات لم تظهر إلى الوجود دفعةً واحدةً، بل هي ظهرت بالتدرج واحداً فواحداً، ويقسم القرآن عملية الخلق هذه إلى ست فقرات أو مراحل، وهذا التكوين الدوري أو المرحلي يثبت أن الكون لم يوجد نتيجة صدفةٍ، وإنما تم إيجاده تحت خطة حكيمة واعيةٍ، كما أن دراسة الكون تهدينا أيضاً إلى أن نظامه يخضع لقوانين محكمة للغاية، فكل شيء فيه يعمل تماماً كما ينبغى له أن يعمل تبعاً لمقتضى الكل، وهذا الواقع دليل واضح على أن لهذا المصنع الكونى الهائل مدبراً حياً عاقلاً يقوم على إدارة شئونه كل لحظة .

إن نظام هذا الكون العجيب المدهش، لشهادة صارخة فى حد ذاته بأن مالكه إله كامل وعظيم لدرجة أنه لا يتصور أن يكون عنده وزن أو اعتبار ما لشفاعة شافعٍ كائناً مَنْ كان، فالكون فى مرآة خصائصه يعكس صفات خالقه العظيم.

ويسود هذا الكون كله نظام ((القسط))، فما من شيء هنا إلا يلقى النتيجة بحسب عمله، فيكسب ما كان قد سعى له، ويخسر ما لم يسع له، فلابد من أن يخيم الظلام على جزءٍ من الأرض، توفرت فيه أسباب الليل، وأن تطلع الشمس المنيرة على جزءٍ من الأرض آخر، تهيأت له أسباب النور والضياء .

ذلك شأن النتائج المادية، غير أننا نجد صورة العالم مختلفةً عن ذلك تمام الاختلاف بالنسبة إلى النتائج الأخلاقية، فنرى شخصاً يعمل الصالحات ولا يجني ثمار صلاحه، ونشاهد آخر يظل يمارس الطغيان طيلة حياته دون أن يوصله طغيانه إلى الجزاء الذي يستحقه، فالسؤال هو : إن مشيئة الخالق التي نراها ساريةً فى عالم المخلوقات الأخرى، لماذا لا تظهر أو تسود المشيئة ذاتها فى العالم البشرى !؟

والجواب عليه هو : أن الله تعالى قد أجل تنفيذ عدله الكامل في حياة الإنسان إلى قيام العالم الآخر، فقد اتيحت الحياة الأولى للإنسان للعمل، وستُتاح الحياة الآخرة له ليلقى جزاء عمله، ولا ريب فى أن ظهور الحياة الثانية أمر ممكن تماماً كما أمكن ظهور الحياة الأولى !

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾

وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ: صير القمر ذا منازل يسير فيها .

إن الشمس تبعد عن أرضنا بمسافةٍ ملائمةٍ ومنضبطةٍ للغاية، الأمر الذي جعلها مصدر نعمٍ حيوية لا غنى لنا عنها كالنور والحرارة، وإنه لو طرأ أدنى تغير على هذا الفاصل المقرر، لانقلب الوضع تماماً ؛ فأصبحت الشمس بعدئذٍ جحيماً لا يطاق، وصارت نذيراً للموت بدلاً من كونها وسيلة الحياة ..

وكذلك القمر يدور في فلكه المقرر طبقاً لنظامٍ رياضي متناهٍ في الدقة والضبط، مما يمكن القمر، رغم كونه غير مشعٍ أو مضيء في ذاته، من أن ينشر لنا نوراً بارداً، ويوفر لنا تقويماً طبيعياً لمعرفة عدد الشهور والأعوام، إن هذه الآيات الفلكية تثبت أن الكون ينطوي على هدفٍ عميقٍ، وبالتالي فلن يكون مصير الكون عبثاً محضاً أي بدون هدف ولا معنىً!

ثم إن مجيء النهار بعد الليل يشير في لغة التمثيل المادي، إلى الحقيقة الأخلاقية القائلة بأنه لابد - تبعاً للسنة الجارية في عالمنا الراهن - من أن يسود النور بعد الظلام، وأن يحلّ هنا نظام تأدية الحقوق محل انتهاك الحقوق ، وأن يملأ العدل الإلهي ربوع العالم بعد أن ملأه الإنسان ظلماً وعدواناً، وأنه من المقرر أن يأتي هنا يوم تنكس فيه راية الباطل إلى الأبد، وتتجاوب أرجاء الكون كله بأصداء الاعتراف بالحق..

إن الله يتجلى فى العالم الراهن فى صورة الدليل، وليس فى صورة المشاهدة الحسية، إذًا فلا سبيل إلى أن نظفر بالله فى أى مظهرٍ آخر غير الذي اختاره الله ليتجلى فيه .

وقد فتح الله في هذا العالم طرق الهداية، غير أن هذه الهداية لا يصل إليها إلا الذين يتبعون معالمها وفق التدبير الإلهي، وإنما يوفق للسير على الطريق المستقيم هنا أولئك الذين يكفيهم فهماً لأمر الحق واقتناعاً به أن يُعرض عليهم بلغة الدليل والبرهان، فالذين لا يخضعون أمام البرهان الصادق، كأنما هم لم يخضعوا أمام الله، وكأنما هم لم يؤمنوا بالله، وينبغي لأمثال هؤلاء ألا ينتظروا لأنفسهم شيئاً سوى النار !

ومع أن هناك آيات لا حصر لها منبثة في السماوات والأرض، إلا أنها لا تكون مادة

درس وعبرة إلا للذين تمتلئ صدورهم خوفاً، إن الخوف من شأنه أن يجعل المرء جاداً، وإن المرء لا يكاد يركز اهتمامه كله على شيء ما، ولا يفهم مختلف جوانبه وأبعاده ما لم يكن جاداً تمام الجدية بصدده .

إن كوننا هذا كله مربوط بتوازن إبداعي عظيم، وهذا إشارة ناطقة بأن مالك الكون إله يقدر على أن يبطش بالإنسان متى شاء، وهكذا فإن حياتنا الأولى - هذه التي نحن نجربها الآن - هي دليل قاطع على أن الحياة الثانية هي الأخرى ممكنة كذلك، إن بروز النتائج المادية في العالم الراهن، وعدم بروز النتائج الأخلاقية، يقتضي وجود عالم تظهر فيه النتائج الأخلاقية بأوضح وأكمل صورها، كل هذه أمور محكمة للغاية،غير أن كونها محكمةً لن يدركه إلا الشخص الذي ينظر إلى قضية الحياة نظرة ملؤها الحذر والخوف !

لمن أُعدت نار الجحيم ؟

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا: لا يتوقعون لإنكارهم البعث .

دَعْوَاهُمْ: دعاؤهم .

إنها لأولئك الذين نسوا اليوم الذي يلقون فيه ربهم، والذين رضوا بأشياء الدنيا الزائلة فآثروها على نعيم الآخرة الأبدي، والذين صاروا مطمئنين تمام الاطمئنان إلى ما أتيح لهم في هذه الدنيا من أجل الامتحان والاختبار، وتعلقت قلوبهم بالأشياء غير

الإلهية إلى حدٍ باتوا معه غافلين عن الحقائق الإلهية المتجلية في صفحة الكون، كل هذه طرق مؤدية إلى الجحيم، ومن المستحيل أن يصل السائرون فيها إلى أي مكانٍ آخر غير الجحيم!

وقوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾ يوضح أن الإيمان هداية وإرشاد للمرء، فهو ينقذ المرء من التخبط فى الطرق الخاطئة المعوجة، ولا يزال يسير به على الجادة المستقيمة، حتى يوصله إلى هدفه المنشود .

الإيمان هو اكتشاف الله، والذي يظفر بالإيمان يدرك رأس العلم وزمامه، وبالتالي يصبح قادراً على أن يبدأ تفكيره فى كل أمرٍ من المنطلق الصحيح، مما يصونه من الضلال والانحراف الفكرى، ويحافظ على سلامة تفكيره وسداد رأيه .

وبالإضافة إلى ذلك فليس التسليم بالله هو التسليم بأية فلسفة نظرية جامدة، بل هو إقرار بإلهٍ حي، والبشر كلهم سيحضرون آخر الأمر بين يديه للحساب، وهكذا يحوّل الإيمان صاحبه، بما يبعث في قلبه من مشاعر الخوف والحذر نحو مصيره النهائى الغامض، يحوله إلى إنسانٍ غاية فى الجدية، بحيث إنه يجد نفسه مضطراً إلى أن ينظر في أعماله وتصرفاته كلها في ضوء الصواب والخطأ، وأن يأخذ نفسه بالسير في الاتجاه الصحيح فقط، ولا يميل أبداً إلى الاتجاه الخاطئ .

وهكذا يمنح الإيمان صاحبه فكراً صائباً سديداً من ناحية، كما يزوده، من ناحية أخرى، بقدرة التمييز بين الخير والشر، تلك التى ترافقه مدى الحياة كمرشدٍ عمليٍ يقظٍ .

وإنما يدخل الجنة في الآخرة أولئك الذين أثبتوا جدارتهم وأهليتهم لها في الحياة الدنيا، إن الجنة مكان للارتواء من تجليات الله المباشرة، فلن تتاح فرصة السكنى فيها إلا للأرواح التى كانت قد ارتوت من تجليات الله غير المباشرة في الدنيا، وستكون قلوب أهل الجنة ملأى بمشاعر السلام والنصح نحو كل إخوانهم؛ لذا فلن يجد هناك

مكاناً بين سكانها إلا الذين أقاموا الدليل فى الدنيا على أن قلوبهم لم تنطوِ على شىءٍ سوى عواطف السلام والنصح للآخرين !

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ: لأهلكوا وأبيدوا .

فِي طُغْيَانِهِمْ: في تجاوزهم الحد في الكفر .

يَعْمَهُونَ: يعمون عن الرشد أو يتحيرون .

الضُّرُّ: الجهد والبلاء والشدة .

دَعَانَا لِجَنْبِهِ: استغاث بنا لكشفه ملقى لجنبه .

مَرَّ: استمر على كفره ولم يتعظ .

إن سنة الله هى أن شخصاً ما إذا أتى عملاً صالحاً يستوجب الأجر، تم تسجيله على الفور في صحيفة أعماله، وأما إذا ارتكب شخص عملاً سيئاً يستلزم العقوبة فإن الله يمهله لكي يعود إلى رشده عاجلاً أو آجلاً، فيقوم بإصلاح نفسه وعمله، إن سنة الله هذه لرحلة عظيمة جداً، وإلا فالإنسان ظلوم لدرجة أنه لا يزال مستعداً كل الوقت لفعل السوء وإتيان المنكر، ولو أن الله بدأ يؤاخذ الناس على سيئاتهم مؤاخذةً فوريةً لسرعان ما انتهت آجالهم، ولأقفرت الأرض من بشرٍ يمشون على ظهرها !!

وإنما يتجه إلى الطغيان والتفرعن فى الحياة الدنيا، أولئك الذين يعيشون فيها ظانين أنهم لن يمثلوا أبداً بين يدي الله بعد الموت، والذين يمارسون حياتهم دونما خوفٍ من

البطش أو المؤاخذة على تصرفاتهم، ويحسبون أنهم أحرار غير مسئولين عن أى دجلٍ أو تزوير يلجؤون إليه توسلاً إلى مآربهم الخسيسة، ولا عن أي فسادٍ ينشرونه فى الأرض تحقيقاً لأغراضهم الدنيئة، والحقيقة هى أنه ليس هناك ما يبعث الناس على التعامل بالحق والعدل فيما بينهم، سوى باعثٍ واحدٍ، هو اعتقاد المرء بأن فوق كل ذي قوةٍ قوياً، والكل بإزائه ضعيف غاية الضعف وأنه سيبطش يوماً بجميع البشر، وسيكون الكل مضطراً إلى التسليم بحكمه فيه بدون اعتراضٍ، سواء كان له أو عليه .

إن الإنسان فى أثناء حياته في هذه الدنيا، يتعرض بين الفينة والأخرى، لنكبةٍ من النكبات أو لكارثةٍ من الكوارث، حيث يبدأ يشعر بأنه عاجز كل العجز أمام القوى الخارجية ؛ لا يملك إزاءها شيئاً يقاومها به إياها، وفي تلك اللحظة لا يلبث المرء أن يأخذ في التضرع والابتهال إلى الله، ويعترف بغاية ضعفه وعجزه أمام قدرة الخالق، غير أن هذه الحالة لا تدوم إلا ما دام المرء في قبضة المصائب، فعندما يتخلص منها يعود ثانية غافلاً وطاغياً، تماماً كما كان قبلئذٍ، والله - عز وجل - لا يسلم ولا يعتبر بما يظهر أمثال هؤلاء من العبودية له، فإن العبودية المطلوبة هي التي يتم إظهارها فى الظروف الحرة، وأما العبودية التى تظهر تحت ضغط الظروف القاهرة، فلا قيمة لها عند الله سبحانه وتعالى.

إن الإنسان كائن ميال بطبعه إلى التبرير ؛ فهو يبحث دوماً عن مبررٍ لكل عملٍ يصدر عنه، ولو أن المرء أحب لنفسه موقف الطغيان، لانصرف إليه عقله كذلك، وستكون أنشطته العملية كلها منطبعةً بطابع الطغيان، إلا أن عقله سيعمل بدوره على تزويده بألفاظٍ جميلةٍ تبرر طغيانه، وهذا هو ما سُمى بـ ((تزيين الأعمال))، إذ يطمئن المرء نفسه بأنه على الحق، من خلال وصف أخطائه بكلماتٍ براقةٍ وعباراتٍ منمقةٍ، غير أن مثله كمثل شخصٍ يضع على كفه شعلةً من النار، ويظن أنها لا تحرق، لكونه قد أطلق عليها لقب ((الوردة الحمراء))!!

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

القُرُونَ: الأمم كقوم نوح وعاد وثمود.

ظَلَمُوا: بالكفر وتكذيب الرسل .

جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ: استخلفناكم بعد إهلاك أولئك .

الداعي إلى الله يقوم دوماً على أساسٍ من الدلائل والبراهين، وعلى المستوى ذاته يتعين على الناس أن يعرفوه.. أما لو أراد الناس أن يجدوا الداعي إلى الله في خضم الأمجاد الظاهرية، والاستقبالات الشعبية الحاشدة، فإنهم لن يجدوه أبداً ؛ لأن داعي الله لا يوجد هناك البتةَ.. ومع أن النبي يأتي بالمعجزات والخوارق، إلا أن المعجزة إنما تظهر في المرحلة النهائية، وعند إقامة الحجة، بينما يقوم نشاطه في المرحلة الدعوية كلها على أساس الدلائل والبراهين وحدها.

إن كون طائفةٍ ما ظالمةً هو : ألا تعرف الدعوة الإلهية القائمة على الدليل، وبالتالي تقابلها بالرفض والإنكار لعدم كونها طبقاً لمستواها المزعوم، وبسبب موقفهم هذا يتعرض أمثال هؤلاء لضربة القانون الإلهى .

وقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ إن الخليفة - في أصل اللغة- هو الذي يجيء مكان غيره بعد ذهابه، وقد يطلق هذا اللفظ على مَنْ يقوم مقام غيره أو ينوب عنه، وبخاصةٍ، فى تولى الحكم والسلطة، وهذه النيابة تكون عن الإنسان، وليس عن الله عز وجل؛ إذْ لا يتصور أن يكون الإنسان نائباً عن الله في أمر السلطة والملك، وإنما ينوب الإنسان دوماً عن أحد المخلوقات، وكل استخدامات القرآن الكريم لكلمة ((الخلافة)) إنما وردت بمعنى النيابة عن المخلوق وليس بمعنى

النيابة عن الله .

كما يُلاحظ أن جَعْل أحدٍ خليفةً لغيره لا يكون لأجل التكريم، بل يكون للامتحان والاختبار، فالاستخلاف يعني أن تُتاح فرصة العمل للواحد بعد الآخر، وأن توضع أمة تلو أخرى موضع الامتحان والاختبار، كما أديل - مثلاً - في الهند للمغول من الأقبال أو الراجوات الهنود، ثم انتزعت الدولة منهم وحُولت إلى الإنجليز، وما لبث الأخيرون بعدئذٍ حتى تم جلاؤهم أيضاً عن البلاد، وخُلي المكان بالتالي للطائفة ذات الأغلبية الساحقة، فقد كان كل لاحقٍ من هؤلاء خليفةً لسابقه .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ: لا أعلمكم الله به بواسطتي .

يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ: لا يفوزون بمطلوب.

لقد كان أهل مكة يزعمون أنهم يؤمنون بالله والرسول، حيث كانوا يدّعون أنهم متبعو الملة الإبراهيمية، حتى إن كثيراً من مصطلحات الإسلام الدينية مثل : الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج .. إلخ، كانت مستعملةً رائجةً لديهم منذ قديم الزمان، فما الذي دفعهم إذًا إلى مطالبة رسول الإسلام - عليه الصلاة والسلام - بأن يأتي بقرآن غير هذا القرآن، أو يتناوله بشيءٍ من التبديل أو التعديل، وأنه إذا استجاب لطلبهم آمنوا بدعوته ؟!. السبب في ذلك يكمن في أن القرآن جاء يُعلن عن دين الله النقي

الخالص من كل الشوائب، بينما كانت قريش قد اصطنعت ديناً مغشوشاً مزوراً باسم الدين الإلهي.

إن دعوة القرآن إلى التوحيد كانت تمثل ضربةً قاضيةً على عقيدتهم الوثنية عن الله، كما أن عباداتهم كانت تبدو مجرد لهوٍ ولعبٍ بالقياس إلى تصور العبادة الذي قدمه القرآن الكريم، وإنهم كانوا قد جعلوا من النبي رمزاً لفخارهم القومي، بينما كان القرآن يدعوهم إلى الإيمان بنبيٍ يتولى زمام القيادة والتوجيه في حياتهم العملية، وقد كانوا يعدون خدمة الكعبة وسدانتها أكبر دليلٍ على تدينهم، بينما أكد القرآن على أن التدين هو أن يخشى المرء من الله، وأن يضع الآخرة نصب عينيه في كل ما يأتي وما يدع في الحياة الدنيا.

وكثيراً ما يعرض المرء عن الحق أو ينكره معتمداً على بضع كلماتٍ يتفوه بها معتقداً أنها كافية لإبطال الحق أو تبرير موقفه منه على أقل تقدير، وإنما هو يجترئ على ذلك؛ لأن قلبه يخلو من الخوف أو الإشفاق، ولو أن قلب المرء امتلأ خوفاً وإشفاقاً من أنه محاسب ومسئول عند الله، عن كل قولٍ وفعلٍ يصدر عنه في هذه الحياة، لأصبح من فوره جاداً إلى أقصى حدود الجدية، وإن الشخص الجاد لينظر إلى الأمر من وجهة النظر الواقعية، ويستحيل عليه أن يقابله بالإهمال أو يقف منه موقف العابث المتفرج!

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

سُبْحَانَهُ: تنزيها له تعالى.

ليس هناك من أحدٍ في هذا العالم، غير الله يقدر على إيصال نفعٍ أو دفع ضررٍ ما،

وإن مَنْ يدرك هذه الحقيقة ينصرف اهتمامه كله نحو الله تعالى، فهو لا يعبد إلا الله، ولا يخاف إلا إياه، ولا يعلق آماله إلا عليه، ويصير الله الواحد هو كل شيءٍ عنده .

وعلى العكس من ذلك فإن الذين تعلقت قلوبهم بالأشياء، وانحبست نفوسهم فى إطارها الضيق المحدود، لا يلبثون أن يتخذوا من أحدٍ غير الله إلهاً لهم، ويعلقون على هذه الآلهة الباطلة الآمال والمخاوف التى يجب ألا تُعلّق إلا على الله الواحد الأحد . ومَنْ صور هذا الضلال عقيدة الشفاعة، حيث يفترض أصحابها أن هناك ((ذواتاً عليا)) - من البشر أو من غير البشر - هي عند الله مقدسة ومسموعة الكلمة، وأن الله يقضى بناءً على شفاعتها ونزولاً عند رغبتها، بسعة الرزق الدنيوي أو الخلاص الأخروي، غير أن عقيدةً من هذا النوع باطلة كل البطلان، إنها استخفاف بألوهية الله، وتقدير بخس لعظمة شأنه وعلو قدره - عز وجل.

إن الله متنزه عن الشرك على اختلاف ألوانه. إن كل العقائد من هذا النوع غير منسجمة إطلاقاً مع صفات الله، التي يعرفنا بها في كونه العظيم المترامي الأطراف، ومعنى عقيدة كهذه أن الله ليس هو المبدع الخلاق الذي يبدو لنا متجلياً في مرآة صفاته الإبداعية، أو أن صفات الله تنطوى على تناقضاتٍ، وواضح أن كلا هذين الأمرين مستحيل، لقد أنشأ الله البشرية على دين الفطرة، فلم يكن وقتئذٍ لأبناء البشر قاطبةً إلا دين واحد، ثم نشب اختلاف بين الناس، انتهى بهم إلى جعل الدين صوراً وأشكالاً شتى، وإنما يرجع السبب في ذلك إلى إساءة استخدام الحرية التي مُنحت للناس لأجل الامتحان، ولو أن الله ظهر للعيان بقوته وجبروته، لانعدم عناد الناس وتلاشى طغيانهم فجأةً، وحل الاتحاد بينهم محل الاختلاف والانقسام .

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ: نائبة أصابتهم (الجوع والقحط) .

لُهم مَّكْرٌ: دفع وطعن واستهزاء .

الله أَسْرَعُ مَكْراً: أعجل جزاء وعقوبة .

لما أصر أهل مكة على الجحود والإنكار، ولم يزدادوا مع مضى الزمان، إلا توغلاً في العناد والمكابرة، سلط الله عليهم قحطاً استمر سبع سنوات، وانتهى - آخر الأمر - بدعاء رسول الله ﷺ.. إنها كانت آية كان لهم أن يستمدوا منها الدرس القائل بأن إنكار النبي سيعرضهم لضربة البطش الإلهي، غير أنهم خرجوا من المحنة كما دخلوا فيها، فعندما يكون القحط مسلطاً عليهم يبتهلون ويتضرعون إلى الله، وحين يذهب عنهم يقولون: إنما هي صروف الدهر وتقلبات الأيام يتعرض لها كل الأحياء على وجه البسيطة، ولا علاقة لها البتة بالإيمان بالنبي أو عدم الإيمان به !!

الناس يطلبون من النبي الآية، ولكن المسألة لا تكمن أصلاً في ظهور الآية، بل في استلهام الدرس والعبرة منها، فإن الآية إنما تكون للمشاهدة، دون الإلزام أو الإجبار على الإيمان، ومن ثم فلا يزال هذا الخيار، حتى بعد ظهور الآية، بيد المرء نفسه، سواء كان يؤمن بها أم يرفضها، باللجوء إلى أي تفسير باطل لها !!

على أن آية الله الأخيرة - الحاسمة - إذا ظهرت، فلا يملك الإنسان إزاءها أي خيارٍ، إذْ تأتي هذه الآية الأخيرة، على أثر قيام الحجة القاطعة، محققةً للعدل الإلهي، وهي تأخذ صوراً مختلفةً من نبي إلى آخر، فقد تمثلت هذه الآية الإلهية بالنسبة لنبي آخر الزمان في صورة غلبة المؤمنين وانتصارهم الكامل على الكفار والمشركين، وفي هذا الصدد كتب الشيخ شاه عبد القادر الدهلوى (*) فى ((موضح القرآن)) يقول : ((يعنى لو سألوا : كيف لنا أن نعرف أن ما تقوله حقا ، فقال رداً عليهم : إن الله تعالى سيكتب لهذا

(*) الشاه عبد القادر الدهلوى (١٧٥٣ - ١٨١٣) هو الابن الثاني للشاه ولي الله الدهلوي صاحب كتاب ((حجة الله البالغة)) ، كان أول من نقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الأردوية (المترجم) .

الدين في القادم الغلبة والازدهار، ولمعارضيه الذلة والدمار، ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ، وقد حدث ذلك بالفعل، وظهور الآية المؤيدة للحق مرةً واحدةً فيه غنىً وكفاية ؛ إذْ لو نزلت الهزيمة والذلة والهوان في كل مرةٍ بالمعارضين وحدهم، لانحسم الأمر وتحقق القضاء، في حين أن الدنيا ليست موضع الحسم أو القضاء النهائى)) .

إن المرء حين يعاند ويتعنت، ثم يجد أنه لا يصيبه، بسبب ذلك أذىً أو خسارة ما، فلا يلبث أن يصبح أكثر عناداً وأشد تعنتاً، حيث إنه يظن أنه أبعد متناولاً عن بطش الله، على حين أن هذا يتم حسب تدبير الله، فإن الله تعالى يُمهل المعاند الطاغي ليعاند ويطغى ما وسعه العناد والطغيان، غير مبالٍ ولا مكترثٍ بالعواقب، وفي أثناء ذلك لا يزال حفظة الله يسجلون كل أعماله وأقواله في صمتٍ وخفاءٍ، حتى إذا انقضى أجله، فاجأه ملك الموت، فيبطش به ليحضره أمام الله رب العالمين للحساب عن أعماله كلها !

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

رِيحٌ عَاصِفٌ: شديدة الهبوب.

أُحِيطَ بِهِمْ: أحدق بهم الهلاك.

يَبْغُونَ: يفسدون .

الإنسان وجود مرهف الحس للغاية ؛ لا يطيق تحمل الألم أو الصبر عليه، وهذا هو السبب فى أن الإنسان ما إن تعتريه ساعة ألمٍ ما، حتى يصبح جاداً على نحوٍ تلقائيٍ، وترتفع حينئذٍ كل الحجب المصطنعة عن ذهنه، ففى لحظات الهم لا يلبث الإنسان أن يعترف بالحقيقة التى لم يكن يستعد للاعتراف بها فى لحظات فراغ البال .

ومن أمثلة ذلك السفر البحري، فإذا كان البحر هادئاً ساكناً والسفينة تجرى بركابها جرياً سريعاً نحول المنزل، فإنها تكون بالنسبة إليهم لحظة طيبةً ورائعة جداً، وعندها تمتلئ نفوسهم بمشاعر الغرور والثقة الكاذبة، حيث يظنون أن أمرهم مستقيم تمام الاستقامة، فلا أحد يستطيع الآن أن يفسده عليهم أو يحدث فيه خللاً ما !!

وإنهم لكذلك إذْ تهب الرياح البحرية، وتتدافع أمواج هائلة كالجبال تحيط بركاب السفينة من كل جانبٍ، مما يجعل حتى البواخر العملاقة تتمايل وتتأرجح على سطح الماء كأنها قشة تافهة، ويبدو ظاهراً أن ليس هناك من مصير سوى الهلاك غرقاً، وهنالك يعترف بالله من كان ينكر وجوده، ويأخذ عبدة الأوثان والتماثيل يدعون الله الواحد الأحد فى ضراعةٍ وخشوعٍ، ويعود المعتمدون على قوتهم وتدابيرهم الذاتية لا يذكرون الآن شيئاً سوى الله وحده ، وإن هذا لدليل تجريبى على أن التوحيد عقيدة فطرية، وأن كل العقائد، ما عدا التوحيد باطلة الأساس.

وهذه التجربة تدلنا على أن المرء مهما تفلسف وتعقلن في محاولة الهروب من الإيمان بالله ، فإن كل الأقاويل من هذا القبيل ليست في حقيقتها سوى ترفٍ ذهني أو تنظيرٍ خيالي فارغٍ مصدره اللا مبالاة، وانعدام الهم ليس غير، ولو أن الإنسان علم أن ما أتيح له من فرصٍ ومواقع في هذه الدنيا، إنما أتيح لأجل الامتحان، وبصفةٍ مؤقتة للغاية، لأصبح من فوره جاداً تمام الجدية، ولتهدمت كل الحواجز الاصطناعية المحيطة بذهنه ولم يجد بداً ولا مناصاً من الإيمان بالله الواحد الأحد .

وإن وقتاً سيحين ، فيه يهتز كيان الإنسان كله وترتعد فرائصه لرؤية جلال الله

وجبروته، وإذ يجد نفسه مضطراً إلى الإقرار بكل الأمور الإلهية، ولكن العاقل هو الذى يرى حقائق الحياة القادمة فى تجارب الحياة الراهنة ، والذي يبادر اليوم إلى الاعتراف بالأمر الذى سيضطر الكل إلى الاعتراف به غداً، غير أن اعتراف الغد لن يغنى عنه شيئاً !

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا: حالها في سرعة تقاضيها وزوالها.

زُخْرُفَهَا: نضارتها وبهجتها ـ بألوان النبات .

أَمْرُنَا: ما يجتاحها من الآفات والعاهات.

حَصِيداً: كالنبات المحصود بالمناجل .

لَّمْ تَغْنَ: لم تمكث زروعها ولم تقم .

الحياة الدنيا فترة امتحان؛ ولذا فقد مُنح الإنسان هنا الحرية الكاملة، وأتيحت له كل أنواع الفرص والإمكانات، ويبدو ظاهراً أن الإنسان حر طليق يفعل ما يشاء، وبني مستقبله على نمط صادف هواه ، على أن هذه الأحوال تتخللها أحداث ووقائع تنطوي على دروسٍ وعبرٍ غالية لقومٍ يتفكرون، وهي تشير إلى الحقيقة القائلة بأن هذا كله لا يعدو أن يكون مجرد متاعٍ عارضٍ مؤقتٍ، وسرعان ما سينتزع من أصحابه !!

ومن ذلك مثلاً واقع اخضرار الأرض ونضارتها، فإذا أنزل المطر، اكتست الأرض بألوانٍ شتى من النباتات، ومنظرها يملأ أفئدة أصحابها نشوةً وسروراً، يجعلهم يظنون

أن الأمر كله فى مُكنتهم وتحت تصرفهم، وأنهم لسرعان ما سيصبحون ملاّكاً لزروعٍ جاهزةٍ، ولكن هذا الحلم لا يكاد يتحقق حتى تفاجئهم كارثة من الكوارث ؛ كهبوب إعصارٍ، أو سقوط البرد، أو غزو الجراد ؛ مما يقضى على مزروعاتهم كلها فى لمح البصر!!

وهذا هو شأن الحياة الإنسانية كذلك، فالمرء يولد مع جسدٍ متكامل الأعضاء، جميل المنظر، مزودٍ بمختلف القوى والاستعدادات، وتواتيه أسباب الدنيا فينجح في أن يبني لنفسه حياةً سعيدةً ورائعةً؛ مما يُشعره بنوعٍ من الثقة والاعتماد على ذاته، حيث يخيل إليه أنه هو صاحب الاختيار المطلق في أمر نفسه، يتصرف فيه كما يشاء، وبينما هو كذلك إذْ تفاجئه منيته في ذات ضحىً أو ليلةٍ، وإذا بالذي كان يعد نفسه صاحب الاختيار، ينتهي أمره إلى حيث لا يتوفر لديه شيء سوى العجز والاضطرار . ولو أن المرء وضع هذه الحقيقة نصب عينيه، لما اتجه في الدنيا أبداً إلى البغى والطغيان، ولما عامل أحداً معاملة الظلم والعدوان أبداً!

﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٖ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

الْحُسْنَى: المنزلة الحسنى (الجنة) .

وَزِيَادَةٌ: النظر إلى وجه الله الكريم فيها .

وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ: لا يغشى وجوهم ولا يعلوها .

قَتَرٌ: غبار ما فيه سواد .

ذِلَّةٌ: أثر هوان ما .

عَاصِمٍ: مانع يمنع سخطه وعذابه .

أُغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ: كسيت وألبست .

ينخدع المرء بظواهر أحوال الدنيا ؛ فيعتبر المتاع الوقتي متاعاً دائماً، ويخيل إليه أنه يتمكن من الحصول على الحياة المليئة بالمسرة والراحة، التي تطمح إليها نفسه، في هذه الدنيا، على حين أن دنيا الآمال البشرية إنما تتكون حقيقةً في الآخرة، ولن يصل إليها إلا مَنْ حاول الوصول إليها وفق المنهج الذي قرره الله تعالى .

ولو افترضنا - جدلاً - أن المرء يستطيع الحصول على كل شيءٍ في هذه الدنيا، فإنه ليس بقادرٍ على أن يطهر حياته من مكدرات الحزن والألم، فما من سرورٍ هنا إلا يصحبه خوفٍ ما، إن الحياة الخالية من الحزن والخوف والألم لهي حياة فذة لن يتمتع بها المرء إلا في بيئة الجنة وحدها، والذين يعون هذا السر، هم الذين سيختارون طريق الجنة، وسيصلون آخر الأمر إلى جنان الله الأبدية .

إن حياة الرفاهية والمسرة التي يتمناها الإنسان، ستتاح لعباد الله الأوفياء في الجنة بصفةٍ دائمةٍ، على أن هناك درجةً أخرى من الرفاهية والمسرة، هي أعلى وأرفع جداً من أنواعها المألوفة ؛ ألا وهي رؤية مالك الكون التي سيفوز بها أهل الجنة بوجهٍ خاصٍ، فالله الذي هو خالق اللذات والرفاهيات، هو - من غير شك - الكنز الأكبر لسائر ألوان اللذة والرفاهية، وقد جاء في الحديث أنه : «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون : وما هو، ألم يثقل موازيننا؟ ألم يُبيض وجوهنا؟، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فو الله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم»[1].

وإنه ليس ثمة من حالة أشد ولا أقسى على المرء من أن يعتريه عجز وهوان لا

(١) أخرجه أحمد ، ومسلم وجماعة من الأئمة .

ينقضي إلى الأبد، ومن أن يجد نفسه وقد كُتب عليه فشل لا يمكن تحويله إلى النجاح ثانيةً، وفي الآخرة سيواجه هذه الحالة نفسها ، أولئك الذين سيحكم عليهم بالخلود في نار جهنم، حيث يطرأ على وجوههم - لفرط اليأس والقنوط - سواد حالك يبدو معه وكأنهم غارقون في ظلماتٍ كثيفة متراكمةٍ بعضها فوق بعضٍ، ومع أن المرء لن يجازى على سيئته إلا بقدرها سواءً بسواءٍ، إلا أن الشعور بالحرمان الأبدي سيكون قاسياً ثقيل الوطأة عليه لدرجة أن وجهه سيعود بسبب ذلك أسود قاتماً !

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

مَكَانَكُمْ: ألزموا مكانكم .

فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ: فرقنا بينهم وقطعنا صلتهم .

تَبْلُو: تخبر أو تعلم أو تعاين .

إن قوام الشرك وعماد أمره كله هو الآمال الزائفة، فالوقائع التي تحدث بفعل قدرة الله سبحانه وتعالى، يعزوها المشرك إلى الآلهة الباطلة، وهكذا يجعل منها - بناءً على تصوره الوهمي المزعوم - مركزاً لعقيدته وعبادته، ويزداد اعتماده على آلهته تلك لدرجة أنه يظنها ستقف إلى جانبه بإزاء الله تعالى في الآخرة، وبالتالي ستحميه من البطش الإلهى !!

وما هذه كلها سوى آمالٍ زائفةٍ، غير أن زيفها لا يظهر للعيان في الحياة الدنيا، وإن الحقائق كلها ستنكشف في الآخرة، وسيعلم الجميع هناك أنه لم يكن يملك أحد فى هذا الكون شيئاً من القوة سوى الله الواحد الأحد!

يعيش المرء فى العالم الراهن وتراوده هذه الأمنية الحالمة بأنه لسوف يجتاز مرحلة الآخرة بنجاحٍ بمعونة أكابره أو نصرة آلهته المزعومة، ولكن سيفاجأ فى الآخرة بإدراك أن اعتماده كان باطلاً محضاً، حيث لن يجد أحد في الآخرة إلا ما كان قد عمل هو بنفسه، وستنعدم وتتلاشى كل الدعامات الخيالية المفترضة كما لو لم يكن لها من وجودٍ البتة !

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

رَبُّكُمُ الحَقُّ: الثابتة ربوبيته بالبرهان ثبوتا لا ريب فيه .

فَأَنَّى تُصْرَفُونَ: فكيف تستجيزون العدول عن الحق إلى الكفر والضلال .

حَقَّتْ: ثبتت ووجب .

لابد للإنسان من الرزق، فكيف يتأتى له هذا الرزق ؟ الجواب هو : عن طريق عمل الكون الكلي المتكامل، فالكون بأكمله يعمل بكافة موجوداته في اتجاهٍ خاصٍ ، وعلى أقصى درجةٍ من التوافق والانسجام، حتى يمكن أن يتوافر للإنسان ذلك الرزق الذي يستحيل بدونه وجوده على وجه الأرض، ولا يقدر شركاء الألوهية الفرضيون، أو المعبودات الباطلة، تبعاً لعقيدة المشركين أنفسهم، لا يقدرون على توفير هذا الرزق للإنسان؛ لأن كل شريك فرضى إنما هو إله لجزءٍ من الأجزاء، ولن يتمكن إله الجزء أبداً من إحداث واقعةٍ تتطلب توافق الأجزاء كلها بعضها مع البعض الآخر !!

وهكذا - مثلاً - يتوفر لدى الإنسان قوىً مدهشة كالسمع والبصر .. إلخ، وهي الأخرى لا يمكن أن تكون من صنع أي معبودٍ باطلٍ، فهذه المعبودات إما محرومة من هذه القوى أصلاً، أو إذا كان هناك أى معبودٍ فرضى يتمتع بهذه القوى فإنه ليس

بخالقها، حتى إن هذه القوى لتنتزع منه تماماً كما تُنتزع من عامة الناس!!

وكذلك بث الحياة في الأشياء الميتة، ونزع الحياة من الأحياء، هو الآخر أمر مستحيل على المعبودات الفرضية، فليس هناك من دليل أو برهان على ذلك، ولا يعتقد فيها أحد عابديها اعتقاداً من هذا النوع، فكيف يمكن إذن أن يتلقى الإنسان هذه الأشياء من تلك الآلهة والمعبودات الباطلة؟! ومن البديهيات أن فاقد الشيء لا يعطيه .

وإن تعجب فعجب أن يعترف الإنسان بوجود إلهٍ عظيم، ثم هو ينسب إليه أموراً تتضمن النفي لكل صفاته العليا، والسبب في ذلك هو أنه لا يخاف الله، وأنه قد أقنع نفسه استناداً إلى الآراء والأفكار الكاذبة، بأن الله غير محاسبٍ إياه .

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ: فكيف تصرفون عن طرق الرشد .

لا يَهِدِّي: لا يهتدى بنفسه .

كل من يتم رفعه إلى درجة الألوهية،سواء كان بشراً أو من غير البشر،لا يقدر على إيجاد شيء ما من العدم،وإنما هو الله تعالى وحده الذي قامت الأدلة والبراهين على كونه خالق الخلق كله،وإذا ثبت عمل الحق لله مرةً واحدةً،فيقوم الدليل بذلك أيضًا على أنه يستطيع إعادته متى شاء،وسيعيده حتماً،وإذا كان الخلق الأول والخلق الثانى كلاهما لا يقدر عليه إلا الله تعالى وحده، فمن العبث المحض أن يتوجه المرء إلى الشركاء الآخرين سواه، إذْ إنه لا ولن يظفر منهم بشيء فى حياته الأولى ولا في حياته الأخرى القادمة .

وهذا هو شأن الهداية والإرشاد كذلك، فقوله : ﴿ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ فإن الهداية التي جاء بها الأنبياء إلى البشر هي هداية مسلّم بها، وعلى نقيضٍ من ذلك فإن الشركاء إما هم غير قادرين إطلاقاً على أن يمنحوا الإنسان أي علم بشأن الحق والباطل، كالأصنام مثلاً، وإما هم محتاجون بأنفسهم إلى الهداية بسبب نقائصهم ومحدوديتهم، ناهيك أن يزودوا الآخرين بأية هداية واقعيةٍ، كالمعبود البشري مثلاً، ففي مثل هذا الوضع ينبغي للإنسان أن يرجع إلى الله الواحد فقط، دون الشركاء الفرضيين !

إن بناء الشرك لا يعتمد على أي علمٍ حقيقي، بل هو قائم على أساس الفروض والأقيسة، حيث يُعتقد عن ذوات معينةٍ، من غير دليلٍ أو برهانٍ، أنها تتمتع بالصفات الإلهية، على حين أن اعتقاداً عظيماً كهذا يجب أن يقام على أساسٍ من العلم الحقيقي، وليس على أساس الظنون والتخرصات والقياسات!

﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ: يتبين لهم عاقبته ومآل وعيده .

القرآن هو بنفسه دليل على نفسه، فقد جاء القرآن بأسلوب فذٍ ليس في مقدور البشر أن يتناولوه بالتقليد أو المحاكاة على أي وجهٍ من الوجوه، وهذه الواقعة ذاتها تكفي لإثبات أن القرآن كلام غير بشري؛ إذْ لو أنه كان من صنع بشرٍ ما، لكان بمستطاع الآخرين كذلك أن يصوغوا بجهودهم كلاماً مماثلاً لذلك تماماً .

والدليل الثاني على كون القرآن كلاماً إلهياً هو : أنه مصداق للتنبؤات التي توجد

بشأنه في الصحف السماوية القديمة، حيث إن الأمم الأمينة على التعاليم السماوية، كانت منذ قديم الزمان تنتظر كتاب هداية أخير، وقد جاء القرآن كجوابٍ على هذا الترقب والانتظار الطويل، فما الذي يدعو إلى الشك فى صدقه إذن ؟! وبالإضافة إلى ذلك فإنه تفصيل ((الكتاب))، يعني أنه يقدم تلك التعاليم الإلهية التي تمثل خلاصة الكتب السماوية كلها، يقدمها في صورتها الصحيحة والخالصة، وتلك قرينة واضحة على أن القرآن قد نزل من عند الله نفسه الذي كان قد أنزل سائر الكتب السماوية السابقة .

وحين يقول شخص ما: إن القرآن تأليف بشري. فإنه يأتي بدعواه إلى ميدان يكون فحصها فيه من اليسر والسهولة بمكان ؛ لأنه يستطيع أن يحاول إعداد كتابٍ أو سورةٍ -على أقل تقدير - مثل القرآن باستخدام قدراته أو قدرات الآخرين سواه، حتى يدحض عملياً الادعاء القائل بأن القرآن كتاب خرج عن العقل الإلهي .. ولكن عدم تمكن أحد الناس من ذلك - رغم تحدي القرآن الصريح - يقيم الدليل القاطع على أن دعوى القائلين بأن القرآن كتاب بشري باطلة.

ودلائل صدق القرآن هذه ليست بحيث يتعذر على البشر فهمها، بل الواقع هو أنهم غير خائفين من عواقب تكذيب القرآن، فهم لا يحذرون من أن إنكارهم للقرآن سيعرضهم لأي عذاب أو عقاب شديد، إن سبب عنادهم ومكابرتهم يكمن في عدم الجدية الناشئة عن عدم خوفهم، وليس في أي نوعٍ من القناعة العقلية والاستدلالية !

﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

يَنظُرُ إِلَيْكَ: يعاين دلائل نبوتك الواضحة .

الذين لا يؤمنون هم عند الله مفسدون؛ إذْ لا يمكن أن يمتنع أحد عن قبول الحق إلا بعد أن يكون قد أفسد فطرته وشوهها، ومثل هذا الشخص يكبت صوت ضميره، ولا يستخدم عقله وقوة تفكيره، ويعرض عن الدلائل الواضحة استناداً إلى ألفاظٍ كاذبةٍ، وهو يستمع ولا يسمع، ويفهم ولا يحاول أن يعي، وهو بالتالي يؤثر مصالحه الذاتية ونوازعه العصبية على تلبية نداء الحق!!

المولعون بالجدل والمناظرة يأبون إلا أن يواصلوا جدالهم العقيم حتى الساعة الأخيرة، وهم لذلك يعتبرون النطق بجملة كهذه: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ بمثابة التسليم بهزيمتهم، إلا أن الداعي إلى الحق يعمل مترفعاً عن دواعي الانتصار والهزيمة، ومن ثم فإذا وجد مخاطبه وقد لجأ إلى العناد والتعنت والمكابرة، ولم يعد لاستمرار الحديث معه أي معنىً أو جدوى سوى إضاعة الوقت، بادر بإنهاء النقاش قائلاً بأن القضاء الحقيقي بيد الله، وأن الكل سيلقى عند الله تعالى مصيره تبعاً لوضعه الذي سيكشف عنه الميزان الإلهى !

ومن المنكرين للحق طائفة تعلن صراحة عن كونها منكرة منذ البداية ، غير أن هناك أقواماً أكثر دهاءً ؛ يتظاهرون بالإصغاء إلى القول كما لو أنهم يريدون حقاً أن يفهموه، بينما تضمر قلوبهم التصميم على عدم تفهمه على أية حالٍ ، كما أنهم ينظرون إلى الآيات الدالة على صدق الداعي كما لو أنهم يرغبون في مشاهدتها بأعين مفتوحةٍ وقلوب صافية، بينما تكون عقولهم قد قررت مسبقاً بعدم تناولها بالرؤية ولا بالاعتراف بها، وربما يحسن الداعي الظن بأمثال هؤلاء، فيأمل في هدايتهم، ولكنهم عند الله أناس أصبحوا صماً وعمياناً رغم تمتعهم بالآذان والأعين، ولا يكتب لأمثال هؤلاء التوفيق من الله للاهتداء إلى الحق أبداً .

لقد منح الإنسان قوىً وصلاحيات رائعةً جداً، ولو أنه استخدم هذه الصلاحيات

لما ضل طريق الحق والخير أبداً، غير أن الإنسان يقع في سوء فهمٍ ؛ إذْ يجد نفسه حراً طليقاً، فيأخذ في التمرد والطغيان بدون وجه حقٍ، وإنما هو يفعل ذلك لكونه لم يفهم منهج الله؛ فالشيء الذي أتيح له على وجه الاختبار والابتلاء، قد اعتبره حقاً ذاتياً له !

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

بِالْقِسْطِ: بالعدل في الدنيا أو يوم الجزاء .

ليست الآخرة اليوم ماثلةً أمام الإنسان، ويحتاج الرائي اليوم أن ينظر إليها بمنظار التصور ؛ولذا فإن الشخص الذي لا يكون جاداً بالنسبة إلى الآخرة، تبدو له وكأنها شيء بعيد، ولكن حين تدهم الآخرة الإنسان كحقيقة كبرى، ويأخذ ينظر إليها بكل خطورتها وأهوالها، فإنه سيذهل حينئذٍ عن عناده وطغيانه الحالي، وستراءى له لمحات الدنيا ضئيلة وتافهة جداً، تلك التي كان قد وقع من أجلها في الغفلة، ولم يكن يستعد حتى لمجرد التفكير في شأن الآخرة، والآخرة لن تقع في عالم غريبٍ مجهولٍ، بل ستقع في عالمٍ مألوفٍ ومعروفٍ لدينا تماماً، فسيجد المرء نفسه هناك في البيئة نفسها التي كان قد أنكر فيها الحق من ذي قبل، وسيرى فيما حوله أولئك الذين كان يمارس البغي والطغيان اعتماداً عليهم، غير أنهم لا يغنون عنه شيئاً، وسيتجدد حينئذٍ في ذهنه كل شيء كأنه حادث الآن ولم تمض عليه أية مدةٍ من الزمان !

إن قضية الداعي والمدعو هي أخطر القضايا القائمة تحت أديم السماء، ولو أن الداعي كان قد نهض بالحق في واقع الأمر، فإنه ممثل الله في هذه الدنيا، وبالتالي فالإقرار به هو الإقرار بالله، وإنكاره إنكار لله، وإن واقعةً كهذه لن تكون خاليةً من المصير أو

العاقبة ؛ ففي أعقاب ظهور الداعي إلى الحق يحدث بالضرورة أن يصير كل الناس مجردين عن أي دليل يقاومون به الكلام الرباني الذي يجري على لسانه، وهذا أول انتصارٍ يحرزه الحق على الباطل، والانتصار الثاني سيتم في الآخرة، حيث سيقف معارضوه بإذن الله تعالى، عاجزين مكتوفي الأيدي أمامه، إن الواقعة الأولى لابد وأن تحدث في هذه الدنيا ، وأما الواقعة الثانية فقد تحدث هي الأخرى في العالم الراهن بصفة جزئية، فيما إذا شاءت إرادة الله إحداثها فيه، وإنه لابد لكل طائفةٍ من أن تمر بمرحلةٍ تقف فيها بين يدي ممثل الله في العالم الراهن على نحوٍ مباشرٍ، قبل أن تقف بين يدي الله تعالى مباشرةً، وهكذا يرى الله - سبحانه وتعالى - مَنْ الذي يسلم نفسه إلى الله في وقتٍ مازال الله فيه وراء الغيب، ومَنْ الذي لا يفعل ذلك، وللصنف الأول الجنة، وللصنف الأخير نار جهنم !!

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

أَرَأَيْتُمْ: أخبروني عن عذاب الله .

بَيَاتاً: وقت بيات أي ليلا.

آلآنَ: آلآنَ تؤمنون بوقوع عذابه .

الإنسان يجد نفسه في العالم الراهن حراً ؛ فهو يرى ظاهراً أنه يفعل ما يشاء، ولا أحد هناك يبطش به أو يعاقبه على فعله، وهذا الوضع يوقعه في الغفلة، حتى إن داعية الله حين يحذره من عاقبة عمله الوخيمة، يستهزئ به ويسخر منه قائلاً : متى سينزل بنا هذا

العذاب الذي جئت تنذرنا به على طغياننا؟!

ومصدر مثل هذه الأقاويل ليس إلا الغباء وسخافة العقل ؛ لأن عذاب الله لن يأتي من قبل الداعي إلى الحق نفسه، بل من عند الله تعالى، والله - سبحانه وتعالى - ينبئنا كل حينٍ وآنٍ، من خلال الأحداث الجارية في كونه بأن منهجه ليس منهج التعجيل أو الإسراع .

لو كان هناك ثقب في جانب من جوانب سفينةٍ ما، وألقى بها أحد النواتي في البحر غير مكترثٍ بذلك الثقب، فإن سنة الله تقضي بأن تغرق مثل هذه السفينة في الماء لا محالة، إلا أن سفينة كهذه لا تغرق على الفور، بل هي تغرق في حينها تبعاً للسنة الإلهية .. إن أمثلة من هذا النوع كثيرة منتشرة في كل أرجاء الوجود، وهي تعرف الإنسان بالسنة الإلهية، ولكنه - بالرغم من مشاهدتها مرةً وأخرى - يقول : إن كانت هذه الأعمال التي نمارسها تستلزم عذاب الله، فماذا يؤخر ذلك العذاب عنا، ولم لا ينزل بنا على عجلٍ وفي أسرع ما يمكن من الزمان؟! وإنما يبعث الإنسان على هذا القول عدم جديته بشأن البطش الإلهى .

إن الزلازل والطوفانات وقائع إلهية، وهذه الوقائع تدل على أن الأمر حين يكون بين الله وبين الإنسان، فإن الخيار كله إنما يكون في يد الطرف الأول وحده، غير أن الإنسان لا يقف عندها وقفة تدبر واعتبار، وإنما هو ينظر فقط أن سنة الله لا تنشط أو تتحرك من فورها، وبما أنها لا تتحرك فوراً، فهو لا يزال أسير الغفلة واللامبالاة، ولكن حين يأتي أمر الله، فسيُضطر الإنسان عندئذٍ إلى أن يعترف بكل شيءٍ لكونه عاجزاً لا يملك إزاءه شيئاً من حولٍ وحيلةٍ، بينما الاعتراف وقتئذٍ لن يُغني عنه فتيلاً ؛ لأنه سيكون موعد نيل جزاء العمل دون مباشرة العمل!

﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟

ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ: يستخبرونك مستهزئين عن العذاب

إِي وَرَبِّي: نعم وربي .

أَنتُم بِمُعْجِزِينَ: بفائتين من عذاب الله بالهرب.

وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ: أخفوا الغم والحسرة.

لما حذر رسول الله ﷺ كفار العرب قائلاً بأنكم إن لم تبادروا بإصلاح أنفسكم فسوف تتعرضون لعذاب الآخرة، فلم يلبثوا أن راحوا يستهزئون بتحذيره ويسخرون منه .

الإنسان كائن جد حساس ؛ لا يطيق تحمل الألم، وإنه لا يزال يستهزئ بالحق ويرفضه باستغناء تام، ما دام لا يتعرض في هذه الدنيا لعذابٍ ولا عقابٍ، ولكن عندما يواجهه عذاب الآخرة، ينتابه هلع وخوف ينخلع معه قلبه، ويبدو له كل شيءٍ حقيراً تافهاً، حتى إن كان لديه يومئذٍ ثروات الدنيا وخيراتها كلها، فإنه سيراها بإزاء العذاب غير ذات قيمة لدرجة أنه يود لو دفعها برمتها ليتخلص من ذلك العذاب المؤلم !!

غير أن مسألة الآخرة ليست مسألة مساومةٍ، إنما هي مسألة لقاء كل نفسٍ جزاء ما كسبت جزاءً وفاقاً، وإنها لجزء لا يتجزأ من خطة الله التي رسمها عن الحياة والموت، ويقتضي العدل الإلهى أن ذلك يجب أن يكون، والقدرة الإلهية كفيلة بأن ذلك كائن لا محالةً.

وما يحول دون تحقق هذا كله سوى ذلك الموعد المحدد الذي بحلوله تنتهى فترة الامتحان الراهنة، وبالتالى سيحضر البشر جميعاً بين يدي ربهم لسماع قضائه عن

مصيرهم النهائي! .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

أَرَأَيْتُم: أخبروني .

أَذِنَ لَكُمْ: أعلمكم بهذا التحليل والتحريم.

تَفْتَرُونَ: تكذبون في نسبة ذلك إليه .

الإنسان كائن نفسي ؛ وهو يصلح بصلاح نفسيته، ويفسد بفسادها، وإن الهداية التي نزلت في صورة كتاب الله - القرآن الكريم- هي رحمة للإنسان، وهي تتضمن أحسن موعظةٍ له، غير أن الانتفاع بهذه الموعظة يستلزم ألا يكون المرء قد فقد سداد فكره، فالشخص الذي مسخ أو شوّه استعداده لسداد التفكير، ستذهب موعظة الله عنده هباءً منثوراً، ولن تحرك ساكناً لديه البتة !!

إن أشياء العالم الراهن ومباهجه تكون ((حاضرة بين يدي المرء، فهو يجرب لذتها وجودتها في كل حينٍ، وفي مقابل ذلك فإن نعم الآخرة لا تعْدو أن تكون مجرد ((وعدٍ))، يسمع عنها المرء، دون أن يجربها أو يتمتع بها عملياً في حياته، الأمر الذي يجعل أكثر الناس يتهافتون على أشياء الدنيا الحاضرة، غير أن الشخص الذي يفكر في الموضوع بعمقٍ، سيُسر سروراً عظيماً بأن الله - بإنزال كتاب هدايته - قد فتح باب الحصول على النعم الأبدية.

كل ما أعطى الله الإنسان، سواء كان في صورة المحاصيل الزراعية أو في صورة أخرى سواها، هو من رزق الله المسخر له، ولو أن المرء نظر إلى هذه الأشياء على أنها عطاء الله، وتصرف فيها تبعاً للمنهج الذي أرشد الله إليه، لاستيقظت في داخله عواطف الشكر والامتنان لله، ولكن الشيطان يحاول دوماً أن يقلب هذه النسبة، حتى يعود الإنسان عند استعماله هذا «الرزق»، لا يتذكر الله، بل يتذكر الأشياء الأخرى عداه.

ففي العصر القديم عمل الشيطان على ترويج مراسم وطقوس خرافية لإرضاء الآلهة والمعبودات الخيالية بشأن الزروع والثمار، لكي يتناولها المرء وهو يذكر هذه الآلهة والمعبودات دون الله، كما حقق الشيطان هذا الغرض نفسه في العصر الحديث عن طريق التفسيرات أو التعليلات المادية، حيث إنه يصور للناس ما يحصل لهم عند الله على أنه من معطيات العوامل المادية، حتى إذا ظفر الناس به لم يعدّوه رزقاً من الله، بل ظنوه مجرد نتاج تفاعل عناصر المادة!

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾

تَكُونُ فِي: في أمر هام معتنى به.

تُفِيضُونَ فِيهِ: تشرعون وتخوضون فيه.

وَمَا يَعْزُبُ: ما يبعد وما يغيب.

مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ: وزن أصغر من نملة أو هباءة.

الدعوة هي أشق عملٍ من أعمال هذه الدنيا، فإن حامل رسالةٍ ما لا يكون داعياً إليها إلا بعد أن يسخر وجوده كله للعمل الدعوي، والمرحلة الأقسى والأشد وطأةً من ذلك هي التي يواجهها من قبل المخاطبين، فحين يعرض الداعي دين الله في صورته النقية الخالصة، ويقيم على صدقه أوضح الأدلة والبراهين، فلا يلبث أن يثور جميع أولئك الذين كانوا يتظاهرون بالتدين على أساس دينٍ مزعومٍ خلعوا عليه شعار الدين الإلهي، أو الذين يحتلون مركز الإمامة الدينية، وبالتالي يتصدون لإخضاع الداعي والتغلب عليه بكل حولٍ وحيلةٍ، ويستحلون للوصول إلى هذا الغرض كل شيءٍ، حتى الدعاية الكاذبة، والمؤامرات الخسيسة، والإجراءات العدوانية العنيفة، وما إلى ذلك .

إن حرية التصرف المتاحة في العالم الراهن تجعلهم لا يتحرجون من اتخاذ أية خطوةٍ جائرةٍ ضد الداعي، ومن اللجوء إلى أية وسيلةٍ دنيئةٍ للنيل منه .. ويصل هذا الوضع إلى حدٍ تتركز معه قوة الدليل كلها في جانبٍ، بينما تتركز القوى المادية كلها في جانبٍ آخر .

إن من المستحيل ألا يقف الله إلى جانب الحق .. إن صيرورة المعارضين مجردين عن الدليل، وتركز قوة الدليل كلها في جانب الداعي وحده، مما يثبت أن الله مع الداعي وليس مع الطائفة الثانية؛ لأن الدليل ممثل الله في العالم الراهن ؛ فمن كان معه الدليل كان الله معه!!

وإنما تسنح فرص العدوان لمعارضي الحق بسبب تلك الحرية التي أتيحت لهم من أجل الامتحان، فعندما تنقضي فترة الامتحان ينقلب الوضع تماماً، وستكون العزة والغلبة حينئذٍ لمن كان قائماً على أساس الدليل، وأما الذين كانوا خلواً من الدليل، فسوف لا يظفرون هناك بشيء سوى الخزي والخيبة والفشل .

إن طائفة دعاة الله الصادقين هي طائفة أولياء الله، ويبشرهم الله في الآخرة بحياة أسمى وأرقى لن يكدر عليهم صفوها أي حزنٍ أو حسرةٍ على ماضي حياتهم،ولا أي

همٍ أو خوفٍ من مستقبل حياتهم!

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

إن القهر والغلبة له تعالى في ملكه .

مَنْ الذى يمسك السموات والأرض، ويقوم بتدبير الأمر وتصريف الشئون فيما بينهما؟

إن هذا أحد الأسئلة الرئيسية التي شغلت أذهان الباحثين عن الحقيقة في كل العصور، غير أن الجواب الصحيح عن هذا السؤال لا يمكن الوصول إليه إلا إذا استطاع الإنسان أن ينظر إلى ما وراء الطبيعة، وبما أن أحد الناس لا يتمتع بعين تنظر إلى ما وراء الطبيعة، لذا يكون كل جوابٍ من أجوبته التي يتوصل إليها بعد جهدٍ جهيدٍ، قائماً على أساس الحدس والقياس وليس على أساس علمٍ حقيقيٍ !

والمتكلمون عن علم حقيقيٍ في هذه الدنيا إنما هم أولئك الذين يسمون ((الأنبياء)) ليس غير، إن هؤلاء صفوة من الناس يقوم بينهم وبين العالم العلوي اتصال مباشر ؛ حيث يخبرهم الله تعالى بالحقيقة؛ ولذا فإن علم النبي إنما هو العلم الوحيد في هذه الدنيا، الذي يمكن الاعتماد عليه على وجه اليقين .

ومع أننا لا نملك أي وسيلة مباشرةٍ لمعرفة صدق دعوى الأنبياء، إلا أن هناك وسيلةً غير مباشرة لذلك، وهي تتمثل في آيات الكون، فهذه الآيات تصدق تصديقاً عملياً بتلك الحقائق المعنوية التي بيّنها الأنبياء والمرسلون .

وعلى سبيل المثال فنحن نشاهد أن الليل والنهار يتعاقبان على أرضنا هذه ، الواحد

تلو الآخر بانتظامٍ، وهذا الدوران ينشأ عن نظامٍ محكمٍ ومنضبطٍ للغايةٍ، بحيث لا يعتريه أي خلل أو اضطراب أبداً، ونلاحظ أن هذا الدوران ملائم لحياتنا فوق الأرض إلى حدٍ يدعو إلى الدهشة والإكبار، ويبدو واضحاً أن هناك خطةً هادفةً وراء هذا النظام الكوني البديع، إن هذا الوضع دليل ناطق على وجود قادرٍ مطلقٍ ورحمانٍ ورحيم يخبرنا الأنبياء عنه، ويدعوننا إلى الإيمان به !

والذين يتبعون «الشركاء» بحسب زعمهم، سواء أكانوا الشركاء الإلهيين القدامى، أم الشركاء الماديين المحدثين، ليسوا بمتبعي أية حقيقةٍ واقعيةٍ، بل هم متبعون لظنونهم وقياساتهم وحدها، وإن الكون بأكمله يصدق بالحقيقة التي تم إعلانها عن طريق الأنبياء، ولكن ليس هناك من أحدٍ يصدق بما يدعيه «المشركون» !

﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

سُبْحَانَهُ: تنزيها له تعالى عما نسبوه إليه .

سُلْطَانٍ: حجة وبرهان .

إن زعم البنين والبنات لله مصدره قياس الذات الإلهية على الإنسان .. إن الإنسان يعاني من جملة النقائص والتقصيرات ؛ مما يجعله يشعر بالحاجة الماسة إلى الأولاد لكي يتلافى بهم ما ينقصه، ويتدارك بهم ما هو قاصر عن إدراكه وحده، غير أن هذا القياس بالنسبة إلى الله باطل محض .

إن نظام المخلوقات في ذاته رد صارخ على مثل هذا الخالق، فإن الله الذي يشهد له نظام المخلوقات الكوني إله كامل في ذاته إلى أقصى حد الكمال، وهو منزه عن العيوب

والنقائص من كل نوعٍ ، ولو أن الله لم يكن كاملاً في ذاته، ولو أنه كان إلهاً ذا عيوبٍ ونقائص، لما تمكن أبداً من أن يصنع كوناً بديعاً مثل كوْننا، ولا استطاع إدارته وتسييره، كما نراه يسير بمنتهى الدقة والانضباط والتوازن .

ومعنى ذلك أن مفهوم الإله الواحد الذي يدعو إليه النبي، هو إله تتضافر آيات السموات والأرض كلها على إثبات وجوده، ولكن مفهوم الإله الذي كوّنه المشركون، لا يوجد له أي دليل في الكون الحالى، ومن الظاهر الآن أن الاعتقاد في إلهٍ بلا دليل هو في ذاته دليل على أن أصحابه لن يفلحوا أبداً، لأن الإله الذي لا وجود له أصلاً، كيف سيأتي لنجدة أحدٍ، وكيف سيسعد أحداً في الحياة وبعد الممات .. إن الإله الذي هو موجود في الحقيقة، لا يؤمن به المشركون، بينما الإله الذي يؤمنون به هو غير موجودٍ في أي مكانٍ، فلا أمل إذًا فى أن يُكتب للمشركين النجاح في الكون الحالي، وإنما المصير الوحيد المقدر لهم هو أن يصبحوا آخر الأمر عاجزين لا يملكون قوةً ولا يجدون نصيراً، ويتجرعون مرارة الذل والفشل ولا يتخلصون منه إلى الأبد !!

إن إعطاء نعمةٍ عظيمةٍ كالعقل للإنسان يقتضى بطبيعة الحال أن تكون مسئوليته هي الأخرى عظيمة، وللسبب ذاته كان إنكار الحق أكبر جريمةٍ عند الله تعالى، إن الحق - إذا قام عليه الدليل القاطع - تعين على المرء أن يعترف به لا محالة، ولو أنه قابل الحق بالإنكار، بعد أن تم إثباته عقلياً، فإنه يرتكب جريمةً لا تغتفر، فإذا كان الله قد منح الإنسان عقلاً يمكنه من أن يعرف حقيقة الحق وبطلان الباطل، فماذا عساه يعتذر به بعد ذلك عند الله سبحانه وتعالى ؟!

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى

ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

كَبُرَ عَلَيْكُم: عظم وشق عليكم .

مقَامِي: إقامتي بينكم دهرا طويلا .

فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ: اعزموا وصمموا على كيدكم .

وَشُرَكَاءَكُمْ: مع شركائكم .

غُمَّةً: ضيقا شديدا ، أو مبهما ملتبسا .

وَلاَ تُنظِرُونِ: لا تمهلوني .

وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ: يخلفون المغرقين .

سيدنا نوح - عليه الصلاة والسلام - نبي عصرٍ سحيقٍ في القدم، وقد ظل شعبه يقابله بالحفاوة والتكريم ما دام صامتاً، ولكنه لم يكد يقوم داعياً إلى الحق، مرشداً للناس إلى ما ينبغي لهم، وما لا ينبغي من قولٍ وفعلٍ، حتى صار عندهم رجلاً بغيضاً ثقيل الظل، مما دفعهم إلى أن يهددوه قائلين: وإنك إن لم تنْته عن إزعاجنا بهذا التبليغ والتذكير فلن نسمح لك بالبقاء في أرضنا ولنطردنك من أقطارها طرداً .

فقال سيدنا نوح - عليه الصلاة والسلام - إنكم تعتبرون أمري أمراً بشرياً، ولذا تقولون مثل هذا القول، غير أن هذا الأمر أمر إلهي، وقتالكم معي سيضطركم إلى القتال مع الله، ولكي تتأكدوا من صدق ما أقول بإمكانكم أن تقوموا بتجربةٍ، وهي أن تدبروا أنتم بالتعاون مع أنصاركم و شركائكم أجمعين، أية خطوةٍ جماعيةٍ ضدي، ثم نفذوها بكل قوتكم تنفيذاً فورياً، وسترون أن كل خطة من خططكم التي تدبرونها للقضاء علي، تبوء بالفشل الذريع .. إن معيار صدق الداعي إلى الحق في العالم الراهن هو أنه يوفق لإنجاز عمله وأداء واجبه في كل الظروف والأحوال، وأن أية محاولةٍ ترمي

إلى إخضاعه أو القضاء عليه لا تكلل بالنجاح البتة !!

إن الشخص الذي يبعث من عند الله للقيام بدعوة الحق، ليقوم دوماً على أساس الآية - أي الدليل - وبما أن الدليل أمر ذهني؛ لذا فالإنسان المحب للظواهر لا يكاد يتفطن إلى عظمته وجلاله، وهو بالرغم من كونه عاجزاً عن دحضه عقلياً لا يلبث أن يرفض الإذعان والخضوع له .

ومن آداب الدعوة التي لابد لداعية الحق من مراعاتها ألا يطالب المدعو بأي نوعٍ من المطالبات المادية أو الاقتصادية ؛ مهما جرّ عليه هذا التنازل الأحادي الجانب من خسائر باهظةٍ، إن طبيعة العلاقة القائمة بين الطرفين هي التي تحتم ذلك، فمن الضروري أن تبقى بينهما علاقة الداعي والمدعو حتى الساعة الأخيرة ولا تتحول إلى علاقة الند القومي والمنافس المادي على أية حالٍ، لقد ظل نوح - عليه الصلاة والسلام يبلغ رسالة الحق حتى أقام الحجة على قومه، ولكنهم - مع ذلك - مازالوا مصرين على التمرد والطغيان، وبالتالي تم إهلاك الطغاة والمتمردين بالطوفان غرقاً، وجُعل مكانهم المؤمنون بنوحٍ ورثة الأرض ليسكنوها ويعمروها، وهذا ما يُسمى في اصطلاح القرآن بـ ((الخلافة أو الاستخلاف))، فقبل الطوفان كان قوم نوحٍ خلفاء الأرض، وفي أعقاب الطوفان عُهد بخلافة الأرض إلى المؤمنين بسيدنا نوحٍ - عليه الصلاة والسلام.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

نَطْبَعُ: نختم .

أطلقت هذه الآية اسم ((المعتدين)) على أولئك الذين إذا ما أنكروا الحق مرةً واحدةً، جعلوا من ذلك مسألة كرامتهم أو اعتبارهم الذاتي؛ فلا يزالون يهملونه ويعرضون عنه، خشية أن تتضعضع ثقة الناس - إن هم قبلوا الحق - بكونهم محقين وعلماء أسرار الدين!!

والذين يتبنون مثل هذا الموقف يُعاقبون في هذه الدنيا بالطبع على قلوبهم، يعني أن نفسياتهم تفقد شيئاً فشيئاً من رهافة إحساسهم نحو الحق، حتى تصاب، آخر الأمر، بالتحجر والجمود، وبالتالي فهم لا يعودون يشعرون بلهفة ما بشأن الحق وغير الحق، لكي يتقدموا نحو الأول متخلين عن الأخير، إن تاريخ سيدنا نوحٍ ومعظم الأنبياء المرسلين من بعده يصدق هذا الواقع .

وأي داعٍ إلى الحق حينما يقيمه الله تعالى، فلا يكون محاطاً بأي نوعٍ من العظمة أو الأمجاد الظاهرية، وإنما الشيء الوحيد الذى يملكه هو الدليل وحده، فالذين يعترفون بالحق في لغة الدليل، هم الذين سيعترفون بداعية الحق، وأما الذين لا تتمكن لغة الدليل من التأثير عليهم، فإنهم يظلون محرومين من معرفة الداعي إلى الحق ومن الانضواء تحت رايته معاً !

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

لِتَلْفِتَنَا: لتلوينا وتصرفنا .

لم يؤمن فرعون وأشراف قومه، بسبب عقليتهم الإجرامية، بما جاء به موسى وهارون - عليهما السلام - حيث إنهم كانوا ينظرون إلى الأشياء ويحكمون عليها بمعيار الجاه والسلطة بدلاً من معيار الدليل والبرهان، وقد اعتبروا أنفسهم، بناءً على هذا المعيار المزعوم، أعظم شأناً وأرفع قدراً من موسى وهارون، وبالتالي فقد حالت نفسيتهم هذه دون قبولهم للحق الذي كان يعرضه عليهم رجل صغير ضئيل الشأن في

أعينهم !

ولما عجز فرعون عن فهم كلام موسى المدعوم بالأدلة والبراهين الواضحة، أظهر موسى أمامه معجزات العصا واليد البيضاء، ولم يكن لدى فرعون شيء يقاوم به هذه المعجزات الباهرة، فانطلق يقول : إن هذا لسحر مبين، وهكذا حاول فرعون أن يستر هزيمته وراء تبريرٍ كاذب، وأوهم الناس بأن قضية موسى ليست قضية الحق، بل هي قضية السحر، وصحيح أن السحر يماثل المعجزة بعض المماثلة الشكلية، ولكن سرعان ما يظهر للعيان جلياً أن السحر لم يكن إلا شعوذةً، وبالمقابل فإن المعجزة تفوز بنجاحٍ دائم لا يزول، وهكذا يقوم الدليل نهائياً على كون السحر سحراً وكون المعجزة معجزةً.

ولكي ينفر الناس من دعوة موسى عليه السلام قال فرعون في هذه المناسبة شيئين آخرين : أحدهما: قوله عن موسى بأنه يريد أن يصرفنا عن الدين الذي توارثناه عن آبائنا، وقد كان ينبغي لفرعون أن يحاول فهم رسالة موسى عليه السلام في ضوء مصطلحي الحق والباطل، ولكنه فحصها بالمقياس الآبائي وغير الآبائي، وكان السبب في ذلك أنه لو نظر في الموضوع في ضوء معيار الحق والباطل لوجد نفسه مضطراً إلى الاعتراف بأنه مبطل، بينما كان يجد مبرراً للبقاء على موقفه عبر تقسيم الأمر إلى الآبائى وغير الآبائى !!

والشيء الثانى الذى قاله فرعون هو : أن موسى وهارون يرغبان في أن يفرضا كبرياءهما على أرض مصر، وهذا أيضاً لم يكن سوى ((قفشة سياسية)) قُصد بها تهييج الجماهير وإلهاب مشاعرها، فإن سيدنا موسى عليه السلام كان قد أوضح لفرعون، ومنذ أول لحظةٍ، أن هدفه يتمثل أولاً في أن يبلغ فرعون رسالة الله، وثانياً في أن يخرج بني إسرائيل من مصر، ليذهب بهم إلى صحراء سيناء، وفي هذه الحالة فقد كان القول بأنه يخطط للاستيلاء على حكومة مصر تُهمة لا أساس لها !

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

لم يكن استدعاء فرعون السحرة الماهرين لكونه يظن أن بإمكانه أن يهزم موسى ويتغلب عليه بواسطة هؤلاء السحرة، لقد كان هذا - بالدرجة الأولى - نتيجة عناد فرعون الزائد ورغبته الجامحة في الإصرار على إنكار موسى، ولم يكن بأي قرارٍ عقلي جادٍ، فقد كان فشل الخطة الرامية إلى هزيمة رسول الله وإحراز الغلب عليه بواسطة السحرة واضحاً معلوماً منذ البداية، ولكن المرء حين لا يكون راغباً في التسليم بحقيقة ما، فإن رغبته هذه تذهب به إلى حدٍ يحاول معه أن يقاومها بالتدابير السخيفة الحمقاء محاولةً فاشلةً، شأنه في ذلك شأن من يقيم سداً من الرمل أو القش في مواجهة سيل جارفٍ ؛ مع العلم بأن لا حقيقة للقش أمام السيل!

ومن ثم فقد كان ما لم يكن منه بد ؛ إذْ رمى السحرة بما جاءوا به من حبالٍ وعصيٍ في الميدان، فتراءت للناظرين وكأنها حيات تزحف وتتلوى، وبعدئذٍ ألقى سيدنا موسى عصاه التي تحولت بدورها إلى ثعبانٍ عظيم، أخذ يسعى في الميدان، ولم يكن ((ثعبان)) موسى هذا مجرد ثعبانٍ، بل كان قوةً من الله ظهرت لإحقاق الحق وإبطال الباطل، فعندما برزت استحالت حيات السحرة حبالاً وعصياً كما كانت من ذى قبل!!

وتلك هزيمة لقيها فرعون في الميدان الذي كان قد اختاره بنفسه، ولكن فرعون - مع ذلك - لم يعترف بهزيمته، حيث إنه لم يلبث أن بحث عن ألفاظٍ أخرى للرد على سيدنا موسى تماماً كما كان قد عثر على بعض الألفاظ للرد عليه في المرحلة الأولى !

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن

يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

أَن يَفْتِنَهُمْ: أن يبتليهم ويعذبهم .

لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً: موضع عذاب .

إن اعتناق فكرة جديدة يتسبب دوماً في تعرض المرء لشتى المشاكل والصعوبات الجديدة في مجتمعه، وللسبب ذاته فإن المتقدمين في السن كثيراً ما يقفون موقف الحذر والاحتياط من قبول أية فكرة جديدة، فإن الكبار تتغلب على أذهانهم المصلحة بفعل عوامل مختلفة، مما يجعلهم لا يبادرون إلى مناصرة الفكرة الجديدة رغم اعترافهم بصحتها .

أما الشباب فإنهم لا يكونون - عادةً - أسرى المصالح من هذا النوع، ولذا فلقد حدث دائماً وعلى امتداد التاريخ البشري أن غالبية المبادرين إلى اعتناق أية دعوةٍ جديدةٍ كانت من أولئك الذين لم تتقدم بهم السن بعد، وقد حدثت الظاهرة نفسها مع سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام .

وقد كان الشبان المناصرون لسيدنا موسى عليه السلام يحسون خطراً على أنفسهم من فرعون، كما أنهم لم يلقوا أي تشجيع من قبل كبار قومهم، ومع أن هؤلاء الكبار كانوا يقرون بنبوة سيدنا موسى، إلا أنهم لم يكونوا يريدون - لرجحان جانب المصلحة عندهم - أن يتحمس أبناؤهم وبناتهم لتأييد موسى ومناصرته، فيتعرضوا، نتيجةً لذلك، لظلم فرعون الطاغية واضطهاده .

على أن وضعاً كهذا لا يقتضي أن يلوذ المرء بالصمت خوفاً من قهر المعارضين للحق، بل ينبغي عليه أن يتوجه ببصره نحو النصرة الإلهية في مواجهة المعاكسات

البشرية، وأن يهب بالتالى - معتمداً على الله واثقاً به - لمناصرة الحق الذي كان يجد نفسه عاجزاً عن القيام بمناصرته وحده!

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا: اتخذا واجعلا لقومكما.

قِبْلَةً: مساجد نحو الكعبة .

اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ: أهلكها وأذهبها ، أو أتلفها .

معنى القبلة في لغة العرب هو المرجع أو مركز التوجه، وقد أُريد بجعْل البيوت قبلةً هنا أن يخصص بنو إسرائيل بعض البيوت في قراهم أو بعض الأجزاء المناسبة من هذه البيوت، لكي يستخدمها سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - كمراكز لكفاحه الديني، بحيث تُعقد فيها اجتماعات تنظيمية، وتدور المشاورات حول الأمور المهمة، ويتم التخطيط الصامت للعمل الدعوي، وما إلى ذلك من أغراضٍ ومقاصد دينية .

لقد كانت أحاديث سيدنا موسى عليه السلام عن التوحيد والآخرة، مثار الكراهية والاستياء الشديدين لدى فرعون ملك مصر، حيث كان قد فرض عليها قيوداً والتزاماتٍ قاسيةً جداً؛ حتى صار القيام بالأنشطة الدينية علناً أمراً متعذراً عليه، فأمر الله -سبحانه وتعالى - حينئذ بأنه ينبغى لكم الآن أن تحصروا عملكم في أقرب المجالات وأيسرها متناولاً، بدلاً من الاصطدام بفرعون وجنوده، فلتتخذوا في مساكنكم مراكز دعوية وتنظيمية صغيرةً، ولتواصلوا عملكم على هذا النطاق المحدود في صمتٍ كاملٍ ... أما الحكم الثاني الذي أُمروا به في ظل تلك الظروف القاسية فهو إقامة الصلاة ؛ أى المبالغة فى الاهتمام بتأدية الصلوات والإكثار منها ؛ لتوطيد الصلة بالله تعالى وطلب النصر والعون منه، والصلاة هي في الواقع وسيلة لطلب نصرة الله

بالتقرب إليه، فإن العبد بانشغاله في الصلاة يصل بنفسه إلى مقام العجز والتواضع، والعجز والتواضع هو وحده المقام الذي يتم فيه اللقاء بين العبد وربه، وليس هناك من موضعٍ آخر سواه لالتقاء العبد بربه !!

وقد كان إنجاز هذا البرنامج العملي منطوياً على سر فلاحهم ونجاتهم، وكأن إرشادهم إليه بشارةً لهم بأن الله سيخلصهم قريباً من تلك الحالة السيئة التي سلطها عليهم أعداؤهم!

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ: اطبع عليها.

إن الذين يهتمون للآخرة ؛ ربما يتخلفون في جمع الأسباب والأمتعة الدنيوية عن أولئك الذين ينشغلون بكل وجودهم في الحصول على الدنيا، غير مهتمين للآخرة، فالنقص الدنيوي ثمن توجيه الاهتمام نحو الآخرة، والوفرة الدنيوية هي ثمن الغفلة عن الآخرة.

وبالإضافة إلى ذلك فإن مَنْ تتوفر لديه كميات ضخمة من زخارف الدنيا ومتاعها، يُصاب بمركب الاستعلاء، وتكون النتيجة أن أمثال هؤلاء يفقدون الاستعداد ليعرفوا الحق المعلن على لسان أحدٍ سواهم، فيأخذوا أنفسهم بالخضوع والإذعان له، ولو أنهم اعتبروا ما يمتلكون من وسائل وأسباب هبة الله، لاستخدموه في سبيل تدعيم الحق، إلا أنهم يعدونه نتاج مهاراتهم ومؤهلاتهم الذاتية، مما جعلهم يستخدمونه للإجهاض على الحق وأهله حفاظاً على كبريائهم وعلو مكانتهم في المجتمع!!

ومعنى قوله : ﴿ لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾ أنهم اتخذوا مما أعطاهم الله من مالٍ وأسبابٍ ذريعةً لإبعاد عباد الله عن الله، ووظفوه في خدمة الباطل بدلاً من توظيفه في خدمة الحق.. وقد تغير هنا أسلوب الكلام لأجل التأكيد على هذا المعنى .

لقد عرض سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - دعوة الحق على فرعون وأصحابه، وحاول تقريبها إلى أفهامهم باستخدام مواهبه العليا والمعجزات الباهرة التي أيده الله بها حتى قامت عليهم الحجة وانقطع عنهم العذر، وبالرغم من ذلك لم يؤمن فرعون وأصحابه برسالته - عليه الصلاة والسلام - وحينئذٍ دعا سيدنا موسى عليهم فقال: «يارب: أنزل عليهم العقوبة التي يستحقها الطغاة أمثالهم تبعاً لسنتك ..»، إن دعاء النبي على قومٍ في مثل هذه المناسبة يكون إعلاناً عن قضاء الله نفسه، يجري على لسان ممثل الله عز وجل!!

وقد استجاب الله لدعاء سيدنا موسى - عليه السلام - ولكن حسبما جاء في بعض الروايات - نقلها الطبري - هناك مسافة زمنية تمتد إلى أربعين عاماً بين دعاء سيدنا موسى وبين هلاك فرعون غرقاً، مما يعني أنه بالرغم من دعاء النبي المستجاب هذا، لم يزل الوضع قائماً كما هو إلى أمدٍ بعيدٍ ؛ بحيث كان سيدنا موسى وأتباعه يجدون أنفسهم عاجزين مقهورين، بينما ظل فرعون وأصحابه - من ناحية أخرى - متمتعين بالسيادة والسلطان والسطوة في طول البلاد وعرضها كسابق عهدهم، وفي هذه الحالة فلو أن المرء لم يكن على علمٍ ودرايةٍ بأن سنة الله تقتضي إمهال الطغاة والمتمردين، لتخلى عن الواجب الأصلي الملقى على عاتقه بدافع الاستعجال، وبالتالى وقع فريسة الضجر والتذمر واليأس من نصر الله!

﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ

بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

بَغْياً وَعَدْواً: ظلما واعتداء .

آلآنَ: آلآنَ تؤمن حين أيقنت بالهلاك .

آيَةً: عبرة ونكالا .

بَوَّأْنَا: أنزلنا وأسكنا .

مُبَوَّأَ صِدْقٍ: منزلا صالحا مرضيا .

لقد كانت رسالة سيدنا موسى عليه السلام فى مصر ثنائية ؛ حيث كان يهدف - أولاً - إلى أن يدعو فرعون إلى التوحيد والآخرة .. و- ثانياً - أن يخرج بني إسرائيل من أرض مصر ليذهب بهم إلى بيئة صحراوية، ويقوم على تربيتهم هناك، وبعد أن بذل قصارى جهده في دعوة فرعون إلى الحق، أمره الله تعالى بالخروج مع بني إسرائيل تحت قيادة سيدنا موسى عليه السلام إلى ساحل البحر، ضربه عليه السلام بعصاه، فانشق الماء من وسطه وقام إلى اليمين واليسار كالطود العظيم - على حد التعبير القرآني الوارد في موضع آخر - وإذا بسيدنا موسى وبني إسرائيل من مصر ، وقد كان الطريق إلى صحراء سيناء يعترضه البحر وجدوا أمامهم طريقاً جافاً انتقلوا عبره إلى الناحية الأخرى بتمام السهولة .

وتقدم فرعون مع جيشه نحو الأمام يطارد بني إسرائيل، وعندما وصل إلى حافة البحر وجد موسى وبني إسرائيل يمرون بطريقٍ جافٍ وسط الماء ؛ إذْ كان عرض البحر الفسيح قد انشق عن ممر لسيدنا موسى وأصحابه، وقد كان هذا الحدث آيةً من آيات الله، وكان ينبغي لفرعون أن يتعلم منها أن موسى على الحق، وأن الله معه، ولكنه اعتبر انشقاق البحر حدثاً عادياً بدلاً من أن يعده حدثاً إلهياً، فلم ير فرعون بينه وبين موسى سوى البحر، وكانت نتيجة ذلك أن الحدث الذي كان ينطوي على رسالة الطاعة والإنابة لفرعون لم يتسبب إلا في ازدياده عناداً وطغياناً، فظن أن بإمكانه أن يجتاز البحر

تماماً كما اجتازه موسى وأصحابه، وقد اقتحم فرعون وجنوده البحر تحت عقليتهم هذه .

إن انقسام البحر إلى شقين إنما كان قد حدث لموسى وأصحابه، ولم يحدث لفرعون وأصحابه، ومن ثم فلم يكد فرعون وجنوده يصلون إلى وسط البحر ، حتى تدفق الماء من كلا الجانبين ، وهلك فرعون وجنوده في أمواجه العاتية المتراكمة غرقاً ، وقد أقر فرعون،وهو يغرق بالإيمان ، ولكنه لم يكن ليجدي عنه شيئاً،لأن الإيمان المعتد به عند الله هو الذي يصدر عن اختيارٍ وليس الإيمان الذي يضطر إليه المرء اضطراراً.

إن عاقبة عصيان الله والتمرد عليه هي الهلاك والدمار، وقد كان الإنسان يشاهد أمثلة ذلك مرة وأخرى في عصر الرسالات، بيد أن الله تعالى قد حفظ أمثلة كهذه من الضياع بصفةٍ دائمة لتظل موضع درسٍ وعبرةٍ للإنسان حتى في العصور المتأخرة ؛ إذْ تكون سلسلة بعث الأنبياء قد انقطعت، وأحد الأمثلة التاريخية من هذا القبيل فرعون موسى - رعمسيس الثاني - الذي عثر علماء الآثار على جثته المحنّطة (أي المومياء) في المدينة المصرية القديمة طيبة أو تيبس (Thebes)، وهي الآن معروضة للزوار بمتحف القاهرة.

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

بَوَّأْنَا: أنزلنا وأسكنا .

مُبَوَّأَ صِدْقٍ: منزلا صالحا مرضيا .

لقد كان بنو إسرائيل حملة دين الله فى قديم الزمان، وقد أنعم الله عليهم بأن خلّصهم من عدوهم الغاشم فرعون، ثم ذهب بهم إلى جوّ سيناء الطلق، وهيأ لهم هناك الطعام والشراب وفق نظامٍ خاص، كما أنشأ فيهم جيلاً جديداً يتدفق قوةً وحرارة إيمانٍ عن

طريق تربية صحراوية، وقد فتح هذا الجيل، بعد وفاة سيدنا موسى عليه السلام ملكاً عظيماً، وأقام دولة بني إسرائيل في بلاد خصبةٍ خضراء كالشام والأردن وفلسطين دامت عدة قرونٍ .

وكان يجب على بني إسرائيل كنتيجةٍ طبيعية لهذا الإنعام الإلهي العظيم، أن يظلوا مطيعين لله شاكرين له، وأن يجعلوا من خدمة دين الله هدفاً لحياتهم، ولكنهم لم يلبثوا أن ضلوا عن الصراط المستقيم رغم وجود الهداية الواضحة لديهم، وماذا كان ضلالهم وانحرافهم ؟ إنه كان متمثلاً في الاختلاف الناشئ فيما بينهم، لقد كان عندهم العلم المنزل من عند الله الذي كان هو الحق الوحيد، إلا أنهم اختلفوا في تأويل هذا العلم وتفسيره وتفرقوا بالتالي شيعاً وأحزاباً شتى [1].

إن الأمة - أية أمة - لا تزال متحدة ما دامت مستمسكةً بالدين ((العلم)) المنزل من عند الله، ولكنها لا تلبث إلا قليلاً حتى تنشب بينها خلافات حادة في تفسير هذا العلم، وبالتالي يتعصب بعضهم لرأي خلافي، ويميل بعض آخر إلى رأي آخر مناقضٍ له تماماً .. وكل أحدٍ يثير زوبعةً من الخطب والمناظرات والمباحثات العقيمة دفاعاً عن مذهبه وإثباتاً لصوابه، ويصل الأمر إلى أن يصبح العلم الأصلي مغلقاً بين دفتى الكتاب، وتنصب الجهود والطاقات كلها على تأويلاته وتفسيراته المزعومة، وهكذا فبالرغم من اتحاد كلمة القوم واتفاقهم على التعاليم الدينية الأساسية تختلف آراؤهم وتتعدد مذاهبهم لانشغالهم في التعاليم الفرعية الهامشية .

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ يبدو معناه : أن الله حين يظهر للعيان يوم القيامة فإن الكل سيذهل يومئذٍ عما كان يختلف فيه، ويبادر إلى الاعتراف بالأمر الذي كان هو الحق الوحيد، ولو أنهم كانوا يخافون الله، لانتهوا جميعاً في يومهم هذا إلى رأي موحدٍ لا خلاف فيه ولا جدال، ولكنهم تفرقوا وانحرفوا إلى سبلٍ شتى

---

(١) انظر : تفسير النسفي.

لخلو أفئدتهم من خوف الله، فانعدام الخوف ينتج عن تعدد الآراء والمذاهب، والخوف يؤدي إلى اتحاد الآراء والمذاهب !

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

الْمُمْتَرِينَ: الشاكين والمتزلزلين .

الرسول ينهض بالحق النقي الخالص من كل شوبٍ، وقبول دعوة الحق الخالص يكون صعباً ؛ لذلك فإنه يقابل بالإعراض والهوان .

وحين يرى الداعي هذا الهوان الذي يلقاه الحق في بيئته، فقد يخطر على باله خاطر شكٍ أو ارتيابٍ، فيتساءل فيما بينه وبين نفسه : هل أنا على خطأ؟!

وقد أكدت هذه الآية على ضرورة احتراز الداعي من هذه النفسية ذاتها، ومن أوضح الأدلة على كون هذا الشك خاطئاً أن جميع الأنبياء والدعاة السابقين أيضاً قد مروا بأوضاعٍ مماثلةٍ تماماً على اختلاف الأعصار والأمصار، فالمطلعون على تاريخ الأنبياء السابقين يعرفون جيداً أنه لم يحدث في هذه الدنيا قط أن بُعث نبي في قوم فحظي من فوره بقبولٍ عامٍ، فما الذي يدعو إلى الحيرة أو القلق فيما لو تعرض الدعاة في الأزمان التالية لهذا الوضع نفسه؟!

ولو أن عقل المرء كان يشهد على صدق أمرٍ ما، وهو يتخلى عنه لعدم اعتناء الناس به أو معارضتهم إياه، فإن ذلك بمثابة التكذيب بآيات الله، إن الله - سبحانه وتعالى - إنما يتجلى للإنسان في صورة الآيات (أي الدلائل والبراهين)، ولذا فالشيء الذي قام الدليل على صدقه، يصير الإقرار به من حق الله على المرء، وما ظنك بشخصٍ لا يفي بحق الله هل سيظفر عاقبة الأمر بشيء سوى الخسران والدمار؟!!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾

عَذَابَ الخِزْيِ: الذل والهوان.

حين يظهر أمام الإنسان أمر حق ؛ فإن عقله يشهد بأن هذا صحيح لا يتطرق إليه شك، غير أن أخذك بحقٍ ما يفرض عليك أن تدفع له "ثمناً"، والمرء لا تكاد نفسه ترضى بدفع هذا الثمن، حيث إن قبول الحق يعرض مصالحه لخطر الضياع، ويدعوه إلى التخلي عن رأيه واعتباره الذاتي، فهذه المخاوف تشكل عقبةً صعبةً دون قبول المرء بالحق ؛ وبالتالي فإن الشيء الذي كان ينبغي عليه أن يقابله بالحفاوة والاعتراف، إذا به يأخذ يقابله بالإنكار والمعارضة وقد جُعلت نفسية المرء بحيث إنها إذا سارت مرةً في اتجاه، فلا يلبث أن يبدأ ذهنه كله يسير في الاتجاه نفسه، وللسبب ذاته فقلما يحدث أن يرجع المرء إلى الحق ثانيةً بعد ما انحرف عنه مرةً واحدةً ؛ لأنه لا يزال يزداد رسوخاً وتصلباً في موقفه يوماً بعد يومٍ، حتى لا يعود قابلاً للرجوع إلى الحق البتةَ !!

ويستخدم أمثال هؤلاء - في معرض الحديث عن موقفهم - كلمات وعباراتٍ تخيل إليك أن قضيتهم قضية نظرية، إلا أنها لا تعدو في الحقيقة أن تكون مجرد قضية العناد والتعصب والتعنت، يتبنونها حرصاً على مصالحهم الدنيوية ليس غير، ولكن العذاب الإلهي حين يظهر، سيقضي على عناد المرء وغروره هذا قضاءً تاماً، فإن حالة الخوف الطارئة عليه وقتئذٍ ستجبره على الخضوع أمام الشيء الذى كان يأبى الخضوع أمامه فى حالة انعدام الخوف .

وقد حدث مع كل الأنبياء والرسل المبعوثين في القرون السالفة، أن أممهم لم تؤمن بهم حتى آخر ساعةٍ ؛ اللهم إلا إذا أُخذوا بالعذاب فقالوا: ها نحن نؤمن الآن. إنهم لم يعترفوا بالإيمان مادام الله يناديهم بلغة الدليل والبرهان، وعندما أصابهم الله ببعض

ضرباته رفعوا عقيرتهم بالاعتراف والتسليم، غير أن مثل هذا الاعتراف لا عبرة به عند الله تعالى ؛ إذْ الاعتراف المطلوب عند الله هو أن يذعن المرء بدافع الدليل، وليس بدافع القوة!!

لقد بُعث سيدنا يونس - عليه الصلاة والسلام - في نينوى - إحدى مدن العراق القديم - حيث قام بعملية الدعوة والتبليغ، ولكن قومه لم يؤمنوا به، إلى أن هاجر من بلده آخر الأمر تبعاً لما جرت به سنة الأنبياء والمرسلين، مهدداً قومه بأنه سينزل عليهم عذاب الله عما قليلٍ، وفي أعقاب هجرة سيدنا يونس عليه السلام ظهرت نُذُر العذاب الإلهي وبوداره، ولكنهم لم يفعلوا في ذلك الوقت ما فعل قوم هودٍ، إذْ رأوا سحاب العذاب قادماً إليهم، فقالوا : ﴿ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ !! بل سرعان ما دب في نفوس القوم دبيب اليقظة والحذر والتنبه، فهرع الجميع بدوابهم ونسائهم وولدانهم إلى الميدان، وأخذوا يدعون الله في ضراعةٍ وابتهالٍ، وبعدئذٍ لم يلبث عذاب الله أن رُفع عنهم، وكما أن الإيمان قبيل ظهور العذاب جدير بالاعتبار، يمكن أن يُعتبر كذلك بالإيمان والعذاب على وشك الحلول ؛ بشرط أن يبلغ ذلك الإيمان من درجة الكمال ما بلغ إيمان قوم يونس!

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ: العذاب والسخط .

معنى قوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ أن الله تعالى كان قادراً على أن يسنّ نظام العالم الإنساني أيضاً على غرار نظام العالم غير الإنساني، حيث كل شيء خاضع لأمر الله أتم الخضوع، غير أن تدبير الله بالنسبة إلى الإنسان،

ليس من هذا في شيء، فإن مشروع الله عن الإنسان هو أن يتم إسكانه في بيئة حرة تتاح له فيها فرصة لكي يقوم بطاعة الله طوعاً، أي تحت قراره الذاتي، ويفعل بمحض اختياره فعل بقية العالم قسراً، فنعيم الجنة الأبدي هو ثمن هذه الطاعة الاختيارية ذاتها.

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ يعنى أنه لن يظفر أحد بنعمة الإيمان في العالم الراهن إلا باتباع السبيل الذي قرره الله تعالى لذلك، والسبيل إلى الإيمان في العالم الراهن هو أن يفهم المرء دعوة الإيمان باستخدام عقله، وأما الذي سيطرت على عقله مصالحه الدنيوية، فكأنما تلطخ أو تورط عقله في وحلٍ من الأقذار والأرجاس، وليس ثمة أمل في أن يوفق شخص كهذا للظفر بنعمة الإيمان في هذه الدنيا .. كلا!!

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ ۚ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

إن هذا الكون المترامي الأطراف، المحيط بنا من كل الجهات، يزخر بما لا حصر له من آيات تبرهن على وجود الله ووحدانيته، وتدلنا أيضاً على منهج الله تعالى في هذا الكون، وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الدنيا لا تزال تشهد بين حين وآخر وقائع تتضمن نذراً، كالعواصف والزلازل المدمرة مثلاً، من شأنها أن تجعل الإنسان جاداً في أمر الله والآخرة، غير أن هذا كله يحدث في عالم الامتحان، حيث يملك الإنسان الاختيار ليؤمن أو ليرفض، ومن ثم فإذا ظهرت الآيات والإنذارات أمام المرء، تناولها بأي تفسير مزعومٍ يوجه الأمر إلى وجهةٍ أخرى يبقى معها محروماً من العظة والاعتبار .

والمرء إذا هو لم يؤمن بأمر الحق على أساس الدليل، فكأنما هو ينتظر اليوم الذي يُرفع

فيه ستار الامتحان، ويتجلى رب الكون للعيان ليعلن عن قضائه النهائي الحاسم، غير أنه سيكون يوماً مختلفاً عن يوم الناس هذا تمام الاختلاف، فاليوم يبدو المؤمنون والمنكرون سواءً من حيث أوضاعهم وأحوالهم، ولكن إذا حانت ساعة القضاء، فلن يجد الأمن بعدئذٍ سوى أولئك الذين كانوا أتباع الحق وأنصاره في الواقع ؛ وأما الباقون عداهم فسيحيط بهم العذاب بحيث لا يكادون يجدون إلى الهرب أو التخلص منه سبيلاً !

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ: اصرف ذاتك كلها للدين الحنيفي .

حَنِيفاً: مائلا عن الأديان الباطلة كلها .

يعرض الداعي أمره - أولاً - في لغة الدليل، ولكن إذا ظل الناس، رغم سماع الدليل والبرهان، أسرى الشكوك والشبهات، فلا يسعه نهائياً إلا أن يؤكد صدق رسالته في لغة العزم والتصميم .

وقول داعية التوحيد للمشركين هذا بأنى لا : ﴿ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ليس محض دعوى، بل هو دليل في حد ذاته، إذْ معنى ذلك أنني أيضاً بشر مثلكم، كما أنني أملك العقل نفسه الذي يتوفر لديكم، إذن فالشيء الذي أفهم صدقه أنا، لم تعجز عن إدراك صدقه عقولكم أنتم؟!

إن الحق لو أصبح قابلاً للفهم على مستوى الفرد الواحد، فيقوم بذلك الدليل على أنه قابل للفهم بالنسبة إلى غيره من أبناء البشر كذلك، وبالرغم من ذلك فإذا وقف الآخرون منه موقف الجحود والإنكار، فإن السبب في ذلك يرجع حتماً إلى أي قصورٍ أو عيبٍ في أنفسهم، وليس إلى عيب في دعوة الحق، إن الشيء الذي يراه ذو بصرٍ من الناس، ولا يراه ذو بصرٍ آخر، إنما يدل ذلك على أن الأخير ليس في الحقيقة بذي بصرٍ ؛ إذْ من المستحيل في هذه الدنيا أن يكون هناك شيء يراه ذو بصرٍ، بينما لا يستطيع رؤيته شخص آخر مع تمتعه بالبصر !

الموت إعلان ناطق بأن المرء لا يملك أي اختيار في هذه الدنيا، فالموت يقيم الدليل على بطلان كل تلك الأشياء التي يلجأ المرء إلى الطغيان والإنكار اعتماداً عليها واغتراراً بها، والموت يعرف المرء بمدى عجزه وضعفه من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى يشعره بقدرة الله المطلقة، وهو يدل على أنه ليس ثمة من أحدٍ في هذه الدنيا يقدر على إيصال نفعٍ أو دفع ضرٍ، وهكذا يقطع الموت صلة المرء بكل شيء آخر ويقوده نحو الله عز وجل، وهو يجعل الإنسان عابداً لله حقاً، ولو أن المرء كان لديه الاستعداد لتلقي الدرس والعبرة لصار واقع الموت وحده كافياً لإصلاحه وتقويم سلوكه .

وكل إنسانٍ يمر عليه وقت لا يسعه فيه إلا أن يسلم نفسه للموت شاء أو أبى، كما أنه ليس في مقدور أحدٍ من الناس أن يسير أمور حياته كلها دوماً نحو الاتجاه الذي يريده هو؛ بحيث يحصل على المنفعة المطلوبة لديه على أية حالٍ، وينجو من الخسارة غير المطلوبة على أية حالٍ كذلك، كلا .. كلا .. بل الأمر كله بيد الله، وهو يفعل ما يشاء.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

بِوَكِيلٍ: بحفيظ موكول إلى أمركم .

إن عملية الدعوة هي في الأصل عملية إعلان الحق، ويفرغ الداعية من أداء مسئوليته تجاه تبليغ الرسالة إلى طائفةٍ ما، إذا هو أوضح لها أمر الحق بالأدلة والبراهين على أكمل وجهٍ، وإذا أقام الدليل على أنه جاد في هذا الشأن تمام الجدية .

ولو أن الداعي جعل أمر الحق واضحاً مبرهناً عليه، تبعاً لمقياس العصر، وأدى شهادة الحق كاملةً غير مكترث بالمنفعة والخسارة، وظل يواصل مسيرته الدعوية محتملاً كل أنواع الأذى والإساءة التي يلقاها على طول الطريق، فتقوم بعدئذٍ على المخاطب (المدعو) تلك الحجة القاطعة التي لا يبقى معها مجال القول عند الله لأي معتذرٍ .

وواجب الداعي الحقيقي هو اتباع الوحي، يعني ألا يبرح دائباً على دعوة الآخرين إلى مرضاة الرب، مع التمسك عملياً بمرضاة الرب والثبات عليها فيما يتصل بذاته وحياته هو، وهذا العمل لابد من مواصلته بالحكمة والصبر والنصيحة على أية حالٍ، وأما المراحل الباقية بعد ذلك، فهي كلها مرتبطة بالله تعالى ارتباطاً مباشراً، ولا يصح أن يُقدم الداعي على أية خطوةٍ عمليةٍ أخرى - غير الدعوة والتبليغ - إلا إذا كان ذلك مما قد قضي به من عند الله تعالى وبدأت آثاره وبوادره تلوح بوضوحٍ .

وإنما يظهر قضاء الله دوماً في صورة الأحوال والظروف، فحين يكون الداعي قد وصل من عمله الدعوي إلى الحد المطلوب عند الله تعالى، فإن الله - سبحانه وتعالى- يُحدث في الظروف والأوضاع القائمة آنئذٍ، تطوراتٍ وتغيراتٍ يستخدمها الداعي كجسرٍ ينتقل عبره إلى المرحلة التالية من عمله !

سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤ ﴾

أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ: نظمت نظما محكما رصينا .

فُصِّلَتْ: فرقت في التنزيل نجوما بالحكمة .

تتلخص دعوة القرآن الكريم في ألا يعبد المرء إلا الله الواحد الأحد ، لا يشرك بعبادته شيئاً ، فلا يخاف إلا منه، ولا يرجو إلا إياه ، وأن يكون تعالى هو المسيطر على عقله وقلبه، وأن يكون رضاه تعالى أشد ما يراعيه في شئون حياته العملية ، وأن يضع نفسه في مقام ((العابد)) ويرفع الله - عز وجل - إلى مقام "المعبود" وهو منشرح الصدر مرتاح البال.

والدعوة النبوية تتمثل أصلاً غاية وبأسلوب أوضح ما يكون .. والمطلوب من الإنسان الآن هو أن يقابل ذلك برد فعلٍ صحيح ؛ بألا يرفضه أو يعرض عنه متأثراً بعوامل الحقد والكبرياء والنفعية والعصبية الطائفية ، وما إلى ذلك من المشاعر والعواطف السلبية ، بل يبادر إلى الاعتراف به من غير ترددٍ أو مراوغة ، ويرجع إلى الله

سائلاً إياه العفو عن أخطائه الماضية، ويطلب منه العون والنصر لمستقبل حياته .

إذا قُدم إلى المرء طعام ، فتناوله بالقبول ، فمعنى ذلك أنه هيأ أسباب تنشئته الجسدية، وعلى العكس من ذلك لو أنه رفض الطعام .

وهكذا شأن دعوة الحق تماماً ؛ فحين يتقبل المرء الحق فإنه يتقبل في الحقيقة ذلك الرزق الرباني الذي يتسبب دخوله إلى أعماق وجوده في التنشئة الصالحة لروحه وجسمه معاً، والذي يفضي به في نهاية المطاف إلى درجةٍ من الارتقاء الروحي تجعله أهلاً لنعيم الجنة.

والذي يرفض قبول دعوة الحق فكأنه فرض على روحه الحرمان من فرص التنشئة الربانية .. وإذا كان المؤمن بالحق يعيش في التواضع ، فسيعيش هذا الأخير في البطر والكبرياء، وإذا كانت لحظات المؤمن بالحق عامرةً بذكر الله ، فستكون لحظات الأخير عامرةً بذكر غير الله ، وإذا كان ذلك متمسكاً بمسلك الطاعة الإلهية في مواقع الحياة كلها ، فإنه سيسلك فيها مسلك العناد والطغيان ، وستكون النتيجة أن الأول سيذهب من هذه الدنيا وروحه سليمة معافاة ، قد أخذت من السمو والارتقاء حظاً وافراً وصارت معه أهلاً لكي تسكن في أجواء الجنة الطيبة ، بينما ستكون روح الآخر مريضة ومنحطة ، بحيث لا تصلح لشيء سوى أن يُرمى بها في مزبلة جهنم !

﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝ ﴾

يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ: يطوونها على الكفر والعداوة .

لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ: من الله تعالى جهلا منهم .

يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ: يتغطون بها مبالغة في الاستخفاء .

وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا: موضع استقرارها في الأصلاب ، أو في الأرحام ونحوها .

وَمُسْتَوْدَعَهَا: موضع استيداعها في الأصلاب ، أو في الأرحام ونحوها ، أو في: الأصلاب.

حين عرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعوة التوحيد على بعض رؤساء قريش وساداتهم ، ما لبثوا أن التفوا بأرديتهم وانصرفوا من عنده غير مبالين به ولا بدعوته.

إن هذا مظهر من مظاهر الإعراض عن شيء ما ؛ فحين ينظر أحد الناس إلى الداعي بعين الاحتقار ، يجعل نفسه أرفع منه مكانةً وأعظم شأناً ، غير أن المرء ينسى أو يتناسى أن الله تعالى خبير بتلك المشاعر والدوافع الكامنة التي هي مصدر إعراضه وتحقيره .. وأن ذلك ليس مجرد إعراضٍ أو إهمالٍ لأحد البشر ، بل هو إهمال لله - سبحانه وتعالى - بالذات ؛ الذي يعلم السر والعلانية ، لا تخفى عليه خافية.

إذًا ، فكيف سيكون حال المرء حين يمثل بين يدي ربه ، وسيرى بعيني رأسه أن الله الذي كان قد أهمله وأعرض عنه في الدنيا ، كان هو الموجود الذي أعطاه كل ما كان عنده، حتى سائر أسباب القوة والجاه ، تلك التي كانت مبعث رفضه لأمر الله .. إن المرء في دنيا الله، وهو راجع آخر الأمر إلى الله تعالى ، ولكنه يعيش هنا كما لو أنه ليس ثمة علاقة ما تربطه بالله اليوم ، ولا هو مضطر إلى لقاء الله أو الاتصال به في القادم !!

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾

لِيَبْلُوَكُمْ: ليختبركم وهو أعلم بأمركم .

أَحْسَنُ عَمَلاً: أطوع لله وأروع عن محارمه .

أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ: طائفة من الأيام قليلة .

وَحَاقَ بِهِم: نزل وأحاط بهم .

لقد أنشأ الله العالم الراهن في ستة أيامٍ ، أي في ست فتراتٍ أو مراحل (periods) ، وقد مر على الأرض حين من الدهر كان سطحها فيه مغطىٍ بالماء ، إذا لم يكن يُرى وقتئذٍ في هذا الجزء من مملكة الله - عز وجل - سوى الماء ليس غير ، ثم ارتفعت من بعد ذلك مناطق البر ، واجتمعت المياه في أعماق البحار بإذن الله - سبحانه وتعالى - وهكذا صار ممكناً أن تظهر على وجه الأرض هذه الأنواع المختلفة من الكائنات الحية .

ومع أن الله قادر على أن يحدث الوقائع فجائياً ، أي دفعةً واحدةً ، غير أن هذا العالم أنشئ كدار امتحان للإنسان ، وللسبب ذاته فقد أوجد الله العالم الراهن تبعاً لخطة مرسومة ، ووضع على إبداعاته العظيمة ستار الأسباب والعلل .

والهدف من إيجاد العالم وتوطين البشر في أرجائه هو انتخاب من يحسن منهم عملاً .. و((العمل الحسن)) أو ((العمل الصالح)) هو في الحقيقة اسم ثانٍ للعمل الواقعي يعني أن يعمل المرء ما ينبغي له أن يعمل بمقتضى الحقيقة وبدون أي ضغطٍ خارجي ، فالشخص الواقعي هو الذي ينظر إلى تدبير الله الخفي من خلال الأسباب الظاهرية ، والذي يجرد نفسه من كل خيارٍ مع تمتعه - في ظاهر الأمر - بالاختيار الكامل ، ويصبح خاضعاً لأمر الله ، مطيعاً له مع قدرته على العيش طاغياً ومتمرداً .

وفي العالم الراهن تجرى عملية الانتخاب لأمثال هؤلاء الواقعيين ، وحينما تنتهي فترة الانتخاب هذه فسيتم إحلال نظامٍ معياريٍ آخر محل النظام الحالي ، حيث المحسنون وحدهم سيتمتعون بكل الأشياء الحسنة والطيبة ، وللمسيئين وحدهم

ستكون كل الأشياء السيئة والخبيثة هناك!!

إن الله - سبحانه وتعالى - لا يؤاخذ المنكرين والطغاة مؤاخذةً فوريةً ، بسبب سنته الجارية عن الإمهال .. فهو يتيح لهم الفرصة إلى أقصى الحدود ، فإما أن تستيقظ ضمائرهم فيقوموا بإصلاح أنفسهم ، وإما أن يقيموا بأنفسهم الدليل على جريمتهم وطغيانهم بصورةٍ قطعيةٍ ، وسنة الإمهال هذه توقع بعض الطغاة والمتمردين في سوءٍ فهمٍ وغرورٍ ، مما يخرجهم عن طورهم ، ويجعلهم يتحذلقون أمام دعاة الله ويتحدّونهم، ولكنهم حين يتعرضون لبطش الله وعقابه ، فسيتضح لهم كم كانوا ضعفاء عاجزين إزاء الله عز وجل ؟!

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

إِنَّهُ لَيَئُوسٌ: شديد اليأس والقنوط .

كَفُورٌ: كثير الكفران للنعم.

ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ: نائبة ونكبة أصابته .

إِنَّهُ لَفَرِحٌ: لبطر بالنعمة ، مغتر بها .

فَخُورٌ: على الناس بما أوتي من النعم .

يمر المرء في العالم الراهن بأحوالٍ وظروفٍ شتى ؛ يُتاح له الرخاء والعافية حيناً ، ويصيبه البلاء والشدة حيناً آخر ، ولكن ليست العافية هنا على وجه الإنعام ، ولا المصيبة لأجل التعذيب ؛ إذْ الهدف النهائي من كلتيهما هو الابتلاء والاختبار ، إن هذه الدنيا دار امتحانٍ ، وإن كل ما يواجهه المرء إنما يكون بغرض معرفة رد الفعل الذي يقدمه في ظل مختلف الظروف والأحوال .. وإنه لفاشل ذلك الشخص الذي إذا منحه

الله نعمة الرخاء والعافية ، أصيب بنفسية الفخر ، وبالتالي أخذ في البطر والتعاظم على الذين يراهم دونه .. كما أنه فاشل أيضاً ذلك الذي إذا ما انتزع منه شيء ما وابتلى بمصيبة ما ، بات يكفر بالله .. إن المرء لا يزال يتوفر لديه الكثير من نعم الله تعالى حتى بعد حرمانه من بعض الأشياء ، إلا أنه يذهل عن ذلك كله ، وتسقط همته ، حزناً وأسفاً على ما فاته أو فقده ، إلى حدٍ يبدو معه كما لو أنه سلب منه كل شيء!!

وعلى نقيضٍ من ذلك ، فإن المؤمنين الصادقين في الإيمان هم الصابرون والعاملون صالح الأعمال ؛ أي الذين لا يحيدون عن جادة الاعتدال والاستقامة رغم كل صدمةٍ أو هزةٍ تصيبهم في الحياة ، والذين يفعلون دوماً ما ينبغي لهم أن يفعلوا كعبادٍ لله مخلصين .

والصبر هو : ألا تتكون نفسية المرء نتيجة التأثر بالأحوال والظروف ، بل تتكون تبعاً للمبادئ والنظريات ، فمهما تأزمت الظروف ، واشتد الظلام ، ينبغي عليه أن يبني رأيه مترفعاً عنها على ضوء الحق الخالص وحده ، وأن يكون قادراً على البقاء حياً على مستوى عقيدته وشعوره الداخلي من غير تأثرٍ أو انفعالٍ بالظروف والأحوال الخارجية، وأن حياة كهذه هي الحياة الصالحة حقاً ، والذين يقيمون الدليل على هذا الصلاح العملي في الحياة الدنيا ، هم الذين سيفوزون في الحياة القادمة بأوفر نصيب من رحمات الله ، وسيدخلون جنات الله الأبدية .

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

وَكِيلٌ: قائم به حافظ له .

حين قام رسول الله ﷺ بإبطال الشرك ، ودعا الناس إلى التوحيد ، لم يلبث مخاطبوه أن تزمروا عليه .. ذلك لأن دعوته - عليه الصلاة والسلام - كانت تتضمن النقد والتجريح لأكابرهم ، الذين كانوا يتبعون دينهم ، ويعتزون بالانتماء إليهم .. فقد كان العرب يثورون بشدةٍ إذْ يسمعون رجلاً يتحدث بما يجرد أكابرهم وعظماءهم من كل ثقةٍ واعتبارٍ !

وربما يخطر ببال الداعي ، وهو يواجه هذه الثورة ضده ، أن يتخلى ، ولو بصفةٍ وقتيةٍ عن الأسلوب النقدي ، ويكتفي بعرض رسالته فقط ، والمراد بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ نفس هذا الجانب الانتقادي من الوحي الإلهي .. بيد أن المطلوب عند الله تعالى هو التبيين والإيضاح ، والإيضاح لا يمكن بدون الانتقاد، إذًا فما الذي يدعو إلى الشعور بالضيق أو الانزعاج فيما لو اتخذ الناس من الداعي موضوع الاستهزاء والمعارضة نتيجة قيامه بإيضاح الحق على أكمل وجهٍ ؟! إن هذا الموقف المعارض الذي يتبناه المدعو ، هو الثمن الذي لابد من دفعه لكل مَنْ يقيم نفسه مقام الداعي إلى الحق في هذه الدنيا!!

إن أوثق وأقطع دليلٍ على كون داعية الله على الحق ، هو كلامه المعجز الذي لا يُستطاع تقليده ولا محاكاته ، فالذين كانوا ينظرون إلى النبي بعين الاحتقار ، ولم يكونوا مستعدين للاقتناع بأن هذا الرجل قد ظفر بصدقٍ لم يظفر به حتى أكابرهم الأقدمون؟ قيل لهم: لا تختبروا صدق النبي بالقياس إلى وضعه المادي ، بل انظروا إليه من حيث إن الكلام الذي يعرض به دعوته هو كلام عظيم لدرجة أنكم أنتم وأكابركم لن تستطيعوا الإتيان بمثله.. إن هذا التمييز الفريد المعجز ليقيم دليلاً قطعياً على أن النبي إنما يبلغ عن الله ، ولا يتكلم من عند نفسه ، وماذا ينتظر الناس ، بعد قيام هذا البرهان الجلي على كون النبي محقاً وصادقاً ؟ ماذا ينتظرون بعده لكي يستسلموا لله ويذعنوا لأوامره تعالى!؟!

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

لَا يُبْخَسُونَ: لا ينقصون شيئا من أجور أعمالهم .

وَحَبِطَ: بطل في الآخرة .

الدين نوعان: دين مغشوش ، ودين خالص .

أما الدين المغشوش : فهو عبارة عن إضفاء شعار الدين على الدنيا ، وهو يبرز إلى الوجود نتيجة المصالحة أو الملاءمة بين الدنيا والدين ، وهذا هو السبب في أننا نجد هناك مؤسساتٍ ضخمة تُقام على أساسٍ من الدين المغشوش في كل العصور ؛ حيث يحصل النفعيون عن طريقه على زخارف الدنيا باسم الدين!

أما الدين الخالص : فأمره بالعكس من ذلك تماماً ، فحين تقوم دعوة الدين الخالص في بيئةٍ ما ، لا تعدو أن تكون صدقاً نظرياً ؛ لا ترتبط به المنافع الاقتصادية ، ولا المصالح القيادية ، وفي وضع كهذا ، حين تُعرض دعوة الدين الخالص على أولئك الذين تبوأوا مراكز الشرف والسيادة في المجتمع باسم الدين المغشوش ، لا يلبثون أن ينزعجوا أشد الانزعاج ، إذْ يخيل إليهم ، فيما إذا تلقوها بالقبول ، أن كل الأشياء الدنيوية التي يتمتعون بها الآن ، ستنتزع منهم انتزعاً !

وعلى هذا الاعتبار فقيام دعوة الدين الخالص في بيئةٍ ما ، يعني تفجر امتحان خطير هناك ، وفي مثل هذه المناسبة فالذين يفضلون شرف الدنيا ومنافعها ولا يناصرون الدين الخالص ، تُسجل جهودهم وأعمالهم كلها في خانة الدنيا ؛ لأنهم وقفوا إلى جانب الدين الذي رأوا فيه ضماناً لمنافعهم الدنيوية ، ولم ينضووا تحت راية الدين الذي بدا لهم أنه سيسلب منهم كل امتيازاتهم ومنافعهم الدنيوية ، وهؤلاء ، وإن كانوا مشغولين في

ظاهر الأمر بأعمالٍ دينيةٍ ، إلا أنهم ، من حيث مقصدهم الأصلي ، إنما يسعون وراء الحصول على الدنيا ، ومن الواضح أن جهوداً ومحاولاتٍ كهذه لن تثمر في الآخرة شيئاً ! ، ومع أن هؤلاء كانوا يسمون أنشطتهم وأعمالهم بأسماء دينية ، فكانوا يعلقون على مهرجاناتهم القومية يافطات تحمل عنوان «الاحتفال الديني» ، وكانوا يطلقون على معاركهم القومية اسم الحرب المقدسة ، وكانوا يصفون مناوراتهم القيادية بالمؤتمر الديني ، وكانوا يتحدثون عن صراعاتهم السياسية بمصطلحات الدين ، وكانوا يملؤون الدنيا صراخاً وعويلاً مدفعوين بعواطفهم الدنيوية ، وكانوا ينسبون ذلك إلى الله ورسوله .. غير أن هذه التعبيرات كلها كانت على أرض الدنيا ، ولم تكن على أرض الآخرة ، ولذا فسوف يدمرها زلزال القيامة كل التدمير ، وبالتالي فلن يعود على أصحابها أي فائدةٍ منها في العالم القادم!!

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

بَيِّنَةٍ: يقين وبرهان واضح وهو القرآن .

شَاهِدٌ: على تنزيله من عند الله .

مِرْيَةٍ مِّنْهُ: شك من تنزيله من عند الله .

الأَشْهَادُ: الملائكة والنبيون والجوارح .

حين عرض رسول الله ﷺ دعوة التوحيد على العرب ، آمن به منهم قليلون ، وصار أكثرهم كافرين به منكرين لدعوته ، وقد تكررت هذه الظاهرة مع دعوة الحق في كل عصور التاريخ .

لقد خلق الله كل إنسانٍ على الفطرة الصحيحة ، والعالم المحيط بنا من كل جهةٍ ،

يزخر بآياتٍ تشهد بوجود الخالق ، وتشير إلى تدبيره التكويني ، ثم إن البشرية مازالت ، منذ بدء الخليقة ، يُبعث فيها أنبياء الله ، يرشدون الناس إلى أحكام الله ووصاياه ، وقد كان من بين أولئك الأنبياء سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - الذي لم يزل كتابه الذي جاءه به - أي التوراة - موجوداً - ولو بصورةٍ محرفةٍ - بين أيدي الناس حتى اليوم، والآن فالشخص الذي يكون جاداً ، ويعرف كيفية تلقي الدرس من الأشياء ، فإن الحقيقة ستكون مألوفة لديه لدرجة أن الداعي عندما يقوم بإعلان الحقيقة أمامه يعرفها على الفور ، ويجد قلبه وعقله يشهدان بحقية الحق ، وبالتالي فهو يبادر إلى القبول به.

على أن أكثر الناس لا ينظرون إلى الأمور بكثير من الجدية ، وهم يفسدون أمزجتهم وعقولهم بإغراقهم في الملذات السطحية والرغبات الوقتية ، وانشغالهم بالأمور الفارغة لا تتيح لهم الفرصة لكي يقفوا عند الداعي ودعوته وقفة تأملٍ وتدبرٍ ، ومن ثم فحين تُقدّم إليهم دعوة الحق فلا يستطيعون معرفتها ، ولا يلبثون ، أن يتصدوْا لإنكارها بل ولمعارضتها ومناصبة العداء لها ، هؤلاء أناس لم يقدروا الله حق قدره ، وليس لهم في الآخرة شيء سوى نار جهنم!

إن الفطرة الإنسانية ، والأحداث الجارية بين السماوات والأرض ، والكتب السماوية السابقة ، كلها شاهدة على كون القرآن كتاب حقٍ حتى لو كان أغلبية الناس تقابله بالرفض والإنكار ؛ فإنما ينبغي أن يُبحث عن سبب ذلك لدى المنكرين ، دون أن يُشك في كون القرآن نفسه كتاب الحق!

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ

يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً: يطلبونها معوجة أو ذات اعوجاج .

مُعْجِزِينَ: فائتين من عذاب الله بالهرب .

لاَ جَرَمَ: حق وثبت أو لا محالة أو حقا .

ليس المراد بـ ((افتراء الكذب على الله)) الكذب على ذات الله ؛ بل الكذب على رسالة الله ؛ فالله – سبحانه وتعالى – لا يظهر بنفسه أمام الناس لإعلامهم برسالته ، بل يعلنها على لسان رجلٍ من البشر ، ويكون هذا الرجل وقتئذٍ إنساناً عادياً ، غير أن كلامه يكون متضمناً لتوجيهات الله الواضحة الجلية ، ولو أن الناس نظروا إليه من حيث كلامه ، لأدركوا الله في جوانب عظمته وروعته ، ولكن سطحية الناس وعبوديتهم للظواهر تجعل أنظارهم تتورط في وضع المبلّغ العادي ؛ فهم يشاهدون كون الرسول المبلغ عادياً، ولا يشاهدون كون رسالته على مستوىً غير عاديٍ ، ومن ثم فهم يقابلونها بالتهكم والاستهزاء، ويفتعلون اعتراضات كاذبةً واهيةً على كلامه ، ويعرضون عنه كما لو أنه لا يتمتع بأية أهمية أو قيمة تُذكر!!

والسبب الأصلي وراء هذا الموقف الظالم هو نفسية انعدام الخوف ، حيث إن الناس يعوذهم اليقين بالآخرة ، وقلوبهم خاوية عن الخشية من الله القاهر الجبار ، ولذا فهم لا يأخذون رسالته بمأخذٍ جديٍ ، ولا يزال المرء فاشلاً دوماً في تقديم رد فعلٍ صحيح إزاء كل شيءٍ لا يأخذه بتمام الجد .

على أن عدم جدية الناس هذا سيزول عنهم حين يمثلون بين يدي مالك الكون يوم القيامة ، فإن حريتهم الحالية ستكون وقتئذٍ قد انتزعت منهم ، كما أن الأسباب

والوسائل التي كانت مصدر غرورهم وطغيانهم ، ستتحول إلى شرائط مسجلةٍ تنطق بالشهادة ضدهم، وحينئذٍ سيتضح بجلاءٍ أن السبب فى تكذيبهم بداعية الله لم يكن يرجع إلى عجزهم عن فهمه، بل إلى كونهم غير جادين بشأنه ، إن أهوال القيامة المروعة ستجعلهم فجأةً ، وعلى نحوٍ تلقائى ، جادين إلى أقصى حدود الجدية ، وبالتالى ففى حالة العجز الطارئة عليهم يومئذٍ لن يلبثوا أن يفهموا الأمر الذي لم يكونوا يستطيعون فهمه على وجهه في ظل الحرية المتاحة لهم فى الدنيا!!

لقد منح الله الإنسان مواهب عليا ؛ لو أنه أحسن استخدامها لتمكن من أن يتفهم كل أمرٍ بدقةٍ و عمق بالغين، والواقع أنه يكون هكذا تماماً فيما يتصل بشئونه الدنيوية ، إلا أنه يصبح فيما يتعلق بأمور الآخرة أصمّ ، رغم تمتعه بالسمع ، ويصير أعمى ، مع تمتعه بالبصر!!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ: اطمأنوا إلى وعده أو خشعوا له .

معنى الإخبات : هو التخشع والانكسار .. يقال : هو خبيت القلب أي منكسره، وهذا هو جوهر الإيمان وخلاصته ، فليس الإيمان بشيء يُورث ولا هو أداء لسانيا لمجموعة لفظيةً ما .. إن الإيمان اكتشاف ؛ فحين يظفر المرء بالله باستخدام سمعه وبصره ، ويدرك في مقابل ذلك حقيقة وضعه هو ، فإن الكيفية التي تعتريه ساعتئذٍ هي التي تسمى الخشوع (الإخبات) ، والخشوع هو نتيجة لازمة لمعرفتك وضع نفسك الواقعي بالمقارنة مع الله عز وجل .

إن الإيمان والإخبات والعمل الصالح ، كل هذه الثلاثة ليست إلا أبعاداً أو جوانب

مختلفةً لحقيقةٍ واحدةٍ .. فالإيمان هو اكتشاف شعوري لوجود الله وما يتصف به من صفات الكمال ، والإخبات علم على تلك الحالة القلبية التي تتولد بالضرورة في داخل المرء نتيجة اكتشافه لله ، أما العمل الصالح فهو المظهر الخارجي لذلك الشعور ولهذه الكيفية الداخلية ، فحين يفكر المرء بذهن الله ، وحين يمتلئ صدره بالكيفيات الإلهية ؛ فإن حياته الظاهرية تتحول بعدئذٍ إلى العمل الرباني ، وهذا هو العمل الصالح والشخص الذي تجسدت في كيانه حقيقة الإيمان والإخبات والعمل الصالح ، هو الإنسان المطلوب عند الله تعالى ، وذلك هو الإنسان الذي سيتم إسكانه في حدائق الجنة الأبدية .

ومن خلال إيجاد ظروف الامتحان من مستوىً عالٍ في هذه الدنيا ، ينظر الله إلى أي الفريقين من الناس يضم كل واحدٍ منا نفسه ؟! أما أحد الفريقين فهو الذي عرف الحقيقة الواقعة باستخدام سعته وبصره - أي شعوره - على نحوٍ صحيحٍ،وبالتالي قام بصوغ فكره وعمله تبعاً لمقتضاها ، وهذا هو الفريق الموصوف بالسميع والبصير ، أما الفريق الآخر فهو الذي لم يستخدم سمعه وبصره على نحوٍ صحيحٍ ، فلا هو ظفر بمعرفة الحقيقة الواقعة، ولا تمكن من إفراغ فكره وعمله في قالبها ، ومن ثم فهو الأعمى والأصم .. وواضح أن كلا هذين النوعين يختلفان كل الاختلاف ، وبالتالي فلا يمكن أن يلقيا مصيراً مماثلاً .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

المَلأُ: السادة والرؤساء .

بَادِيَ الرَّأْيِ: ظاهرين دون تعمق وثبت .

إن كل الأنبياء المبعوثين من عند الله ، إنما بُعثوا لإعلام البشر بمنهج الله الذي يتلخص في أن الإنسان إنما وضع في العالم الراهن بغرض الامتحان والاختبار ، ومع أن الفرصة هنا متاحة - على ما يظهر - لعبادة أشياء مختلفةٍ ، غير أن المطلوب الأصلي من الإنسان هو أن يعبد الله وحده ، والذين لا يأخذون أنفسهم بعبادة الله وحده ، فقد فشلوا في الامتحان .. ولأمثال هؤلاء عذاب شديد في الحياة القادمة بعد الموت.

وقد عرض سيدنا نوحٍ - عليه الصلاة والسلام - على قومه هذا الأمر نفسه ، وصار لهم نذيراً مبيناً ، على أن قومه - عليه السلام - لم يؤمنوا بدعوته .

إن داعية الله حين يبعث، فإنه يبدو لمعاصريه واحداً من البشر ليس غير ، إذْ لا يحيط به أي رمزٍ أو هالةٍ من المجد والعظمة الدنيوية بعد، ومن ناحية أخرى فإن الدين الذي يحمل لواءه لا يكون قد ارتبطت به المنافع الدنيوية بعد، ولذلك فإن أغلب المبادرين إلى اعتناقه يكونون من الفقراء والبائسين الذين لا يُضطرون إلى فقْد شيءٍ ما رخيصٍ أو غالٍ نتيجة اعتناقهم للدين الجديد ، ويصير هذا الوضع بالنسبة إلى أكابر العصر على وجه أخص ، فتنةً ، حيث إنهم يحسبون أن هؤلاء إذا كانوا لا تتوفر لديهم أسباب الدنيا، فإن الحق لا يمكن أن يكون معهم، وقد يخرج من بين القوم رجال لا يتحرجون حتى من رمْي الداعية وأتباعه بالكذب والخداع!

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ

لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

أَرَأَيْتُمْ: أخبرونى .

فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ: أخفيت عليكم .

خَزَائِنُ الله: خزائن رزقه وماله .

تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ: تستحقروهم وتستهين بهم .

أريد بـ ((البينة)) هنا الدليل والبرهان ، وبـ ((الرحمة)) النبوة [1].

ويتضح من هذا أن النبي حين يدعو قوماً ما ، فإنه يستند إلى شيئين اثنين ، و هما : الدليل والنبوة .. وإذا نهض أحد من الدعاة للدعوة على أثر النبي ، لا ولن يكون داعياً حقاً، إلا إذا كان قائماً على أساسٍ من هذين الشيئين ، مع الفارق القائل بأن الشيء الأخير الذي يوجد لديه بعد الدليل والبرهان ، سيكون متاحاً له عن طريق النبي بصفةٍ غير مباشرةٍ ، بينما يتلقاه النبى مباشرةً من قبل الله عز وجل .

وإن قوماً حين يُهملون داعية الله ويعرضون عنه نظراً لكونه لا يتمتع - على ما يبدو- بشيءٍ هامٍ جديرٍ بالاعتبار ، فإنه يتوفر لديه ، في الوقت نفسه ، شيء بالغ الأهمية، ألا وهو الدليل والهداية .. فالداعي إلى الله لا يزال متمتعاً بعظمة الدليل والهداية على أكمل وجهٍ ، إلا أنها - على أية حالٍ - عظمة معنوية ، وأن تتجلى العظمة المعنوية لأقوامٍ تعلقت عيونهم بالمظاهر والأشكال السطحية . وعمل الدعوة إلى الله عمل أخروي خالص ، ولابد لتأديته على وجهه ألا يثور نزاع ما حول المال أو الأرض بين الداعي والمدعو ، وإن الداعي هو المسئول عن إبقاء العلاقات بينه وبين المدعو هادئةً

---

(١) تفسير النسفي.

وغير متوترة ، وبالتالي يتعين عليه أن يقوم بإنهاء كل النزاعات المادية والاقتصادية معه من طرفٍ واحدٍ ، وأما الداعى الذى ينهض ، للدعوة ، ويقود مسيرة الاحتجاج والمطالبة ضد المدعو لأجل الأشياء والمطالب الدنيوية ، فإنه ليس بداعٍ ، بل هو مهرّج ساخر، ولا يمكن أن تكون له قيمة ما في عين المدعو ، ولا يقام له وزن عند الله تعالى !

وامتحان المدعو يتمثل في أن يتمكن من مشاهدة عظمة الحق في إنسانٍ غير عظيمٍ فى ظاهر الأمر ، كما أن امتحان الداعي هو ألا يأخذ يرحب بشخصٍ غير متدينٍ ويحسن استقباله لأنه ذو مالٍ وجاهٍ ، ولا يعتبر شخصاً متديناً غير ذي أهميةٍ واعتبارٍ لكونه لا تتوفر لديه مظاهر الأبّهة الدنيوية ، وإن فعل الداعي ذلك فسيكون معناه أنه يعظ بلسانه عن أهمية الآخرة ، بينما يبرهن بعمله على أهمية الدنيا ، والظاهر أن هذا مناقضة.. فهل يمكن أن تكون لدى الآخرين قيمة ما لشخصٍ يناقض نفسه بنفسه؟! كلا !

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَالَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٣٤ ﴾

أَنتُم بِمُعْجِزِينَ: بفائتين من عذاب الله بالهرب .

أَن يُغْوِيَكُمْ: يضلكم .

لم يكن سيدنا نوحٍ عليه السلام قد عمد إلى الجدال - أي الخصومة والمناظرة - مع قومه ، وإنما كان يبلغهم رسالته الصالحة بأسلوبٍ جادٍ ، غير أن دعوته الجادة كانت تبدو لقومه على غير وجهها، والسبب في ذلك يرجع إلى ضعف الإنسان ، الذي يجعله يفقد جديّته وتوازنه حين تتعرض ذاته للنقد والتجريح ، فهو لا ينظر إلى مثل هذا الحديث

من حيث الدليل والبرهان ، بل إنه يرفضه من غير رويةٍ ولا تفكرٍ ، حتى إن دلائل داعية الحق الواضحة المحكمة تتراءى له كأنها جدل ونقاش فارغ !!

وعبارة ﴿ فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ ليست أصلاً للدلالة على ما قاله نوح ، بل هي تدل على أي محملٍ كان سامعوه قد حملوا قوله!!

وهكذا لم يكن استعجال معارضى نوحٍ للعذاب حقيقةً استعجال العذاب ، بل كان ذلك تهكماً واستهزاءً بنوحٍ ، لاعتبارهم إياه يدعي أمراً لن يكون أبداً .. حيث إنهم كانوا يعدّون مركزهم وطيداً راسخ الدعائم إلى حدٍ لم يكن معه ، حسب زعمهم ، أي احتمال لمجيء العذاب من أي مكان .. وانطلاقاً من هذا الزعم قالوا له : ائتنا بالعذاب الذي تعدنا به جزاء إنكارنا وتكذيبنا لرسالتك .. وبما أن عذاباً كهذا لم يكن ليأتي أبداً في زعمهم ، لذا فقد كان المفهوم الضمنى لذلك : إننا على الحق وأنت وأتباعك على الباطل !! ، فأجابهم سيدنا نوح عليه السلام : إنكم تنظرون إلى الأمر بالنسبة إليّ أنا ، وبما أنني ضعيف ، يتعذر على أفهامكم أن هذا العذاب يمكن أن يحل عليكم يوماً ما ، ولكن لو أنكم نظرتم إلى الأمر بالنسبة إلى الله عز وجل، لما قلتم ما تقولون ، ولأدركتم جيداً أن حلول العذاب على الظالمين في هذا العالم حتمي تماماً كطلوع الشمس وانفجار البركان .

إن إيمانك بقول الداعي إلى الحق يتوقف كلياً على ألا تنظر إليه من حيث القائل ، بل من حيث ما قال ، وبما أن قوم نوحٍ عليه السلام كانوا يعدون أمره أمر إنسانٍ عاديٍ محضٍ ، لذا فقد صرح لهم قائلاً : إنكم لن تستطيعوا أبداً ما دمتم أسرى هذا التفكير المعوج، أن تقدروا كلامي حق قدره ، وليس لي الآن سوى أن أرتقب اليوم الذي يتجلى فيه رب السموات والأرض عياناً !

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

فَعَلَيَّ إِجْرَامِي: عقاب اكتسابي ذنبي .

إن الذين كانوا يقولون إن النبي قد اختلق هذا الكلام من عند نفسه ، وأنه ليس من عند الله ، لم يكونوا منكرين للوحي والإلهام أصلاً ، حتى إنهم كانوا يؤمنون بالأنبياء السابقين ؛ إذًا فما الذى جعلهم يقولون هكذا؟!

إنه لم يكن فى الواقع إنكاراً لوحى ، بل كان إنكاراً لمن أوحى إليه .. فإن الذى قام مبلغاً عن الله ، كان يبدو للناظرين آنئذٍ إنساناً عادياً وبالتالي كان يصعب عليهم ، لكونهم عبدة الظواهر ، أن يفهموا أن يكون رجل كهذا اختاره الله لتبليغ رسالته إلى الناس !!

وإن قوله : ﴿ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ هو فى الأصل كلمة وداع ، فحين لا يؤمن المخاطَب بالدعوة ، اقتناعاً بالدليل ، ولا يزال مصراً على الجمود والإنكار ، رغم كل بيانٍ وإيضاحٍ ، فيشعر الداعي عندئذٍ بأنه لا يسعه الآن إلا أن يلوذ بالصمت قائلاً : أنا وأنتم جميعاً محضرون آخر الأمر بين يدي الحاكم الحقيقي ، حيث سيُكشف عن سرائر الجميع ، وسيُجزى الكل هناك تبعاً لما كان عليه من حيث الحقيقة جزاءً وفاقاً !!

وإنه حين يصبح منطق الدليل غير ذي أثرٍ فعالٍ لدى المدعو لشدة عناده وقسوة قلبه فلا يبقى أمام الداعية مجال سوى أن يعتزله مودعاً إياه بكلمات الثقة واليقين!

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

فَلاَ تَبْتَئِسْ: فلا تحزن .

بِأَعْيُنِنَا: بحفظنا وكلأتنا الكاملين .

يُخْزِيهِ: يذله ويهينه .

وَيَحِلُّ عَلَيْهِ: يجب عليه وينزل به .

الإيمان المطلوب من الإنسان هو الإيمان الذي يعتنقه عن وعي وبناءً على قراره الحر والذين لا يؤمنون، رغم قيام النبي بعمل دعوي يدوم مدةً من الزمان طويلةً ، فإنما هم يثبتون بذلك أنهم غير مستعدين ليكونوا مؤمنين بالله بناءً على قرارهم الحر ، وتكون المرحلة الثانية والأخيرة لأمثال هؤلاء أن تُنتزع منهم حريتهم ، ويُساقوا مباشرةً إلى الله ذي الجلال والجبروت، حتى يسلموا كمجرمين بالشيء الذي لم يكونوا قد سلموا به كمؤمنين ، ويلقوا بالتالي أسوأ الجزاء على عنادهم وطغيانهم!

وقد كانت هذه الساعة - الساعة الحاسمة - اقتربت من قوم نوحٍ بعد أن ظل يدعوهم إلى الله ويبلغهم رسالة ربه لمئاتٍ من السنين - تسعمائة وخمسة وخمسون سنة - وبعدئذ أمر سيدنا نوح - عليه السلام - بأن يتفرغ من عمل الدعوة والبلاغ ، ويقوم بإعداد سفينة ؛ يتحصن بها هو وأتباعه المؤمنون ؛ حين يجيء طوفان الله لإهلاك الطغاة غرقاً !

وقد قام سيدنا نوح عليه السلام بإعداد سفينة ضخمة ذات طبقاتٍ ثلاثٍ ، وقد استغرق إعدادها عدة سنواتٍ ، وعندما كان نوح مشغولاً برفقة أصحابه بإعداد السفينة، كان طغاة قومه يمرون عليهم ، وبما أنهم كانوا يعدون أمر العذاب شيئاً افتراضياً محضاً ؛ راحوا يستهزئون ويتندرون بهم بوقاحة أشد وأكثر !!

لو أن أحد الناس كان يدخر أموالاً طائلةً عن طريق العدوان والجور ، فإن عبدة الظواهر سيعتبرونه ناجحاً بالنظر إلى ما يحيط به من زخارف الدنيا ومباهجها ، غير أن الرجل البصير الذي يعلم أن نظام العالم يسير تبعاً للقوانين الأخلاقية الثابتة ، سوف يرى في النجاح الوقتي المتاح للشخص المذكور مشهد دمارٍ رهيبٍ سيلحق به عاجلاً

أو آجلاً .. وعبدة الظواهر من قوم نوحٍ وإن كانوا يسخرون من سيدنا نوحٍ عليه السلام غير أنهم كانوا هم الآخرين موضوع السخرية والاستهزاء في عين الحقيقة الواقعة!

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

وَفَارَ التَّنُّورُ: نبع الماء وجاش بشدة من تنور الخبز المعروف .

مَجْرَاهَا: وقت إجرائها .

وَمُرْسَاهَا: وقت إرسالها .

سَآوِي: سألتجئ وأستند .

لاَ عَاصِمَ: لا مانع ولا حافظ .

أَقْلِعِي: أمسكي عن إنزال المطر .

وَغِيضَ المَاءُ: نقص وذهب في الأرض.

وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ: استقرت على جبل بقرب الموصل .

بُعْداً: هلاكا وسحقا .

ولم يكد يتم إعداد السفينة ، حتى بدأت تهبّ العواصف الهوجاء بإذن الله ، وتفجرت الأرض ينابيع تفور ، وبدأ ينزل المطر من السماء بغزارةٍ واستمرارٍ ، حتى بلغ السيل الزبي ، وطغى الماء في كل مكانٍ ، وهلك فيه كل الناس غرقاً ، ولم ينج من الهلاك سوى ذلك العدد القليل - من البشر والحيوانات - الذي كان راكباً في سفينة نوحٍ ، حتى إن ابن سيدنا نوح صار هو الآخر من المغرقين !

إن قيمة أحد الناس عند الله إنما تُقدر بعمله ، وليس بقرابته ، حتى ولو كانت قرابة النبى !!

ولما هلك كل أولئك الذين قُضي عليهم بالغرق عن آخرهم ، أمر الله الطوفان بأن يهدأ ، فهدأ الطوفان ، بحيث انصبت المياه في البحار والأنهار ، وصارت الأرض ثانيةً جديرة بالسكنى والعمران .

وقد رأى الراؤون بمناسبة طوفان نوحٍ أن الصاعدين على قمم الجبال الشامخة ، هلكوا غرقاً ، بينما بقي ركاب السفينة سالمين رغم تدافع أمواجٍ هائلةٍ من حولها ، ولم يكن سبب ذلك كامناً في الجبل أو السفينة ، وإنما كان السبب في ذلك يكمن في أنه كان أمر الله، فلو أن أمر الله كان مع الجبل ، لنجا الصاعدون عليه من الهلاك ، ولهلك الراكبون في السفينة ، على أن أمر الله كان بهذه المناسبة مع السفينة ، ومن ثم فقد نجا ركابها ، وذهب المتحصنون بالأشياء الأخرى عداها ضحايا الطوفان !

إن نظام الأسباب والعلل السائد في هذه الدنيا ليس إلا ستاراً محضاً ، وإلا فكل ما يحدث هنا إنما يحدث بأمر الله مباشرةً ، وإن امتحان الإنسان هو أن ينظر إلى الحقيقة الأصلية من خلال الستار الظاهري ، ويدرك القدرات الإلهية من حيث أنها هي المتصرفة في الأسباب ، العاملة وراءها كما تشاء!

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا

لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾

لقد كان كنعان ، ولد نوحٍ أيضاً ، من بين أولئك الذين راحوا ضحايا الطوفان ، وقد حاول سيدنا نوح أن يُركبه في سفينته ، إلا أنه لم يركب معه ، لكونه قد كُتب عليه الهلاك غرقاً .. ثم تضرع الوالد المفجوع إلى الله تعالى، سائلاً إياه النجاة لولده ، فأجيب بأن هذا سؤال لا يليق بك ، إنما هو سؤال الجاهلين ، فلا تكن منهم !

والواقع أن قضاء الله محايد لا محاباة فيه ولا مواربة ؛ فهو لا يمنح أحداً من الناس النجاة ويدخله الجنة لأنه من أبناء الصالحين ، أو أنه من المتمسكين بأذيال بعض الشيوخ ، وإنما يصدر قضاء الله بالنجاة لأحدٍ على أساسٍ من العمل الخالص ، وليس على أساسٍ من أواصر القربى أو الانتماءات الطائفية .

وإن كانت العبرة في هذه الدنيا بالقرابة الرحمية ، فإنما العبرة في الآخرة بالقرابة الأخلاقية ، إن صح التعبير .. وما جاء طوفان نوحٍ إلا لكي يحطم كل التقسيمات الأخرى القائمة بين الناس ، ويحل محلها التقسيم الأخلاقي وحده، وبالتالي يتم إنقاذ أصحاب العمل الصالح بحملهم في السفينة الإلهية ، ويقذف بأصحاب العمل غير الصالح كلهم في أمواج الطوفان القاهرة ، وسيتكرر حدوث هذه الواقعة ذاتها في يوم القيامة على نطاقٍ أوسع ، وعلى وجهٍ أكمل وأشمل!

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

وَبَرَكَاتٍ: خيرات ثابتة .

لقد هدأ الطوفان ، بعدما التهمت أمواجه كل شريرٍ عنيدٍ من الناس ، وذهب الماء ،

رويداً رويداً، في أغوار الأرض ، وأعماق البحار ، واستقرت سفينة نوحٍ على جبل الجودى، حيث نزل منها هو وأصحابه إلى الأرض ، وقد أصبحت الأرض بإذن الله نضرةً خضراء ، ومأهولةً بالسكان من جديد .. إن سيدنا نوحاً عليه السلام بُعث في قومٍ كانوا مؤمنين بنبوة سيدنا آدم عليه السلام وقد بقيت أمته بعد وفاته عليه السلام على الصراط المستقيم لمدة من الزمان ، ولما تسرب الفساد بعدئذ إلى أجيالها التالية ، بعث الله فيهم أنبياءه الواحد بعد الآخر ، وقد بُعث هؤلاء الأنبياء اللاحقون في أقوامٍ كانت مؤمنةً بنبوة نوح عليه السلام ، غير أنهم - بالرغم من ذلك - لم يلبثوا أن أهلكوا بعذاب الله ، حين لم يؤمنوا بنبي العصر ولم يصلحوا أنفسهم ؛ مما يعنى أن الإيمان بنبيٍ من الأنبياء أو الانتماء إلى أمته ، غير كافٍ للفوز بالنجاة ، بل الإيمان المطلوب هو الإيمان الحي ، ذلك الذي يحوّل حياة المرء إلى حياةٍ قوامها الصلاح والتقوى .

ونتعلم من قصة نوحٍ عليه السلام أن أنصار الباطل مهما بلغوا من الكثرة والقوة ، ومهما طالت أعمارهم على الأرض ، فإن ما قُدر لهم في نهاية المطاف هو الهلاك والدمار المحقق وفي مقابل ذلك فإن أهل الإيمان مهما قل عددهم ، وضعفت قوتهم في ظاهر الأمر ، إلا أن القضاء الإلهي حين يظهر ، فإن هؤلاء هم الذين ينالون من رحمات الله أوفر نصيبٍ ابتداءً من هذه الدنيا ، وانتهاءً بتلك الدار الآخرة !!

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

فَطَرَنِي: خلقني وأبدعنى .

السَّمَاءَ: المطر .

مِّدْراراً: غزيرا متتابعا بلا ضرر .

ولهداية قوم عادٍ بُعث سيدنا هود ، الذي كان أخاهم ، أي واحداً منهم ، وذلك مما جرت به سنة الله بشأن الأنبياء دائماً ، لكونهم أبناء الشعب نفسه ، يتقنون لغة شعبهم ، ويعرفون جيداً نفسيته وما يعيشه من أحوالٍ وظروفٍ، وبالتالي يستطيعون القيام بمهمة دعوة الحق بينهم على أفضل وجهٍ .

وقد عرض سيدنا هود عليه السلام على قومه رسالة عبادة الله الواحد الأحد ، وبالإضافة إلى ذلك قال لهم ناعياً عليهم دينهم الباطل ، إنه ليس إلا افتراءً محضاً ؛ مما يوضح أن أسلوب دعوة النبي ليس أسلوب «العرض الإيجابى» لرسالته بالمعنى المعروف ، بل هو يتصدى - مع ذلك - للنقد الصريح ، فإن حقانية الحق لا يمكن تقريبها إلى أفهام الناس ما لم يتم إبطال الباطل عن طريق النقد والتحليل .

وقد حدث في عصر كل نبي أن كان معارضوه يشترطون - لأجل التصديق برسالته- أن يكون النبي ذا جاهٍ ومنصبٍ خطيرٍ ، وأن تتوفر لديه ثروات طائلة ، وأن يكون مسكنه فخماً أنيقاً .. إلخ ، غير أن هذا المعيار لمعرفة صدق الداعي إلى الحق غير صحيحٍ ، وإنما المعيار الأصلي لاختبار صدق الداعية هو أن يكون جاداً تمام الجدية ، في دعوته ، وتكون رسالته مدعمةً بأقوى الأدلة وأوضح البراهين ، وأن يترفع بنفسه عن كل نوعٍ من الأغراض الدنيوية، وأن يكون ما يقوله هو عين الحقيقة الواقعة ، وتنسجم رسالته مع النظام الكوني أتم الانسجام ، بحيث يكون الإيمان بها بمثابة السير على طريق النجاح والسعادة .

﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ إن هذه الجملة لا تعني إضافة القوة المادية ، فإن عاداً كانوا في غاية القوة في زمانهم ، حيث حكى القرآن عنهم قولهم : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ الذي قالوه رداً على النبي لما أنذرهم من عذاب الله ، ومن ثم فإن الحديث عن زيادة القوة المادية لم يكن ليثير اهتمامهم أو يجذب انتباههم إلى الدعوة .

وإنما تعني زيادة القوة هنا إضافة القوة الإيمانية إلى جانب القوة المادية ، وكأنما كان النبي - هود - يقول لهم : لو أنكم اخترتم الحياة الإيمانية ، فستحصلون بذلك على طاقةٍ خلقيةٍ وروحيةٍ ، وبالتقاء الطاقة الخلقية والروحية مع طاقتكم المادية ، لن تنقص قوتكم أيما نقصان ، بل ستزداد إلى حدٍ كبيرٍ جداً .

﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾

اعْتَرَاكَ: أصابك .

بِسُوءٍ: بجنون وخبل .

فَكِيدُونِي: فاحتالوا في كيدي وضرري .

لاَ تُنظِرُونِ: لا تمهلونى .

آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا: مالكها وقادر عليها .

لقد رد القوم على سيدنا هودٍ قائلين : إنه ليس عندك من دليلٍ أو برهانٍ على كونك محقاً وصادقاً . ولا يعني ذلك أن سيدنا هود كان يعوزه الدليل والبرهان في واقع الأمر؛ حيث كان لديه الدليل بكل تأكيدٍ ، غير أنه لم يكن يبدو دليلاً للقوم ، وكان السبب في ذلك أن المرء عادةً لا يستطيع النظر إلى أمرٍ ما من حيث الدلائل التي تصاحبه ، بل ينظر إليه من حيث الشخص الذي يعرضه ، مَنْ يكون؟ وما مكانته ؟ وبما أن العارض كان يبدو لمعاصريه رجلاً فاقد الأهمية والاعتبار ، لذا فقد صار قوله هو الآخر يتراءى للناس غير ذي أهمية ملحوظة.

وحين ينهض شخص للدعوة إلى الدين الخالص ، متخلياً عن الدين التقليدي السائد ، فدائماً ما يحدث أن يصبح ذلك الشخص غريباً ، بل حقيراً في المجتمع ، حيث ينظر إليه الناس كما لو أنه شخص أصيب بجنونٍ وخبلٍ في عقله ، وقد كان سيدنا هود يواجه نفس هذا الوضع ؛ إذْ تجرأ قومه أن يقولوا : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ على أن الشاهد على صدق داعية الحق ، بعد الأدلة والبراهين النظرية ، هو أن معارضيه لا يستطيعون إخضاعه وإحراز الغلب عليه ، على الرغم من كل الجهود والمحاولات العدوانية الغاشمة .

إن الأمم والشعوب التي بُعث فيها أنبياء الله ، كانت كلها تؤمن بوجود الله ، مما يعني أن كلاً من الداعي والمدعو كان يدعي أنه مؤمن بالله عابد له ، وهنا ينشأ سؤال من يتمتع بمعية الله وتوفيقه من كلا هذين الفريقين ؟!

إن أيسر جوابٍ على هذا السؤال هو أن الله على صراطٍ مستقيمٍ ، ومن ثم فإنما سيُوفق للوصول إلى الله رأساً ، مَنْ كان يمشي على خط الدين المستقيم ، وأما الذي يمشي على الطرق المعوجة ، فإنه سيظل تائهاً هنا وهناك ، ولن يحالفه التوفيق أبداً للوصول إلى جناب الله تعالى .

وعندما قال سيدنا هود : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ ﴾ ، فكأنما كان يقول - بعبارةٍ أخرى - إن الشيء الذي أنا أدعوكم إليه هو صراط مستقيم ، أي طريق الدين الحق ، بينما الأشياء التي اتخذتموها ديناً ، ليست من الدين في شيءٍ ، إنما هي طرق جانبية أو سبل فرعية نُسجت من حول صراط الدين القويم ، وأنتم تسعون عليها ، إن سعياً كهذا لا ولن يوصل صاحبه إلى الله ، وإنما يدعه حائراً يتيه ويتخبط هنا وهناك .

وبإمعان النظر في هذه الآيات تتضح لنا معالم الصراط المستقيم الذي دعا سيدنا هود قومه إليه ، وتتمثل تلك المعالم في النقاط التالية : التوحيد ، عبادة الله ، الاستغفار ، التوبة ، الشكر على نعم الله ، التوكل على الله ، التسليم بالله رباً ، واعتبار الله وحده

مالكاً للقوى والطاقات كلها ، واتخاذ الله حارساً أو رقيباً على النفس ، واختيار مسلك الطاعة بدلاً من الاستكبار .

وكل هذه هي تعاليم الدين الأساسية ، واتباع هذه التعاليم واتخاذها وجهتنا ومركز اهتمامنا في الحياة ، هو بمثابة السير على صراط الدين ، والسائر عليه يصل مباشرةً إلى الله سبحانه وتعالى .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

حَفِيظٌ: رقيب مهيمن .

غَلِيظٍ: شديد مضاعف .

جَبَّارٍ: متعاظم متكبر .

بُعْداً: هلاكا سحقا لهم .

الذين يُعرِضُون عن رسالة الله ، فإن الله أيضاً يعرض عنهم ، وهذه الواقعة التي تحدث في العالم الراهن بصورة جزئيةٍ ، ستحدث يوم القيامة بصورةٍ كلية ونهائيةٍ ، فحينئذٍ سيتم طرد الطغاة كافة عن رحمة الله ، وستكون الرحمات الإلهية يومئذٍ خالصةً لأولئك وحدهم ، الذين عاشوا حياتهم الدنيا مطيعين وأوفياء لله عز وجل.

وقد نفذ الله في هذا العالم مبدأ «الاستخلاف» وهو يعني تمكين أمةٍ مكان أمةٍ في الأرض على التوالي ، وإنما يُتاح هذا التمكن في هذه الدنيا بغرض الامتحان وبصفةٍ

عارضةٍ مؤقتةٍ ، وسيفوز أهل الإيمان الصادقون دون غيرهم ، بالتمكن الدائم في دنيا الله الكاملة في اليوم الآخر وعلى وجه الإنعام والتكريم .

وقد جُعل نظام العالم الراهن بحيث يجد المرء هنا نفسه دوْماً بين خياريْ الخير والشر وهو يكون حراً في اختيار أيهما شاء ، وفوق ذلك فإن هذا العالم يسوده الشر في الأغلب والأعم ؛ حيث لا يكون إلى جانب الخير سوى قوة الآيات – أي الأدلة النظرية – وحدها ، ومن جهةٍ أخرى يوجد إلى جانب الشر قوة مادية هائلة لدرجة أن حملة لوائه يصابون بالغرور والبطر والطغيان ، مما يجعلهم يفرضون على البيئة جواً من الضغط و القهر عاماً يرتجف معه فؤاد الرجل العادي ، فقد لا يستطيع التفكير في التقدم نحو الحق، فضلاً عن اعتناقه على مرأى ومسمع من القوم!

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾

وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا: جعلكم عمارها وسكانها .

مُرِيبٍ: موقع في الريبة والقلق .

أَرَأَيْتُمْ: أخبروني .

بَيِّنَةٍ: يقين وبرهان وبصيرة .

تَخْسِيرٍ: خسرانٍ إن عصيته.

لقد دعا سيدنا صالح عليه السلام قومه إلى عبادة الله الواحد ، وقد كان هذا هو الهدف الأساسي لدعوة الأنبياء جميعاً في كل العصور ، غير أن قوم صالحٍ لم يقبلوا برسالته ، وكان السبب في ذلك أنه عليه السلام كان يريد أن يربط صلتهم بالله تعالى مباشرة ، على حين أن القوم كانوا قد ربطوا أنفسهم بأكابرهم وعظمائهم وحدهم باسم الله!

ويصل الأمر بأمثال هؤلاء إلى أنهم لا يستطيعون إدراك أهمية شيء ما إلا إذا وجدوا تصديقه فيما أثر عن شيوخهم القوميين من قولٍ وعملٍ ، وبما أن صالحاً عليه السلام لم يكن يتوفر لديه سوى قوة الدليل ، لم يكن قومه يشعرون بأهمية دعوته، إن الدين الذي نهض صالح يدعوهم إليه ، إنما كانت أهميته تتضح عند التأمل في الوحي وفى آيات السموات والأرض ، بينما كان قومه لا يعرفون سوى أهمية دينٍ يستمد عناصر وجوده من أقوال أكابر القوم وعاداتهم المأثورة ، وكانت نتيجة ذلك أنهم ظلوا أسرى نوعٍ من الشك والارتياب ، مع كونهم قد صاروا عاجزين عن مقاومة الأدلة والبراهين التي جاء بها نبيهم.

وقد كان صالح ، مثل جميع الأنبياء الآخرين ، رجلاً يمتاز بشخصيةٍ فذةٍ وذكاءٍ نادرٍ بين أبناء شعبه ، وكان الناس يأملون أنه سيكون ، بعد أن يبلغ أشده ، سيساعد الشعب الأيمن، ولكنه عندما بلغ سن الرشد ، حتى أخذ يتناول دين الشعب التقليدي بالنقد والتجريح ، مما جعل رجاء الشعب فيه يتحول إلى يأسٍ منه مرير ، فقالوا : لقد كان في حسباننا أنك ستصبح يوماً ركناً من أركان نظامنا الديني القائم ، ولكن ها نحن أولاء نراك - بالعكس - وأنت تبذل قصارى جهدك في إبطال نظامنا الديني وتعمل على هدم قواعده .

﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ

مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

آيَةً: معجزة دالة على صدق نبوتي .

جَاثِمِينَ: هامدين ميتين لا يتحركون .

لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا: لم يقيموا فيها طويلا فى رغد .

بُعْداً لِّثَمُودَ: هلاكا وسحقا لهم .

إن صالحاً عليه السلام كان يقول لقومه: إني رسول الله إليكم ، ولئن لم تؤمنوا برسالتي ، فسوف تتعرضون لبطش الله الشديد ، ولما أصر قوم صالحٍ على العناد ، وما زالوا يأبوْن الإذعان للآيات النظرية ، بُعث لهم ، في المرحلة الأخيرة ، بالآية (المعجزة) الحسية هي الأخرى ، والتي كانت ، حسب طلبهم ، ناقةً خرجت أمام أعينهم من صخرةٍ صماء ، وسنة الله ، بالنسبة إلى آيةٍ كهذه ، هى : إنها حينما يتم إظهارها ، فلا يبقى للناس بعدئذٍ مزيد من مهلة الامتحان المتاحة لهم من ذي قبل ، وبالتالي فقد صاح بهم سيدنا صالح قائلاً : إنكم الآن - يا قومى - بين اثنتين: فإما أن تؤمنوا برسالتي تائبين إلى الله تعالى ، وإلا فستهلكون عن بكرة أبيكم!

على أن الذين لا يستطيعون أن يحسوا بثقل الدلائل النظرية ، فإنهم يظلون فاشلين في الاعتبار بالدلائل الحسية كذلك ، ومن ثم فلم يمتنع شعب صالحٍ عناده وطغيانه ، حتى إنه لم يلبث أن ذبح الناقة ، وبعدئذٍ لم يكن ثمة حاجة لإتاحة مزيد من المهلة له ، فلم يلبث أن قُطع دابره ، ومحي من صفحة الوجود!!

لقد كان ثمود ، شعب صالحٍ عليه السلام يسكن مدائن الحجر ، في شمال غربي الجزيرة العربية، وقد أُمر سيدنا صالح - في نهاية المطاف - بمغادرتها ، فخرج منها برفقة

أصحابه المخلصين متوجهاً نحو الشام ، وفى أعقاب ذلك فوجئ الشعب كله بزلزالٍ عنيفٍ دمّره شر تدميرٍ ، وأحدله أثراً بعد عينٍ !

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

بِعِجْلٍ حَنِيذٍ: مشوي بالحجارة المحماة في حفرة .

نَكِرَهُمْ: أنكرهم ونفر منهم .

وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً: أحس في قلبه خوفا منهم.

يَا وَيْلَتَى: كلمة تعجب .

مَّجِيدٌ: كثير الخير والإحسان.

ذات يومٍ دخل في بيت سيدنا إبراهيم - وكان قد بلغ من عمره يومئذٍ نحو مائة سنة- شبان حسان الوجوه للغاية ، وقد ظنهم أضيافاً فقام من فوره بتحضير الطعام لهم ، غير أنهم لم يكونوا بشراً ، بل كانوا ملائكة الله ، جاؤوا لأجل غرضين في آنٍ واحدٍ أحدهما: تبشير إبراهيم بالولد ، والآخر: إهلاك شعب لوطٍ ، الذي كان قد بلغ من الإنكار والطغيان غايته.

وإن تبشير إبراهيم وزوجته بإسحاق (الابن) ويعقوب (الحفيد) ، لم يكن بشارة بالأولاد بالمعنى المعروف ، وإنما كان المقصود من ذلك تكوين أسرةٍ أو عائلةٍ تتألف من

الصالحين والداعين إلى الله ، ومن تجارب التاريخ أنه ربما تكون هناك عائلة ما، هى التى تنهض لخدمة الدين الحق ، كما يشهد بهذه الحقيقة ذاتها تاريخ الأنبياء وسير التابعين لهم بصدقٍ وإخلاصٍ خلال القرون المتأخرة ، والسبب في ذلك هو أن الفرد الذي ينكشف عليه الحق ، يكون في أعين المعاصرين له إنساناً عادياً ، ومن ثم فإن معرفة مكانته والقيام بمناصرته يكون أمراً بالغ الصعوبة بالنسبة إلى عامة الناس، أما أهل بيته وأفراد أسرته ، فإن القرابة الذاتية تصبح بالنسبة إليهم عاملاً إضافياً ، فالشيء الذي لا يكاد يراه الآخرون بسبب سطحيتهم ، لا يلبث أهل بيته أن يلمسوه ويحسوا به بسبب العلاقة الذاتية التي تربطهم به، وبالتالى يقفون إلى جانبه يقاسمونه هموم رسالته وتبعاتها الثقال !

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

الرَّوْعُ: الخوف والفزع .

لَحَلِيمٌ: متأن غير عجول .

أَوَّاهٌ: كثير التأوه من خوف الله .

مُّنِيبٌ: راجع إلى الله سبحانه .

لقد دار جدال إبراهيم مع الملائكة الذين مروا عليه في طريقهم لإهلاك قوم لوطٍ ، وبما أن هؤلاء الملائكة جاؤوا من عند الله تنفيذاً لأمره تعالى ، نسبه الله إلى نفسه ، وقد ذُكر جزء من هذا الحوار الذي جرى بين إبراهيم والملائكة في الآية الثانية والثلاثين من سورة العنكبوت ، كما ورد ذكره بالإسهاب في سفر التكوين (الإصحاح الثامن عشر) من التوراة المتداولة اليوم.

إن دعاء سيدنا إبراهيم لقوم لوطٍ لم يُقبل ، كما لم يستجب دعاء سيدنا نوحٍ لولده من قبل ، والسبب في ذلك أن دعاء العفو والمغفرة لأحدٍ ليس بأي شفاعةٍ يتقدم بها شخص لآخر ، وبالتالي يتم القبول به في حق المدعو له نظراً لصلاح الداعي وتقواه ، كلا .

الدعاء هو أن تتقدم بنفسك إلى جناب الله عز وجل ، ولو أن ولد نوحٍ أو قوم لوطٍ استيقظت فى أنفسهم عاطفة الدعاء – بعد الإيمان – فتضرعوا إلى الله طلباً للنجاة ، لعفا الله عنهم ، ولتغمدهم برحمته .. فإن ردّ العذاب ممكن ؛ كما يتضح من مثال قوم يونس لما آمنوا.. على أن العذاب حينما يُرد ، فإنما يُرد بأدعية الأفراد محل التعذيب أنفسهم ، وليس بدعاء أحدٍ غيرهم، حتى ولو كان هذا ((الغير)) نبى الله!

نعم ، ومن المستحسن أن يدعو شخص لشخصٍ آخر غيره أيضاً ، وقد ظل الأنبياء وعباد الله الصالحون يدعون للآخرين في كل العصور ، على أن هذا الدعاء يكون في الحقيقة إظهاراً لكون الداعي نفسه حليماً أواهاً منيباً ؛ فإن العبد الذي يخاف من الله ، ترتعد فرائصه ويهتز كيانه كله بالنظر إلى عذاب الله ، فيأخذ يدعو لنفسه وللآخرين عداه في حرارةٍ وخشوعٍ .

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ ﴾

سِيءَ بِهِمْ: نالته المساءة بمجيئهم خوفا عليهم .

وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً: ضعفت طاقته عن تدبير خلاصهم .

يَوْمٌ عَصِيبٌ: شديد شره وبلاؤه .

يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ: يسرعون إليه كأنهم يدفعون.

وَلاَ تُخْزُونِ: لا تفضحوني ولا تهينوني .

مِنْ حَقٍّ: من حاجة وأرب .

إن الملائكة الذين جاؤوا لوطاً ، كانوا ملائكة العذاب ، إلا أنهم دخلوا في القرية على هيئة غلمانٍ حسان الوجوه للغاية ، وما كان ذلك إلا لإقامة الدليل القاطع على جريمة القوم، فالمرء حين يظل يقترف ذنباً ما باستمرارٍ فإنه لا يلبث أن يصبح إزاءه بليد الحس تماماً ، وهكذا كان حال قوم لوطٍ ، إذْ كانوا قد بدؤوا يعملون الفاحشة الآن علناً وجهاراً وبدون خجلٍ ولا حياءٍ ، ومن ثم فلم يكد يترامى إليهم أن الغلمان الحسان نزلوا في دار لوطٍ ضيوفاً، حتى أسرعوا إلى داره عليه السلام مدفوعين بدواعي الشهوة، وأخذوا يطالبون ويلحون عليه بمنتهى الوقاحة بأنه لابد من تسليم هؤلاء الغلمان إليهم !

ولما رأى سيدنا لوط أشرار قومه مسرعين إليه على هذا النحو، انقبض صدره بذلك غيرةً واحتشاماً ، فقال لهم: هؤلاء بنات الشعب ، فلتتزوجوا بأيتهنّ شئتم ، فذلك أفضل طريقٍ لتحقيق رغباتكم الفطرية ! ومن عادة الشيوخ والمتقدمين في السن في أي شعبٍ ، أنهم ينادون فتيات الشعب جميعاً بلقب البنات ، وفي هذا المعنى نفسه قال سيدنا لوط : ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى ﴾ يريد فتيات شعبه .

غير أنهم لم يلبثوا أن رفضوا اقتراح لوطٍ المشروع ، وظلوا ينساقون وراء اللامشروع كعهدهم ، وبذلك قام الدليل قطعياً على أن هؤلاء قوما مجرمون ، وأنهم حقاً جديرون بأن يُهلكوا ، فما لبثوا بعدئذٍ أن تم إهلاكهم عن بكرة أبيهم !

﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ هذه آخر كلمة يقولها عبد الله ذاك ، الذي لا يملك القوة المادية لزجر الأشرار، الذين لم تعد تزجرهم أحاديث العقل والمنطق ، ولا مواعظ الأخلاق والفضيلة ، فعندئذٍ يحاول ، باستخدام كلمةٍ كهذه ، استثارة حمية القوم ، وإيقاظ ضمائرهم ، ولو أن الناس ظلوا ، مع ذلك ، قساة القلوب ، بليدي

الإحساس ، موتى الضمائر كسابق عهدهم ، فإنما يعني ذلك أنه لم يبق في نفوسهم، مقدار ذرةٍ من صفات النبل والفضيلة والإنسانية !

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

آوِي إِلَى رُكْنٍ: انضم إلى قوي انتصر به عليكم .

بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ: بطائفة منه أو من آخره .

سِجِّيلٍ: طين طبخ بالنار كالفخار .

مَّنضُودٍ: متتابع أو مجموع معد للعذاب .

مُسَوَّمَةً: معلمة للعذاب .

لقد كان سيدنا لوط عليه السلام يظن الشبان القادمين إليه بشراً في بداية الأمر وعندما اشتد قلقه وانزعاجه ، وبات يشعر بأنه قد صار بسبب استضافته إياهم في خطرٍ محدقٍ ؛ أخبروه : إننا ملائكة ، أُرسلنا من عند الله تعالى ، يعني أن هذا أمر إلهي ، وليس بأمرٍ إنساني ، فلن يستطيع هؤلاء أن يمسونا ولا إياك بسوءٍ .. فقد جاء في بعض الروايات أن رجال قوم لوطٍ حين لم يرضوا بالتراجع إلى الوراء ، ضرب أحد الملائكة وجوههم بجناحه ، فأصبح الجميع بعدئذٍ عمياناً ، وانصرفوا على أعقابهم يصيحون : النجاة.. النجاة!!.

إن الله – جل وعلا – حين يقضي بإهلاك شعبٍ ما جزاء ظلمه ، فإن ذلك يكون

قضاءً عاماً يشمل تلك المنطقة بأكملها ، ففي مناسبةٍ كهذه ، تتعرض كل نسمةٍ في تلك المنطقة للعذاب الإلهي ، بيد أن الذين كانوا قد قاموا بإعلان الحق بين يدي أولئك الطغاة ، يعم إنقاذهم منه برحمةٍ من الله خاصة ، إن إعلان الحق أكبر ضمان للنجاة من بطش الله في الدنيا وفي الآخرة .

وتقول الروايات: إن امرأة لوطٍ لم تكن مخلصةً لسيدنا لوطٍ ، ولا مؤمنةً به من صميم قلبها ، ولكن في نهاية المطاف ، عندما خرج سيدنا لوط من القرية قائلاً : بأن عذاب الله سيحل هنا مع صباح اليوم التالي ، فانضمت زوجته هي الأخرى إلى ركبه ، ولم يكد يتجاوز هؤلاء منتصف الطريق حتى سمعوا من ورائهم أصواتاً مزعجةً تتعالى من الزلزال والطوفان الشديد ، فلم يلتفت سيدنا لوط ولا أصحابه المخلصون إلى الوراء أيما التفاتٍ ، وإنما مضوا مسرعين نحو الأمام ، إلا أن امرأة لوطٍ أخذت تنظر إلى الوراء ، فلما رأت ما رأت من الدخان وسمعت الصراخ والعويل لم تلبث أن ألقت من فمها صرخةً تقول : واقوماه!! فأصابها حجرٌ من السماء ، فهلكت حيث كانت !

ونتعلم من هذا أن شخصاً ما ، إذا هو لم يكن مخلصاً وفياً لله ورسوله في حقيقة أمره فإنه لن يفوز بالنجاة بانضمامه إلى قافلة الحق استجابةً لأي دافعٍ أو محركٍ آخر ، فإن ضعفه الكامن لابد أن يظهر في مكانٍ ما ، وبالتالي يجعله يكبو لوجهه كبوةً لا يستطيع معها أن يتقدم أو يتأخر!

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾

أَرَاكُم بِخَيْرٍ: بسعة تغنيكم عن التطفيف .

يَوْمٍ مُّحِيطٍ: مهلك .

بِالْقِسْطِ: بالعدل بلا زيادة ولا نقصان .

وَلاَ تَبْخَسُوا: لا تنقصوا .

وَلاَ تَعْثَوْا: لا تفسدوا أشد الإفساد .

بَقِيَّتُ الله: ما أبقاه لكم من الحلال .

بِحَفِيظٍ: برقيب فأجازيكم بأعمالكم .

إن مَدْيَن قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام ، وقول نبيهم شعيب لهم:﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يدل على أنهم كانوا مدعي الإيمان ، بمعنىً آخر : إنهم كانوا قوماً مسلمين في زمانهم ، حيث كانوا ينتمون إلى أمة نبيٍ سابقٍ على سيدنا شعيب وبمضي أحقابٍ طويلةٍ من الزمن كان قد فشا في أجيالهم اللاحقة الشر والفساد.

فقال لهم شعيب : أما إذا كنتم تدعون أنكم مؤمنون ، فلن يُعتبر بدعواكم عند الله إلا إذا قمتم بتأدية مقتضيات دعواكم ، إذ لا قيمة لدعوى ما بدون الوفاء بمقتضياتها !!

إن إيمانكم يقتضي ألا تعبدوا إلا الله الواحد الأحد ، وتلتزموا بالعدل في كل أموركم ومعاملاتكم، وأن تحبوا للآخرين ما تحبون لأنفسكم ، وليؤد كل أحدٍ منكم إلى الناس ما لهم عليه من حقوقٍ كاملةً ، دون أن ينقصهم منها شيئاً ، وأن تعيشوا في الأرض كما يريد الله لعباده أن يعيشوا ، وأن تقنعوا بما يُتاح لكم من الرزق - قل أو كثر - عن الطريق المشروع، دون أن تحاولوا الحصول على المزيد إثماً وعدواناً ، ولن تكونوا مؤمنين عند ربكم حقاً ، ما لم تفعلوا هذا كله ، وإلا فالمحذور أن يفتك بكم عذاب من الله شديد!.

إن شعيباً عليه السلام قال - من جهة :﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ ، ومن جهةٍ أخرى نراه يقول : ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ أي في سعةٍ من العيش، مما يوضح أن قوم شعيب كان فيهم فقراء ، كما كان فيهم أغنياء وموسرون ، فكان بعضهم يحصلون على أوفر الحظوظ ، بينما كانت حقوق أناسٍ آخرين تُؤدى إليهم منقوصةً ، إذْ لو كان الجميع من الصنف الأخير ، أي من الذين كانوا يعطون أقل مما يستحقون ، فمن يا تُرى كان فيهم ((بخيرٍ)) على حد قول سيدنا شعيب عليه السلام .

ومن هنا نعلم أن المخاطبين الذين ورد ذكرهم هنا ، هم أصحاب النفوذ والثراء وذوو الحيثيات البارزة في الشعب ، فإن الأنبياء ، مع كونهم يبعثون لهداية كل الناس على اختلاف طبقاتهم ، إلا أن خطابهم يكون موجهاً ، على الأخص ، نحو رجال الطبقة الممتازة في عصرهم ؛ لأن العوام يكونون تابعين لهؤلاء أنفسهم ، فهم يقتدون عادةً بأكابرهم وزعمائهم ، ومن ثم فبلوغ الدعوة إلى الخاصة يعني بلوغها - على نحوٍ غير مباشرٍ - إلى العامة كذلك !

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾

قال الإمام الرازي في تفسير هذه الآية : ((.. وقد يُراد بالصلاة الدين ، والمعنى : دينك يأمرك بذلك؟ وأطلق عليه الصلاة لأنها أظهر شعائر الدين)) [1].

إن قوم شعيب كانوا مدعي التدين ، كانوا يمارسون العبادة كذلك ، غير أنهم كانوا قد جمعوا أيضاً الشرك وسوء المعاملة إلى جانب تدينهم وعباداتهم ، وقد دعاهم سيدنا شعيب إلى عبادة الله الخالصة وحسن المعاملة مع الناس، وصرّح لهم بأنه لا قيمة عند الله البتةَ لدين يصاحبه الشرك ، ولا لعبادةٍ لا تنهى عن سوء المعاملة.

---

(١) انظر تفسير الرازي ١٨/ ٤٢.

إن دعوةً كهذه كانت تمثل ضربةً قاضيةً على اعتبار القوم الديني وعلى زعمهم القائل بأنهم متدينون وحائزون على وسام التعبّد ، حتى بالرغم من كل ما يفعلون من قبائح الأعمال ومساوئ الأخلاق؛ فما لبثوا أن ثاروا على شعيب وتذمروا عليه ، وقالوا : هل أنت وحدك عابد الله ، فهل كان شيوخنا وزعماؤنا الدينيون أولئك ، الذين اتخذنا منهم قدوةً، أكانوا كلهم جهلةً لا يدرون من أمر الدين شيئاً ، وهل ليس ثمة من أحدٍ سواك يعرف ما العبادة وما مقتضياتها؟

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ ﴾

أَرَأَيْتُمْ: أخبروني .

بَيِّنَةٍ: هداية وبصيرة .

لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ: لا يكسبنكم أو لا يحملنكم .

الإيمان نوعان: أحدهما : أن تؤمن على وجه التقليد ، وثانيهما : أن تؤمن عن وعيٍ وبصيرةٍ.

وفي النوع الأول يؤمن المرء بشيءٍ ما لأن الناس كانوا - وما زالوا - يؤمنون به ، بينما هو يؤمن به - في النوع الثاني - لكونه قد أدرك بنفسه في ضوء الدليل والبرهان أنه صحيح ، وإذا كان الأول إقراراً رسمياً محضاً ، فإن الأخير اكتشاف شعوري واعٍ .

إن إدراك الحق على مستوى الدليل أو الشعور هو بضاعة المؤمن ورأسماله الحقيقي ، إذْ بذلك يحصل له ذلك اليقين الحي الذي يجعله يقف أمام الناس ليمثل الحق غير مبالٍ

بأي شيءٍ آخر ؛ حيث إن الإدراك الشعوري بديل عن كل شيءٍ ، فمن حصل على هذه النعمة ، صار في غنىً عن كل شيءٍ آخر سواها .

التناقض بين القول والعمل ينتج عن الإيمان الرسمي التقليدي ، والانسجام أو التوافق بين القول والعمل ينتج عن الإيمان الشعوري الواعي. وفي معنى ((شقاقي)) رُوى عن الحسن البصرى قوله : ((لا يحملنكم معاداتي على ترك الإيمان ، فيصيبكم ما أصاب الكفار)) [1].

وبما أن الداعي يبدو لمعاصريه رجلاً عادياً ، لذا فإن ملاحظاته النقدية تستفز أولئك الذين يتمتعون بالوجاهة والمكانة البارزة في المجتمع ، إن جراءة رجلٍ عاديٍ على أن يتناول هؤلاء وزعماءهم الكبار بالنقد والتجريح ، تصير عند القوم شيئاً لا يُحتمل ولا يُستساغ ، مما يبعث في نفوسهم مشاعر الحقد والكراهية والعناد ضد الداعي إلى الحق .

إن انبعاث نفسية من هذا النوع في داخل أحد الناس ، يجعله عرضة لامتحانٍ بالغ الخطورة ، فإن رجلاً كهذا ، لكونه ينظر إلى شخصٍ بعين الاحتقار ، لا يلبث أن يحتقر ويزدري حتى الأمر الإلهي الصادر عن ذلك الشخص كذلك ، إن إعراضه عن إنسانٍ يقوده إلى أن يعرض عن الله تعالى نفسه!

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾

---

(١) القرطبي ٩/ ٩٠.

رَهْطُكَ: جماعتك وعشيرتك .

وَرَاءَكُمْ ظِهْرِياً: منبوذا وراء ظهوركم منسيا .

مَكَانَتِكُمْ: غاية تمكنكم من أمركم .

وَارْتَقِبُوا: انتظروا العافية والمال .

سُمي سيدنا شعيب في حديثٍ نبوي بـ ((خطيب الأنبياء)) ، حيث كان عليه السلام يعظ قومه وينصح لهم في لغتهم المفهومة لديهم وبأسلوبٍ مؤثرٍ بليغٍ للغاية ، إذن ، فما الذي جعل قومه يقولون: ((يا شعيب ما نفقه (أى نفهم) كثيراً مما تقول)) .. إن السبب في ذلك كان يرجع إلى فساد شاكلة القوم الذهنية ، فقد كان منهج تفكيرهم يختلف عن منهج تفكير شعيب تمام الاختلاف ، وبالتالى تعذر عليهم أن يفهموا كلامه على وجهه .

فقد كان قومه عليهم السلام مشغولين بتعظيم البشر ، بينما كان شعيب يدعوهم إلى تعظيم الله الواحد ، وكانوا يعدّون الآمال والأماني وسيلة النجاة ، فى حين أنه عليه السلام كان يؤكد على أنه لا نجاة إلا بالعمل فقط .

وهكذا فقد نشأت فجوة عقلية أو ذهنية بين سيدنا شعيب وقومه، حالت دون تفهم القوم لكلامه مع كونه غايةً في الصدق والوضوح .

﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ تدل هذه الجملة على مبلغ القسوة والبلادة والسطحية الذي كان قد انتهى إليه قوم شعيب ، والقصة بإيجازٍ أن سيدنا شعيب لم يكد يقوم بكشف القناع عن مزاعم القوم الدينية ، حتى تصدوْا لمعاداته والنيل منه ، ولم يكن يصحب شعيباً إذْ ذاك حشود من الجماهير تقف في وجه أعدائه وخصومه ، ولا كان يملك من الوجاهة والثروة ما يبهر عيون القوم ويملأ نفوسهم هيبةً ورعباً منه ، وإنما كانت تتوفر لديه قوة الصدق والمعقولية ، ولا يعطي أمثال هؤلاء أهمية لمن يتوفر لديه الصدق والمعقولية .

وقد كان من المتوقع - والحالة هذه - أن يندفعوا إلى قتله أو اغتياله عليه السلام غير أن الشيء الذي حال دون قيامهم بعمليةٍ كهذه ، هو الخوف من ثأر القبيلة، ففي العصر القبلي القديم كان قتل فردٍ من أفراد القبيلة يعني أن تهب القبيلة ، عن بكرة أبيها للانتقام من القاتل ، وقد شكل هذا المحذور حاجزاً منع قوم شعيب من اتخاذ أية خطوةٍ نهائيةٍ ضده عليه السلام تماماً كما يأمن الناس اليوم في معظم الأحيان شرورَ الأشرار والمشاغبين لخوفهم من الوقوع في قبضة رجال البوليس أو التعرض للمحاكمة .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

الصَّيْحَةُ: صوت من السماء مهلك مرجف.

جَاثِمِينَ: هامدين ميتين لا يتحركون .

لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا: لم يقيموا فيها طويلا في رغد .

بُعْداً لِّمَدْيَنَ: هلاكا وسحقا لهم .

بَعِدَتْ ثَمُودُ: هلكت من قبل .

إن قوم شعيب كانوا يحسبون أنهم مُلاّك لبلاد مدين ، وأن الشيء الذي كان قد أتيح لهم لمصلحة الامتحان ، اعتبروه حقهم الذاتي ، ودفعتهم هذه العقلية إلى أن بيّتوا تدابير عدوانية عنيفةً ضد نبيهم ، حتى إنهم هددوه قائلين : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ﴾ [الأعراف : ٨٨] غير أن الأرض التي كانوا يعتبرونها ملكاً لهم ، قد انفجر فيها بإذن الله زلزال بصوته المخيف ودويّه الرهيب ، دمر هذه المنطقة من أقصاها

إلى أقصاها، وانمحت آثارهم في دنياهم أنفسهم كما لو لم يكن لهم هناك وجود بالأمس القريب ولا البعيد !!

على أن الذين آمنوا بشعيبٍ ووقفوا إلى جانبه ، تم إنقاذهم من العذاب يومئذٍ بنصرةٍ من الله خاصةٍ!

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾

وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ: برهان بين على صدق رسالته .

يَقْدُمُ قَوْمَهُ: يتقدمهم كما يتقدم الوارد .

فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ: أدخلهم فيها بكفره وكفرهم.

الوِرْدُ المَوْرُودُ: المدخل المدخول فيه وهو النار.

الرِّفْدُ المَرْفُودُ: العطاء المعطى لهم وهو اللعنة .

لقد أبلغ سيدنا موسى عليه السلام دعوة الحق إلى أقصى حدٍ ممكنٍ ، ولم يكن قد أفحم فرعون وأصحابه من الناحية النظرية فحسب ، بل أقام الدليل الظاهري المحسوس على صدقه أيضاً ، وذلك عن طريق إظهار معجزات العصا واليد التي أيّده الله بها ، ولكن قوم فرعون لم يزالوا - بالرغم من ذلك كله - مع فرعون ، ولم يرضوا باتباع موسى - عليه الصلاة والسلام.

وإنما كان السبب في ذلك أن هؤلاء كانوا يعطون الأهمية للسلطة الدنيوية وحدها ، ولم يكونوا يرون هذه الأشياء عند سيدنا موسى ، ومع أن أحاديثه عليه السلام كانت مثار

الدهشة والاستغراب لديهم ، وبالتالى كانت تبعثهم على الوقوف عندها وقفة تأملٍ وتفكيرٍ ، إلا أنهم عندما كانوا يقارنون بين موسى وفرعون ، تراءى لهم إلى جانب الأول حرمان ظاهر من كل متاعٍ دنيويٍ ، وإلى جانب الأخير كل أنواع المباهج والأبهة المادية ، وقد صارت هذه المقارنة عندهم هى الحاسمة ، فلم يرضوا ، بالرغم من مشاهدة الدلائل الواضحة والمعجزات الباهرة ، بأن يتخلوا عن فرعون ، وينضووا تحت راية موسى عليه السلام .

والذين يصاحبون إنساناً في الدنيا ، سيُضمون إلى جانبه في الآخرة كذلك ، على أن هذا سيكون - على نقيضٍ من الدنيا - انضماماً أو مصاحبةً سيئةً للغاية ، فإن ذلك الشخص - المتبوع - سيُنتزع منه يومئذٍ كل أسباب ، وسيكون وجوده الآن رمزاً للهوان والضياع المحقق ، وسينتهي بأتباعه أيضاً إلى النار التي قُدرت له نتيجة قيادته الضالة المنحرفة!

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

وَحَصِيدٌ: عافي الأثر ، كالزرع المحصود .

غَيْرَ تَتْبِيبٍ: غير تخسير وإهلاك .

إن أسفار التاريخ القديمة تتضمن أحوال الملوك والقادة العسكريين ، غير أنها خلت تماماً من أحوال الأنبياء وشعوبهم ، هذا من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرى فإذا درسنا القرآن الكريم ، وجدناه يولي أعظم جانب من العناية والاهتمام بتسجيل حالات الأنبياء ومواقف الشعوب التي بعثوا فيها ، بينما أهمل كل الأشياء الأخرى سواها ، إن التاريخ الذي قام الإنسان بتدوينه ، حُذف منه أجدر شيء بالذكر وأحق بالتسجيل في

نظر الخالق !!

ومن هذه القرى المهلكة خلال عصور النبوة ، ما لم يزل عامراً حتى الآن ، كمصر التي كانت موطن فرعون ، ومن جهةٍ أخرى هناك شعوب كقوم هود وقوم لوطٍ ، قد اندثرت قراهم بمن عليها ، اللهم إلا بعض آثارهم التي ما زالت قائمةً في صورة أطلالٍ وخرائب ، أو التي تم العثور عليها عن طريق حفر الأرض ، وإهلاك هذه القرى ، يبدو - في ظاهر الأمر - واقعةً ظالمةً ، ولكن عندما نتساءل : لم حدث هذا؟ نتوصل إلى أن ذلك يطابق الحقيقة أتم المطابقة ، فإن هذا الدمار الذي لحق بهم ، لم يكن إلا نتيجة فسادهم العملي، فالذي حدث إنما حدث بعدما فسد عملهم وليس قبل ذلك.

وعندما يلجأ المرء إلى الطغيان والظلم ، يعتمد على بعض الأشياء أو الذوات سنداً له ، ويظن أنها ستمد إليه يد العون والمساعدة في أوان الشدة، غير أن هذه الأسندة أو الاعتمادات لا تدوم إلا ما دام الله يُمهل ، وإذا ما انتهت مدة الإمهال تبعاً لقانون الله ، وأصدر الله قضاءه النهائي ، فعندئذٍ يعلم المرء أن كل تلك الأشياء التي كان قد اعتبرها - بسبب جهله - سنده وموضع ثقته ، لم تكن سوى أوهامٍ وافتراضاتٍ كاذبةٍ محضةٍ !

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

إن فرصة العيش والسكنى في رحاب العالم الراهن إنما أتيحت للإنسان بناءً على الامتحان ليس غير ، والذين لا يزالون يصرون على الإنكار والعناد ، حتى بعد قيام الحجة عليهم بواسطة الأنبياء ، فإنهم يفقدون بعدئذٍ حق الإقامة فى أرض الله ، وللسبب ذاته أهلك الله منكرى الأنبياء ومكذبى الرسل عن آخرهم ، وقد تم هذا الإهلاك ، في أغلب الحالات ، بزيادة درجة الشدة إلى الكوارث الأرضية العادية ،

كالريح العاصفة ، والطوفان أو الزلزال الذى لا يتجاوز حداً معيناً فى الأحوال العادية، زيد من شدته وقوة تدميره إلى غير نهايةٍ .

ووقائع تدمير الأمم والشعوب كهذه ، التي حدثت في القرون الغابرة ، يطلق عليها علماء التاريخ الجغرافي وصف التغيرات المناخية (Climatic pulsation) ، يعنى أن كل ما حدث لم يكن سوى نتاج التقلبات الجغرافية لا غير ، على أنهم لا يملكون أية إجابةٍ مقنعةٍ عن السؤال القائل : لم حدث هذا النوع من التغيرات المناخية الشديدة في الماضي وحده ، وما بالها لا تحدث الآن ، أي في عصر ما بعد النبوة ؟!

والحقيقة أن هذه الوقائع لم تكن وقائع جغرافية، بل كانت إظهاراً للقضاء الإلهي ، وبذلك يقوم الدليل على أن نظام العالم الراهن بُني على أساس العدل. إن قانون الله نفسه يستلزم أن يلقى الظالم هنا عقوبة ظلمه ، وفوز العادل بمكافأة عدله ، ووصف هذه الوقائع بأنها تغيرات مناخية إقحام لها في خانة الجغرافية ، وعلى العكس من ذلك فلو أنا اعتبرناها تغييراتٍ إلهيةً لتحولت إلى دروسٍ عن الخوف الإلهى وهم الآخرة!

وكأن هذه الوقائع التي حدثت في زمن الأنبياء ، كانت بمثابة علاماتٍ صغيرةٍ للقيامة الكبرى ، ففي أثناء ذلك تم إمهال المنكرين والظالمين إلى مدةٍ من الزمان معينةٍ ، وعندما ظهر قضاء الله بعد انتهاء المهلة ، فلم يلبثوا أن أهلكوا عن بكرة أبيهم ، وإنما نجا من الهلاك أولئك وحدهم ، الذين صاروا عند الله سعداء بسبب مناصرتهم للحق ، وأما مَنْ عداهم من الذين كانوا طغاةً وأشقياء في ميزان الله ، فقد تعرضوا كلهم للعذاب ، حتى إن شفاعة الأنبياء لم تغن عنهم شيئاً ، كما يتضح لنا من مثال سيدنا نوحٍ وسيدنا إبراهيم الخليل - عليهما صلوات الله وسلامه .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً

غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

زَفِيرٌ: إخراج شديد للنفس من الصدر .

شَهِيقٌ: رد النفس إلى الصدر .

غَيْرَ مَجْذُوذٍ: غير مقطوع عنهم .

إن الشيء الذي علق عليه القرآن الكريم الأهمية الكبرى ، وبالتالي أعاد ذكره في صحائفه أكثر من أي شيءٍ آخر عداه هو أن الناس لن يُتركوا على ما هم عليه في العالم الراهن ، بل سيُحضرون بعد الموت إلى محكمة الله للحساب عن حياتهم الدنيا ، وسيُساق كل إنسان هناك إما إلى الجنة أو إلى جهنم وفقاً لعمله هو .

وسبب هذه الأهمية وهذا التكرار وإعادة الذكر يرجع إلى شك الناس ، حيث إنهم يرون أن هناك عدداً لا يُحصى من البشر لا يؤمن بهداية الله ، وعدداً لا يحصى منهم كذلك يعمل متحرراً من توجيهات الله ، وكثيرين آخرين يمارسون حياتهم تبعاً لهواهم وليس تبعاً لمرضاة الله ، وهم - مع ذلك - لا يتعرضون لخسارةٍ أو مصيبةٍ ما ، وناجحون موفقون في هذه الدنيا ، ولا توجد هنا - على ما يبدو ظاهراً - أية بقعة من بقاع الأرض يفوز فيها أوفياء الله بأي إنعامٍ خاص على وفائهم ، أو يعافى عصاة الله من أية عقوبةٍ خاصةٍ على عصيانهم .

ونظراً لهذا الوضع يقع معظم الناس في الشك والارتياب ، إذْ يصعب عليهم أن يستيقنوا بأن هناك مصيراً آخر قُدِّر لهؤلاء البشر غير مصيرهم الحالي الذي لا يزالون يشاهدونه بأعينهم ، وهنا يكشف القرآن القناع عن حقيقة أن تمادي الناس في الباطل وإصرارهم على اتباعه ، ليس لأنهم قد بحثوا في الموضوع طرداً وعكساً ، ثم اختاروه اقتناعاً بأنه يتسم بالمعقولية ، وهو لذلك أجدر بالاتباع ، بل السبب الحقيقى فى ذلك

هو الإذعان لسلطان التقليد ، وليس الإذعان لسلطان الدليل والمعقولية .

وأما إذا كان الناس - مع ذلك - لا تواجههم عاقبة أعمالهم الوخيمة ، فإنما يرجع ذلك إلى مهلة الامتحان المتاحة ، فالحياة ما قبل الموت - التي نمارسها على وجه الأرض - هي حياة الاختبار ، ولذلك يتم إمهال الإنسان هنا لقول ما يشاء ويفعل ما يشاء ، والموت هو خاتمة هذه الفقرة المحددة ، فمعنى الموت هو أن يُوصل المرء من دار الامتحان إلى دار المحاكمة ، وسينال الكل هناك ما كان يستحق في واقع الأمر ، وسيُنتزع من الكل ما كان قد جمعه من حوله بدون استحقاقٍ ولا جدارةٍ !

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ ﴾

مُرِيبٍ: موقع في الريبة وقلق النفس .

معنى «الاختلاف في كتاب موسى» أن مخاطبيه تعددت مذاهبهم وتفرقت آراؤهم فيما يتصل بمحتويات الكتاب وتصريحاته ، فكذب به بعضهم وصدق به بعضهم.

والشأن أنه كلما عُرض أمر ما ، فإن المرء يجد نفسه بإزائه دوماً بين خيارين : أحدهما : التفسير الصحيح ، والآخر التفسير الخاطئ ، ولو أن المتلقين كانوا في الواقع جادين لتوصلوا دائماً إلى التفسير الصحيح وحده ، وستصبح جديتهم ضماناً أكيداً لاتحاد الآراء بينهم ، وعلى النقيض من ذلك فلو أنهم لم يكونوا جادّين بشأن الأمر المعروض ، فسوف لا يعطونه أية أهمية من حيث هو ، بل سيذهبون مذاهب شتى في تفسيره كل بحسب نزعته واتجاهه الخاص ، وهكذا سيؤدي عدم جديتهم إلى نشوب اختلاف الآراء بينهم .

وقد تكررت هذه الظاهرة مع جميع الأنبياء والرسل ، وما زال الله - مع ذلك -

يستسيغها ، دون أن يقضي قضاءه الحاسم بين هؤلاء المختلفين في أمر دينه ، وسبب ذلك أن الله جعل العالم الراهن مكان عملٍ ، وجعل العالم الآخر القادم مكان الجزاء والمكافأة .

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

وَلاَ تَطْغَوْا: لا تجاوزوا ما حده الله لكم .

وَلاَ تَرْكَنُوا: لا تمل قلوبكم بالمحبة .

وَزُلَفاً مِّنَ: ساعات منه قريبة من النهار .

ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ: عظة للمتعظين .

يتم استقبال دعوة الحق بدايةً بشكل الإعراض عنها،ثم يليه دور المعارضة،التي لا تزال تشتد وتتصاعد حدتها شيئاً فشيئاً حتى تبلغ ذروتها،وإنها لتكون أخطر مرحلةٍ يمر بها الدعاة خلال مسيرتهم الطويلة .

وعندها ينقسمون إلى طائفتين : حيث يبلغ الحنق والتذمر من نفوس بعضهم مبلغاً يريدون معه أن يصطدموا بالمعارضين ، ويقاوموا هؤلاء الذين لم تحرك الدلائل النظرية منهم ساكناً ، يقاوموهم بوسائل القوة والعنف ، بينما يتجه بعض آخر إلى أن يتناول الدعوة بشيءٍ من التعديل بغية استمالة قلوب المخاطبين إليها ، فيحذف بالتالي من عناصر الدعوة ما يتسبب في إثارة المخاطبين !!

وإذا كان الاتجاه الأول طغياناً أي مجاوزة الحد ، فإن الاتجاه الثاني هو تفاهم أو

تصالح مع الباطل ، وكلا هذين الاتجاهين خاطئ عند الله على حدٍ سواءٍ ، ويكاد الاتجاه الثاني ، على وجه الأخص ، (وهو الذي يرغب في إدخال تعديلات على الدعوة بغية استمالة القلوب) ، يكاد أن يكون جرماً ، فإن الشيء المطلوب عند الله أولاً وأخيراً هو إعلان الحق ، ولا يمكن إعلان الحق بما ينبغي من الصراحة والوضوح ، بعد أن يتم التصالح مع الباطل ، عن طريق التنازل عن بعض عناصر الدعوة!!

وكلما صادف الداعي في طريق الدعوة صعوبات أو مشاكل ، رجع دائماً إلى الله تعالى؛ لأنه تعالى هو الفاعل الحقيقي لكل شيءٍ ، وإن نصرة الله هي الضمان القطعي الوحيد لحل المشكلات كافةً !

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

القُرُونِ: الأمم .

أُوْلُوا بَقِيَّةٍ: أصحاب فضل وخير .

مَا أُتْرِفُوا فِيهِ: ما أنعموا فيه من الخصب والسعة .

المراد بـ ((القرون السابقة)) هنا الأمم السباقة ، وبلفظ آخر الشعوب المسلمة السابقة، وإنما تُصاب الأمة - أية أمةٍ - بالفساد والانحلال إذْ يتحول المتاع الدنيوي الذي أعطاها الله إياه - لكيما تستيقظ به في نفوس أفرادها عاطفة الشكر - إلى وسائل الترف وحب الدنيا والانغماس في لذاتها . والعمل الذي يجب القيام به في هذه الحالة بهدف إصلاح الأمة المسلمة،أطلقت عليه الشريعة عنوان ((الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر))، وهذا يشير إلى واجب الفرد المسلم الملقى على عاتقه بشأن إصلاح بيئته القريبة والمراد بذلك أنه لابد وأن يتواجد في المجتمع المسلم دوماً أفراد يعملون على تذكير

إخوانهم بالله وبالآخرة ، وأن يقوموا بمراقبة سلوكهم وأخلاقهم ، ويحاولوا تثبيتهم على الجادة المستقيمة في كل شئونهم ومعاملاتهم ، وعدم نهوض أخيار كهؤلاء من بين أمةٍ ما للاضطلاع بهذه المهمة،يرجع دوماً إلى أحد سببين: فإما أن تكون الأمة بأكملها قد أصيبت بالفساد والانحلال الشامل،بحيث لم يعد يوجد فيها حتى ولا فرد صالح، وإما أن يتواجد هناك أفراد صالحون،ولكنهم لا يجترئون على الجهر بالحق،بسبب الفساد العام الشامل، حيث يساورهم الخوف من أنهم إن جاهروا بالحق فسيصبحون موضع الإهانة والتحقير بين أوساط الأمة !!

وفي كلتا الحالتين تفقد الأمة ثقتها واعتبارها عند الله تعالى ، وتستحق بالتالي أن تتعرض بصورةٍ أو أخرى لضربة العقاب الإلهى !

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

وَتَمَّتْ: وجبت وثبتت .

إن هناك مخلوقات أخرى لا تقع تحت الحصر ، ما عدا الإنسان ، توجد أيضاً في عالمنا هذا الذي نعيش فيه ، وهذه المخلوقات كلها تسير دوماً في اتجاه الفطرة المحدد لها ، لا تنحرف عنه ولا تحيد قيد أنملة ، وهكذا كان بالإمكان تماماً أن يُلزم الله الإنسان هو الآخر بالسير على الصراط المستقيم الواحد ، على أن خطة الله عن الإنسان غير هذا ، فقد كان التدبير الإلهى عن الإنسان أن ينشئه كمخلوق يأخذ شيئاً ويتخلى عن شيءٍ آخر بمحض اختياره وكامل حريته ، وظاهرة الاختلاف فى عالم الإنسان ليست في الحقيقة إلا نتيجة هذا المنهج الإلهى الخاص ذاته!

ومعنى هذا المنهج البالغ الخطورة أنه سيكون هناك كثيرون من الناس يسيؤون

استخدام حرياتهم ، وبالتالي يجعلون أنفسهم أهلاً لنار جهنم .

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

مَكَانَتِكُمْ: غاية تمكنكم من أمركم .

لقد سجل القرآن أحوال الأنبياء وقصص المرسلين ، لتكون مادة درسٍ وعبرة لمن يلحق بهم من دعاة الحق فيما بعد ، فالداعي يلاحظ في قصص الأنبياء هذه أن شعوبهم أثارت معهم خصوماتٍ وصراعاتٍ ، وتصدت لتشويه سمعتهم بتأويل كلامهم السديد على غير وجهه ، وأساءت إليهم ألواناً شتى من الإساءة ، ورفضتهم كما لو أنهم لا قيمة لهم البتة!

بيد أن الله تعالى أمدهم بنصرته آخر الأمر ، فصارت كلمتهم هي العليا ، وباءت كل محاولات المعارضين لهم بالفشل الذريع ، ولقد لقيت كلتا الطائفتين مصيرها المختلف ، بشكله البدائى ، فى العالم الراهن ، وسوف تلقاه بشكله النهائى الكامل فى الآخرة .

ومن هذه الأمثلة يحصل الداعى على هذه الثقة التاريخية القائلة بأنه لا داعي لليأس ولا للقلق والانزعاج بما يواجهه في طريق الدعوة إلى الحق من صعوباتٍ ومشاكل ، إذْ لابد من مواجهة هذه الأشياء في طريق الدعوة ، وأنه سيكتب لها النجاح فى نهاية المطاف تماماً كما نجح دعاة الله الصادقون من قبله !

سورة يوسف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣ ﴾

نَقُصُّ عَلَيْكَ : نحدثك أو نبين لك يا محمد .

مع أن القرآن الكريم قد نزل لهداية العالم أجمع ، إلا أن مخاطبيه الأول كانوا عرباً ؛ مما اقتضى تنزيله باللغة العربية ، والمسئولية الآن ملقاة على عواتق المؤمنين به أن ينقلوا تعاليمه إلى سائر لغات العالم ، ويقوموا بتبليغها إلى شعوب الأرض قاطبةً .

ولقد بين القرآن تعاليمه وتوجيهاته بأساليبٍ بيانيةٍ شتى ، إذْ يعرضها تارةً بلغة الشواهد والدلائل الكونية ، وأخرى بلغة الإنذار والتبشير ، وثالثةً على لسان التاريخ ، أما في سورة يوسف ، فقد عُرضت هذه التعاليم فى شكل قصة يوسف - عليه الصلاة والسلام - وقد أرشدت هذه السورة أهل الإيمان ، في قالبٍ قصصي لأحداث حياة هذا النبي، إلى أن الله قادر على كل شيءٍ ، وأنه تعالى ينصر القائمين بخدمة الحق ، ويكللهم بالنجاح آخر الأمر، رغم ما يدبره المعارضون من صنوف المكائد والمؤامرات ضدهم ، ولكن بشرط أن يتصف أهل الإيمان بصفات التقوى والصبر، ويظلوا ثابتين على جادة الحق على كل حالٍ من الأحوال!

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا

إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

يَجْتَبِيكَ : يصطفيك لأمور عظام .

تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ : تعبير الرؤيا وتفسيرها .

ورد في حديث ما معناه أن الرؤيا ثلاثة أنواعٍ : حديث النفس ، وتخويف من الشيطان، وبشارة من الله ، ورؤيا الرجل العادي يمكن أن تكون أي واحدٍ من هذه الأنواع الثلاثة ، غير أن رؤيا النبي تكون دوماً بشارةً من الله ، وهي تكون تارةً بصورةٍ واضحةٍ مباشرةٍ ، وطوراً بصورةٍ تمثيلية غير مباشرةٍ .

إن عصر سيدنا يوسف عليه السلام يرجع إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، وكان أبوه سيدنا يعقوب يسكن في فلسطين .. وقد كان سيدنا يوسف وأخوه بنيامين من أمٍ واحدةٍ ، وإخوته العشرة الباقون من أمهاتٍ شتى.. وفي هذه الرؤيا تشير الشمس والقمر إلى أبويه ، وتشير الكواكب الأحد عشر إلى إخوته الأحد عشر ، وقد كانت هذه الرؤيا تتضمن البشارة - من جهةٍ - بأن سيدنا يوسف سيُشرف بالنبوة ، ومن جهةٍ أخرى كانت تمثيلاً لما قد أتيح له من الرقي والازدهار والسلطة بعد وصوله إلى مصر ، مما اضطر أهل أسرته جميعاً إلى التسليم والاعتراف بمجده وعظمته .

لقد كان أخوة يوسف العشرة (من غير أمه) يضمرون مشاعر الحقد والحسد إزاءه ، نظراً لما كان يتمتع به من شخصيةٍ فذةٍ رائعةٍ جعلته محط الآمال والأنظار ، ومن ثم فلم يكد أبوه (يعقوب) يستمع إلى منامه حتى نصح له من فوره قائلاً : لا تخبر إخوتك بذلك ، وإلا فسيصبحون أكثر لدداً في عدواتك والتآمر عليك !

إن الحسد أو الحقد على عظمة أحدٍ غيرك من الأفعال الشيطانية المحضة ، والذي توجد فيه هذه الصفة الذميمة، ينبغي عليه أن يبادر بالتوبة ، فإن ذلك دليل على أنه غير راضٍ بقضاء الله ، وهو سائر على هدي الشيطان ، وليس على هدى الله .

لقد وردت كلمة ((إتمام النعمة)) هنا بالنسبة إلى سيدنا يوسف ، الذي حصل على الحكومة ، كما وردت بالنسبة إلى سيدنا إبراهيم الخليل الذي لم يحصل على حكومةٍ ما ، إذن ، فما هو القاسم المشترك بين الاثنين الذين أطلق عليه ((إتمام النعمة)) ، إنه النبوة ؛ أي التوفيق إلى هداية الله الخاصة ، تلك التي تؤدي بمن يوفق إليها إلى الدرجات العليا في الآخرة ، إن هداية الله هي تتمة النعم الإلهية على الإنسان ، وتتاح هذه النعمة للأنبياء - عليهم السلام - مباشرةً ، ولعامة الصالحين على نحوْ غير مباشرٍ !

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠ ﴾

وَنَحْنُ عُصْبَةٌ : جماعة كفاة للقيام بأمره دونهما.

ضَلالٍ مُّبِينٍ : خطأ بَيِّن في إيثارهما علينا.

اطْرَحُوهُ أَرْضاً : ألقوه في أرض بعيدة عن أبيه.

يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ : يخلص لكم حبه وإقباله عليكم .

غَيَابَةِ الْجُبِّ : ما غاب واظلم من قعر البئر .

السَّيَّارَة: المسافرين .

لقد اشتد الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ من قبل أهل مكة في أواخر أيامه بها ، وبخاصةٍ بعد أن فقد نصيريه : عمه أبا طالب ، وزوجته الطاهرة الحنون السيدة خديجة - رضي الله عنها - وقد سأله إذْ ذاك رجال من أهل مكة عن قصة سيدنا يوسف ، الذي كانوا قد سمعوا اسمه وطرفاً من أخباره عن بعض اليهود خلال رحلاتهم ، ومع أن هذا السؤال إنما كان بغرض السخرية والاستهزاء به عليه السلام غير أن الله - تعالى- رده على السائلين أنفسهم ، فعن طريق حكاية هذه القصة تم إشعارهم - بصورةٍ غير مباشرة - بأنهم قوم شاء لهم القدر أن يقوموا بإعادة تمثيل الدور الذي لعبه أخوة يوسف من قبل ، بينما سيكون مصير النبي بفضلٍ من الله ورحمته ، ما لقيه يوسف في مصر ، لقد كان سيدنا يعقوب يلاحظ أن يوسف هو أكثر أبنائه صلاحاً وأحسنهم استعداداً ومواهب ، وقد كانت تتراءى له فيه ملامح شخصية نبي المستقبل ، مما جعله شديد الميل إلى يوسف كثير العطف والإقبال عليه ، ولكن أبناءه العشرة كانوا ينظرون إلى هذا الأمر من وجهة النظر الدنيوية ، حيث كانوا يزعمون أنه يجب أن تكون عصبتهم أي جماعتهم هي الأهم والأفضل عند الوالد؛ لأنها هي التي تستطيع أن تقوم بنجدة الأسرة وحمايتها، وقد انتهى موقفهم الأحادي الجانب هذا إلى حدٍ خُيِّل معه إليهم أنهم لو قاموا بتنحية يوسف عن الميدان، لانعطف حنان الوالد وإقباله كله نحوهم .

ولما اجتمع هؤلاء لوضع الخطة الحاسمة ضد يوسف ، عرض ((يهوذا)) كبير الأخوة، هذا الاقتراح بأنه ينبغي أن نُلقي بيوسف في قعر جبٍ قديمٍ بدلاً من إراقة دمه وقد كان ذلك تدبيراً إلهياً خاصاً ، فمن سنة الله أنه حين تتصدى طائفة ما لإيذاء أحد عباد الله والنيل منه بغير الحق ، فيخرج من بين تلك الطائفة نفسها ، شخص يُوفق إلى استرضاء إخوانه وجمع كلمتهم على خطةْ معتدلة نوعاً ما ، ربما تكون منطويةً على إمكانٍ بل إمكاناتٍ جديدةٍ لعبد الله ذاك!

﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

وَيَلْعَبْ : يسابق ويرم بالسهام .

يتضح مما قاله سيدنا يعقوب رداً على طلب أبنائه ، (في معرض اعتذاره عن عدم إرساله يوسف معهم)، أنه كان قد أدرك ، بدراسة الأحوال والملابسات ، أن هذا ليس بأمر اللعب والنزهة في رحاب الصحراء ، بل هو أمر تآمر الإخوة على يوسف وكيدهم له ، وبيد أن الإنسان الخائف من الله يكون إنساناً واثقاً من الله معتمداً عليه كذلك ، فمع أن يعقوب كان قد أحس ، بفطنته وفراسته ، ما عسى أن يحدث ، إلا أنه كان يعدّ قدرة الله فوق كل شيءٍ آخر ، وكان موقناً بهيمنة الله المطلقة تمام اليقين ، ومن ثم فلم يلبث أن بعث بيوسف مع إخوته ، توكلاً على الله ، رغم إحساسه بالأخطار المحدقة .

تلك هي صورة الإنسان الخائف من الله ، ومن جهةٍ أخرى نلاحظ في إخوة يوسف صورة أناسٍ قلوبهم خالية من خوف الله كل الخلو ، فقد كان هؤلاء يبيتون مؤامراتٍ للقضاء على أحد عباد الله بغير الحق ، ناسين أو متناسين أنهم في عالمٍ لا يملك فيه أحد غير الله أيما قدرةٍ ولا خيار ، وقد كانوا يحاولون إثبات أنهم ناصحون بألفاظهم ، بينما الناصح عند الله حقاً ، هو الذي يثبت نُصحه بعمله!

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ

كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

وَأَجْمَعُوا: عزموا وصمموا .

نَسْتَبِقُ : ننتضل في الرمي بالسهام .

سَوَّلَتْ : زينت وسهلت .

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ : لاشكوى فيه لغير الله تعالى .

من المؤكد أن قصة يوسف أوسع وأكثر تفصيلاً مما ورد ذكره في القرآن الكريم ، غير أن هدف القرآن الأصلى هو النصيحة وليس سرد الأحداث والوقائع .. ولذا فهو لا يأخذ سوى تلك الجوانب التى تنطوي على الذكر والنصيحة ، ويهمل ما عدا ذلك من أجزاء القصة الباقية ليضطلع المؤرخون بجمعها وترتيبها . وقد رُوي أن سيدنا يوسف مكث في الجب ثلاثة أيام ، ويُحتمل أنه أرى فى المنام ، خلال هذه الأيام الثلاثة نفسها ، ما سيؤول إليه حاله في المستقبل ، فقد رأى فيما رأى أنه يخرج من البئر ثم يصل إلى درجةٍ من المجد والعظمة رفيعةٍ ، حتى يصل الفرق بينه وبين إخوته ، من حيث الوضع والمكانة ، إلى حد أنهم عندما يروه لا يستطيعون أن يعرفوه!!

وإن ما فعله إخوة يوسف كان عملاً استفزازياً للغاية ، غير أن يوسف لم يلبث أن فوض أمره كله إلى الله ، وبقي في قلب صحراء موحشةٍ ، داخل بئرٍ مظلمةٍ عميقةٍ ، بقي ينتظر نصر الله دون شكوى ولا مللٍ .. هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى فقد تمسك أبوه يعقوب هو الآخر بمسلك الصبر الجميل .. وجاء في بعض التفاسير أنه قال لبنيه : لو أكله الذئب ، لخرق قميصه أيضاً ، يعني ما أحلم هذا الذئب وما أنبله ، افترس يوسف وسلم إليكم قميصه المتلطخ بالدم سليماً غير ممزق !!

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

السَّيَّارَةٌ : رفقة من مسافرون من مدين لمصر.

وَارِدَهُمْ : من يتقدم الرُّفقة ليستقي لهم.

فَأَدْلَى دَلْوَهُ : فأرسلها في الجب ليملأها ماء.

وَأَسَرُّوهُ : أخفاه الوارد عن بقية الرفقة أو أخفى إخوته أمره.

بِضَاعَةً : متاعاً للتجارة .

وَشَرَوْهُ : باعه إخوته ، أو السيارة .

بِثَمَنٍ بَخْسٍ : ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً.

لما انصرف إخوة يوسف ، بعد إلقائه في غيابة الجب ، مر بتلك الناحية ، (حسب ما جاء في بعض الروايات بعد ليالٍ ثلاث) قافلة تجارٍ ، كانوا ذاهبين من مدين إلى مصر ، واقترب أحد رجال القافلة من البئر ليستقي منها الماء فأدلى دلوه ، فإذا بيوسف - الذي كان يومئذٍ ابن ستة عشر عاماً تقريباً - يتشبث بطرف الحبل ، وما هي إلا سويعات ، حتى كان خارج البئر!!

ومن حيث إن ذلك كان عصراً تروج فيه تجارة الرقيق ، طار رجال القافلة فرحاً وسروراً ، بما سيحصلون عليه من الربح إذْ يبيعون هذا الغلام في أعقاب وصولهم إلى مصر ، فما إن وصلوا إلى مصر حتى عرضوا بضاعتهم في أسواقها ، وفيها يوسف هو الآخر للبيع ! وقد اشتراه هناك رجل مقابل عشرين درهماً بما توسم فيه من خيرٍ .

لقد جعل إخوة يوسف أخاهم عرضةً للتشرد والضياع المحقق حين ألقوا به في غيابة الجب ، ثم باعه رجال القافلة بدورهم كعبدٍ مملوكٍ لأول مشترٍ ، وبعدئذٍ كانت ثالثة الأثافي حين ألصقت به ((زليخا))، زوجة أحد كبار الموظفين الرسميين بمصر يومذاك ، تهمةً كاذبةً أفضت به إلى غياهب السجن!!

غير أن الله - سبحانه وتعالى - جعل من هذه المحن كلها سلماً ارتقى عبره إلى أعلى مراتب الشرف والمجد ، ما أعظم الفرق بين العلم الإنساني والعلم الإلهي .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

أَكْرِمِي مَثْوَاهُ : اجعلي محل إقامته كريماً مرضياً.

غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ : لا يقهره شيءٌ ، ولا يدفعه عنه أحد .

بَلَغَ أَشُدَّهُ : منتهى شدة جسمه.

قيل: إن الذي اشترى يوسف كان واحداً من كبار الموظفين في الحكومة المصرية أيامئذٍ، وكان اسمه ((فوطيفار))، فقد استطاع أن يعرف ما كان يختفي وراء ثياب الغلام التافهة من شخصية رائعةٍ ، وأدرك أنه ليس بعبدٍ ولا بشبه عبد ، بل هو ابن عائلة ذات نبلٍ وشرفٍ ، وإنما وقع ، بسببٍ من الأسباب ، في يد رجال القافلة ، فاسترقوه وباعوه هنا بأبخس الأثمان ، ومن ثم ألحّ على زوجته قائلاً : لا تعاملي هذا الغلام معاملة العبد أو الرقيق ، فإنه يبدو لي فتىً موهوباً ، وأراه كفؤاً للقيام بما يثقل كاهلي من أعباء تدبير الأمور المتصلة بداخل بيتنا ، وما نملك من ثروةٍ وعقارٍ، بالإضافة إلى ذلك فإن

(فوطيفار) ، مع تقدمه في السن ، لم يكن قد رُزق ولداً ، وكان يود أن يتبنى أحداً يكون معيناً له في شيخوخته ، ومن ثم فقد انعقد عزمه على أن هذا الفتى إن كان عند حسن ظنه به ، وحقق الآمال المعقودة عليه، فسوف يتخذه ولداً له .

وعندما بلغ سيدنا يوسف الأربعين من عمره ، منحه الله النبوة من ناحيةٍ ، ومكنه من الحكم والسلطة من ناحيةٍ أخرى ، وإنما حصل على هذا الإنعام بحسن عمله وصلاحه ، وباب إنعام الله مفتوح دائماً للمحسنين ، مع هذا الفارق بين الأمس واليوم، إنه كان ممكناً أيضا ، خلال عصر النبوة، أن يُجعل من أحد الناس نبياً ثمرة إحسانه وتقواه، ولكن لن تتاح في الأزمان اللاحقة ، أي بعد ختم النبوة ، سوى جوائز وإنعاماتٍ أخرى ما عدا النبوة!

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

وَرَاوَدَتْهُ : تحايلت لمواقعته إياها .

هَيْتَ لَكَ : أقبل ، أسرع – إرادتى لك.

مَعَاذَ الله: أعوذ بالله معاذاً مما دعوتنى إليه .

وَهَمَّ بِهَا : أى هم بدفعها عنه.

الْمُخْلَصِينَ : المختارين لطاعته أو لرسالته .

لقد أغرمت امرأة العزيز بيوسف ، فظلت تغريه وتراوده عن نفسه ، حتى اغتنمت الفرصة في ذات يومٍ فغلقت أبواب الغرفة .

ولقد كان ذلك موقفاً حرجاً جداً بالنسبة إلى شابٍ غير متزوجٍ ، غير أن يوسف كان قد احتفظ بسلامة فطرته الربانية ، وهذه الفطرة هي التي حالت دون وقوعه في الرذيلة وقوة التمييز بين الحق والباطل وبين الفضيلة والرذيلة ، هذه مودعة بصورةٍ جبليةٍ في كل إنسان ، وهي لا تزال تنبه الإنسان وتناديه في كل طورٍ من أطوار حياته ، والذي يعرض عن ذلك فكأنما هو أعرض عن نداء الله ، ومثل هذا الشخص لا يلبث أن يضعف فطرته شيئاً فشيئاً لكونه أصبح محروماً من نصر الله ، وعلى نقيضٍ من ذلك ، فإن الذي يبادر بالاستجابة الفورية للنداء الإلهي عقب ظهوره ، لا يزال نصر الله يشحذ من صلاحيته واستعداده النفسي، وبالتالي يؤهله لكي يصمد مستقبلاً في وجه دوافع الفتنة والإغراء بمزيدٍ من الثقة والاقتدار .

والشيء الذي منع يوسف عن ارتكاب الفاحشة ، كان في الحقيقة خوفاً من الله ، على أن تذكير «زليخا» وقتئذٍ بالله ، لم يكن ليحرك منها ساكناً ، فإنه لم يكن موقف إعلان الحق ، بل موقف إنقاذ النفس من مأزقٍ خطيرٍ ، ونظراً لهذه الخطورة ذاتها حاول عليه السلام إثارة ضمير زليخا بتذكيرها بزوجها ، حيث قال : إنه سيدي ، قد أنزلني في بيته بمنتهى الحفاوة والتكريم ، إذًا ، فكيف يمكن لي أن أسيء إلى مَنْ أحسن إليّ بالخيانة في حرمه والاعتداء على عرضه؟!

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

وَاسْتَبَقَا البَابَ : تسابقا إليه يريد الخروج وهى تمنعه .

وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ : قطعته وشقته .

وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا : وجدا زوجها.

وَشَهِدَ شَاهِدٌ : صبي في المهد أنطقه الله ببراءته.

وما وسع يوسف إلا أن اندفع نحو الباب لينقذ نفسه، فإذا بزليخا تنطلق وراءه تلاحقه إلى الباب، فأمسكت بذيل قميصه من خلفٍ، ونتج عن تبادل الشد والجذب بين الاثنين أن تمزقت مؤخرة القميص، على أن يوسف قد نجح في أن يفتح الباب ويصل إلى الخارج، حيث كان زوج زليخا متواجداً بطريق الصدفة، وما إن رأت زليخا زوجها حتى ألقت بالتبعة على غارب يوسف، فالشخص الذي كانت تبدي حبها له قبل لحظةٍ، إذا بها تقلب له الآن ظهر المجن، وتأخذ في قذفه بتهمةٍ كاذبةٍ، بينما صرّح يوسف بأن الأمر على العكس من ذلك تماماً، وكان السؤال الآن : كيف يمكن الحكم على أحد الفريقين بالإدانة؟! إذْ لم يكن ثمة من رجل ثالثٍ حاضراً بمكان الحادث، حتى يدلي بشهادة عيانيةٍ، وعندئذٍ قام رجل حكيم من أهل البيت بحل هذه المعضلة، وأغلب الظن أن هذا الشخص كان على إلمامٍ مسبقٍ بشئون البيت الداخلية كلها، كما أنه كان قد لاحظ أيضاً أن قميص يوسف ممزق من خلفه بدلاً من قدامه، إلا أنه أدلى ببيانه على نحوٍ كأنما هو يقول للناس : إذا لم يكن هناك من شاهدٍ عيانٍ، فلنحكمْ في هذه القضية على أساس من شهادة الظروف أو القرائن، وكانت شهادة القرائن هنا كون قميص يوسف ممزقاً من خلف، وقد كان ذلك دليلاً واضحاً على أن الإقدام في هذا الأمر كان من جهة زليخا، وليس من جهة يوسف -عليه الصلاة والسلام.

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا

وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

شَغَفَهَا حُباً : شق حبه سويداء قلبها .

وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً : هيأت لهن ما يتكئن عليه.

أَكْبَرْنَهُ : دهشن برؤية جماله الرائع .

وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ : خدشنها بالسكاكين لفرط ذهولهن ودهشهن .

حَاشَ للهِ : تنزيهاً لله عن العجز عن خلق مثله.

فَاسْتَعْصَمَ : فامتنع امتناعاً شديداً وأبى.

أَصْبُ إِلَيْهِنَّ : أَمِل إلى إجابتهنَّ .

تمثل هذه القصة نساء الطبقة العليا في مصر من جانبٍ ، وسيدنا يوسف عليه السلام من جانب آخر ، وأما النساء فإنما كن ينظرن إلى يوسف على أنه فتىً جميل وكفى، وهكذا كان ممكناً أن ينظر يوسف هو الآخر إليهن على أنهن أداةٍ لتسلية النفس ليس غير ، إلا أنه لم يفعل ذلك رغم كونه محاطاً بظروفٍ مثيرة ومغريةٍ للغاية.

ولقد انتهى الأمر بأولئك النسوة إلى أن اتجهت أنظارهن نحو شخصيته الآخذة وتركزت عليها ، حتى بلغن من فرط الاستغراق والدهشة لمرآه بحيث لم يلبثن أن

جرحن أيديهن بالسكاكين وهن يقطعن الفواكه ، ولكن سيدنا يوسف كان متجهاً بكليته نحو الله سبحانه وتعالى ، وقد كان الإحساس بعظمة الله وجلاله مسيطراً على ذهنه لدرجة أنه لم يتمكن أى شيءٍ آخر من جذب انتباهه إليه !! ألا ما أعظم الفرق بين إنسانٍ وآخر !!

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ۝٣٥ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣٦ ﴾

أَعْصِرُ خَمْراً : عنبا يؤول لخمر أسقيه الملك .

حين فشلت محاولات النسوة من الطبقة العليا في مصر ، في مراودة يوسف عن نفسه واستمالته إلى أنفسهن ، ورجعن بخفي حنين ، أدخلنه السجن وبما أن وضعه عليه السلام كان إذْ ذاك وضع عبدٍ مملوكٍ ، لذا فلم تكن ثمة حاجةٍ ، تبعاً للعرف السائد يومئذاك ، إلى أية محاكمةٍ شرعيةٍ للزج به في السجن ، حيث كان لسيده الحق المطلق في أن يحبسه متى شاء بمحض اختياره وقراره الذاتى.

على أن السجن قد صار بالنسبة إليه سلماً جديداً إلى الرقي والازدهار ، ففيما كان ذكره - حتى الآن - محصوراً في نطاق أسرةٍ أو عدة أسرٍ لبعض كبار الموظفين الرسميين في مصر ، أصبح الآن ممكناً أن يترامى الخبر عن شخصيته وكماله إلى آذان ملك مصر نفسه .

فقد اتفق أن حُبس فتيان آخران في السجن نفسه الذي وُضع فيه سيدنا يوسف عليه السلام كان كلاهما من خدم القصر الملكي ، وبعد زمنٍ يسيرٍ رأى السجينان رؤيا شغلت بالهما ، فسألاه عليه السلام عن تأويلها ، فأخبرهما بتأويل ما رأياه ، وما هي إلا أيامٌ قلائل حتى تحقق هذا التأويل على أتم الوجوه ، إذْ يُفرج عن أحد الفتيين ويصل ثانيةً إلى القصر

الملكى ، وتسنح له فرصة ينتهزها ليخبر الملك بأن في السجن رجلاً صالحاً لديه قدرة عجيبة على تأويل ما يتراءى للناس في منامهم تأويلاً يأتي كفلق الصبح!

وهكذا تحول دخوله عليه السلام فى السجن إلى درجةٍ بدائيةٍ للوصول إلى القصر الملكى !!

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

ذَلِكُمَا : التأويل والإختبار بما يأتى .

الدِّينُ القَيِّمُ : المستقيم . أو الثابت بالبراهين .

لقد رجع السجينان الشابان إلى سيدنا يوسف عليه السلام لاستفسار ما رأياه في المنام، وقد كانت طريقة استفسارهما تدل بوضوحٍ على أنهما معجبان بشخصيته ويثقان برأيه ، وما كان ذلك سوى نتيجة طبيعية لقضاء مدة ملحوظة من الزمن بصحبة إنسانٍ صالحٍ وصاحب مبدأ ورسالة كسيدنا يوسف عليه السلام .

ولم تلبث عاطفة يوسف الدعوية أن جاشت من فورها ، إذْ أدركت أن هذه أطيب فرصة سنحت لإبلاغ هذين الفتيين برسالة الدين الحق ، وأدرك أنه لو أخبرهما بتفسير منامهما في الحال لانصرفا عنه ، قبل أن يعلمهما بهذه الرسالة ، فلجأ عليه السلام إلى أسلوب

حكيمٍ ، حيث أخر التأويل لفترة قصيرةٍ ، ثم ألقى كلمةً وجيزةً عن التوحيد ، عرض من خلالها رسالته مراعياً نفسية المخاطبين ، مع التلطف في حسن الاستدلال .

إن الذين يعبدون الشجر أو الحجر أو الكواكب والنجوم أو الأرواح وأشباهها ، إنما يرجع ذلك إلى أنهم يضفون عليها ، من تلقاء أنفسهم ، ألقاباً مثل : ((قاضي الحاجات)) ، و((دافع البليات)) ، و((حالّ المشكلات)) ، ويزعمون بالتالي أنها لكذلك في واقع الأمر .. على حين أن كل هذه أسماء فارغة اختلقها الإنسان من عند نفسه ، ولا وجود لمسمياتها في أي مكانٍ في الخارج!

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

الفتيان اللذان اقتيدا إلى السجن ، كان أحدهما ساقي ملك مصر (ريان بن الوليد) ، والآخر خَبَّازه ، وكانا متهمين بمحاولة تسميم طعام الملك تآمراً على حياته ، وقد ثبتت براءة الساقي بعد التحقيق في التهمة ، فأطلق سراحه وعُين ثانيةً ساقياً للملك ، وكان معنى ما رآه في المنام أنه كما رأى الآن نفسه يسقي الملك خمراً ، وهو نائم ، سيسقيه الخمر عما قريبٍ وهو يقظان ، وأما الخباز فقد صدر الحكم بإدانته، فما لبث أن سيق إلى الصلب وترك معلقاً على أبواب السجن ، لتنهش الطيور جثته وليكون عبرةً للناظرين .

وقد حققت الأيام هذين التفسيرين كليهما على أكمل وجهٍ ، بيد أن الساقي لم يكد يصل إلى القصر ثانيةً ، بعد ما تم الإفراج عنه ، حتى نسي ما وعد يوسف من إثارة ذكره عند الملك ، وإنما تذكر وعده ذاك حين رأى الملك مناماً فاستدعى رجال حاشيته في جوف الليل يسألهم في قلقٍ وإلحاحٍ عما عسى أن يكون تعبيره ومغزاه؟!

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾

عِجَافٌ : مهازيل جدا .

تَعْبُرُونَ : تعلمون تأويلها وتفسيرها .

أَضْغَاثُ أَحْلامٍ : تخاليطها وأباطيلها.

وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ : تذكر بعد مدة من الزمن .

مع أن ملك مصر كان مشركاً ومدمن خمرٍ ، إلا أن الله - سبحانه وتعالى - قدر له أن يرى مناماً صادقاً له صلة مصيرية بمستقبل بلاده ، ومن هذا نعلم كيف أن الله تعالى ينصر دعاة الحق بطرقٍ شتى ، ومن جملة هذه الطرق أن يتم إراءة الطرف الآخر مناماً يغرس في ذهنه إحساساً عميقاً بعظمة الداعي وأهميته ، مما يُلين فؤاده في حق الداعي فتنفتح له آفاق للعمل جديدة.

وعندما وصل الخبر عن منام الملك إلى أسماع الساقي عادت إليه ذكريات السجن، فأخبر الملك وحاشيته ، في ضوء تجربته الذاتية ، كيف أن تأويل يوسف لرؤيا السجينين تحقق حرفياً ، ثم استأذن الملك ليذهب إلى السجن ويسأل يوسف عن تأويل رؤيا الملك .

وبذيوع صيت يوسف من هذه الحيثية - أي كمفسر الرؤيا - انفتح الطريق أمامه للخروج من السجن ، وقد كان الله قادراً على ألا يدع يوسف في السجن لمزيدٍ من الأيام بعد أن تم الإفراج عن الساقي، حيث كان بإمكانه تعالى أن يذكّر الساقي بما وعد

يوسف من إثارة الحديث عن أمره أمام الملك حال وصوله إلى القصر ، غير أن أفعال الله كلها مرهونةً بأوقاتها ، فليس من سنة الله أن يعمل شيئاً أو يحدث حادثاً ما في غير أوانه!

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

دَأَباً : دائبين كعادتكم في الزراعة .

تُحْصِنُونَ : تخبؤونه من البذر للزراعة.

يُغَاثُ النَّاسُ : يمطرون فتخصب أراضيهم .

يَعْصِرُونَ : ما شأنه أن يُعصر ، كالزيتون.

لقد فسر سيدنا يوسف رؤيا الملك بأن البقرات السبع السمان والسنبلات السبع الخضر عبارة عن أعوامٍ سبعةٍ بالغة الخصوبة والرخاء ، تنمو فيها الزروع والحيوانات نمواً متصلاً رائعاً ، ثم يعقب ذلك الرخاء والخصوبة قحط وجدب يدوم سبع سنين ؛ تأكلون فيها سائر ما سبق لكم أن ادخرتموه خلال السنوات الماضية ، بحيث لا يبقى لديكم سوى ذلك القدر اليسير من الحبوب تستخدمونه للزراعة ، وكأن السبعة أعوام اللاحقة هذه بقرات هزيلة وسنبلات يابسات تلتهم تلك البقرات السمينة والسنبلات الخضر .

هذا ، وقد أرشد سيدنا يوسف - مع ذلك - إلى تدبير ملائمٍ لمواجهة الأزمة ، إذْ أكد

على ضرورة الحفاظ على محاصيل السنوات السبع الأولى بحذرٍ بالغٍ والاقتصاد في استهلاكها ، فاقترح أن يُحفظ ما زاد عن المقدار الضروري من الحبوب والغلال في سنابله ، ليظل قادراً على البقاء مصوناً من السوس أو الديدان ، وهكذا سيمكن الانتفاع بمحاصيل السبعة أعوامٍ لمدة أربعة عشر عاماً ، وبالإضافة إلى ذلك فقد بشر عليه السلام بأن العالم الذي سيعقب هذه السنوات السبع المجدبات ، سيكون عام الخصوبة والرخاء ، فسينزل فيه المطر بغزارةٍ ، وتمتلئ البلاد حبوباً وثماراً وعسلاً ولبناً !

لقد أرى الله الملك في منامه رؤيا ((عجيبة)) ، ثم أظهر تأويله الشافي عن طريق سيدنا يوسف عليه السلام وهكذا مكنه من أن يحصل على أسمى مكانةٍ وأرفع منصب فى النظام الإداري بحكومة مصرٍ إذْ ذاك !

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

مَا بَالُ النِّسْوَةِ ؟: ما حالهن وما شأنهن ؟

مَا خَطْبُكُنَّ ؟ : ما شأنكن وما أمركن ؟

حَاشَ للهِ : تنزيهاً لله وتعجيبا من عفة يوسف .

حَصْحَصَ الحَقُّ : ظهر وانكشف بعد خفاء.

لقد كان على سيدنا يوسف ، عقب خروجه من السجن ، أن يلعب دوراً وطنياً ،

ولذا كان من الضرورى أن تصبح شخصيته معروفةً على المستوى الوطني ، وقد تم ذلك عن طريق رؤيا الملك ، فقد رأى الملك مناماً عجيباً أقض عليه مضجعه ، وأشاع القلق والاضطراب في نفسه لدرجة أنه دعا بجميع الكهنة والمنجمين والعلماء من أنحاء دولته كلها إلى قصره ليسألهم عن تأويله ، إلا أنهم خيبوا أمله ، حيث حارت عقول الجميع ، وعجزت كتبهم أن تسعفهم بالتفسير المقنع الشافي ، وهكذا نالت واقعة الرؤيا شهرة شعبية عامةً ، ومن ثم فما إن بيّن يوسف عليه السلام تفسير الرؤيا وتلقاه الملك بالإعجاب والاستحسان ، حتى أصبح عليه السلام فجأةً محط أنظار البلاد من أقصاها إلى أقصاها.

وبعد أن سمع الملك كل التفاصيل المتصلة بقضية يوسف ، أخذ يحقق في شأنها مع النسوة ، فما وسعهن إلا أن أقررن كلهن ببراءة يوسف ، وأما امرأة العزيز فقد ذهبت في الاعتراف بالحق إلى أبعد حدٍ ، إذْ أعلنت بكل صراحةٍ وعلى رؤوس الأشهاد : قد ظهر وجه الحق الآن ، فالحقيقة هي أنني أنا وحدي كنت الخاطئة المذنبة ، ولا ذنب ليسوف البتةً .

إن هذا الإقرار الصريح من قبل امرأة العزيز (زليخا) عمل عظيم لدرجة أنه لا غرابة في أن تكون بعدئذٍ قد وفقت إلى الإيمان !

إن يوسف عليه السلام لم يبادر بالخروج من السجن لفوره حين استدعاه الملك.. بل طلب إليه أنه ينبغي - أولاً - إجراء تحقيق في شأن الحادثة التي اتخذت ذريعةً للزج به في السجن ، ومع أنه عليه السلام كان بريئاً كل البراءة عند الله تعالى ، إلا أن المسألة هي أنه كان عليه إيصال أمانة الهداية الإلهية إلى عباد الله ، وفي الحادثة المذكورة كان قد اُتهم بالخيانة في حرم سيده ، وقد كان ذلك أمراً بالغ الخطورة ، وكان ضرورياً ألا يأتى أمام الناس إلا بعد استيقانهم من براءته ونزاهته من التهمة الموجهة إليه ؛ ذلك لأن الشخص الذي لا يعتبره الناس أميناً فى شئون العباد ، لن يعتبروه - بالطبع - أميناً فى شئون الله تعالى.

إن المؤمن يكون - في وقتٍ واحدٍ - بين اثنين : أحدهما الإنسان والآخر هو الله سبحانه وتعالى ، فمن خلال التعامل مع الناس ربما يحدث أنه يضطر إلى النطق بكلمةٍ ، ليكشف لهم عن جلية الأمر ، تبدو وكأنها من باب الادعاء أو التزكية للنفس ، غير أن قلبه يكون في الوقت نفسه مليئاً بإحساس العجز والتواضع ، فإنه حين ينظر إلى نفسه بالنسبة إلى الله عز وجل ، يجد أنه عاجز محض ، ولا شيء سواه.

إن تصوّر الله واستحضاره الدائم لا يزال يقف بالمؤمن عند حده ، ويبقيه في حالة اتزان في كل لحظةٍ ، وكلام سيدنا يوسف الآنف الذكر صورة ناطقة لهذه الثنائية التي تتسم بها شخصية المؤمن!

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

مَكِينٌ : ذو مكانة رفيعة ونفوذ أمر.

يَتَبَوَّأُ مِنْهَا : يتخذ منها مباءة ومنزلاً.

قوله: ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾ أراد بـ ((الخزائن)) ، مخازن القمح وغيره من غلات الأرض ، فحين رأى سيدنا يوسف الملك معجباً به سأله أن يفوض إليه السلطة لاستخدام الأجهزة الحكومية لإقامة مخازن ضخمةٍ ، يختزن فيها ما سيقوم بشرائه من فائض محصول الزرّاع لحساب الدولة خلال السنوات السبع الأولى ، وما وسع الملك إلا أن رضي بهذا العرض الحكيم ، وبالتالي فوض إليه السلطة والخيار من كل نوعٍ بحكم سيادته الدستورية والتشريعية .

لقد كان ملك مصر مشركاً ، كما يتضح من الآية رقم ٧٦ من هذه السورة، إن تشريع أو قانون الملك نفسه (وقد عُبر عنه في الآية المشار إليها آنفاً بـ ((دين الملك)) مازال ساريا نافذ المفعول في مصر لمدة عشر سنواتٍ تقريباً حتى استلام سيدنا يوسف الفعلي لوزارة مالية الدولة ،وهذا يدلنا على أن تقلد منصبٍ ما ثانوي أو فرعي في ظل الحكومة غير الإسلامية لا يتعارض مع الإسلام ، وانطلاقاً من هنا فقد قبل السلف بمناصب القضاء تحت حكم الأمراء والملوك الظالمين [1].

ما هو الهدف الذي كان سيدنا يوسف يتوخى تحقيقه من تسلمه زمام الحكم في مصر؟ في ضوء ما سرده القرآن من تفاصيل القصة ، يبدو لنا ظاهراً أن الهدف الرئيسي الأول من ذلك كان يتمثل في إنقاذ عباد الله من ويلات قحط وجدب طويل الأمد ، وثانياً في إتاحة الفرصة لبني إسرائيل - كنتيجة لذلك - للاستقرار بوادي النيل في أمنٍ ودعةٍ .

لقد وعد الله للذين يختارون طريق الإيمان والتقوى بالجنة وعداً قطعياً مؤكداً ، كما يتاح لهم نصر الله في الحياة الدنيا كذلك ، غير أن هناك فارقاً جوهرياً بين الأمرين لابد أن يُلاحظ ، فأما ما يتصل بمهمة إعلان الحق ، فإن توفيق الله إلى ذلك يحالف كل المؤمنين المتقين على حدٍ سواء ، غير أن التوفيق أو النصر للفوز العملي لا يتاح للجميع على وتيرةٍ واحدةٍ فإن النصرة العملية تختلف من أحدٍ لآخر درجةً ونوعاً !

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ

(١) انظر في هذا المعنى : تفسير النسفي.

عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾

جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ : أعطاهم ما فى حاجة إليه.

لقد شهدت السنوات السبع الأولى ، في أعقاب تولي سيدنا يوسف عليه السلام مقاليد الحكم ، نمواً وازدهاراً بالغين في المحاصيل الزراعية ، فأقبل عليه السلام على إقامة مخازن ضخمةٍ في كل أنحاء البلاد، وظل يختزن فيها ما يشتري من فائض محصول الزراع كل عامٍ ، حتى إذا بدأت سنوات القحط والجدب ، استجلب هذا المخزون من الغلات إلى عاصمة الدولة ، وشرع في بيعها بأسعارٍ معقولةٍ.

وبما أن هذا القحط لم يكن مقصوراً على مصر وحدها ، بل امتد أثره إلى بلاد الشام وفلسطين وشرقي الأردن وغيرها من المناطق المجاورة ، لذا فما إن ذاع الخبر عن توافر الحبوب بمصر وبيعها بأثمانٍ رخيصة ، حتى توجه إخوة يوسف هم الآخرون إلى مصر لشراء الغلة ، ومع كونهم قد رأوا يوسف هنا بعد مرور عشرين عاماً ، إلا أنهم لمسوا في وجهه عليه السلام ملامح أخيهم ، ولكنهم سرعان ما كذبوا خاطرهم ذاك ، إذْ تعذر على أفهامهم أن الشخص الذي ألقوه في غيابة الجب قبل عشرات السنين يمكن أن يكون متربعاً على عرش مصر!

وقد أصدر سيدنا يوسف عليه السلام أوامره بأن يُعطى لكل واحد من إخوته حمل بعير من الحبوب، الأمر الذي أطمعهم في أن يحصلوا على حمل بعيرٍ آخر من الحبوب باسم أخيهم بنيامين ، فطلبوا إليه عليه السلام : إن لنا أخاً صغيراً احتبسه والدنا العجوز عنده ، وإننا سنكون شاكرين لو تكرمت بإعطائنا حصة هذا الأخ أيضاً ، فأجابهم سيدنا يوسف قائلاً : إن دفع حصة الغائب إلى غيره لا يتفق ونظام عملنا ، وبإمكانكم أن تحصلوا على حصته ، فيما إذا أتيتم به معكم في المرة القادمة ، فقد جربتم هنا كرمي وعطائي ، فهل أنتم بعدئذٍ تخافون أو تترددون في الإتيان بأخيكم معكم؟! واستطرد سيدنا يوسف

قائلاً : ولو أنكم لم تأتوا في رحلتكم التالية بهذا الأخ الذي تتحدثون عنه الآن ، فسيكون لنا الحق في أن نعتبركم كذبةً ، وأنكم بالغش والخداع حاولتم الحصول على حمل بعيرٍ آخر من الحبوب ، وبالتالي ستكون عقوبة ذلك ألا يُدفع إليكم مستقبلاً ما تستحقونه أنتم!

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

بِضَاعَتَهُمْ : ثمن ما اشتروه من الطعام .

رِحَالِهِمْ : أوعيتهم التي فيها الطعام وغيره.

ولعل سيدنا يوسف عليه السلام رأى فى أخذ الثمن من إخوته ما ينافي المروءة، أو ظناً منه أن الفقر أو ضيق ذات اليد ربما يحول دون قدومهم ثانيةً إلى هنا ، فأوْعز لبعض موظفيه بوضع النقود التي دفعوها عوضاً عن الحبوب فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون ، حتى يجدوها ، إذا فتحوا أوعيتهم ، فى إثر عودتهم إلى منازلهم ، وبالتالى يبادروا بالعودة السريعة مصطحبين أخاهم (بنيامين) معهم .

لقد أظهر سيدنا يعقوب - من جهةٍ - عدم ثقته بأبنائه العشرة بشأن بنيامين ، ومن جهةٍ أخرى صرح أيضاً بأنه ليس أحد منكم ولا أحد سواكم يملك شيئاً من القدرة أو الطاقة، فلن يحدث إلا ما يريده الله سبحانه وتعالى.. غير أن ما يحدث إنما يتم إحداثه على يد البشر ، لكيما يقيم المسيء الدليل على حقيقته بسوء عمله ، وسيكتب الصالح المحسن اسمه ضمن القائمة التى يستحقها وتليق به وبصلاحه وحسن عمله!

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦ ﴾

مَتَاعَهُمْ : طعامهم . أو رحالهم .

مَا نَبْغِي : ما نطلب من الإحسان بعد ذلك .

وَنَمِيرُ أَهْلَنَا : نجلب لهم الطعام من مصر .

مَوْثِقاً : عهدا مؤكدا باليمين يوثق به .

يُحَاطَ بِكُمْ : تغلبوا . أو تهلكوا جميعاً.

وَكِيلٌ : مطلع رقيب.

فرح الإخوة عندما عثروا على نقودهم ، عقب العودة إلى منازلهم ، عائدةً إليهم ، ضمن جواليقهم التي وضعوا فيها الحبوب ، ومن ثم باتوا يلحون على أبيهم قائلين : أرسل معنا بنيامين ، فسنحاول جهد طاقتنا أن نحفظه من كل سوءٍ ، وندفع عنه كل مكروهٍ ، كما أننا سنجلب ما يستحقه هو من الحبوب علاوةً على حصصنا نحن ، فإن القدر الذي أتينا به الآن من الحبوب ، لا يكفينا سوى قليلٍ من الزمن .

ولعل نظام توزيع المؤن الذي أقامه سيدنا يوسف عليه السلام كان لا يعطي بموجبه - على ما يبدو - للوافدين من الخارج إلا حمل بعيرٍ واحدٍ من الميرة على كل رأس !

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧ ﴾

وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

إن عاصمة مصر القديمة كانت بلداً أحيط من جوانبه الأربعة بأسوارٍ عاليةٍ، تتخللها مداخل كثيرة من جهاتٍ شتى وقول سيدنا يعقوب لبنيه: لا تدخلوا - مجتمعين - من بابٍ واحدٍ، بل لتدخلوا من أبوابٍ متفرقةٍ، كان يرجع إلى خوفه من ألا يفطن بهم أعداؤهم، فيحتالوا لإهلاكهم [1].

وقد ألقت الآية رقم (٧٣) من هذه السورة الضوء الكاشف على حقيقة هذا الخوف، إذْ يدافع إخوة يوسف عن أنفسهم قائلين: ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

لقد كان إخوة يوسف وافدين على مصر من الخارج، فكانت ملابسهم مختلفة عن ملابس السكان المحليين، ولم يكن ليصعب على المصريين أن يعرفوا أنهم أجانب بالنظر إلى زيهم الخاص، وقد كان دخول أحد عشر رجلاً كهؤلاء إلى البلد مجتمعين، خليقاً أن يجعلهم ((مشبوهين)) فى أعين الناس، ومن ثم أوصاهم أبوهم، تفادياً لأي صدامٍ يمكن أن يقع بينهم وبين السكان الأصليين، أوصاهم بألا يدخلوا البلد بشكل مجموعة تجتذب أنظار القوم إليهم فيظنوا بهم السوء.

إن المؤمن ينظر - من ناحيةٍ - إلى قدرة الله الكاملة، فيرى أنه لا أحد في هذا الكون يتمتع بأي خيارٍ غير الله عز وجل، كما أنه يعلم أن هذه الدنيا دار امتحانٍ؛ حيث أخضع الله كل أمرٍ من الأمور للأسباب الظاهرية لمصلحة الامتحان وللسبب ذاته نجد

---

(١) تفسير النسفي.

سيدنا يعقوب - عليه السلام - ينصح أبناءه - من جانبٍ - باتخاذ بعض التدابير الدنيوية، ومن جانبٍ آخر يصرح أيضاً بأن كل ما سيحدث ، فإنما يحدث بأمر الله وإذنه تعالى ، لأنه ليس ثمة أحد يملك شيئاً من القوة غير الله عز وجل.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ٧١ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦ ﴾

آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ : ضم إليه أخاه الشقيق بنيامين .

فَلاَ تَبْتَئِسْ : فلا تحزن .

السِّقَايَةَ : إناء من ذهب للشرب اتخذ للكيل.

أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ : نادى مناد أو أعلن معلم.

العِيرُ : القافلة التي فيها الأحمال .

صُوَاعَ المَلِكِ : صاعه ((مكياله)) وهو السقاية .

زَعِيمٌ : كفيل أؤديه إليه.

كِدْنَا لِيُوسُفَ : دبرنا لتحصيل غرضه .

دِينِ المَلك : شريعة ملك مصر أو حكمه .

وفيما كان إخوة يوسف على أهبة الرحيل ، إذْ وضع يوسف ، بدافع الشفقة والحنان، كأساً له - كان يشرب فيه الماء ، ويحتمل أنها كانت من فضةٍ ، وضعها في وعاء أخيه بنيامين ، بحيث لم يشعر بذلك بنيامين ولا أحد من موظفي البلاط الملكي ، ثم حدث بعد ذلك بتدبير من الله ولحكمةٍ أرادها ، أن فقد المكيال الملكي - والذي كان هو الآخر نفيساً وغالياً جداً - أو وُضع في غير موضعه ، وعندما فشلت محاولات الموظفين في البحث عنه والعثور عليه في مظانه ، ذهبت عوامل الشك والارتياب بخيالهم إلى إخوة يوسف الذين كانوا قد رحلوا من عندهم آنفاً ، فأسرع أحد الموظفين نحوهم واستوقفهم حيث كانوا ، ثم شرع في الاستجواب والتحقيق معهم ، وفي أثناء ذلك قرر الإخوة بأنفسهم للسارق تلك العقوبة التي كانت متبعةً ، أو بالأحرى مأخوذاً بها عندهم تبعاً للشريعة الإبراهيمية ، وهي أن يُدفع السارق إلى المسروق ليبقى عنده كعبدٍ مملوك له لمدة سنةٍ كاملةٍ .

وبعدئذٍ بدأ الموظف بالبحث والتنقيب ، ومع أنه لم يجد عندهم مكيال الحبوب ، إلا أنه عثر على شيءٍ آخر نفيس من نفائس البلاط الملكي في وعاء بنيامين - وهو الكأس الفضية- ومن ثم لم يلبث بنيامين أن دُفع إلى سيدنا يوسف بموجب القرار المتفق عليه بين الجانبين، ولو أنهم اتفقوا على التحاكم في هذه القضية إلى قانون الملك المصري ، لما أمكن يوسف أن يستبقي أخاه لديه ؛ ذلك لأن جزاء السرقة ، بحكم قانون الملك السائد في مصر أيامئذٍ ، كان عبارةً عن إشباع السارق ضرباً ، وتغريمه ثمن الشيء المسروق . إن هذا الحادث لم يكن وراءه أي تعمدٍ أو نيةٍ مقصودةً من قبل سيدنا يوسف عليه السلام وإنما حدث ذلك بتدبير إلهي ، ولذلك نسبه الله تعالى إلى نفسه حيث قال:

﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ .

تنبيه : لقد وُضع في وعاء بنيامين «السقاية» التي أشير إليها بضمير المؤنث (ها) ، بينما كان الموظف الملكي يبحث عن «الصواع» المشار إليه بضمير المذكر : (ه) ، ثم إن الشيء الذي وقع في يد الموظف بعد البحث والتنقيب ، أعاد عليه القرآن ضمير المؤنث في قوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ ، مما يدل على أن وعاء بنيامين إنما وُجد فيه سقاية يوسف - التي وضعها فيه هو بنفسه خفيةً - دون صُواع الملك المفقود!

﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ۙ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

مَعَاذَ الله : نعوذ بالله معاذاً ونعتصم به.

كتب المفسرون أن يوسف عليه السلام اختلس ذات يومٍ - وهو صغير - صنماً كان في بيت بعض جداته ، فحطمه شر تحطيمٍ ، وقد اتخذ أخوة يوسف من هذه الحادثة ذريعة للطعن عليه عندما قالوا : ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ . إن حادثةً كانت تنمّ عن مدى غيرته على التوحيد ، أقحموها ، لمجرد المماثلة الشكلية، في خانة السرقة!

لقد كان حال إخوة يوسف ينطوي على نوعٍ من التناقض الغريبٍ ، حيث إنهم كانوا ينادون يوسف المتربع على عرش مصر بـ «يا أيها العزيز» (أى حضرة السيد المبجل ، وصاحب السمو والجلالة)، ويتظاهرون بين يديه بغاية التواضع والانكسار ، ولكن يوسف الذى كان عندهم مجرد فتىً من فتيان البدو، كانوا يرمونه فى الوقت نفسه بتهمة السرقة بغير الحق.

ومع كون يوسف على علمٍ بأن وضعه السقاية في رحل أخيه بنيامين قد تسبب في جعله - من غير جريرة - سارقاً ، إلا أنه لزم الصمت لمصلحة وقتيةٍ وترك الحادث الذي كان يدور بين إخوته والموظفين الملكيين ، تركه يسير ويتلاحق بسرعته الطبيعية ليبلغ آخر مداه ، وحين اضطر مرةً في أثناء ذلك إلى القول فلم يقل : ((من سرق متاعنا)) بل قال بدلاً من ذلك : ﴿ مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ !.

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ : يئسوا من إجابة يوسف لهم .

خَلَصُوا نَجِياً : انفردوا متناجين متشاورين.

مَا فَرَّطتُمْ : قصرتم و (ما) زائدة .

وَالْعِيرَ : القافلة .

لعل واحداً من إخوة يوسف العشرة كان مختلفاً بطبيعته عن الآخرين ، وذلك هو الأخ الذي كان قد أشار عليهم في المرحلة البدائية بألا تقتلوا يوسف ، بل اقذفوا به في بعض الآبار، يلتقطه بعض القوافل السيارة ، وهكذا صار حاله الآن في مصر ، حيث اعتزل عن الإخوة الآخرين ، فإن شعوره بالغيرة والحمية لم يعد يطيق أن يواجه والده الآن باعتباره فاقداً ومضيعاً لثاني الأخوين ، بعدما سبق له أن حضر مرةً أمام الوالد نفسه كمضيعٍ لأخيه !

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

سَوَّلَتْ : زينت وسهلت.

يَا أَسَفَى : ياحزني الشديد .

وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ : أصابتها غشاوة فابيضا.

كَظِيمٌ : ممتلئ من الغيظ أو الحزن يكتمه ولا يبديه .

تَفْتَأُ : لا تفتأ ولا تزال.

تَكُونَ حَرَضاً : تصير مريضاً مشرفاً على الهلاك .

بَثِّي : أشد غمى وهمى.

فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ : تعرفوا من خبر يوسف .

رَّوْحِ الله : رحمته وفرجه .

لقد كشف سيدنا يعقوب بقوله : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ ، القناع عما انطوت عليه قلوب الإخوة من غشٍ وزيفٍ ، فإنهم حين استسمحوا أباهم باصطحاب بنيامين في رحلتهم الثانية ، أعطوه عهداً وثيقاً مؤكداً بالحفاظ عليه ، ولكن عندما خرجت الكأس من متاعه ، لم يستطيعوا الدفاع عنه ، حتى بأن يقولوا للمسئولين :

كيف سيصبح أخونا سارقاً خروج الكأس من رحله ، إذْ من الممكن أن يكون أحد سواه قد وضعها فيه ، أو أنها قد اندست تلقائياً - من حيث لم يشعر - ضمن متاعه وهو يشده للرحيل ، وعلى العكس من ذلك فإنهم لم يلبثوا أن أكدوا على جريمته أمام المصريين عندما قالوا لهم: إن أخاً له قد سرق قبل كذلك .

ومع أن سيدنا يعقوب عليه السلام كان حزيناً مهموماً للغاية ، بسبب فقد ولديه الحبيبين ، إلا أنه كان - مع ذلك - عظيم الأمل في رحمة الله ، فمازال واثقاً حتى الآن من أن رؤيا يوسف التي رآها في صغر سنه كانت بشارةً إلهيةً ، ولابد لها أن تتحقق يوماً ، ومن ثم أمر أبناءه : أن اذهبوا فابحثوا عن يوسف ، وحاولوا أيضاً تخليص أخيه بنيامين!

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

الضُّرُّ : الهزال من شدة الجوع .

بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ : بأثمان رديئة كاسدة.

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ، هذه العبارة هي خلاصة قصة سيدنا يوسف بأكملها ، لقد كان الله يريد إقامة مثالٍ واضحٍ ناطقٍ بأن الشخص الذي يخاف من الله في معالجة الأمور الدنيوية ، ويمتنع عن اللجوء إلى الطرق غير الصابرة ، فإنه لابد أن يُكتب له النجاح آخر الأمر بنصرٍ من الله وعونه تعالى ، وقد جُعلت قصة سيدنا يوسف - عليه الصلاة والسلام - أنموذجاً حياً

ملموساً لهذه الحقيقة ذاتها.

وإن ما شهدت مصر بدايةً من سنوات الخصب السبع، ثم ما تلاه من سنوات الجدب السبع، إنما حدث كل ذلك بإذن الله تعالى، ولو شاء الله لجعل السنين كلها ذات خصوبةٍ، ورخاء لأهالي مصر وهكذا فقد تم إلقاء يوسف عليه السلام أولاً في البئر، ثم وصوله ثانياً إلى القصر، تم كلاهما على علمٍ من الله وتحت رعايته، ولو شاء الله لمكنه - عليه السلام - من أن يقبض على زمام الحكم بمصر رأساً، بدون المرور بالمراحل القاسية التي سبقت ذلك، ولكنه عليه السلام إن لم يواجه كل هذه الأحوال غير العادية التي واجهها، إذن فكيف تسنى له أن يكون في رحاب عالم الأسباب هذا، مثالاً للحقيقة القائلة بأن الله يمد بنصره أولئك الذين لا يزالون متمسكين بمسلك التقوى والصبر على كل حالٍ من الأحوال.

تنقسم الواقعات إلى نوعين: أحدهما: هو الذي يحمل بين طياته مادة الذيوع والانتشار، والآخر هو الذي يخلو من مادة الذيوع والانتشار، وقد يمكن أن تكون هناك واقعتان من نوعٍ مماثلٍ وعلى درجةٍ واحدةٍ من الأهمية، غير أن إحداهما لا تلبث طويلاً حتى تحظى بالذيوع والانتشار الواسع، بينما تبقى أخراهما مغمورةً لا تكاد تُذكر.. إن النصر والتوفيق الإلهي الذي حالف سيدنا يوسف عليه السلام يحالف أيضاً الآخرين عداه من الصلحاء والمحسنين، إلا أن واقعة سيدنا يوسف تتميز بما كانت تنطوي عليه من مادة الذيوع والانتشار، ولذا فهي لم تلبث أن صارت مثار اهتمام الناس وموضوع حديثهم على نطاقٍ أوسع وأشمل!

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

آثَرَكَ الله عَلَيْنَا : اختارك وفضلك علينا .

لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ : لا تأنيب ولا لوم عليكم .

يَأْتِ بَصِيراً : يصر بصيراً من شدة السرور.

وما إن ارتفع الحجاب عن الحقيقة حتى بادر الإخوة إلى الإقرار بخطئهم مع الاعتراف صراحةً بعظمة يوسف وفضله عليهم ، ومن جانبٍ آخر ضرب سيدنا يوسف بدوره مثلاً رائعاً لتلك السماحة الخلقية التي ينبغي على أمثاله من عباد الله الصادقين أن يأخذوا أنفسهم بها في مثل هذه المناسبة ، فلم يقابل عليه السلام إخوته بأي لومٍ أو تأنيبٍ ، بل سحب ذيْل العفو والنسيان دفعةً واحدةً على كل ذكريات الماضي المرة ، وبالتالي أقام مع الإخوة جميعاً العلاقات الودية الخالصة من جديدٍ .

وهذه الواقعة تنطوي أيضاً على مثالٍ للنصرة الجماعية بجانب النصرة الفردية ، فعن طريق ذلك تولدت تلك الظروف والملابسات التي مكنت بني إسرائيل من أن يخرجوا من فلسطين ويصلوا إلى مصر ، ليتمتعوا هناك بالعزة والكرامة وخفض العيش ، ومن ثم فقد انتقلت أسرة سيدنا يعقوب عليه السلام إلى مصر في زمن سيدنا يوسف عليه السلام حيث عاشت حوالي خمسمائة سنة حياةً سعيدةً كريمةً ، وتقول لنا التوراة : إن العدد الكلي لأفراد عائلة سيدنا يوسف الذين وفدوا على مصر بدعوته عليه السلام كان يبلغ ٦٧ شخصاً .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ

ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾

فَصَلَتِ العِيرُ : فارقت القافلة عريش مصر .

تُفَنِّدُونِ : تسفهوني أو تكذبونى .

ضَلالِكَ : ذهابك عن الصواب .

لقد مكث سيدنا يوسف عليه السلام ما يربو على عشرين سنة ، عقب اختفائه عن أبيه ، في بلاد مصر المجاورة ، غير أن سيدنا يعقوب عليه السلام لم يتمكن من الاطلاع على وجوده هناك ، اللهم إلا عندما انطلق قميصه من مصر في نهاية المطاف ، أخذ يشم رائحته عن بُعدٍ قبل وصول القميص إليه ، مما يدل على أن علم الأنبياء لا يكون علماً ذاتياً ، بل يكون هبةً من الله ، ولو أنه كان علماً ذاتياً لعلم سيدنا يعقوب أن ولده (يوسف) في أرض مصر ، ولكنه لم يستطع أن يطلع على وجود يوسف وأحواله إلا حين أخبره الله تعالى بذلك عن طريق الوحى.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

ليس المراد بـ ((العرش)) هنا هو سرير الملك ، بل هو سرير سيدنا يوسف الذي كان عليه السلام يجلس عليه وهو يقوم بتأدية المسئوليات المنوطة به ، وهكذا ليس المراد بـ ((السجدة)) هو السجود التعبدي المعروف ، بل الخضوع أو الانحناء بشكل الركوع ،

فقد جرت عادة الناس منذ قديم الزمان بممارسة هذا النوع من الخضوع تعظيماً واحتراماً .

ومعنى قوله : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ إن ربي إذا أراد أمراً قيّض لتحقيق مشيئته أسباباً وطرقاً غايةً في الدقة والخفاء ، وإن الله تعالى يبدع لإكمال مشروعه تدابير تعجز عقول البشر العاديين أن تشعر بها أو تدرك سِرُها!

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

فَاطِرَ : يا مبدع ومخترع.

إن الكافر ينظر إلى كل شيءٍ بالنسبة إلى الإنسان ، بينما ينظر المؤمن إلى كل شيءٍ بالنسبة إلى الله عز وجل ، وها هو سيدنا يوسف عليه السلام الذي يقرّ أن ما أتيح له من منصبٍ حكومي أعلى ، تقديراً لمواهبه ومؤهلاته الشخصية ، هبة من الله .. ويصف ما مُنح من علم تفسير الرؤيا وتعبيره : بأن ذلك مما علمني ربي، وحين يستعيد ذكرى المحنة التي عرضه لها إخوته فيقول : إنها لم تكن سوى تدبير لطيف من جملة تدابير الله، أراد أن يمكنني بها من قطع ما قدر لي من أشواطٍ في ميدان الرقي والتقدم والازدهار.

إن الشعور بعظمة الله المسيطر على ذهنه ، كان قد انتزع منه كل أحاسيس العظمة الذاتية ، مما جعله لا يطيق، حتى رغم وصوله إلى قمة المجد الدنيوي ، إلا أن ينبس بالكلمات التالية في ضراعة وخشوع: يا رب ! إنك وحدك المالك لكل القوى والطاقات ، وأنت وحدك مدبر أموري كلها ، فانصرني في الدنيا والآخرة ، وضُمني إلى أولئك العباد السعداء الذين يحالفهم التوفيق لاتباع مرضاتك في الحياة الدنيا ، وبالتالي يفوزون بنعيمك الأبدي في الدار الآخرة !

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ : عزموا على الكيد ليوسف

إن قصة سيدنا يوسف - عليه السلام - التي جرت على لسان رسول الله - ﷺ - هي في حد ذاتها برهان ناطق على أن القرآن وحي رباني وليس بكلامٍ إنساني.. فإنها تتضمن وقائع وأحداثاً يرجع تاريخها إلى نحو ألفين وخمسمائة سنة قبل ولادة رسول الله - ﷺ - فلم يكن قد شهدها بنفسه، كما أنها لم تكن مكتوبةً في أي سجلٍ تاريخي حتى يقرأها هو، أو يستمع إلى أحدٍ غيره وهو يتلوها عليه وإنما كانت بين دفتي التوراة ، والتي كانت بدورها ، فيما قبل عصر المطبعة على وجه التحديد ، كتاباً لم يكن أحد ملماً به سوى العديد من أحبار اليهود والمنتمين إلى مراكز الديانة اليهودية ، ليس غير .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن رواية القرآن لهذه القصة ، مع كونها تتفق ، فيما يتصل بأصل الموضوع ونقاطه الجوهرية ، مع رواية التوراة ، إلا أنها مختلفة عنها في كثيرٍ من التفاصيل ، وهذا الاختلاف على كون القرآن وحياً إلهياً؛ لأننا حين نتناول نقاط الاختلاف والتباعد بين الروايتين بدراسةٍ مقارنةٍ موضوعية ، يبدو لنا واضحاً أن رواية القرآن تتطابق مع العقل والفطرة من كل الوجوه ، حيث يغمرنا إحساسٍ واقعي عميق ونحن نقرأ رواية القرآن ، أنها أليق ما تكون ، باعتبار لغتها وأسلوبها ، بسيرة سيدنا يعقوب وسيدنا يوسف النبوية ، بينما رواية التوراة غير لائقةٍ ، باعتباراتٍ شتى ، بأدب السيرة النبوية.

وكذلك ثمة عناصر عديدة من هذه القصة بالغة الأهمية (كخطاب سيدنا يوسف في السجن مثلاً ، الوارد في الآيات : ٣٧ : ٤٠) اشتملت عليها الرواية القرآنية ، لا نجد

لها ذكراً في صحائف التوراة ولا التلمود ، وحتى إن بعض الغلطات التاريخية التي توجد في التوراة ، لم تتكرر في القرآن الكريم، وعلى سبيل المثال : تطلق التوراة على الملك المعاصر لسيدنا يوسف - عليه السلام- لقب فرعون ، على حين أن أسرة الفراعنة إنما تولت مقاليد الحكم في مصر بعد سيدنا يوسف - عليه السلام- بخمسمائة عامٍ ، أما الأسرة الحاكمة في مصر في زمن سيدنا يوسف - عليه السلام- فقد كانت من سلالة العرب يقال لهم : "الملوك الرعاة" (Hyksos kings) (قارن بـ : التوراة ، سفر التكوين).

لو أن إنكار الحق كان يرجع إلى عدم وجود الدليل ، لبادر المرء بالإيمان حين يظهر الدليل أمامه ، غير أن إنكار الحق يرجع سببه في معظم الحالات إلى العناد والتعنت ، فالمعاندون لا يؤمنون بالحق لكونهم لا يريدون أن يؤمنوا به .

إن الإيمان بالحق يكون في الغالب مرادفاً لتصغير النفس ، وتصغير النفس أصعب وأشق عملٍ على المرء دائماً ، ولهذا السبب لا يتخلى أمثال هؤلاء عن موقفهم العنيد حتى بالرغم من ظهور كل أنواع الأدلة والقرائن .. إذْ لا يرى هؤلاء بأساً ولا غضاضةً في أن يصبح الحق صغيرا ورايته منكوسةً ، ولكنهم لا يرضون بأن يصغروا أنفسهم له وينكسوا أمامه رؤوسهم، ويغيب عنهم أن الذي يقوم بتصغير نفسه في الدنيا لأجل الحق سيكبر في الآخرة ، ومَنْ لا يصغر نفسه في الدنيا ، فإنما هو الشخص الذي سيصبح ويظل صغيراً في العالم الآتي إلى أبد الآبدين !.

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ : كم من آية – كثير من الآيات

الذين لا يؤمنون بالحق عقب ظهوره ، يلجأون إلى تمويه إنكارهم له ، بحيث يقولون: إن الحق يعوزه دليل مقنع يصح الاعتماد عليه ، ولو أنه كان يصحبه دليل كهذا، لبادرنا إلى الإيمان به بالضرورة ، مما يعني أن سبب إعراضهم عن الحق أو إنكارهم له يرجع إلى الخارج وليس إلى الداخل !

بيد أن الواقع على العكس من ذلك تماماً ، فالحق واضح لدرجة أنه حين يتجلى تشهد لصدقه آيات الأرض والسموات كلها ، ولا يكون في الكون بأكمله أي شيءٍ آخر سواه أكثر ثبوتاً وأسطع برهاناً منه .. غير أن الظفر بالحق يتطلب في الحقيقة العين المبصرة والعقل المعتبر ، وهذا هو الشيء الذي لا يتوفر لدى هؤلاء المنكرين.

حين يقف المرء إزاء الحق موقف العناد والطغيان ، فإنما يكون السبب وراء ذلك في معظم الحالات ، هو "الإشراك بالله" ، من حيث إن أكثر الناس ، قد افترضوا ، إلى جانب إيمانهم بالله ، ذواتا من الأحياء أو الموتى ، وضعوا فيهم ثقتهم ، يرفعونها إلى مقام الكبرياء والعظمة ، وهكذا فالجميع قد اتخذوا لأنفسهم مجموعةً من "الأكابر" ما عدا الله ، هم موضع ثقتهم واعتمادهم في الحياة وبعد الممات ، على حين أنه لا كبير هناك إلا الله الواحد ، والكل بإزائه صغير ، ولن يفوز أحد بالنجاة عنده بشيءٍ سوى عمله الذاتي .

إن الواجب الأساسي الملقى على عاتق النبي هو الدعوة إلى الله الواحد الأحد ، وذلك هو رسالته في حياته ، وقد اختار هذه الرسالة عن وعيٍ وعلى بصيرةٍ ، وليس على وجه التقليد ، ومعنى ذلك أن الدعوة النبوية هي دعوة تهدف إلى ربط الإنسان بالله الواحد ، والتي يكون صدقها واضحاً مكشوفاً على الداعي لدرجة أنها تصير بالنسبة إليه بصيرةً ومعرفةً، وهكذا فإن أتباع النبي إنما هم الذين يدركون الحق على مستوى البصيرة ، ويقومون بإعلانه والصدع به على مستوى التوحيد .

إن المرء ربما يعتبر استقراره الوقتي استقرارا دائماً لا يزول ، بينما لا يدري أحد بالضبط متى ستنتهي فترة عمره، ولا يعلم أحد متى سيأتي الموت فيبطل كل مزاعمه وأحلامه اللذيذة ، ومتى سيتفجر زلزال القيامة ليدمر دنياه العامرة ويجعل عاليها سافلها .. إن المرء يحسب أنه في عالمٍ مضمون النتائج مأمون العواقب ، بينما هو على وشك أن يواجهه في أي لحظةٍ مصير غير مضمونٍ ولا معلومٍ مسبقاً !.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾

غَاشِيَةٌ : عقوبة تغشاهم وتجللهم

بَغْتَةً : فجأة

اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ : يئسوا من النصر لتطاول الزمن .

وَظَنُّوا : توهم الرسل أو حدثتهم أنفسهم .

قَدْ كُذِبُوا : كذبهم رجاؤهم النصر في الدنيا .

بَأْسُنَا : عذابنا.

يدلنا التاريخ على أن الذين كانوا مؤمنين بالنبوة والرسالة ، لم يلبثوا أن صاروا منكرين لها ، عندما بعث الله فيهم نبياً من أنفسهم .

إن خرائب القرى المهلكة لقوم عادٍ ، وثمود ، وأصحاب مدين ، وقوم لوطٍ وغيرهم كانت متواجدةً على مقربة من قريش مكة ، أي في المناطق المجاورة لها ، وقد كانوا يشاهدونها بين حينٍ وآخر خلال رحلاتهم ، وكأن هذه الآثار والأطلال كانت

تنطق - بلسان حالها - أن هذه الأمم لم تتعرض للعذاب الإلهي والدمار المحقق إلا بسبب عدم معرفتها بنبي الله ، ولكن قريشا ، بالرغم من ذلك ، لم تستفد منها درساً ولا عبرةً ؛ وسر ذلك يكمن في موطن ضعفٍ في الإنسان ، وهو أنه ربما يمارس عملاً خاطئاً ولكنه لا يلبث أن يخرج نفسه من عداد الخاطئين بناءً على بعض الأفكار المزعومة ، والآية رقم ١١٠ من سورة يوسف ، تفسرها الآية رقم ٢١٤ من سورة البقرة خير تفسيرٍ - على حد المبدأ القائل : القرآن يفسر بعضُه بعضه - حيث قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾" [البقرة : ٢١٤] .

إن الله ينصر الداعي إلى الحق دوماً ، ذلك مما لا شك فيه ، ولكن هذا النصر يمثل قضاء الله لصالح الداعي ضد المدعو ، ولذلك فلا يأتي هذا النصر الإلهي الحاسم إلا إذا كان الكفاح الدعوي قد بلغ منتهى كماله ، حتى ولو أخذت تعتمل في نفوس الدعاة ، بسبب هذا التأخير ، بواعث اليأس وخيبة أملٍ !!.

ويتضح لنا من قوله : ﴿ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ۗ ﴾ [يوسف :١٠٩] أن السلوك الذي يُعامل به أهل الإيمان في الدنيا ، يكون علامةً على السلوك الذي سيُعاملون به في الآخرة .

وينصر الله دعاة الحق في هذه الدنيا ، بحيث تصبح كلمتهم هي العليا فوق سائر الكلمات الأخرى، ويحالفهم التوفيق لإنجاح مسيرتهم رغم كل المعارضات والمؤامرات ، وسيعطون هذه العزة والرفعة في الآخرة على وجهٍ أفضل وأكمل.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾

عِبْرَةٌ : عظة وتذكرة .

يُفْتَرَى : يُختلق .

إن قصة الأنبياء السابقين وأممهم هي قصة البشر كافةً من حيث ما تنطوي عليه من درس وعبرة ولو أن المرء استخدم عقله ، لظفر بنصيحة الحاضر في واقع الماضي ، وبالتالي فلا يسعه إلا أن يقوم بإصلاح نفسه وأحواله نظراً لمصير الآخرين .

ليس القرآن بكتابٍ موضوعٍ بيد أحد الناس ، إنما هو كتاب منزل من عند الله تعالى وقد جاء هذا الكتاب مصدقاً حقاً لتلك النبوءات التي وردت بشأنه في الكتب السماوية السابقة ، وهو يحتوي على أوضح بيانٍ وأبلغه لكل ما هو ضروري فيما يتصل بالهداية والإرشاد ، وإنه كتاب أوله هدىً للناس وآخره رحمة لهم!.

سورة الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓرٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾

بِغَيْرِ عَمَدٍ : بغير دعائم وأساطين تقيمها .

اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ : استواء يليق به سبحانه .

يُدَبِّرُ الأَمْرَ : يصرف العوالم كلها بقدرته وحكمته .

مَدَّ الأَرْضَ : بسطها في رأي العين .

القرآن يدعو إلى الإيمان بالله الواحد، وأكبر دليل يستند إليه المنكرون لوجود الله، يتلخص في التساؤل الآتي : إن كان ثمة إله، فلم لا نراه عياناً ؟ غير أن الكون المعلوم لدينا يدل على أن عدم وقوع شيءٍ ما تحت أبصارنا ليس بدليل على أنه لا وجود لذلك الشيء البتة، ومن أمثلة ذلك : قوة الجاذبية، إن الفضاء تتحرك فيه كواكب لا حصر لها في اتجاهات ومساراتٍ شتى، والعلم الإنساني يقول : إن هناك قوة جاذبة غير مرئية توجد بين هذه الأجرام السماوية، هي التي تمسكها في رحاب الفضاء الواسع، فإذا كان الإنسان يقر بوجود قوة الجاذبية، مع كونها غير مرئية إذن، فكيف سيكون محقاً في إنكاره لوجود الله بحجة أنه غير مرئي؟ وهذا هو شأن الوحي والرسالة كذلك ..

إن دارس العلوم الكونية حين يدرس الكون يجد أن كل شيءٍ هنا خاضع لنظام

معين، وأن كل الأشياء مكبلة بحكم خاصٍ، لا تستطيع الخروج عليه أو الانحراف عنه، وهذا «الحكم» لا يوجد داخل هذه الأشياء ذاتها، وإنما هو مفروض عليها من الخارج بلا ريبٍ، مما يعني أن العالم يتلقى التوجيهات من «الخارج» لأداء وظيفته، وهذا التوجيه الخارجي يسمى- بالنسبة إلى سائر العالم - ما عدا الإنسان، بـ «القانون الطبيعي»، ويُطلق عليه فيما يتصل بعالم الإنسان اسم الوحي والإلهام .

إن الكون بمثابة ماكينةٍ والقرآن دليل أو مرشد لها، فالأول مثال : تدبير الأمر ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾، والأخير مثال : تفصيل الآيات ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ ﴾، وبين كليهما يوجد انسجام وتوافق تام، فكل ما يُشاهد في أرجاء الكون عملياً، هو موجود في صحائف القرآن لفظياً، ويُبرهن هذا التوافق والانسجام - في آنٍ واحدٍ - على أمرين اثنين : أولاً: على أن لهذا الكون خالقاً مبدعاً، وثانياً : على أن هذا القرآن كتاب ذلك الخالق نفسه، وليس إبداع العقل الإنساني المحدود! .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

رَوَاسِيَ : جبالاً ثوابت كيلا تميد .

زَوْجَيْنِ : نوعين وضربين .

يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ : يلبس النهار ظلمة الليل أو العكس .

فالأرض منبسطة وممتدة تحت أقدامنا كفرشٍ طبيعي، تتواجد فيها البحار العميقة من ناحيةٍ ، والجبال الشامخة من ناحيةٍ أخرى، ذلك لتبقى الأرض في حالة توازنٍ دائمٍ، وقد كان ممكناً أن تكون الأشجار منفردةً مستقلةً بعضها عن بعض ، ولكن فيها

أزواجاً، تتكاثر البذور والثمار من خلال عملية التلاقح أو الإخصاب التلقائي بينها. وأرضنا هذه، مع حركتها الانتقالية أو السنوية في مدارها حول الشمس، تدور أيضاً في محورها باستمرارٍ، وهي تتم هذه الدورة في كل أربعٍ وعشرين ساعةً؛ الأمر الذي يترتب عليه تتابع الليل والنهار.

وأيما شخصٍ يقف عند آياتٍ كهذه وقفة تأملٍ، ويتفكر فيها بجديةٍ، سيجد نفسه مضطراً إلى التسليم بأن هذه الدنيا تحت سلطان مالكٍ مختارٍ قديرٍ، وأنه لم يخلقها عبثاً أو اعتباطاً، بل أنشأها بإرادته وفق تخطيطٍ هادفٍ حكيمٍ، إذْ لم يكن من الممكن البتة أن توجد هذه الروح المعنوية الغريبة في الأرض بدون تخطيطٍ واعٍ!.

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

قِطَعٌ: بقاع مختلفة الطبائع والصفات.

وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ: نخلات يجمعها أصل واحد.

الأُكُلِ: ما يؤكل، وهو الثمر والحب.

في تفسير هذه الآية رُوى عن السلف أقوال منها ما يلي: قال عبد الله بن عباس: «أرض طيبة، وأرض سبخة، تنبت هذه، وهذه إلى جنبها لا تنبت»، وقال مجاهد: «(إن ذلك) كمثل بني آدم، صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد»، وقال الحسن البصري: «هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم».

إن في الأرض آيةً عجيبةً تتمثل فيما نشاهد من اختلاف الأشجار والنباتات وتنوع ثمارها طعماً ولوناً وقلةً وكثرةً، رغم كون التربة واحدةً، تُسقى بماءٍ واحدٍ كذلك، إن

هذا تمثيل أرضي للواقع الإنساني، فمن خلال ذلك يتضح لنا أن البشر، وإن كانوا سواء في الظاهر، تصل إليهم جميعاً هداية واحدة، ولكن البون شاسع والفرق عظيم بين إنسانٍ وآخر، فيما يتعلق بالاستفادة من الهداية والانتفاع بها، فمنهم من يهتدي بها، ومنهم من يتصدى لرفضها وإنكارها، ومنهم من لا يتلقى من الهداية إلا أقلها، ومنهم من تزدهر وتتألق حياته كلها بنور الهداية .

﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾

الأَغْلاَلُ : الأطواق من الحديد .

إن قضية المنكرين للحياة الثانية (أي البعث بعد الموت) غريبة إلى حدٍ بعيدٍ، فالواقع الذي يسلمون بظهوره مرةً، لا يسلمون بظهوره نفسه مرةً أخرى!!

وهؤلاء المنكرون لوقوع البعث كثيراً ما يتعجبون من المؤمنين بعقيدة البعث، ظناً منهم أن الإيمان بالحياة الثانية تسليم بأمرٍ غير علميٍ، ولكن الحقيقة هي أن الوضع على العكس من ذلك تماماً، فإن منكراً ما، مهما توغل في العناد، لا يسعه إلا أن ينكر الحياة الثانية وحدها، وأما ما يتصل بالحياة الأولى، فليس يمكن لأحد أن ينكرها؛ لأنها لا تزال ماثلةً أمام كل شخصٍ كواقع حيٍ ملموسٍ، فلئن كان ممكناً أن تبرز الحياة الأولى إلى الوجود، إذن، فلم لا يمكن أن تبرز الحياة الثانية إلى الوجود كذلك ؟!

وقد كان عدد المنكرين لوجود الله وما يزال قليلاً، بل أقل من القليل في كل العصور، فإن أكثر الناس يؤمنون بوجود خالقٍ، ولكنهم - مع ذلك - لا يؤمنون بالآخرة، غير أنه لا تعود أية قيمةٍ للإقرار بوجود الخالق بعد إنكار الآخرة، إن الله ليس مجرد خالق لهذا الكون فحسب، بل هو حق في ذاته كذلك، وإن كون الله هو الحق كله

والعدل كله، يقتضي - بالضرورة - أن تتسم كل أفعاله بالحق والعدل، والآخرة هي في الحقيقة مظهر العدل الإلهي ولا عبرة بالإيمان بالله، ما لم يقترن به الإيمان بالآخرة كذلك، إذْ لا يكتمل الإيمان بالله بدون الإيمان بالآخرة .

والذين لا يتلقون رسالة الحق الواضحة السديدة بالقبول، فإنما يرجع السبب في ذلك إلى كونهم ضحايا الجمود والتعصب والأنانية، وحين تتحدث إليهم أو تتناقش معهم حول موضوعٍ ما، فسيتضح لك أن القوم أسرى أفكارهم وخيالاتهم الذاتية، لا يطيقون الخروج من إطارها الضيق، حتى يتأملوا في أي حقيقةٍ خارجية بحريةٍ ونزاهةٍ، وقدتم التعبير عن هذه الحالة ذاتها بكون «الأغلال في أعناقهم»، فإن «الغل أو القيد» في العنق علامة العبودية وشارتها، ومعنى ذلك أن هؤلاء عبيد أفكارهم وخيالات أنفسهم، والذين يجعلون من أنفسهم مغلولين مقيدين في الدنيا على هذا النحو، سيكون نصيبهم في الآخرة – أيضاً - القيود والأغلال !

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾

المَثُلاتُ : العقوبات الفاضحات لأمثالهم .

مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ : ستر وإمهال .

لقد كان رسول الله - ﷺ - يقول لأهل مكة : آمنوا بهداية الله، وإلا ستتعرضون لبطش الله وعقابه، فما كان جوابهم إلا أن قالوا : اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً، فأمطر علينا حجارةً من السماء، وقد كان هذا الدعاء على ما يبدو، مرفوعاً إلى الله، إلا أنه كان في الحقيقة موجهاً إلى الرسول، فإنه - ﷺ - كان يبدو لأهل مكة آنئذٍ شخصاً لا يقام له وزن، وكان يتعذر عليهم التيقن من أن الله سيعاقبهم فعلاً فيما لو أنكروا رجلاً عادياً - في نظرهم - كهذا . إن نزول العذاب لقاء إنكار «محمدٍ» كان يتراءى لهم أمراً

بعيداً عن الإمكان ، لدرجة أنهم كانوا يقولون على وجه التهكم والاستهزاء : إننا نود لو ينزل علينا هذا العذاب الإلهي الذي تهددنا به يا محمد بأسرع ما يمكن من الزمان .

فأجابهم قائلاً : إن إنكاركم للحق الذي جئت به لابد أن يجرّ عليكم عذاب الله يوماً، لن يرده عنكم راد، وإنما هي شقاوتكم وحدها التي جعلتكم تستعجلون به، حيث كان ينبغي لكم أن تغتنموا هذه الفرصة، فتستخدمونها في تدبر الدعوة القرآنية واتباعها، وليس في استنزال العذاب قبل موعده.

إن من سنة الله تعالى أنه يتيح للإنسان مهلة العمل، على أن للمهلة حداً لا تتجاوزه، والشيء الذي ينتظرهم وراء هذا الحد ليس سوى العذاب الأليم الذي لن يستطيعوا إنقاذ أنفسهم منه أبداً !.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾

لم يكن لدى أهل مكة مقياس للنبوة سوى مقياس الثروة والسيادة والنفوذ الشعبي، وعلى هذا الاعتبار لم يكن - عليه الصلاة والسلام - يبدو لهم غير عاديٍ، ومن ثم أرادوا أن تكون معه أية آيةٍ غير عاديةٍ تقوم برهاناً قاطعاً على كونه نبياً مرسلاً من عند الله .. فقيل رداً عليهم : إن هؤلاء يطلبون شيئاً لا يتفق والتدبير الإلهي، ولذا فلا يمكن أن يتاح ذلك لأحد.

لقد أقام الله في كل قومٍ من أنفسهم رجلاً يبلغ إليهم رسالة الله باللغة المألوفة والمفهومة لديهم، وما كان ذلك إلا بغية التسهيل أو التيسير على تلك الأمم، غير أن هذه الأمم حملت ذلك- في معظم الأحيان- على غير محمله، فلم تلبث أن كذبت برسل الله، حيث ظلت أنظارهم متعلقةً بشخصية الرسول العادية، ولم يتمكنوا من النظر إلى عظم رسالته وطابعها غير العادي!

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾

وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ : ما تنقصه أو تسقطه .

بِمِقْدَارٍ : بقدر واحد لا يتعداه .

الكَبِيرُ : العظيم الذي كل شيء دونه.

المُتَعَالِ : المستعلي على كل شئ بقدرته .

وَسَارِبٌ : ذاهب في سربه وطريقه ظاهراً .

إن بطن الأم مصنع عجيب، ومن بواعث العجب والغرابة في هذا المصنع الإلهي الذي يُعني بإنتاج البشر، أنه يعمل وفق «مقدارٍ معينٍ»، وبالإمكان القول، على حد التعبير العصري الرائج اليوم، إنه لا يزال هناك توازن بين العرض والطلب قائماً بصفةٍ منتظمةٍ ومستمرةٍ .

وعلى سبيل المثال فإن هذا المصنع مازال يعمل ويعمل منذ الآلاف من السنين، ويخرج منه الرجال، كما تخرج النساء، إلا أنه لا يزال بين الجنسين كليهما تناسب عددي ملحوظ، فلا يحدث أبداً أن يبدأ يتولد من هذا المصنع الرجال وحدهم أو النساء وحدهن، وربما تعمل كارثةٌ ما، كالحرب مثلاً، على الإخلال بهذا التناسب العددي على نطاقٍ محلي محدودٍ، ولكن الأمر المثير للدهشة والاستغراب أنه لا يكاد يمضي إلا يسير من الزمن حتى يملأ هذا المصنع الطبيعي ذلك الفراغ الطارئ، ويعيد التناسب العددي بين كلا الجنسين إلى سيرته الأولى من جديد!

وهذا هو الشأن تماماً فيما يتعلق بتوازن الصلاحيات والاستعدادات بين الرجال

والنساء الخارجين من هذا المصنع، حيث تدلنا الدراسات على أن الرجل والمرأة لا يستويان في مواهبهما الفطرية، بل ثمة اختلاف كبير وتنوع هائل بين كفاءات كلٍ من الجنسين، ولهذا التنوع والاختلاف أهمية غير عاديةٍ من وجهة النظر التمدنية، فإن بناء التمدن والقيام على إدارة شؤونه يتطلب أفراداً ذوي كفاءات متنوعةٍ ومختلفةٍ، وعندما نلاحظ أن مصنع الأم لا ينفك يعمل في صمتٍ على إعداد الأفراد ذوي الكفاءات من كل نوعٍ ، يخيل إلينا كما لو أنه يتلقى «طلباتٍ» من الخارج، وبالتالي يقوم بصياغة البشر داخل البطن طبقاً لها، ولو أن الإنتاج البشري لم يعدْ يتسم بهذا التنوع والاختلاف لأصيب النظام التمدني كله بشللٍ، ولأصبحت كل مظاهر الرقي والتطور هباءً .

وإن وجود هذا التخطيط الدقيق في وظيفة بطن المرأة، لدليل حي ناطق بأن وراء ذلك خالقا مدبرا قديراً ، إذْ بدون تخطيط إرادي مسبقٍ لا يتصور أن ينهض نظام كهذا، ويسير بهذا القدر من الدقة والانتظام.

ويثبت من ذلك أيضاً أن خالق هذا العالم ومالكه إله لا يعلم بما هو ظاهر مشهود فحسب، بل هو يعلم الخفي والغائب كذلك، فالله الذي يعلم ظاهر الواحد وباطنه، لم لا يكون مطلعاً على ظاهر الآخر وباطنه؟! كما أن عقيدة الملائكة هي الأخرى تثبت ذلك تلقائياً، ومن ثم فهو بمثابة امتدادٍ لنظام «الرقابة» أو «الإشراف» الإلهي الراهن!

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ﴿١١﴾ ﴾

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ : ملائكة تعتقب في حفظه .

مِنْ أَمْرِ الله: بأمره تعالى بحفظه .

مِن وَالٍ : من ناصر أو وال يلي أمورهم .

إن ظاهرة نهوض الأمم وسقوطها في هذه الدنيا لا تحدث على نحوٍ عشوائيٍ أو اعتباطيٍ، بل تحت إشرافٍ من الله -تعالى- وتبعاً لقضائه الأعلى، فحين يغدق الله -تعالى- نعمه على أمةٍ ما، فإنما هو يُديم تلك النعم عليها، ما دامت هي محافظةً على جدارتها بها، وعندما تفقد الأمة جدارتها، تفقد معها بالضرورة ما أتيح لها من النعم الإلهية كذلك، كحرماننا مثلاً مما كان لنا من هيبةٍ ورعبٍ يسود العالم الخارجي بعدما فقدنا الوحدة بين صفوفنا، وما إلى ذلك.

هذا، وإن ما تحصل عليه أمة ما في هذه الدنيا، إنما تحصل عليه بموجب القانون الإلهي، وما تفقده، فإنما تفقده بموجب القانون الإلهي كذلك، فالله - سبحانه وتعالى- وحده هو المعطي وهو المانع ، وليس هناك من أحدٍ سواه يقدر على العطاء أو على السلب!

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾

السَّحَابَ الثِّقَالَ : المحملة بالماء المثقلة به .

شَدِيدُ المِحَالِ : المكايدة . أو القوة . أو العقوبة .

البرق يومض، فيكون تارةً بشيراً بحلول موسم الربيع الجديد، ويتحول طوراً إلى صاعقة تسقط على الأرض فتحرق ما عليها من رطبٍ ويابسٍ، وهكذا حين تتلبد السماء بالسحب الكثيفة، فتنزل على الأرض تارةً بشكل غيث نافعٍ، وتكون أخرى مطراً نذيراً بالطوفان والسيل الجارف .

ومعنى هذا أننا نعيش في عالمٍ ينطوي فيه الشيء الواحد على جانبي الخوف والرجاء معاً، فالشيء الذي يتخذه مدبر أمور الدنيا وسيلةً سوْق رحمته إلى أهل الأرض، يقدر أيضاً على أن يحوله - إن شاء - إلى عذابٍ مدمرٍ، وهذا الوضع يقتضي ألا يحسب المرء نفسه أبداً في مأمنٍ من بطش الله.

والغافلون ينتظرون دوماً ظهور بعض الخوارق والآيات الطلسمية، غير أن الذين يملكون شعوراً حياً وضمائر يقظةً، يجدون فيما حولهم آياتٍ رائعةً من كل نوعٍ ضمن وقائع الحياة اليومية، فلمعان البرق وصاعقة الرعد مما يجعل قلوبهم ترتجف وتنبض بسرعةٍ أكثر، وبرؤية قطرات المطر لا يتمالكون أن تسكب عيونهم سيلاً من الدموع الحارة، والحالة التي تعتري الملائكة، وهم يرون قدرات الله اللانهائية مباشرة، تطرأ الحالة نفسها على الصادقين من الناس وهم لم يروا بعدُ قدرات الله اللانهائية مباشرةً !

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ ﴾

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ : لله الدعوة الحق « كلمة التوحيد » .

لو أنك بسطت يدك نحو البحر، وناديت مياهه، فلن يحدث أبداً أن يلبي البحر نداءك، وبالتالي تتدفق المياه من قاع البحر، ثم تتقدم إليك مسرعةً، لتروي غلتك، وتسقي ما تملك من حقولٍ وبساتين .. ولكننا نرى هذا البحر نفسه، إذْ ترتفع مياهه إلى الفضاء، متخليةً عما فيها من أجزاء الملح -وفق قانون الطبيعة- ثم تتحول إلى سحبٍ متراكمةٍ، نتيجة تفاعل الحرارة والجاذبية والهواء، تمتد فوق قريتك، وتتساقط بشكل الماء العذب، فتتبدل أراضيك بجفافها وجدوبتها خصوبةً ونضارةً، ومن هذا نعلم أن البحر، مع كونه عظيماً هائلاً على ما يبدو لنا ظاهراً، إلا أنه عاجز محض، خاضع لإرادة عليا، لا يملك إزاءها أي خيارٍ .

وهذا هو حال كل الأشياء في هذه الدنيا، وفي حالةٍ كهذه فإن العاقل هو الذي يعبد الخالق وحده دون المخلوق، والذي يتخذ من رب الأشياء مركز اهتمامه وتوجهه دون الأشياء ذاتها !!

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ ﴾

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ : لأمره تعالى ينقاد ويخضع .

وَظِلالُهُم : تنقاد لأمره تعالى وتخضع .

بِالْغُدُوِّ : جمع غداة – أو ل النهار .

وَالآصَالِ : جمع أصيل – آخر النهار .

إن مطلوب الله من الإنسان هو أن يخضع أمامه بكل كيانه، وهذا "الخضوع" هو دين الكون بأكمله، فكل شيءٍ خاضع لأمر الله تمام الخضوع، ومن علامات هذا الخضوع ذاته سقوط ظلال الأشياء شرقاً وغرباً في أوائل النهار وأواخره، وكأن ظلال الأشياء هذه تمثل – على المستوى المادي – ذلك السجود المطلوب أداؤه من الإنسان على مستوى الوعي والإرادة، فالأول صورة رمزية للسجدة، والأخير صورة حقيقية لها .

وتدلنا دراسة هذا الكون الفسيح المترامي الأطراف على أن الكون مربوط، بكل ما فيه، بقانونٍ عالمي واحدٍ، وهذا دليل على أن خالقه ومالكه واحد ليس غير، فإن

دراسات الإنسان العلمية وتأملاته العقلية لا تثبت، بأي وجهٍ من الوجوه أن وراء هذا الكون أكثر من قوةٍ واحدةٍ تتصرف فيه، وفي هذه الحالة فإن التسليم بوجود آلهةٍ أخرى غير الله الواحد الأحد لا يعدو أن يكون محض فرض بلا أساسٍ أو دليلٍ يستند إليه !

إن مشاهدة «العين» إنما تخبرنا بوجود الله الواحد لا غير، لذا فالذين يعتقدون بأكثر من إلهٍ واحدٍ، إنما يقيمون الدليل على أنهم عميان، حيث إنهم افترضوا العديد من الآلهة بسبب عماهم، وليس بناءً على أساسٍ من العلم والمشاهدة بالمعنى الدقيق !

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

بِقَدَرِهَا : بمقدراها الذي أقتضته الحكمة .

زَبَداً : هو الغثاء (الرغوة) الطافي فوق الماء .

رَّابِياً : مرتفعاً منتفخاً.

زَبَدٌ : هو الخبث الطافي عند إذابة المعادن .

جُفَاءً : مرمياً به مطروحاً . أومتفرقاً.

لقد أنشأ الله الدنيا بحيث صارت وقائعها المادية تمثيلاً للحقائق الأخلاقية، فكل ما يطلبه الله منا - نحن البشر - على المستوى الشعوري يتم عرضه في سائر العالم المحيط بنا على المستوى المادي .

وقد لفت القرآن انتباهنا هنا إلى ظاهرتين من ظواهر الطبيعة، إحداهما : هي أنه حين ينزل المطر، ويصل ماؤه إلى الجداول والأنهار، فيطفو على وجهه زبد أو غثاء يراه الناظر

ممتداً هنا وهناك، والثانية: حين تُسبك الفضة وغيرها من المعادن في النار لتنقيتها، يعلو خبثها بشكل الزبد، ولكن سرعان ما نلاحظ أن زبد الاثنين، الذي لا ينطوي على أية منفعة للإنسان، يضمحل ويتلاشى في الفضاء، ويبقى الماء الصافي والمعدن الخالص كما هما، بما فيهما من خيرٍ وفائدةٍ للإنسان .

إنها من ظواهر الطبيعة، يُرينا الله تعالى من خلالها، على وجه التمثيل، ما هو المبدأ الذي قرره تعالى للنجاح والفشل في الحياة، ويتلخص ذلك المبدأ في أنه لا يتبوأ في هذا العالم مكانةً ما، إلا شخص أو شعب يقيم الدليل على كونه نافعاً للآخرين، وأما الفرد أو الشعب الذي يفقد صلاحية النفع والإفادة للآخرين، فلا مكان له في دنيا الله هذه!.

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾

وَبِئْسَ الْمِهَادُ : بئس الفراش والمستقر جهنم .

إن من سنة الله في هذه الدنيا أن الخبث والغثاء، مهما طفا وعلا فوق السطح فإنه بصفةٍ مؤقتةٍ، وأن الشيء الذي يُكتب له البقاء وعلو المكانة هنا، هو الذي كان حقيقياً، ومنطوياً على قابلية النفع والإفادة، وهذا هو شأن البشر تماماً فيما يتعلق بالآخرة كذلك، فقد يمكن أحياناً أن يبرز أناس وتتألق أسماؤهم في هذه الدنيا بناءً على أوضاعهم الإضافية، ولكن لن يتبوأ في الآخرة المكانة العالية إلا الذين يملكون أوصافاً حقيقيةً .

والذين لا يلبون نداء الحق في الدنيا، فإنما يرجع السبب في ذلك دوما إلى ما يتراءى لهم من ذهاب المنافع الدنيوية من أيديهم فيما لو تقدموا نحو الحق الخالص، والثمرة التي يجتنيها أمثال هؤلاء لقاء إعراضهم عن الحق، تتمثل دوماً فيما يتاح لهم من العزة وبُعد الصيت ورغد العيش في الحياة الدنيا، حيث يتخذون من إنكار الحق مطيةً

للوصول إلى المناصب الرفيعة واحتلال المراكز المرموقة . بيد أن هذه الأشياء شأنها شأن الخبث والغثاء، فسيقذف بأمثال هؤلاء كلهم في الآخرة بعيداً، تماماً كما يقذف بالغثاء الطافي المؤقت، وسيبرز ويلمع هناك أولئك وحدهم الذين كانوا قد سلموا أنفسهم للحق بغض النظر عن كل المنافع الوقتية .

والذين يعطون الأوضاع والمراكز والفوائد الدنيوية من الأهمية البالغة ما يجعلهم يعرضون لأجلها عن الحق، ستبدو لهم هذه الأشياء في الآخرة تافهةً لدرجة أنهم يودون أن يدفعوا هذه الدنيا برمتها، ودنيا أخرى مثلها - إن أتيحت لهم - فداءً لأنفسهم للتخلص من العذاب يومئذٍ !

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾

ينقسم الناس دوما إلى نوعين : أحدهما : هو الإنسان الذي يفكر بالعقل الذي منحه الله إياه، ويتوصل بالتالي، في ضوء الحقائق، إلى قرارٍ قطعي، والشيء الذي يقتنع به قلبه، نتيجة هذا التفكير المجرد والاستعراض الموضوعي، يختاره عن وعيٍ وإرادة .

أما الآخرون عداه : فهم الذين يدور تفكيرهم في إطار العادات القومية والأفكار التقليدية، والذين يحكمون على الأشياء نظراً للعرف السائد وليس بالنظر إلى الدلائل والبراهين، ثم لا يلبثون أن يختاروا الشيء الذي يرونه مقبولاً شائعاً لدى الجماهير باعتباره أنه هو الحق!!

إن الأول في نظر القرآن هو الشخص الذي يؤمن في ضوء العلم، وفي مقابل ذلك يصف القرآن الشخص الآخر بالأعمى، فإن الأول يعرف الحق من الباطل ببصيرته الذاتية، بينما رأسمال الأخير لا يعدو أن يكون أحاديث مسموعة، فالباطل عنده ما يعده الناس باطلاً، وما يعتبره الناس حقاً، صار هو الآخر ينظر إليه على أنه لا يكون إلا

الحق!!.

وإنما تنهض دعوة الحق للبحث عن أناسٍ يستطيعون أن يحكموا على الأشياء ويتخذوا قراراتهم باستخدام عقولهم أنفسهم، وأما الذين أصبحوا عمياناً، رغم تمتعهم بالأعين، فإن دعوة الحق لن تغني عنهم فتيلاً !.

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾

وَيَدْرَءُونَ : يدفعون ويجازون .

عُقْبَى الدَّارِ : عاقبتها المحمودة ، وهي الجنات .

إن الله خلق الإنسان، فأسكنه في عالمٍ كله روعة وجمال، وما يزال يربيه ويوفر له أسباب البقاء والنماء كل لحظةٍ، إن هذا الواقع يربط الإنسان بخالقه ومالكه برباط عهدٍ فطريٍ، وهو يقتضي ألا يكون الإنسان طاغياً متمرداً على ربه، بل عليه أن يخضع أمامه ويستسلم له معترفاً بالحقيقة الواقعة .

إن حياة الإنسان في هذه الدنيا تعتمد على ضروبٍ شتى من العلاقات والروابط مع الآخرين، ومن مقتضيات عبودية الإنسان ألا يتصل إلا بمن يحب الله أن يتصل به، وينقطع عمن أمر بالانقطاع عنه، ويسيطر عليه الإحساس بعظمة الله وكبريائه بشدة، لا يلبث معها أن يخضع له تعالى بكل كيانه، والصلاة هي إحدى الصور المعينة لهذا

الخضوع ذاته، وأن يعطي للآخرين مما يملك هو، تماماً كما أعطاه الله تعالى مما يملك، وأن يقابل إساءة الآخرين إليه بالإحسان إليهم، لأنه يرغب هو الآخر في أن يصفح الله عن سيئاته في الآخرة ويتغمده بفضله ورحمته الواسعة .

وكل هذا يتطلب الصبر الطويل المستمر ؛ الصبر في مواجهة الدوافع النفسانية، والصبر على ضياع المنافع الوقتية العاجلة، والصبر على الضغوط القاهرة المفروضة من البيئة أو المجتمع.. إلخ، إلا أن المؤمن لابد له من الصبر على هذه الأشياء كلها لأجل الجنة، فإن الصبر هو ثمن الجنة، وبدون دفع هذا الثمن لن يظفر أحد بجنة الله الأبدية !

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

سُوءُ الدَّارِ : عاقبتها السيئة ، وهي النار .

وَيَقْدِرُ : يضيقه على من يشاء لحكمة .

مَتَاعٌ : شيء قليل ذاهب زائل .

الإنسان مربوط بربه برباط عهد الفطرة، وبالآخرين من بني جنسه برباط عهد الآدمية ونقض هذين العهدين كليهما مثار الفساد في أرض الله، وعيشك في أرض الله صالحاً مصلحاً يعني أن تمارس حياتك فيها ملتزماً بكلا العهدين المذكورين، وأما كون المرء مفسداً في أرض الله، فهو أن يتحرر من هذين العهدين ويطلق لنفسه العنان، فلا يبالي بما عليه من حقوق الله ولا من حقوق العباد .

وأمثال هؤلاء ملعونون عند الله، فلن يتاح لهم نصيب ما من رحمات الله ؛ إنهم أناس

لوثوا أرض الله بالأقذار، ولذا فلا يستحقون في الآخرة إلا أن يُزج بهم فى أسوأ دار .

إن أرزاق الناس في هذه الدنيا تتفاوت بين بعضٍ وآخر، فمنهم من يحصل على الكثير، ومنهم من لا يحضل إلا على القليل، أما المكثر فكثيرا ما يُصاب بمركب الاستعلاء، بينما يعاني المقل من مركب النقص، إلا أن كليهما خاطئ عند الله على حدٍ سواء، وإنما الموقف أو رد الفعل الصحيح هو أن يكون المرء شاكراً لله إذا ما وُسع عليه، ويتمسك بالصبر والقناعة إذا ما ضيق عليه .

المحبون للدنيا يقابلون داعية الحق دوماً بالإعراض عنه والاستهانة بأمره، والسبب في ذلك هو أن المحب للدنيا إنما يعرف مظاهر العظمة الظاهرية، وبما أن الداعي لا يملك سوى العظمة المعنوية وحدها، فلا يتمكن من معرفتها وتقديرها كما ينبغي، وإنما يهملها ويصرف نظره عنها باعتبارها شيئاً حقيراً لا يستحق النظر إليه، ولكن حين يتمزق الحجاب عن وجه الحقيقة فسوف يعلم الإنسان -وقتئذ- أن المباهج المرئية التي كان قد اعتبرها كل شيء لم تكن تحمل أي قيمة تذكر ، وإنما الشيء الذي كان يتمتع في الحقيقة بالقيمة والأهمية البالغة هو الذي لم يكد يتحول إلى مركز اهتمامه وتوجهه لكونه خارجاً عن دائرة المرئيات !.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩ ﴾

أَنَابَ : رجع بقلبه إلى الله .

طُوبَى لَهُمْ : عيش طيب لهم في الآخرة .

وَحُسْنُ مَئَابٍ: حُسن مرجع ومنقلب .

إن هذه الدنيا دار امتحانٍ ، وإنما يسع المرء هنا أن يظفر بالقرب من الله على مستوى «الذكر»، وليس في مقدوره أن يظفر بهذا القرب منه تعالى على مستوى «المشاهدة»، وسيظفر بالله من يرضى بهذا التدبير الإلهي، ومن لم يرض بذلك لا يزال محروماً من الظفر بقرب الله تماماً، كما يُحرم من رؤية الشمس الشخص الذي يلح على رؤيتها بالعين العارية.

وإنه لا يُكتب التوفيق والنجاح في هذه الدنيا إلا لشخصٍ يسلم بمنهج الله، وبالتالي يصوغ حياته العملية وفقاً له ؛ لأن مبدع العالم هو الله تعالى وحده، وليس أحدا من البشر!

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾

وَإِلَيْهِ مَتَابِ : إلى الله وحده مرجعي وتوبتي .

إذا كانت هذه الدنيا دار امتحانٍ، فإن ذلك يقتضي - بطبيعة الحال - أن يُحكم على الناس بالقضاء الحاسم بعد إراءتهم الآيات الحسية، والآن فلو أن الله بادر بإظهار آيةٍ حسيةٍ على الفور، بحسب طلب الناس، ظل الناس - مع ذلك - مصرين على الجحود والإنكار، فإنهم سيصبحون بعدئذٍ أهلاً للهلاك والدمار، غير أن هذه من عنايات الله الرحمن الرحيم الخاصة، أنه لا يظهر الآيات الحسية رغم إلحاح الناس في طلبها، بل ما يزال يبلغ إليهم رسالة الحق في لغة النصح والدليل، وهكذا تتاح للناس المهلة إلى أقصى حدٍ ممكنٍ، ليقوموا بإصلاح أنفسهم فيستحقون رحمات الله .

وينبغي على الداعي - والحالة هذه - ألا يقع فريسة القلق أو الانزعاج بسبب مطالبات الناس السخيفة الحمقاء، وأن يظل يدعوهم إلى الله راضياً بمنهجه الحكيم.

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾

أَفَلَمْ يَيْأَسِ: أفلم يعلم ويتبين .

قَارِعَةٌ : داهية تقرعهم بصنوف البلايا .

فَأَمْلَيْتُ : أمهلت في أمن ودعة .

السبب الأصلي في إنكار الحق لا يرجع إلى فقدان الدليل، بل إلى حرية الإنسان هذه التي تؤهله ليؤمن إن شاء أو يرفض إن شاء، ولن يعجز الإنسان أبداً عن افتعال بعض الأعذار أو المبررات لإنكار أي شيءٍ، مادامت حرية الإنكار متاحةً له .

فلو أنك عرضت عليه دليلاً مؤلفاً من الألفاظ، لعارضه استناداً إلى مجموعةٍ أخرى من الألفاظ المضادة لذلك، وإن لفت انتباهه إلى الآيات المنبثة في أرجاء الكون، فلن يلبث أن يلجأ إلى أي تفسيرٍ مزعومٍ للرد عليك، حتى وإن سيّرت الجبال، وقطعت الأرض، وأحييت الموتى، فإنه لن يمنعه شيء عن القول بأن هذا ليس إلا سحراً .

وقد يحدث أحياناً أن بعض المنكرين يطالب الداعي بالدليل في ظاهر الأمر، إلا أنه يرمي حقيقةً إلى السخرية والاستهزاء به، حيث إنه يريد إشعار الناس بأن الشيء الذي يعرضه هذا الرجل ليس من الحق في شيءٍ، إذْ لو كان حقاً في الواقع، لكان يصحبه دليل يضطر معه الجميع إلى الإيمان به رغم أنوفهم .

لقد أتاح الله للناس المهلة ؛ مما جعل قلوبهم خالية من الخوف والرهبة، ولكن حين

تنقضي المهلة المتاحة، ويبطش الله بالناس بغتةً، فسيدرك المرء حينئذٍ كم كان عاجزاً عديم الاختيار، وإن كان يزعم نفسه صاحب الاختيار المطلق !.

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

وَاقٍ : حافظ وعاصم .

تدلنا الدراسات على أن في الكون نظام تسجيلٍ، فكل ما ينطق به المرء، أو يفعله يتم تسجيله فى الحال تحت النظام الكوني، ومن ثم فلا يصح أن نؤمن بإله لهذا الكون إلا أن يكون إلهاً يتصف بصفتى «السمع» و«البصر»، غير أن جميع الآلهة التي افترضها المشركون حتى الآن لا يقدر أي واحدٍ منها على السمع ولا على الرؤية، إذن، فكيف يمكن أن تكون هذه الآلهة المزعومة خالقةً ومالكةً لعالمٍ بديعٍ مثل كوننا الحالي!! فالذي ليس في مقدوره أن يسمع أو يبصر بنفسه، كيف يتسنى له أن يوجد في مخلوقاته حاسة البصر أو يزودها بصلاحية الرؤية والإبصار؟! . وهكذا فإن كوننا هذا يتسم بالوحدة في كل شيء لدرجة أنه لا يسيغ أو يتقبل الشرك بأي وجهٍ من الوجوه، فلتسم أي شريك شئت، تجد الكون كله يرفض التسليم به رفضاً باتاً !

وقوله :﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ ﴾ المراد بالمكر هنا هو «قولهم»، الذي سبقت إليه الإشارة في هذه الآية، فكلما يقابل المرء الحق بالإنكار، فإن عقله لا يلبث أن يخترع أى قولٍ من الأقاويل تبريراً لإنكاره، ومع أن هذا القول لا يعدو أن يكون مجموعة من الألفاظ الفارغة، إلا أن الذين لا يأخذون أمر الحق بالكثير أو القليل من الجدية، يحسبون أنهم قد أثبتوا - بنطقهم بألفاظٍ كهذه - صواب موقفهم، حتى ولو كانت

ألفاظهم المنطوقة لا تحمل أية قيمة تُذكر خارج مخيلاتهم .

إن ألفاظاً كاذبةً كهذه لا يمكن أن تساند أحداً إلا في العالم الراهن وحده .

﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾

أُكُلُهَا دَائِمٌ : ثمرها الذي يؤكل لا ينقطع .

إن ثمن الجنة هو التقوى ؛ يعني سيطرة الإحساس القوي الشديد بعظمة الله وجلاله على المرء، بحيث لا يلبث أن يتحول إلى خوفٍ يستقر في أعماق قلبه، والذين يخافون من الله في الحياة الدنيا، هم أولئك الذين سيتم إسكانهم في دور الآخرة، تلك التي لا يُقلق بالهم فيها أي نوعٍ من الخوف ولا الحزن، وستحيط بها حدائق غناء وبساتين خضراء تزيدها روعةً وبهاءً إلى روعتها وبهائها .

أما الذين يعيشون في هذه الدنيا غير خائفين، فسيكون حالهم على العكس من ذلك تماماً، حيث إنهم سيجدون أنفسهم في الآخرة في عالم النار!

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

وَإِلَيْهِ مَئَابِ : إلى الله وحده مرجعي للجزاء.

عندما نزل القرآن الكريم انقسم اليهود والنصارى بشأنه إلى طائفتين : فالذين كانوا يخافون الله، وكانوا مستمسكين بتعاليم سيدنا موسى وعيسى - عليهما السلام -

الصادقة، اعتبروا القرآن صوت قلوبهم، وبالتالي لم يلبثوا أن تلقوه بالقبول عن رضا وسرورٍ واقتناعٍ، إلا أن الذين كانوا يعدون العصبية والتحزّب ديناً، لم يوفقوا لمعرفة الحق القادم من الخارج، أي من خارج الإطار التقليدي المألوف لديهم، فتصدّوْا لمعارضته وعرقلة مسيرته .

والذي ينبري لمعارضة الحق انسياقاً مع دواعي العصبية والتحزب، إنما يتبع أهواءه، متخلياً عن الله وأوامره ، ومن ثم لا يجوز للداعي أن يتناول دعوة الحق بشيءٍ من التعديل أو التبديل مراعاةً لخواطر أناسٍ كهؤلاء، بل يجب عليه أن يثبت على الحق النقي الخالص قولاً وفعلاً، فإن المطلوب منه بإزاء أمثال هؤلاء، إنما هو الاستقامة وليس التفاهم أو المصالحة .

وإنه لأمر خطير جداً أن يظل المرء أسير شهواته منقاداً لأهوائه، حتى بعد أن وصل إليه علم الحق بلغةٍ واضحةٍ ومفهومةٍ لديه، فإنه صنيع يتسبب في حرمان المرء كلياً من نصرة الله وعونه!

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ: لكل وقت حكم معين بالحكمة .

أُمُّ الكِتَابِ : اللوح المحفوظ أو العلم الإلهي .

إن الأنبياء المبعوثين من عند الله، كانوا كلهم بشراً كالبشر العاديين، وكان لهم حاجات وعلائق دنيوية مثل غيرهم تماماً من أزواج وذرية وغير ذلك .

والمراد بـ «أم الكتاب» هنا هو السجل أو الصحيفة الأصلية المحفوظة عند الله تعالى،

والتي تتضمن كل ما يريده الله من عباده من أمور الهداية المبدئية، وقد كانت كتب الأنبياء التي نزلت في مختلف العصور مأخوذة من أم الكتاب ، وقد أنزل الله كتبه هذه تارةً في لغةٍ، وطوراً في لغةٍ أخرى، وجاءت مضامينها حيناً في صيغة التمثيل، وعُرضت حيناً آخر بأسلوبٍ مباشرٍ، وقد ألقيت مسئولية الحفاظ عليها، بعد نزولها، على عواتق البشر تارةً، وقد ناط الله هذه المسئولية بنفسه تارةً أخرى !!

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ ﴾

لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ : لا راد ولا مبطل له .

إن عاقبة عدم القبول بدين الله مما يواجهه المرء عادةً في الآخرة، إلا أن الشعب المخاطب للرسول مباشرةً، إذا هو قابل دعوة النبي بالرفض والإنكار والعناد، فلا يلبث أن يلاقي أسوأ العواقب على ذلك في هذه الدنيا .

بيد أن هذا العقاب الدنيوي لا يجري دوماً على نمطٍ أو منوالٍ واحدٍ، بل ظل يأخذ أشكالاً وصوراً شتى في مختلف عصور الأنبياء، وقد ظهر قضاء الله الحاسم هذا بالنسبة لنبي آخر الزمان - ﷺ - بناءً على مصالح خاصةٍ، بحيث أتيح لأتباع النبي الغلبة والانتصار الكامل على منكري النبي - ﷺ - ففي أواخر العهد المكي، عندما كان رؤساء مكة قد بلغوا في إنكاره ومعارضته - عليه الصلاة والسلام - كل مبلغٍ، كانت دعوة الإسلام، في الوقت نفسه، تنتشر في المدينة وبين القبائل المجاورة لمكة، مما يعني أن قوة الإسلام الدعوية كانت تزحف نحو مكة فاتحةً أطرافها، لقد ظهرت سنة الله، بالنسبة لنبي آخر الزمان - عليه الصلاة والسلام - في صورة الفتوح أو الانتصارات

الدعوية.

كانت الأمم السابقة تحاول المكر بأنبيائها، إلا أن الله هو خالق هذا المكر، فلا يضر إلا بإذنه، وفي الآخرة سيعلم هؤلاء لمن تكون العاقبة ولمن الخسران .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

في الوقت الذي يثير فيه عبدة الظواهر ألواناً شتى من الشكوك والشبهات عن صدق الداعي إلى الحق لعدم رؤيتهم لديه آياتٍ (ماديةً) تدعمه وتؤديه، في الوقت نفسه تتوفر هناك آيات معنوية تنطوي على تصديقه، فإن الصدق هو في ذاته دليل على ذاته، غير أن استشعار ذلك لا يتسنى إلا لشخصٍ يكون قد اكتسب القدرة على رؤية الحقائق مروراً بالظواهر، وأما الذين وقفت أنظارهم عند حدود الظواهر، وتعلقت بها أبصارهم، فسينكرون الحق باعتباره مجرداً من الدليل، على حين أنه سيكون فيما حولهم، وفي نفس الوقت، عدد لا يُحصى من الأدلة والبراهين شاهدةً على صدقه !

سورة إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣ ﴾

بِإِذْنِ رَبِّهِمْ : بتيسيره وتوفيقه لهم أو بأمره .

العَزِيزِ : الغالب ، أو الذى لا مثل له .

الحَمِيدِ : المحمود المثني عليه .

وَوَيْلٌ : هلاك ، أو حسرة ، أو وادٍ في جهنم .

يَسْتَحِبُّونَ : يختارون ويؤثرون .

وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً : يطلبونها معوجة أو ذات أعواج .

إن الإيمان هو أن يظفر المرء برضا الله كواجب للوجود القوى والطاقات كلها، ويتصف بكل الصفات الحميدة، وإن واقعاً كهذا لا يكون بالنسبة للإنسان عقيدة رسمية فارغةً ، إنه يعني خروج المرء من ظلام الجهل إلى نور العلم، وإدراكه للآخرة مع كونه لم يفارق الدنيا بعد، إن الإيمان من حيث حقيقته اكتشاف شعوري واعٍ، وليس تكراراً عقيماً جامداً لأية مجموعةٍ من الألفاظ والعبارات، وإنما يأتي كتاب الله ليبلغ بالمرء هذه الدرجة الرفيعة من الوعي والشعور .

وربط الهداية بـ ((إذن الله))، عزو لأمر الهداية - على ما يبدو - إلى الله تعالى . غير أن هذا الكلام موجه حقيقةً إلى الإنسان نفسه، فإن المراد بـ ((الإذن)) هنا ذلك القانون الإلهي الذي قرره الله تعالى لاهتداء الإنسان وضلاله، وبموجب هذا القانون يكون الشرط الوحيد الذي من شأنه أن يضمن وصول المرء إلى الهداية، هو طلبه الجاد، ليس غير، فالذي يظفر بالهداية في هذه الدنيا، لا يظفر بها بمحض الجهود الدعوية يبذلها أحد الدعاة، وإنما هو يظفر بها بحكم القانون الإلهي، وقانون الله يقتضي ألا يصل إلى الهداية إلا الشخص الطالب للهداية الجاد في طلبها، وبدون هذا الطلب الذاتي الجاد لا ولن يظفر أحد بالهداية أبداً .

وقد جعل الله طريق الهداية واضحاً ومضيئاً إلى أقصى الحدود، فالأرض والسماء تملأهما الآيات والمعالم المشيرة إليه، وكتاب الله يوفر أدلة وبراهين لا تُجحد، والفطرة الإنسانية لا تزال تشهد لصدقه وحقانيته، مما يعني أن كل القرائن الطيبة متضافرة لتأييده ؛ إذن، فإن الذين لا يختارون طريق الهداية، والحالة هذه، فإنما يفعلون ذلك حرصاً على المصالح الدنيوية، وليس بناءً على أي سببٍ واقعيٍ، ومع أن أمثال هؤلاء يقدمون أيضاً بعض الدلائل إثباتاً لصواب موقفهم، إلا أن هذه الدلائل لا تعدو أن تكون نتيجة لالتماس العوج في أمرٍ سديدٍ مستقيمٍ، وهم لا يقدمونها إلا تبريراً لعنادهم وتماديهم في الإنكار في أعين الناس .

وفي هذه الحالة فلن يُحرم من الهداية إلا شخص جعله حبه للمنافع العاجلة، وانغماسه في الملذات الدنيوية أعمى وأصم !!

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

إن من سنة الله -تعالى- أنه يبعث الرسل من الشعب المدعو نفسه ؛ لكي يقوموا بدعوة الناس إلى الحق مراعين نفسياتهم وباللغة المفهومة لديهم، ولكن الأمر المثير

للدهشة أن الإجراء الذي تم اتخاذه لخير الإنسان، لم يلبث أن خرجت منه نتيجة عكسية؛ فعندما وجدوا أن النبي رجلاً مثلهم، يتحدث إليهم بلغتهم المألوفة لديهم، قابلوه بالرفض والإنكار باعتباره عادياً .

وليس من سنن الله الكونية أنه -تعالى- يستعمل أمورًا غير واقعية أو غريبة لاجتذاب أنظار الناس إليه، أو يبعث إلى أمةٍ ما برسولٍ يتحدث إليها بلغةٍ غريبةٍ، أو أسلوبٍ طلسمي غامضٍ، ليوقعها في الحيرة والاندهاش، ولا يعمد الله تعالى إلى خرق العادات لكون الناس مولعين بالعجائب والغرائب، إن منهج الله هو منهج اليسر والواقعية، فلقد أنشأ الله تعالى دنياه على أساسٍ من الحقائق، وهو بالتالي يسيّر خطة هداية الإنسان هي الأخرى على أساسٍ من الحقائق دون الطلاسم والألغاز .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾

بِأَيَّامِ الله : بنعمائه أو وقائعه في الأمم الخالية .

المراد بـ ((آيات الله)) الآيات المنبثة في أرجاء الكون الدالة على حقيقة الأمر الإلهي، وأما ((أيام الله)) فقد أريد بها وقائع التاريخ الخالدة، تلك التي ظهر عندها قضاء الله، فانتصر الحق على الباطل انتصاراً ظاهراً بنصرةٍ من الله خاصة، ولئن كان أحدهما دليلاً كونياً، فإن الآخر دليل تاريخي .

وفي التذكير بأيام الله آيات ودلالات لكل عبد صابر على طاعة الله وبعيد عن معاصيه، وشكور لنعم الله، وإنما خص الصبار الشكور ؛ لأنه هو الذي يعتبر بها ولا يغفل عنها .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى

ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

يَسُومُونَكُمْ : يذيقونكم ويكلفونكم .

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ : يستبقون بناتكم للخدمة .

بَلاءٌ : ابتلاء بالنعم والنقم .

تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ : أعلم إعلاماً لا شبهة معه .

إن خطاب سيدنا موسى عليه السلام المشار إليه في هذه الآيات، هو خطابه الذي ألقاه - في أغلب الظن - قبيل وفاته بأيامٍ بين يدي بني إسرائيل وهم في برية سيناء، ولقد ورد هذا الخطاب بالتفصيل في سفر التثنية من التوراة المتداولة اليوم .

وفحوى خطاب موسى عليه السلام المفصل هذا : إنكم لئن عشتم في هذه الدنيا ربانيين ؛ همكم في الحياة أن تذكروا الله كثيراً وتسبحوا بحمده أينما كنتم، فستكون أشياء الدنيا كلها معكم، وستنظر أمم الأرض قاطبةً إليكم نظرة تهيبٍ وإجلالٍ، وسيخضع الله أعداءكم جميعاً، وحتى لو أن البحر اعترض طريقكم يوماً، فسينشق البحر بإذن الله ليفسح لكم الطريق، بينما تبتلع أمواج البحر نفسه أعداءكم عن آخرهم !!

وعلى العكس من ذلك فإن لم تفعلوا هذا، فستصبحون عند الله ملعونين، أي تُطردون من رحمات الله، وسيأكل الآخرون محاصيل جهودكم، وسيفسد كل أمرٍ من أموركم، وبالتالي تعودون مغلوبين على أمركم، تتسلط عليكم الشعوب الأخرى فكرياً وعملياً .

وقانون الله هذا ليس ((لليهود)) بالمعنى المعروف، بل هو عام شامل لكل شعبٍ مؤتمنٍ على كتاب الله، فأيما شعبٍ كان حاملاً الكتاب الإلهي، يعامله الله تعالى هذه

المعاملة، سواء أكانوا حملة الكتاب فيما مضى أو حملة الكتاب في الحاضر !

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ: عضوا أناملهم من الرسل وكلامهم .

مُرِيبٍ : موقع في الريبة والقلق .

إنها قصة واحدة، تكرر حدوثها مع أنبياء الله قاطبةً، على اختلاف العصور والأمم التي بعثوا فيها، حيث تصدت كل أمةٍ لمعارضة رسلها، وبذلت الجهود في كل مكان، ودبرت صنوف المكائد لتكميم أفواههم وكبت أصواتهم .

ترى ماذا كان السبب وراء ذلك ؟ إن سبب ذلك كان يكمن في ((شك)) تلك الأمم، وكان الباعث على هذا الشك أنهم وجدوا أنفسهم بين أمرين متقابلين : فمن ناحيةٍ كان أمامهم ديانتهم الآبائية التي كانت تحمل على ظهرها أسماء الأكابر والعظماء المبجلين، ومن ناحيةٍ أخرى كان النبي الذي جاء يقدمه إليهم – على ما يبدو – رجل عادي، وقد كان دين النبي تصحبه قوة الدلائل والبراهين الساطعة، إلا أن الأمجاد التاريخية وحشود الجماهير الغفيرة كانت مع الدين الآبائي، فبينما وجد المخاطبون للنبي أنفسهم عاجزين كل العجز عن مقاومة الأدلة المصاحبة لدينه، تعذر عليهم أيضاً أن يفهموا كيف يمكن اعتبار أولئك الأكابر والعظماء خاطئين ؟!، ومن هنا فقد تسبب هذا الوضع المزدوج في إصابتهم بداء الشك والارتياب، ومع كونهم ظلوا – عملياً – مرتبطين بالدين الآبائي، إلا أنهم لم يتمكنوا من تحرير قلوبهم وعقولهم من الشك والارتياب كذلك !

﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن

تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

فَاطِرِ : مبدع وخالق .

بِسُلْطَانٍ : حجة وبرهان على صدقكم .

تتعلق هذه الآية أصلاً بالشعوب القديمة، ولكن من مزايا القرآن الكريم أنه يعرض تعاليم الله الأبدية بصوغها في قالب التاريخ، وللسبب ذاته يستخدم القرآن كلمات وتعابير تناسب الأجيال اللاحقة من البشر تماماً، إلى جانب كونها مناسبة للرعيل الأول.

ومن أمثلة ذلك كلمة ((فاطر)) الواردة في هذه الآية، ومعنى الفاطر - في أصل اللغة: ((هو الذي يفتق أو يشق)) ، ومع أنه قد استعمل هنا بمعنى الخالق المبدع حسب المفهوم الشائع عموماً، إلا أننا لو أخذنا بالترجمة الحرفية للكلمة، فسيكون معنى الآية : أفي الله تشكون - أيها الكفار - الذي شق السموات والأرض وفتقها (ويؤيد هذا المعنى ما ورد في الآية ٣٠ من سورة الأنبياء : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ ، وهذه الآية بمعناها الحرفي المذكور آنفاً، تقيم الدليل على وجود الله لملاحدة العصر الحديث، حيث تدل الأبحاث والكشوف الفلكية الجديدة على أن مادة الأرض والسماء كانت بدايةً في صورة كتلة جامدة سليمة، تُعرف بالمادة العليا (فوق العادة)، وكانت كل أجزائها إذْ ذاك - طبقاً لمعلوماتنا عن القوانين الطبيعية الثابتة - منضمةً متداخلةً بعضها مع بعضٍ بمنتهى القوة، وقد وُجد هذا الكون الفسيح المترامي الأطراف نتيجة انفجارٍ عظيم حدث في نفس هذه المادة فوق العادة، وكلمة ((فاطر)) في هذه الآية تتضمن الإشارة إلى هذا الحدث الكوني الذي يقوم دليلاً قطعياً على وجود خالقٍ للكون، فإن أجزاء المادة فوق العادة التي كانت منكمشة ومشدودة بمجموعها إلى الداخل، لم تكن لتتحرك، وتتمدد نحو الفضاء الخارجي

تلقائياً أو اتفاقاً، بل يستلزم ذلك - بالضرورة - أن نسلم بأن هناك قوة عليا هى التى صنعت ذلك الأمر وهى مظهر من مظاهر وجود الله تبارك وتعالى .

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

حين رد مخاطبو الرسل على الأنبياء المعاصرين لهم قائلين : إن أنتم إلا بشر مثلنا، فلم يكن الباعث على ذلك يكمن في كونهم - حقيقةً - يرون ضرورياً أن يكون النبي من غير البشر، بل إنما كان السبب في ذلك يرجع في الحقيقة إلى ذلك الفرق الذي كان يتراءى لهم، بحسب تصورهم أنفسهم، بين النبي السابق والنبي المعاصر .

فمع أن النبي السابق كان في عصره تماماً مثلما كان غيره من الأنبياء في عصورهم، ولكن بعد مضي أحقابٍ من الزمن، لم يلبث أتباع الأنبياء السابقين أن نسجوا حولهم هالةً من القصص والأساطير الطلسمية، فقد صُبغت شخصيات الأنبياء، خلال العصور اللاحقة، بصبغةٍ أسطورية لم تكن موجودة لديهم في بداية الأمر، والآن، فقد كان بين يدي الشعوب من جانب النبي صاحب الشعوذات والخوارق الفرضية، ومن جانبٍ آخر نبي الواقعات الحقيقية، وقد أسفرت هذه المقارنة عن صيرورة النبي السابق كنموذجٍ مثاليٍ معياريٍ للنبوة والرسالة، وفي ضوء هذا المعيار عندما نظرت الشعوب إلى نبي العصر الحقيقي بدا لهم دون نبي الماضي الأسطوري شأناً، مما جعلهم يقابلونه بالإهمال واللامبالاة باعتبار شأنه شأن البشر العاديين .

فقال الرسل لمخاطبيهم: إننا لا نملك، إزاء أقاويلكم هذه، غير الصبر وحده، إنكم تطلبون الهداية على المستوى غير البشرى، في حين أن الله لم يخولْنا سوى قوة الهداية على

المستوى البشري، فهل يسعنا أن نفعل شيئاً، والحالة هذه، إلا أن نتحمل أذاكم، ونكل هذا الأمر كله إلى الله عز وجل !

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾

خَافَ مَقَامِي : موقفه بين يدي للحساب .

إن دعوة الأنبياء كانت تمثل ضربةً قاضيةً على دين شعوبهم التي بُعثوا فيها، كما أن الأفراد الذين كانوا قد خلعوا عليهم لقب (أكابر الأمة)، بدؤوا يتحولون إلى (أصاغر) وفق تحليل الأنبياء، الأمر الذي جعلهم يتذمرون على الأنبياء، ومع كونهم عاجزين عن الرد عليهم بواسطة الدليل، إلا أنهم كانوا حائزين على كل نوعٍ من الخيار في ظل النظام السائد وقتئذٍ، ومن ثم فقد سولت لهم عقليتهم الطاغية المتجبرة أن يجعلوا النبي شريداً، بإخراجه من مسكنه الذي يأوي إليه، ونفيه من الأرض التي يستقر فيها، فالشيء الذي عجزوا عن مقاومته بمنطق الدليل، إذا بهم قرروا مقاومته باستخدام وسائل القوة والعنف.

إن الأرض المتوفرة لدى المرء، إنما هي أتيحت له على وجه الامتحان وليس على وجه الاستحقاق، ولو أن المرء نظر إليها على أنها ملك الله، خوّله إياها بغرض الامتحان، لتولدت بذلك في داخله نفسية التواضع، وسيكون خائفاً من أن الله الذي وهب له ذلك، عسى أن ينتزعه من يده، غير أن الغافلين يعتبرونه حقاً ذاتياً لهم، وإحساسهم هذا هو الذي يجعلهم يظلمون ويتكبرون في الأرض .

وحين تنتهي دعوة النبي إلى نقطة كما لها، فإن ذلك يكون، بالنسبة إلى الشعب المخاطب (المدعو) مرادفاً لانتهاء مهلة الامتحان، ويجد هؤلاء بعدئذٍ الدنيا من حولهم

قد تغير فيها كل شيءٍ، حيث يفاجئون بإدبارها عنهم وقد كانت مقبلةً عليهم من قبل، وتنفلت كل تلك الأشياء من أيديهم، التي كانوا يحيكون مؤامراتٍ عدوانيةً طاغيةً باعتبارها أشياءهم الذاتية، حتى يحين الوقت الذي تنتزع فيه الأرض منهم انتزاعاً، ويتم إعطاؤها لأناسٍ، هم أكثر منهم أهليةً للتمكين فيها وأجدر بإعمارها !

﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾ .

وَاسْتَفْتَحُوا : استنصر الرسل بالله على الظالمين .

وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ : خسر وهلك كل متعاظم متكبر .

عَنِيدٍ : معاند للحق مجانب له .

صَدِيدٍ : ما يسيل من أجساد أهل النار .

يَتَجَرَّعُهُ : يتكلف بلعه لحرارته ومرارته .

وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ : يبتلعه لشدة كراهته ونتنه .

إن أكبر جريمةٍ عند الله، يرتكبها أحد الناس، هي أنه إذا دُعي إلى الله، يقابل تلك الدعوة بجبروت وعناد، ولأمثال هؤلاء هوان في الدنيا، وعذاب في الآخرة شديد، بحيث يجدون أنفسهم كل لحظةٍ على حافة الموت والدمار . وحين يتخذ المرء موقف الظلم والطغيان إزاء أحدٍ، فإنما يفعل ذلك اعتماداً على شيءٍ ما، وقد كان هؤلاء المعارضون يزعمون أنهم على دين ((الأكابر))، وبالمقابل كان النبي وأتباعه يبدون لهم ((أصاغر))، إن نفسية القوم هذه هي التي حثتهم على أن يستحلوا لأنفسهم ممارسة كل نوعٍ من الظلم والعدوان على النبي وأصحابه، وأنه بسبب انتمائهم إلى ((الأكابر))- في زعمهم- تجرؤوا على اتخاذ الإجراءات العنيفة من كل نوعٍ ضد ((الأصاغر)) !

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

يَوْمٍ عَاصِفٍ : شديد هبوب الريح .

إنك لتجد ألواناً من المظاهر الدينية تقام لدى أولئك الذين أدركوا الدين متأثرين بالتقاليد والعادات القومية، بل ربما تجدهم يقيمون الدنيا ويقعدونها باسم الدين، على أن هذا لا يعدو أن يكون تديناً شكلياً ولا علاقة له بجوهر الدين وحقيقته الأصلية، ولكن الشيء المطلوب عند الله هو التدين الحقيقي وليس صخب الطقوس الظاهرية الفارغة .

الإنسان المطلوب عند الله هو الذي ظفر بالحق على مستوى الشعور الذاتي، والذي شاهد الله وهو في عالم الغيب، والذي عرف الحق في صورته المجردة فانضوى تحت لوائه، والذي انغمست روحه في بحر الله، واضطرب قلبه بحب الله، وسكبت عيناه دموعاً غزاراً من خوف الله .

إن تدين الصنف الأول من الناس تدين سطحي فارغ، وسوف تطيره عاصفة القيامة تماماً، كما تتطاير أهباء الأرض عند هبوب الريح الشديدة، أما تدين الصنف الأخير من الناس فهو تدين حقيقي، وهو يكون كامناً مندمجاً في أعمق أعماق الوجود الإنساني، بحيث يصير جزءاً لا يتجزأ منه وإنما تهب العواصف، بالنسبة لوجودٍ كهذا، لتثبت صموده ورسوخ دعائمه، دون أن تقتلع جذوره فتطير به حيث شاءت .

إن دراسة الكون تدلنا على أن إيجاده تمّ على أساسٍ من الحقائق، وفي كونٍ كهذا، لا يمكن أن تكون أية قيمة إلا للعمل الحقيقي وحده، وليس للافتراضات والأماني

المحضة!

﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾

وَبَرَزُوا : خرجوا من القبور للحساب .

مُّغْنُونَ عَنَّا : دافعون عنا .

مَّحِيصٍ : منجى ومهرب ومزاغ .

إن الإنسان، مع كونه في الواقع «بين يدي الله» كل لحظةٍ، إلا أنه لا يجد نفسه في العالم الراهن بين يديه تعالى في ظاهر الأمر، وسيزول هذا الحجاب في الآخرة، وسيرى المرء حينئذ بعيني رأسه أنه قد كان أمام الله في الدنيا بحيث لم يكن أي أمرٍ من أموره خافياً على الله - سبحانه وتعالى .

والذين يعرضون عن الحق في هذه الدنيا، فإن أكبر اعتمادهم في ذلك يكون على كبرائهم المزعومين، سواء أكان هؤلاء الكبراء من الأحياء أم من الموتى، فكل ما يفعله الضعفاء الصغار إنما يفعلونه ثقةً بكبرائهم الأقوياء، وحين يجد هؤلاء أنفسهم في الآخرة في حالة عجزٍ فاضحٍ، يتوسلون إلى كبرائهم قائلين : لقد كنا نعتمد في الدنيا على هدايتكم وإرشادكم، إذن فلترشدونا الآن هنا أيضاً إلى طريق النجاة والخلاص!!

ورداً على مقالة الصغار هذه سيقول لهم كبراؤهم : إن هذا اليوم إنما طلع لكي يكشف القناع عن كوننا غير هداةٍ ولا مرشدين، فما نملك الآن أن نزودكم بشيءٍ من الهداية أو الإرشاد، إذْ نحن أول فاقديه، وأحوج منكم إليه، ولم تكن هدايتنا لكم سوى خداعٍ وقتيٍ محضٍ ذهب مع ذهاب الدنيا، أما الآن فلا يسعنا ولا إياكم هنا، إلا أن تذوقوا أنتم وبال ضلالكم وغوايتكم، ونذوق نحن وبال انحرافنا وإغوائنا، وسواء

شئنا أو أبينا ؛ على أية حالٍ، فليس لنا أن ننتظر لأنفسنا الآن شيئاً غير الذي نحن فيه !

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

بِسُلْطَانٍ : تسلط أو حجة .

بِمُصْرِخِكُمْ : بمغيثكم من العذاب.

بِمُصْرِخِيَّ : بمغيثي من العذاب .

إن دنيا الله هي دنيا الواقعيات دون الأوهام والتخيلات، والنهوض على وعود الشيطان هنا يعني أن يتوخى المرء بناء حياته على الأسس غير الواقعية، ومن صور الاعتماد على وعود الشيطان، أن يعرض المرء عن داعية الحق، وألا يعمل لأجل الآخرة، ويأمل في أنه سيفوز حتماً بالنجاة والسعادة الأبدية بناءً على افتراضات مزعومةٍ، وألا يمارس حياته وفق أحكام الله، ويعتقد اعتقاداً جازماً بأن اسمه سيسجل تلقائياً في قائمة العباد المحبوبين عند الله ... إلخ .

وسوف يعلم المرء في الآخرة أن وعد الله وحده هو الوعد الحق، وأن سائر الوعود سواه كانت محض اعتماداتٍ كاذبةٍ لن تتحقق على صعيد الواقع أبداً .

إن الرجاء من أحدٍ غير الله في دنيا الله هو الشرك .. ولذا فالذين يعرضون عن الحقائق الإلهية، ويريدون تشييد صروح حياتهم على أساسٍ من التوقعات غير الإلهية، كأنما هم يشركون مع الله أشياء أخرى، وهذه الأشياء الأخرى دون الله لن تنصرهم ولن تغني عنهم يوم الدين شيئاً !

﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

إن تحية الإسلام المتمثلة في قولك لمن تلقاه : السلام عليكم ليست محض عادةٍ اجتماعيةٍ ، بل هي رمز أو علامة ظاهرية للعلاقة القلبية ، والسلام عليكم في هذه الدنيا هو، من حيث حقيقته، السلام عليكم في الآخرة بمزيدٍ من الإضافة .

فالذين عاشوا في هذه الدنيا بحيث كانت قلوبهم ملأى بمشاعر النصح للآخرين، والذين كانوا يعرفون كيف يتحابون بعضهم مع بعض، بغض النظر عن الشكاوى وحزازات النفوس، والذين كانوا ينطقون للغير بكلماتٍ تتضمن ما يستحقه من الاحترام والتقدير، وكانوا يحبون للآخرين ما يحبّونه لأنفسهم، وكانت صدورهم تفيض رحمةً وسلاماً للآخرين، وكانت تقر عيونهم برؤية الخير والفضل لدى غيرهم، هؤلاء هم الذين سيُعتبرون أهلاً للسكنى في الجنة .. فقد كان حالهم في الدنيا أنهم إذا قابلوا إخوانهم، نضح ما يكنّونه من الحب والنصح لهم بشكل: السلام عليكم، وستجري التحية نفسها على ألسنتهم في الآخرة كذلك، وبصورةٍ أخلص وأكثر لطافةً بالنسبة إلى جيرانهم في الجنة!

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

كَلِمَةً طَيِّبَةً : كلمة التوحيد والإسلام .

تُؤْتِي أُكُلَهَا : تعطي ثمرها الذي يؤكل.

كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ : كلمة الكفر والضلال .

اجْتُثَّتْ : اقتلعت جثتها من أصلها .

لقد أقام الله في العالم الراهن أمثلةً ظاهريةً ملموسةً لحقائق شتى، والشجرة الطيبة، هي مثال شخصية المؤمن.

إن من خصائص الشجر العجيبة أنه يتخذ من الكون بأكمله مائدة غذائيةً لنفسه، وهكذا هو يبدأ رحلة حياته من بذرة صغيرةٍ تأخذ في النمو والتطور والامتداد حتى تتحول، في نهاية المطاف، إلى شجرةٍ ضخمةٍ جذورها في أغوار الأرض وفروعها في السماء، والشجر ينمو بما يستمده من الأرض من الماء والمعادن والأملاح، كما أنه يتلقى - مع ذلك - غذاءه من الهواء والشمس، فهو يتغذى مما تحته ومما فوقه معاً !

وهكذا هو شأن المؤمن تماماً .. ولئن كان الشجر العادي شجراً مادياً، فإن المؤمن شجر شعوري، إن المؤمن يستلهم الدرس والعبرة - من ناحيةٍ - بما يراه من آثار قدرة الله في مخلوقاته ونظامها البديع، ومن ناحيةٍ أخرى لا تزال تصل إليه إفاضات الله من ((فوقه)) على الدوام، فهو يستمد غذاءً لتنمية إيمانه من المخلوقات، كما يكون على اتصالٍ مستمرٍ بالخالق ولا يزال يقترب منه كل لحظةٍ .

والشجر (الطيب) يعطي ثماره في كل موسمٍ، وكذلك المؤمن، يبدي في كل مناسبة ما ينبغي له أن يبديه من رد فعل صحيحٍ .. ففي كل حالٍ من أحوال: اليسر أو العسر، الفرح أو الحزن، السخط أو الرضا، الضعف أو القوة، لا يُظهر بلسانه أو سلوكه إلا رد الفعل نفسه الذي يليق به كعبدٍ صادقٍ مخلصٍ لله سبحانه وتعالى .

والمثال الثاني يتعلق بالشجرة الخبيثة (أي النباتات الطفيليّة)، وإنه ليبدو للناظر إليها كما لو أنها تتلقى من الكون غذاءً من النوع المضاد تماماً، مما جعلها تنبت أشواكاً، وتحمل غصونها ثماراً مرةً فاسدة الطعوم، وإن دنا منها أحد، فهي تستقبله برائحتها الثقيلة الكريهة، فلا أحد يحب شجرةً كهذه، وحيثما تنبت، لا تلبث أن تقتلع من جذورها ويقذف بها في النار !

وكذلك شأن الكافر .. فهو ينبت في الأرض كوجودٍ طفيليٍ غير مطلوبٍ، ويصير الكون كله، بالنسبة إليه - مع ما يزخر به من آياتٍ رائعةٍ - كما لو أنه ليس ثمة دليلٍ يقتنع به، ولا عبرة يستفيد منها .. ومع أن فيوض الله لا تزال تمطر من السماء كل حينٍ، إلا أنه لا ينال منها شيئاً، ولا يكون لها أي تأثيرٍ أو انعكاسٍ على سلوكه ومعاملاته!

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾

فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا : في القبر عند السؤال .

قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ ، أي : بكلمة التوحيد ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ المراد بالثبات في الحياة الدنيا هو بقاؤك على مسلك الخير والعمل الصالح في كل طورٍ من أطوار حياتك، وعند كل منعطفٍ من منعطفاتها .. أما الثبات في الآخرة فإن المراد بذلك هو نجاة المؤمن عند المسألة في قبره .. الإنسان في حالة امتحانٍ دائمٍ .. فلا تزال تطرأ عليه كل حينٍ أحوال شتى يكره بعضها ويحب بعضها الآخر.. وإنما يوفق للتمسك بالمنهج الإلهي القويم، في هذه المناسبات والأحوال المختلفة، أولئك وحدهم الذين قد غرسوا في قلوبهم شجرة الإيمان ، فهؤلاء يقابلون كل وضعٍ من الأوضاع يعرض لهم في الحياة برد الفعل الصحيح، ذلك الذي ينبغي لهم بحسب مرضاة الله .. وعلى العكس من ذلك فإن الشخص الذي نبتت شخصيته كما تنبت الطفيليات، فإنك لتجده، عند كل تجربةٍ، ينضح بالمرارة، وهو يقابلك، في كل مناسبةٍ، بما يقيم الدليل على أن خارجه شوْك حاد، وداخله نتن خبيث الرائحة لا غير .

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ

مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾

دَارَ البَوَارِ : دار الهلاك (جهنم) .

يَصْلَوْنَهَا : يدخلونها ، أو يقاسون حرها.

أَنْدَاداً : أمثالاً من الأوثان يعبدونها .

إن هذه الآيات يرجع خطابها أساساً -لخصوص موردها - إلى رؤساء قريشٍ، إلا أنها تنطبق - بعموم لفظها - على جميع أولئك القادة والزعماء - الضالين المضلين - الذين يتولون زمام القيادة لحركة إنكار الحق ومحاربته .

وإن كبراء شعبٍ ما، إنما يكونون أناساً أتيحت لهم نعم ومواقع خاصة، وإن الاستخدام الصحيح لهذه المواقع والنعم المتاحة هو أن يقفوا إلى جانب دعوة الحق - إذا قامت بين ظهرانيهم - ويقوموا بمناصرتها وتدعيمها بكل ما أوتوا من أسباب القوة والجاه .. فإن الحق الأكبر في أشياء مُنحت من عند الله يكون لله وليس لأحدٍ سواه .

غير أن الأمر، في الأعم والأغلب، يكون على النقيض من ذلك، فإن أمثال هؤلاء لا يكتفون برفض قبول الحق من جانبهم فقط، بل ربما يقودون الحركة المعارضة له .

إن الإنسان بفطرته محتاج إلى إلهٍ ؛ يستطيع أن يرفعه إلى أرفع مقامٍ في حياته، ومن ثم فكلما صرف شخص ما اهتمام الناس عن الله الواحد، اتجه الناس، نتيجةً لذلك، إلى أحدٍ غير الله، فإن التخلي عن الله، إنما يتم دوْماً على حساب اتخاذ إلهٍ من دون الله، وبالإضافة إلى ذلك فإن الذين يحاولون صرف الناس عن الله الواحد، ينسبون إلى آلهتهم المزعومة، صفاتٍ عليا لا يتصف بها إلا الله وحده، ذلك لأن الناس لن يتجهوا إلى أحدٍ غير الله ما لم تثبت تلك الصفات العليا - الإلهية - في نِدّه .. وهذا هو السبب في أن المرء حين يتخلى عن عبادة الله الواحد، يتورط - تلقائياً - في عبادة الأوهام.

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾

وَلاَ خِلالٌ: لا مخالة ولا موادة .

حين يتعرض المرء لمصيبةٍ ما، فإنه يبذل كل جهدٍ ممكنٍ للتخلص منها، فإن كان له أصحاب أو أصدقاء، استعان بقوتهم، وإن كان هو ذا مالٍ وغنىً، أنفق ثروته في سبيل ذلك .. إن رغبته الشديدة في إنقاذ نفسه تلجئه إلى الاندفاع وراء هذين الشيئين .

وإن الصلاة والإنفاق (الزكاة) لهما في الحقيقة مظهران دنيويان لإحساس المرء هذا بشأن قضية الآخرة .. فالصلاة بمثابة اللجوء إلى كنف الله مع استحضار أهوال الآخرة، حتى ينقذ نفسه بعوْن الله - سبحانه وتعالى .. وهكذا فإن الإنفاق في هذه الدنيا سراً وعلانيةً يعني أن تعطي كسبك في مصرف الآخرة، ليكون وسيلة الخلاص لك من مصائب الآخرة .

وإنه لن يجد في الآخرة ملجأً إلا الذي لجأ إلى الله واعتصم به في الدنيا .. ولن يفوز بالنجاة في الآخرة إلا الذي أنفق ماله في الدنيا عن يمينه وعن شماله لأجل الخلاص الأخروي .. والذين لم يوفقوا في هذه الدنيا إلى هذا، فسيندفعون في الآخرة بحثاً عن ملجأٍ، ولكنهم لن يعثروا هناك على ملجأٍ يأوون إليه .. وسيودّون في الآخرة أن يبذلوا وينفقوا، ولكن لا يتوفر لديهم هناك شيء يقدمونه فداءً لأنفسهم ليتخلصوا من مصائب ذلك اليوم العصيب!

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

دَائِبَيْنِ : دائمين في منافعهما لكم .

لاَ تُحْصُوهَا : لا تطيقوا عدها لعدم تناهيها .

إن العالم الراهن ليشهد بوجود الله إلى حدٍ يبعث على الحيرة والذهول .. فمن حركة النجوم السيارات في الفضاء الرحيب، إلى إيجاد الحياة وتوفير الرزق فوق الأرض بالماء، إلى تمكين الإنسان من البر والبحر والجو بحيث يجعل من كل ذلك طرقاً يسوق فيها مراكبه السريعة، إلى صيرورة الأرض ملائمةً لسكنى الإنسان بسبب ما يغطي وجهها من البحار والجبال، إلى التنظيم الدقيق لاختلاف المواسم وتعاقب الليل والنهار عن طريق دوران الشمس والقمر بدأبٍ وانضباطٍ، كل ذلك أجل وأعظم وأفخم من أن تعبر عنه الألفاظ .. إن هناك توافقاً وانسجاماً كاملاً بين الإنسان والكون لدرجة أن كل حاجةٍ من حاجات الإنسان الضرورية توجد هنا بمقدارٍ وافرٍ سلفاً !

وإن هذه الأشياء كلها مثيرة للدهشة والحيرة لدرجة من شأنها أن تهز كيان المرء كله هزاً، وتغمره بمشاعر العبودية لمبدعها العظيم .. ولكن مع ذلك، لماذا لم يحدث أن تعتري المرء كيفية الذهول والاستغراب وهو يشاهد هذا الكون العجيب ؛ وأن يقشعر جلده، ويرتجف فؤاده بتصور خالق الكون؟! السبب في ذلك يكمن في أن المرء لا يزال يشاهد الكون منذ ولادته حتى ليعود الكون- لكثرة ما رآه طيلة عمره - يبدو له شيئاً عادياً مألوفاً؛ ليس فيه ما يُستغرب أو يتعجب منه .

وفوق ذلك فحين يحصل المرء في هذه الدنيا على شيءٍ ما، فإنما هو يحصل عليه - في ظاهر الأمر - من خلال الأسباب، مما يجعله ينظر إلى الشيء المتاح له على أنه حصيلة جهوده ومؤهلاته الذاتية ؛ وهذا هو السبب في أن نفس المرء لا تستيقظ فيها مشاعر الشكر والامتنان نحو الله المنعم الوهاب .

وإن غفلة الإنسان هذه هي التي عُبر هنا عنها بالظلم والكفر - أي جحود النعمة وكفرانها - حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ !

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

وَاجْنُبْنِي : أبعدني ونحني .

لقد كانت شعوب العالم وأقطارها كلها، إلى زمن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - بلغت من الضلال والانحراف منتهاه .. حيث كان الشرك سائداً متغلغلاً في كل مكانٍ، وكانت الشمس والقمر ومظاهر الطبيعة الأخرى قد تحولت إلى موضوع للعبادة والتقديس لدى البشر ؛ فقد غلب الشرك في الزمن القديم على كل شعبة من شعب الحياة، لدرجة أن قام تسلسل فكري للشرك في الأجيال البشرية المتعاقبة، وصار يبدو - ظاهراً - أن إخراج الناس من بيئة الشرك إلى دائرة التوحيد مستحيل!

وهنالك خرج سيدنا إبراهيم من وطنه العراق بأمرٍ من الله خاصٍ، متوجهاً إلى صحراء العرب التي كانت منطقةً غير مأهولةٍ وبعيدةً عن آثار الحضارة والمدنية حينذاك .. فأسكن - عليه الصلاة والسلام - زوجته هاجر وولده إسماعيل في هذه البيئة المنقطعة المعزولة، حتى ينشأ هنا جيل جديد بعيداً عن تسلسل الشرك الفكري، ويبقى على فطرته السليمة، لنشأته وتربيته في بيئةٍ حرةٍ .. وكلام سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يوضح هذه الحقيقة ذاتها في أسلوب الدعاء .

هذا الأمر الذى أراد الله تحقيقه من خلال إسكان بني إسماعيل في صحراء مجدبةٍ غير مسكونةٍ.. أما الآن، فإن الذين جعلوا من التوحيد - من سكانها - صوت قلوبهم، فقد كانوا بمثابة النتاج الصحيح لبستان إبراهيم، وعلى العكس من ذلك فإن الذين عادوا ثانيةً إلى طريق الشرك والوثنية، فسيعتبرون النتاج المنقوص الفاسد لهذا البستان الإبراهيمي!!

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

تَهْوِي إليهم : تسرع إليهم شوقا ووداداً .

إن عالم الحجاز القديم - حيث تم إسكان بني إسماعيل - المليء بالجبال والصحارى، قد كان بمثابة مدرسةٍ تربويةٍ طبيعيةٍ لمعرفة الله رب العالمين .. ومن جانبٍ آخر فإن الآية الوحيدة الجديرة بالاعتبار - من حيث الأبنية البشرية - كانت هي الكعبة، ففيما كانت بيئة الفطرة - من ناحيةٍ - تعمل على تذكير الإنسان بالله، ولفت انتباهه إلى آثار قدرته الباهرة، كان الشيء الآخر المثير لاهتمامه المتواجد على مقربةٍ منه، متمثلاً في ذلك المسجد الحجري الذي بناه سيدنا إبراهيم وإسماعيل، والذي لا يكاد يدخل فيه الإنسان المؤمن حتى يصير مشغولاً بذكر الله - عز وجل، لما يشيع فيما حوله من العبق الروحاني .

وقد تم توفير المياه لبني إسماعيل في هذه البيئة الجدباء من خلال تفجير بئر ((زمزم)) على نحوٍ معجزٍ.. وهيئت الأسباب ليتاح لهم رزق من أنواع الثمار والزروع لا تنبتها أراضيهم .. وقد كان ذلك بمثابة تدبيرٍ إلهي لتربيتهم على شكر الله .. فإن نفس المرء تستيقظ فيها عاطفة الشكر بصفةٍ غير عاديةٍ على النعيم غير العادي .. وتلك هي الحكمة الكامنة في دعاء سيدنا إبراهيم هذا الذي جاء فيه : وارزقهم - في هذه الصحراء القاحلة - من الثمرات (لعلهم يشكرون) !

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾

رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ .

إن دعاء سيدنا إبراهيم هذا ليعكس كل تلك المشاعر والعواطف التي تجيش بها نفس عبدٍ صادقٍ مخلص وهو يدعو ربه .. حيث يضطره إحساسه العميق بالعبودية إلى أن يقر بعجزه وضعفه بين يدي الله العظيم، وأن يسأله على أساس من الاحتياج دون الاستحقاق أو الجدارة .. ليعترف بالنعم المتاحة له، وليقدم طلبه إلى جناب ربه مراعياً لمقتضيات الأدب كافةً، فليقر - منذ الوهلة الأولى - إقراراً صريحاً بأن الله هو المعطي، والإنسان هو المتلقي.

وليسأل ربه التوفيق ليعيش في الدنيا عابداً لله وحده، وليطلب هذا الشيء لنفسه وأسرته ولسائر المؤمنين كذلك .. وليكن همه الأكبر عند الدعاء مسألة الآخرة، دون الدنيا الفانية، حيث سيعيش إلى الأبد.. وأيما دعاءٍ يتضمن هذه الآداب السامية، هو دعاء نبوي.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

تَشْخَصُ فِيهِ : ترفع دون أن تطرف من الهول الأَبْصَار .

مُهْطِعِينَ : مسرعين إلى الداعي بذلة .

مُقْنِعِي رؤوسِهِمْ : رافعيها مديمي النظر للأمام .

وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ : قلوبهم خالية لا تعي لفرط الحيرة .

حين يظهر الحق أمام المرء، فلا يلبث أن يتصدى لمعارضته ؛ وإنه ليبدي في سبيل مقاومته جرأةً وبسالةً تخيل إليك كما لو أنه ليس في الدنيا أحد أشجع ولا أبسل منه!

على أن هذا الحق، الذي يظهر في العالم الراهن على مستوى الداعي، سيظهر في الآخرة على مستوى الله، ويومئذٍ سوف تتبخر وتتلاشى شجاعة أمثال هؤلاء الشجعان كلها، فإنهم عندما يرون مشاهد القيامة المروعة، تبقى أبصارهم شاخصةً مبهوتةً، لا تكاد تطرف أو تغمض لحظةً لهول ما ترى ؛ وإنما هم سيندفعون سراعاً رافعين رؤوسهم نحو أرض المحشر ، وقلوبهم منخلعة فارغة يطير بها الفزع والخوف الشديد!

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

إن المرء لا يكاد يحس - لفرط غفلته - دنو مصيره منه حتى قبل مواجهته إياه بيوم واحدٍ . ولو أنه كان متمتعاً بقوةٍ أو بأي مركزٍ مرموقٍ ، فهو يبطر ويتغطرس، كما لو أن مركزه لن يُنتزع منه أبداً .. وهو يرفض دعوة الله ناسياً أن الأشياء التي يدفعه اعتماده عليها إلى رفض الدعوة، ليست كلها إلا عطايا الله، وقد تُعرض عليه أدلة وبراهين ساطعة، إلا أنه لا يلقي لها بالاً .. وتكون مصائر الطغاة الظالمين الذين سبقوه حاضرةً ماثلةً أمامه، ولكنه يزعم أن كل ما حدث إنما كان خاصاً بالآخرين، وأنه لن يحدث شيء من ذلك بالنسبة إلى نفسه البتة!

إن المتمتعين بالمواقع والإمكانات المواتية في حياة العالم الراهن، ربما يشعرون بالفخر بإعراضهم عن الحق.. ولكنهم عندما يرون مصير طغيانهم وعنادهم بعد الموت، فسوف يعتريهم الخجل والندامة على ماضيهم، لدرجة أنهم يودون لو أتيحت لهم المهلة، كي يرجعوا إلى الدنيا ثانيةً، فيفندوا أنفسهم بأنفسهم، ويبادروا بالتالي إلى الاعتراف بالشيء الذي كانوا قد أنكروه من قبل فخورين .

إن معارضة الحق معارضة الله .. وإنه لا يبوء المعارضون للحق الذي يصحبه الله تعالى ويرعاه إلا بالفشل الذريع ؛ مهما اتخذوا ضده من التدابير والحيل ما يكفي حتى لزحزحة الجبال عن أماكنها!

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾

وَبَرَزُوا لله : خرجوا من القبور للحساب .

مُّقَرَّنِينَ : مقرنا بعضهم مع بعض .

الأَصْفَادِ : القيود أو الأغلال .

سَرَابِيلُهُم : قمصانهم أو ثيابهم .

وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ : تغطيها وتجللها النَّارُ .

بَلاغٌ لِّلنَّاسِ : كفاية في العظة والتذكير .

النبي يؤدي الشهادة لدين الله في صورتها الكاملة، لذا فإن نصرة الله هي الأخرى تحصل للنبي في أتم صورها، .. وإنه بقدر ما يقترب الأتباع اللاحقون فيما بعد من سنة النبي، بقدر ما يستحقون نصرة الله.

إن الإنسان يخيل إليه اليوم كما لو أنه مالك للبر والبحر، وقادر على ضبط الفضاء المترامي الأطراف والتصرف المطلق فيه .. وأنه مختار ليستعمل أو لا يستعمل الوسائل المتاحة له كما يشاء .. بيد أن هذا كله ليس إلا لأن الله قد سخر الأرض والسماء للإنسان

إلى انقضاء فترة الامتحان المحددة، فعندما تنتهي فترة الامتحان هذه تنقلب الأوضاع رأساً على عقبٍ، وبعدئذٍ ستتبدل الأرض أرضاً أخرى، والسماء سماءً أخرى .. وسيجد المرء نفسه فجأةً في عالمٍ غير الذي عهده وعاش في رحابه .

فحيث كان المرء يعتبر نفسه حاكماً، ستتحول هناك الحاكمية كلها إلى الله - تعالى - وحده، وحيث كان كل شيءٍ خاضعاً لأمره، سيتخلى هناك كل شيءٍ عن تبعيته والانقياد لأمره .. والذين كانوا كبراء في العالم الراهن، سيعودون يومئذٍ مجرمين عاجزين والثياب التي تزين أبدان لابسيها اليوم، ستتغير يومئذٍ بحيث تبدو الأبدان وكأنها مطلية بالقطران .. وستصبح الوجوه الناعمة المبتهجة يومئذٍ كالحةً مسودة لاحتراقها بالنار .. وإنما سيحدث هذا كله مع أولئك الذين لم يرضوا أن يعيشوا في الدنيا عباداً لله متواضعين .. الذين أعرضوا عن الإعلان المذاع من عند الله - سبحانه وتعالى .

إن كون الحقيقة حقيقةً ليس بكافٍ لكيما يتلقاها المرء بالاعتراف والقبول؛ فإن الإيمان بالحقيقة يستلزم - بالضرورة - أن يريد الإيمان بها من صميم قلبه .. إن الشخص الجاد بشأن الحقيقة، والذي يسمعها خالي الذهن، أي بدون أفكارٍ مسبقةٍ، سيتمكن من فهم الحقيقة، وسيوفق إلى أن يرحب بالحقيقة الترحيب الصحيح اللائق بها !

سورة الحجر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓرٰۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥ ﴾

رُبَمَا «رب» للتقليل و «ما» زائدة .

ذَرْهُمْ : دعهم واتركهم .

وَلَهَا كِتَابٌ : أجل مقدر مكتوب في اللوح .

إن الحرية المتاحة للإنسان في هذه الدنيا، إنما تدوم إلى مدة الامتحان المحددة ؟ وإن هذا الوضع متناه في الخطورة .. لو أن المرء تخيل أن المدة التي يعيشها ستنتهي غداً أو قد انتهت اليوم.. هذه الفكرة من شأنها أن تهز كيانه هزاً .. ولكن المرء إنما يعيش في «يومه الحاضر» وحده، ولا يكترث «بعده» أيما اكتراثٍ.. فقد يُكشف القناع عن الحقيقة أمامه، ولكنه يبقى أسير الآمال والأماني الحالمة .. وهو يفترض من عند نفسه، بعض الدعائم الخيالية المزعومة، ويظن أن استناده عليها سوف تغني عنه يوم الجزاء !!

على أنه يُفاجأ بتبدد أحلام الغفلة والأماني اللذيذة هذه عندما تنقضي المدة، فيأتي إليه ملائكة الله، ليذهبوا به من عالم الامتحان إلى عالم المصير المحتوم .. وحينئذٍ تعود به ذاكرته إلى تلك المناسبات، عندما كان يحاول رفض دليلٍ صادقٍ بواسطة ألفاظٍ كاذبةٍ، وعندما كان يندفع وراء شهواته بدلاً من الاستجابة لنداء ضميره، وعندما كان يعرض عن داعية الله، رغم وجود الانعكاسات الإلهية في شخصه، أعرض عنه للحفاظ على

سمعته الذاتية، وهو إذْ يرى هناك أن أي تدبيرٍ من التدابير التي تبناها لم يغن عنه شيئاً، فسوف لا يلبث أن يصرخ قائلاً - والندم والحسرة يمزقان فؤاده: آه ! ليتني لم أكن قد فعلت ما فعلت .. يا ليتني كنت قد اخترت طريق ((الإسلام)) بدلاً من اختيار طريق ((الكفر)) !

﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ ﴾

لَوْ مَا تَأْتِينَا : هلا تأتينا .

إِلاَّ بالحق : إلا بالوجه الذي تقتضيه الحكمة .

مُّنظَرِينَ : مؤخرين في العذاب .

ظن مخاطبو النبي أنه مصاب بالجنون ! تُرى ماذا كان السبب وراء هذا الظن الفارغ؟ إن سبب ذلك يكمن في دعوة النبي التي كان مفادها : ((إنني رسول الله إليكم؛ فمن آمن بكلامي نجح وأفلح ؛ ومن لم يؤمن فمصيره إلى الفشل والخسران الأبدي!)) ولكن الذي كان يراه هؤلاء المخاطبون كان على العكس من ذلك .. فمن ناحية كان هؤلاء يحتلون مراكز السيادة والرئاسة في ظل النظام السائد - حينذاك، ومن ناحيةٍ أخرى كان النبي قد صار غريباً على هذا النظام السائد لا مكان له في ظله لكونه نهض داعياً إلى دينٍ غير رائجٍ .. ونظراً لهذا الفارق تجرأ المخاطبون على القول: إنك لتبدو لنا مجنوناً، حيث إن الله قد أتاح لنا - دونك - كل أنواع الخيرات والفضائل الدنيوية، وها أنت ذا تزعم أن النجاح والفلاح ليس إلا لك ولمن اتبعك !!

إلا أن هذا كان ناشئاً عن اختلاف وجهة نظرهم .. فقد كانوا ينظرون إلى الأشياء المتاحة لهم على أنها ((إنعام))، في حين أن هذه الأشياء كلها لم تكن سوى أدوات ((الابتلاء والامتحان))، تتاح لأحد الناس في العالم الراهن بصفةٍ وقتيةٍ .

وكانوا يقولون أيضاً : لِمَ لا نرى نحن هؤلاء الملائكة الذين تدعي أنهم يأتونك برسالة الله ؟! وهذا الاعتراض بدوره إنما نشأ عن اختلاف الزاوية أو وجهة النظر، فالملك الذي يأتي النبي يكون ملك الوحي يبلغ إليه كلام الله، وإن هناك ملائكة آخرين عداه، وإنما يبعث الله بهم لتجلية الحقيقة أمام أعين الناس، إلا أنهم لا يأتون إلا بعد اكتمال الدعوة، وعندما يأتون فيكون ذلك وقت القضاء الحاسم دون الدعوة إلى الإيمان.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

الذِّكْرَ : القرآن .

إن القرآن قد أنزله الله، وإنه - تعالى - هو المتكفل بحفظه من الضياع والتحريف . لقد كان الخطاب المباشر لهذه الآية الكريمة- إبان نزولها- موجهاً إلى قريش، ولكنها في أوسع معانيها كانت تحدياً عاماً وُجه إلى البشرية جمعاء .. وهكذا فقد وُضع أمام البشر، منذ القرن السابع الميلادي، وحتى قيام الساعة، معيار قطعي لكي يتحققوا في ضوئه مما إذا كان القرآن - حقاً - كتاب الله أم لا ؟!، وقد كانت كل الأحوال والإمكانات الظاهرية، عن إعلان هذا التحدي أول مرةٍ، غير مواتية له إطلاقاً .. فلأجل الحفاظ الدائم على كتاب متنازعٍ عليه، لابد من وجود جماعةٍ قويةٍ وراءه تحميه، بينما كان حاملو القرآن- إبان نزوله- في غاية الضعف والقلة بإزاء أعدائهم، كما أن الدنيا لم تكن قد شهدت عصر القرطاس والمطبعة بعدُ، مما جعل الحفاظ على أي كتابٍ في العصر الحاضر أمراً بالغ السهولة .. وقد كان الاحتفاظ بشيءٍ مثل الكتاب، يتطلب بالضرورة الاحتفاظ بلغته هي الأخرى كذلك، في حين أن التاريخ يدلنا على أن أية لغةٍ لا يكتب لها البقاء الدائم أو الخلود أبداً .. وقد جاء القرآن الكريم في العصر التقليدي - أي قبل العصر العلمي الحديث بقرونٍ طويلةٍ - وفي حالة كهذه فقد كان لابد لبقائه حياً

ومحفوظاً أن تصدق مضامينه ومحتوياته في كل اختبارٍ على امتداد الزمن بصورةٍ أبديةٍ ..

وقد ظل القرآن الكريم محفوظاً إلى يوم الناس هذا، على أكمل وجه في مواجهة هذه التحديات كلها ؛ مما يقيم دليلاً قاطعاً على أنه كتاب الله ؛ إذْ ليس ثمة كتاب آخر، وُضع قبل ألف وخمسمائة سنةٍ، فظل حياً محفوظاً كما لا يزال القرآن حياً ومحفوظاً في العالم اليوم!

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

شِيَعِ الأَوَّلِينَ : فرق الأمم السابقة .

نَسْلُكُهُ : سلك التكذيب فى قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى .

خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ : مضت عادة الله بإهلاك المكذبين .

يَعْرُجُونَ : يصعدون فيرون الملائكة والعجائب .

سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا : سدت ومنعت من الإبصار .

قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ : أصابنا محمد بسحره .

لقد استهزئ برسل الله قاطبةً على اختلاف الأعصار والأمصار .. وكان السبب في ذلك أن الأنبياء لم يكونوا - طبق ذلك المعيار الفرضي الذي اصطنعه الناس من عند أنفسهم للتسليم بأحدٍ كرسولٍ لله .. بل كان النبي دائماً - وبطبيعة الحال - دون هذا المعيار المصطَنع ؛ مما دفع الناس إلى اتخاذ أنبياء الله موضوعاً للسخرية والاستهزاء .

إن أية حقيقة جديدةٍ لابد لإدراكها من أن يكون المرء مستعداً للتفكير فيها بذهنٍ مفتوحٍ، وبناء أحكامه على أساسٍ من الواقعات وحدها، والمنكرون للصدق إنما يتناولونه بالإنكار لأن الصدق يبدو لهم غريباً على معيارهم المألوف، وهذا المعيار المألوف يتغلغل - على مضي أحقابٍ من الزمن طويلةٍ - في قلوبهم لدرجة أنه يعود مستحيلاً عليهم أن يفكروا في أي موضوعٍ متحررين من أسره، وبالتالي فلا يكادون يستطيعون- حتى اللحظة الأخيرة- أن يعرفوا الصدق الموجود خارج إطارهم المألوف!

وقد كانت نتيجة عقلية الشعوب هذه أن الناس لم يؤمنوا حتى بالرغم من رؤية المعجزات الباهرة.. فالشخص الذي استقر في أذهانهم أنه عادي، ظلوا يعتبرونه عادياً كذلك على أية حالٍ .. وإن هو جاء فيما بعد ببعض خوارق العادات، ظنوه فناً من فنون السحر أو الشعوذة، وليس في الحقيقة دليلاً على كونه مرسلاً من عند الله - سبحانه وتعالى.

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾

بُرُوجاً : منازل للكواكب السيارة .

رَّجِيمٍ : مطرود أو مرجوم بالنجوم .

اسْتَرَقَ السَّمْعَ : خطف المسموع من الملأ الأعلى .

فَأَتْبَعَهُ : أدركه ولحقه .

شِهَابٌ : شعلة نار منقضة من السماء .

مُّبِينٌ : ظاهر للمبصرين .

إن هناك نجوماً لا حصر لها تنتشر في رحاب الكون كله ؛ إلا أن هذه النجوم توجد بشكل مجموعاتٍ، وكل مجموعةٍ نجميةٍ تسمى المجرة، ويُحتمل أن يكون المراد بالبروج هنا هو هذه المجرات .

وليس المراد في قوله : ﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ هو ببساطةٍ، : منظر السماء المذهل الذي يُلاحظ في الليل .. فلو أنك اتجهت ببصرك نحو السماء، في ليلةٍ صاحيةٍ، لرأيت منظر النجوم المتلألئة في الفضاء الرحب رائعاً إلى حدٍ محيرٍ يغمرك أثناءه إحساس بعظمة الله وجلاله .

وإنه مع إسكان الإنسان في الأرض قد أُسكن فيها الشياطين كذلك .. وقد أتيحت للشياطين هنا الحرية الكاملة ليذهبوا حيثما شاؤوا، وليُضلوا الناس كما يشاؤون، غير أن عالم الله الواقع ما وراء هذه الأرض، قد أقيمت في أنحائه حواجز لا يقدر الشياطين على اختراقها أو اجتيازها، فهم لا يستطيعون التسلل أو الدخول فيه إلى أبعد من حدٍ معينٍ !

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا : بسطناها للانتفاع بها .

رَوَاسِيَ : جبالا ثوابت كيلا تميد .

مَّوْزُونٍ : مقدر بميزان الحكمة .

مَعَايِشَ : أرزاقا يعاش بها .

تدل الدراسات الجغرافية على أن الأرض كانت- في مبدأ أمرها- كتلة مستديرة جامدة ثم انشقت ؛ فتولّدت، نتيجةً لذلك، أعماق البحار السحيقة التي لم تلبث أن

اجتمع فيها الماء، ولأجل الحفاظ على توازنها ارتفعت على سطح الأرض جبال ضخمة عالية هنا وهناك .

ثم ظهرت إلى الوجود - بعدئذٍ - أنواع النباتات والحيوانات على ظهر الأرض؛ فانتشرت انتشاراً واسعاً، ومع أن كل واحدٍ منها ينطوي على صلاحية للنمو غير محدودة، إلا أنه يتضح لنا عند التأمل والإمعان فيها أن هناك ((قدراً محدداً)) يخضع له الكل بدون استثناءٍ، فكل شيءٍ لا يزال ينمو حتى يصل إلى حدٍ معينٍ فيقف عنده، لا يستطيع تجاوزه إلى أبعد من ذلك .. مما يدل على أن هناك مدبراً وخالقاً جباراً يقوم بضبط كل شيءٍ، ويهيمن عليه فلا يسمح له بتخطي الحد المرسوم له .

إن الإنسان بحاجةٍ إلى أشياء لا حصر لها لمعيشته وبناء حضارته، وقد وفرت هذه الأشياء كلها فوق الأرض بمقادير متناسبةٍ تماماً مع احتياجات البشر، والله - سبحانه وتعالى- هو الذي وفّر لنا هذه الأشياء كلها، وقام بتهيئة أسبابٍ تضمن بقاءها .. ولو أننا كنا - نحن البشر- مسؤولين عن إيجاد الرزق لها، لم يعد ممكناً أن نحصل عليها بأية وسيلة!

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

عِندَنَا خَزَائِنُهُ : نحن قادرون على إيجاده وتدبيره .

نُنَزِّلُهُ : نوجده أو نعطيه .

بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ : بمقدار معين تقتضيه الحكمة .

الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ : حوامل للسحاب أو للماء تمجه فيه ، أو ملقحات للسحاب أو

للأشجار .

إن مبدأ ضبط الحدود والمقادير يسري في كل شيءٍ من أشياء هذا الكون ؛ فالرياح تجري في نطاقٍ محدودٍ ، وإن كان الله قد يُرينا أحياناً أن بإمكانها - أيضاً - أن تتحول إلى إعصارٍ أو عاصفةٍ مدمرةٍ، والشمس تبعد عنا بمسافةٍ معينةٍ دائمةٍ لا تتغير، ولو أن هذه المسافة صارت أبعد مما هي عليه الآن، لاستحالت الأرض إلى كرةٍ من الجليد، ولو أصبحت الشمس أقرب إلينا، بمقدار النصف أو أقل أو أكثر مثلاً، من المسافة الحالية، لجعلت الأرض تنوراً رهيباً .. وجاذبية الأرض متناسبة وموزونة للغاية، ولو أن حجم الأرض كان ضعف حجمها الحالي، لازدادت جاذبيتها إلى حدٍ تعذر معه أن يمشي المرء على ظهرها لتضاعف الضغط الواقع عليه، أما لو كان حجم الأرض - بالعكس - نصف حجمها الموجود فعلاً، لانخفضت جاذبيتها لدرجة أنها لم تكن لتمسكنا - نحن البشر - ولا بيوتنا فوقها لهبوط وزن الأشياء المترتب على انخفاض الجاذبية الأرضية، وهكذا هو حال كل تلك الأشياء التي يعيش الإنسان بينها .. فلكل شيءٍ قدر محدد مضبوط لا يزيد عنه ولا ينقص.

إن حياة الإنسان وسائر الحيوانات الأخرى فوق الأرض، تتوقف على الماء، ونظام توفير المياه للكائنات الحية- اعتباراً من المخزونات المائية تحت الأرض، إلى السحب الكثيفة المتراكمة في الفضاء- يجري على مستوى ضخمٍ وعجيبٍ لدرجة أن إقامته أو القيام على إدارته أمر خارج عن طوق الإنسان البتة، وإنما هو الله - جل شأنه - ما يزال قائماً بتدبير هذا النظام العجيب العظيم بصورةٍ ملائمةٍ لحاجة البشر تماما .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

وَنَحْنُ الوَارِثُونَ : الباقون بعد فناء الخلائق .

إن إسكان الإنسان في هذه الدنيا، ثم رفعه منها، يتم من عند الله تعالى، والأرض مشحونة بأشياء لا تقع تحت الحصر، ولكن كلاً منها له ميزته الخاصة التي يتفرد بها ؛ فكل شيءٍ يؤدي الدور الخاص والمحدد الذي ينبغي له أن يؤديه، الأمر الذي يقيم الدليل على أن خالق هذه الأرض يحيط بجميع الأشياء علماً، كل على حدة، وهو الذي ألزم كل شيءٍ بأداء الوظيفة المنوطة به، وحتى إن بصمة إبهام اليد تختلف بدورها من شخصٍ لآخر تمام الاختلاف، ولا تتكرر مع أي شخصٍ آخر أبداً !!

إذنْ ؛ فأية صعوبة يمكن أن يلقاها هذا الإله القادر الخبير ، في محاسبة كل شخصٍ على حدة، وفي أن يعامل الجميع بما يستحقه هو في واقع الأمر ؟!

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

صَلْصَالٍ : طين يابس كالفخار .

حَمَإٍ : طين أسود متغير .

مَّسْنُونٍ : مصور صورة إنسان أجوف .

نَّارِ السَّمُومِ : الريح الحارة القاتلة .

إن وجود الإنسان مؤلف من شيئين : أحدهما الجسم، والآخر هو الروح، أما الجسم فقد بُني هيكله كله من العناصر الأرضية المادية، حيث يدلنا تحليل الجسم الإنساني على أنه قد استمد أجزاءه التركيبية مما يُعرف عموماً بالماء والتربة، وهذا يعني أن الإنسان، بالنسبة إلى جسمه، علم على وجودٍ غير حي وغير ذي شعورٍ تماماً، ولكن حين ينفخ الله فيه الروح من عنده، فإذا بهذا الجسم يعود حاملاً لقدراتٍ وصلاحياتٍ لا يتمتع بها أي مخلوق آخر في الكون المعلوم.

وإن هناك مخلوقاً آخر - عدا الإنسان - يوجد في هذا الكون، وهو الجن، وقد خُلق الجن من لهب النار .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

سَوَّيْتُهُ : أتممت خلقه وهيأته لنفخ الروح .

سَاجِدِينَ : سجود تحية لا سجود عبادة .

أَبَى : امتنع تكبراً .

مَا لَكَ : أي غرض لك أو ما عذرك .

قال إبليس- مبرراً لامتناعه عن السجود- إن مرجع ذلك إلى أن الإنسان أحقر مني شأناً ، ولكن الحقيقة هي أن السبب في ذلك كان يكمن في شعور إبليس نفسه بالنقص أو الضعة، فقد اضطرمت في داخله نيران الحقد والحسد، حين رأى : إنني مع كوني أسبق إلى الوجود في هذا الكون ، إلا أني لم أنل هذا التكريم بأن تؤمر الخلائق كلها بالسجود لي ، بينما هذا الإنسان الذي خُلق آنفاً ، إذا به تؤمر الخلائق كلها بأن تخر له ساجدةً! ، فلم يلبث أن رفض السجود للإنسان .. ومعنى زعمه القائل «بأن الإنسان أحقر مني شأناً» : أن المستحق الأصلي ليكون مسجود الخلائق كنت أنا ، إذن فكيف لي أن أسلم بهذا الإعزاز والتكريم لمن لا يستحق؟!

إن هذا الكبر والحسد هما مصدر كل الشرور والمفاسد الاجتماعية ، ولا يزال

الإنسان خلال حياته في العالم الراهن يمر بمواقف كهذه بين حين وآخر، فمن لم يُصب بمشاعر الحقد في مثل هذه المواقف، فقد اتبع الملائكة، وأما الذي راح ضحية الحسد، فكأنما انخرط في سلك أتباع الشيطان وأوليائه !

﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾

رَجِيمٌ : مطرود من الرحمة أو مرجوم بالشهب .

اللَّعْنَةَ : الإبعاد على سبيل السخط .

فَأَنظِرْنِي : أمهلني ولا تمتني .

الوَقْتِ المَعْلُومِ : وقت النفخة الأولى .

إن الاتجاه الذي سارت فيه الأحداث المتلاحقة، في أعقاب خلق الإنسان، قد جعل من الشطيان عدو الإنسان الدائم، والآن، فلا يزال الشيطان واقفاً له بالمرصاد، ناصباً له حبائله في كل طريقٍ، إلى يوم القيامة، والأمر الأجدر بعناية الإنسان، وأكثره خطورةً وأهميةً بالنسبة إلى مصيره، هو أن يكون حذراً أشد الحذر من خدع الشيطان ومكائده. فإن هذا هو المكان الذي يتقرر عنده نجاح الإنسان أو فشله في العالم الراهن!

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

وَلأُغْوِيَنَّهُمْ : لأحملنهم على الغواية والضلال .

المُخْلَصِينَ : الذين أخلصتهم لطاعتك .

لقد تعرض إبليس لحالة امتحانٍ ؛ خرج منه فاشلاً .. والآن، فإن الموقف الصحيح الذي كان ينبغي له أن يتبناه، هو التسليم بفشله وهزيمته .. إلا أنه أخذ- بدلاً من ذلك- في توجيه التهمة إلى الله تعالى نفسه ؛ بأنه لم يصنع ما صنع إلا لكي يغويه ! إن الواقع الذي كان يكشف عن ضعفه هو، حاول أن يرمي الله - سبحانه وتعالى - بأسوأ جوانبه .. وإن من مظاهر اتباع هذه الأسوة الشيطانية ذاتها أن نلقي بتبعة هزائمنا ونكساتنا على عواتق الآخرين !!

وقد صرح إبليس بأن سبب امتناعه عن السجود للإنسان هو أن الإنسان مخلوق من طينٍ، وأنا خُلقت من نارٍ.. ومع أنه ليس هناك من سببٍ معقولٍ يدعو إلى تفضيل النار على الطين، إلا أن إبليس، قد استقر في مخيلته، بناءً على تصورٍ ذاتيٍ مزعومٍ، أن الطين شيء حقير تافه، وأن النار أعظم شأناً منه .. وهذا هو ما يسمى ((التزيين)) .. وهو أمر نفسي وليس بأمر عقلي .. فقد صمم إبليس- بدلاً من الاعتراف بخطئه- على أن يدفع الآخرين أيضاً إلى إعادة الخطأ نفسه، وأن يصيب البشر جميعاً بذلك الضعف النفسي الذي أصيب به هو!

وقال إبليس لله متحدياً : إنني - باستثناء ((المخلصين)) من عبادك - سوف أغوينهم أجمعين! فمن هؤلاء المخلصون من عباد الله ؟ إنهم أناس كُتب لهم التوفيق لالتزام الطريق القويم بإزاء الله، أي طريق العبودية.

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

صِرَاطٌ عَلَيَّ : حق علىَّ مراعاته .

سُلْطَانٌ : تسلط وقدرة على الإغواء .

جُزْءٌ مَّقْسُومٌ : فريق معين متميز عن غيره .

المراد بـ ((الصراط المستقيم))، كما رُوي عن مجاهد، والحسن، وقتادة، هو : ((طريق الحق، مرجعها إلى الله تعالى وإليه تنتهي)) (١).

ولو أن المرء سلك طريق الشرك، فإنه لن يؤدي به إلى الله، بل سيوصله إلى الشركاء، ولو أنه سار في اتجاه العناد والطغيان، فسوف تكون غايته وجود المرء نفسه دون الله سبحانه وتعالى، وأما إن آثر لنفسه حياةً حرةً طليقةً، فسوف يظل يتخبط في اتجاهات شتى، ولن ينتهي سفره إلى الله - تعالى - أبداً !

ولكن حين يجعل المرء من الله مركز اهتمامه وتوجهاته، وبالتالي يوجه حياته كلها نحو مرضاة الله، ويصبغها بالصبغة الإلهية، فمن الطبيعي أن يتوصل آخر الأمر إلى الله الذي كان هو وجهته ومقصوده منذ بداية سفره !!

الله قادر، والإنسان عاجز .. ولذا فإنه ليس ثمة من نسبةٍ أو علاقةٍ صحيحةٍ تقوم بين العبد والله سوى علاقةٍ واحدةٍ، ألا وهي علاقة العبودية، فاختيار طريق العبودية يعني إدراكنا لعلاقتنا الصحيحة مع الله تعالى .. والشخص الموصول بالله بعلاقة العبودية يكون بعيداً عن أثر الشيطان وسلطانه، وأما الذي لم يُقم علاقته مع الله، فإن علاقته ترتبط بالشيطان، فهو يسير على إيحاءات الشيطان، حتى يصل إلى حيث قدر للشيطان أن يصل في نهاية المطاف !

إن جهنم، التي هي المقر الأخير للشيطان وأوليائه، تتكون من دركات أو أدوارٍ سبعةٍ، قال عكرمة : ((سبعة أبواب سبعة أطباق)) (٢).

فالجهنميون سوف يتوزعون- بحسب أعمالهم- إلى سبع جماعاتٍ كبيرةٍ، تدخل كل

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، ٢/ ٣١٢.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ، ٢/ ٣١٢.

واحدة منها في الدرك المناسب لها من دركات جنهم السبعة !

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

غِلٍّ : حقد وضغينة وعداوة .

نَصَبٌ : تعب وإعياء .

إن حياة الجنة ستكون حياة خاليةً من الخوف، ولن يستحقها إلا أُناس خافوا من الله في الحياة الدنيا، فالخوف من الله في الدنيا هو ثمن الأمن و السلامة من الخوف في الآخرة !!.

إن الضغائن النفسية بين الأفراد تتولد لسببين : أحدهما الطغيان، وثانيهما سوء الفهم.. والضغينة الناشئة عن الطغيان هي كبرى الرذائل الاجتماعية إطلاقاً، ويتعين على أهل الإيمان أن يبادروا بالقضاء عليها في هذه الدنيا، والذين لا يقضون عليها في هذه الدنيا يعرضون أنفسهم لعذاب النار في الآخرة .

أما الضغينة الثانية فهي التي تتولد بسبب سوء الفهم، وهي قد تنتهي حيناً ويزول أثرها من القلوب بمضي الزمان، وحيناً آخر لا تزال باقيةً على مدى الحياة - رغم إخلاص الجانبين لبعضهما.. وهذا النوع الثاني من الضغائن سوف ينتهي في الآخرة على أكمل وجهٍ، ويحل محله صفاء لا يكدره شيء .. ذلك لأن الآخرة هي دار تظهر فيها الحقائق ظهوراً تاماً لا لبس فيه ولا غموض .

فإذا انكشف القناع عن الحقائق كلها، وأصبحت ماثلةً للعيان، فهل يبقى بعدئذٍ من

سببٍ يدفع رجلاً مخلصاً إلى أن يحقد أو يضغن على أخيه بدون لزوم؟ كلا !

إن حياة الجنة حياة لطيفة ورائعة إلى حد بعيد.. بيد أن لذائذ الحياة الراهنة تعريف لعالم الملذات والمسرات القادم، وعلى هذا، فبمستطاع أي شخصٍ أن يقدر كم ستكون الجنة بذاتها لذيذة وممتعةً، تلك التي بلغت مقدماتها الدنيوية (هذا المبلغ من اللذة والإمتاع !!

ولو فرضنا أن شخصاً ما تمكن من الحصول على كل أنواع اللذة في العالم الراهن، فإنه لن يسلم - مع ذلك - من منغصات تفسد عليه كل لذةٍ، وتجعل وجودها وعدمها سواء، غير أن الجنة مكان ستكون لذائذه منزهة عن كل أنواع المنغصات، فقد جاء في الحديث : ((يقال لأهل الجنة : إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبداً)).

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ : أضيافه وكانوا من الملائكة .

وَجِلُونَ : خائفون فزعون .

القَانِطِينَ : الآيسين من الخير ، أو الولد .

لقد جاءت الملائكة إلى سيدنا - إبراهيم عليه السلام - في صورة بشرٍ، وفي أثناء الحوار أخبروه بأننا أتيناك بالحق .. ماذا كان هذا ((الحق)) -الأمر الواقع- الذي جاءت

به الملائكة إلى سيدنا إبراهيم - عليه السلام ؟

إنه كان بشارةً بجائزةٍ أو إنعامٍ غير عاديٍ لا يُتوقع في الظروف المعتادة، وقد جرت عادة الله - سبحانه وتعالى - بأنه حين يريد التفضل على عبدٍ من عباده بإنعام غير عاديٍ، فيرسل إليه لتحقيق هذا الغرض جماعةً خاصةً من الملائكة .

وأمثال هؤلاء الملائكة يأتون إلى الأنبياء وإلى غير الأنبياء على سواء، وإنما الفارق هو أن النبي، حين يأتي إليه ملائكة الله، يراهم رأي العين، ويكون على وعيٍ تامٍ ومعرفةٍ واضحةً بأنهم ملائكة .. وأما الإنسان العادي فلا يكون على مثل هذا الوعي والمعرفة القطعية، بيد أن قربه الخاص من الملائكة يولد في داخله كيفيات خاصة.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

كان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يسكن بفلسطين .. وكان في القرية المجاورة لها، بشاطئ البحر الميت، ابن أخيه لوط - عليه السلام - وقد أبلغ سيدنا لوط - عليه السلام - رسالة الله إلى سكان هذه القرية، إلا أنهم لم يرضوا بقبول الإصلاح، بل ظلوا يتمادون في العناد والطغيان يوماً بعد يومٍ، حتى قضى الله - عز وجل - بأن يهلكهم أجمعين .. وقد جاء هؤلاء الملائكة لتنفيذ هذا القضاء الإلهي نفسه .

ويُحتمل أن سيدنا لوطاً - عليه السلام - لم يؤمن به أحد من قومه سوى بضعة أفرادٍ من أسرته، والواقع أن الوقوف إلى جانب داعية الحق، بالنسبة إلى الأجانب - أي الذين لا تجمع بينه وبينهم رابطة الدم أو وشائج القربى - يكون أمراً عسيراً جداً .. فإن هناك عقباتٍ نفسيةً كثيرةً تحول دون ذلك .. أما الأقارب وذوو الأرحام، فإنهم لا يواجهون أية عقباتٍ من هذا النوع، ومن ثم فهؤلاء ربما يصبحون - وبسهولة أكثر نسبياً - أنصار الداعي إلى الحق ومؤيديه .

وهكذا حدث مع سيدنا لوط - عليه السلام - حيث لم يؤمن بدعوته - في أغلب الظن - سوى بناته، إن العلاقة القلبية الخاصة التي تربط الأبناء بالوالد، تعود عاملاً خاصاً يحملهم على تلقي دعوة الوالد بالقبول .. وقد نجت هؤلاء البنات المؤمنات مع أبيهن لوط من عذاب الله، غير أن زوجته - عليه السلام - لم تؤمن به من صميم قلبها، وبالتالي فلم تلبث أن أُهلكت مع المجرمين الآخرين، فإن قانون الله لا يُحابي أحداً على أساسٍ من القرابة أو النسب كائناً من كان !

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

قَوْمٌ مُّنكَرُونَ : أنكركم ولا أعرفكم .

فِيهِ يَمْتَرُونَ : يشكون ويكذبونك فيه .

بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ : بطائفة منه أو من آخره.

وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ : سر خلفهم لتطلع عليهم .

وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ : أوحينا إليه .

دَابِرَ هَؤُلاءِ : آخرهم والمراد جميعهم .

إن واحداً من مظاهر «الحق» هو الذي سبق أن جاءت به الملائكة إلى سيدنا إبراهيم - عليه السلام - والمظهر الثاني «للحق» هو هذا الذي جاؤوا به لوطاً -عليه السلام - وفيما كان «الحق الأول» إنعاماً من الله خاصاً، أخذ «الحق الأخير» شكل عذابٍ إلهي خاصٍ .

وقد جاءت الملائكة سيدنا لوطاً - عليه السلام - في صورة بشرٍ، وكان الغرض من مجيئهم أن يقوموا بتنفيذ القضاء المحتوم على المنكرين للنبي، ذلك الذي قدره الله تعالى جزاءً على طغيانهم .. وتبعاً لتعليمات الملائكة، خرج سيدنا لوط برفقة المؤمنين به من القرية في جنح الليل، وبعدئذٍ لم تكد تطلع شمس اليوم التالي حتى تعرضت تلك القرية بأكملها لرجّات زلزالٍ عنيف جعل عاليها سافلها، ولم يلبث المنكرون الطغاة أن تم إهلاكهم عن آخرهم بقسوة بالغةٍ !!

وأين وقعت هذه الكارثة المهلكة يا ترى؟ إنها حلت بدنياهم ذاتها، تلك التي كانوا يعدونها دنيا أنفسهم.. وحيث كان كل شيءٍ من أشيائها يبدو لهم كأنه أداة طيعة مسخرة لخدمتهم، ولكن حين يُصدر الله أمره، فتتحول تلك الخريطة إلى الهلاك والدمار، التي كان يحسبها المرء خريطة نجاحه وسعادته، والقصر الذي يزهو المرء ويفتخر بامتلاكه، يفاجأ به خراباً، كما لو أنه لم يكن إلا أنقاضاً قُذف بها على رأس المرء من يحث لا يشعر!

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

مُّصْبِحِينَ : داخلين في وقت الصباح .

عَنِ الْعَالَمِينَ : عن إجارة أو ضيافة أحد منهم .

إن الملائكة الذين جاؤوا إلى ((سدوم)) - قرية قوم لوط - طلعوا عليهم في صورة شباب حسان الوجوه للغاية، وكأن ذلك كان بمثابة الورقة الأخيرة لاختبار هذه الأمة الغارقة في الفجور والإباحية .. ومن ثم لم يلبث هؤلاء، بسبب طغيانهم المتزايد، أن تهافتوا على أولئك الشباب، وأرادوا- كعادتهم- أن يفعلوا بهم الفاحشة، إلا أنهم لم يكونوا على علمٍ بأن هؤلاء الذين خالوهم شباباً فاتنين أو ((جذابين)) ليسوا في الحقيقة

إلا ملائكة العذاب، وإنما جاؤوا هنا ليدعوهم وقد ألصقوا بهم وصمة خزي وعارٍ تبقى أبد الدهر! .

والمراد بـ «بناتي ..» بنات أمته .. فحين رأى سيدنا لوط - عليه السلام - الفجرة الظالمين وهم يتهافتون على الضيوف الكرام، رغم منعه إياهم ذلك، فناشدهم الله ألا تفضحوني في ضيفي هؤلاء، وأما إن أبيتم إلا قضاء ما تشتهون، فهؤلاء فتيات الشعب، لتتزوجوا من أيتهن شئتم !

﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

لَعَمْرُكَ : قسم من الله - عز وجل - بحياة محمد ﷺ .

سَكْرَتِهِمْ : غوايتهم وضلالتهم .

يَعْمَهُونَ : يعمون عن الرشد أو يتحيرون .

الصَّيْحَةُ : صوت مهلك من السماء .

مُشْرِقِينَ : داخلين في وقت الشروق .

سِجِّيلٍ : طين متحجر طبخ بالنار.

لِّلْمُتَوَسِّمِينَ : للمتفرسين المتأملين .

لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ : طريق ثابت مُعْلم مسلوك .

ما الذي جعل قوم لوطٍ يبلغون من الفجور والطغيان حداً أخرجهم عن طورهم؟

لقد كان السبب في ذلك أنهم نظروا في القضية بالنسبة إلى سيدنا لوط، وبما أنهم كانوا أقوياء أشداء بإزائه - عليه السلام - خُيل إليهم : أن لا أحد يستطيع أن ينال منا شيئاً، مهما فعلنا، فلنفعل ما نشاء .

ولو أنهم نظروا في القضية بالنسبة إلى الله، لكان الوضع بالعكس من ذلك تماماً .. ولأدركوا حينئذ أن طغيانهم سخيف بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، إذْ لا قبل لأحدٍ- مهما كان قوياً شديد البأس- بإزاء الله العزيز الجبار، وما هو إلا قليل حتى هلك القوم عن بكرة أبيهم !!

وللمتأملين في هذا الحادث درس مفاده أنه ليس أحد في هذه الدنيا حقيقةً في مواجهة أي إنسانٍ مثله،بل الكل في مواجهة الله .. ولو أن المرء أدرك هذه الحقيقة حق الإدراك لانتهى طغيانه كله تلقائياً !

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ .

أَصْحَابُ الأَيْكَةِ : سكان بقعة كثيفة من الأشجار الملتفة (قوم شعيب)عليه السلام .

وَإِنَّهُمَا : قرى قوم لوط والأيكة .

لبإمام مبين : لبطريق واضح يأتمون به في أسفارهم .

الحِجْرِ : ديار ثمود بين المدينة والشام .

مُصْبِحِينَ : داخلين في وقت الصباح .

المراد بـ «أصحاب الأيكة» : قوم شعيب - عليه السلام -، وقد كان اسمهم الأول

((بني مديان))، وكانوا يسكنون بمنطقة ((تبوك)) الحالية .. أما ((أصحاب الحجر)) فهم قوم ثمود، الذين بُعث فيهم سيدنا صالح - عليه السلام - وقد كانت مساكنهم في شمال المدينة، وهي اليوم ((مدائن صالح)) .

وإن عناد أصحاب الأيكة وطغيانهم لم يصبهم بالشرك فحسب، بل وصل بهم إلى أشنع الجرائم الأخلاقية.. وعندما لم يتلقوا أي درسٍ ولا عبرةٍ، رغم تذكير سيدنا شعيب وإنذاره إياهم باستمرارٍ، أمر الله الأرض، فإذا بها تتحول إلى مهدٍ للعذاب والدمار، وقد كانت قبلئذٍ مهد عيشهم الرغيد !

وقد كان قوم ثمود ماهرين في فنون النحت حيث كانوا قد حولوا الجبال- من خلال حفرها ونحتها- إلى بيوتٍ رائعةٍ فخمةٍ، وكانوا يظنون أنهم قد هيؤوا بذلك آخر الأسباب والتدابير الممكنة لحماية أنفسهم من الفناء أو التعرض لعذابٍ ما، ولكنهم لما أعرضوا عن نداء الله، جاء الأمر الإلهي، فما لبثت بيوتهم العظيمة الفخمة، أن انقلبت قبوراً تحتضن جثثهم الهامدة الخامدة !

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾ .

إن دراسة الأرض والسماء، وما بينهما من ظواهر وموجوداتٍ، تدلنا على أن هذا النظام الكوني البديع قد أنشئ كله بمنتهى الحكمة .. فما من شيءٍ هنا إلا تجده حيث ينبغي له أن يكون في الواقع، وإنما هو الإنسان وحده، الذي يتبنى موقفاً مناقضاً لمقتضى الحقيقة في هذا النظام الكوني بأسره، وإن هذا التناقض بين الإنسان والكون ليقضي بأنه لابد من وضع حد له، وعلى هذا الاعتبار فإن عقيدة القيامة عقيدة تتفق مع العقل والمنطق أتم الاتفاق، إذْ ليس ثمة من شيءٍ آخر، ما عدا القيامة من شأنه أن يضع حداً لهذا التناقض الصارخ !

إن واحداً من أهم عناصر عمل الدعوة إلى الله هو «الإعراض»، أي : أن تجتنب ما قد يثيره المخاطب من مناقشاتٍ ونزاعات جانبيةٍ، بدلاً من الخوض معه في غمارها .. وإنه بدون التزام مبدأ الإعراض لا يمكن إنجاز عمل الدعوة على نحوٍ مؤثرٍ ومثمرٍ ..

وحكمة الإعراض : هي أن المدعو ديدنه أن يثير - دائماً - نزاعاتٍ جانبيةً مع الداعي، فلو أن الداعي اصطدم بدوره مع المدعو في كل مناسبةٍ كهذه، فسوف تكون هناك معارك حامية ساخنة، تجري على قدمٍ وساقٍ، حول الأمور غير ذات الصلة بالموضوع، ولكن العمل الدعوى الأصيل سيبقى كما هو، دون أن يجد أحداً ينهض بأعبائه ويهتم بإنجازه على وجهه!

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

سَبْعاً : سبع آيات وهي الفاتحة .

مِّنَ الْمَثَانِي : التي تثنى وتكرر قراءتها في الصلاة .

أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ : أصنافاً من الكفار .

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ : تواضع وألنْ جانبك .

الْمُقْتَسِمِينَ : أهل الكتاب .

عِضِينَ : أعضاء وأجزاء ، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض .

المراد بـ «السبع المثاني» سورة الفاتحة .. إن سورة الفاتحة خلاصة القرآن بأكمله، وبقية القرآن بيان وتفصيل لها .

وإن هذا القرآن - من غير شكٍ - أعظم نعمةٍ في الأرض والسماء إطلاقاً، فكونه كتاب هداية، يضمن للمؤمنين به النجاح في الآخرة .. وكونه آخر كتاب، يستلزم بالضرورة أن يُكتب له الغلبة والانتصار على معارضيه، إذْ بدون الغلبة لا يمكن أن يبقى هو كآخر كتاب إلى الأبد .

وينبغي للداعي ألا يقع فريسة اليأس والخيبة والأسف على الذين لا يؤمنون بدعوته، بل لينظر إلى من آمن به، فيطمئن قلبه ويرتاح باله، وليكن بهم رفيقاً لين الجانب، باذلاً جهده في تربيتهم وتزكية نفوسهم .

والمراد بـ : ﴿ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ : هو تجزئة التوراة أو تقسيمها .. فقد كان اليهود قسموا كتابهم السماوي - عملياً - إلى جزأين : فما تعارض من تعاليمه مع أهوائهم، تخلوا عنه، وما اتفق منها مع أهوائهم أخذوا به .. وإنما كانت الآيات - من القسم الأول - تظل مغلقة في خانة التقديس، فلم يكونوا يعيرونها أي اهتمام ولا يتناولونها بالنشر والإشاعة بين الناس، بينما كانوا ينشرون الآيات المتصلة بالقسم الثاني على أوسع نطاقٍ .. جعلوا الكتاب الإلهي تبعاً لمصالحهم، وليس تبعاً للأحكام والوصايا الإلهية .

ولوجود شيء ما مستويان : أحدهما وجود أجزائه، والآخر هو أن تجده ككلٍ جامعٍ لا يتجزأ .. فحين يعرف المرء الشجرة مثلاً بصفتها الكلية، يعبر عنها بقوله : إنها ((شجرة)) ولكن لو أنه لم يعرفها بصفتها الكلية، فسوف يردد أسماء الجذع، والغصن، والورق، والزهر، والثمر، ولا يكاد ينطق بتلك الكلمة الوحيدة التي تجمع بين سائر أجزائها المتفرقة حول أصلٍ واحدٍ فتأخذ بالتالي شكل وحدةٍ واحدة.

وهذا هو الشأن تماماً فيما يتعلق بكتاب الله كذلك .. فكتاب الله يحتوي على كثيرٍ من الأحكام المتفرقة والمتنوعة، كما أن هناك نقطةً محوريةً جامعةً يدور عليها الكتاب كله،

فالذين يستغرقون في كتاب الله، سيجدونه بصفته الكلية الجامعة، وأما الذين استغرقوا في ذات أنفسهم، فإن كتاب الله إنما يتراءى لهم مجموعةً من أحكامٍ شتى مبعثرةً هنا وهناك، وبالتالي فيأخذون منها أي جزءٍ يتلاءم مع أذواقهم وأحوالهم ويشرعون في التركيز والتأكيد عليه كما لو أنه كان هو وحده كل شيء !!

إن الشجرة لا تلبث أن ترتوي بأكملها إذا ما ألقيت الماء في جذورها، وهكذا لئن قمنا بإحياء الجانب الكلي والمركزي من كتاب الله، فسوف تستعيد معه بقية أجزاء الكتاب الأخرى حياتها وحيويتها بطبيعة الحال .. وبالعكس من ذلك لو أننا تناولنا جزءاً واحداً من أجزائه، وركزنا عليه كل التركيز.

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ : فاجهر به أو فأمضه ونفذه .

اليَقِينُ : الموت المتيقن وقوعه .

إن كل شخصٍ في العالم الراهن له الحرية المطلقة ليقول ويفعل ما يشاء كما يشاء. ومن هنا فحين يبدأ الداعي بعمل الدعوة إلى الله، يوجه إليه الآخرون - بغية إحراجه وصرفه عن الدعوة - ألواناً شتى من الأقاويل الفارغة ، كما تثار أنواع من القضايا الجانبية غير ذات صلةٍ بالموضوع، وفي مناسباتٍ كهذه يجب على الداعي أن يعرض عن كل هذه الأباطيل، ولو أنه أخذ في مثل هذه المناسبات، يتخاصم مع الآخرين، فلن يستطيع إنجاز عمل دعوة الحق الإيجابي أبداً .

وإن هناك منهجاً إيجابياً واحداً، لا ثاني له، يتعين على داعية الحق أن يتبناه في هذه الدنيا، وهو يتلخص في أنه لا يتعرض لمن تعرض له .. وأن يجهر بالحق الذي ظفر به ويقوم بإعلانه على أكمل وجهٍ، ويفوض إلى الله كل أمرٍ يجد نفسه عاجزاً عن مواجهته.. وأن يوجه اهتمامه كله نحو الآخرة، إذا ما أصبحت أحوال الدنيا غير المواتية تزلزل مضجعه وتقلق باله، وأن ينشغل في ذكر الله إذا ما ضاق صدره بقلة مبالاة الناس وعدم اكتراثهم بما يقول.

ومن شأن الداعي الصادق أنه حين تنتابه حالة من حالات الهم أو الحزن ، يتوجه بكل كيانه إلى الله - عز وجل - ويحاول أن يجد من الله ما لم يستطع أن يجده من البشر، وتغمره موجة من السكينة والاطمئنان إذ يقف بين يدي الله مصلياً ، ويثلج فؤاده ، وتتخفف أعباء قلبه عندما تسكب عيناه دموعاً من خشية الله ، وحين ينشغل في المناجاة مع ربه ، فهو يشعر كأنه قد ظفر بكل ما كان يود أن يظفر به!

سورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ .

وَتَعَالَى : تعاظم بذاته وصفاته الجليلة .

بِالرُّوحِ : بالوحي ومنه القرآن العظيم .

حقيقة الدين هي أن يعرف الإنسان وجود الله وتصرفه المطلق وراء هذا الكون معرفة تجعله يرى ذات الله الواحدة هي كل شيء .. فلا يخاف إلا منه ، ولا يعقد آماله إلا عليه ويصبح الله الواحد الأحد مركز توجهات قلبه وعقله كلها .

وذلك معنى جعل الله إلها وإخلاص العبادة له تعالى ، وما جاء الأنبياء والرسل في هذا العالم إلا لخلق هذه الكيفية نفسها في قلوب الناس وضمائرهم ، وسيفوز بالنجاح والسعادة في يوم الجزاء الذين يقيمون الدليل على هذه العبودية ، وأما الذين يسيرون في الاتجاه المعاكس لذلك فسوف لا يلقون يوم الجزاء إلا الخيبة والشقاء الأبدي ، وسيواجه هذا المصير عامة البشر في يوم القيامة ، إلا أنه يبدأ ، بالنسبة إلى مخاطبي النبي المباشرين من هذه الدنيا .

إن الكون يتسم بوحدة كاملة ، وهو – إلى جانب ذلك – منطو على هدف عميق كذلك ، وإن وحدة الكون ترفض بشدة أن يكون من الجائز لأحد أن يتخذ من أحد غير الله .

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ .

تركيز توجهاته وانطوائه على الهدف يقتضي أن ينتهي آخر الأمر بغاية هادفة ، وليس بغاية غير هادفة ، وعلى هذا فبالإمكان القول بأن نظام الكون البديع يوفر لنا في وقت واحد دلائل الوحدانية ودلائل إمكان الآخرة معا !

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ .

نُّطْفَةٍ : ماء مهين .

هُوَ خَصِيمٌ : شديد الخصومة بالباطل .

وَالأَنْعَامَ : الإبل والبقر والضأن والمعز .

فِيهَا دِفْءٌ : ما تتدفؤون به من البرد .

فِيهَا جَمَالٌ : تجمل وتزين ووجاهة .

حِينَ تُرِيحُونَ : تردونها بالعشي إلى المراح .

وَحِينَ تَسْرَحُونَ : تخرجونها بالغداة إلى المسرح .

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ : أمتعتكم الثقيلة الحمل .

بِشِقِّ الأَنفُسِ : بمشقتها وتعبها .

إن وجود الإنسان يبدأ من مادة حقيرة تافهة ، ولكنه عندما يكبر يحاول أن يصبح نداً لله منافسا له تعالى .. فهو يريد أن يعيش في كون الله غير خاضع لإله ، ولو أن الإنسان أخذ في اعتباره حقيقته البدائية لما سلك طريق البغي والعناد والطغيان في أرض الله أبداً .

ومن جملة النعم المتاحة للإنسان في العالم الراهن أنواع المواشي والأنعام ، وكأنها آلات طبيعية حية لا تزال مشغولة بسد مختلف حاجات الإنسان ، فهي تأكل العشب والعلف ، وتحوله إلى اللحم واللبن لغذاء الإنسان ، وهي تخرج فوق جلودها من الأشعار والأصواف والأوبار ما ينسج منه الإنسان ثيابا يستدفئ بها ... وهي تقوم بنقل أمتعة الإنسان من مكان إلى مكان ، كما أن قطعان هذه الأنعام والمواشي تزيد من وجاهة شأن مالكها وترفع من مكانته بين الآخرين .

والمراد بقوله : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ تلك المنافع التي نحصل عليها عن طريق الموارد الأخرى عدا المواشي والأنعام .. وقد كان جزء من هذه الموارد الأخرى متاحا للإنسان في العصر القديم أيضا ، غير أن الجزء الأكبر منها كشف عنه الإنسان أخيرا في هذا العصر الحديث ، ويستغله لبلوغ شتى مآربه ، كاستخدام الماكينة مثلا بدلا من الحيوان .

وإن ما يتمتع به الإنسان في هذه الدنيا من نعم لا تحصى ، ليست من صنع الإنسان نفسه ، بل هي وفرت له من عند الله - سبحانه وتعالى ، ومن هذا يتضح لنا أن خالق

هذا العالم رحيم ، مما يقتضي أن يكون الإنسان شاكرا لخالقه ، ويقوم بأداء الحق تجاه الله المنعم عز وجل .

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾ .

قَصْدُ السَّبِيلِ : بيان الطريق القاصد المستقيم .

وَمِنْهَا جَائِرٌ : من السبيل مائل عن الحق .

للارتحال من مكان إلى مكان آخر يلزمك أن تسير في شارع معين يؤدي بك مباشرة إلى المقصود .. فالمراكب تجري على الشوارع المستقيمة تبعا لمقاصدها المطلوبة ، على أن هناك طرقا وممرات أخرى كثيرة أيضا تتواجد بجانبي هذه الشوارع ، ولو أن شخصا ولج في هذه الطرق الجانبية المتفرقة ، باعتبارها هي الشارع الرئيسي ، فإنه لن يصل أبدا إلى غايته المقصودة ، وإنما يظل يتيه ويتخبط يمينا أو يسارا بعيدا عن مقصده الأصلي .. وهذا هو الشأن فيما يتعلق بالوصول إلى الله كذلك .. فقد بين الله للإنسان الطريق الذي يوصله إليه بسهولة .. هو طريق التوحيد والتقوى، فمن يسلكه يصل إلى الله ، ومن يسلك في سبل أخرى ، يبقى تائها هنا وهناك ، ولن يوفق أبدا للوصول إلى ربه .. وكل شيء في هذه الدنيا يسير في الطريق المحدد له من قبل الله تعالى ولو شاء الله لألزم الإنسان هو الآخر بطريق معين يسير فيه ولا يحيد عنه، غير أن تدبير الخالق الحكيم ، بالنسبة للإنسان ، مختلف عن تدبيره بالنسبة للأشياء الأخرى كل الاختلاف ، فالمطلوب من الأشياء الأخرى هو الالتزام المطلق والمطلوب من الإنسان هو الالتزام الاختياري الحر ، ونتيجة لإتاحة حرية الاختيار هذه انقسم الناس إلى سائر في الطريق الحق ، ومنحرف عنه متسكع في الدروب والطرق المزعومة!

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ

﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .

فِيهِ تُسِيمُونَ : فيه ترعون دوابكم .

السحب تمطر من أعلى الفضاء ماء ، فيترتب على ذلك فوق الأرض نتائج ذات مغزى عميق ومدهش .. إن هذا التنسيق والانسجام بين عمل السماء والأرض ليثبت بوضوح لا يبقى معه مجال للشك أو الارتياب ، أن إله السماء هو بذاته إله الأرض كذلك .

إن أجزاء الكون المختلفة منسجمة مع بعضها أكمل انسجام ، وهذا الانسجام دليل قاطع على أن خالق الكون كله ومالكه ليس إلا واحدا ، وهو الله عز وجل، إذ ليس هناك من مكان في الهيكل الحالي للكون لأكثر من إله واحد، وإذا لم يكن الخالق والملك حقيقة غير الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد فمن يرتفع من دون الله إلى درجة المعبود، سيكون باطلا كل البطلان !

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ .

ذَرَأَ لَكُمْ : خلق وأبدع لمنافعكم.

الشمس والقمر والنجوم كلها ، تدور في الفضاء الرحب بحكمة بالغة ودقة متناهية، والأرض مليئة بشتى أنواع المخلوقات – من الحيوانات والنباتات والجمادات – ولا تقع تحت الحصر ، وفي المشهد الأول يتجلى جانب ((تسخير بالأمر)) بينما يبرز في المشهد الأخير جانب ((اختلاف الألوان)) وإذا كان أحدهما يذكرنا بكون قدرة الله

مطلقة بلا حدود ، يدلنا ثانيهما على أن الصفات الإلهية لا تحصى ولا تعد.

وإن هذه المشاهد لمذهلة ومحيرة للعقل لدرجة أن أيما شخص يقف عندها متأملا لابد أن يتأثر بها أبلغ تأثير ، فإنه سيرى فيها آثار عظمة الله وربوبيته الباهرة ، وسيكتشف ما يكمن وراء هذه الوقائع الظاهرية من الأسرار والحقائق الغيبية السامية ، وبالتالي فسوف لا يلبث ، وهو يشاهد عجائب المخلوقات، أن يغوص ويستغرق في معرفة الخَلاق المبدع العظيم !

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ : من البحر الملح خاصة .

مَوَاخِرَ فِيهِ : جواري فيه تشق الماء شقا .

لو ألقينا بقطعة من الحديد في البحر ، فسوف لا تلبث أن تستقر من فورها في القاع ولكن حين يتم تحويل الحديد نفسه إلى سفينة أو باخرة ،فإذا بها تبدأ تطفو على سطح الماء ، وتذهب بما تحمل من ركاب وأحمال ثقيلة من قطر إلى قطر آخر.

وهذا قانون إلهي خاص سخر الله من خلاله مخلوقا مهيبا عملاقا كالبحر لخدمة الإنسان ، كما أن البحر يتم في داخله إعداد لحم طري هو الأسماك على اختلاف أنواعها تحت نظام مدهش ، وتتكون في أغواره الجواهر واللآلئ النفيسة لزينة الإنسان .

وقد كانت هناك صور أخرى ممكنة لله - سبحانه وتعالى - لتدبير شؤون الدنيا ، حيث كان بالإمكان - مثلا - ألا تكون هنا بحار فوق الأرض أصلا ، أو أن يمكن

الإنسان من المشي على البحر تماما كما هو يمشى على البر ، ولكن الله لم يفعل – مع قدرته – شيئا من هذا القبيل وكانت الحكمة من ذلك هي خلق عاطفة الشكر في نفس الإنسان .

فالمرء حين يعجز عن المشي بأقدامه فوق البحر ، ثم يركب سفينة أو باخرة فتأخذ تمخر به عباب البحر بتمام السهولة، فمن الطبيعي أن يبعث ذلك موجة من مشاعر الشكر في قلبه ، إذ هو يفكر : إن البحر الذي لم أكن أستطيع اجتيازه بواسطة أقدامي أنا قد هيأ الله تعالى أسباب اجتيازه لي عن طريق السفن والبواخر ، والفضاء الذي لم يكن في طاقتي أن أطير بنفسي في رحابه ، قد مكنني الله من الطيران فيه عن طريق الطائرات بسرعة فائقة للغاية .. ولم توضع مثل هذه الفروق بين الأنظمة الطبيعية ، إلا لإيقاظ شعور الإنسان وإرهاف حسه ، وتوليد عواطف الشكر والامتنان لربه في داخله !

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

رَوَاسِيَ : جبالاً ثوابت .

أَن تَمِيدَ بِكُمْ : لئلا تتحرك وتضطرب بكم .

وَعَلَامَاتٍ : معالم للطرق تهتدون بها .

أشارت هاتان الآيتان إلى شيئين : أحدهما : نصب الجبال فوق الأرض لتبقى عليها توازنها ، وثانيهما : إقامة علامات في أنحاء الأرض والسماء ليستدل بها الناس على الطرق المؤدية إلى مقاصدهم .

وتدلنا الدراسات الجغرافية على أن الأرض حين تولدت فيها الأعماق السحيقة التي تحولت أخيرا إلى بحار باجتماع المياه فيها ، بدأت تهتز وتضطرب ، فارتفعت بعدئذ

شواهق الجبال في مناطق البر ، وهكذا استطاعت الأرض، نتيجة هذا العمل المزدوج ، أن تحتفظ بتوازنها ، ولولا هذا التوازن ، لأصبحت حياة الإنسان على ظهر الأرض ، مستحيلة أو –على أقل تقدير – صعبة جدا .

وكذلك فإن الإنسان بحاجة ماسة للقيام بأسفاره وتنقلاته إلى معالم يستعين بها للتعرف على اتجاهه فيصل إلى مقصده دون أن يضل الطريق أو يخطئه .. وقد هيأ الخالق جل وعلا أسباب ذلك أيضا على أحسن وجه وأكمله .. فقد كان إنسان العصر القديم يستدل على طرقه بواسطة أشياء كالأنهار والنجوم ، وها هو ذا يتعرف الآن على وجهته وعلى أمور أخرى ضرورية مستعينا بما اخترع من الآلات المغناطيسية، فعن طريق ذلك يتمكن من القيام برحلاته السريعة في البر والبحر وأيضا في الجو ، ولو أنه لم تكن ثمة علامات كهذه لتقلصت دائرة الأنشطة البشرية إلى حد بعيد جدا !

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

لاَ تُحْصُوهَا : لا تطيقوا حصرها لعدم تناهيها .

إنه ليس ثمة شيء في هذا العالم يقدر على الخلق والإبداع – أي إيجاد شيء ما من العدم – بما يثبت أن هذا العالم لم يخلق نفسه بنفسه ، وإنما خالقه هو الذي لديه القدرة على أن يوجد شيئا لم يكن موجودا ، وعلى هذا فإن عقيدة الإله الواحد هي عقيدة فطرية بكل معنى الكلمة ، إذ لا يمكن تفسير الكون بدون الإيمان بوجود إله يتمتع بصلاحية الخلق والإيجاد على أكمل وجه .. أما الآلهة التي اختلقها المشركون أندادا لله ، أو الأشياء التي حاول المنكرون (الملاحدة) إحلالها محل الإله الواحد ، باعتبارها

بدائل عن الله ، فإن أي واحد منها لا يمتلك صلاحية الخلق الذاتي ، وكفى بهذا الواقع دليلا على أن كل هذه الآلهة التي وضعها الشرك والإلحاد لا تعدو أن تكون افتراضات خيالية ، فإن من أبعد الأمور على الخلق والإنشاء، فالذي لا يملك لنفسه وجودا ذاتيا مستقلا،أنى له أن يسبغ الوجود على شئ آخر سواه ؟!

والشيء الذي يطلبه الله من عباده أكثر مما عداه هو الشكر على نعمائه ، ومع أن نعم الله من الكثرة والتنوع بحيث لا يستطيع أحد – كائنا من كان – أن يقوم بإحصائها وأداء الشكر عليها كما يجب ، إلا أن الله – سبحانه وتعالى – يتفضل بقبول القليل من الشكر على الكثير من النعم ، ولكن ينبغي أن يكون هذا الشكر شكراً حقيقيا ، وليس محض ترديد لكلمات الثناء والحمد الرسمية !

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

لاَ جَرَمَ : حق وثبت ، أو لا محالة أو حقاً .

يأخذ الشرك – في أكثر الأحيان – مظهرا واحدا ، هو : أن يعتبر الناس بعض من مضى من الشيوخ الصالحين من القدسية والتقرب إلى الله بمكان ، فيبدؤون أولا يعبدونهم مع الله ، في حين أن هذه العبادة تتسم بمنتهى الغباء والحماقة ، فالشيوخ المقبورون الذين يقوم الناس بتشييد أضرحة ضخمة لهم ، ويرجون منهم تحقيق آمالهم ومراداتهم ، يكونون بأنفسهم أمواتاً في عالم البرزخ ، وهم لا يدرون عن ذات أنفسهم متى سيبعثون ، ناهيك أن يمدوا يد العون لأحد سواهم!!

وليس معنى قوله : ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ أنهم يستكبرون على الله ، فمن يا ترى تبلغ به الجرأة إلى حد يتكبر معه على خالق الأرض والسماء ؟ إنما المقصود بذلك هو التكبر على داعية الله الواحد ، وليس التكبر على الله نفسه .

وقضية أمثال هؤلاء ، مع كونها قضية الغرور والاستكبار ، إلا أنهم يتناولونها بالتمويه، فيقدمونها كما لو أنها قضية مبدئية ومسألة نظرية ،بيد أن الله تعالى خبير بنفسياتهم الداخلية وسوف يعاملهم الله تعالى من حيث حقيقتهم الأصلية ، وليس من حيث أقوالهم الظاهرية!

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ : أباطيلهم المسطرة في كتبهم .

أَوْزَارَهُمْ : آثامهم وذنوبهم .

تقول الروايات : إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين بعث بمكة ، وترامت أنباء ذلك رويدا رويدا إلى قبائل العرب الأخرى ، كانوا كلما وفدوا إلى مكة ، يسألون رؤساءها : ما رأيكم في هذا الشخص الذي ادعى النبوة بينكم ؟ وقد كان رؤساء مكة ، يردون على السائلين بما من شأنه أن يجعلهم يقعون في الشك والارتياب حول شخصيته وكلامه – عليه الصلاة والسلام[1].

ومن الأساليب التي لجؤوا إليها لتحقيق هذا الغرض : التشويه المتعمد لكلامه

---

(١) انظر : التفسير المظهري .

– عليه الصلاة والسلام – فما ورد في القرآن – مثلا – من قصص الأنبياء والمرسلين ، كان بإمكانهم أن يصفوا ذلك بأنه ((تاريخ الأنبياء السابقين)) غير أنهم أطلقوا عليه اسم ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .

وإن صرف الناس عن دعوة الحق أو تشكيكهم فيها على هذا النحو ، أشنع جريمة عند الله تعالى .. وسيلقى أمثال هؤلاء عذابا مضاعفا في يوم القيامة ؛ لأنهم لم يضلوا بأنفسهم وحدهم عن الحق ، بل تسببوا في إضلال الآخرين كذلك!

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

القَوَاعِدِ : الدعائم والعمُد . أو الأساس .

يُخْزِيهِم : يذلهم ويهينهم بالعذاب .

تُشَاقُّونَ فِيهِمْ : تخاصمون وتعادون الأنبياء فيهم .

الخِزْيَ : الذل والهوان .

وَالسُّوءَ : العذاب .

الذين تتاح لهم الفرصة لاحتلال مركز السيادة والكبرياء في المجتمع على أسس مزورة كاذبة ، يشعرون بالخطر على مركزهم عندما تلوح لهم بوادر دعوة تنهض لإظهار الحق ، فيبادرون باتخاذ تدابير عاجلة للحفاظ على مراكزهم ، وتتمثل هذه التدابير في نشر أقاويل ضد دعوة الحق، من شأنها أن تشكك الجماهير في صدقها ،

وبالتالي لا يفسحون لها صدورهم ، ولا يفكرون في التجمع حولها أو الانضواء تحت لوائها .

غير أن تدابير أمثال هؤلاء ضد دعوة الحق - مهما أتقنوها - لا تكلل بالنجاح أبدا.. فالقواعد التي يكون معارضو الحق معتمدين عليها ، تعود ضعيفة هشة بحيث لا يلبث سقفها أن يخر عليهم من فوقهم .. وقد يحدث أحيانا أن يفاجئوا بأي زلزال طبيعي ، يهز قواعدهم، فيهدم ما بنوه على رؤوسهم .. وتارة يتخلى عنهم أتباعهم معلنين انضمامهم إلى صفوف الحق وهكذا يضطرون - بفقد أنصارهم وأعوانهم - إلى أن يسلموا أسلحتهم أمام دعوة الحق على رغم أنفهم .. وسيواجهون هذا المصير المخزي في صورته النهائية والكاملة يوم تقوم الساعة ، يوم يشاهد هؤلاء المنكرون ما لحق بهم من ذل وهوان أبدي ، ولا يستطيعون أن يفعلوا شيئا !

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

فَأَلْقَوُا السَّلَمَ : أظهروا الاستسلام والخضوع .

مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ : مأواهم ومقامهم.

التكبر هو الجريمة الكبرى ، ويتخذ المتكبر - في الغالب - أحد شكلين: الأول: هو التكبر الذي يظهر بين العباد العاديين ، فقد يجد أحد الناس نفسه أقوى ، وأكثر مالا وأجزل نصيبًا من صنوف المتاع الدنيوي بإزاء الغير ، فيأخذ، بناءً على ذلك واغترارا به، يتكبر عليه ويزدريه .

أما المتكبر الآخر الأشد شناعة من هذا : فهو الذي يمارس بالنسبة إلى داعي الحق ،

والمرء حين يتكبر على داعي الحق ، فإنما يدفعه إلى ذلك ظنه إياه عاجزا عن أن ينال منه شيئا أو يمسه بمكروه ، إلا أنه حين تأتي ملائكة الموت، ويسلبونه كل قوة واختيار ، فسيعلم حينئذ أن الطرف الآخر للقضية لم يكن إنسانا بل الله عز وجل ، وقد يحتمل أن يكون إنسان أقوى من إنسان آخر ، ولكن هل هنالك أحد أشد قوة من الله .؟ كلا ،.. وإذ يقع الإنسان في قبضة ملائكة الله ، فلا يسعه وقتئذ إلا أن يلقي السلاح مستسلما .. غير أن عبد الله الصادق هو الذي يبادر بإلقاء السلاح ويستسلم قبل أن يحين هذا الوقت الذي لا يجدي في التسليم والانقياد شيئا !

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

طَيِّبِينَ : طاهرين من دنس الشرك والمعاصي.

المصابون بداء الكبرياء ، حين لا يستمعون إلى كلام الله ، تنطلق أذهانهم في الاتجاه المضاد ، ولهذا السبب فهم لا يستطيعون أن يستفيدوا منه أي درس ولا عبرة ، ولكن الشخص الذي امتلأ فؤاده بخشية الله ينصت إلى كلام الله بتجرد واهتمام بالغين ، وبالنسبة لشخص كهذا يعد كلام الله وسيلة إلى المعرفة، وهو يأخذ يلمح في ثناياه ومضات الحقيقة العليا .

إن صفة الجنة هي : أن فيها كل ما يشاء الإنسان وتتوق إليه نفسه .. وذلك شيء لم يستطع الحصول عليه قط حتى الملوك الكبار ، فأبدا لا يحدث في العالم الراهن بسبب

محدودية قوى الإنسان وعدم مواتاة الظروف الخارجية له ، أن يحصل الإنسان على كل ما يرغب فيه والتصور القائل بأن : « الجنة فيها كل ما يشاء الإنسان وتشتهيه نفسه » لذيذ ومنعش لدرجة أن أية تضحية في سبيل ذلك، مهما كانت جسيمة باهظة ، هي أهون ما يكون !

﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

وَحَاقَ بِهِم : أحاط ، أو أنزل .

إن أمر الله يبين للإنسان أولا بلغة الدلائل .. وتلك هي مرحلة الدعوة والتبليغ.. ولو أنه لم يؤمن بواسطة الدلائل ، فيحين ذلك الوقت ، عندما يكشف النقاب عنه في صورة الموت الفردي أو الدمار الجماعي !

ولو أن المرء قابل أمر الله بالإهمال واللامبالاة ، وقد عرض عليه بواسطة الأدلة والبراهين ، فكأنما هو ينتظر تلك المرحلة الثانية الحاسمة ، إذ يفاجئه الله وملائكته بالظهور وبالتالي يضطر المرء بعدئذ إلى أن يعترف راغما ذليلا ، بذلك الأمر الذي أبيحت له فرصة الاعتراف به عزيزا كريما ، إلا أنه قابله بالرفض والإنكار !

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

من جملة الأقاويل التي يتقولها الإنسان الغافل ، تبريرا لانحرافه عن الحق ، قوله :

إنه إذا كان كل شيء في هذه الدنيا إنما يتم بمشيئة الله ، فإن عملنا الحالي هو الآخر صادر عن مشيئة الله ، إذ لو لم تكن وراءه مشيئته ، لما تمكنا من فعله البتة ، ولو أن الله كان كارها لأعمالنا حقا ، فهل كان يخلي بيننا وبين ما نفعل من هذه الأعمال التي لا يرضاها؟! وإنما يقول المرء هذا لكونه لا يأخذ أمر الحق والباطل بمآخذ الجد ، ولو أنه نظر في الأمر بجدية ، لأدرك من فوره أن الفرصة المتاحة له للقيام بعمله الحالي إنما هي بسبب الامتحان ، وليس بسبب رضا الله عنه أو إرادته إياه!

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

لقد بعث الله أنبياءه يبلغون عنه رسالته إلى الناس مباشرة في بقاع ، كما فتح أبواب هدايته ورحمته عن طريق خلفاء الرسل وممثليهم على نحو غير مباشر في بقاع أخرى..وقد اتفقت كلمة هؤلاء جميعا على تلقين الناس شيئا واحدا ، ألا وهو أن العبادة هي حق الله الواحد الأحد لا غير ، والشيطان يحاول دوما صرف الإنسان عن هذه العبادة، لذا فينبغي على الإنسان أن يجتنب الترغيبات الشيطانية ، وإلا فسيقوده الشيطان إلى طريق عبادة المعبودات الباطلة.

إن الهداية مع كونها واضحة تمام الوضوح ، غير أن القبول بها أو رفضها يتوقف كليا على مدى جدية المرء أو عدم جديته بشأنها .. فالشخص الجاد سوف لا يصعب عليه أن يدرك صدقها وصحتها ، أما الشخص الذي لا يأخذها بمأخذ جدي ، فسوف يظل متعلقا بتوافه الأمور ، ولن يحالفه التوفيق للوصول إلى الحق أبداً!

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ : مجتهدين في الحلف بأغلظها وأوكدها .

يقوم المنكرون للحق في كل زمان ومكان بالطعن في الحق الذي يرسل إليهم ويزينون هذا الطعن بالألفاظ الجميلة والعبارات الرقيقة ، ثم يؤكدونها بالقسم والأيمان الكاذبة ، مما يجعل بعض الناس يقع في شك وحيرة ويلتبس عليه الصواب والخطأ والحق والباطل ، وهذا أمر ينافي طبيعة الكون كل المنافاة ، فبإمكان المرء ، وهو يدرس العلوم المادية أن يتوصل إلى النتائج المقطوع بها، وأن تتجلى الحقائق القطعية عيانا فيما يتعلق بالمعاملات الإنسانية ، وذلك ما سيتحقق في يوم القيامة .

وقد كتب الشاه عبد القادر الدهلوي يقول : « لقد ظلت أمور كثيرة في هذا العالم موضع الشك والارتياب ، فمن الناس من آمن بالله ، ومنهم من أصر على إنكاره وجحوده، إذن ، فلابد من عالم ثان يتم فيه تمحيص النزاعات والاختلافات كلها ، وبالتالي يتميز الصدق من الكذب ، وينال كل من المؤمن المطيع والمنكر العاصي جزاء ما كسب في الحياة .

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

لَنُبَوِّئَنَّهُمْ : لننزلنهم .

حَسَنَةً : مباءة أو داراً أو عطية حسنة .

ذهب معظم المفسرين إلى أن هذه الآية تتحدث عن أولئك الثمانين من صحابة الرسول – عليهم رضوان الله - الذين كانوا لا يزالون يتعرضون لعدوان معارضي الإسلام واضطهادهم في مكة ، حتى هاجروا ، آخر الأمر ، إلى الحبشة ،مغادرين أوطانهم وإخوانهم وأموالهم .. وقد وقت هذه الهجرة في أثناء العهد المكي ، قبل الهجرة إلى المدينة بأعوام .

والحق دوما يلتف حوله طائفتان من الناس: أما إحداهما : فهى التي لا تعطي للحق من الأهمية ما يجعلها تتخلى لأجله عن الأشياء المتاحة لها ، أو تتناول خريطة حياتها بالتغيير والتبديل لتصوغها من جديد وفق مقتضيات الحق .. أما الآخرون: فهم الذين يختارون الحق بحيث إنه يصير عندهم هو الشيء الأهم ، وبالتالي فهم لا يزالون مستعدين لتحمل كل أذى في سبيله ، ويجعلونه وحده همهم الأكبر ، وشغلهم الشاغل فهم يستطيعون النزول عن كل شيء لأجل الحق ولكن العكس لا يستطيعونه!!!

وبديهي أن مصير الطائفتين كلتيهما لن يكون أبدا من نوع واحد ، فالذين أعطوا للحق الأهمية الكبرى في حياتهم ، سيعتبرون أهلا لنعم الله الأبدية ، وأما الذين أعرضوا عن الحق ، فسوف يعرض الله عنهم كذلك ، ولن يجدوا عند الله شيئا من العزة والكرامة ، وليس لهم نصيب في نعم الله وجناته !

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

بِالْبَيِّنَاتِ : أرسلناهم بالمعجزات .

وَالزُّبُرِ : كتب الشرائع والتكاليف .

المراد بـ ((أهل الذكر)) هنا أهل الكتاب ، أو هم الذين لديهم علم بأحوال الأمم والأنبياء السابقين التاريخية.. وليس موضوع السؤال المطلوب عرضه على أولئك العلماء ، عما هو الحق وما هو الباطل ، بل عما إذا كان الأنبياء المبعوثون في الأزمان الغابرة بشرا أم غير بشر؟

حيث إن أهل مكة كانوا يستدلون بكون رسول الله ﷺ بشرا على أنه ليس نبيا مرسلا من الله ، فقيل لهم : إذن ، فاسألوا تلك الأمم التي بعث فيها الأنبياء والرسل من قبل ، سلوهم عما إذا كان الأنبياء والمرسلون بشرا أم ملائكة ؟

وإن النبي إنما يأتي للتذكير ، ومع أن هذا التذكير يتم أصلا عن طريق الأدلة والبراهين إلا أنه من الضروري أيضا أن يقيم النبي الدليل على تمام جديته بهذا الشأن فلو أن شخصا ما قام بإخبار الناس بأحوال الجنة والنار ، وهو – مع ذلك - يشتغل بأمور تثبت عدم جديته بشأن الجنة والنار ، لأصبح نشاطه الدعوي في أعين الناس هراء ومهزلة.

على أن الدعوة ، مهما تم عرضها على مستوى أعلى وأسلوب أرقى وأبلغ ما يكون لن يستفيد منها إلا الذين يتأملون فيها بأنفسهم أيضا ، أما الذين لا يتأملون فيها ، ولا يعيرونها أي اهتمام ، فلن ينتفعوا بدعوة الحق على أية حال!

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

يخسف : يغيب .

تَقَلُّبِهِمْ : أسفارهم ومتاجرهم .

بِمُعْجِزِينَ : فائتين من عذاب الله بالهرب .

تَخَوُّفٍ : مخافة من العذاب أو تنقص.

نزلت هذه الآيات في أواخر العهد المكي عندما كان المعارضون في مكة يتآمرون على قتل رسول الله ﷺ إن الرسول يكون مندوب الله في أرض الله ، لذا فإن تدبير مؤامرات كهذه ضده ، لا يقوم بها إلا الذين خلت قلوبهم من الخوف من بطش الله.

على حين أن الله قادر على الإنسان فلو شاء لخسف به الأرض ، أو يفاجئ المرء بعذاب مدمر في المكان الذي يعتبره دار أمان له ، أو يبطش الله بالناس فجأة وهم في غمار أعمالهم ، فلا يستطيعون إنقاذ أنفسهم من ذلك...كما في استطاعة الله أيضاً أن يفتك بهم وهم في كامل وعيهم بالخطر المحدق يحسون دنوه ، ويرتقبون وقوعه خائفين وجلين.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

مِن شَيْءٍ : من جسم قائم له ظل .

يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ : تميل وتنتقل من جانب إلى آخر .

سُجَّداً لله: منقادة لحكمه وتسخيره تعالى .

وَهُمْ دَاخِرُونَ : والظلال صاغرون منقادون كأصحابها .

إن الإنسان يتمرد ويطغى في عالم يعرض عليه فيه درس الخضوع والانقياد من كل

جانب ، وعلى سبيل المثال: ظلال الأجسام المادية .. فكل شيء قائم لا يلبث أن يسقط ظله على الأرض ، وهكذا فهو يمثل معنى السجود ، وهو يدلنا ، بأسلوب تمثيلي ، كيف ينبغي للإنسان أن يخضع لخالقه بوجوده كله !!! والملائكة ، وإن كانوا لا يقعون تحت أبصارنا – نحن البشر – إلا أن سير الكون الفسيح المترامي الأطراف بهذا القدر من القدرة والانضباط يثبت أن ((الموظفين)) الذين عهد الله إليهم بتسييره وإدارته أقوياء أشداء للغاية ، وهؤلاء الملائكة ، رغم كونهم أولي قوة وبأس شديد بصورة غير عادية مطيعين لله إلى أقصى الحدود ، ولو أنهم لم يكونوا على هذه الدرجة القصوى من الطاعة والامتثال لأمر الخالق جل وعلا لما أمكن أن يسير نظام هذا الكون بهذا التسلسل والصحة والانتظام الدقيق كما نراه الآن .

فالمسلك الصحيح للإنسان، والحالة هذه ، ليس إلا أن يسخر نفسه لطاعة الله، ويصبح عبدا خاضعا مطيعا له تعالى على أكمل وجه !

﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

وَلَهُ الدِّينُ : الطاعة والانقياد لله تعالى وحده .

وَاصِباً : دائما لازما أو خالصاً.

لقد حذر الله البشر ، على ألسنة أنبيائه ، من أن يتخذوا لأنفسهم آلهة أخرى دون الإله الواحد الأحد ، فلا إله لهذا الكون إلا إله واحد ، وينبغي للمرء ألا يخاف إلا إياه ، ولا يخضع إلا لمشيئته وحده .

ولو أن المرء أدرك أن الله تعالى وحده خالق البشر وسائر الموجودات ، وعليه وحده تتوقف حياته كلها ، فالكيفية التي ستتولد في داخل المرء – كنتيجة طبيعية لهذا الإدراك

– وهي التي تسمى ((التقوى)) وأنه ليس هناك من طاعة واجبة دائمة في الأرض ولا في السماء إلا لله تعالى وحده ، فكل شئ هنا مربوط بالقانون الإلهي لا يستطيع الانفكاك أو الخروج عنه ،وفي عالم كهذا ليس التوجه إلى أحد غيره تعالى بالعبادة أوعقد الآمال علي أحد سواه ، إلا باطلا محضا .

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

تَجْأَرُونَ : تضجون بالاستغاثة والتضرع .

تَفْتَرُونَ : تكذبونه على الله .

إن تجارب التاريخ بأكمله شاهدة بأن المرء حين يتورط في مصيبة ، يجد نفسه عاجزا عن التغلب عليها ، فلا يلبث أن يأخذ في التضرع والابتهال إلى الله ، ويفعل ذلك – عند حلول المصائب والنكبات – كل من المنكرين لوجود الله والمشركين به على سواء ومن هذه التجربة يتضح لنا بجلاء أن تصور الله الواحد كامن في الفطرة الإنسانية بصورة جبلية ، فعندما تنفصم عرى العلائق الأخرى كلها ، فإن الشيء الخير الوحيد الذي يبقى بعدئذ هو الله تعالى وحده لا غير !

ولكنها من مظاهر غفلة الإنسان العجيبة أنه لا يكاد يتخلص من المصيبة ، حتى يعود ثانية مشغولا بذكر آلهته الفرضية المزعومة ، ويعزو النعم المتاحة له إلى الأشياء الأخرى بدلا من عزوها إلى الله تعالى ، ولا يعود يذكر ذلك الدرس العظيم الذي لقنته فطرته نفسها قبل لحظة يسيرة من الزمن !!

ولقد قام الشيطان بترويج ألوان شتى من الطقوس والتقاليد الكاذبة وتزيينها في قلوب الناس توطيدا لعقيدة ألوهية المعبودات الفرضية الباطلة ، ومن بينها استخراج حصة معينة من دخلنا للآلهة والمعبودات الفرضية ، إن مثل هذه الطقوس والتقاليد بمثابة بهتان وافتراء في دنيا الله ؛ لأنها تعني إسداء الشكر إلى غير الله على الشيء الممنوح من عند الله عز وجل !

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

وَهُوَ كَظِيمٌ : ممتلئ غما وغيظا في قرارة نفسه.

يَتَوَارَى : يستخفي ويتغيب

هُونٍ : هوان أو ذل .

يَدُسُّهُ : يخفيه بالوأد فيدفنه حيا .

مَثَلُ السَّوْءِ : صفته القبيحة من الجهل والكفر .

إن الآلهة التي اتخذها الإنسان من دون الله الواحد تشتمل على آلهة (ذكور) وعلى إلهات (إناث) معا .. وقد ضرب القرآن هنا مثلا عاما لإبطال عقيدة الإلهات .. فبما أن المرأة تكون ضعيفة بالقياس إلى الرجل ، وهي – إلى جانب ذلك – تكون في الظروف المعتادة تبعة ومسئولية أكثر منها أثاثا وثروة ، لذا فإن الناس يكونون أشد فرحا وسرورا بولادة الابن منهم بولادة البنت ، إذن ، فما الذي كان يدفع الله إلى تفضيل

الإناث على الذكور ، فيما لو أراد – فرضا – أن يتخذ لنفسه ولداً ؟!

ولم يريد الإنسان الولد ؟ إنه يريد ذلك لكي يسد به عوزه ويتلافى نقصه ، غير أن الله تعالى عن مثل هذه النقائص علواً كبيراً ، فإن عظمة الله وقدرته التي تجلت آثارها في كونه هذا ، تدلنا على أنه تعالى أرفع وأسمى من أن يوجد فيه عيب أو نقص يحتاج لتلافيه إلى اتخاذ البنين أو البنات عنده .. والحقيقة هي أن الله لو كان ذا نقائص ، فلم يكن ليكون إلها ، وإنما صار الله إلها حقا ، لكونه منزها متعاليا عن النقائص والعيوب بكل أنواعها !

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ .

من صور المؤاخذة على الظلم أن يعاجل بالأخذ على يد الظالم – أيا كان – فور ممارسته الظلم ، فيعاقب بالتالي أشد العقاب .. ولكن سنة الله غير هذا ، إذ لو فعل الله ذلك لما بقى أحد يمشي على ظهر الأرض ... فقد أعطى الله لكل فرد ولكل أمة مهلة معينة ، وهو تعالى يتيح الفرصة للكل – حتى انقضاء هذه المدة – أن يستجيب لنداء ضميره، أو يتعظ بالإنذارات الخارجية – وما أكثرها – فيقوم بإصلاح نفسه وعمله ، حين يقوم الناس بإصلاح أنفسهم تغتفر لهم كل جرائمهم السابقة ، وهم يصيرون بعدئذ كما لو أنهم قد بدؤوا الآن حياة جديدة تمام الجدة.

والله لا يؤاخذ العاصين خلال المهلة المعينة المتاحة ، ولكن يلتزم بأن يبطش بهم حتما بعد انقضاء هذه المهلة وليس لهم فرص أخرى .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ .

لاَ جَرَمَ : حق وثبت . أو لا محالة أو حقا .

مُّفْرَطُونَ : مقدمون معجل بهم إلى النار .

إن السبب في الضلالات البشرية يكمن – إلى حد كبير – في إساءة التقدير لألوهية الله جل وعلا .. وإن أكثر العقائد الخاطئة المغلوطة لم تظهر إلى الوجود إلا لكون أصحابها ظنوا الله أقل بكثير مما هو في حقيقة الأمر ، حتى صار الناس لا يحرجون من نسبة أشياء إلى الله ، ولا يرضونها لأنفسهم ،باعتبارها تافهة في ذاتها أو ثقيلة لشعورهم بالأنفة والكبرياء ، كالبنات أو التسليم بمشاركة أحد سواهم في أملاكهم !

ومن نتائج هذا التقدير البخس لله – جل جلاله – أن الناس لا يزالون غير خائفين من الله مع اعتقادهم في وجود الله، ويعتقدون عن أشياء عادية للغاية أنها ستقربهم إلى الله ، وأن نعم الآخرة كلها سوف تكال لهم جزافا بغير حساب ، مهما كانت أعمالهم ، والشيء الذي ليس من شأنه أن يقع حتى عند رجل عادي موقع الرضا ، إذا بهم يزعمون أنه سيرضي الله !

إن أي عمل من هذا النوع ، زيادة الطغيان على الخطأ ، ولن يغفره الله تعالى أبداً !

﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

إن دعوة الرسول حين تتعالى أصداؤها في أرجاء المجتمع ، يخيل إلى المستمعين لها أنها تصطدم بديانتهم التقليدية الرائجة ، ولكون هذه الديانة التقليدية الرائجة مأنوسة ومألوفة لديهم ، ولارتباط الكثير من مصالحهم الحيوية بها ، فإنهم لا يزالون يأبون إلا التشبث بها بقوة ، وعندها يوحي الشيطان إليهم بألفاظ جميلة رائقة تمكنهم من تبرير

تخليهم عن دين الرسول وبقائهم على ديانتهم التقليدية الرائجة.

ولو أن المرء بادر إلى الإيمان بدعوة الرسول بدون لف ولا دوران ، لكان قد اتخذ من الله وليه ، أما لو لجأ إلى التأويلات الجميلة للصدود عن الدعوة، سيتخذ الشيطان له ولياً.

وبإرسال نبي آخر الزمان ﷺ فقد كان الله – سبحانه وتعالى– هيأ للناس أسباب الاهتداء إلى طريق الله الحق وسط غابة موحشة من الخلافات الدينية والنزاعات والمذهبية السائدة آنذاك .

وليس من شك في أن الدين الذي جاء به نبي آخر الزمان – عليه الصلاة والسلام – هو رحمة لعباد الله وهاديا لهم .

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ .

إن نظام المطر والنباتات ينطوي على درس بليغ جدا .. فعن طريق تفاعل موحد منسق بين عوامل شتى تتصاعد قطرات المياه نحو الفضاء لتنزل ثانية على الأرض بشكل المطر، ثم يتسبب هذا المطر ، بصورة مذهلة ، في إنبات العشب والزرع والشجر الأخضر في الأرض.

ولنا في هذه الواقعة – من ناحية – درس هو أن هذا الكون يحكمه ويتصرف في أنحائه كلها إله واحد لا غير، وهو الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه من المستحيل أن تتفاعل قوى الكون المختلفة منسجمة بعضها مع بعض على هذا النحو المدهش لأداء وظيفة مشتركة ، لو كان يتصرف وراءها عديد من الآلهة ، إن وحدة الأنظمة الكونية تدل دلالة صارخة على أن خالق الكون ومالكه واحد أحد، وليس أكثر من الواحد .

والدرس الثاني :هو أن قدرة الله عظيمة لدرجة أنها تستطيع بث الحياة في جسم ميت هامد ، وأنها تتمكن من إنبات حديقة من الخضرة والنضرة ، واللون الجميل ، والرائحة الفواحة ، والطعم اللذيذ في أشياء يابسة جدبة !!

وفيما تتضمن الواقعة الأولى دليل التوحيد ، تدلنا الواقعة الثانية في صورة التمثيل – على أن هناك مطرا إلهيا للأرواح البشرية كذلك ، ألا وهو الوحي ، وأن الشخص الذي يريد بث حياة جديدة في روحه الميتة اليابسة ، فعليه أن يغسل نفسه في مطر الوحي الإلهي!!

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

لَعِبْرَةً : لعظة عظيمة ودلالة على قدرتنا .

فَرْث : ما في الكرش من الثفل .

سَكَراً : خمراً (ثم حرمت بالمدينة).

من خصائص الحيوانات ذوات الأثداء العجيبة أن كل ما يدخل في بطونها يتحول إلى الروث والدم، ويخرج من بينهما في الوقت نفسه سائل ثمين كالحليب الذي يمثل غذاء نافعا جدا للإنسان .

وهذا هو شأن الأشجار كذلك .. فهي تمتص مما حولها أشياء كعناصر التربة والماء ، ثم إنها لا تلبث أن تأخذ ، تحت نظامها الداخلي العجيب شكل ثمار حلوة رطبة تتدلى بأغصانها .

وإنما الغرض من هذه الواقعات هو أن تذكر الناس بربهم ، وأن يقف المرء عندها ، فيشعر بقشعريرة تغمر كيانه كله ، لما يرى فيها من آثار قدرة الله وحكمته البالغة..وحتى يأخذ هذا الإحساس من نفسه مأخذا لا يلبث معه يصرح قائلا : يا إلهي! يا من يخرج من بين الروث والدم شيئا نافعا كالحليب ، أظهر من خلال الظروف غير المواتية المحيطة بي نتائج إيجابية مواتية ، ويا من يحول عناصر التراب والماء إلى الثمر، اجعل من حياتي الفارغة حياة قيمة خصبة مفعمة بالمعنى .

وقوله : ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ يتضمن الإشارة إلى حقيقة أن كل ما خلق الله في هذه الدنيا من شيء يصلح – في آن واحد – للاستعمالين الصحيح والخاطئ معا.. فلو أننا أكلنا التمر والعنب بشكلهما الطبيعي لوجدناهما غذاءً مفيداً للصحة ومقويا للجسم والعقل كليهما .. وأما لو تم تحويلهما ، بفعل الصناعة البشرية ، إلى مسكر ، فإنه يصيب الجسم بأفدح الأضرار كما أنه يفسد العقل ويعطله عن القيام بأداء وظيفته على النحو المطلوب.

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

وَأَوْحَى رَبُّكَ : الإيحاء هنا الإلهام والإرشاد أو التسخير .

بُيُوتاً : أوكارا تبنيها لتعسل فيها .

يَعْرِشُونَ : يبني الناس من الخلايا للنحل .

ذُلُلاً : مذللة مسهلة لك .

النحل أعجوبة من أعاجيب قدرة الله المذهلة .. حيث إنه يقوم ببناء خلية متناهية في الدقة والكمال ملتزما بالقوانين الرياضية .. ثم يجمع – على نحو مخطط تخطيطا خاصا – رحيق الأزهار ، ويخزنه، تحت نظام أدق وأكمل ما يكون ، في خلاياه ، وبالتالي يعمل ، طبقا لقوانين الصحة ، على إنتاج العسل ، ذلك السائل الثمين الغالي الذي يمثل بالنسبة لنا – نحن البشر – مادة غذائية وعلاجية معا وكل ذلك يتم بأسلوب عجيب ومنظم لدرجة أنه رغم إعداد مجلدات ضخمة حول هذا الموضوع ، لم تزل هناك خبايا وأسرار عن مملكة النحل تحتاج إلى دراسة وبيان واستقصاء .

ومعمل العسل المعجز هذا أعقد وأكثر نجاحا من كل المعامل الإنسانية على الإطلاق وهو يدار ، على ما يبدو، بواسطة حشرات ((النحل)) لم تتلق تعليم فن الإدارة والتنظيم في أي معهد أو مدرسة أو جامعة ، بل لا تملك الشعور الذاتي بما تقوم به من أعمال .. مما يثبت أن هناك ((قوة موجهة))هي التي تدفع هذه الحشرات لإنجاز هذه الأعمال المحيرة كلها ، ولو أن متأملا تأمل في نحل العسل وأنشطته الهادفة لبدأ يشاهد من خلالها تدبير الله الحكيم بصورة حية ملموسة .

ومن نواحي العبر في ضرب المثال هنا بنحل العسل ، أنه كما يعمل النحل ، بجهد ومثابرة ، على تخزين رحيق الأزهار ، وتحويله إلى العسل الذي فيه غذاء ودواء للناس ، ينبغي لعباد الله كذلك ، أن يكدوا أذهانهم لاستكشاف غوامض الحكمة وخفايا الأسرار عبر التأمل والتفكير في الكون ، مما يشكل غذاء لأرواحهم ، وفي الوقت نفسه علاجا لأمراضهم الخلقية، فالشيء الذي يكون ((رحيقا)) بالنسبة لنحل العسل ، يتحول إلى ((المعرفة))عندما يصل إلى مستوى الإنسان !

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

أَرْذَلِ العُمُرِ : أرذله وأخسه (الخرف والهرم).

يشهد الإنسان جوانب عديدة من مظاهر الحياة المتواجدة على وجه الأرض.. فهناك شخص يصير موجودا في هذه الدنيا بعد أن كان معدوما .. ثم إن الكل يتعرض للموت حتما ، ولكن ليس للجميع وقت واحد معين ، فمنهم من يموت وهو طفل رضيع ، ومنهم من توافيه المنية وهو في عنفوان شبابه ، وآخر يموت في سن الشيخوخة.. ما أغربه منظرا كذلك أن المرء إذ يبلغ نهاية عمره، فلا يلبث أن يفارقه كل ما كان يتمتع به من عقل وعلم وقوة ، ومع أن الإنسان على ما يبدو ظاهرا حر في هذه الأرض ، غير أنه لا يملك خيارا ما تجاه أي شيء من الأشياء المتاحة له .

وإنما يحدث هذا كله لإشعار الإنسان بأن العلم والقدرة كليهما ليس إلا بيد الله تعالى وحده ، فأمثال هذه الوقائع الآنفة الذكر ، التي تمر بها الحياة الإنسانية ، لا دخل فيها للإنسان ، وهو ليس بقادر على إحداث أي نوع من التعديل فيها أو تغيير مسارها ومجراها ، وتثبت أن كل ما يحدث إنما تتحكم فيه إرادة فاعل آخر ، إن حياتنا منذ الطفولة المبكرة وحتى الموت ، تشهد بأن الله وحده ، دون أحد سواه ، هو الذي يملك هنا العلم كله ، والقدرة كلها كذلك .. إن عجز الإنسان واضطراره يقوم دليلا على وجود الله القادر المطلق جل جلاله !

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ .

فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ : أفهم في الرزق متساوون ؟؟ لا .

من خلال مثال بسيط ، تم هنا إثبات بطلان العقيدة القائلة بأن لله شركاء ، وأنه تعالى خولهم جزءا مما يملكه من القدرة والاختيار .. وذلك المثال هو أن توزيع الأرزاق

في هذه الدنيا ليس متساويا ، فمما يلاحظ أن بعض الناس يكون ذا ثراء عريض ، بينما يتوفر لدى البعض الآخر حظ ضئيل منه لدرجة أنه يضطر إلى أن يعمل عند الأول – صاحب الفضل والثراء – كخادم أو عبد مملوك له .. وإنه ليس من صاحب فضل يحلو له أن يوزع ثروته كلها بين خدمه .. وهكذا يستوي هو وخدمه بمحو ما بينهما من الفروق والامتيازات ، إذن فكيف يسوغ الاعتقاد ، عن الله بأنه قد وزع قدراته واختياراته على الآخرين من عبيده ؟!

وأيما شخص لا ينكر عظمة نفسه بنفسه ، إذن ، فالشيء الذي لا يكاد يرضاه أو يستسيغه هذا الإنسان الذي ليس لديه أي متاع أو بضاعة ذاتية،كيف سيرضاه الله لنفسه،بينما كل ما عنده تعالي هو ملكه الذاتي،وليس ممنوحا له من أحد سواه ؟! والحقيقة هي أن كل العقائد من هذا النوع تنفي وجود الله، وهي تجر أو تستنزل الله إلى مستوى غير الله ، الأمر الذي لا يمكن ولا يسوغ بأي حال من الأحوال !

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

وَحَفَدَةً : خدما وأعوانا ، أو أولاد أولاد.

الإنسان مخلوق له احتياجات كثيرة لا تقع تحت الحصر ، ولقد وجدت في هذا العالم أسباب تضمن الوفاء بهذه الاحتياجات كلها على أحسن وجه وأكمله .. فالمرء يشعر بالجوع والعطش فيجد فيما حوله مقدارا وافرا من أطايب الطعام والشراب ، وإذ كان المرء بحاجة إلى زوجة تمنحه السكينة والاطمئنان الذاتي ، فما تزال النساء يولدن هنا

بتسلسل واستمرار وفق مقتضياته تماما ، وإذا كان المرء يواجه مشكلة بقاء نسله ، فإن هناك نظاما لتوالد الأبناء، والأحفاد لا يزال جاريا كذلك .

وما هذا كله إلا من عند الله تعالى .. ولكن الخطأ الذي ما زال الإنسان يرتكبه في كل العصور ، هو أنه نسب هذه النعم الإلهية إلى غير الله ، فالمشركون يعزونها إلى الآلهة والإلهات ، أو الذوات الحية أو الميتة من الإنس والجن ، بينما ينظر إليها الملاحدة على أنها نتاج تفاعلات القوانين الطبيعية العمياء .

وقد كان الغرض من إقامة نظام النعم هذا أن تستيقظ في نفس المرء عواطف الشكر والامتنان لله ، إلا أن المزاعم والتخيلات المصطنعة لم تلبث أن جعلت من هذا النظام مصدر الكفر بالله وذريعة النكران لفضله ونعمته .

ومعظم الضلالات والانحرافات العقدية إنما تتولد بسبب ضرب الأمثال وافتعال الأشباه والنظائر ، فعقيدة وجود البنين والبنات لله ، مثلا ترجع إلى قياسه تعالى بالإنسان الذي يكون له أبناء وبنات ، وكما يكون لدى العظماء وكبار الناس أفراد مقربون ومشفعون ، شاع الاعتقاد ، بناءً على ذلك ، أن هناك أناسا يتمتعون بالحظوة والتقرب عند الله كذلك ، وأن شفاعتهم في جناب الله مقبولة لا ترد !

وإلى هذا النوع من التمثيلات والتشبيهات ترجع أكثر أنواع الكفر والضلال غير أن قياس الخالق على المخلوق - وذلك قياس باطل - مصدره الجهل المحض لا غير ، فإن الخالق مختلف عن مخلوقاته من كل النواحي والاعتبارات ، وأي مثال أو نظير للمخلوق لا ينطبق على الخالق .. ومع أن تقريب شيء ما إلى الأفهام عن طريق المثال ليس في حد ذاته خطأ ، غير أن المثال إنما يحقق الغرض المطلوب إذا كان المرء على علم بالأصل (أي المشبه) والمشبه به ، وإذا كان الإنسان يجهل حقيقة الله جهلا تاما ، كما هو الواقع ، فكيف يمكنه أن يأتي بمثال أو شبيه له تعالى !!!

﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

للتدليل على بطلان التمثيلات المشركة ضرب القرآن هنا مثلا عاما وبسيطا، وهو: أن هناك شخصا تتوفر لديه الأسباب والوسائل من كل نوع ، وهو مالك ذاتي لها ، وبجانبه شخص آخر لا يملك أي شيء ملكا ذاتيا ، وكلا هذين الشخصين يختلف أحدهما عن الآخر اختلافا نوعيا ، ولذا فلن ينطبق مثال أي واحد منهما على الآخر أبدا.

وإذا كان هذا الاختلاف أو الفارق النوعي قد بلغ منتهاه بين الله وعبده ، فكيف يمكن – وهذه الحالة – أن يستمد مثال لله – سبحانه وتعالى – من وقائع البشر ؟!

إن التقسيم أو المعادلة القائمة بين الله والأشياء الأخرى في هذا الكون ، هي معادلة الخالق والمخلوق ، دون معادلة الإله وأنداده .. فإن وجود الله مصدر ذاتي مستقل لكل الكمالات على اختلاف أنواعها .. وهو وحده واهب النعم كلها كذلك .. وإن أبعد الأمور عن القياس وأشدها تناقضا مع الواقع في هذا الكون ، هو أن نفترض لأحد غير الله أشياء ليس له فيها من شريك ولا منافس !

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ : أخرس خِلقة .

وَهُوَ كَلٌّ : عبء وعيال .

لقد دلت الآية السابقة على بطلان الشركاء والأنداد بإزاء الله عز وجل ، وها هي ذي الآية جاءت تسلط الضوء على زيف وبطلان أناس يقفون في وجه الرسول ، والذين يعرض المرء عن هداية الرسول ثقة بهم واعتمادا على دعاويهم ومزاعمهم ..

والله – سبحانه وتعالى – يهدي الرسول ، بعنايته الخاصة ، إلى ذلك الصراط أو الشرع الذي هو شرع الحق القويم ، والذي يؤدي بسالكه إلى الله تعالى مباشرة ، وفيما يسلك النبي وأتباعه بأنفسهم في هذا الشارع ذاته ، يقومون بإرشاد الآخرين إليه كذلك.

ومن جانب آخر فإن هناك أناسا يدعون الآخرين إلى سبل أخرى غير طريق الرسول، ومثلهم كمثل الأعمى والأصم ، فليست عندهم آذان يسمعون بها أصوات الله ، وليست لهم أعين يبصرون بها تجليات الله ، ولا هم يملكون عقولا وقلوبا تمكنهم من فهم الآيات المنبثة في الكون .

وإنما كان السمع والبصر قد منحا للإنسان لكيما يشاهد بواسطتهما انعكاس الخالق في مرآة مخلوقاته، ولكنه استخدم هذه القوى بحيث صار متعلقا بالمخلوقات نفسها!

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

كَلَمْحِ البَصَرِ : كخطفة بالبصر واختلاس بالنظر .

وراء هذا العالم الظاهري يوجد نظام غيبي ، أقامه الله سبحانه وتعالى ، ومع أننا – بسبب قصور مداركنا ومحدوديتها – لا نشاهد هذا النظام الغيبي ، غير أن كل شأن من شؤون حياتنا مكشوف على هذا النظام الغيبي بتمام الوضوح ، فالله – سبحانه

وتعالى – لا يزال يشاهد من وراء الغيب كل صغيرة وكبيرة مما يجري في دنياه ، وهو يقدر كل أمر أصح تقدير وأدقه ، وحين يقضي الله بأن مدة امتحان الإنسان قد بلغت نهايتها الآن ، فما هو إلا أن يشير تعالى مجرد إشارة ، حتى يتحطم النظام الحالى دفعة واحدة في طرفة عين ، ويحل محله نظام جديد على أسس مختلفة كل الاختلاف ، لكيما يتم إيصال الكل إلى حيث كان في واقع الأمر ، دون أن يترك حيث كان قد أقحم نفسه بوجه مصطنع وبدون جدارة ولا استحقاق!

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

إن الإنسان ،حين يولد يكون طفلا عاجزا لا يعقل أمرا ولا يفهم شيئا ، ولكنه عندما يكبر يصبح مالكا لتلك القوى المدهشة التي تسمى السمع والبصر والعقل، وقد كان من الممكن أيضا ، أن تكون كل تلك الصلاحيات التي تتولد في الإنسان على التدريج مع تقدمه في السن ، موجودة لديه منذ يوم ولادته الأول !

ولكن هذا لم يحدث .. وليس ذلك إلا لكي تستيقظ في داخل الإنسان عاطفة الشكر فهو يرى – أولا – حالة ضعفه وعجزه البدائية ، ثم يلاحظ أنه بلغ بعدئذ حالة راقية متقدمة ، مما يجعله يشعر بنعمة الله وفضله عليه وبالتالي تغمره مشاعر الشكر والامتنان لله!

على أن هذه الكيفية لا تتولد في نفس امرئ ما ، إلا إذا هو استخدم الطاقات المتاحة له من عند الله على وجه صحيح ، فلا يبقى سمعه وبصره وفؤاده متعلقا ببريق العالم الظاهري وحده ، بل يصير له بمثابة فتحات منها أحد الناس على ومضات الغيب .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ .

تَسْتَخِفُّونَهَا : تجدونها خفيفة الحمل.

يَوْمَ ظَعْنِكُمْ : وقت ترحالكم

أَثَاثاً : متاعا لبيوتكم كالفرش .

وَمَتَاعاً : تنتفعون به في معايشكم ومتاجركم .

إن طيران الطيور عبر الفضاء ، إنما يكمن وفق تخطيط للطبيعة عظيم .. من جوانب هذا التخطيط الطبيعي تكوين بنية الطيور بحيث جاءت مناسبة جدا لغرض الطيران ، والتى تم تقليدها الميكانيكي في شكل اختراع الطائرة ، وتوافر الهواء فوق الأرض هو بالنسبة للطيور بمثابة البحر بالنسبة للأسماك والسفن ، وبقاء الهواء حول الأرض باستمرار بفعل الجاذبية الأرضية .. إلخ

لولا هذه التدابير البديعة المحكمة لما تمكنت الطيور من الطيران عبر الفضاء .. ولو أمعنا النظر في هذا الحادث ، لبدا لنا ، وكأننا نرى الله – سبحانه وتعالى – متصرفا في كونه ، ولأدركنا من خلال النظام الطبيعي العجيب وجود خالقه ومنظمه ، ولرأينا تجلى الصانع في مرآة مصنوعاته !!

وهذا هو الشأن نفسه .. فالبيت هو محل راحة وسكون للمرء .. ولكن السؤال هو : كيف يتكون البيت ؟!

إن هناك تدابير إلهية كثيرة هي التي تمكننا من إقامة بيت واحد على وجه الأرض

فكل تلك المواد التعميرية التي يحتاج إليها لبناء بيت ما ، تم توفيرها في عالمنا هذا سلفا.. وتوجد في الأرض قوة الجاذبية بنسبة متوازنة للغاية ، وبفضل هذه الجاذبية ذاتها لا تزال ببيوتنا قائمة مستقرة على سطح الأرض ، ولولاها لقذفت هذه الأرض – الدائرة بسرعة ألف ميل في الساعة – ما عليها من أبنية ومنازل بعيدا في الفضاء الخارجي !!

وكذلك ثمة أشياء يصنع منها المرء أجساما خفيفة ، وأشياء أخرى تصلح لتتحول إلى ملابس للإنسان يرتديها لأجل الزينة ، ويتقي بها حر الصيف وبرد الشتاء ، وما إلى ذلك .

وما الغرض من توفير مثل هذه الأشياء كلها إلا لكي تستيقظ في داخل الإنسان عاطفة الشكر لربه على نعمه،ويدفعه الإحساس بجلاله وقدرته إلى أن ينطرح بكل وجوده بين يديه تعالى خاضعا مستسلما!

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ .

ظِلالاً : أشياء تستظلون بها كالأشجار .

أَكْنَاناً : مواضع تسكنون فيها (الغيران) .

سَرَابِيلَ : ما يلبس من الثياب أو دروع .

تَقِيكُم بَأْسَكُمْ : الضرب والطعن في حروبكم .

إن ظلال السقوف والأشياء الأخرى ، ربما لا يتضح مدى أهميتها للمرء إلا إذا

وجد في صحراء قاحلة ليس بها ظل من أي نوع .. وإنه نتيجة لكون حرارة الشمس مقدرة تقديرا متناهيا في الدقة الرياضية ، نستطيع أن نستظل حتى بأي حاجز عادي، في حين لو أن حرارة الشمس كانت أشد من حرارتها الحالية – الأمر الذي كان ممكنا حدوثه بلا ريب – لتحولت بيوتنا ذات الظلال المريحة كلها إلى أفران ملتهبة .. ووجود ثقوب في صخور الجبال الصماء بحيث يتمكن المرء من اتخاذها حصونا ومعاقل يتحصن بها من هجمات أعدائه من البشر والحيوانات المفترسة ، وتوافر أشياء في هذه الدنيا يمكن تحويلها إلى خيوط دقيقة تزود المرء بلباس يحمي جسده من الحر والبرد ، إن أشياء كهذه ذات أهمية بالغة لمخلوق كبني آدم، لدرجة أنه لولاها لم يكن ثمة وجود لإنسان ،ولا وجدت أية حضارة إنسانية على هذا الكوكب الأرضي !

وهذه المعرفة تولد في نفس المرء شيئين في آن واحد : أحدهما : عاطفة الامتنان لله ، لأنه تعالى هو الذي وهب مثل هذه النعم الغالية ، والثاني : عاطفة الخوف والرهبة ، لأن الله لو استرد نعمه ، لم يعد أمام المرء بعدئذ من سبيل إلى تلافي ذلك .. وهذه المشاعر والأحاسيس حين تهز ضمير الإنسان وتوقظه بحيث يبادر إلى الخضوع والاستسلام ويطرح نفسه بين يدي ربه وذلك ما يسمى ((العبادة)) .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

إن الشخص يقوم بدراسة الكون وظواهره ، سواء كان رجلا عاديا أو متضلعا في العلوم الطبيعية ، تمر عليه لمحات ، إذ يتجه ذهنه تلقائيا نحو الخالق وهو يتأمل في عجائب المخلوقات، حيث إنه يشعر بأن هذه الأشياء المحيرة للعقل لم توجد هكذا مصادفة واتفاقا .. ولا هي من صنع الآلهة الفرضية الباطلة .. بل إن موجدها وصانعها هو الله العلي العظيم من غير شك !

غير أن الإيمان بالله يستلزم بالضرورة أن تتناول حياتك بالإصلاح والتغيير ، ويفرض عليك الابتعاد عن الطرق المؤدية إلى المعاصي والمفاسد ، ولهذا السبب فحين يمر المرء بهذه التجربة ، فلا يلبث أن يصرف ذهنه عن هذا الاتجاه ، بعدما اعتراه تأثر وقتي عابر ، وبالتالي فهو يتخلى عن الله رغم إدراكه لوجود الله !!

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ : لا يطلب منهم إرضاء ربهم .

يُنظَرُونَ : يمهلون ويؤخرون .

إن نهوض النبي – ﷺ – وأتباعه المخلصين الصادقين كدعاة إلى الحق بين الشعوب والأمم ، يبدو في ظاهره واقعة عادية ، فقد ظلت هذه الوقائع تقابل بقلة الاهتمام والاستهانة بشأنها لدرجة أننا لا نجد هناك أي نبي آخر ، عدا نبي آخر الزمان – ﷺ – من اعتبر عمله جديرا بالذكر والتسجيل في التواريخ المعاصرة له .

غير أن هذا العمل يصير بالغ الأهمية ومتناهيا في الخطورة إذا نحن نظرنا إليه من منظور الآخرة .. فإن هؤلاء الأنبياء ودعاة الحق ، هم الذين سيقفون في محكمة الآخرة كشهداء لله، وعلى أساس شهادتهم ذاتها ستتقرر مصائر الناس الأبدية ، فسيدخل في عداد أصحاب النار هناك ، في ذلك العالم الأبدي ، أولئك الذين يصرح الشهداء الإلهيون بأنهم كانوا قد أنكروا الحق ورفضوا الطاعة والإذعان له ، فسيقذف بهم في نار جهنم الأبدية .

ولو أن أمة نهض فيها دعاة الله الصادقون ، وهي تقابل دعوتهم بالرفض والإنكار ، فإنما يكون ذلك دليلا قاطعا على كونها أمة مجرمة ظالمة ، وبعدئذ تفقد تلك الأمة حقها في الاعتذار بأننا لم نكن على علم بأمر الآخرة ولا الجنة ولا النار ، ولذا ينبغي أن يتم إعفاؤنا من عذاب هذا اليوم العصيب أو بالأحرى يخفف عنا نوعا ما !!

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

السَّلَمَ : الاستسلام والانقياد لحكمه تعالى .

عندما تقوم الساعة ، تنكشف هذه الحقيقة في أوضح صورة وأظهرها للعيان وهي أنه ليس هناك من أحد في هذا الكون ، غير الله سبحانه وتعالى ، يتمتع بأي نوع من القوة والسلطان .. وإذا رأى المشركون حينئذ آلهتهم التي كانوا يعبدونها ، في الدنيا ، فسوف يلجؤون إلى أقاويل تثبت براءتهم ، وكأنما هم يقصدون بذلك أن هذه الآلهة الباطلة قد ظلت تخدعنا عن أنفسنا إذ عبدنا ما لا يستحق العبادة من دون الله .. غير أن تلك الآلهة سوف لا تلبث بدورها أن ترد ذلك إليهم قائلة : إنه لم يكن إلا طغيانكم أنفسكم ، حيث قمتم باختلاق آلهة ومعبودات باطلة تنصلا من طاعة الله والانقياد لحكمه ، وما زلتم تستغلون أسماءها لتبرير دينكم القائم على الأهواء والآراء المزعومة !

هناك شخص لا يتلقى دعوة الحق بالقبول .. وآخر يحاول – إلى جانب إنكاره الشخصي للحق – أن يصد الآخرين عنها كذلك بشتى الطرق والأساليب ، ولئن كان الموقف الأول هو الضلال ، فإن الموقف الأخير هو قيادة الضلال .. وسيلقى هؤلاء

الذين يتولون قياد مسيرة الضلال في الدنيا ، سيلقون ضعف العذاب الذي يلقاه الضالون في الآخرة .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ .

لقد جرت سنة الله تعالى بأن يندب للاضطلاع بمهمة الإنذار والتبشير بين أمة ما ، ((شخصا مختارا)) من أبناء الأمة نفسها .. وللسبب ذاته كان كل الأنبياء المبعوثين في الأمم الغابرة ، أفرادا منتمين إلى الأمم نفسها ، أما الآن فإن الأمة الإسلامية هي المسئولة – بعد ختم النبوة – عن أن تنهض بأعباء الدعوة وشهادة الحق نحو شعوب العالم أجمع إلى يوم القيامة .. والقائمون بدعوة أمم الأرض إلى الحق هؤلاء سيكونون شهداء الله على الأمم في الآخرة ، وعلى أساس شهادتهم ذاتها سيحكم هناك على كل فرد من أفراد الأمة بالثواب أو بالعذاب .

ونعت القرآن بأن فيه ((تبيانا)) لك شيء ليس معناه أن الكتب السماوية الأخرى لم تكن تتضمن بيانا لكل شيء ، فالحقيقة هي أن كل كتاب سماوي نزل من عند الله كان محتويا على بيان لكل شيءٍ .

بيد أن علاقة ((كل شيء هذا ليست بالعلوم والفنون الدنيوية ، بل هو يتصل بمعرفة أسباب النجاح والفشل الأخرويين ، فقد اشتمل القرآن الكريم – مبدئيا – على بيان لكل تلك الأشياء التي تضمن لأحد النجاح في الآخرة ، أو تؤدي إلى الفشل فيها.. والآن فإن الذين سيقتبسون منه الهداية ، فإنه يصير لهم نعمة عظيمة غالية ، وأما الذين لا يهتدون بهديه ، فسوف لا يسعهم إلا أن يقيموا الحجة على أنفسهم، برفضه

وإنكاره ، وأن يقدموا بذلك مبررا لما ينتظرهم من الهلاك والدمار العاجل أو الآجل !

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ .

يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ : بالاعتدال والتوسط في الأمور اعتقاداً وعملاً وخلقا .

وَالإِحْسَانِ : إتقان العمل . أو نفع الخلق .

الفَحْشَاءِ : الذنوب المفرطة في القبح .

وَالْبَغْيِ : التطاول والتجبر على الناس .

كيف ينبغي لعبد من عباد الله أن يعيش في هذه الدنيا ؟

لقد انطوت هذه الآية الكريمة – على وجازتها – على إجابة واضحة شافية عن هذا السؤال .. ونظرا لما لها من هذه الأهمية البالغة ، كان الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز قد ضم هذه الآية إلى خطبة الجمعة الأسبوعية .

وأول ما يجب على أحد الناس أن يهتم به هو ((العدل)) .. وهو يعني : أن يدفع كل شخص ما لغيره ما عليه من الحقوق بتمامه من غير بخس ولا نقصان ، سواء كان صاحب الحق ضعيفا أو قويا ، ورجلا محبوبا أو مكروها ،ففيما يتعلق بأداء الحقوق إلى ذويها ، إنما ينظر إلى الحق وحده ، وليس إلى أية اعتبارات أخرى .

والشيء الثاني هو ((الإحسان)) ... والمراد به : هو أن نتخذ من السماحة شعارنا في دفع حقوق الآخرين .. فنجمع الرأفة والإشفاق إلى جانب العدل والإنصاف ، ونذهب أبعد من إطار المقتضيات القانونية ، ونتبنى موقف الفضل والعطف والكرم ، وأن تسمو همتنا بحيث نرضى لأنفسنا بأقل مما نستحقه فعلا ، ونحاول أن نعطي لغيرنا

أكثر مما يستحقه هو .

والشيء الثالث هو ((إيتاء ذي القربى)) .. وهو يعني أنه كما يملأ فؤاد المرء شعوره بما يعانيه أهله وعياله من شدة الحاجة ، قلقا واضطرابا يدفعه إلى السعي وراء دفع غوائلها عنهم ، ينبغي عليه أن يكون حساسا نحو حاجة أقاربه الآخرين كذلك .. فلا يحسب كل ذي سعة ويسار أن ماله ليس إلا لنفسه هو ولأهل بيته وحدهم ، بل ليعتبر تأدية حقوق أقربائه وقضاء حاجاتهم أيضا واحدا من واجباته الأساسية المنوطة به .

وبعدها تتوجه الآية إلى النهي عن الأمور الثلاثة الآتية :

أولاً : الفحشاء والمقصود بها جملة الرذائل الخلقية الظاهرة أو المكشوفة .. أي تلك الرذائل التي يكون كل أحد على علم بشناعتها بوحي ضميره الداخلي ، والناس – عادة– ينظرون إليها نظرة تقزز واشمئزاز ؛ لأنها تنافي الشرف والحياء ، وتجلب الخزي والعار على فاعليها .

وثانياً : المنكر ، وهو ضد المعروف ،فالمعروف هو الخصال الحميدة التي تستحسن في كل المجتمعات البشرية ، وعلى النقيض من ذلك فالمقصود بالمنكر هو تلك الأمور السخيفة التي لا تتفق مع المعيار الأخلاقي العام ، وهو يشمل كل ما يراه البشر قبيحا وسيئا بوجه عام، وما تأبى القبول به الفطرة الإنسانية .

وثالثاً : البغي ، ومعناه التجاوز والاعتداء .. وهو يتضمن كل نوع من الطغيان يتخطى فيه المرء حدوده الواقعية ، فيتطاول على غيره ، ويتخذ إجراءات عدوانية تعسفية ضد أحد الناس بغية النيل من نفسه أو ماله أو عرضه، ويأخذ في استخدام ما يحظى به من قوة ونفوذ لاقتناص الفوائد غير المشروعة !

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ

جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ .

كَفِيلاً : شاهدا . رقيبا . ضامنا .

قُوَّةٍ : إبرام وأحكام .

أَنكَاثاً : أنقاضا محلولة الفتل .

دَخَلاً بَيْنَكُمْ : مفسدة وخيانة وخديعة بينكم .

أَن تَكُونَ أُمَّةٌ : بأن تكون جماعة .

هِيَ أَرْبَى : أكثر وأعز وأوفر مالاً .

يَبْلُوكُمُ الله بِهِ : يختبركم به هل تفون بعهدكم.

عملية الغزل هي عبارة عن الكدح لجمع ألياف متناثرة متفككة ، وربطها برباط وثيق يحولها إلى خيطان تصنع منها أشياء نافعة لنا كالثياب والأقمشة ونحوها . والآن فلو أن أحد الرجال أو النساء ظل يكدح طوال النهار يغزل ، ثم لا يلبث أن ينقض خيوطه المغزولة مع المساء أنقاضا ، فسوف تذهب جهوده سدى ودون جدوى .

وهذا هو شأن أولئك الذين يبرمون فيما بينهم عهدا ما ثم يتناوله فريق منهم بالنقض بلا مبرر أو سبب معقول، فكما أن تبديد الخيوط المغزولة عبثا ، إحباط لما بذلناه من جهود مضنية ، كذلك نقض معاهدة مبرمة ، هدم لذلك العمل كله من الأساس الذي كان قد تسبب في إيجاد فرصة للوحدة واللقاء بين فريقين متخاصمين

من الناس .

والمرء لا يعيش في العالم الراهن بمفرده ، بل مع كثيرين آخرين من البشر وكل أحد مضطر إلى أن يمارس عمله ونشاطه في هذه الحياة مع أناس آخرين عداه ، ولهذا السبب كان للاعتماد أو الثقة المتبادلة أهمية كبيرة جدا في الحياة الاجتماعية ، ولأجل إقامة هذه الحياة الاجتماعية على أساس متين تمس الحاجة إلى عقد عهود ومواثيق شتى بين شخص وآخر ، وهي تكون مصحوبة مؤكدة بالقسم تارة وخالية من القسم تارة أخرى . والآن لو أن الناس أخذوا يتلاعبون بحرمة هذه المعاهدات ، وذلك بنقضها بدون أية دواعٍ أو مبررات حقيقية لانتشر الفساد والفوضى في الحياة الاجتماعية ، وأصبح القيام بأي عمل من أعمال البناء والتعمير ضربا من المستحيل .

وللعهد المؤكد باليمين نوعان أحدهما : أن تعاهد أحدا غيرك مع النطق بكلمات القسم المعهودة ، وثانيهما : أن نص المعاهدة مع كونه خلوا من أمثال هذه الكلمات ، إلا أنه ينطوي على إشارة إلى الله أيضا من بعض الوجوه .. وكأنما يريد المتعاهدان بذلك جعل الله شاهدا أو كفيلا على أمرهما ، ومن ثم فإن نقض العهود المؤكدة باسم الله نصا وصراحة كان أشد سوءا وأكثر شناعة ، فإن معنى ذلك أن المرء قد استغل اسم الله عندما كان يتوخى كسب ثقة الآخرين به ، ولكنه عندما سيطرت عليه مطالب النفس أو المصالح أعرض عن الله ونسيه .

والمعاهدات التي يتم إبرامها بين الأفراد أو الشعوب تنقسم إلى قسمين : أما أحدهما فهو الذي يخضع للمبادئ.. وأما الآخر : فهو الذي يخضع للمصالح ، وقد ظل الوضع السائد منذ أقدم العصور وحتى يوم الناس هذه أن المعاهدات تدور نقضا وإبراما مع المصالح وحدها ، أي يبادر الناس إلى إبرام المعاهدة إذا رأوها أوفق لصالحهم ، ويسارعون إلى نقضها إذا ما بدا لهم النقض محققا لفائدة ما ، وعلى العكس من ذلك

فقد جاءت تعاليم الإسلام تؤكد على ضرورة إخضاع المعاهدات للمبادئ الشرعية والقيم الأخلاقية الثابتة ، دون المصالح الشخصية أو المنافع المادية المتغيرة .

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

الدنيا مليئة بخلافات شتى .. وفي غمرة هذه الخلافات لا يكاد الحق والباطل يتميزان بعضهما عن بعض إلا لمن هداه الله لذلك .. وإنما السبب في ذلك هو التدبير الإلهي الذي أنشأ الله العالم الراهن بمقتضاه، وذلك هو الامتحان .

فقد وضع الإنسان في العالم الراهن بغرض الاختبار .. ولم يكن هذا الغرض ليتحقق بدون أن يكون كل شخص متمتعا بحرية كاملة للرفض والقبول، وأن تتاح له الحرية أيضا لكي يثبت الحق باطلا ، ويلبس الباطل ثوب الحق ولو لم تكن هذه الحكمة لأخضع الله البشر جميعا لحكمه تماما كما جعل بقية الكون خاضعا لحكمه .

وهذا الوضع سيدوم كما هو إلى يوم القيامة .. وسيتضح في يوم القيامة بجلاء من الذي قام باستخدام عقله وفهمه على نحو صحيح ومن الذي قابل الحق بالإعراض واللامبالاة حرصا على مصالحه هو ، وحينئذ سيعامل الله تعالى كل إنسان بما كان قد أثبت نفسه أهلا له في مرحلة الاختبار والامتحان الراهنة .

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ .

فَتَزِلَّ قَدَمٌ : فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام .

إن عقد المعاهدة مع الإقسام بالله ، هو الصورة النهائية للعهد المؤكد الغليظ ، وعلى هذا الاعتبار تندرج تحت هذه الآية كل العهود والمواثيق على اختلاف أنواعها .

فلئن أبرم المسلمون مع غيرهم معاهدات ، ثم نكثوها لأجل بعض المصالح العاجلة، فإن ذلك سيقضى حتما على اعتبار المسلمين الأخلاقي في المجتمع وبالتالي سيعود عملهم ذاك سببا في صد الناس عن سبيل الله ، وتشويه صورة المؤمنين بدين الحق في أعينهم ، وفي هذا الصدد قال ابن كثير ((.. لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده،ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين ، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام))[1].

وإنما يلجأ المرء دوما إلى نكث العهد على نحو غير شرعي ، لما قد يخيل إليه أنه لو نقض العهد ، فسوف يمكنه الحصول على كذا من المنافع الدنيوية ، إلا أن نظرة المؤمن تكون متطلعة دوما نحو الآخرة ، فكلما حدثت إليه نفسه الغدر بإنسان ، كبح جماح نفسه قائلا لها : لئن كان نقض العهد ينطوي على منفعة الدنيا ، فإن عدم نقضه يتضمن منفعة الآخرة ، وأن المنفعة الأخيرة لهي – من غير شك – أكبر وأعظم من المنفعة الأولى بكثير .

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ .

يَنفَدُ : ينقضي ويفنى ويزول .

الوقوف إلى جانب الداعي إلى الله هو أن تربط نفسك بدين الله الحق ، حتى لو كان غير مألوف ولا سائد ، مع التخلي عن نظام ديني تقليدي يتمتع بالسيادة والسلطان . واتخاذ خطوة كهذه أشق وأصعب ما يكون على المرء دائما .. فإن ذلك يتطلب التغاضي

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤٥.

عن الفائدة القريبة الحاصلة من جانب البشر ، والتقدم نحو الفائدة البعيدة المرجوة من عند الله – سبحانه وتعالى .

والشيء الوحيد المطلوب لتبني قراراً من هذا النوع هو : « الصبر » .. أي أن يكون المرء قادرا على التحمل لخسارة اليوم لأجل منفعة الغد ، وأن يتوفر لديه هذا الاستعداد الذي يؤهله لإيثار ما لا يرى على ما يرى ، فيعطي الأول (غير المنظور) في حياته أهمية أكبر من الأخير « المنظور » وأن تسمو همته وترتفع معنويته بحيث يختار شيئا ما مقابل التضحية ، ليس طمعا فيما عساه يدر عليه من ربح وقتي عاجل .. وعباد الله الذين يقيمون الدليل على هذه العزيمة الفذة ، جديرون حقا بأن يتفضل عليهم بإنعاماته العليا .

والأفراد الذين يتكبدون ألوان الخسائر في ظل النظام السائد ، بسبب وقوفهم إلى جانب الحق الخالص ، ربما ينظر الناس إليهم على أنهم قد ضاعوا ضياعا محققا ، ولكن الله قد وعدهم – وهو تعالى لا يخلف وعده -بأنه سيعطيهم الأجر الوافي على ما قدموا في سبيله من تضحيات ، وأنه سيمنحهم حياة طيبة جدا في العالم الأبدي بعد الموت ، والأشياء التي فقدها هؤلاء في الحياة الدنيا بصفة وقتية ، سيردها إليهم هناك في أفضل صورها وأكملها وبصفة أبدية .

وإن وعد الله هذا يشمل النساء تماما كما هو يشمل الرجال ، إذ لا فرق ولا تمييز عند الله – سبحانه وتعالى – بين الرجل والمرأة فيما يتعلق بجزاء الأعمال .

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ .

فَاسْتَعِذْ بِاللهِ : فاعتصم به – تعالى – والجأ إليه .

سُلْطَانٌ : تسلط وولاية .

يَتَوَلَّوْنَهُ : يتخذونه وليا مطاعا .

يقرأ القرآن لغرضين رئيسين : أولاً : تقرأه للتذكر والاعتبار الذاتي ، وثانياً : أن تتلو آياته على الآخرين لاستمالة نفوسهم إلى دعوة الحق .. ، وسواء تلونا كلمات القرآن الكريم كما هي ، أم قمنا بشرح معانيها وتوضيح ما تنطوي عليه آياته من أحكام وتشريعات ، لابد للقارئ في كلا الحالتين ، أن يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. و« التعوذ » لا يعنى بتكرار ألفاظ محددة ، بل معناه أن نسلح أنفسنا شعوريا بحيث تعود هجمات الشيطان غير مؤثرة علينا .

الشيطان دوما يقف للمرء بالمرصاد ، وهو لا يلبث أن يغير مفاهيم ألفاظ القرآن في ذهن القارئ ، ويغريه بأن يضم ما ليس في النص إلى التفسير .. وهكذا فقد يثير الشيطان بين الداعي والمدعو ضروبا من الفتن والصراعات تحول دون استمرار عملية الدعوة .

على أن الله – سبحانه وتعالى – إنما أتاح للشيطان حرية الوسوسة والإغراء ، ولم يمنحه القدرة على أن يوقع أحداً إلى طريق الضلال قسرا ، فلا تنطلي حيله على أولئك الذين لا يزالون مرتبطين بالله بقلوبهم وعقولهم ، أما الغافلون عن الله والذين يصغون للشيطان وإغراءاته ، فإن الشيطان يسيطر عليهم ، ويركب رؤوسهم ، وبالتالي يسوقهم إلى أي اتجاه شاء .

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ .

رُوحُ القُدُسِ : الروح المطهرة جبريل عليه السلام.

إن القرآن كتاب دعوي .. نزل منجما على مدى ٢٣ عاما ، كما أن بعض أحكامه شرعت على التدريج ، تبعا لمصالح الدعوة والتربية ((وعلى سبيل المثال : أُمر المسلمون بالصبر على أذى المعارضين ، ثم أمروا فيما بعد بأن يقاتلوهم)) .

وبالنظر إلى ((تغييرات)) من هذا القبيل كان المعارضون يقولون : إن القرآن ليس كتابا منزلا من عند الله ، إنما هو من تأليف محمد نفسه ، والذي نسبه – كذبا وافتراء – إلى الله إذ لو أنه كان من عند الله ، لم يكن لتطرأ عليه تغييرات كهذه أبدا .

ولو أن هؤلاء المعارضين كانوا جادين بشأن القرآن ، ونظروا إلى واقع التغيير من زاوية صحيحة ، لتجلت لهم فيه حكمة التدرج في تنزيل الأحكام القرآنية ، لكن الشيء الذي كان منطويا على دواعي التصديق لهم ، اتخذوا منه ذريعة للتكذيب والافتراء !!

لقد نزل القرآن بالحق –المقصود بـ ((الحق)) هنا هو دين الله النقي الخالص – والذين يبحثون عن الصدق ، ولا يجدون في الأديان المحرفة ما يقنع عقولهم ، ويطمئن ضمائرهم ، يمثل الدين الإسلامى ، بالنسبة لأمثال هؤلاء الباحثين الحيارى جوابا شافيا على بحثهم وطلبهم ، وفي الوقت نفسه يزودهم أيضا بقناعة عقلية وسكينة قلبية وطمأنينة ضمير.

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ .

يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ : يميلون ويلبسون إليه أنه يعلمه .

كان هناك عدد من العبيد الأعاجم بمكة ، كانت أسماؤهم ، بحسب ما ورد في كتب التفاسير؛ جبر ويسار وعايش ، ويعيش .. إلخ ، وقد ذكر في هذا الخصوص اسم سلمان الفارسي هو الآخر ، الذي اعتنق الإسلام فيما بعد، وقد كان هؤلاء العبيد إما يهودا أو نصارى ، ومن ثم فقد كانت لديهم معلومات عن الديانتين السماويتين القديمتين : اليهودية والنصرانية .. وربما كان بعضهم يلتقي برسول الله – ﷺ – بين حين وآخر ، فما لبث زعماء قريش أن اتخذوا من هذه اللقاءات العابرة أساسا للقول بأن هؤلاء الأعاجم يخبرون محمداً ﷺ ببعض الأخبار،فإذا به يقدمها بدوره إلى الناس زاعما لهم أنها كلام إلهي!

الذي جعل زعماء المشركين هؤلاء يتداولون مثل هذا اللغو السخيف المثير للضحك؟! إنما يرجع السبب في ذلك إلى تلك الرذيلة العامة التي - كانت وما تزال - فاشية بين الناس على اختلاف الأعصار والأمصار، ألا وهي: عدم معرفة قدر الشخص المعاصر لنا .. قد كان رسول الله – ﷺ – شخصية معاصرة لقريش ، ولذا فقد أخفقوا في تقديره حق قدره .

ويتضح من هذه الآيات أن المصابين بعقدة المعاصرة –إن صح التعبير – أبدا لا يوفقون إلى قبول الحق ، وإنما ديدنهم أن يلفقوا أقاويل كاذبة ضد حملة لواء الحق بدلا من الاعتراف بالحق ، فهم لا يلقون بالا للحقائق الكبرى على غاية وضوحها ، بينما لا تفتأ تتداول ألسنتهم الأباطيل والترهات السخيفة بهدف تشويه سمعة الداعي،وهم يظلون مشغولين في ذلك،إلى أن يفاجئهم الموت ، فيتعرضون لبطش الله وعذابه !

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

اسْتَحَبُّوا : اختاروا وآثروا .

طَبَعَ : ختم .

لاَ جَرَمَ : حق وثبت أو لا محالة أو حقا .

إنما تكون العبرة عند الله تعالى بالحقيقة (الباطنة) ، وليس بالظاهر .. وللسبب ذاته اتسمت نظرة الإسلام إلى الإنسان بمنتهى اليسر والسماحة ، حيث قدم له كثيرا من الرخص.. ومن أمثلة ذلك أن الله – سبحانه وتعالى – لا يؤاخذ شخصا ينطق مكرها بكلمة الكفر ، بصفة وقتية ؛ حفاظا على حياته ، وهو وفي مخلص لله من صميم قلبه .. اللهم إلا الذين تغيروا من الداخل تغيرا جذريا ، وبالتالي ساروا في أي اتجاه آخر ، متأثرين بالشبهات الشيطانية أو بضغوط الأحوال الخارجية عن طيب خاطر وانشراح صدر فإنهم غير جديرين البتة بالعفو ولا بالمغفرة عند الله عز وجل .

وحين يختار المرء طريق الكفر بدلا من طريق الإيمان يرجع السبب في ذلك دوما إلى حب الدنيا والعبودية لزخارفها .. فهو إذ يرى بعض مصالحه الدنيوية يتهددها الخطر ، فلا يلبث أن يسير في الاتجاه المضاد للإيمان ، ولو أنه كان مدركا لقيمة الآخرة عارفا بقدرها ، لبدت له مصالح الدنيا لدى أحد الناس وهي الأهم والأعظم قدرا من الآخرة فتكون نتيجة ذلك – وبطبيعة الحال – أنه لا يكاد يستطيع النظر في الأمور من منظور الآخرة فهو مع كونه يرى ويسمع ، إلا أن ميله إلى الدنيا يحول دون رؤيته لجانب الأشياء الأخروية ، وإنما هو يقدر على رؤية الجانب وحده الذي له صلة بمصالح الدنيا

العاجلة ، والذين ينحدرون إلى هذا الدرك الأسفل من الغفلة ، لن يقع في نصيبهم سوى الخيبة والخسران الأبدي !

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ .

لِلَّذِينَ هَاجَرُوا : لهم بالولاية والنصر لا عليهم .

فُتِنُوا : ابتلوا وعذبوا لإسلامهم .

لئن كانت البيئة يسودها الباطل ، وتقدم آنئذ شخص ما بقبول الحق ،فإنه يتعرض عندها لمحنة قاسية جداً ، حيث تتوالى عليه الضغوط من كل أنحاء البيئة ، تضطره إلى أن يعود القهقري فيتشبث ثانية بالدين التقليدي الذي يحظى بالسيادة والنفوذ ، ولو أنه بقى ثابتا على جادة الحق ، بالرغم من الضغوط والإغراءات الخارجية ، وبالتالي رضي بالتخلي عن كل شيء ، حتى المال والعقار والأهل والوطن ، ولم يتخل عن الحق ، فقد انخرط في سلك المهاجرين والمجاهدين في سبيل الله ، وهو بذلك يصير عند الله أهلا لثواب عظيم .. وليس ثمة شيء يثبت الأقدام على جادة الحق ، ويحفز النفوس على التمسك به في معترك هذه الحياة سرعان ما سيصادفه ، وإنه سيكون يوما عصيبا قاسيا لدرجة أن المرء سيذهل حتى عن أصدقائه وأقرب أقربائه ، إذ لا أحد يستطيع هناك أن يتصدى للدفاع عن أحد سواه ، ولا أحد تبلغ به الجرأة إلى حد أن ينهض محاميا أو شافعا لأحد غيره ، وإنه لن يسع المرء في حالة ما إذا سيطر عليه الإحساس بمدى خطورة هذا اليوم القادم ، لن يسعه إلا أن يتحمل كل ألوان الخطوب والخسائر ، مهما كان حجمها ، عن رضا وسرور ، دون أن يتخلى عن الحق أبدا !

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ .

رَغَداً : طيبا واسعا أو هنيئا لا عناء فيه .

لئن كان أحد المجتمعات البشرية يسود أرجاءه الأمن والاستقرار ، ويتمتع أهله بالرخاء وسعة الرزق ورغد العيش ، ثم بعث الله فيه عبدا من عباده ، داعيا إلى الحق ، فإن المجتمع يقف دوما أحد موقفين لا ثالث لهما : فإما أن يبادر هذا المجتمع إلى قبول الحق فيصير أهلا للمزيد من الإنعامات الإلهية وإما أن يرفض الحق رفضا باتا ، مما يجعله يتعرض لضروب شتى من الكوارث والنكبات ، وهذه الكوارث لا تكون في حقه عذابا إلهيا ، بل تكون بالأحرى نذرا أو تحذيرات إلهية ، تهدف إلى تنبيه الناس من الغفلة وإيقاظ حساسيتهم من حالة الركود ، وبالتالي تجعلهم مستعدين لتلبية نداء الداعي إلى الله .

ولو أن التحذيرات من هذا النوع لم تعد تجدي نفعا ، وذهبت أدراج الرياح ، في أعقاب اكتمال الدعوة والبلاغ ، يفاجأ القوم بحلول المرحلة الأخيرة الحاسمة ، وهي أن يتم إهلاكهم جميعا ، ليصلوا إلى عالم الآخرة حيث ينتظرهم مصيرهم الأبدي المشؤوم .

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ .

وَالدَّمَ : المسفوح وهو السائل .

وَلَحْمَ الخِنزِيرِ : أي الخنزير بجميع أجزائه .

أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ : ذكر الضروة إلى التناول منه .

اضْطُرَّ : دعته الضرورة إلى التناول منه .

غَيْرَ بَاغٍ : غير طالب للمحرم للذة أو استئثار .

وَلاَ عَادٍ : ولا متجاوز ما يسد الرمق .

تتحدث هذه الآية عن المأكولات اليومية .. فالأشياء التي خلقها الله صالحة للأكل والتغذي، هي كلها حلال للإنسان ، باستثناء عدد معين منها ، غير أن الإنسان المشرك القديم لم يلبث أن حرم على نفسه من تلقاء نفسه الكثير من الأغذية التي أحلها الله ، بينما سلك الإنسان الملحد الجديد في اتجاه مضاد لذلك تماما ، حيث أحل لنفسه الكثير من الأغذية التي حرمها الله تعالى .. وكلا هذين الاتجاهين خانق لتلك الروح المطلوب إيجادها في ضمير الإنسان عبر النعم الغذائية المتاحة له .

إن الغذاء هو أشد حاجات الإنسان أهمية على الإطلاق ، فكل واحد منا يجرب ذلك صباح مساء ، ومطلوب الله بهذا الخصوص هو أن المرء إذ يقبل على تناول الغذاء ، فليأكله معتبرا إياه من الله ، فليشكر الله على منه وفضله ، ولكن الإنسان لم يلبث أن قلب الأمر كله رأسا على عقب .. فلئن كان هو قد نسب هذه الأغذية ، خلال العصر المشرك أو الوثني القديم إلى الآلهة المزعومة ، وهكذا جعل منها وسيلة لذكر الآلهة بدلا من ذكر الله الواحد ، فقد وصل الأمر بالإنسان في هذا العصر الإلحادي الحديث ،إلى أنه أخضع الأمر كله لمتعة نفسه وشهوتها ، فاستحل لنفسها كل شيء ، حتى الأغذية المحرمة من عند الله ، وكانت النتيجة أن تحولت الأشياء التي خلقها الله مائدة لإمتاع

نفسه وقضاء لذته وإشباع رغبته بصرف النظر عما إذا كانت هي حلالا طيبا أو حراما خبيثا !!

ولو أن شخصا ما همَّ بمخالفة تشريع الله الغذائي ، في حالة الاضطرار ، وذلك بأن يأكل من الحرام إبقاء على حياته ، فإنما هو يفعل ذلك مدفوعا بمشاعر الندم دون البغي والعدوان ، ومن ثم فلا يترتب على ذلك أي فساد في النفسية الإنسانية .

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

إن هذه الآية لا تتعلق بالتشريع العام أو سن القوانين العامة ، بل بالحكم على الأغذية والمأكولات بالتحريم والتحليل .. فقد ظل الإنسان دوما يعد بعض الأشياء الغذائية حراما وبعضها الآخر حلالا ، وذلك إما تمشيا مع الأوهام والخرافات أو انقيادا للأهواء والشهوات.. إلا أن القائلين بذلك لا يلبثون أن ينسبوه إلى الدين .

ومن الأضرار الناجمة عن هذا النوع المذكور من التحريم والتحليل أنه يولد في نفوس الناس ميلا إلى عبادة الأوهام والشهوات ، بينما الموقف الصحيح للمرء هو أن يعيش في الدنيا عابدا لله تعالى وحده .. والإنسان متمتع بحرية التصرف في الحياة الراهنة بسبب الامتحان ، فسوف يفاجأ الإنسان بإدراك أن لم يكن له هناك سوى طريق واحد ممكن ، ألا وهو تبني عبادة الله وعبوديته دينا لنفسه .. وأما ما عدا ذلك من الأشياء التي اختارها في حياته ، فلم يكن إلا سوء استعمال للحرية المتاحة له امتحانا ، وليس بأي حق مشروع له ، وحينئذ سيواجه المرء حتما العاقبة الوخيمة التي قدرت للفاشلين في الامتحان !

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ .

تنص أسفار اليهود على تحريم بعض الأشياء لم تحرمها شريعة الإسلام ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (النساء : ١٦٠) وليس السبب في ذلك أن الله – سبحانه وتعالى – قد شرع بنفسه نوعين من الأحكام مختلفين .. إذ الواقع أن اليهود قد حرم عليهم بدورهم تلك الأغذية التي ورد ذكرها هنا – أي في الآية ١١٥ من هذه السورة – غير أن اليهود لم يلبثوا فيما بعد أن حرموا على أنفسهم – تبعا لتصوراتهم المزعومة – أشياء كانت قد أحلت لهم ، وإنهم لم يرضوا بالتخلي عن دينهم المزعوم هذا ، بالرغم من نصح الأنبياء وتحذيرهم المتكرر . وفوق ذلك فإنهم حرموا – أولا – ما أباح الله لهم ، وهكذا ورطوا أنفسهم في حرج ومشقة لا داعي لها ، ثم إذا عجزوا عن تجنب هذا الحرام ، استحلوه لأنفسهم – عمليا – مع اعتبارهم إياه حراما على مستوى العقيدة .. وهكذا فقد ازدادوا جرما على جرم .

ولو أن المرء حرم على نفسه شيئا مباحا بموجب أية نظرية مزعومة ، وراح يتحمل من أجله ألوان المشقات أو يقدم ضروب التضحيات ، فإنما سيكون ذلك من باب ظلمه لنفسه هو ، وليس من باب التضحية في سبيل الله .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾ .

بِجَهَالَةٍ : بتعدي الطور وركوب الرأس .

إن فعل السوء ، حين تصاحبه مشاعر الطغيان والتعصب ، فأبدا لا يرضى فاعله

بالانصراف عنه ، مهما أتيت بأوضح الأدلة وأقواها على بطلان عمله ، على أن هناك نوعا آخر من السوء ينشأ عن محض الجهل أو السفه ، فالمرء ربما يرتكب خطأ ما على حين غفلة أو لكونه أخفق في مقاومة نوازع الشر في نفسه .. ومثل هذا الشخص يخلو في الغالب من العناد والتعنت ، ومن ثم فحين يتضح له خطؤه يعود من فوره إلى الصواب ، ويستمسك بالموقف الصحيح من جديد .

أما الصنف الأول من الناس فمن البديهي الذي لا يقبل أخذا ولا ردا أنهم غير جديرين بالعفو أو المغفرة ، وأما الصنف الأخير من الناس فله البشارة بأن الله سيتغمده برحماته ، لأنه تعالى غفور رحيم بهم !

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ .

كان أُمَّةً : معلما للخير ، أو مؤمنا وحده .

قَانِتاً لله : مطيعا خاضعا له تعالى .

حَنِيفاً : مائلا عن الباطل إلى الدين الحق .

اجْتَبَاهُ : اصطفاه واختاره للنبوة .

مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ : شريعته وهي التوحيد .

لقد قام سيدنا إبراهيم – عليه السلام- في القرآن الكريم كأنموذج للإنسان المطلوب عند الله سبحانه وتعالى.. ولماذا صار – عليه السلام- الإنسان ((الأنموذج))

ذلك لأنه كان هو الإنسان الوحيد في قومه الذي تمسك بالإيمان على رغم فساد البيئة كلها من حوله ، والذي قد نهض بمفرده لأجل الله ، حيث لم يكن أحد يناصره أو يرافقه في هذا الطريق الشائك الطويل.

وقد كان سيدنا إبراهيم – عليه السلام- سخر وجوده كله لطاعة الله والقيام بأوامره، جعل من التوحيد محور اهتمامه ومركز توجهاته في عالم يسوده الشرك من أقصاه إلى أقصاه ، وكان ينظر إلى كل شيء يتاح له على أنه هبة من عند الله ، وبالتالي كان قلبه لا يزال يفيض شكرا وامتنانا لربه على ما أسدى إليه من نعم !!

ونظرا لبلوغ إيمان إبراهيم – عليه السلام- هذه الدرجة العليا من الكمال ، فتح الله عليه طرق هدايته ، واختاره للنبوة ، ليقوم بإعلام البشر بدين الله .

ولقد أعطى سيدنا إبراهيم – عليه السلام- حسنة الدنيا والآخرة معا ، ومن المعلوم أن سيدنا إبراهيم لم يحظ في حياته بحشود الجماهير المؤيدة له ، ولا بسرير الملك ولا فاز بأي شيء آخر من المباهج الدنيوية ، ولكن القرآن – مع ذلك – يشهد مؤكدا بأنه – عليه السلام- كان قد منح من عند الله حسنة الدنيا وخيرها .

ومن هذا نعلم أنه ليست الحسنة في الدنيا عند الله علما على القبول الشعبي العام ، أو الثروة والحكومة ، بل الحسنة في الدنيا عند الله تتمثل أصلا في تلك الصفات التي ذكرت هنا كخصائص مميزة لسيدنا إبراهيم – عليه السلام .

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ .

جُعِلَ السَّبْتُ : فرض تعظيمه والتخلي فيه للعبادة .

لقد ظل هناك يوم من أيام الأسبوع ، في كل الشرائع والملل ، مخصصا للعبادة

الجماعية ، فاليهود يحتفلون بذلك في يوم السبت ، والنصارى في يوم الأحد ، أما المسلمون فقد فرض عليهم القيام بالعبادة جماعيا في يوم الجمعة .

لقد وضع أحبار اليهود ، المولعون بالتعمق والتنفير ، وضعوا من تلقاء أنفسهم ضوابط والتزامات جديدة للسبت ، وكبلوا أنفسهم بقيود مصطنعة ، ولما بدا لأتباعهم أن العمل بتلك كالقيود ضرب من المستحيل ، أخذوا يسيرون – عمليا – في الاتجاه المعاكس لها ، وإن كانوا لا يستطيعون رفضها لقداسة أحبارهم وشيوخهم الماضين .

وإن ما أثاره العلماء والشيوخ المتأخرون من خلافات حول دين الله بشروحهم وتفسيراتهم المبنية على الآراء الذاتية ، لن ينحسم أمره في هذه الدنيا ، ولكن حين تقوم الساعة ، فسوف يكشف الله القناع عن الدين السماوي الأصيل الذي كان قد أنزله لعباده ، وما هي تلك الأشياء الدخيلة أو العناصر الإضافية التي ضمها الناس من جانبهم إلى الدين الإلهي .

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ .

إن عمل الدعوة عمل ينبثق عن غاية الجدية والنصح والإخلاص .. إن إحساس المرء بحتمية مثوله يوما بين يدي ربه للحساب ، يرغمه على أن يقوم داعيا بين عباد الله فهو إذ ينادي الآخرين ، فإنما يناديهم لكونه يحسب : لو أنني لم أفعل ذلك ، فسأتعرض للمؤاخذة في يوم القيامة ، والنتيجة الطبيعية التي تترتب على هذه النفسية أن المرء يتبنى لعمل الدعوة ذلك بالأسلوب الذي يتسم بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن ، والمقصود بالحكمة الدليل والبرهان ، وأي عمل دعوي لا يكون عملاً دعوياً حقا ما لم تصاحبه أدله تراعي ذهن المخاطب وعقليته مراعاة تامة ، والكلام الذي تتوفر فيه الشروط التي يراها المخاطب ضرورية لكون شيء ما عنده شيئا ثابتا

مبرهنا عليه ، هو الكلام الذي أطلق عليه هنا وصف ((الحكمة)) ، والكلام الذي لا يأخذ في اعتباره مستوى المخاطب العقلي والفكري هو كلام غير حكيم ، وإن كلاما كهذا لن يرقى بأحد الناس إلى مرتبة الدعاة .

وأما الموعظة الحسنة فهي اسم لتلك الخصوصية التي تسرى في كلام الشخص يخفق فؤاده بمشاعر النصح والشفقة ، فالداعي الذي تزلزلت شخصيته واهتز كيانه نتيجة استشعاره بجلال الله وعظمته ، حين يتكلم عن الله ، فمن الطبيعي أن يكون كلامه بحيث تلمع فيه ومضات العظمة الإلهية ، والداعي الذي يهب لإراءة الآخرين الجنة والنار ، وقد شهدهما بعين يقينه ، فليس من الشك في أن يجيء كلامه ناضحا بعبير الجنة ناطقا بأهوال جهنم . إن امتزاج هذه الأشياء بكلام الداعي من شأنه أن يجعله بليغا مؤثرا يذيب القلوب ويسيل العيون دموعا .

وهاتان هما الصفتان الإيجابيتان للكلام الدعوي .. أي الحكمة والموعظة الحسنة . على أن الدنيا لا تخلو أبدا من أناس ديدنهم إثارة مناقشات فارغة دون جدوى ، إذ يكون غرضهم من وراء ذلك الإحراج أو الإفحام وليس الاقتناع والإقناع ..، والمنهج الذي ينهجه الداعي ، من الطراز المذكور أعلاه ، بالنسبة لأناس كهؤلاء ، هو ما يسمى الجدال بالتي هي أحسن ، حتى أنه يرد على القول المعوج بالقول السديد ، وهو يستخدم دائما ألفاظا مفعمة بالرقة واللين ، مهما خوطب هو بألفاظ قاسية غليظة ، وهو يتعمد على الاستدلال الاستفزاز والإثارة .

ونظرة داعية الحق لا تكون متجهة نحو الإنسان الحاضر أمامه ، بل نحو الله العظيم الذي فوق الجميع ، ولذا فهو لا ينبس بشيء إلا ما يعد حقيقيا في ميزان الله .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ

﴿ ۝١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨ ﴾ .

تتحدث هذه الآيات عما ينبغي أن يكون عليه سلوك الداعي تجاه المعارضين .. فنقول : لئن أصابك – أيها الداعي – من قبل بعض معارضيك مكروه أو أذى يفوق مقدرتك على التحمل ، فإنما أنت مسموح لك بأن تعامله بالمثل دون زيادة .. على أن هذه الإجازة ليست إلا بمثابة ((تنازل)) ((أو إعفاء)) نظرا لضعف الإنسان ، وإلا فسلوك الداعية هو أن يصبر على كل أذى يلحقه من جانب المدعو ، وأن يفوض كل المعاملات من هذا النوع إلى الله تعالى بدلا من تصفية الحساب مع المدعو .

ولو أن المخاطب لن يؤمن بالحق ، وبالعكس تصدى لمحوه ، ومحاولة الإجهاز عليه فإن أكبر تدبير يتعين على الداعي أن يلجأ إليه وقتئذ هو الصبر.. يعني الدأب على إبلاغ رسالة الحق بأسلوب إيجابي مع اجتناب نفسيات رد الفعل أو القيام بالعمليات المعاكسة السلبية .. فالمطلوب من الداعي أن يقيم الدليل على أنه يخشى الله حق خشيته ، وأنه تولد فيه ذلك السلوك الذي إنما يتولد حين يوفق المرء إلى اختراق حجب الدنيا الظاهرية ، فيرى الله بكل جبروته وعظمته المستترة وراء الغيب .. ولو أن الداعي أقام الدليل على ذلك ، لكفاه الله بعدئذ الأمور الباقية كلها ، وبالتالي لن يضر الداعي كيد المعارضين لدعوته شيئا ، مهما كان كيدهم عظيما ومحكما .

الناس في الدنيا صنفان : أحدهما هو الذي تعلق بصره بالبشر ،فهو لا يرى إلا إجراءات البشر فحسب.. أما الآخر فهو الذي تعلق بصره بالله ، والذي ينظر بعيونه إلى طاقات الله اللانهائية ، وإن الصنف الأول ليس بالذي يقدر على الصبر أبدا .. وإنما هم رجال من الصنف الثاني يمكنهم وحدهم أن يتحملوا كل أنواع الإساءات والشكاوى وسوء المعاملة ..وأن يضربوا صفحا عما ينالهم من جانب البشر لأجل ما سينالهم من عند الله وكما يجب على الداعي أن يكون على حذر من نفسية رد الفعل ، يتحتم عليه

كذلك أن يجنب نفسه اتخاذ الإجراءات المعاكسة فعلا ، وربما تسبب مؤامرات المعارضين ومكائدهم في إشاعة الخوف ظاهرا من أنها توشك أن تقتلع جذور الداعي ودعوته ، غير أن الداعي لابد له من أن يضع ثقته في الله على كلا حال من الأحوال ، وله أن يتأكد من أن الله يراقب كل شيء ، وأنه تعالى سينصر دعوة الحق بلا ريب ويحبط أعمال المبطلين .

سورة الإسراء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ .

سُبْحَانَ الَّذِي : تنزيها لله وتعجبا من قدرته .

لِنُرِيَهُ : لنرفعه إلى السماء فنريه .

أَسْرَى بِعَبْدِهِ : جعل البراق يسري به .

لقد كانت ظروف مكة،قبل الهجرة بعام واحد،قد بلغت من القسوة حداً يبدو معه أن تاريخ الإسلام سينتهي قبل أن يتكون أو يكتمل .. وقد أرى الله - سبحانه وتعالى - رسول الإسلام في تلك الآونة ذاتها ، آية من آياته الكبرى .. وهذه الآية كانت إظهاراً حسياً لحقيقة أن تاريخ الإسلام سوف لا يبلغ تمامه فحسب، بل سيتم إحاطته بأحوال عملية تضمن بقاءه حياً ومحفوظاً بصفة أبدية . فإنه إنما جاء ليكون وحده مصدراً موثوقاً به لدين الله الذي وجد لشعوب العالم أجمع إلى يوم القيامة، وقد أسرى الله برسول الإسلام، تحت عنايته الخاصة ، من مكة إلى فلسطين (بيت المقدس) ، وكانت هذه الرحلة – بغض النظر عما إذا كانت بالجسد أو بالروح أو بهما معا – المحطة الأولى في طريقه لرحلة المعراج التي أعقبتها .. حيث كان الله قد جمع هنا أيضاً كل الأنبياء السابقين في رحاب بيت المقدس ، فصلى رسول الإسلام بإخوانه الأنبياء إماماً ، وكأن هذه الإمامة كانت رمزاً لهذا القضاء الإلهي بأن النبوات الأولى قد نسخت كلها من الآن فصاعداً كمصدر موثوق به للهداية الإلهية،وإنما ينبغي على كل

من يتوخى معرفة الهداية الإلهية من الأفراد والشعوب، أن يرجع الآن إلى الدين الذي جاء به رسول الإسلام ﷺ وقد كانت فلسطين أنسب مكان للاحتفال بهذه المناسبة القدسية ، لكونها ظلت مركز دعوة لمعظم الأنبياء الأولين ، ومن ثم فقد وقع اختيار الله –عز وجل– على هذه المنطقة المباركة ليعلن فيها عن قضائه هذا .

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ .

وَكِيلاً : ربا تكلون إليه أموركم .

ذُرِّيَّةَ : أخص ذرية أو يا ذرية .

إن واقعة الإسراء المذكورة كانت تعني إقصاء ذرية إسرائيل ((اليهود)) حملة الكتاب، وجعل ذرية إسماعيل مكانهم حملة الكتاب الإلهي . وقد تمت هذه الواقعة تبعا لسنة إلهية ، فالله – سبحانه وتعالى – يختار طائفة معينة أو شعبا بعينه للاضطلاع بمهمة إعلان الحق ، وذلك أكبر تكريم وإعزاز يمكن أن يحظى به إنسان في الدنيا .

على أن هذا الاختيار لا يتم على أساس النسل أو الشعب،بل إنما تستحقه طائفة ما إذا هي أقامت الدليل على الكفاءة اللازمة لذلك،وبانعدام الكفاءة سينعدم الاستحقاق كذلك ..وقد حدث ذلك مع كل من أمة آدم،إلى أمة نوح،إلى أمة موسى،إلى أمة عيسى المسيح،وتلك هي سنة الله الثابتة في خلقه،لا تتخلف ولا تتبدل،تنطبق على الآخرين تماما كما انطبقت على الأولين بدون أي استثناء .

والكفاءة المطلوبة لهذا المنصب هي ألا نتخذ أحداً من دون الله وكيلا ، أي أن نضع ثقتنا كلها في ذات الله الواحد ، ونكل إليه وحده جميع أمورنا وقضايانا .

والمرء المسلم الحق حين يعرف الله تعالى بكل قدرته وعظمته ويتخذه وكيله ، فسوف

يصل به الأمر – بطبيعة الحال – إلى أن يجعل الله تعالى وحده هو كل شيء له في هذه الدنيا،والذين يظفرون بالله على هذا النحو،هم وحدهم يستطيعون ممارسة الحياة الإيمانية في العالم الراهن،فلكي يمارس المرء الحياة الإيمانية لابد له من أن يسمو فوق المخلوقات كلها ، ولن يتاح هذا السمو والارتفاع إلا لشخص أدرك ما هو أكبر من كل موجود ومخلوق،أي أدرك خالق سائر المخلوقات ومالكها .

ومسئولية الدعوة إلى الحق هي الأخرى لا يستطيع القيام بها على وجهها ، إلا الذين حصلوا على هذه الدرجة العالية من معرفة الله ، إذ لابد للقيام بدعوة الحق من التجرد التام والتفرغ الكامل لها ، وهذا التفرغ الكلي والتجرد التام لن يصل إليه أحد إلا إذا كان آماله ومخاوفه كلها قد ارتبطت بالله ، وإلا إذا صار الله هو كل شيء .

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ ﴾ .

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ : أوحينا اليهم وأعلمناهم بما سيقع منهم من الإفساد في الأرض.

وَلَتَعْلُنَّ : لتفرطن في الظلم والعدوان .

وَعْدُ أُولاهُمَا : العقاب الموعود على أولاهما .

أُوْلِي بَأْسٍ : ذوي قوة وبطش في الحروب.

فَجَاسُوا : ترددوا لطلبكم باستقصاء .

خِلالَ الدِّيَارِ : وسطها .

أَكْثَرَ نَفِيراً : أكثر عددا أو عشيرة من أعدائكم .

أريد بـ ((الفساد)) هنا هو الفساد الديني الذي فشا بين بني إسرائيل بعد سيدنا موسى – عليه السلام – وقد ظهر هذا الفساد على مرحلتين : توجد تفاصيل المرحلة الأولى في : ((المزامير)) (أي الزبور) ، وأشعياء ، وأرمياء وحزقيال من كتب العهد القديم ، أما فساد المرحلة الثانية فقد جرى الحديث عنه بدقة وإسهاب على لسان سيدنا المسيح عليه السلام – والذي يوجد الآن في إنجيلي متى ولوقا من أسفار العهد الجديد .

لقد أسري برسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ((لكي يريه الله بعض آياته)) ، ومن هذه الآيات أيضا ذلك التاريخ الذي يتصل ببيت المقدس.

وهذا التاريخ هو في الحقيقة ظهور أو تحقق فعلي لإحدى السنن الإلهية،وتلك السنة هي أن الأمة الأمينة على الكتاب السماوي،إذا قامت بتأدية حقوق الكتاب الإلهي،كتب لها الغلب والتمكن في الأرض ، مع ما يدخر لها في الآخرة من الفوز العظيم ، وأما إذا هي لم تؤد حقوق الكتاب،أديل منها لشعوب العالم الغاشمة المستبدة،لتتخذ منها فريسة للظلم والاستغلال .. وكأن هذه علامة تدل في هذه الدنيا ذاتها على ما إذا كان الله راضيا عن تلك الأمة أم ساخطا عليها .. وقد نفذت هذه السنة على حملة الكتاب السابقين (اليهود) مرارا وتكرارا على مدى تاريخهم الطويل، وقد أشير هنا إلى حدثين بارزين ليكونا عبرة لمن يعتبر .

ولقد أنعم الله على بني إسرائيل – أول الأمر – بأن أنقذهم من ظلم فرعون .. ثم أحدث لهم ظروفا ، بعد سيدنا موسى ، مكنتهم من الاستيلاء على فلسطين وإقامة حكومتهم بها .. غير أن اليهود لم يلبثوا أن تسرب إليهم الفساد فيما بعد ، إذ إنهم بدل أن يكونوا دعاة مؤثرين على الأمم المشركة التي اختلطوا بها ، صاروا بأنفسهم مدعوين

متأثرين ومن ناحية أخرى نشبت بينهم خلافات في أوساطهم أعمال الشرك وطقوس الوثنية .. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نشبت بينهم خلافات شديدة حولتهم إلى فرق وأحزاب شتى .

ولعل من أبرز الوقائع التي مرت بها بنو إسرائيل نتيجة عصيانهم لله،ما أصابهم على يد ملك بابل((نبوخذ نصر))،الذي نجح في بسط نفوذه وسيادته على فلسطين مستغلا مواطن ضعف اليهود ونقائصهم الداخلية.. ثم جعل واحدا من أفراد الأسرة اليهودية الملكية نفسها ممثلا له،ليحكم بالنيابة عنها .

بيد أن اليهود نظروا إلى هذه ((التبعية)) على أنها وصمة عار على جبين مجدهم القومي العريق ، فهموا بالخروج عليها ثائرين .. كما نشأ بينهم إذ ذاك شعراء وخطباء أخذوا يلهبون مشاعرهم بخطب وأناشيد حماسية ، وقد حذر اليهود نبيهم ((أرمياء)) قائلا : إن هؤلاء كلهم زعماء كاذبون ، لا تنخدعوا بمعسول كلامهم ، فإنكم لن تنتصروا على ملك بابل إن أنتم تصديتم لقتاله على ما أنتم عليه الآن من ضعف وفرقة وانحلال .. وبدلا من ذلك يجدر بكم أن تهتموا بإصلاح أنفسكم دينيا ، وتكافحوا لبناء داخلكم ورفع معنوياتكم ، معترفين بسيادة ملك بابل السياسية ، إلى أن يهيئ الله لكم مستقبلا وإمكانات أخرى .

ولكن اليهود لم يعيروا نصيحة النبي أرمياء هذه أي اهتمام،وافتتنوا بأحاديث قادتهم المتفائلين أو الحالمين،وبالتالي أعلنوا الثورة ضد ملك بابل،وبعدئذ غضب ملك بابل أشد الغضب، فأغار ثانية على فلسطين عام ٥٨٦ ق. م. بمنتهى قوته،فهزم اليهود شر هزيمة،حيث إنه لم يكتف بما أصابهم من خسائر مادية فادحة وحدها،بل هدم هيكل أورشليم الذي كان يمثل الرمز الأخير لمجد اليهود!

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ

لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ .

لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ : ليحزنوكم حزنا يبدو في وجوهكم .

وَلِيُتَبِّرُوا : ليهلكوا ويدمروا .

مَا عَلَوْا : استولوا عليه.

حَصِيراً : سجنا ومهادا وفراشا .

لقد نصر الله بني إسرائيل ثانية عندما استيقظت في نفوسهم مشاعر الإنابة والرجوع إلى الله ، نتيجة لتوالي الأحداث والنكبات المريرة .. وقد أقام الله هذه المرة ملك فارس « قورش الكبير » ، الذي أغار على بابل عام ٥٣٩ ق. م . فاستولى عليها بعد أن كسر شوكة الحكومة القائمة بها .. وفي أعقاب ذلك أحسن إلى اليهود بأن سمح لهم بالعودة من بابل إلى فلسطين ، فانصرفوا عائدين إلى فلسطين ، حيث قاموا ، بعد برهة من الزمن ، بإعادة بناء معبدهم (الهيكل) من جديد .

على أن أجيال اليهود الجديدة عادت ثانية ضحية الفساد نفسه الذي كانت أجيالهم السابقة قد أصيبت به ، وقد مرت عليهم أحقاب طويلة وهم يتأرجحون فيها بين المد والجذر ، إلى أن بُعث فيهم أخيرًا سيدنا يحيى وسيدنا المسيح – عليهما السلام – وقد تناول هذان النبيان حياة اليهود بالشجب والانتقاد،وكشفا النقاب عن أنشطتهم اللادينية التي كانوا يمارسونها باسم الدين ، غير أن اليهود بدل أن يرحبوا بهذا النقد والتحليل ، تذمروا عليه ، حتى إنهم قتلوا سيدنا يحيى – عليه السلام – واستعدوا لإعدام المسيح صلبا !

وعندها غضب الله عليهم مرة أخرى .. ففي عام ٧٠ الميلادي ، قام الإمبراطور تيطس (TITUS) بحصار أورشليم فدمرها شر تدمير .

وإن وقائع تاريخ اليهود هذه من الوقائع المسلم بها حتى لدى اليهود أنفسهم،إلا أنهم حين يذكروها يرمون بأوزارها على أكتاف الظالمين المعتدين،بينما يلقي القرآن بالتبعة في هذا الشأن ، وبكل صراحة ، على عواتق اليهود أنفسهم .

ومن هذا نعلم أن الأوضاع السياسية تتبع دوما الأوضاع اللاأخلاقية ، فليس هناك من ظالم يظلم أحداً أو يعتدي عليه ، بل إن فساد الأمة دينيا وانحلالها خلقيا هو الذي يتيح للآخرين فرصة لاتخاذها عرضة للظلم والاستغلال والسلب والنهب !

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠ ﴾ .

هِيَ أَقْوَمُ : أسد الطرق (ملة الإسلام ـ والتوحيد) .

القرآن يدعو الناس كافة إلى التوحيد .. أي إلى أن نؤمن بالله الواحد الأحد ، ونسخر أنفسنا لطاعته وحده.. وتلك دعوة يستحيل أن توجد هناك أية دعوة أخرى أصوب منها ، ولا أدنى منها إلى العقل ، ولا أكثر منها توافقا وانسجاما مع الفطرة .. فالتوحيد هو الحقيقة الكبرى بلا ريب ، وهو الصدق الأعظم في الوقت نفسه .

وحيثية التوحيد هذه تقتضي أن يكون هو المقياس لفحص البشر جميعا ، فعلى أساس منه يعد بعضهم مصيبا وبعضهم الآخر مخطئا ، وبالتالي يحكم على أحد بالنجاح وعلى آخر بالفشل .

ومع أن هذا المقياس لا يبدو لنا سائدا في عالمنا الراهن ، حيث لا يتم تقويم الناس هنا أو تقسيمهم عمليًا على أساس منها .. إلا أن هذا الوضع ليس إلا بسبب سُنة الامتحان الإلهية ، ويمثل الموت ، على المستوى الفردي،والقيامة، على المستوى الجماعي الشامل،يمثلان الحد النهائي لمدة هذا الامتحان المحددة ، فعندما يأتي هذا الحد،حتى يفرز الناس كلهم إلى طائفتين مستقلتين منفصلتين بعضهما عن بعض ، أما السائرون على درب التوحيد ، فسيجدون أنفسهم في الجنة ، وأما المنحرفون عنه فسيصلون سعيرا.

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ .

اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ : نفسهما أو نيري الليل والنهار.

فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ : خلقنا القمر مطموس النور مظلما.

آيَةَ النَّهَارِ : الشمس مضيئة منيرة للأبصار .

إن نظام تتابع الليل والنهار يدل على أن سنة الله هي أن يسبق الظلام أولاً ، ثم يعقبه النور والضياء ثانياً.. فكلا الأمرين ضروري في الخريطة الإلهية على حد سواء ..فكما أن في النور منافع كذلك يتضمن الظلام أيضا منافع كثيرة .. ولو لم يعد هذا الاختلاف بين الليل والنهار في هذا الكون ، فعلى أي أساس سيقسم المرء أوقاته ، وكيف سينظم مواعيد عمله وراحته ؟

إذن ينبغي للمرء أن يشعر بالقلق أو الهلع تجاه ((الظلام)) ويعود طالبا ((النور)) وحده، فإن هذا يستحيل أن يتحقق في دنيا الله ، والذي يود أو يرغب في ذلك ، فليبحث لنفسه عن دنيا أخرى غير دنيا الله هذه !!! ولكن من العجائب أن هذا هو ضعف الإنسان الأكبر ؛ لأنه يطمع دوما في التحصل على النور فوراً وبدون أن يواجه مرحلة الظلام .. ونتيجة هذا الضعف نفسه ما يطلق عليه ((العجلة)) ، فالعجلة هي في الحقيقة اسم ثان لعدم الرضا بالتدبير الإلهي .. وإن عدم الرضا به هو مصدر كل ألوان الشقاء والضياع والدمار البشري .

إن الله يريد للإنسان أن يصبر على لذائذ الدنيا العاجلة ، حتى يتمكن من مواصلة مسيرته نحو الآخرة ، غير أن عجلة الإنسان تجعله يتهافت على لذائذ الدنيا الآنية ، ولا يستطيع أن يمضي قدما نحو الأمام ، فحب الإنسان للعاجلة هو السبب الأكبر وراء حرمانه من نعم الآخرة .

وهكذا هو الشأن تماما فيما يتصل بشئون الدنيا كذلك .. فالنجاح الحقيقي في هذه الدنيا أيضا إنما ينال بالصبر دون العجلة والتسرع .

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ .

أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ : عمله المقدر عليه لاينفك عنه .

حَسِيبًا : حاسبا وعادا أو محاسبا .

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ : لاتحمل نفس آثمة .

لقد كان عبدة الأوهام، منذ قديم الزمان ، كثيرا ما يحاولون التعرف على حظوظهم

ومصائرهم بحركات الطيور (يمينا وشمالا) ، أو بحسب مواقع النجوم ، أو بطريق ضروب شتى من الفأل .. وأم الذين لا يعتقدون في مثل هذه الأوهام والخرافة ، من مثقفي العصر الحديث، فهم الآخرون يربطون أحوال حظوظهم بأي سر من الأسرار الغامضة فيزعمون أن هناك عاملا خارجيا ، هو الفاعل أو المؤثر الحقيقي في هذا الخصوص .

وقد أرشد الله - سبحانه وتعالى - هنا إلى الحق الذي لا لبس فيه ولا غموض فقال : إن حظوظكم - أيها الناس - غير مرتبطة بحركة الطيور ولا بدوران النجوم ، ولا علاقة لها كذلك بأي شيء من الأشياء الخارجية .. وإنما مدار حظ كل إنسان منكم على نوع عمله وحده ، فكل ما يعمله المرء أو يفكر فيه لا يزال ينقش ويسجل على نفسه كل لحظة وسيجده المرء في يوم القيامة بشكل مذكرة تحتوي على كل صغيرة وكبيرة .

لقد أرسل الله إلى الأمم والشعوب أنبياء ، وأنزل عليهم الكتاب ، ليصبحوا على علم بخطورة اليوم القادم - يوم القيامة - قبل حلوله ، وإنما الأمر موكول الآن إلى إرادة المرء الذاتية عن أن يقرر المصير الذي يريده لنفسه في مرحلة الحياة الآتية الدائمة .

ومدى رغبته في الدخول إلى الجنة باتباع سبيل الهداية ، ومدى إعداد نفسه للوقوع في قعر جهنم بالتخلي عن سبيل الهداية .

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ .

أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا : أمرنا متنعميها بطاعة الله .

فَفَسَقُوا : فتمردوا وعصوا

فَدَمَّرْنَاهَا : استأصلناها ومحونا آثارها .

القُرُونِ : الأمم المكذبة .

إن صلاح أمة ما أو فسادها يقاس بصلاح طبقة من الأشراف أو الأثرياء من تلك الأمة وفسادها .. فإنها هي الطبقة التي تملك صلاحية التفكير والفهم ، وهي التي تتوفر لديها من الوسائل ما يمكنها من التأثير على الجماهير ، وهي التي تستطيع دفع ثمن القيادة أو الزعامة على طائفةٍ ما .

ولهذا السبب كان إصلاح طبقة الأثرياء في أمة ما هو إصلاح الأمة بأسرها ، وفساد الأثرياء هو فساد الأمة بأكملها ..ولو أننا قمنا باستعراض تاريخ الأمم والشعوب منذ سيدنا نوح عليه السلام وحتى يومنا هذا لوجدناه مصدقاً بصحة هذا المبدأ العام الشامل .

وهذا الحكم العام يشمل أيضا قضية أولئك ((الأكابر)) الذين يتخذون من الأمة مصيدة لقيادتهم ، وهكذا يوردونها - بسوء قيادتهم لها - موارد الهلاك والدمار .. حيث إنهم يلقنون الأمة دروس العاطفية ، بدلاً من الواقعية .. ويحببون إليهم فنون الألفاظ بدلاً من المعاني ، ويحلقون بهم في سماء الخيال ، بدلاً من أخذهم بالجدية ، ويعلمونهم العيش في الأحلام والأماني بدلاً من الاعتراف بالحقائق ، وخلاصة القول : إنهم يصرفون اهتمام الأمة عن الله إلى غير الله .

وإذا سيطر أمثال هؤلاء القادة على أمةٍ ما ، فإن هذا علامة تدل على أن الله تعالى قد قضى على تلك الأمة بالهلاك .. فإن واقعة كهذه إنما تحدث تبعا لإذن الله ، وليس هناك شيء من أعمال شخص أو أمة بخاف على الله عز وجل !

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ .

يَصْلاهَا : يدخلها ، أو يقاسي حرها .

إن المرء في العالم الراهن على مفترق طريقين : طريق يقوده إلى ربح قريب المنال ، وآخر يقوده إلى ربح بعيد المنال .. فأما من سار في الطريق الأول فقد أحب العاجلة . وأما من اختار الطريق الثاني فقد أحب الآخرة .

وإن المرء ليجد – من ناحية – مذهب النفعية ، الذي باختياره إياه لا يلبث أن يحصل من فوره على العزة والثروة .. ومن ناحية أخرى هناك مذهب اتباع الحق الخالص ، الذي سيفوز المرء بشرفه – لو اعتنقه وتمسك به – في حياة ما بعد الموت .

وكذلك لئن أساء إليك أحد الناس إساءةً ما ، فأنت منه على موقفين : فإما أن تملأ نفسك بمشاعر الثأر والانتقام نحوه ، وبالتالي تبذل كل ما في وسعك من الجهد للنيل منه ، وتتخذ كل إجراء أمكنك للنكاية له .. وحين تمسك زمام نفسك ، وتكبح جماحها، تعفو عنه وتصفح ، وتفوض الأمر كله إلى الله – سبحانه وتعالى – داعيا له أطيب الدعوات .

كما أن ما يتوفر لدى المرء من مال يمكن إنفاقه على وجهين اثنين : أحدهما أن يتم توظيفه في سبيل الأغراض الذاتية الخاصة،كتحقيق رغبات النفس ، وتأثير المجد ، وتوسيع النفوذ الشخصي .. أما الوجه الثاني فهو : أن نبذله في مصاريف دين الله وإعلاء كلمته .. وهكذا هو الحال في كل أمر من أمور الحياة ، إذ يستطيع المرء دوما أن يعالجه بمنهجين مختلفين : أحدهما : منهج العبودية لهوى النفس ، وثانيهما : منهج العبودية لله تعالى .. ويتمثل الأول في إعطاء الأهمية والأولوية لما هو حاضر ومشهود فقط والأخير في إعطاء الأهمية والأولوية لحقائق الغيب وحدها .. الأول ترجيح للمصلحة والأخير للمبدأ .. والأول إقدام ناشئ عن العجلة وقلة الصبر وسوء التقدير ، والآخر إقدام على ما ينبغي الإقدام عليه بعد طول الصبر والروية والأناة .

المنهج الأول ينطوي على ربح مؤقت يعقبه الحرمان الدائم ، والمنهج الأخير يتضمن خسارة وقتية يعقبها العز الدائم والنجاح الأبدي !

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾

مَدْحُوراً : مطرودا مبعدا من رحمة الله .

كُلاًّ نمدُّ: نزيد من العطاء .

مَحْظُوراً : ممنوعا عمن يريده الله تعالى .

إن النجاح ، سواء أردنا به نجاح الدنيا ، أو نجاح الآخرة ، ليس إلا اسما ثانيا لاستعمال ما وفر الله تعالى من فرص وأسباب .. فمن يحصل على نجاح الدنيا ، فإنما يحصل عليه عبر الانتفاع بأسباب الله واتباع سننه ، وكذلك من يجعل من الآخرة هداه وغايته في هذه الحياة ، فقد هيأ الله له أيضاً من الأسباب والسنن ما يمهد له الطريق نحو سعادة الآخرة .

والناس في هذه الدنيا يتفاوت بعضهم عن بعض في أوضاعهم المادية والأدبية ، فهذا في قمة الرقي والمجد ، وذاك وحده فى التخلف والهوان ، وهذا يملك الثراء العظيم ، وذاك لا يتوفر لديه إلا القليل التافه ، وهذا الواقع علامة تدلنا على أن في دنيا الله هذه فرصا وإمكانات لا تحد .. فبقدر ما يسعى أحد الناس للدنيا بقدر ما يجني ثمار سعيه هنا ، وهكذا فبقدر ما يعمل أحد الناس لأجل الآخرة ، بقدر ما سيفوز هناك بالإنعامات الإلهية ، وفوق ذلك فإن عطاء الآخرة سيكون عطاءً أبدياً ، بينما لا يكون عطاء الدنيا إلا عطاءً وقتياً محضاً!

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا

تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ .

مَّخْذُولاً : غير منصور ولا معان من الله.

وَقَضَى رَبُّكَ : أمر وألزم وحكم .

أُفٍّ : كلمة تضجر وكراهية .

وَلاَ تَنْهَرْهُمَا : لا تزجرهما عما لا يعجبك.

قَوْلاً كَرِيماً : حسنا جميلا لينا .

لِلأَوَّابِينَ : للتوابين مما يفرط منهم .

إن من واجب الابن نحو أبويه ، وخصوصاً إذا كانا قد كبرا في السن أن يعاملهما معاملةً حسنةً ، وألا يُسمعهما قولاً سيئاً ، وأن يدعو لهما ، جزاء لما قدماه له عندما كان صغيراً وكانا هما اللذان يقومان بأمره .

وقد خص الله مرحلة الكبر ؛ لأن الوالدين إذا بلغا سن الشيخوخة لا يعود لهما أي قسر مادي على الأولاد وحين يحسن الولد سلوكه نحو أبويه الهرمين ، فإنما يفعل ذلك انطلاقاً من قراره العقلي الحر ، وليس مدفوعاً بأية قوة مادية قاهرة له .

إن العمل الاختياري الحر لهو أصعب امتحان يواجهه المرء في هذه الحياة ، بيد أن الله - سبحانه وتعالى - قد يسره على الإنسان برحمته الخاصة ، فهو لا يناقش الإنسان كأحد القضاة الصارمين العديمي الرحمة ، بل هو يأخذ المرء بالتسامح ، ويتجاوز عن

هفواته وخطاياه الصغيرة ، فيما إذا كان وفياً لله تعالى بصفة مبدئية ، ولو أن الإنسان بادر بالرجوع إلى الله فور صدور الخطأ عنه ، فهو تعالى يعفو ويصفح عنه ، مهما كان جرمه عظيماً !

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾ .

إن كل ما يكسبه المرء بمجهوده الذاتي ، له الحق في أن ينفقه على نفسه .. بيد أن الشريعة تنهى عن الإسراف والتبذير ، فيجب عليه أن يبذل ماله في سد حاجاته الحقيقية وليس في مظاهر البذخ والتفاخر والرياء .

كما ينبغي لكل امرئ أن يجعل في ماله أيضاً حقاً لغيره من المحتاجين ، سواء أكانوا ذوي قرابته أم جيرانه، أم كانوا مسافرين أو أصحاب بؤس ومسكنة .

وقد يحدث أحياناً أن المرء لا يكون قادراً على إعطاء ذي الحاجة شيئاً، غير أن الإسلام يفرض علينا ، حتى في مثل هذه الحالة،أن نرد أخانا المحتاج – إذا كنا عاجزين عن إعطائه مالاً – بميسور من القول،وأن نعتذر إليه برفقٍ ولينٍ .. لأنه إنما جاء ليتيح لنا فرصة البر والإحسان،ولكننا لم نتمكن من اغتنام تلك الفرصة لصالحنا نحن! إنه لن ينجح في إنفاق ماله وفق مرضاة الله سبحانه وتعالى،إلا شخص يصون ماله من الضياع والتبدد فيما لا طائل تحته،وإلا فسوف لا يبقى لديه شيءٌ من المال ينفقه في سبيل الله . والحقيقة هي أن التبذير والإسراف حيلة من حيل الشيطان يتوسل بها لاستدراج صاحب المال حتى يصير عاجزاً عن القيام بواجباته نحو غيره من البائسين والمحتاجين!

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ .

يَدَكَ مَغْلُولَةً : كناية عن الشح .

تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ : كناية عن التبذير.

مَّحْسُوراً: نادما أو منقطعا بك معدما.

وَيَقْدِرُ : يضيقه على من يشاء لحكمه.

الإسلام يحب القصد والاعتدال في كل شيء .. فالطريق الوسط ، الذي لا إفراط فيه ولا تفريط ، ولا غلو فيه ولا تقصير ، هو أفضل الطرق عند الإسلام ، حتى حد القول المأثور ((خير الأمور أوسطها)) .. ومن ثم فقد أمر الإسلام بالتزام هذا المبدأ نفسه فيما يتعلق بالبذل والإنفاق كذلك .. فلا ينبغي أن يكون المرء بخيلاً إلى حد يسقط معه من أعين الناس، ولا أن يتوسع في الإنفاق توسعاً مفرطاً بحيث يقعد صفر اليدين . ولقد ورد في الحديث : ((ما عال من اقتصد)) .

والعقلية غير المعتدلة بشأن المال إنما تنشأ لكون المرء تغيب عنه الحقيقة القائلة : إن المعطي هو الله سبحانه وتعالى ، فهو الذي يوسع الرزق على بعض ويضيقه على بعض من عباده بحسب الحكمة وقد جاء في حديث قدسي : ((إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه)) .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا

كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ .

خَشْيَةَ إِمْلاقٍ : خوف فقر وفاقة .

خِطْئاً كَبِيراً : إثما عظيما .

إن الله خالق كل حي ، وهو الذي يقوم بتهيئة أسباب الرزق للجميع ، وفي هذه الحالة ، فإن محاولة أحد الناس للقضاء على نفس ما ، بحجة الفقر ، إقدام على أمر لم يكن يعنيه ومما لا شأن له فيه البتة .. فإذا كان الرزق يتم توفيره من عند الله سبحانه وتعالى ، فكيف يحق لأحد أن يهلك أية نفس حذراً مما عساها أن تأكل ؟!

﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ من خلال هذه الكلمات قد وجه اهتمام الإنسان إلى البناء والإصلاح بدلاً من التخريب والهدم .. فلنفكّر مليّاً في أفراد البشر الموجودين الآن ، كيف يحصلون على أقواتهم ؟! الجواب هو أنهم يحصلون عليها باستعمال ما أوجده الله تعالى من الموارد ووسائل الإنتاج ، إذن فهذه الطريقة نفسها مناسبة تماماً للأجيال التالية كذلك .. وإنما ينبغي لكم أن تقوموا بتوظيف الأعداد المتزايدة من المولودين في استثمار الموارد والوسائل الإنتاجية المهيأة من قبل الله ، وليس أن تبدؤوا بالحيلولة دون مجيء المولودين الجدد أنفسهم !

إن الزنا واحد من جملة الأعمال التي يريد الله لها أن تزول من بين الناس بصفة نهائية ومن ثم قال الله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ أي أن الزنا رذيلة بلغت من الفحش والشناعة بحيث يجب عليكم أن تجتنبوا مقدماته ودواعيه .. وقد اكتفى هنا بحكم مبدئي بخصوص الزنا ، أما أحكامه التفصيلية فسيأتي بيانها في سورة ((النور)) إن شاء الله تعالى .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا

لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾ .

سُلْطَاناً : تسلطا على القاتل بالقصاص .

إن قتل نفس بغير حق شرعي محرم على الإطلاق .. وإذا قتل شخص ظلماً بدون حق شرعي موجب لقتله ، فإن أولياءه – أي ورثته – بالخيار في القاتل ، فإن شاؤوا قتلوه قصاصا ، وإن شاؤوا تركوه على الدية ، وإن شاؤوا عفوا عنه بدون دية . ويلاحظ أن المدعين الحقيقيين في قضية القتل ، بموجب التشريع الإسلامي ، هم أولياء القتيل ، دون الحكومة ، وإنما تنحصر وظيفة الجهاز الحكومي بهذا الخصوص في مساعدة أولياء القتيل على تنفيذ مشيئتهم .

والقتل جريمة مروعة لدرجة أنه جاء في السنن « لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم » وعلى الرغم من ذلك فليس يحق لأولياء القتيل أن يتجاوزوا الحد المشروع في الاقتصاص من القاتل ، بأن يمثلوا به – مثلاً – أو يقتلوا مكان القاتل أحد أصحابه أو إخوته الأبرياء ..إلخ ولئن أسرف أولياء القتيل في القصاص ، فعندئذ ستقف الحكومة في وجوههم تماما كما كانت قد وقفت إلى جانبهم فيما شرع لهم من حق القصاص .

وهذا مما يدلنا على روح الشريعة الإسلامية القائلة بأن شخصاً ، مهما كان مظلوماً إذا هو أراد الانتقام من الظالم المعتدي عليه ، فإنما يجوز له أن يعاقبه بمثل العدوان الواقع عليه سواءً بسواءٍ .. وأنه غير مسموح باتخاذ أي إجراء آخر مزيد على ذلك !

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾ .

يَبْلُغَ أَشُدَّهُ : قوته على حفظ ماله .

بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ : بالميزان العدل .

وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً :مآلا وعاقبة .

إن أولياء اليتيم غير البالغ هم أقرباؤه الأدنون.. بيد أن مال اليتيم إنما يبقى بيد هؤلاء الأولياء ما دام لم يبلغ سن البلوغ والرشد بعد ، فينبغي للأولياء ألا يتصرفوا في مال اليتيم أيما تصرف ، إلا إذا كان ذلك مما يقتضيه النصح له ضمانا لرقيه وتقدمه في مستقبل حياته هو ، وعند بلوغ اليتيم سن الإدراك والتمييز بين منافعه ومضاره يجب تسليم ماله إليه كاملا .

والوفاء بالعهد أهم صفة من صفات السلوك الإنساني .. الذي يعاهده غيره ثم لا يفي بما عاهده عليه ، إنما هو إنسان فاقد القيمة عديم الاعتبار لدى العباد ورب العباد على سواء .

﴿ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولاً ﴾ هذه الألفاظ تدلنا على أن شخصاً ما ، حين يتعاهد مع شخص آخر ، فإن ذلك لا يكون أمر اثنين من البشر وحدهما ، بل يكون الله – سبحانه وتعالى – هو الآخر شريكا فيه كطرف ثالث .. فينبغي للمرء ، وهو ينقض العهد ، أن يأخذ في حسبانه أن الطرف الثاني لعهده ، ليس إنساناً ضعيفا ، بل هو الله .

إن التعامل التجاري على اختلاف أنواعه ومجالاته يقوم على أساس الكيل والوزن ، وقد أمرنا الله بإتمام الكيل والوزن من غير تطفيفٍ ولا بخسٍ ولا احتيالٍ .

وهذه الطريقة لها جانبان مهمان .. فتطفيف المكيال دليل التدني الأخلاقي ، كما أن توفيته آية السمو الأخلاقي .. .. والفائدة الكبرى الثانية التي تعود على ذلك تتمثل في نمو التجارة وازدهارها ، فإن رقي التجارة يتوقف كليا على الثقة وتوفيته الوزن والكيل مما يغرس الثقة وحسن الظن بأحد التجار في قلوب الناس !!

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾ .

وَلاَ تَقْفُ : لا تتبع .

مَرَحاً : فرحا وبطرا واختيالا وفخرا .

قال قتادة : « لا تقل : رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم »[1].

إن الذي يخاف من أنه سيسأل عند الله عن أقواله وأفعاله كلها ، لن يتجرأ أبداً على القول بما لم يتحقق من صدقه ، ولا هو يتبع خيراً غير محقق اتباع العميان .

وينبغي للإنسان أن يستخدم قوى السمع والبصر والعقل فيما هي جعلت له من أجله ، فلا يقول أو يعمل إلا بأمر ثابت على وجه أتم ما يكون .

وقد شمل هذا الحكم كل الأشياء الباطلة التي لا أساس لها من الصدق والصحة ، ومنها على سبيل المثال : شهادة الزور ، القذف والاتهام الكاذب للنيل من أحد على أساس ما تتناقله الأفواه والألسن من أخبار غير مؤكدة ولا ثابتة ، وتأييد الباطل بناءً على التعصب، وتكلف البحث والتنقيب عن أشياء لا يتمكن الإنسان من معرفة كنهها بسبب قصور مداركه ومحدوديتها ، وقوى السمع والبصر والفؤاد ، وهي – على ما يبدو ظاهراً – في قبضة الإنسان، وتحت نصرفه ، إلا أنها قد أودعت لدى الإنسان على سبيل الأمانة ، فلابد للإنسان أن يستعملها وفقا لمرضاة الله سبحانه وتعالى ، وإلا فسوف يحاسب عن ذلك حساباً جد عسير !!

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٧٧.

الإنسان يعيش على أرض لا يستطيع خرقها ، وهو في بيئة تكتنفها من حولها جبال شامخة تنفي كل ما يتظاهر به من علو وتطاول وكبرياء .. وإن هذا إعلان تمثيلي عن حقيقة وضع الإنسان بالقياس إلى الله جل جلاله ، وهو يقتضي ألا يعيش المرء في هذه الدنيا متكبراً مختالاً ، وله أن يختار هنا مسلك العجز والتواضع والانكسار ، دون التبختر والتعالي والطغيان!

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ .

مَدْحُوراً : مبعدا من رحمة الله .

لقد أطلق هنا على ما ورد من الأحكام في الآيات السابقة وصف ((الحكمة)) ، والحكمة تعني الحقيقة الصلبة الثابتة ، والقول المتبصر المستنير .. وهذه الأمور التي ذكرت هنا كلها حقائق الحياة المحكمة ، يقوم على أساس منها بناء الحياة الصالحة المستقيمة ، وأي مجتمع إنساني يخلو منها ، لا ينتظره في دنيا الله شيء سوى الهلاك والدمار ، في العاجل والآجل معا .

وقد اختتمت الوصايا المذكورة بالتوحيد ((الآية رقم ٣٩)) كما كانت قد استهلت بالتوحيد (الآية رقم ٢٢)، الأمر الذي يشير إلى أن رأس كل الفضائل والحسنات ومحورها الأساسي هو أن يتخذ المرء من الله الواحد إلهه، فلا يخاف إلا منه ، ولا يحب إلا إياه ، فإن سر الاستقامة في الحياة الدنيا إنما يكمن في إقامة العلاقة الصحيحة والمستقيمة مع الله تعالى ، ولو أن العلاقة بالله لم تكن صحيحة ومستقيمة ، فليس هناك من شيء آخر من شأنه يصلح ويقوم نظام الحياة الإنسانية .. فالله – سبحانه وتعالى – هو مبدأ الإنسان وغايته ومنتهاه كذلك ! .

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم : أفضلكم ربكم فخصكم .

صَرَّفْنَا : كررنا القول بأساليب مختلفة .

نُفُوراً: تباعدا وإعراضا عن الحق .

لَّٱبْتَغَوْا : لطلبوا .

سَبِيلاً : بالمغالبة والممانعة .

الحقيقة كاملة ومتكاملة لدرجة أن أي أمر باطل ينسب إليها يعود من فوره مبتور الصلة بها ، غير متناسق معها.. ومن أمثلة ذلك إشراك آلهة أخرى مع الله سبحانه وتعالى .

يزعم المشركون أن شركاءهم الفرضيين أولاد الله .. غير أن هذا الزعم يحمل بين طياته تناقضات تدحض دعواه.. فإن قيل لهؤلاء الشركاء ((بنات الله)) باعتبارهم إناثاً،فيثور على الفور الاعتراض القائل : بأن البنات ،طبقاً لاعتراف المشركين أنفسهم،ينتمين إلى الجنس الضعيف، إذن ، فَلِمَ أحب الله – سبحانه وتعالى – أن يتخذ من الجنس الضعيف شريكاً لنفسه ؟! ولكم سيكون الأمر مثيرا للدهشة والاستغراب

أن يهب الله للبشر ((البنين)) كذرية مفضلة لديهم ، بينما يختار لنفسه هو البنات؟! وبالعكس فلو افترضنا هؤلاء الشركاء ((بنين)) من حيث إن ((الابن)) يمثل في ضوء التجارب الإنسانية ، رمزا للقوة والطاقة ، فإن هذا الأمر يبقى مع ذلك ، غير معقول وبعيدا عن نطاق الفهم والإدراك من الناحية المنطقية،فإن السلطة شيء لا يقبل التجزئة والتقسيم، وكلما اجتمع في ظل نظام ما ، أكثر من ذي قوة وذي سلطان واحد، فلابد أن يندلع هناك صراع حاد بينهم ، إذ كل واحد منهم يريد أن يحصل على السلطة المطلقة ، ويستأثر بها دون غيره !!

إذن ، فلو كان هناك أكثر من إله قوي قدير واحد متصرف وراء الكون ، لنشبت بينهم بالضرورة الحرب على السلطة ، وبالتالي لأصيب النظام الكوني بأكمله بالخلل والفوضى ، وبما أن الكون خال من الخلل والفوضى كل الخلو ثبت من ذلك تلقائيا أنه ليس ثمة من ذوات أخرى كذلك يشاركن الله – سبحانه وتعالى – في قوته وملكوته . فسواء أقلنا للشركاء ((بنين)) ، أم أطلقنا عليهم ((بنات)) فإن هذا القول يصطدم ويتناقض في كلا الحالين ، مع الأمر الواقع ، والحقيقة هي أن الكون بسائر موجوداته ، يرفض القبول بأي تصور يدعي اشتراك أحد من دون الله في ألوهيته سبحانه وتعالى !؟

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾ .

حِجَاباً مَّسْتُوراً :ساترا أو مستورا عن الحس .

أَكِنَّةً : أغطية كثيرة مانعة .

وَقْراً : صمما وثقلا في السمع عظيما .

إن ما سمي هنا ((حِجَابًا مَّسْتُورًا)) هو ((الحجاب النفسي)) ،والمقصود به هو حال المرء إذ يحل في ذهنه أمر ليس من الصدق في شيء محل الصدق من تلقاء نفسه ..ومثل هذا الشخص حين يواجهه حق ينفي صدقه الفرضي المزعوم،فإن دعوة كهذه تعود غير قابلة للفهم لديه، فهو لا يكاد يفقه أو يتصور ، بناء على نفسيته الخاصة ، أنه يمكن أن تكون دعوة صادقة تلك التي يكشف الإيمان بها عن صيرورة ما قد ظل يعتبره الصدق المسلم به لحد الآن باطلاً تمام البطلان ! ومع أنه يجد نفسه عاجزاً عن مقاومة الأدلة المصاحبة للدعوة الجديدة ، إلا أن عقليته الخالصة تجعله لا يستعد أيضاً للتسليم بأن هذا هو الصدق المطلق الذي ينبغي عليه أن يؤمن به متخلياً عن كل الأشياء الأخرى عداه .

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ .

نَجْوَى : متناجون في أمرك فيما بينهم .

مسْحُوراً : مغلوبا على عقله بالسحر أو ساحرا.

لقد كانت دعوة رسول الله ﷺ تصحبها أدلة قوية لدرجة أن جماهير العرب أصبحت تنظر إليها بعيون مبهورة .. مما جعل رؤساء مكة يساورهم الخوف من أن هؤلاء ، لو اعتنقوا الدين الجديد بأعداد كبيرة ، فسوف تعود رئاستنا أثراً بعد عين !

وعندئذ لجأ هؤلاء الرؤساء إلى تدبير لصرف اهتمام الناس المتزايد عن الحق ، حيث قالوا لهم : إن القوة التي تلمسونها في كلام هذا الشخص ، إنما هي في الحقيقة قوة كلام ساحر أخاذ للقلوب والألباب .. فالقضية إذن هي قضية ((الأدب)) ، دون قضية

الصدق في واقع الأمر .. وهكذا فإن الكلام الذي كان الناس يرون في سموه وعظمته انعكاساً للصدق ، إذا بهؤلاء قد جعلوه في أعين الناس مرادفا لـ ((سحر القلم)) .

والذين ينظرون إلى دعوة ما ، لا على أساس ما هي في جوهرها ، بل ما إذا كانت تصدق بوضعهم أو ترفضه، فإنهم لن يحالفهم التوفيق لإدراك الصدق والحق أبدا !

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾ ﴾ .

وَرُفَاتاً : أجزاء مفتتة ، أو ترابا أو غبارا .

يَكْبُرُ : يعظم عن قبول الحياة كالسموات .

فَطَرَكُمْ: أبدعكم وأحدثكم.

بِحَمْدِهِ : منقادين انقياد الحامدين له .

إن وجود الإنسان الأول يثبت – بكل وضوح – إمكان وجوده الثاني .. ومن يسلم بولادة الإنسان الأولى كواقع لا سبيل إلى إنكاره،فإنه لا يملك أي دليل حقيقي على عدم تسليمه بولادة الإنسان الثانية .

ثم إن ولادة الإنسان الثانية هذه ، ليست بأمر مستبعد أيما استبعاد ، على الأقل ، بالنسبة لأولئك الذين ينظرون إلى الإنسان على أنه ((حجارة)) ((وحديد)) ، وبعبارة أخرى علم على مركب من الأشياء المادية ، فمع تحطم خلايا أجسامنا هنا ، نشهد في

هذا العالم المعلوم نفسه أن كيان الإنسان المادي لا يزال يفنى ثم يتجرد بتسلسل واستمرار ، والحقيقة هي أن الإيمان بالبعث والنشور ليس إلا إقرارا بإمكان حدوث الواقع نفسه بعد الموت ، الذي نجربه ، خلال حياتنا قبل الموت مرة وأخرى .

وما القيامة سوى اسم لذلك اليوم الرهيب ، إذ يتمزق حجاب الغيب ويظهر الله – سبحانه وتعالى – عيانا بكل قوته وجلاله وجبروته .. وعندما يحدث ذلك ، فسيظهر حتى الجاحد والمنكر ليفعل ما لا يتمكن من فعله اليوم غير المؤمن الصادق الإيمان ، فالجميع سيندفعون يومئذٍ نحو الله – سبحانه وتعالى – معترفين بكمالاته وقدراته اللانهائية !

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ .

يَنزَغُ بَيْنَهُمْ : يفسد ويهيج الشر بينهم .

تتحدث هذه الآية عن العلاقة الحساسة بين الداعي والمدعو ، حيث تقرر أن الداعي، مهما وجه إليه من قبل المدعو كلام يتسم بالجفاء والغلظة ، ومهما عومل معاملة مفعمة بالإثارة والاستفزاز ينبغي عليه أن ينطق دائماً بالحسنى والكلمة الطيبة .. إذ لو اتخذ الداعي خطوة ما ، مدفوعاً بعوامل رد الفعل ، لتسبب ذلك في استثارة مزيد من مشاعر الكراهية والحقد والعناد في نفس المدعو ، وبالتالي سيحتدم هناك صراع بين الداعي والمدعو ، لا يعود الناس معه قابلين للاستماع إلى كلام الداعي بذهن مفتوح وبهدوء أعصاب .

وإن نشوء جو مفعم بالعناد والتنافر بين الداعي والمدعو هو في صالح الشيطان تماما، فإنه يتخذ منه ذريعة لجعل رسالة الحق غير جديرة بالقبول لدى الناس ، ومن هنا

فلئن أخذ الداعي ، من خلال بعض تصرفاته أو مواقفه ، في إيقاظ مشاعر العناد والكراهية في نفس المدعو ، فكأنما هو قام بمساعدة الشيطان وحقق بنفسه هو ما كان عدوه يبغيه ويطمح إلى تحقيقه !

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾ .

وَكِيلاً : موكولا إليك أمرهم .

زَبُوراً : كتابا فيه تحميد وتمجيد ومواعظ .

إذ يقوم أحد الناس بالدعوة إلى دين الحق ، ويقابله الآخر بالرفض والإنكار ، فإن ذلك مما يدفع الداعي – وقد غلب عليه الشعور بالقلق أو الضجر إزاءه إلى التساؤل المشوب بالحيرة من أمره : ما بال هذا الشخص ، لا يكاد يرضى بالتسليم بصدق بلاغ فى منتهى الوضوح؟! وربما لا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل يتجاوز إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث إنه لا يلبث أن يعلق على هذا الشخص صراحةً بأنه من أصحاب النار! إن كلاماً كهذا لا يجوز للداعي ولا يليق به على أية حال .

هناك مهمتان الأولى : هي إبلاغ رسالة الحق ، أما الثانية ، فهي مكافأة الكل بحسب رد فعله على الرسالة .. المهمة الأولى ملقاة على عاتق الداعي ، أما المهمة الأخرى فهي من اختصاص الله – سبحانه وتعالى .. إذن فينبغي على الداعي ألا يقع في المحظور ، بأن يدخل أو يتدخل في دائرة الله ، متخطياً محيط دائرته هو .

لقد أرشد القرآن الدعاة إلى أن تفضيل أحد على أحد أو رفع أحد إلى درجة دون أحد ، مما لا شأن لكم فيه البتة ، إنما هو من شئون الله الخاصة به ، إذن فيجب عليكم أن

تركزوا كل جهودكم على مواصلة مسيرة البلاغ والدعوة إلى الرسالة الأساسية ، معرضين عن مثل هذه المناقشات التي لا جدوى لها !

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ .

تَحْوِيلاً : نقله إلى غيركم ممن لم يعبدهم .

الوَسِيلَةَ : القربة بالطاعة والعبادة .

إن كل الذوات التي يتخذها الإنسان آلهة له من دون الله لا تعدو أن تكون مخلوقات الله .. الشيوخ الصالحين أو الملائكة مثلا .

ولو أمعنا النظر لوجدنا هذا ((التأليه)) أحادي الجانب ، أي من طرف واحد تماما. فليست تلك الذوات هي التي قد ادعت عن نفسها أنها آلهة ، بل إنما هناك أناسٌ آخرون هم الذين زعموها معبودات ، وأخذوا في تقديسها وتعظيمها من تلقاء أنفسهم!

ولو أن أحداً مُنح القدرة على مشاهد ة الغيب ، كقدرته على مشاهدة الحاضر سيلاحظ أن الإنسان قد أله بعض الذوات من عند نفسه ، وصار يعبدها ويطلب منها قضاء حاجاته وتحقيق آماله ، على حين أن الذوات ترتعد في الوقت نفسه خوفاً وهلعاً لما يسيطر عليها من الإحساس بجلال الله وعظمته ، وهي مشغولة بكليتها في ابتغاء رحمة الله والتقرب إليه !

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ

كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ ﴾ .

إن قانون الفناء ، كما يسري على الأفراد ، يسري على الشعوب والقرى البشرية كذلك .. فأي قرية أو مدينة – مهما بلغت من القوة والبهجة – لابد لها من أن تزول وتفنى يوماً على كل حال ، سواء أكان ذلك بشكل إنزال الهلاك والدمار بها عاجلاً ، بسبب ذنوبها وطغيانها ، أم أن يُكتب لها البقاء ، حتى إذا حان موعد قيام الساعة ، قُضي عليها جنبا إلى جنب مع سائر بقاع الأرض ومدنها العامرة !

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ .

مُبْصِرَةً : آية بينة واضحة .

فَظَلَمُوا بِهَا : فكفروا بها ظالمين فأهلكوا .

إن ما يحدث مع الأنبياء – عليهم صلوات الله وسلامه – من وقائع غير عادية ، ينقسم إلى نوعين : أحدهما هو الذي يكون نصراً للنبي وأصحابه بوجه عام ، ويمكن أن نطلق عليه وصف ((التأييد الإلهي)) ، أما النوع الثاني فهو يشمل كل ما يتم إظهاره بحسب ما طلبه المشركون خرقا للعادة ، والذي يسمى بـ ((المعجزة)) ، ولقد جرى مع نبي آخر الزمان وأصحابه ما لا يحصى من وقائع التأييد الإلهي ، وأما ما يتعلق بالآيات المقترحة ((المعجزات والخوارق)) فقد أوقف إرسالها بالنسبة له – عليه الصلاة والسلام .

والسبب في ذلك هو أن كل شيء له مقتضيات معينة ، وعليه فبقدر ما يطالب الناس بالآية غير العادية ، بقد ر ما تقع على عواتقهم مسئوليات غير عادية كذلك ، ومن ثم فقد جرت سنة الله في الذين لا يؤمنون ، حتى بالرغم من مشاهدة الآية غير

العادية (المعجزة) التي اقترحوها، أن ينزل عليهم عذاباً شديداً يبيدهم ويستأصل شأفتهم .. وبما أن النبي العربي محمدا ﷺ جاء بالرسالة الخاتمة، التي كان من المقرر انقطاع سلسلة النبوة بعدها، لذا فلم يكن بالإمكان اتخاذ مثل هذه العملية الصارمة الحاسمة إزاء أمته، فإن الأمة ستنقرض في حالة ما إذا نزل بها الدمار الشامل والعذاب المستأصل، إذن، فمن كان سيبقى هناك على إثر النبي ليقوم بتمثيله ونشر رسالته بين العالمين ؟!

ولقد كانت هذه رحمة من الله خاصة بمخاطبي النبي الخاتم – عليه الصلاة والسلام – أنه تعالى لم يرهم المعجزات والخوارق الحسية رغم مطالبتهم المتكررة .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ .

أَحَاطَ : علما وقدرة فهم في قبضته تعالى .

وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ :شجرة الزقوم (جعلناها فتنة) .

طُغْيَاناً: تجاوزا للحد .

الناس دائما يطالبون داعية الله بإظهار معجزة يقترحونها هم بأنفسهم، على حين لو أنهم نظروا في الموضوع بذهن مفتوح، لوجدوا أن المعجزة التي يريدون رؤيتها اختبار لصدق الداعي، قد سبق أن تم إراؤتهم إياها بشكل النصرة الخاصة المتاحة للداعي .

لقد كان مخاطبو رسول الله ﷺ يطالبون بالمعجزات والخوارق الحسية، فقيل لهم : أليست هذه المعجزة كافية لفتح عيونكم، وأنه حين لم تكن الدعوة الإسلامية في أول

عهدها تمتلك أية قوة مادية ظاهرة ، أعلن القرآن حنيذاك في وجوه أعدائها يقول :﴿ وَاللهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ ولقد تحققت هذه النبوءة بالفعل من خلال امتداد نفوذ الإسلام وانتشاره بين قبائل العرب على أوسع نطاق ، ثم اكتملت بشكل الانتصار الحاسم في معركة بدر ، وفتح مكة المبين في أعقاب صلح الحديبية !

وهكذا حين أخبر رسول الله ﷺ صباح اليوم التالي للإسراء والمعراج : أنني قد ذهبت الليلة من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى . فلم يصدقه الناس ثم دعا هناك رجالاً سبق لهم أن زاروا بيت المقدس فوصف لهم – عليه الصلاة والسلام – بيت المقدس بتمام الدقة والتفصيل . غير أن القوم استخفوا بهذه الوقائع ، فلم يعيروها أي اهتمام، على حين أنها كانت الدليل الخارق على صدقه ﷺ والحقيقة أن المسألة ليست في إراءة المعجزات الحسية،بل تكمن المسألة في التأمل والتفكير الجاد في الدعوة،ولو أن الناس لم يكونوا جادين بشأن الدعوة،فسيعود كل شيء لديهم موضوع الهزء والسخرية،مهما كان ذلك الشيء جديرا بالنظر في حد ذاته .

وقد جاء في بعض الروايات أنه لما حذر القرآن الكفرة الآثمين من أن لهم في جهنم طعاما من شجرة الزقوم (سورة الصافات : ٦٢) قال أبو جهل : ((هاتوا لنا ثمرا وزبدا. وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول : تزقموا ، فلا نعلم الزقوم غير هذا)) ![1] .

وهكذا عندما نزلت هذه الآية الكريمة (الإسراء :٦٠) تتحدث عن ((الشجرة الملعونة)) التي سيأكل منها أصحاب النار ، قال أحد رؤساء قريش تهكما : إن ابن أبي كبشة يوعدكم بنار تحرق الحجارة ، ثم يزعم أنها تنبت فيها شجرة ، وتعلمون أن النار تحرق الشجرة)) [2] .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٨٦.

(٢) تفسير المظهري .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ .

أَرَأَيْتَكَ : أخبرني .

لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ : لأستولين عليهم ، أو لأستأصلنهم بالإغواء .

إن قصة إبليس والملائكة تدلنا كيف يكون المطيعون،وكيف يكون العصاة المعاندون.. فالمطيعون إنما ينظرون إلى الحق من حيث هو حق، فلا يصعب عليهم أن يعرفوه ويتفهموه على وجهه،وبالتالي يبادرون من فورهم إلى الإيمان به،كما صنعت الملائكة عند خلق آدم – عليه الصلاة والسلام .

وأما الآخرون عداهم فهم الذين ينظرون إلى الحق بالنسبة إلى ذاتهم ، وليس بالنسبة إلى جوهره ، وهذا ما فعله الشيطان إذ نظر إلى الحق من خلال ذاته هو ، وبما أن الأمر بالسجود لآدم كان يكشف – على ما يبدو – عن كون آدم كبيراً ، وكونه صغيراً ، فلم يلبث أن رفض الإيمان بحق تعود معه ذاته صغيرة !

وهذا ما أخذنا في الاعتبار تحدي الشيطان كل شخص يرفض الحق ويعرض عنه لأنه لو آمن به ، صارت ذاته هو صغيرة بإزاء الآخرين !

﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ .

وَاسْتَفْزِزْ : استخف واستعجل وأزعج .

وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم : صح عليهم وسقهم .

بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ : بكل راكب وماش في معصية الله .

غُرُوراً : باطلا وخداعا .

عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ : تسلط وقدرة على إغوائهم .

إن قوله : ﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ (أي من أطاع الشيطان من ذرية آدم) ، يدل على أن الإنسان حر في العالم الراهن لكي يسير في طريق الشيطان ، أو في طريق الله .. وفي استعمال هذه الحرية ذاتها يمكن امتحان الإنسان الحقيقي، فهو إما أن يفوز بإنعام الله بنجاحه فيه ، أو يعود أهلاً لمصير الشيطان بفشله فيه .

والشيطان أيضاً يتمتع بالحرية في هذه الدنيا لكي يتخذ من الإنسان خليله ، وأن يستخدم كل حيلة للتغلغل في أعماقه ، فيعود شريكاً له في ماله وأولاده ، غير أن الشيطان لم يتح له أي نوع من التسلط أو السيطرة على الإنسان ؛ إذ ليس في مقدوره سوى أن يحاول إغواء الناس بالصوت والألفاظ ، ويتناول أشياء باطلة لا حقيقة لها بالتمويه والزخرفة ، فيعرضها عليهم كما لو أنها هي الحقيقة الكبرى .

وقوله ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ ﴾ يدل على أن الشيطان أقوى من الإنسان من حيث إمكانياته ، إذاً فما سبيل الخلاص في عالم لا يلبث الشيطان فيه أن يهاجم الإنسان مع سائر جنوده من « الركبان والمشاة » ؟!

إنما السبيل الوحيد إلى النجاة منه هو أن يجعل الإنسان من الله وكيله وولي أمره بأصدق معاني الكلمة ، فمن يفعل ذلك فسوف يتكفل الله – سبحانه وتعالى – بحفظه ورعايته بحيث يصبح الشيطان – على كل طاقاته – عاجزاً عن مواجهته تمام العجز!

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾ .

يُزْجِي : يجري ويسير ويسوق برفق .

لقد جعل الله العالم الراهن خاضعاً لقوانين معينة ثابتة لا تتخلف .. الأمر الذي يمكن الإنسان من أن يسير سفينته في البحر ، ويسوق مراكبه السريعة عبر الجو .. وقد كان الغرض من هذا كله أن يعرف الإنسان ما أسدى إليه ربه من جليل النعم ،فيقوم في المقابل بالشكر والامتنان له تعالى .

غير أن الإنسان يظن كل حادث يراه واقعا تحت أبصاره،على أنه لابد له من وقوعه،كما ينظر إلى حدث إرادي مقصود،على أنه حدث يقع تلقائياً وليس وراءه أي إرادة أو قصد سابق. وهذا هو السبب في أنه لا يستقيظ هناك أي شعور رباني في داخله،رغم مشاهدته المتكررة لهذه الوقائع والأحداث .

إن معرفة الله – سبحانه وتعالى – حقيقة لدرجة أنها كامنة في صميم فطرة الإنسان ، لصيقة بأعماقها ، وتتجلى هذه الحقيقة إذا هو تعرض لكارثة ، يجد نفسه بإزائها عاجزا مكتوف اليدين لا قوة له ولا حول .. وعلى سبيل المثال : مجيء طوفان مفاجئ في البحر بحيث تتورط فيه سفينته وقد أحاط بها أمواج هائلة من كل جانب .. وفي لحظات كهذه ترتفع عن ذهن الإنسان كل الحجب الاصطناعية المتراكمة عليه ، وهو يأخذ ينادي الله الواحد الأحد طلباً للعون والنجدة ، ولا يكاد يعرف أو يتذكر وقتئذ أحداً سواه .

وإنما يبتلي الإنسان بهذه التجربة الوقتية لكي يصوغ حياته العملية كلها في قالبها فيحول اعترافه المؤقت إلى إيمانها الدائم .. غير أن الحقيقة التي يكرهها الإنسان ، وهو

متورط في طوفان البحر ، لا يلبث أن ينساها عقب وصوله إلى بر الأمان .

إن التسليم بألوهية الله الواحد الأحد وهو التوحيد كما أن عدم التسليم بألوهية الله الواحد هو الشرك .. وعلى هذا الاعتبار فحقيقة التوحيد الجوهرية هي الاعتراف، وحقيقة الشرك الجوهرية هي عدم الاعتراف .. والشيء الذي يطلبه الله من الإنسان أصلاً هو هذا الاعتراف بذاته ، ولكن الإنسان ظالم لدرجة أنه لا يكاد يرضى بتأدية حق الله حتى بمقدار الاعتراف المجرد !

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾ .

يَخْسِفَ بِكُمْ : يغور ويغيب بكم تحت الثرى .

حَاصِباً :ريحا شديدة ترميكم بالحصباء .

قَاصِفاً : عاصفا شديدا مهلكا .

تَبِيعاً: نصيرا أو مطالبا بالثأر منا .

إن الله لا يبطش بالإنسان فوراً ، رغم عصيانه وتمرده ، بل يصيبه ببعض النكبات المؤقتة ، ليوقظه من الغفلة ، ولكن عجيب أمر هذا الإنسان ، فإنه إذ يتعرض للنكبة ، يستيقظ بداخله الوعي والإحساس بصفة وقتية ، وحين تزول النكبة، تتلاشى يقظة إحساسه هي الأخرى ، فيعود بالتالي سيرته الأولى من التمادي في الغفلة والعصيان .. في حين أنه لا يزال بعدئذ في قبضة الله وتحت قدرته تماماً كما كان قبلئذ !

فلئن كان هو قد عاد سالماً غانماً هذه المرة من رحلة البحر فمن الممكن جداً أن

يضطر ثانية إلى القيام برحلة عبر البحر ، فيتورط من جديد في المصيبة نفسها التي كان قد تورط فيها من ذي قبل، وزيادة على ذلك فإن أخطار البر لا تقل عن أخطار البحر، فالشيء الذي يدعى الطوفان في البحر ، يأخذ شكل الرجفة والزلازل في منطقة البر ، إذن ، فهل ثمة موضع يجد فيه المرء شيئا من شأنه أن يحميه من بطش الله عز وجل ! كلا ، كلا !!

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ .

إن الإنسان يتميز ، من بين سائر مخلوقات الكون ، بفضيلة خاصة ، فالقمر والنجوم كائنات يعوزها الوعي والشعور ، بينما الإنسان يملك الشعور والإرادة ، ويمارس التصرف في الأشياء الأخرى بمحض اختياره ، والحيوانات إنما تعمل بواسطة أعضائها وجوارحها وحدها، غير أن الإنسان يحقق أعراضه ومآربه عن طريق اختراع دروب شتى من الآلات والمعدات ، والأنهار لا تسعها إلا أن تجري تجاه السهول والمنحدرات، ولكن الإنسان يصعد على الشواهق والمرتفعات وهو يقدر على أن يتحرك ويسافر في الاتجاه المعاكس للتيار .

كما قد اتخذت هناك ترتيبات ضخمة (على نحو ملكي) لتوفير الرزق للإنسان في هذه الدنيا.. ،فالحيوانات تأكل العشب لترده للإنسان في صورة الألبان واللحوم،وشغّالات النحل تصل الليل بالنهار سعيا وراء جمع رحيق الأزهار من أنحاء العالم كافة ، حتى تصنع للإنسان ذخائر العسل .. إلخ .

وبمقتضى هذا الإنعام والتكريم الإلهي ، كان ينبغي على الإنسان أن يكون شاكراً لله سبحانه وتعالى ، غير أن الإنسان هو المخلوق الكنود الجحود ، من بين سائر المخلوقات عداه، الذي قلما يشكر لربه !

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾ .

بِإِمَامِهِمْ : بمن ائتموا به أو بكتابهم .

فَتِيلاً : قدر الخيط في شق النواة من الجزاء .

إن كل الطوائف البشرية كما هي تكون وراء قادتها في هذه الدنيا ، ستدعى كل واحدة منها في الآخرة مع قائدها كذلك .. فالصالحون مع قادتهم والطالحون مع قادتهم .

وبعدئذ سيعطى الكل كتاب أعماله التي عملها في الحياة الدنيا ، وسيعطى الصالحون كتاب أعمالهم بأيمانهم والطالحون بشمائلهم وإنها ستكون بمثابة علامة ظاهرة محسوسة تدل على أن الطائفة الأولى قد فازت برضا الله ، وأن الأخرى قد باءت بسخطه تعالى .

وتقسيم الناس إلى صالح وطالح في الآخرة إنما سيتم على أساس من عاش في هذه الدنيا أعمى، ومن عاش هنا بصيراً.. وبما أن الله – سبحانه وتعالى – لا يكلم الإنسان في هذه الدنيا على نحو مباشر،لذا فليس هناك من سبيل إلى الاطلاع على رضوان الله تعالى ومشيئته في هذه الحياة الدنيا غير سبيل واحد،ألا وهو تدبر آيات الكون الصامتة،والتأمل في أحاديث دعاة الحق .. فالذين يتوصلون إلى المعرفة عن طريق هذا الكلام غير المباشر،هم عند الله ((ذوو البصر والبصيرة)) حقا، وأما الذين لا يفهمون هذا الكلام غير المباشر وينتظرون الوقت الذي سيظهر فيه الله عياناً، ليكلمهم بطريقة مباشرة،فإنهم عند الله ((عميان)) وأمثال هؤلاء لن ينفعهم شيئا،حتى الاستماع المباشر إلى الكلام الإلهي،فإنهم سيظلون عندئذ أيضا بعيدين عن الحقيقة تماماً كبعدهم عنها

اليوم !

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ .

لَيَفْتِنُونَكَ :ليوقعونك في الفتنة وليصرفونك .

لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا :لتختلق وتتقول علينا .

تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ : تميل إليهم.

ضِعْفَ الحَيَاةِ :عذابا مضاعفا في الحياة الدنيا.

إن المحور الأساسي لدعوة رسول الله ﷺ بمكة كان يتمثل في أن الله واحد أحد لا غير، وكل ما تعبدونه من دونه تعالى من الأصنام والأوثان هو باطل محض .. ومع أن أهل مكة كانوا يقرون بوجود ((إله كبير)) إلا أنهم – مع ذلك – كانوا يشركون به آلهة أخرى كذلك .

وقد حاول مشركو مكة مساومة النبي – عليه الصلاة والسلام- على أن يعبدوا إلهه مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم إلا أن منهج النبي هو الجهر بالحق وإعلانه بتمام الوضوح ، من غير اكتراث بما إذا كان له مساس بآلهتهم أو لا !؟

إن هدف العملية الدعوية الأصيل هو إعلان الحقيقة على وجه أتم وأوضح ما يكون ، وللسبب ذاته فأي تنازل أو قصور فيما يتصل بموضوع الإعلان أمر لا يساغ بحال من الأحوال.. إذن ، فكل من ينهض للدعوة إلى الحق سواء أكان نبيا أم غير نبي لابد له من الإعلان الصريح المكشوف للحقيقة ، حتى ولو اضطره ذلك إلى أن يبقى

وحيدا مخذولاً لا ناصر له ولا صديق في طول الدنيا وعرضها !!

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

لَيَسْتَفِزُّونَكَ :يستخفونك ويزعجونك .

تَحْوِيلاً :تغييرا وتبديلا

إن الدعوة إلى دين الحق أينما تنهض ، وبين أية طائفة ترتفع أصداؤها ، تكتنفها دوماً ظروف وأوضاع مماثلة... حيث يكون هناك – من ناحية – أناس يحتلون المناصب القائمة باسم الدين ، ومن ناحية أخرى يكون الداعي إلى الحق الذي يبدو وحيداً وضعيفا للغاية تبعا لمقياس القوة السائدة في بيئة العصر ،وهذا الفرق الظاهر يوقع القوم في سوء فهم وغرور، فلا يلبثون أن يعتبروا داعي الحق تافها لا يقام له وزن ، حتى إنهم يريدون أن يخرجوه من قريتهم .

ويغيب عن أمثال هؤلاء أن هذه الأرض هي أرض الله ، ومن هنا فإن تدبير أي خطة تخريبية ضد أحد عباد الله يعني إقامة الدليل على كون أنفسنا مجرمين عند الله سبحانه وتعالى.. إن إخراج داعي الله من قرية ما ، شأنه شأن إخراج شخص من إحدى المدن والولايات ، بعث هناك بصفته مندوبا للحكومة المعاصرة .. فانتزاع حق السكنى في المدينة من شخص كهذا يؤدي نهائيا إلى أن ينتزع حق السكنى من سكان المدينة أنفسهم !

المرء يطرد غيره في حين أنه لا يطرد إلا نفسه هو والمرء يحاول أن يحط من قدر الآخر، بينما هو لا يحط إلا من قدر ذاته في عين المالك الحقيقي الذي له الخيار المطلق في

أن يضع من شاء ويرفع من شاء ، فهو المعز وهو المذل وهو على كل شيء قدير !

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ .

لِدُلُوكِ الشَّمْسِ :بعد أو عند زوالها عن كبد السماء .

غَسَقِ اللَّيْلِ : ظلمته أو شدته .

وَقُرْآنَ الفَجْرِ : وأقم صلاة الصبح .

فَتَهَجَّدْ : التهجد الصلاة ليلا بعد الاستيقاظ

إن الجزء الأول من هذه الآية الكريمة معناه الحرفي : أن ((أقيموا الصلاة من وقت زوال الشمس إلى وقت ظلمة الليل)) .. وتفيد هذه الألفاظ ، على ما يبدو ظاهراً ، بوجوب إقامة الصلاة بتسلسل واستمرار ، من بعد الظهيرة حتى انتشار ظلام الليل .. وإنه ليس من الشك في أن عظمة الله وما أسدى إلى عبيده من نعم لا تحصى ، يتطلبان منهم أن يظلوا مشغولين بعبادته تعالى كل حين وآن دون انقطاع .

بيد أن تفسير الحديث للآية تناول عمومها بالتخصيص،وبذلك فقد حول الحديث النبوي هذا الحكم العسير إلى أمر بالغ اليسر والسهولة إذ قرر أن على الناس أن يقيموا صلتهم بالله ، خلال الأوقات المعتادة، على مستوى ((الذكر)) وحده ، وأن يقوموا ، في أثناء الفترة الممتدة منذ الظهيرة وحتى الليل ، بعبادته تعالى أربع مرات (وهي صلوات: الظهر، والعصر ، والمغرب ، والعشاء) .

وهكذا فإن الترجمة الحرفية للجزء الثاني من الآية تتلخص في : ((وقراءة (القرآن) عند الفجر)) .. ولئن أخذنا بهذا المفهوم الظاهري ، فسيكون معناه أنه يجب إمضاء أوقات الفجر كلها في تلاوة القرآن الكريم كل اليوم .. غير أننا نجد البيان النبوي هنا

مرة أخرى قد يسر علينا الأمر بكشف النقاب عن مراد الله تعالى .. فمعنى هذا الحكم على وجه التحديد ، طبقا لما ورد في السنة المتواترة ، أنه مطلوب أداء صلاة عند مطلع الفجر أيضا ، ولتكن هذه الصلاة (الخامسة) متميزة عن الصلوات الأربع الأخرى عداها ، بإطالة القراءة فيها !

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ ﴾ .

نَافِلَةً لَّكَ : فريضة زائدة خاصة بك .

مَقَاماً مَّحْمُوداً :مقام الشفاعة العظمى .

روح صلاة التهجد هي ذكر الله في خلواتنا الخاصة .. والتهجد في اللغة : هو الاستيقاظ بالليل ؛ لأنه وقت يتسم بغاية الهدوء والخلوة ، وحين يصحو المرء من نومه في الهزيع - أي الثلث أو الربع – الأخير من الليل ، فإن ذلك ليكون أطيب أوقاته على الإطلاق ، في تلك اللحظات السعيدة ؛ إذ يتوجه المرء إلى الله ، ويتلو كلام الله في خشوع، واضعاً يمينه على يساره على هيئة المصلي ، فكأنما هو يرسم الصورة النهائية لعبوديته لربه ، وبخاصة عندما تكون نبضات قلبه هي الأخرى تتجاوب مع ما يقرأه بلسانه ، وتذوب شخصيته كلها بحيث لا يلبث أن تفيض دموعا من خلال عيونه !!

و((المقام المحمود)) معناه الحرفي : هو ((المقام الممدوح أو المثني عليه)) وهذه ((المحمودية)) لها جانبان : دنيوي وأخروي .. أما الجانب الأخروي فهو : الذي يطلق عليه المفسرون ((الشفاعة العظمى)) ، فكما هو معلوم من الأحاديث الواردة في هذا الباب ، أن جميع الأنبياء سيشفعون يوم القيامة في حق المؤمنين بهم ، وستكون شفاعتهم تلك بمثابة تصديق لكونهم مؤمنين وبعدئذ سيدخل في الجنة من شاء الله إدخاله فيها .. وستكون شفاعة رسول الله ﷺ أكبر وأعظم من شفاعات سائر الأنبياء ، ذلك لأنه

سيشفع لعدد أكبر من الناس ، لكون عدد أتباعه أكثر من الجميع !

وأما الجانب الدنيوي لـ ((محمودية)) رسول الله ﷺ فهو أن يقترن به تاريخ مجيد يعود معه جديراً بالثناء والاعتراف لدي شعوب العالم أجمع ، وقد تحقق مراد الله هذا في حقه ﷺ على أكمل وجه ، حيث أصبح كل الناس في العالم اليوم لا يسعهم إلا أن يعترفوا به رغم أنفهم .. فقد صارت نبوته الآن نبوة مسلماً بها ، ولم تعد النبوة المتنازع عليها كما كانت في السنوات الأولى من بعثته – عليه الصلاة والسلام .

النبوة ((المحمودية)) هي من الناحية الدنيوية ، اسم ثان للنبوة الثابتة المبرهن عليها، أي النبوة التي تصاحبها وتدعمها شواهد تاريخية قطعية لدرجة أنه لا يبقى هناك مجال للشك أو الارتياب في صدق صاحبها ولا في صحة تعاليمه .. وبالتالي يعود الإنسان مرغما، بموجب المعيار العلمي المسلم به عند نفسه هو ، على الاعتراف بمكانته ، ومن شأن الإقرار والاعتراف عندما يبلغ آخر مداه ، أن يتحول إلى المدح والثناء ، وهذا هو السر في أنه أطلق عليه هنا وصف ((المقام المحمود)) !

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ .

مُدْخَلَ صِدْقٍ : إدخالا مرضيا جيدا في أموره .

سُلْطَاناً نَّصِيراً : قهرا وعزا ننصر به الإسلام .

وَزَهَقَ البَاطِلُ :زال واضمحل الشرك.

لقد كان رؤساء العرب يريدون جعل رسول الإسلام ((مذموماً)) ، ولكن شاءت إرادة الله – عز وجل – إيصاله إلى مقام ((المحمود)) .. وتحقيقاً لذلك فقد كان تدبير الله يتمثل في خلق ظروف مواتية له في المدينة ، ونقله إليه مهاجراً من مكة ، ثم إرساء

دعائم الدولة الإسلامية بالمدينة ، وتكثير تعداد المسلمين إلى حد أقصى من خلال الجهود المكثفة في حقل الدعوة والتبليغ ، إلى أن يتمكن هؤلاء المسلمون من دخول مكة فاتحين ، وبالتالي تعود شبه الجزيرة العربية بأكملها خاضعة ومسخرة لهم ، وهكذا تنضوي تحت راية التوحيد قوى هائلة ، تقوم عن طريق عمل دؤوب متواصل ، بالقضاء على غلبة الشرك ومحو آثاره من العالم أجمع !

وقد كان ذلك هو التدبير الإلهي الذي تم إعلانه هنا على لسان رسول الإسلام بشكل الدعاء !

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ .

خَسَاراً : هلاك بسبب كفرهم به .

القرآن هو إعلان الصدق الخالص ، وحينما يعرض الصدق الخالص ، فإنه يمثل خطراً يتهدد كل أولئك الذين يعيشون إما محرومين من الصدق مطلقاً ، أو متمسكين بصدق زائف مغشوش .. والآن فمن كان منهم واقعياً ، إذا ما ظهر الصدق الخالص أمامه ، فإنه يتخذ من الصدق المعيار أو الحكم دون ذاته هو ، وهكذا فإن جديته وواقعيته تحولان القرآن إلى شفاء ورحمة له ، ولكل من سار على نهجه .

أما الصنف الذي يخشى اتباع الحق حرصا على ما في يديه من مطامع الدنيا ، فلا يزيده وضوح الحق إلا خسراناً .

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾ .

وَنَأَى بِجَانِبِهِ :لوى عطفه تكبرا وعنادا .

كَانَ يَئُوساً : شديد اليأس والقنوط من رحمة الله .

شَاكِلَتِهِ : مذهبه الذي يشكل حاله .

إن كل إنسان لابد وأن تمر عليه أحوال شتى من الخير والشر ، فإذا أتيحت له الرفاهية والرخاء، يبدي ثقة بالغة بنفسه،لدرجة أنه يصبح عنيداً ومتصلباً في الإذعان لأمر ما،كأنه حديد لا يلين .. ولكن حين يسلب منه أسبابه،وتعتريه حالة العجز وانعدام الحول والحيلة، يعود فجأة ساقط الهمة ، صريع اليأس والقنوط .

وتلك تجربة يمر بها الإنسان خلال حياته في العالم الراهن ، ولكن ليس هناك أحد يوفق لاكتشاف ذاته من خلال هذه التجربة ، بأن تقوده هذه التجربة إلى التفكير في أنه إنما يقف هنا موقف العناد والتعنت إزاء الحق في هذه الدنيا ، لكونه يتمتع فيها بالحرية ، ولكن إلام سيئول أمره عندما تفاجئه القيامة ، فتنتزع منه كل اختياراته انتزاعا ؟! ألا ما أضعف هذا الإنسان ، ولكنه – مع ذلك – كم يظن نفسه قوياً شديد البأس !!

المقصود بالشاكلة هو القالب الفكري .. إن كل امرئ له قالب فكري خاص يتكون شيئا فشيئا بحسب ميوله واتجاهاته في الحياة .. وهذا القالب هو الذي يصوغ أفكاره ووجهة نظره تجاه الأشياء والأمور .. غير أن وجهة النظر الصحيحة هي التي تكون صحيحة طبقا للعلم الإلهي ، والخاطئة هي التي تكون تبعاً للعلم الإلهي كذلك .

وهذا هو موضع امتحان المرء في هذه الحياة .. والمطلوب من المرء هو أن يحطم قوقعته الفكرية التي صاغتها وفرضتها عليه شاكلته ، حتى يتمكن من أن يرى الأشياء كما هي .. وإليها من وجهة النظر الربانية .

إن الذين حبسوا أنفسهم داخل قوقعتهم الفكرية إنما هم أناس ضالون منحرفون ،

وأما الذين حصلوا على وجهة النظر الإلهية ، متحررين من أسر قوقعتهم الفكرية ، فهم وحدهم المهتدون إلى سبيل الحق والرشاد!

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ .

المراد بالروح هنا : قيل : الروح التي في الجسد ، وقيل : جبريل عليه السلام وقيل: ملك عظيم .. والذين وجهوا إلى رسول الله ﷺ هذا السؤال كان قصدهم من ورائه هو الكشف عن ((جهل)) رسول الله ، زعمهم ، وليس في الحقيقة دفع جهلهم أنفسهم !!

وقد كان ذلك في وقت لم يكن فيه رسول الله قد أحيط بتاريخ المجد والعظمة بعد،وإنما كان – عليه الصلاة والسلام – يبدو للناس رجلاً عادياً ليس غير ، وبما أنهم لم يكونوا على يقين من أن ملك الله يأتيه بالوحي الإلهي ، لذا فقد توجهوا إليه بهذا السؤال على وجه التهكم والسخرية .

على أن القرآن قد أشار هنا ، في معرض الرد على هذا السؤال ، إلى أمر مبدئي هام ، ألا وهو أن الإنسان ((لم يؤت من العلم إلا قليلا)) ، وأنه لا يتمتع بـ ((العلم الكثير)) ، وعليه فمقتضى الواقعية هو ألا يخوض في أسئلة لا يتمكن – لكونه مفطورا على قلة العلم – من التوصل إلى الأجوبة الصحيحة عنها .

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ .

وَكِيلاً : من يتعهد بإعادته إليك .

ظَهِيراً :معينا .

إن القرآن الكريم ليس من كلام محمد ﷺ وإنما هو كلام صادر عن مستوى آخر فوق طبيعة البشر .

والذين كانوا يعدون القرآن كلاما بشرياً، قيل لهم : إن كنتم صادقين في زعمكم هذا إذن فينبغي أن يكون في مقدوركم أيضاً بصفتكم بشراً ، أن تأتوا – منفردين ، أو مجتمعين – بكلام مثل هذا القرآن ، إلا أن أحداً من أرباب اللغة والأدب ، وجهابذة العلم والفكر ، لم يستطع ، على مدى التاريخ،رد هذا التحدي ،لا في عصر نزول القرآن،ولا فيما تلاه من العصور ، وتدل الوقائع على أن هناك أناساً كثيرين حاولوا القيام بذلك ، إلا أن محاولاتهم سرعان ما باءت بالإخفاق والفشل الذريع ؛ إذ إنهم ظلوا عاجزين حتى عن الإتيان بسورة واحدة من طراز القرآن العظيم !

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾ ﴾ .

صَرَّفْنَا :رددنا بأساليب مختلفة.

كُلِّ مَثَلٍ :معني غريب حسن بديع .

فَأَبَى : فلم يرض . **كُفُوراً** :جحودا للحق .

يَنْبُوعاً :عينا لاينضب ماؤها.

كِسَفاً : قطعا .

قَبِيلاً : مقابله وعيانا. أو جماعة .

زُخْرُفٍ : ذهب.

حين عرض رسول الله ﷺ رسالة الحق ، قال له معاصروه : ((إننا لن نؤمن بك ، ما لم ترنا أعمالا خارقة للعادة)) ، غير أن مطالبات كهذه مخالفة لمنهج الله عن الخلق ، فقد خلق الله الإنسان كوجود ذي وعي وشعور ، وإنه لهبة نادرة فريدة من نوعها في هذا الكون بأكمله ، والسر في إعطائها للإنسان هو أن يعرف الحق باستخدام الوعي والشعور ، وليس بواسطة الخوارق والشعوذات السحرية ..

والحقيقة هي أن امتحان الإنسان في العالم الراهن إنما يجرى على مستوى ((الدليل)) فالمطلوب من كل أحد هنا هو أن يعرف الحق بلغة الدليل،وبالتالي يختاره عن وعي وبصيرة ، وأما الذين لا يعرفون الحق على مستوى الدليل والبرهان ، فأولئك هو الذين سيبوؤون آخر الأمر بالفشل والخيبة !

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ .

لقد كان السبب في امتناع أكثر الناس عن الإيمان تعجبهم من أن الذين أرسلوا

إليهم بشراً منهم ، وذلك على مر العصور والأمم السابقة .

فقال لهم : لو كان يسكن في الأرض ملائكة لأرسلنا إليهم رسولاً من جنسهم ملكاً، كما أرسلنا إليكم رسولاً من جنسكم بشراً ، ثم قال تعالى لنبيه : قل لهم : يكفي أن الله شاهد عليّ وعليكم ، وهو يعلم من منا على هدى ومن على ضلال .

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾ .

خَبَتْ : سكن لهبها.

سَعِيراً : لهبا وتوقدا .

وَرُفَاتاً : أجزاء مفتتة . أو تربا أو غبارا .

المرء يعيش في هذه الدنيا طبقاً لوضعه المادي ، وإنه سيبدو في الآخرة تبعاً لوضعه الروحي .. ولهذا السبب فإن الذين قد انحرفوا عن سبيل الحق في الدنيا ، عندما يبعثون يوم القيامة، فسيجدون أنفسهم عمياً وبكماً وصماً ، فما كان انحرافهم عن السبيل هنا إلا لكونهم لم يستعملوا أبصارهم وأسماعهم وألسنتهم في الهدف الذي منحوا إياها من أجله ، فهم لم يروا آيات الله ، ولا سمعوا أدلة الله ، ولم تنطق ألسنتهم تأييدا للحق أو دفاعا عنها ، فقد صاروا بالنسبة إلى الحق ، على تمتعهم بحواس البصر والسمع والنطق كما لو أنهم لا يملكون عيوناً تبصر ، ولا آذاناً تسمع ، ولا ألسنةً تنطق ، وفي أعقاب الموت ، حين يصلون إلى العالم الحقيقي ، فسيرون أنفسهم هناك في صورهم الأصلية ، وليس في تلك الصور المصطنعة التي كانت قد أتيحت لهم بصفة وقتية ، لكونهم في

حالة الامتحان في العالم الراهن .

﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا ﴾ تلك عبارة ينقسم القائلون بها إلى صنفين: أحدهما : هو الذي يرددها بلسان المقال،وأما الآخر: فهو الذي يقولها بلسان الحال ..وهذا الصنف الأخير يشتمل على أناس يستخدمون عيونهم وآذانهم وألسنتهم بخلاف الغاية المطلوبة من خلقها،ويزعمون أن عملهم هذا سوف يتبدد ويتلاشى في هذه الدنيا،وأنه غير باق إلى يوم القيامة ليسألوا عنها أو يجازوا عليه !

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ .

إن الأرض والسماء تتواجدان أمام أعيننا كحقيقة لا مرية فيها ، ولا سبيل إلى إنكارها .. وهذا الوجود يثبت أن هناك وجودا حيا يملك القدرة على الخلق لأول مرة، وعلى إبداع الوجود من العدم ، فإذا كان الخلق الأول ممكناً، فما الذي يدعو إذن إلى استبعاد إعادة الخلق مرة ثانية ؟! والحقيقة هي أنه ليس ثمة دليل علمي أو عقلي يمنع من التسليم بإمكان الخلق الثاني بعد تسليمنا بالخلق الأول ، بل العكس هو الصحيح .

والذي لا يسلم بإمكان الخلق الثاني ، بالرغم من هذه القرينة البالغة الوضوح ، فإنما هو ظالم على أرضية العناد والتعنت والمكابرة ، دون أرضية الدليل والبرهان والمعقولية!

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ .

قَتُوراً :مبالغا في البخل .

الإنسان – إلا من هداه الله – مطبوع على الشح والأثرة .. فهو يريد أن يستأثر بكل

أنواع المجد والشرف لنفسه هو أو لطائفته التي ينتمي إليها .. ولو أن الأرزاق والنعم قد عهد بتوزيعها إلى الإنسان ، لبادر الذين حصلوا على المجد والثراء ، إلى الاستئثار بالنبوة هي الأخرى لأنفسهم ، ولم يدعوها تذهب إلى الآخرين عداهم !! .

غير أن الله - سبحانه وتعالى - لا ينظر إلى الأمور من منظور العصبيات الطائفية .. إنه تعالى ينظر إلى كل الناس، ثم يختار منهم من هو أصلح وأفضل فيختصه بالنبوة .. ولو أن أمر الاختيار للنبوة صار موكولا إلى البشر ، لنشأ هنا أيضا من الفساد والفوضى ما نراه سائدا في الدوائر والمؤسسات البشرية لسيطرة هذه الجموع الغفيرة من أناس غير مؤهلين ولا أكفاء عليها بسبب المحسوبية والمحاباة !

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

مَسْحُوراً :مغلوبا علي عقلك بالسحر أو ساحرا .

بَصَائِرَ :بينات تبصر من يشهدها بصدقي .

مَثْبُوراً : هالكا أو مصروفا عن الخير.

يَسْتَفِزَّهُم :يستخفهم ويزعجهم للخروج .

لَفِيفاً : جميعا مختلطين .

فَرَقْنَاهُ : بيناه وفصلناه أو أنزلناه مفرقا .

عندما عرضت على فرعون آيات بينات – دالة على صدق موسى وصحة ما جاء به– لم يلبث أن كذب بها قائلا: «إنما هي سحر!»ومعنى ذلك أنه مهما تقدم الداعي إلى الحق بدليل قوي،ومهما جاء بآية عظيمة باهرة،لا يزال الباب أمام الإنسان مفتوحا أن يرفضها مستخدما بعض الألفاظ،كأن يطلق على الآية الإلهية وصف السحر الإنساني،ويرد دليلاً علمياً متعللاً بأنه نتاج دراسة ناقصة غير ناضجة ،ويعرض عن القرائن الواضحة القاطعة واصفاً إياها باللامعقولية !!!

ومعارضو الحق يفشلون في إسكات صوت الحق بالمعارضة اللفظية ، يلجأون إلى الإجراءات العدوانية ولكن يغيب عن بالهم أن هذا ليس بأمر إنسان ما ، بل إنما هو أمر الله ومن ذا يستطيع أن ينجح في ممارسة العدوان ضد الله – عز وجل؟!

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

مُكْثٍ :على تؤدة وتأن .

إن القرآن هو إعلان الصدق الخالص غير أن الصدق الخالص شيء قلما يحظى بالقبول عند الناس .. ولهذا السبب فلم يلق الله – سبحانه وتعالى – هذه المسئولية على عاتق الداعي، بأن يرغم الناس على الإيمان به إرغاماً ، وإنما تكمن مسئولية الداعي في أن يبذل جهده في الجهر بالحق وإعلانه على أكمل وجه .

القرآن كتاب روعي فيه المخاطب – بمستوييه العقلي والاجتماعي ، وبأحواله المحيطة به – إلى أقصى حدود المراعاة .. وهذا من أسرار تنزيله منجماً على مدى ثلاث وعشرين سنة ، حتى يتمكن كل من يرغب في فهم القرآن من أن يفهمه ويستوعب مضامينه جيداً ، وبالتالي يصير القرآن شيئا فشيئا بلفظه ومعناه جزءاً لا يتجزأ من فكره

وسلوكه !

﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

إن كلام الله يتطلب من الإنسان الخشوع والتواضع .. غير أن الله – سبحانه وتعالى – لا يتجلى عياناً في العالم الراهن ليتلو كلامه على الناس بنفسه ، وإنما يجرى كلامه على لسان ((بشر)) ، والآن فإن الذين تنطوي صدورهم على مشاعر الكبر والغرور ، يعتبرون الخضوع أمامه مرادفاً للخضوع أمام ((إنسان)) ، مما يجعلهم يقابلونه بالرفض والإنكار .

وعلى النقيض من ذلك فإن الذين تخلو نفوسهم من مشاعر الكبر والغرور ، إنما هم ينظرون إلى القرآن من حيث هو كلام الله وكفى ، وبالتالي فهم لا يلبثون أن تتراءى لهم ومضات إلهية في الكلام الجاري على لسان الإنسان، وهو يصبحون من خلاله موصولين بالله ، ويدركون مدى عجزهم وضعفهم بإزاء عظمة الله وجلاله .. وهذا الإحساس يذيب أفئدتهم ، ويجعلهم يخرون بين يديه تعالى ساجدين على وجوههم باكين !

أما النوع الأول من الرجال ، فيمثله رؤساء قريش ، وأما النوع الثاني من الرجال فيمثله المؤمنون من صالحي أهل الكتاب ، أولئك الذين كانوا قد آمنوا برسول الله ﷺ في العهد الأول .

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ

وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ .

وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا : لا تسر بها حتى لا تسمع من خلفك .

إن الذين يعانون من الافتقار إلى إدراك جوهر الحق وفهمه بعمق ، يظلون دوما متشبثين بالقشور والمظاهر الشكلية .. فمنهم من يقول : إن مناداة الله بهذا الاسم أفضل ، وآخر يقول : لا بل دعاء الله بذاك الاسم أفضل .. ويذهب بعضهم إلى أن عبادة كذا يجب رفع الصوت في أدائها ، بينما يرى بعض آخر أنه لابد من خفض الصوت فيها .

لقد كان العرب هم الآخرون تدور بينهم مناقشات كهذه في صور شتى ، ومن ثم نزل القرآن يقول : بأي اسم جميل دعوتم الله – سبحانه وتعالى – فهو اسمه ، وله كل الأسماء الحسنى ، وهكذا قال عن العبادة : إن عبادة الله لا يتوقف أداؤها على رفع الصوت ولا على خفضه ، وإنما المطلوب هو أن تولدوا في داخلكم روح العبادة الأصلية ، وأن تلتزموا بالقصد والاعتدال في ممارستها .

وروح العبادة هي أن يتولد وعي عميق تام بعظمة الله وجلاله في ضمير الإنسان ، وأن يصير الإيمان بالله عنده بمثابة اكتشاف لوجود كامل وعظيم غني عن مساعدة أحد سواه والذي لا ند له ولا شريك في ملكوته ، ولا تعتريه أبداً حالة تحوجه أو تضطره إلى الاستنصار بغيره وهذا الاكتشاف عندما يتحول إلى كلمات تفيض عبر اللسان ، فذلك ما يسمى ((التكبير)) !

سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾.

وَلَمْ يَجْعَل لَّه: اختلالا لا اختلافا ولا انحرافا عن الحق ولا خروجا عن الحكمة.

قَيِّماً: مستقيما معتدلا أو بمصالح العباد.

بَأْساً: عذابا آجلا أو عاجلا.

كَبُرَتْ كَلِمَةً: ما أعظمها في القبح كلمة.

إن القرآن هو الطبعة المصححة للكتب السماوية السابقة.

ولقد تعرضت الكتب (السماوية) السابقة لآفة التحريف من ناحتين: حيث عكف علماؤها المتأخرون – من جهة – على التفريعات والتعمقات غير الضرورية في التعاليم الإلهية، فلم يلبثوا أن جعلوها معقدة غاية التعقيد.

ومن جهة أخرى تنوولت مبادئ الدين بتفسيرات مزعومة، أدت إلى تحويل مساره أو اتجاهه عما كان عليه في بداية الأمر.

وأما القرآن فهو طاهر نظيف من التحريفات والإضافات البشرية ... فهو لا يزال يحافظ على الدين الإلهي الأصيل في صورته الفطرية البسيطة ، ومن جانب آخر ما زال اتجاهه مستقيما نحو الله من غير عوج ولا انحراف ، كما ينبغى أن يكون من حيث الواقع .

وما سر عناية الله – سبحانه وتعالى – بأن يبعث بكتابه إلى سكان المعمورة ؟!

الغرض من ذلك هو إعلام الناس بتدبير الله ..فقد أسكن الله الإنسان في العالم الراهن لأجل الامتحان والاختبار، وسيأتي يوم عقب فناء العالم يحاسب الله فيه كل الناس ، فيقذف بكل أحد منهم في جهنم أو يدخله في الجنان الأبدية بحسب عمله ... والله – سبحانه وتعالى – يريد أن يصبح كل الناس مطلعين على هذه المسألة بكل أبعادها قبل الموت، حتى لا يكون لأحد عذر أو حجة على الله .

إن أحد أسباب ضلال الإنسان وانحرافه عن الصراط المستقيم في هذه الدنيا ، هو أن يتخذ من أحد غير الله سنده وموضع ثقته .. ومن أشنع صور ذلك افتراض أحد الناس ابنا أو ولدا لله – سبحانه وتعالى ... غير أن كل العقائد من هذه النوع لا تعدو أن تكون محض كذب وافتراء ؛ إذْ ليس ثمة من أحد في الأرض ولا في السماء يتمتع بأي نوع من الخيار أو السلطة غير الله عز وجل !.

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ .

بَاخِعٌ نَّفْسَكَ : قاتلها ومهلكها أو مجهدها .

أَسَفاً : غضبا . وحزنا عليهم أو غيظا .

لِنَبْلُوَهُمْ : لنختبرهم مع علمنا بحالهم .

أَحْسَنُ عَمَلاً : أزهَدُ فيها وأسْرَعُ في طاعتنا .

صَعِيداً جُرُزاً : ترابا أجرد لا نبات فيه .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ تدل هذه الجملة على حال الداعي بشأن الدعوة .. حيث إنه ربما يهلك نفسه حزنا وأسى على أن الناس لا يتلقون دعوة الحق بالقبول لو أن دعوة تصاحبها أدلة بلغت منتهى الوضوح ، والتي يكون عارضها غاية في النصح والإخلاص، يحاول جهد طاقته جعلها موضوعا للتأمل والتفكير الحاد لدى الناس ، ولكنهم – مع ذلك – لا يؤمنون بها ، فماذا يكون السبب وراء عدم إيمانهم هذا يا ترى؟! السبب في ذلك هو مفاتن الدنيا .،... فالدنيا جذابة خلابة لدرجة أن المرء لا يستطيع أن يترفع عنها بسهولة ، وبالتالي فهو لا يكاد يفهم أهمية دعوة تصرف اهتمامه وتوجهاته عن العالم الحاضر وزينته الماثلة بين ناظريه ، وتقوده نحو عالم لا تبدو مباهجه ظاهرة متجلية للعيان !

بيد أن مفاتن الأرض وزينتها عابرة وسريعة الزوال للغاية ، فهي لا تدوم إلا لمدة الامتحان المحددة ، ومع انقضاء هذه المدة سيُقضى على الأرض بما فيها من بهجة وجمال، حتى إنها ستعود ساحة خالية جرداء لا نبات فيها ولا حياة كصحراء مجدبة قاحلة !

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ .

أَمْ حَسِبْتَ : بل أظننت .

أَصْحَابَ الكَهْفِ : النقب المتسع في الجبل .

وَالرَّقِيمِ : اللوح فيه أسماؤهم وقصتهم.

أَوَى الفِتْيَةُ : التجئوا هربا بدينهم .

رَشَداً : اهتداء إلى طريق الجنة.

فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ : أنمناهم إنامة ثقيلة .

بَعَثْنَاهُمْ : أيقظناهم من نومهم .

أَمَداً : مدة وعدد سنين أو غاية .

إن حادثة أصحاب الكهف حادثة رمزية ، تدلنا على المراحل التي تمر بها حياة المؤمنين الصادقين في إيمانهم .. فمن خلال ذلك يتضح لنا أن أهل الإيمان ربما يضطرون في بعض الأحايين ، عند اشتداد وطأة الظروف عليهم ، إلى الالتجاء إلى ((كهف)) ما ، غير أن هذا الكهف ، الذي كان يمثل – نظراً لظواهر الأحوال – مقبرة لهم ، يتدفق منه سيل عارم جديد من الحياة والحركة والنشاط ، وبالتالي يتكون لهم تاريخ جديد، من حيث كان معارضوهم وأعداؤهم يريدون وضع نهاية لتاريخهم .

ويذهب المفسرون والمؤرخون إلى أن أصحاب الكهف هم أولئك الذين يعرفون في التاريخ المسيحي بـ ((النوام السبعة)) (seven sleepers) وان قصتهم هذه تتصل بمدينة إفيسس (Ephesus) ،وهي من المدن الشهيرة في العصر القديم ، كانت تقع على الشاطئ الغربي من تركيا ، ولا تزال أطلالها الرائعة متواجدة هنالك حتى اليوم .

وقد كانت هذه المنطقة منذ عام ٢٤٩ وحتى ٢٥١ خاضعة لحكم الإمبراطور

الرومي داقيوس أو ديسيس ، (Decius) ، و كانت تسودها عبادة الأصنام وما يتبعها من تقاليد وطقوس وثنية ، وقد كان القمر يعتبر هناك إلها أو كبير الآلهة ، تقدم له الذبائح والقرابين... وقد ظهرت في أثناء تلك الفترة دعوة التوحيد عن طريق أتباع المسيح الأولين ، وبدأت تنتشر بين الناس ...وإن الإمبراطور الرومي ، كان بدوره وثنيا يعبد الأصنام ، لم يكد يسمع عن انتشار عقيدة التوحيد في أرجاء مملكته ، حتى ثار ثائره ، وأخذ يضطهد أتباع المسيح ويسومهم سوء العذاب .

وأصحاب الكهف المذكورون كانوا سبعة شبان من أسر شريفة في مدينة أفيسس والذي قاموا ، على الأغلب، باعتناق ديانة التوحيد عام ٢٥٠ ق م ، ومنذ ذلك الوقت، وقفوا حياتهم لنشرها والدعوة إليها ... وعندما شرعت الحكومة في مطاردتهم، خرجوا من المدينة سراً ، واتجهوا نحو جبل قريب ، حيث اختفوا في غار فسيح .

وأما أصحاب الرقيم فالأغلب أنه تسمية ثانية لأصحاب الكهف هؤلاء أنفسهم ، والرقيم بمعنى المرقوم، أي الشيء المكتوب .. إذ يقال : إنه لما فقد الشبان السبعة المذكورون من البيوت الرفيعة ، أمر الإمبراطور بكتابة أسمائهم وأحوالهم في لوحة رصاصية وإيداعها في الخزائن الملكية ، ومن هنا فقد صار يطلق عليهم -أيضا- « أصحاب الرقيم » (أي أصحاب اللوح المكتوبة فيه أسمائهم)[1] .

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/ ٧٣.

يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾ .

وَرَبَطْنَا : شددنا وقوينا بالصبر .

شَطَطاً : قولا مفرطا في البعد عن الحق .

﴿ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ (برهان) توضح هذه الجملة أنه كان هناك حوار ونقاش طويل بين أولئك الفتية – بعد أن آمنوا بالتوحيد – وبين كبار قومهم ... غير أن الكبار ظلوا في خلال ذلك عاجزين عن الإتيان بأي دليل واضح في صالح الشرك ...وقد أسفرت هذه التجربة عن ازدياد أولئك الشبان الموحّدين يقينا إلى يقين ، وبالتالي بات مستحيلا عليهم أن يدعوا شيئا ثابتا لأجل شئ يفتقر إلى الإثبات !!!.

ولو أنهم أعطوا الأهمية لمكانة الكبار وكبريائهم لكانوا قد أصيبوا حتما بالارتباك والتذبذب وانعدام اليقين .. ولكنهم عندما علقوا الأهمية على الدليل والبرهان ، زادهم ذلك يقينا ورسوخا فيما آمنوا به ، فإن أولئك العمالقة الكبار قد صاروا في أعينهم ، باعتبار الدليل والبرهان ، أقزاما صغارا جدا ، إذْ وجدوهم ، على كل فخامتهم وأمجادهم الظاهرية ، قائمين على أرضية الكذب ، وليس على أرضية الحق !

﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ .

مِرْفَقاً : ما تنتفعون به في عيشكم .

إن العبد حين ينقطع عن الناس ، يرتبط في الوقت نفسه برب الناس ، حتى إنه ليقترب من الله لدرجة أنه يبدأ يناجيه ، ويكلم ربه ويتلقى منه جوابه .

إن إيمان أصحاب الكهف المتدفق حماسا وفتوة ، وانكبابهم على الدعوة والتبليغ غير

مبالين بأية أخطار أو مخاوف ، وإيثارهم للحق على كل شيء آخر سواه ، إن هذه الأشياء كانت قد رفعتهم إلى أسمى درجة من القرب الإلهي ، فكل ما كانوا يفقدونه في ظاهر الأمر، كان أهون عليهم وأقل قيمة عندهم بكثير مما كانوا قد وجدوه .

وهذا الشعور بالفوز والوجدان هو الذي كان قد حملهم على أن يرضوا بالحرمان من كل شيء ، ولا يرضوا بالحرمان من الحق ، ومن ثم فقد استعدوا أن يغادروا بيوتهم وبلدهم ، ويأووا إلى الغار ، ويظلوا – مع ذلك – واثقين من أن الله سينصرهم حتما ، ويصلح كل شئونهم ... ولقد روى ابن جرير عن عطاء قوله : إنهم كانوا سبعة ، وظلوا مذ لجأوا إلى الكهف ، عاكفين على عبادة الله يبكون ، ويسألون رحمته ونصرته ، إلى أن سلط الله عليهم آخر الأمر نوما عميقاً طويلاً !

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ .

تَّزَاوَرُ : تميل وتعدل .

تَقْرِضُهُمْ : تعدل عنهم وتبتعد .

فَجْوَةٍ مِّنْهُ : متسع من الكهف .

يبدو أن أصحاب الكهف كانوا – والصراع بينهم وبين قومهم في تزايد مستمر خلال المرحلة الدعوية – قد سبقوا إلى اختيار غار معين تحسبا للخطر الوشيك ، ولقد كان هذا الغار من الفسحة والاتساع بحيث يتمكن سبعة نفر من الإقامة والاستقرار في فجوته بتمام السهولة ، كما يحتمل أنه كان شمالي الاتجاه ، ولذا فلم يكن ضوء الشمس، عند شروقها أو غروبها ، يصل إلى داخله مباشرة ، ولا كان بإمكان أحد المارة

أن يتفطن إلى أن بداخله عددا من البشر !

والمرء حين يخلص للحق إخلاصا يجعله في عينه فوق كل مصلحة ، فيضحي بها فى سبيله عن رضا وسرور، ولا ينفك موصول القلب بالله ، دائم التوجه نحوه ، شاكراً وصابراً، حتى في أشد الظروف ظلاما وقسوة ، فإن الله سبحانه يهديه إلى طرق تضمن الحفاظ على إيمانه من جهة ، وعدم انفلات زمام مسيرته الدعوية من يده من جهة أخرى ، قد أتيح هذا النصر لأصحاب الكهف ، باعتبار الأوضاع والملابسات الخاصة المحيطة بهم ، على وجه أكمل ما يكون ..

وبالإضافة إلى ذلك فقد اصطفاهم الله – سبحانه وتعالى – لأمر إلهي خاص .. فالسمو الروحي الذي كانوا قد أقاموا الدليل عليه بتجردهم وإخلاصهم للحق ، صاروا معه عند الله أهلاً لكي يجعل من وجودهم برهانا حسيا على إمكان الحياة بعد الموت ، إن استفاقة أهل الكهف من نوم دام قرنين أو أكثر من الزمان ، لهي واقعة من هذا النوع ذاته !

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾ .

بِالْوَصِيدِ : بفناء الكهف أو عتبة بابه .

رُعْباً : خوفا وفزعا .

إنه – سبحانه وتعالى – إذْ سلط على أصحاب الكهف نوما هادئا متصلا ، تفضل – مع ذلك – بتهيئة مختلف الأسباب ضمانا للحفاظ عليهم أحياء سالمين ، منها – على سبيل المثال – أنهم كانوا لا يزالون يتقلبون يميناً ويساراً ، فإنه لولا ذلك ، لأكلت

الأرض من أجسامهم ، على حد قول ابن عباس ﷺ كما أن كلبا ظل هناك جالساً – باسطا ذراعيه – على مدخل الغار باستمرار ، لا يتحول عن مكانه ، يبدو أن ذلك لكي لا يتمكن أي إنسان أو حيوان من الدخول إليهم ، فيضايقهم أو يلحق بهم نوعا من الأذى ... ثم إن جو الغار الداخلي قد جعله الله مهيبا ومثيرا للرعب لدرجة أن أحد الناس لو حاول التطلع إليه من الخارج ، لا يلبث أن يفر هاربا عند النظرة الأولى خائفاً مذعوراً لا يلوي على شيء !!

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ .

بَعَثْنَاهُمْ : أيقظناهم من نومتهم الطويلة .

بِوَرِقِكُمْ : بدراهمكم المضروبة .

أَزْكَى طَعَاماً: أحل وأوجود طعاما .

يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ : يطلعوا عليكم أو يغلبوا .

لما استفاق أصحاب الكهف من رقدتهم ، أخذوا بطبيعة الحال يتساءلون فيما بينهم عن مدة رقادهم كم هي ؟ ولكن الزمن كان قد توقف بالنسبة إليهم بأمر الله سبحانه، ولذا فالمدة التي كانت للآخرين طويلة بحيث تشمل بضعة قرون ، إذا هي تبدو لأصحاب الكهف وكأنها إنما تساوي يوما أو بعض يوم فحسب !

وعلى إثر يقظتهم شعروا بالجوع ، وقد كانت عندهم بعض النقود الفضية ، ومن بين سكانها عدد قل أو كثر من المسيحيين ، لابد وأن يوجد هناك طعام حلال ، ولذا فقالوا لصاحبهم أن يحاول جهده ليشتري لهم من الأطعمة ما هو أطيب وأزكى ، كما نصحوا له مؤكدين على الأخذ بالحيطة والحذر ، واستخدام اللباقة وحسن التدبر في القيام بهذه المهمة ، ذلك لأنهم كانوا يخافون بناءً على خبرتهم السابقة – إن القوم إن علموا بمكان وجودنا ، لن يألوا جهداً في أن يردونا ثانية إلى الشرك وعبادة الأوثان ، وإن نحن أبينا ذلك ، فسيقتلوننا رجماً من غير شك !

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾ .

أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ : أطلعنا الناس عليهم .

الإنسان يعيش فوق هذه الأرض مائة عام لو لمدة أقل من ذلك ، ثم يموت ... ويبدو ظاهراً أنه قد أنعم وجوده إلى الأبد ، ولكن الحقيقة هي أنه لا يزال باقيا عقب الموت، ويفتح عينيه على عالم جديد ، حيث تنتظره إما راحة أبدية ، وإما عذاب سرمدي.

إن هذه أهم قضايا الإنسان وأشدها خطورة على الإطلاق ، وهي قد ظلت منذ أقدم العصور ، موضوع الجدل والنقاش بين الناس ، ونظراً لأهميتها البالغة هذه فقد اهتم الله – سبحانه وتعالى – بتوفير برهان حسي في حقها بجانب الأدلة العقلية ، حتى لا يبقى لأحد مجال للشك أو الريب فيما يتعلق بقضية ((الحياة بعد الموت)) .

وقد ظل البرهان الحسي يعرض في صور وأشكال شتى في مختلف أدوار التاريخ ،

وقد كان خروج أصحاب الكهف من الغار ، بعد رقدة طويلة تشبه «الموت» ، في القرن الخامس المسيحي ، واقعة من هذا النوع ذاته ، وفي العصر الراهن يمكن اعتبار ما توصلت إليه دراسات العلم الأسمى أو العلم التأملي (Meta Scidnce) من كشوف ، أمثلة من هذا القبيل ؛ إذْ هي تثبت نظرية الحياة بعد الموت على أساس مقاييس الاستدلال الحسية .

ولما خرج أصحاب الكهف من الغار ، بعد مائتي عام أو يزيد ، كانت مدينتهم قد تغيرت أوضاعها ومعالمها تغيراً كلياً ، فالغالب أنهم كانوا قد لجأوا إلى الكهف عام ٢٥٠ م ، مغادرين مدينتهم أفيسس ، وهي كانت إذْ ذاك خاضعة لحكم الإمبراطور ديسيس الوثني ، وخلال الأعوام المقبلة أسفرت جهود المبلغين المسيحيين عن تنصر الإمبراطور الرومي قسطنطين (٢٧٢-٣٣٧) ، فلم تلبث الديانة النصرانية بعدئذ أن انتشرت في كل المناطق الرومية، فعندما دخل أصحاب الكهف ثانيا إلى مدينتهم في عام ٤٤٧ م ، وجدوها تسودها النصرانية .

ولم يكد يخرج هؤلاء الشبان السبعة من الغار ، ويتم التأكد ، من خلال لوحة أسمائهم المودعة في الخزائن الملكية ، وغيرها من القرائن والشواهد ، من أنهم أولئك الفتية المؤمنون الذين كانوا اضطروا إلى مغادرة المدينة ، إبان الدولة الوثنية المضطهدة ، لأجل الحفاظ على عقائدهم النصرانية ، لم يكد يتم كل ذلك ، حتى صاروا موضع احترام الناس وإجلالهم ، لدرجة أن الإمبراطور الرومي الجديد ثيودوسيس (الثاني) زار كهفهم بنفسه ماشيا على الأقدام ليتبرك بهم ، وحين وافاهم الأجل المحتوم ، بُني على غارهم هيكل (معبد) عظيم تخليداً لذكراهم !

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا

تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ .

رَجْماً بِالْغَيْبِ : قذفا بالظن غير يقين .

فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ : فلا تجادل في عدتهم وشأنهم .

إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِراً : بمجرد تلاوة ما أوحي إليك في أمره .

لقد كان ثمة أناس خائضين في مناقشات غير ضرورية ولا مجدية بشأن أصحاب الكهف ، فمن قائل : إنهم كانوا ثلاثة يتبعهم كلبهم ، ومن زاعم أنهم خمسة سادسهم الكلب ، ومن ذاهب إلى أنهم سبعة والثامن كلبهم !. بيد أن المناقشات كهذه من أمارات فساد الطبائع والأمزجة ... إن الروح الديني حين يكون نابضا بالحياة والحيوية يركز على الجوهر والحقيقة ، وما إن تصاب الأمة بالانحطاط ، حتى يختفي الروح الديني الأصيل ، وتصير القشور الظاهرية والتفاصيل الجزئية الهامشية موضوع الجدل والمناظرة ...

وينبغي للمؤمن المخلص دينه لله ، ألا يخوض في مثل هذه المناقشات الفارغة أبداً ، ولئن أثار أمامه أي شخص آخر أسئلة من هذا النوع ، فليكتف بالإجابة المجملة أو ليرد العلم إلى علام الغيوب !

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ .

رَشَداً : هداية وإرشاد للناس .

بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود المدينة ، ليسألوهم عن محمد ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم الأنبياء ... فخرجا

حتى أتيا المدينة وقالا لأحبار اليهود: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقول ...وقد كان أحد تلك الأسئلة عن أصحاب الكهف : ما قصتهم، والثاني عن ذي القرنين : من هو وما كان خبره، والثالث عن الروح ما هي ؟

إن عامة الناس، بل وكثيرين من خاصتهم، أيضاً، لم يكونوا على علم بشيء مما يتصل بأصحاب الكهف قبل عصر المطبعة، إذْ كانت قصتهم مدونة في بعض المخطوطات السريانية، ولم يكن يعرفها سوى نخبة قليلة العدد من العلماء، ولما وجه هذا السؤال إلى النبي ﷺ، قال : ((غدا أخبركم عما سألتم عنه)) – ولم يستثن – حيث كان يرجو أن جبريل سيأتي غدا، وسوف يسأله عن الجواب،غير أن جبريل تأخر في المجيء إليه،حتى مضت خمس عشرة ليلة،ثم جاءه بعد ذلك بسورة الكهف .

ولقد طار معارضو مكة بحادث تأخر الوحي هذا، فلم يلبثوا أن اغتنموه فرصة لتشويه سمعته ﷺ بين الناس، وزعزعة ثقتهم به، فقرر الله تعالى أن الشخص الذي تحاولون الطعن فيه، وتشكيك الناس في صدقه بتحويل حادث بسيط إلى فضيحة، سيجتمع على صدقه وصحة نبوته من الحجج والأدلة ما هو أعجب وأدل من قصة أصحاب الكهف [1] .

وقد تحقق هذا الأمر اليوم على أتم الوجوه وأكملها، فقد اجتمع هناك اليوم على صدق رسول الله ﷺ من الأدلة والبراهين ما لا يستطيع معه شخص ما، وهو في تمام وعيه وعقله، أن يجترئ على إنكاره، إن نبوته ﷺ هي اليوم نبوة مسلم بها، ولم تعد محض نبوة مدعاة !

﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

(١) انظر: التفسير المظهري ٦/ ٢٧.

لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ .

أَبْصِرْ بِهِ : ما أبصر الله بكل موجود .

إن مدة الثلاثمائة سنة أو الثلاثمائة وتسع سنين ، هي – تبعا للتفسير المنقول عن قتادة ومطرف بن عبدالله لهذه الآيات – حكاية قول الناس ، ومن ضمن آرائهم وتخرصاتهم في الموضوع ، وليس إخباراً من الله سبحانه وتعالى ، كما يؤيد ذلك قراءة عبد الله بن مسعود التي وردت بلفظ : ((وقالوا ولبثوا في كفهم ...إلخ)) فقد كان أهل الكتاب في ذلك الزمان، يحسبون ، اعتمادا على بعض القصص غير الموثوق بها ، أن مقدار لبث أصحاب الكهف في الغار هو ثلاثمائة عام بالتقويم الشمسي ، وثلاثمائة وتسعة أعوام بحسب التقويم الهلالي (١) .

ولقد أبطل القرآن رغم الناس هذا ، بعد حكايته إياه ، معقبا عليه بقوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ .

ولقد اكتشف الباحثون في العصر الحديث أن هذه المدة كانت ، باعتبار التقويم الشمسي ، مائة وستة وتسعين (١٩٦) عاما ، وهذا الكشف يدل على أن القرآن كتاب الله، الذي قد أحاط علماً بكل أحداث الماضي والحاضر والمستقبل على سواء لا تخفى عليه خافية، وبناءً على علمه المحيط الشامل ذاك ، لم يقبل بالقول الآنف الذكر ، ولو أن القرآن كان كلاماً إنسانياً لأخذ حتما بالقول المشهور في عصره والذي تعارض آخر الأمر مع اكتشافات الباحثين في العصور اللاحقة !

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٧٩.

دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ .

مُلْتَحَداً : ملجأ وموئلا .

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ : احبسها وثبتها .

وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ : لا تصرف عيناك النظر عنهم .

أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ : جعلناه غافلا ساهيا .

فُرُطاً: إسرافا . أو تضييعا وهلاكا.

إن الوقوف إلى جانب الرسول ﷺ واتخاذ الدين الخالص – الإسلام – دينا، لم يكن بالنسبة لطلائع المؤمنين الأولين من أهل مكة أمراً يسيراً ، فقد كان معناه حينذاك التخلي عن نظام ارتبطت به كل المصالح الحيوية،ومناصرة عقيدة لم تكن ترتبط بها في الظاهر أية مصلحة .. ومن هنا فلم تكد الطائفة الأولى تعتنق الدين الجديد حتى انقطعت صلتها عن نظام العصر السائد،في حين أن الطائفة الأولى كانت ترتكز تمام الارتكاز على نظام العصر السائد مما أتاح لها من الحماية والمنعة والضمان المادي ما قد حرمت منه الطائفة الأولى ... ولم يكن يتوفر لدى الطائفة الأولى غير وصايا، التي ستظهر أهميتها في عالم الآخرة ، بينما كانت الطائفة الأخرى تمتلك تلك الأشياء التي تحظى بمن يقدرها ويعرف قيمتها في سوق هذا العالم !

ولو أن هذا الفرق الظاهري قد أثر على الداعي ، واستبد بعقله ، فستكون النتيجة أن تتضاءل أهمية الدعوة إلى الدين الخالص في عينها، ويصبح الدين المغشوش في نظره أكثر أهمية ، ذلك الذي يتمتع من يحمل لواءه من الناس بمباهج الدنيا وزخارفها .

غير أن ذلك خطأ جد عظيم ...حيث إن أية انحراف عن تلك الرسالة الأصلية التي لها الأهمية الكبرى عند الله ، وهي بالتالي أولى بالاهتمام والرعاية من كل ما عداها.. ولو أن الدعي فعل هذا فسيعود محروما من نصر الله ، ويصل أمره في دنيا الله إلى أنه لا يكاد يجد شجرة تظله ، ولا ماءً يطفئ ظمأه .

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ .

سُرَادِقُهَا : فسطاطها . أو لهبها ودخانها .

كَالْمُهْلِ : كدري الزيت أو كالمذاب من المعادن .

وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً : متكأ أو مقر .

إن الحق الذي يأتي من عند الله – سبحانه وتعالى – يكون صدقاً بكامله ، لا تشوبه شائبةً ، ولا يتطرق إليه شك أو ريب .. ولذا فلا يمكن تناوله بأي نوع من التعديل مراعاةً للبشر ... فإن تناول الحق الإلهي بالتعديل يعني إحداث تغيير في ذلك المعيار الذي على ضوئه سيتم تحديد وضع كل شخص وتقرير مصيره النهائي !.

والذين يطمعون في أن يؤخذ الحق الإلهي بتعديل يبرر مسلكهم المنحرف الخاطئ في الحياة ، فإنما هم يضيفون التمرد والطغيان إلى جانب ضلالهم وانحرافهم ، وينبغي لأمثال هؤلاء ألا ينتظروا لأنفسهم سوى العذاب الشديد !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ

وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾.

جَنَّاتُ عَدْنٍ : جنات إقامة واستقرار .

سُنْدُسٍ :رقيق الديباج (الحرير).

وَإِسْتَبْرَقٍ : غليظ الديباج .

الأَرَائِكِ : السرر في الحجال .

إن الصدق الإلهي حين يتجلى أمام أناس خلت قلوبهم من التكبر وعبادة المصالح والظواهر ، لا يلبثون أن يعرفوه من فورهم ، حتى ولو كان ذلك الصدق قد أجري على لسان رجل مثلهم .

ثم إنه لا يسعهم ، وقد عرفوا الحق ، إلا أن يطرحوا أنفسهم بيديه ، ويأخذون في صوغ حياتهم طبقا لمقتضياته، دون أن يحاولوا صوغ الصدق نفسه طبقا لحياتهم... والذين يقيمون الدليل هكذا على عبوديتهم للحق ، هم عباد الله المحبوبون ، وإن أولئك سيتم تكريمهم في الآخرة بجوائز وإنعامات سلوكية فخمة !

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

جَنَّتَيْنِ : بستانين .

وَحَفَفْنَاهُمَا : أحطناهما وأطفناهما .

أُكُلَهَا : ثمرها الذي يؤكل .

وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ : لم تنقص من أكلها .

وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا :شققنا وأجرينا.

ثَمَرٌ : أموال كثيرة مثمرة .

وَأَعَزُّ نَفَراً :أقوى أعوانا أو عشيرة .

تَبِيدَ : تهلك وتفنى وتخرب .

مُنقَلَباً : مرجعا وعاقبة .

إن حديقة بلغت من البهجة والخضر غايتها ، ثم إذا بها تتعرض فجأة لكارثة من الكوارث الطبيعية تحيلها أثراً بعد عين، إن حديقة كهذه تمثل شخصا يبتلى بالزهو والكبرياء والغرور ، حين يظفر بالثروة والعزة في هذه الدنيا.

إن ما يحصل عليه أحد الناس في هذه الدنيا من أسباب الثراء والغنى أو المجد والعزة ، إنما يكون ذلك امتحاناً له من عند الله – سبحانه وتعالى – غير أن الإنسان الظالم كثيراً ما ينظر إليه على أنه إنعام إلهي أو حصيلة ذكائه ومجهوده الذاتي ، وتكون نتيجة ذلك أن تستيقظ بداخله مشاعر التمرد والطغيان ، وبالتالي فهو يأخذ يزدري أولئك الذين لا يتوفر لديهم أسباب المجد والثراء إلا حظ يسير ، ويستبد برأسه الغرور والاعتداد بالنفس بحيث يخيل إليه وكان دنياه لن يعتريها الفناء أبدا ، ولئن تعرضت هذه الدنيا – على سبيل الفرض – للفناء يوما ، وتكونت مكانها دنيا أخرى جديدة ،

فلا عجب في أن يكون هناك – أيضا – متمتعا بكل ما يتمتع به ها هنا من أسباب الخير والعافية والرفاهية.

إنه قياس لحالة الإنعام والمكافأة بحالة الامتحان والابتلاء، وهو قياس مع الفارق الكبير، إذْ إنهما حالتان منفصلتان تماماً، لا تربط إحداهما بالأخرى أية علاقة بالضرورة!.

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾

لَكِنَّا۠ هُوَ اللهُ رَبِّي : لكن أنا أقول : هو الله ربي .

حُسْبَاناً : عذابا كالصواعق والآفات .

فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً : رملا هائلا أو أرضا جرزا لا نبات فيها يزلق عليها لملامستها .

غَوْراً :غائرا ذاهبا في الأرض .

ينبغي لأي إنسان خوله الله أسباب الثروة والغنى، أن يعيش في الأرض عابداً شاكراً لله ... ولكن عقل المرء إنْ لم يكن صحيحاً سليماً، يصير ينسى الله حتى في أشد أحوال الفقر والبؤس، وهو يقنع بالقدر المتاح له، آملاً في أن الله سيمنحه المزيد من فضله .

ولو أن المرء عاش في هذه الدنيا مفتوح العينين ، لما أصيب أبدا بالبطر والطغيان فالإنسان ينشأ وينمو هنا كوجود ضعيف ، وتواجهه ألوان شتى من الحوادث والأخطار طيلة حياته ، فهو يتعرض للأمراض ، ويعتريه ضعف الشيخوخة وخرفها ، وهو لا يملك الماء ولا أي شيء من تلك الأشياء التي يستمد منها عناصر الحياة والنماء والازدهار لـ «بستانه» في هذه الدنيا ولا هو قادر على الإمساك بها دائما في يده ، بل هي في يد الخالق ، وهو على انتزاعها منه إذا يشاء قدير !

وما هذا كله إلا لكيما يعيش المرء متواضعاً .. ولكن الإنسان الظالم لا يعتبر بشيء ، ولا يزجره زاجر ، حيث إنه لا يكاد يتنبه ويعود إلى رشده ، ما لم يحرم من كل شيء ، حتى يرى بعيني رأسه أنه لم يكن شيئا سوى العجز والعجز وحده !!! .

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ .

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ : أُهلكت أمواله مع جنته .

يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ : كناية عن الندم والتحسر .

خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا : ساقطة على سقوفها التي سقطت .

الوَلايَةُ لله: النصرة له تعالى .

وَخَيْرٌ عُقْباً : عاقبة لأوليائه .

إن المرء يسخر بضاعته ومواهبه لأجل إنجاز مهمةٍ ما ، ويرواده الأمل في أن مواهبه وبضاعته سيعودان عليه آخر الأمر بأطيب النتائج ، ولكنه لا يلبث حتى يفجأ بضروبٍ

شتى من الحوادث ، تحطم كل آماله تحطيماً ، ويجد المرء نفسه إزاء تلك الحوادث عاجزاً بحيث لا يعود ينقذه منها أي حيلةٍ من حيله أو موهبة من مواهبه التي طالما اعتز بها وعاش واضعاً كل ثقته فيها .

وإنما يُظهر الله أمثلةً أو نماذج كهذه من وقتٍ لآخر في العالم الراهن ، لكي تكون عبرةً للإنسان ، وحتى لا يقع هو في خطأ تعليق الأهمية والأمل على أي شيءٍ آخر غير الله جل جلاله!

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

هَشِيماً : يابسا متفتتا بعد نضارته.

تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ : تفرقه وتنسفه .

الدنيا تمثيل للآخرة .. فحين تكتسي الأرض ، عقب ارتوائها بالماء العذب ، خضرة ونضارة ، ويبدو ظاهرا وكأنها ستبقى كما هي الآن إلى الأبد ، ولكن سرعان ما يتغير الموسم بعدئذ ، وبالتالى يبدأ النبات الأخضر في الاصفرار ، وإذا به يعود هشيما يابسا تنسفه الرياح نسفا !

وهذا هو حال بهجة الدنيا وبهائها كذلك ... إن مباهج الدنيا الراهنة تجتذب اهتمام المرء وتأسر لبه ، غير أن هذه المباهج كلها عابرة مؤقتة للغاية ، فستقضي عليها القيامة عما قريب على نحو يبدو معه وكأن لم يكن لها وجود بالأمس !!

إن مباهج الدنيا وزخارفها غير باقية ...بيد أن ثمة شيئًا آخر قدر له البقاء والخلود ، ألا وهو أعمال المرء الصالحة ، فكما أن البذور الملقاة في الأرض تتحول إلى حديقة ،

تزدهر هناك حديقة كذلك من خلال ذكر الله وطاعته ، وهذه الحديقة لا يعتريها خريف أبدا ، فإن هذه الحديقة الثانية ، على نقيض من الحديقة الدنيوية ، تنبت وتزدهر في عالم الآخرة ، وسوف تسلم مقاليدها إلى صاحبها عند وصوله هناك !

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾ .

بَارِزَةً : ظاهرة لا يسترها شيء .

مَوْعِداً : وقتا لإنجازنا الوعد بالبعث والجزاء .

يوم تقوم الساعة سيحضر الجميع بين يدي ربهم ، يقفون في رحاب المحشر مكتوفي الأيدي لا ناصر لهم ولا معين ، الكل ينتظر قضاء مالكه فيه ، وسيكون عند الله سجل كامل ودقيق عن حياة كل شخص ، وبموجبه سيجزي الله بعض الناس أحسن الجزاء ، بينما يحكم على بعضهم الآخر بأسوأ العذاب !

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ .

وَوُضِعَ الكِتَابُ : صحف الأعمال في أيدي أصحابها .

مُشْفِقِينَ : خائفين وجلين .

يَا وَيْلَتَنَا : يا هلاكنا .

لاَ يُغَادِرُ : لا يترك ولا يبقي .

أَحْصَاهَا : عدها وضبطها وأثبتها.

إن ما يعمله الإنسان يتم تسجيله تحت تدبير الله بمنتهى الدقة ، فمن نيات المرء القلبية، إلى أقواله التي تجرى على لسانه ، إلى أعماله التي يمارسها بجوارحه ، كل ذلك ينعكس ويرتسم على شاشة الكون ... بيد أن هذا التدبير أو نظام التسجيل الإلهي لا يقع تحت أبصارنا اليوم ..وسيرفع هذا الستار حين تقوم الساعة ، وعندها سيقف المرء شاخص البصر من فرط الدهشة والذهول ؛ إذْ يجد أن كل ما كان يعمله في الدنيا ، ظاناً أن ليس ثمة من أحد يعلمه أو يطلع عليه ، تمَّ ضبطه وتقييمه هنا على نحو كامل بحيث لم يدع صغيرة ولا كبيرةً إلا احتواها !

وإن معاملة الإنسان في يوم القيامة – حسنة كانت أو سيئة – ستكون موجباتها – أو بالأحرى مبرراتها – واضحة وثابتة لدرجة أن المرء إذْ يلقي جزاء عمله يكون على يقين من أنه إنما يعامل بما هو أهل له في واقع الأمر ، لا أقل من ذلك ولا أكثر !

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ .

اسْجُدُوا لآدَمَ : سجود تحية وتعظيم لا عبادة .

لقد كان إبليس – كما تقول الروايات – عابداً من الجن ، ومع كونه عاكفا في الظاهر على العبادة والتنسك، إلا أنه قد امتنع عن امتثال أمر الله ، تكبراً ، حين أمره – تعالى – بالسجود لآدم – عليه الصلاة والسلام- والآن ، فكل أولئك الذين يرفضون الخضوع أمام الحق انسياقا مع عواطف الكبر والغرور ، إنما هم من ذرية إبليس ، وإن كانوا يتظاهرون أمام الخالق بالعبادة والتزهد !!

إن الخضوع لله –تعالى – هو في الأصل إقرار بعجزنا إزاء الله العلي القدير ، ولو كان

شخص ما خضع لله حقاً ، فإنه لا يلبث أن يخضع للحق من فوره أينما ظهر ، وبالعكس فإن الذي يكون ((ساجداً)) في ظاهره فقط ، وقلبه مفعم بمشاعر الكبرياء والغرور ، فسوف يستعد للسجود بتمام السهولة حيث لا تصدم السجدة ((أناة)) ولكنه ينقلب فجأة ((إنساناً)) متمرداً رافضاً للسجود وحيث يتطلب الأمر أن يخضع ((أناة)) !

وإذْ يرتفع صوت الحق ، ولا يتلقاه أناس بالقبول ، متأثرين بإبليس وذريته ، فكأنما هم يتخذون من إبليس وذريته بديلاً عن الله – سبحانه وتعالى – وهم يرفضون الخضوع أمام الحق من خشية الآلهة الباطلة ، حيث كان ينبغي عليهم أن يبادروا بالخضوع أمام الله جل جلاله ، وأمثال هؤلاء أناس ظالمون مسرفون في الظلم وإنهم سيعلمون عما قليل أن الذين قد اعتمدوا عليهم تاركين الله ، لم يكونوا مغنين عنهم شيئاً!.

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ .

عَضُداً : أعوانا وأنصارا.

إن أكابر الناس ، الذين يعتبرهم الناس جديرين بالثقة والاعتماد في الحياة الدنيا ، فيتشبثون بأذيالهم هم من العجز والضعف بمكان بحيث لا دخل لهم في إيجاد الكون ولا في إيجاد أنفسهم.

وبالإضافة إلى ذلك فإن هؤلاء بتمثيلهم دور ((المضلين)) في مواجهة دعوة الحق ، إنما يبرهنون على أنهم غير جديرين بالثقة والاعتماد البتة !

إن عالماً يسود ويتحكم في كل أنحائه الحق وحده ، كيف يمكن أن يكون في إبداعه أو تصريف شئونه دخل أو تأثير لشخصيات رأسمالها الوحيد يتمثل في إبعاد الناس عن

الحق؟!

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

مَوْبِقاً : مهلكا يشتركون فيه وهو النار .

مُوَاقِعُوهَا : واقعون فيها أو داخلون فيها .

مَصْرِفاً : معدلا ومكانا ينصرفون إليه .

إن المرء لن تغني عنه في يوم القيامة شيئا ، تلك الشخصيات التي هو ينكر الحق في هذه الدنيا اعتماداً عليها ، واثقاً من نصرها إياه ... إنهم اليوم أصدقاء متحابون مع بعضهم البعض ، ولكن ما إن تنكشف الحقائق ، حتى يعودوا أعداء متباغضين بعضهم مع البعض الآخر ، وسيبدو حينئذ وكأنما قامت بين الفريقين هوة سحيقة دون اجتيازها الهلاك المحقق ! وإنهم ليعدون أنفسهم هنا في مأمن من كل ألوان الخطر في العالم الراهن ، غير أن مصيرهم المحتوم الذي سيواجهونه يوم القيامة ، هو أن يجدوا أنفسهم على أبواب جهنم ، ولن يجدوا إلى الهرب أو الخلاص منها سبيلاً !!

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

صَرَّفْنَا : كررنا بأساليب مختلفة .

كُلِّ مَثَلٍ : معنى غريب بديع كالمثل في غرابته .

سُنَّةُ الأَوَّلِينَ : عذاب الاستئصال إذا لم يؤمنوا .

قُبُلاً : أنواعا وألوانا أو عيانا ومقابلة .

إن المرء يتمتع في العالم الراهن بحرية الامتحان ... ولهذا السبب فهو لا يلبث أن يفتعل هنا عذراً أو مبرراً ما لعدم اعترافه بالحق ، وأن يعثر على بعض الكلمات لرفض كل شيء لا يريد التسليم به .. وقد يحدث أحيانا أنه يحاول معارضة دليل واضح جلي بواسطة إثارة جدل فارغ عقيم حوله ، وقد يلجأ تارة إلى الاستهانة بالدليل المعروض من خلال الإعراض عنها وعدم الاكتراث به ، ويطلب شيئاً آخر لم يكن قد عرض عليه بعد لسبب من الأسباب .

ومن أمثلة هذه الصورة الأخيرة من التعنت والعناد ، أنه لما قدّم النبي ﷺ رسالته إلى مخاطبيه مصحوبة بأوضح الأدلة ، لم يعيروها جانب الاهتمام ، بل راحوا يطالبونه ، صارفين أنظارهم عن الرسالة الأصلية ، بأن ائتنا بالعذاب الذي تهددنا به لقاء إنكارنا ، إن كنت صادقا في دعواك !

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ .

لِيُدْحِضُوا : ليبطلوا ويزيلوا .

هُزُواً : استهزاء وسخرية .

أَكِنَّةً : أغطية كثيرة مانعة .

وَقْراً : صمما وثقلا في السمع عظيما .

إن أصدق الحديث حديث الله ، حيث تتآزر كل الأدلة والبراهين الساطعة على دعمه وتصديقه ... ومن ثم فإن الذين لا يريدون الإيمان به ، لا يجدون أي دليل حقيقي يستندون إليه في إنكارهم إياه ... وإنما هم يملكون دوما محض أباطيل لا أساس لها من الصحة ، يحاولون من خلالها محاولة فاشلة لمغالبة الصدق وإخضاعه .. إنهم يقاومون أدلة قوية صلبة باعتراضات كاذبة سخيفة ، يريدون عرقلة عمل جاد -وهو الدعوة إلى الحق - وصرف الاهتمام عنه عبر تحويله إلى موضوع للسخرية والاستهزاء .

وإنما هم يفعلون هذا كله لإفقاد الداعي اعتباره لدى الجماهير ، ولكن يغيب عن بالهم أنهم هم بصنيعهم ذاك إنما يفقدون اعتبارهم أنفسهم في عين الله !

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾

مَوْئِلاً : منجى وملجأ ومخلصا.

لِمَهْلِكِهِم :لهلاكهم .

لو آخذ الله الإنسان على ظلمه لأنزل العذاب عليه من فوره ، عقب اكتسابه الخطأ ، ولكن الله قد حدد موعدًا لمحاسبة الكل على أعمالهم .

وإنه بإمكان المرء ، لو أراد العظة والاعتبار ، أن يستفيد دروسا نافعة في حاضره من مصير القرون الماضية ... فقد ازدهرت فوق الأرض أمم شتى وحضارات مختلفة ، على مدار التاريخ ، ثم إنها جميعا لم تلبث،حين كفرت وظلمت،أن أهلكت ودُمرت

الواحدة تلو الأخرى في موعد حدده الله لهم أيضا .. وإذا كان قد حدث مع الأجيال السابقة أن نالت جزاء كفرها وطغيانها ، فلم يحدث الشيء نفسه مع الأجيال التالية !؟!

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ ﴾ .

لِفَتَاهُ : يوشع بن نون .

مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ : ملتقاهما .

أَمْضِيَ حُقُباً : أسير زمانا طويلا .

سَرَباً : مسلكا ومنفذا .

نَصَباً: تعبا وشدة وإعياء.

إن الله – سبحانه وتعالى – لم يزل ولا يزال يقوم على إدارة هذا العالم وتدبير أمره بواسطة الملائكة ... وبما أن الإنسان لا يشاهد اليد الإلهية متصرفةً وراء هذا النظام الكوني، لذا فهو لا يتمكن من الإحاطة بأسراره ، ولا حل ألغازه على نحو كامل ، وبالتالي يقع فريسة ألوان شتى من الشكوك والشبهات بسبب قلة عمله وقصور مداركه .

وعلاجاً لذلك ، فقد هيأ الله تعالى أسباب المشاهدة غير المباشرة ، إذْ أطلع نخبة مختارة من عباده على بعض أسرار العالم الغيبي ، ليشاهدوا بأعينهم ما فيه من حكم وأسرار غامضة، فيخبروا الآخرين بها ... وقصة موسى التي ذكرت هنا ، هي بدورها حدث استثنائي من هذا النوع ذاته ، كُشف له من خلاله عن بعض جوانب نظام الله

الخفي، وتنبيهاً لسيدنا موسى ، وهو على أهبة الرحيل ، إلى علامة لمنتهى سفره ، قال الله له: لا تبرح تواصل مسيرك ، حتى إذا وصلت حيث يلتقي بحران ، فستجد هناك عبداً من عبادنا ، فلتطلب منه أن يسمح لك بمرافقتك إياه !

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ .

أَرَأَيْتَ : أخبرني أو تنبه وتذكر .

أَوَيْنَا : التجأنا .

عَجَباً : سبيلا أو اتخاذًا يتعجب منه .

مَا كُنَّا نَبْغِ : الذي كنا نطلبه ونلتمسه.

فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا : رجعا على طريقهما الذي جاءا منه .

قَصَصاً : يقصان آثارهما ويتبعانها اتباعا.

عَبْداً : الخضر عليه السلام.

ولمزيد من الإيضاح لغاية سفره أخبر الله سيدنا موسى بأنك حين تصل إلى المكان المطلوب فسوف تفاجأ هناك بخروج الحوت – لسبب من الأسباب – يخبر موسى بأن حادثاً كهذا قد وقع ... ولما علم سيدنا موسى بذلك ، وقد سار هو وتلميذه بعيداً عن مكان الحادث ، رجعا على أعقابهما على الفور ، حيث وجدا في الموضع المذكور ذلك العبد الصالح (الخضر) الذي كانا قد قطعا هذه الرحلة الطويلة الشاقة من أجل لقائه .

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

رُشْداً : صوابا ، أو إصابة خير .

خُبْراً : علما ومعرفة .

لقد كان الله – سبحانه وتعالى – منح عبده هذا (الخضر) علماً خاصًا وقدرة خاصة من عنده ، استطاع معهما أن يتصرف في شئون العالم تصرفاً غير عادي وتبعاً لعلمه ذاك، كثيرا ما كان يمارس أعمالاً لا تتفق مع ما تقتضيه القواعد العامة ، ومن ثم قال رداً على طلب سيدنا موسى – عليه الصلاة والسلام إنك لن تستطيع معي صبرا على ذلك!

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾.

شَيْئاً إِمْراً : أمرا عظيما منكرا أو عجبا .

وَلاَ تُرْهِقْنِي : لا تغشني ولا تحملني .

عُسْراً : صعوبة ومشقة .

شَيْئاً نُّكْراً : منكرا فظيعا.

إن إحداث عيب في سفينة صالحة سليمة ، وإهلاك طفل بريء ، عملان ، على ما يبدو ظاهراً ، لا خير فيهما ولا صواب،غير أنهما كانا منطويين،كما يتضح من الآيات التالية ، على مصلحة دقيقة للغاية ، إن هذين العملين الخاطئين في الظاهر،كانا،في الحقيقة، على أتم درجة من الصواب والحكمة والفائدة .

وفي هذا يمكن أيضا رد على تلك المسألة التي يطلق عليها عادة وصف مشكلة الشر (Problem of evil)، فهناك الكثير من الأشياء والظواهر في العالم البشري ، تلك التي يعتقد بالنظر إليها ، أن نظام الكون يسوده الشر والفوضى ، إلا أنها تكون مبنية على مصالح عميقة ... ولا شك في أن هذه المصلحة مختفية في حياتنا الراهنة وراء حجاب ، غير أن هذا الحجاب سيرفع عنها في الآخرة ، ويومئذ سيعلم المرء أن ما حدث هو الذي كان ينبغي بمقتضى الحكمة !

﴿ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ۖ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾ .

فَأَبَوْا : فامتنعوا .

يَنقَضَّ: يتهدم بسرعة .

بِتَأْوِيلِ : بمآل وعاقبة .

هنا يصل سيدنا موسى والخضر – عليهما السلام – إلى قرية ، وقد شعرا بالجوع رجاء أن يطعمهما أهل هذه القرية باعتبارهما ضيفين ، إلا أنهم يرفضان القيام

بضيافتهما، مما يدل على أن كون أحد الناس صادقا مقرباً عند الله ليس بكاف ليبدو هو للناظرين أيضا صادقاً ومقرباً ، ولو عرفهما أهل القرية ، لاستضافوهما بالضرورة ، ولتهافتوا عليهم لأجل التبرك بهم ، ولكنهم قابلوهم ، نظراً لزيهم العادي بالتنكر والاعتراض ، ولم يحالفهم التوفيق لينظروا إليهم من حيث حقيقتهم الداخلية .

وبالرغم من هذا التنكر والسلوك غير الجميل ، قام سيدنا الخضر بإصلاح جدار في القرية كان على وشك الانهيار ، من غير أجر يتقاضاه ... إن سلوك عباد الله الصادقين لا يكون سلوكاً معاكساً ، بل يكون دوما وعلى كل حال مطابقا لمقتضى الحق !

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾ .

وَرَاءَهُم : أمامهم وبين أيديهم.

غَصْباً : استلابا بغير حق .

لم يكن سيدنا الخضر قد أصاب السفينة بالعطل أو العطب الكلي ، وإنما جعلها معيبة بصورة مؤقتة ، وكانت المصلحة من ذلك أن السفينة كانت سائرة في اتجاه ينتهي بها إلى ملك كان يغتصب كل سفينة جيدة قهراً ، ومن ثم فقد جعلها الخضر بحيث إذا رآها رجال الملك تركوها باعتبارها غير صالحة للمهمة التي يصادرون السفن من أجلها .

ونعلم من هذا أن أحد الناس ، لو تعرض لمصيبة ما ، أو ابتلي بما يكره في هذه الحياة الدنيا ، فينبغي ألا يتضجر أو يكتئب ، وعليه أن يرضى بذلك ظاناً أن ما قد فعل الله لابد وأن يكون له فيه نوع من الخير أو الفائدة ، وإن كان هو لا يدري الآن ما هو بالضبط على وجه التحديد !

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾

فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ .

يُرْهِقَهُمَا : يكلفهما أو يغشيهما .

زَكَاةً : طهارة من السوء أو دينا وصلاحا .

وَأَقْرَبَ رُحْماً : رحمة عليهما وبرا بهما .

إن مثال الغلام هذا يدلنا على مدى سعة رحمة الله بعباده ونصرته إياهم من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ... حتى إنه تعالى لينصرهم في أمر لا يدرون من سوء عاقبته شيئا من شأنه أن يبعثهم على التوجه إلى ربهم طلباً للعون ... إذن،فينبغي للإنسان أن يتمسك دوماً بالصبر والشكر ، ويحسن بالله ظنه ، راجيا منه الخير على كل حال ... فالله – سبحانه وتعالى – يملك العلم الكلي الشامل ؛ ولذا فهو يعرف ما فيه الخير والفلاح لأحد عباده ، أكثر مما لا يستطيع حتى العبد نفسه أن يعرفه بسبب علمه الجزئي المحدود !

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ .

يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا : قوتهما وشدتهما وكمال عقلهما .

إن هذه الأمثلة توضح لنا أن الله – سبحانه وتعالى – لا يزال يراقب أحداث العالم الراهن ويشرف على شئونه كل حين وآن ، ومع أنه تعالى قد أقام نظام هذا العالم ، لحكمة الامتحان ، على أساس من الأسباب والمسببات، إلا أنه يتدخل بين الحين والحين في هذا النظام تدخلاً يأخذ تارةً شكل البناء والعمارة ، ويظهر طورا في صورة الهدم

والتخريب ، غير أنها جميعا ، إنما تكون من حيث المصالح البعيدة المدى مظاهر رحمته ، يقصد بها التحقق من عدم ضياع مقاصد الخلق الأصلية في دوامة الأسباب والعلل ، المتحركة ، على ما يبدو من غير ضابط ولا قيد !

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾ .

ذِي القَرْنَيْنِ : ملك صالح أعطى العلم والحكمة .

سَبَباً : علما وطريقا يوصله إليه .

ذو القرنين يعني لغةً : من برأسه قرنان ... وهو لقب ملك اتسعت فتوحاته حتى امتدت من أقصى الشرق ﴿ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ ﴾ إلى أقصى الغرب ﴿ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾ والأغلب أن المراد بذي القرنين هنا هو ملك فارس القديم قورش (Cyrus) الذي ظهر في القرن الخامس قبل الميلاد ، وفتح جزءاً كبيراً من البقاع المعمورة أيامئذ ... إلى أن مات آخر الأمر قتيلاً في إحدى المعارك الحربية ، وقد كان يتمتع بشخصية فاضلة ، غاية في العدل والإنصاف !

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ .

فَأَتْبَعَ سَبَبا: سلك طريقا يوصله إلى المغرب .

تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ : بحسب رأي العين .

حَمِئَةٍ : ذات حمأة (الطين الأسود) .

حُسْناً : هو الدعوة إلى الحق والهدى.

عَذَاباً نُّكْراً : منكرا وفظيعا .

ولعل ذا القرنين قد أوغل في غرب فارس ، وهو يواصل فتوحاته ، حتى وصل إلى آسيا الصغرى ، حيث يتهادى بحر إيجه (Aegenn Sea) ((بحائه الأسود)) ، مؤذنا بنهاية حدود البر ، وهنا لو وقف شخص ما على الساحل ، ووجه بصره نحو البحر ، لتراءت له الشمس في وقت الأصيل ، وكأنها تغيب في الماء ، وذلك ما صوره القرآن بقوله : ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ ، وهو بيان ، بلغة المحاكاة ، للحد الذي قد انتهى إليه ذو القرنين في اتجاه المغرب ...

ولم يكن ذو القرنين قد جاء إلى ساحل البحر ذاك كسائح ، بل كفاتح ، وقد استطاع فعلاً أن يقهر الأمة التي كانت تقطن هنا حينذاك ، فخضعت لحكمه وبالتالي حصل له ، باعتباره الحاكم الفاتح ، خيار كامل في أن يفعل بها ما شاء غير أن ذا القرنين كان ملكاً عادلاً كريماً ، فلم يظلم أحداً وأصدر إعلانا عاماً : بأننا لن نستخدم وسائل القسوة إلا مع شخص يقبض عليه وهو يمارس الشر ويعيث في الأرض الفساد ، وأما الذين يعيشون مسالمين ، غير مخلين بقواعد الأمن والنظام في البلاد فلا عدوان عليهم ، وسنعاملهم بالرفق واللين !

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾ .

سِتْراً : ساتراً من اللباس والبناء .

خُبْراً : علما شاملا .

وقد كان لذي القرنين غزوة ثانية في شرق فارس ، فسار يواصل فتوحاته ومغامراته حتى وصل إلى مكان كان يسكن فيه هناك قوم بعيدون عن المدنية كل البعد ، ولعل معنى قوله تعالى : ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ ، أي من دون الشمس وقاية ، أنهم كانوا قبائل رحالة ، كانت تعيش هكذا في ميادين مكشوفة ، بدلاً من الأبنية والعمارات!

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ .

السَّدَّيْنِ : جبلين مُنِيفَينِ

يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ : قبيلتين من ذرية يافث بن نوح .

خَرْجاً : جعلا من المال تستعين به في البناء .

سَداً : حاجزا فلا يصلون إلينا .

وفي غزوته الثالثة كان ذو القرنين قد اتجه نحو شمالي شرق فارس ، وقد أفضى به المسير إلى منطقة يسكنها أناس غارقون في التخلف والهمجية ، حتى إنهم بسبب بعدهم عن المخاطبة والاحتكاك بالأمم الأخرى ، لم يكونوا يستطيعون فهم لغة غير لغتهم إلا بمشقة وصعوبة بالغة .

ولعل المراد بالسدين المذكورين هنا ، هما الجبلان الواقعان ما بين بحر قزوين والبحر الأسود ... وقد كانت تغير القبائل الوحشية من الجانب الآخر على هذه المنطقة بين حين وآخر ، فتفسد فيها بالقتل والسلب والنهب ، ثم تفر هاربة من خلال المنافذ أو

الثغرات الجبلية ... ولقد أقام ذو القرنين فيها حاجزا حديديا بين الجبلين ليقطع شرها عن أهل هذا الجانب !

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ .

رَدْماً : حاجزا حصينا متينا .

زُبَرَ الحَدِيدِ : قطعه العظيمة الضخمة .

الصَّدَفَيْنِ : جانبي الجبلين .

قِطْراً : نحاسا مذابا .

يَظْهَرُوهُ : يعلو على ظهره لارتفاعه .

نَقْباً : خرقا وثقبا لصلابته .

جَعَلَهُ دَكَّاءَ : مدكوكا مسوى بالأرض .

في جنوب الاتحاد السوفيتي (سابقاً) تقع سلسلة جبال القوقاز (Caucasus Mountains) ، وهي تمتد ما بين بحر قزوين والبحر الأسود ، وتشكل حاجزاً طبيعياً يفصل بين أوربا وآسيا،وقد كانت هذه الجبال تتخللها ثغرات هنا وهناك ، كانت تدخل منها قبيلتا يأجوج ومأجوج الوحشيتان نحو الشمال ، وتعيث في بلاد

المملكة الفارسية فساداً... ولا تزال توجد هناك حتى اليوم بقايا جدار قديم ، وأغلب الظن أن هذا هو الجدار الذي كان قد بناه ذو القرنين لمنع غوائل المفسدين .

إنه ((جدار حديدي)) في وجه العدو إنجاز ربما يبعث في نفوس الناس عادة مشاعر الفخر والزهو والكبرياء ، غير أن ذا القرنين ، بالرغم من إقامته سداً منيعاً ضخماً كهذا، لم يفقد شعوره بالتواضع ، حيث إن نظرته لم تكن موجهة نحو أعماله ، وإنجازاته هو ، بل نحو قدرات الله واختياراته ، والحق أنه ليس ثمة من أحد يملك شيئا من القوة بإزاء الله عز وجل !

﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾ .

يَمُوجُ : يختلط ويضطرب .

وَنُفِخَ فِي الصور : نفخة البعث .

غِطَاءٍ : غشاء غليظ وستر كثيف .

إن العالم الراهن – الذي نعيش فيه اليوم – سيتحول عند قيام الساعة إلى عالم آخر تماماً ... ويبدو أن ما يوجد حالياً بين الجبال والبحار من حدود وفواصل ستنعدم يومئذ ، بحيث تعود الأرض – على حد تعبير القرآن في موضع آخر – قاعاً صفصفاً،يضطرب فيه الناس بعضهم ببعض – لكثرتهم – كاضطراب أمواج البحر.

الناس يدعون اليوم لرؤية جهنم بعين عقولهم ، وهم يتعامون عنها ، وفي يوم القيامة ستعرض جهنم على الناس عرضا، فيراها عندئذ كل شخص بعيني رأسه ، غير أن تلك الرؤية لن تغني هناك عن أحد شيئا ، فإن الذي كشف الغطاء عن عيونه اليوم استجابة

للنصيحة ، هو البصير حقاً ، وأما كشف الغطاء عن العيون في يوم القيامة ، فإنما يكون ذلك لكي يساق الطغاة المتمردون إلى مصيرهم النهائي المحتوم !

﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ .

نُزُلاً : منزلا أو شيئا يتمتعون به.

الإيمان الحق بالله ، وإنكار الحق هو إنكار الله ...وإن المرء عندما ينكر الحق ، فإنما هو يفعل ذلك اعتمادا على شيء أو شخصية ما ... بيد أن كل الاعتماد من هذا النوع زائف وباطل ... فإنه ليس ثمة من أحد في هذه الدنيا غير الله يملك شيئا من الخيار أو القوة ... وسوف لا يجد أمثال هؤلاء في يوم الجزاء أي منقذ أو حام لهم ؛ لأن المنقذ والحامي الحقيقي إنما هو الله وحده ، وهؤلاء بعنادهم وطغيانهم قد فقدوا حمايته تعالى سلفاً !

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

وَزْناً : مقدارا واعتبارا لحبوط عملهم .

إن المرء ليعمل في الدنيا .. ويرى أنه يجني ثمار عمله اليانعة في صورة العزة والثروة ويجد أن كل أموره مستقيمة تجري على ما يرام ، مما يجعله يحسب أنه سعيد ناجح !

غير أن هذا جهل محض .. إن مقياس النجاح والسعادة في خريطة الله هو

الآخرة... إذن ، فاعتبار رقي الدنيا رقيا ، والحالة هذه ، هو رسم خريطتنا على نقيض من الخريطة الإلهية .

إن الله يظهر آياته ، ولكن الذين شغلت عقولهم قضايا الدنيا ، لا يتأثرون بآيات الآخرة ، وإن الله ليوضح أدلته وبراهينه ، غير أن الغارقين في لذائذ الدنيا ، المفتونين بزخارفها ، لا تستهويهم أدلة الآخرة ... وأمثال هؤلاء يظلون محرومين من الهداية ، حتى مع كونهم على أبواب الهداية ، إنهم يقيمون لأحاديث الله في حياتهم وزناً ما ، إذن ، فكيف يمكن أن يعتبرهم الله عنده أهلاً لأي وزن ؟!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴿١٨﴾ ﴾ .

الفِرْدَوْسِ : أعلى الجنة وأوسطها وأفضلها .

حِوَلاً : تحولا وانتقالا.

إن بناء الحياة على أساس من الإيمان والعمل الصالح في العالم الراهن ، إقامة دليل على تضحية جد عظيمة... حيث إنه تخل عن الجنة المرئية لأجل الجنة غير المرئية ... إنه إحراز النجاح في أصعب امتحان ؛ إذْ يتعرف المرء على الحق على مستوى الدليل المجرد، فيكرس حياته كلها في سبيله ، بينما لا يكون هناك أي ضغط أو تهديد خارجي يرغمه على ذلك إرغاماً ، وإنما هو يفعله بمحض اختياره وقناعته الداخلية .

والذين يبرهنون على هذا المستوى العالي من المعرفة والأداء العملي ، فلا جزاء لهم – بالطبع – إلا أن يدخلوا في الجنان الأبدية !

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى

وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

مِدَاداً : هو المادة التي يكتب بها .

لِكَلِمَاتِ رَبِّي : معلوماته وحكمته .

لَنَفِدَ البَحْرُ : فنى وفرغ.

مَدَداً : عونا وزيادة .

الذين لا يؤمنون برسالة الله ينكرون شيئاً هو أثبت من كل الأشياء الثابتة ... وهو مسلم به لدرجة أنه ستعود كل أشجار الأرض إذا تحولت أقلامًا غير كافية لتسطيره وستنفد سائر بحار العالم ، إذا صارت مداداً ، حتى قبل أن يتم مجرد فهرسته .

ولكن ما أظلم الإنسان ؛ إذْ إنه – على الرغم من هذا كله – لا يعرف الحق ، ولا يصوغ حياته طبقاً لمقتضيات الحق !!

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ .

النبي لا يكون إلهاً أو ملكاً ، وإنما هو يكون واحداً من البشر ، والشيء الوحيد الذي يتميز به عن غيره هو أنه يتلقى وحي الله بطريقة غير مرئية ، وهذا يعني أن النبي هو في ظاهره بشر مثل الآخرين تماماً ، ومن حيث حقيقته الداخلية مندوب الله إلى البشر !

وهذا هو السبب في أن إدراك الحق يتطلب من ثقوب النظر ونفاذ البصيرة ما يميز الجوهر من العرض ... إذن ، فلا يوفق لإدراك الحق إلا شخص يستطيع أن يرى الحقيقة في صورتها الغيبية ، ويقيم الدليل على معرفة ((النبي)) على مستوى ((البشر)) !

سورة مريم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ ﴾

نِدَاء خَفِيًّا : دعاء مستورا لم يسمعه أحد.

كان زكريا ختناً – وقيل: زوجاً – لخالة مريم .. وكان اسم والد مريم عمران، ولم تكد مريم تبلغ بضع سنوات من عمرها، حتى توفي أبوها، وكان رجلاً عظيما بين العلماء في بني إسرائيل، حيث كان مديرا للهيكل ورئيس كهنته، ومن بعده عهد بإدارة الهيكل ورئاسة الكهان فيه إلى زكريا، وقد كانت مريم في ذلك الزمن تم تقديمها لخدمة الهيكل تبعاً لنذر والدتها .. ولكوْن زكريا واحداً من أقرباء مريم الأدنين، إلى جانب شغله منصب رئيس الهيكل، فقد كان من نصيبه أن يتولى كفالة مريم، ويقوم بشأنها .

إن زكريا – عليه الصلاة والسلام ﴿ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ أي دعاه – ((بصوت خفي)) ولقد تحقق هذا الدعاء (الخفي) بالفعل على نحو يدعو إلى الدهشة والإكبار .. ومن هذا نعلم حقيقة الدعاء الصادق .. الذي هو: تعبير مفعم باللهفة والخشوع عن هذا اليقين بأن الخيار كله بيد الله وحده، فلا ينال المرء شيئاً إلا بعطائه عز وجل، وإن هو أمسك عن العطاء، فلن يظفر أحد بشيء ما أبداً

إن الدعاء الصادق إنما يكون موجهاً بكليته نحو الله الواحد الأحد لا غير، وهذا هو السر في أن الدعاء الصادق يفيض ويتدفق أكثر ؛ إذْ يكون المرء وحيداً خالياً إلى نفسه وحيث لا يكون ثمة بينه وبين الله ثالث !

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾

وهَنَ العَظْمُ : ضعُف ورق .

شَقِياً : خائبا في وقت ما .

خِفْتُ المَوَالِيَ : أقاربي العصبة وكانوا شرار اليهود.

وَلِيًّا : ابنا يلي الأمر بعدي .

رَضِيًّا : مرضيا عندك قولا وفعلا .

هذا دعاء صدر عن لسان عبد كان قد بلغ نهاية الكبر والشيخوخة، وهو يدأب جاهداً على تأدية رسالته الدينية .. ولم يكن يرى بين أهل أسرته أحداً يخلفه في حمل أعباء مسيرته من بعده .. فشعوره بعجزه هو من ناحية، وإحساسه بأهمية الرسالة من ناحية ثانية، قد انصب كلاهما في قالب الدعاء المذكور في هذه الآيات .. وعليه فإن هذا الدعاء لم يكن سؤالاً عادياً، بل كان رجاءً من الله أن يقيض له رجلاً كفؤاً يقوم بمواصلة مسيرته النبوية من بعده !

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾

أَنَّى يَكُونُ : كيف أو من أين يكون ؟

عِتِياً : حالة لا سبيل إلى مداوتها .

لقد أجيب هذا الدعاء في صورة ولد .. هو ولد لا يولد مثله لدى الناس عادةً فإن

ولادة طفل لرجل بلغ منتهى الكبر والهرم ، وظلت امرأته عاقراً لا تلد على مدى عمرها ، إنه – لا شك – أمر غير عادي للغاية .. ومن ثم فقد كانت هذه البشرى مثار الدهشة والتعجب لسيدنا زكريا مع شدة فرحه وسروره بها .. وشعوره بكون النعمة الحاصلة غير متوقعة،لم يلبث أن تفجر من فمه بشكل هذه الكلمات: يا رب ! كيف يكون لي ولد، بينما قد أصبحت أنا وزوجتي الآن عاطلين (غير صالحين) تماماً من هذه الناحية !

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ ﴾

آيَةً : علامة على تحقق المسؤول لأشكرك .

سَوِياً : سليما لا خرس بك وبلا علة .

مِنَ المِحْرَابِ : المصلى أو الغرفة التي يتعبد فيها .

بُكْرَةً وَعَشِيًّا : طرفي النهار .

كما أن إيجاد الإنسان الأول – آدم – من غير أب ولا أم، معجزة إلهية، كذلك فإن إيجاد الولد بواسطة الوالدين هو الآخر معجزة إلهية تماماً – سواء أكان هذان الوالدان شيخين هرمين أم شابين قويين – إذْ الحقيقة هي أنه ليس هناك إلا الله الذي يخلق الإنسان، فهو الذي قام بالخلق أولاً، وهو الذي يقوم بالخلق اليوم والى الأبد، وإن كان كل الأشياء الأخرى إنما هي حيلة أو وسيلة ظاهرية، دون العلة الحقيقية وراء عملية الخلق والإيجاد !

سأل زكريا عن علامة تدل على حصول الرحمة الإلهية، فقيل له: إنك إذا وجدت

نفسك، وقد أصبحت عاجزاً – مع كونك صحيحا سليماً – عن الكلام مع الناس بلسانك لثلاثة أيام بلياليهن، فلتتأكد وقتئذ من أن زوجتك قد حملت بيحيى .. فلما حان ذلك الوقت اعتقل لسانه، وصار لا يستطيع أن يكلم أحداً فخرج من مصلاه، وأشار إلى الناس بأن اذكروا الله صباحاً ومساءً، واشتغلوا بعبادته وامتثال أوامره بجد واجتهاد .. ويظهر أنه كان من عادة زكريا – عليه الصلاة والسلام – أن يعظ الناس كل اليوم .. حتى عندما حبس لسانه عن الكلام، فإنه لم يسعه إلا أن جاء إلى مكان الاجتماع، ووعظ الناس بما استطاع من الرمز والإيماء !

﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥ ﴾ .

الحُكْمَ : فهم التوراة والعبادة .

وَحَنَاناً : رحمة وعطفا على الناس .

وَزَكَاةً : بركة ، أو طهارة من الذنوب .

وَكَانَ تَقِياً : مطيعا مجتنبا للمعاصي .

وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ : كثير البر والإحسان إليهما .

جَبَّارًا عَصِيًّا : متكبرا مخالفا أمر ربه.

يُروى أن يحيى – عليه الصلاة والسلام – عندما كان صغيراً، قال له الصبيان في ذات يوم: ((اذهب بنا نلعب!)) فأنكر وقال: ((ما للعب خُلقنا)) .

ويتضح من ذلك أنه – عليه الصلاة والسلام – كان لديه منذ صغره وعي بأن الحياة

ينبغي أن تكون ذات هدف ومعنى .. كما أنه كان قد جُبل بالفطرة على رقة الشعور والشفقة والحنان، وكان متحرراً من العقد النفسية، باراً بأمه وأبيه محسناً إليهما، وكان خالياً من التمرد والعصيان كل الخلو.

تلك هي الأوصاف التي تؤهل المرء ليتمسك بكتاب الله، ولا ينحرف عنه قيد أنملة على أية حال .. والمتحلي بهذه الأوصاف هو الذي تنزل عليه رحمات الله في هذه الدنيا وفي تلك الدار الآخرة !

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾

انتبَذَتْ : اعتزلت وانفردت .

حِجَاباً : سترا .

رُوحَنَا : جبريل عليه السلام.

بَشَرًا سويا:إنسانا مستوي الخلق تامه .

غُلامًا زَكِيًّا : مزكى مطهرا بالخلقة .

بَغِيًا: فاجرة تبغي الرجال .

لقد كانت مريم حررت لخدمة الهيكل (بيت المقدس) وفقاً لنذر والدتها .. وقد كان الجزء الشرقي من الهيكل القديم خاصاً بالنساء، فانزوت مريم في ناحية من هذا

الجزء عاكفة على ذكر الله وعبادته وراء حجاب أسدلته بينها وبين الموجودين الآخرين بالهيكل .. وإنها لكذلك إذْ فوجئت ذات يوم برجل موفور الشباب والقوة ماثلاً بين يديها وكان طبيعياً أن يأخذها الرعب والفزع من هذا الموقف.. ولكن الرجل أعلمها بأنه ملك أرسل من عند الله لكي يهب لها غلاماً زكياً على نحو معجز خارق للعادة .

لقد كانت ولادة عيسى ابن مريم – عليهما السلام – على هذا النحو المعجز آية من الله عظيمة، وكان الغرض منها ألا يشك اليهود في كونه نبياً مرسلاً من عند الله، وأن يبادروا إلى الإيمان بكل ما يبلغهم عن الله،ولكن بالرغم من هذه الآية الواضحة الباهرة فإنهم لم يلبثوا أن كذبوا بسيدنا المسيح وأنكروا نبوته !

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾

مَكَاناً قَصِيًّا : بعيدا من أهلها وراء الجبل .

فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ : فألجأها واضطرها وجع الولادة.

نَسْياً مَّنسِياً : شيئا حقيرا متروكا لا يخطر بالبال .

لقد كانت مريم عذراء – غير متزوجة – من بيت متدين شريف، وكون امرأة كهذه حبلى، لهو محنة قاسية تهون أمامها كل محنة .. وبعد أن ابتليت بهذه المحنة خرجت في صمت من الهيكل، وذهبت إلى مكان بعيد (بيت لحم)، ولما حان الأجل، واشتد بها وجع الولادة والطلْق، آوت إلى جذع نخلة خارج البلدة .. وإن الكيفية التي ستطرأ على امرأة عذراء طاهرة عفيفة، في مثل هذا الموقف، تصورها هذه الكلمات التي جرت على لسانها أدق تصوير: يا ليتني قد مت وتلاشيت قبل هذا اليوم، ولم أكن شيئاً يعرف أو يذكر لدى الناس !!

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾

فَنَادَاهَا : جبريل أو عيسى عليهما السلام .

سَرِياً : جدولا أو غلاما سامي القدر .

رُطَباً جَنِياً : صالحا للاجتناء ،أو طريا .

وَقَرِّي عَيْناً : طيبي نفسا ولا تحزني .

لم يكن أمام مريم، بعد أن ابتليت بهذه المحنة القاسية البالغة الخطورة، من سبيل إلى السكينة وهدوء البال، إلا أن يظهر لها ملك الله، ويعطيها من الثقة واليقين ما يقتل مخاوفها التي أخذت تزداد وتشتد مع اشتداد ألم الطلْق بها .. وقد حدث بالفعل.. حيث جاء الملك في الوقت المحدد، فناداها: ألا ترتاعي ولا تحزني، فإن كل هذا الذي يحدث، إنما يحدث تبعاً لخطة الله سبحانه وتعالى، ولقد فُجرت هنا عين ماء عذب رقراق على القرب منك وهذه النخلة ستوفر لك ثمراً شهياً طرياً كل حين وآن، إذن، فلك أن تأكلي وتشربي مما أنعم ربك عليك ، قريرة العين، مرتاحة الضمير !!

وفيما يتعلق بالصبي فقد طمأنها قائلاً: إن هذا المولود بمعجزة الله سيتولى بنفسه الدفاع عنك.. وإنما عليك أن تصومي عن الكلام حسبما جرت به عادة بني إسرائيل، وإن رآك أحد، أو رأيت أحداً من الناس وسألك شيئاً، فأومئي إلى المولود، الذي سيجيبه بدوره الجواب الشافي الدال على براءة ساحتك !!

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ

هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾

شَيْئاً فَرِياً : عظيما منكرا .

ولم تلبث مريم، بعدما سمعت كلام الملك، أن امتلأ صدرها ثقة واطمئنانا، فرجعت عائدة إلى أهلها، وعلى يديها المولود تحمله .. ولم يكد يراها اليهود في هذه الحال، حتى أخذوا في لومها والزراية عليها وتأنيبها على ما أتت به – في زعمهم – من فاحشة وعملاً بما أرشدها إليه الملك، فقد لاذت مريم نفسها بالسكوت والصمت، أشارت إلى المولود في حجرها، إيذاناً بأن هذا ليس بمولود من الطراز العادي، والدليل على ذلك أن توجهوا إليه بالكلام، فهو مع كونه طفلاً رضيعاً في المهد، سيفهم منكم ما تقولون، وبالتالي سيرد عليكم رداً واضحاً مقنعاً من غير لبس ولا غموض !..

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ .

كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِياً : وجد في فراش الصبية رضيعا .

وَبَراً بِوَالِدَتِي : بارا بها محسنا مكرماً .

وبالرغم من إشارة مريم المتكررة إلى ابنها، طالبة توجيه كل سؤال بشأنه إليه نفسه، لم يكد يفهم اليهود – لفرط الحيرة التي انتابتهم – كيف يمكنهم أن يكلموا طفلاً صغيراً ما زال في المهد يتغذى بلبان أمه !؟!

وبينما هم كذلك، إذْ أقبل عليهم سيدنا المسيح بوجهه فبادرهم بالكلام.. وقد كان

كلامه المعجز ينطوي – من جهة – على براءة أمه – ومن جهة أخرى – كان ذلك شهادة مسبقة على أن هذا الصبي حديث الولادة، إذا ما بلغ مبلغ الرجال، وادعى النبوة فلا يعود أمام أحد من الناس حينئذ مجال للريب أو الشك في نبوته !.

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾

لقد كان المسيح حادثا غريباً .. وقد اشتط العلماء المسيحيون في تفسير هذا الحادث الغريب، مما أدى بهم إلى اختلاق ألوان شتى من العقائد العجيبة الغامضة.. غير أن كل تفسير له دائماً حد معين، ولابد لنا من الوقوف عنده وعدم تجاوزه على أية حال، ونحن نحاول تفسير شيء أو ظاهرة ما .. إذن، فجعْل المسيح، في محاولة تفسير حادث ميلاده غير العادي، ابن الله، هو تجاوز للحد، فإنه لِمَّا يتنافى مع وحدانية الله أشد التنافي أن يكون له ولد !!

وفوق ذلك فالكون يزخر بما لا يحصى من وقائع غريبة نشاهدها كل يوم، وكل شيء في هذا العالم حادث غريب في ذاته، فلئن ظهر الآن شيء غريب آخر، فإنما ينبغي على الإنسان أن يقول: إن الله – سبحانه وتعالى – كما أبدع أشياء غريبة أخرى لا تقع تحت الحصر، فهو ذاته خالق هذا الشيء الغريب الذي ظهر أمامنا اليوم !

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ : ما أسمعهم وما أبصرهم .

لقد كان المسيح – وكل الأنبياء الآخرين كذلك – لدعوة الناس إلى صراط مستقيم

واحد، لا غير، وهو أن يتخذ المرء الله ربه، ولا يعبد إلا إياه وحده .. ولكن ما حدث دوْماً أن الناس لم يلبثوا أن انحرفوا عن هذا الصراط المستقيم باعتساف تأويل وتفسيرات مزعومة، فمنهم مَنْ ذهب إلى رأي، ومنهم من ارتأى رأياً آخر مناقضاً للأول تماماً .. وهكذا نشأ الاختلاف الذي حوّل الدين الواحد إلى أديان شتى .

إن الحق لواضح غاية الوضوح حتى في هذه الدنيا .. غير أن الإنسان يتمتع هنا بالحرية لأجل الامتحان، وعليه فإن شاء آمن، وإن شاء رفض .. وبسبب هذه الحرية المؤقتة يقع الإنسان في سوء فهم، فإذا به يأخذ يتمرد ويطغى .. وقد يتم إرشاده هنا، ومن خلال صنوف الأدلة والبراهين الساطعة، إلى ما هو صراط الله المستقيم المطلوب اتباعه، إلا أنه لا يلقى إليه بالاً، ولا يتلقى الحق بالقبول.. وأما في الآخرة، حين تكون حرية الإنسان قد انتزعت منه بالمرة، فما أبصره و أسمعه سيصير هو يومئذ، وبنفس عيونه وآذانه، تلك، التي تبدو اليوم وكأنها لا تعرف رؤية ولا سماعاً !!.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

يَوْمَ الحَسْرَةِ : الندامة الشديدة على ما فات .

إن المرء إذْ يتعرض للفشل والإخفاق في هذه الدنيا، فربما لا تزال الفرصة أمامه مفتوحةً لكي يستأنف حياةً جديدةً، وهو يجد من حوله أصدقاء وأنصارًا يهبون من فورهم لنجدته، يمدون إليه يد العون، ويشدون من أزره .. غير أن فشل الآخرة هو فشل ليس بعده أي إمكانٍ للنهوض من جديد أبداً فما أعجبها ساعة حسرةٍ وندامةٍ، حين سيعلم المرء أنه قد كان بإمكانه أن يفعل كل شيء ، ولكنه لم يفعل شيئاً، حتى ذهب وقت العمل إلى غير عودةٍ !!

إن مصير كل أنواع الشر والفساد هو أن المرء يزعم أنه سيد نفسه ومالكها .. ولكن الحقيقة هي أن هذه ليست سوى فسحة أو فترة متوسطة عارضة، فإن الله وحده هو مالك كل شيء أول الأمر وآخره، وليس ثمة أحد غير الله يتمتع بصفة ((المالكية)) هنا بالمعنى الحقيقي !

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾

صِرَاطاً سَوِيًّا : طريقا مستقيما منجيا من الضلال .

عَصِيًّا : كثير العصيان .

وَلِيا : قرينًا تليه ويليك في النار .

ولد سيدنا إبراهيم في العراق .. ولما نُبئ، نصح أباه بأن اترك عبادة الأصنام، واعبد الله وحده، وإلا فسوف تتعرض لبطش الله وعقابه الشديد .

ومعنى عبادة الشيطان ليست عبادة الشيطان في ذاته، بل عبادة ما يأمره به الشيطان، وطاعته فيما يدعو إليه .. إن الإنسان يميل، بموجب فطرته التي فطر عليها، إلى أن نعطي أحداً المكان الأسمى في حياته، ويقدم له كل ما يجيش بداخله من مشاعر الحب والتفاني والاحترام والإجلال، إن المركز الحقيقي لهذه المشاعر والعواطف هو الله سبحانه وتعالى .

غير أن الشيطان يحاول صرف أذهان الناس وتوجهاتهم عن الحق بشتى الطرق لكي يورط الإنسان في الشر، ويجعله يعطي لغير الله ما ينبغي عليه ألا يعطيه إلا لله وحده !

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾

وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا : اجتنبني وفارقني دهرا طويلا .

حَفِيًّا : برا لطيفاً أو رحيما مكرما .

شَقِيا : خائباً ضائع السعي.

إن الأصنام التي يتناولها سيدنا إبراهيم بالنقد والتجريح، لم تكن قطعاً من الأحجار، بل كانت ممثلة لذوات ارتسمت عظمتها الطلسمية على العقول، بفعل تقاليد الأحقاب الماضية الطويلة، وفي هذه المقارنة بدا ((إبراهيم الفتى)) شخصاً عادياً، بينما تراءت أصنام العراق جبالاً من المجد والعظمة .. وذلك هو السر ف أن والد إبراهيم لم يلبث أن رفض نصيحة ابنه بغاية التحقير والازدراء .

إن دعوة الحق إذا ما بدأت في مكان ما، وبلغت بمضي الزمان إلى مرحلة يكون فيها الناس قد فهموها جيداً ولكنهم بدل أن يبادروا إلى الإيمان ، يقابلونها بالعنف والعدوان ، فإن الداعي يقوم حينئذٍ بتغيير مكان عمله، وهذا هو ما يسمى بـ ((الهجرة)).. وتغيير مكان العمل هذا يتم حيناً في الدائرة القريبة ، وأحياناً في الدائرة البعيدة .

إن عمل الدعوة عمل إلهي، ولهذا السبب فإنه كلما يبدأ، يبدأ مصحوباً بالنفسية الربانية .. والداعي لا يزال قلبه ينطوي على معاني الشفقة والحنان وحب الخير

للمدعو، حتى ولو عامله الأخير معاملة العدوان والاحتقار .. كما أن الداعي لا ييأس ولا يقنط حتى ولو أصبح في بيئته وحيداً بلا ناصر ولا معين .. ذلك لأن سنده الحقيقي هو الله – سبحانه وتعالى – فهو يكون واثقا أتم الثقة وآكدها من أن الله معه كعهده به، وأنه لن يزال معه دائماً، مهما تأزمت الأحوال، وتفاقمت الظروف والأوضاع !

﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾

لِسَانَ صِدْقٍ : ثناء حسنا في أهل كل دين .

إن المرء يعيش أو – بعبارة أدق – يتعايش مع أسرته وجماعته مرتبطاً بصلات وروابط شتى .. إذن فإن طرد شخص ما من محيط أسرته وجماعته يعني دفعه إلى صحراء الضياع والدمار.. غير أن الله – سبحانه وتعالى – قد أظهر لنا، بصورة دائمة، من خلال واقعة سيدنا إبراهيم، أن العبد الذي يخرج من بيته في سبيل الله وحده، فيعود شريداً بلا مأوى، يعطيه الله من عنده بيتا أحسن وأفضل.. وأن ما يلقى به في غيابة الخمول والمجهولية من أجل الله وحده كذلك، يكتب الله له الظهور وانتشار الذكر الجميل بين الخلائق على أوسع نطاق !!

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾

كَانَ مُخْلَصاً : أخلصه الله واصطفاه .

وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيا : مناجيا لنا .

لقد مر سيدنا موسى، وهو عائد من مدين إلى مصر، بجبل الطور، حيث أعطاه الله

النبوة.. وقد اصطفى الله الأنبياء والرسل في كل العصور الماضية، وأنزل عليهم كلامه، وكان هذا الكلام الإلهي يصل إليهم بواسطة الملك جبريل، ولكن الله تعالى قد اختص موسى بتكليمه مباشرةً، أي بلا واسطة ملك .. كما اختصه أيضاً بجعل نبي آخر معه، وهو أخاه هارون، استجابة لطلبه، ليدعم جانبه، ويساعده على حمل أعباء الرسالة .. وربما يكون سر ذلك التخصيص كامناً في تلك الظروف والملابسات الخاصة التي كان عليه أن يؤدي مهمته النبوية في ظلها.. إذْ كان أمامه ملك جبار كفرعون، ومن ناحية أخرى أمة كاليهود، التي كانت قد بلغت أقصى درجة من الفساد والانحطاط .

ومعاملة الرحمة والنصرة الإلهية هذه خاصة، في شكلها النهائي، بالأنبياء والرسل وحدهم، بيد أن الله تعالى يخص مَنْ شاء من عباده المؤمنين أيضاً بمثل هذه المعاملة، حيث يوفقهم – كل بحسب كفاءته واستعداده – للقيام بعمل من الأعمال المرضية عنده ويقذف في قلوبهم مراده بطريقة خفية، ويهيئ لنصرتهم وتأييدهم أسباباً خاصةً، لا تتأتى لأحد في ظل الظروف والأحوال العادية !

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾

كان سيدنا إسماعيل ولد سيدنا إبراهيم:.. وأما سيدنا إدريس فهو نبي ربما قد ولد قبل سيدنا نوح بأزمان طويلة .. ومن جملة الصفات الحميدة التي كان يتحلى بها هذان النبيان الجليلان، خُص بالذكر هنا صفتان هما: كونهما أولاً صادقين .. وثانياً قيامهما بحث الناس على الصلاة (عبادة الله وطاعته)، وعلى الزكاة (تأدية حقوق العباد)، ثم أكد القرآن على أن تلك الصفات هي التي جعلتهما عند ربهما مرضيين، وأوصلتهما إلى أعلى مراتب السمو والقرب الإلهي.

هذه الصفات تتوفر، على أتم درجة، وأكملها، في تلك الشخصيات التي اختارها الله للنبوة وإبلاغ رسالته .. غير أن عامة المؤمنين – دون الأنبياء – مطالبون هو الآخرون بخلق هذه الصفات في أنفسهم أيضاً، كما أنهم يتمتعون، على اختلاف درجاتهم، بما قد رتب الله تعالى على تلك الصفات من ثمرات ونتائج بصفة أبدية !

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴾

وَاجْتَبَيْنَا : اصطفينا واخترنا للنبوة .

وَبُكِيًّا : باكين من خشية النار .

أشارت هذه الآية، بوجه خاص إلى أولئكم الأنبياء الذين انحدروا من نسل آدم، ومن نسل نوح، ثم من نسل إبراهيم، والذين رآهم الله أهلاً لكي ينعم عليهم بهدايته الخاصة، ويصطفيهم للقيام بتمثيله والتبليغ عنه أمام الناس أجمعين .

ولِمَ أنعم الله على هؤلاء السادة بتلك النعم الجليلة ؟! إن سر ذلك يكمن في هذا القاسم المشترك بينهم، وهو الذي يتمثل في كونهم شديدي الإحساس بألوهية الله، عميقي الشعور بكبريائه لدرجة أن صدورهم كانت تهتز حين يسمعون كلام ربهم، وبالتالي لم يكونوا يتمالكون أنفسهم أن يخروا على الأرض ساجدين له تعالى يبكون !!

وإن ((السجود مع البكاء)) هو أعلى درجة للاعتراف بعظمة الله جلاله، والذي يفوز بهذه الدرجة، فكأنما قد ذاق طعم الإيمان، الذي هو خاص بأنبياء الله ورسله الكرام !

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ ﴾

خَلْفٌ : عقب سوء .

يَلْقَوْنَ غَيًّا : جزاء الغي ، أو واديا في جهنم .

إن أبرز سمة يمتاز بها الرعيل الذي ينشأ ويتربى في أحضان مدرسة النبوة، تتمثل في أنهم يتسامون بأنفسهم فوق الشهوات ، ويكثرون من ذكر الله ، والذي يطلق على أحد مظاهره المّعينة وصف «الصلاة» .. إن جوهر الدين هو ذكر الله، وما الصلاة إلا صورة منظمة رتيبة لذكر الله هذا .

ولو أن الأجيال التالية لأتباع الأنبياء صارت غافلة عن الله، وبدأت في الانسياق وراء الشهوات، فإنها تعتبر عند الله في عداد الضالين الغاوين، وإن انتماءها إلى الأنبياء لن يغني عنها شيئاً.. وأمثال هؤلاء سيصلون ولابد إلى مصيرهم المحتوم، ولن ينجو منهم سوى أولئك الذين يبادرون بالعودة ثانيا إلى جوهر الدين الأصلي، ويختارون، بصدق وإخلاص، حياة الإيمان والعمل الصالح بمعناه الحقيقي .

والساعون لأجل الآخرة لا يحصلون على ثمرة جهودهم وتضحياتهم على الفور، الأمر الذي ربما يدفع بعضهم إلى الشك في أن هذا طريق كله عمل وكدح، دون أن يكون فيه ثمرة ذلك العمل والكدح .. غير أن هذا ليس إلا إساءة فهم للموضوع، إذْ الحقيقة هي أنه كما يحصل العاملون لأجل الدنيا على جزاء عملهم، فإن العاملين لأجل الآخرة سيفوزون بدورهم بالجزاء الأوفى على أعمالهم بكل تأكيد، وإنه ليس ثمة ما يدعو إلى الشك في هذا الأمر البتة!

﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾

مَأْتِيًّا : آتيا أو منجزا .

لَغْواً : قبيحا أو فضولاً من الكلام .

في العالم الراهن يتمتع الإنسان بالحرية التامة لأجل الامتحان.. فالأبرار والأشرار كلهم هنا أحرار، على حد سواء .. ونتيجة لذلك فإن إنساناً صادقاً ما، لا يكاد يحصل على الهدوء والاستقرار في رحاب العالم الراهن .. فمهما كان هو سوياً مستقيماً في حد ذاته، إلا أن أحاديث الآخرين وتصرفاتهم غير السوية ولا المستقيمة لا تلبث أن تعكر عليه صفوه، ولا تدعه يشعر بالراحة والسكون أبداً.. فالناس، بإساءة استخدام حرياتهم لا يفتأون يملئون الجو بكل ما هو فاحش ورديء ومنكر، من الكلام والأصوات .

أما الجنة فهي دار سيبعد عنها كل من كان على هذه الشاكلة .. وإنما سيسكن هنا الأناس ذوو الأذواق الرفيعة وحدهم،الذين كانوا قد أثبتوا في الدنيا،أنهم لا يعيشون كالأشواك،بل مثل الورود والأزهار.

والحياة التي ستظهر إلى الوجود في بيئة أناس كهؤلاء، لا شك في أنها ستكون جنة يسودها السلام الأبدي.

إن تجنب اللغو والفضول في هذه الدنيا وممارسة الحياة فيها، بحيث لا تخلو من الضرر والضرار، وتكون كلها الأمن والسلام، عمل عسير جداً، فإن ذلك يتطلب تحويل حياتنا الحرة الطليقة، بمحض اختيارنا وإرادتنا نحن إلى حياة مقيدة ملتزمة ..

إنها لتضحية شديدة الوطأة على النفس، لا يوفق لإقامة الدليل عليها، إلا شخص يخاف الله حق الخوف، فالخائفون من الله وحدهم، يستطيعون أن يعيشوا في هذه الدنيا عيشة أهل الجنة، وأولئك هم الذي سيدخلون في جنان الآخرة الأبدية !

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾

إن أخطر مرحلة وأشدها قسوة على الداعي هي التي تكون فيها الدعوة الإسلامية معرضة لألوان شتى من المعارضات والمعاكسات .. حيث يريد الداعي كل يوم أن يقدم أية خطوةٍ جديدة من شأنها أن تضع حداً للحالة الراهنة، بينما يأمره الله بأن اصبر وانتظر !!

ولقد واجهت ذات مرة حالة مماثلة رسول الله ﷺ إذ كان يترقب نزول الوحي من عند الله، نظراً لاشتداد وطأة الظروف وازديادها تفاقما .. ولكن، بحسب ما جاء في بعض الروايات، لم يأته جبريل بالوحي نحو أربعين يوماً، ولما أتاه جبريل، سأله عن سبب التأخير، فأجابه قائلاً: إننا ملزمون بمشيئة الله، فإذا نحن تلقينا منه تعالى شيئاً من الهداية، أتيناك، وإن لم نتلق من عنده هداية ما، فلا نأتيك .. وقد ذكرت هذه الواقع تأكيداً على ضرورة التمسك بالصبر على طول الخط، فالله – سبحانه وتعالى – يرى الوضع القائم حالياً بتمام الوضوح، وهو يحيط علماً بكل ما يحمل بين طياته من إيجابيات وسلبيات، لا تخفى عليه منه خافية، فلو أن الله تعالى لم يحدث – مع ذلك – شيئاً – ولم يبعث من عنده بتوجيه جديد، فمعنى ذلك أن المطلوب الآن هو أن يحتمل هذا الوضع ويصبر عليه، ولئن كان مقتضى الحكمة غير ذلك، لنزل حكم آخر بكل تأكيد، وإذ لم يكن هناك أحد أعلم من الله، فلا يمكن كذلك أن يكون توجيه أحد أحسن من توجيه

الله .

إذن، فليس من الصواب ولا من الجائز أن نبحث عن آية تسمح لنا بـ «الإقدام» في ظل ظروف تقتضي « الإحجام » ، فإن ذلك بمثابة محاولة استنزال حكم لم ينزل على المرء بعد ، لكونه سابقاً لأوانه !

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ﴾

جِثِياً : باركين على ركبهم لشدة الهول .

لقد كان العرب – مخاطبو القرآن الأول – يؤمنون بالحياة بعد الموت، غير أن إيمانهم هذا لم يكن إيمانا حقيقياً.. فكل الكلمات الواردة بشأن الآخرة وأحوالها في القرآن الكريم، هي التي كانت موجودة ومستعملة في لغتهم من ذي قبل، ولكن بدون أن يكون لها أي تأثير يذكر في حياتهم اليومية، فقد كانت حياتهم العملية كما لو أنهم يقولون بلسان حالهم: إن هي إلا حياتنا الدنيا هذه، فمن عساه يبعثنا بعد الموت، ومَنْ سيحاسبنا على أعمالنا!!

بيْد أن هذه الغفلة أو هذا الإنكار لا ويتأمل بجدية، ولو أنه يُتأمل حقاً لصار ميلاده الأول دليل عنده على ميلاده الثاني .

وقد أريد بـ « الشياطين » هنا قادة السوء .. فهؤلاء القادة يضللون الجماهير بالألفاظ المموّهة الخداعة، وعلى هذا الاعتبار فإنهم يمارسون عمل الشيطان نفسه .. وهؤلاء القادة يبدون في العالم الراهن على ذروة المجد والعظمة، مما يجعل أنظار الناس تتجه نحوهم في دهشة وإعجاب وبالتالي يتعذر عليهم أن يهملوهم أو يعرضوا عنهم،

إلا أن عظمتهم وأمجادهم كلها ستنعدم في الآخرة، وسيقذف هنالك بكبار الناس هؤلاء في هاوية الذل والهوان، تماما كما يقذف فيها بصغارهم !

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

عِتِياً : عصيانا ، أو جراءةً أو فجوراً .

صِلِياً : دخولاً أو مقاساة لحرها.

وَارِدُهَا : بالمرور علي الصراط الممدود عليها .

إن عدم الإيمان بالحق جريمة، وأما إقامة حركة تستهدف صد الآخرين عن الإيمان بالحق، فهي جريمة أكبر وأفظع .. ومن ثم فالذين يتولون قيادة حركة المعارضة عن الحق، يستحقون عند الله عقوبة أشد وأنكى، وسوف يعذب هؤلاء في الآخرة عذابا مضاعفا بالقياس إلى عامة المنكرين .

يتضح من بعض نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية أن الله – سبحانه وتعالى – سيمرّر الخلائق جميعا عبر جهنم، وهذا المرور أو الاجتياز سوف لا يكون من داخل جهنم بل من فوقها، تماما كما يجتاز الواحد منا نهرا عميقا بواسطة الجسر القائم فوقه، فقد يقع بصره على أمواج هائلة تتلاطم في النهر تحته، إلا أنه لا يغرق فيها .. وهكذا فسوف يمر الجميع على جهنم في يوم القيامة، أما الصالحون منهم، فسيفضى بهم المسير، في نهاية المطاف إلى أن يدخلوا الجنة ليخلدوا فيها أبداً .. وأما الطالحون فلن يستطيعوا العبور ولا التقدم نحو الأمام، حيث إن جهنم لن تلبث أن تعرف أنهم وقودها، فتجذبهم نحوها، ليستقروا في قاعها.

وسيكون الغرض من تلك التجربة تمكين الداخلين في الجنة من أن يشعروا حق الشعور وأعمقه بنعمة الله العظيمة، التي تمثلت في إنقاذه تعالى إياهم من شر دار وإيصالهم إلى خير دارٍ!!

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾

خَيْرٌ مَّقَاماً : منزلا وسكنا .

وَأَحْسَنُ نَدِيًّا : مجلسا ومجتمعاً .

قَرْنٍ : أمة .

أَحْسَنُ أَثَاثا : متاعا من الفرش والثياب وغيرها.

وَرِءْيا: منظرا وهيئة .

إن الذين لا يهمهم أمر الحق والباطل شيئا، وهم يعطون الأهمية كلها لمصالح الدنيا دون الآخرة، ويهتمون بإرضاء الجماهير أكثر من إرضاء الله تعالى، إن أناساً كهؤلاء يظفرون دوماً بأوفر قسط من النجاح والتوفيق في الحياة الدنيا كما يتجمع حولهم أكبر قدر من المباهج المادية، ومظاهر الأبهة ووجاهة الشأن ما يجتذب الأنظار ويبهر العيون.

وبالمقابل فإن الذين ينظرون في كل أمر من حيث تمييز الحق من الباطل، وبالتالي يؤثرون مصالح الآخرة على مصالح الدنيا، والذين يكونون أكثر اهتماماً وأشد اكتراثاً بمرضاة الله منهم بالاتجاه الشعبي، فإن أمثال هؤلاء يظلون في الأغلب الأعم محرومين من أسباب الأبهة والفخامة الظاهرية .

وهذا الفارق ربما يتسبب في إيقاع الكثيرين في سوء الفهم، إذْ يحسبون أن الأفضل حالاً من الناحية الدنيوية، هو المحبوبون عند الله، وأما الذين هم أسوأ حالاً من الناحية الدنيوية فهم – بالعكس – غير محبوبين عند الله .. ولكن هذا المعيار خاطئ بالمرة .. وإنما يكفي لدحضه والرد عليه نظرة تأمل في تاريخ الماضي، فكم من رؤوس متعالية فخراً وزهواً دفنت تحت التراب فصارت تراباً، وكم من قصورٍ شامخاتٍ فخمةٍ، عفا عليها الزمن، فلم تعد تُرى للرائين اليوم إلا في صورة خرائب وأطلال !

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ ﴾

فَلْيَمْدُدْ لَهُ :يمهله استدراجاً .

وَأَضْعَفُ جُنداً : أقل أعوانا وأنصارا .

إن إتاحة الفرصة للرجل الطاغي في الحياة، إنما تكون بسبب مهلة الامتحان، وليس بناءً على أي حق له .. ولكن المرء لا يدرك – في أكثر الأحيان – هذا الفارق، فإذا به ينظر إلى المهلة الوقتية على أنها هي حالته الدائمة، ولا تكاد تنفتح عيناه ويعود إليه صوابه، ما لم يتم إعلان انتهاء المهلة، ويسلب منه بالتالي حق ممارسة الطغيان .

وربما يقدر الله لأحد الناس، لحكمة هو أعلم بها، يقدر له أن يجرب ذلك في هذه الدنيا، بينما يترك بعضهم على ما هو عليه، حتى يوافيه الموت، فيريه الشيء الذي لم يكن قد استعد لرؤيته في الحياة الدنيا !

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾

وَخَيْرٌ مَّرَدًّا : مرجعا وعاقبة .

الاهتداء هو أن يستيقظ شعور المرء ويتحرك وعيه في الاتجاه الصحيح .. وإن شخصاً كهذا حين يواجهه وضع ما، يؤوله على وجهه، فيجعله غذاءً لروحه وفكره، وهكذا لا يزال هداه في زيادة مطردة باعتبار اليقين والكيفية.. إذ لا يكون هداه مثل صخرة جامدة صماء، بل شأنه شأن شجرة حية لا تزال تنمو وتزدهر باستمرار .

وكما أن العامل من أجل الدنيا يتقدم تقدما مستمرا نحو الأمام والأفضل،فإن عمل العامل الذي يضع الآخرة نصب عينيه،هو الآخر قابل للزيادة والنمو المتصل كذلك.. وبما أن هذه الزيادة يتم ادخارها لصاحبها في الآخرة،لذا فهي لا تُرى في هذه الدنيا،ولكن حين تمزق القيامة كل الحجب،فسوف يلاحظ الجميع هناك كيف أن هدى المهتدي كان في ازدياد مستمر جنبا إلى جنب مع نماء عمله وازدهاره المتواصل !.

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾

أَفَرَءَيْتَ : أخبرني .

أَطَّلَعَ الغَيْبَ : أَعَلِمَ الغيب (استفهام) .

وَنَمُدُّ لَهُ : نطول له أو نزيده .

حين يظفر المرء من الثروة والقوة بنصيب ما، يتولد في داخله نوعٌ كاذب من الثقة بالنفس، مما يجعله يسلك مسلكاً لا يتفق ووضعه الحقيقي، وتصدر من لسانه أقاويل لا ينبغي له أن يتفوه بها .

وقد حدثت واقعة كهذه في مكة.. إن العاص بن وائل كان واحداً من رؤساء المشركين بمكة، وكان عليه دين لخباب بن الأرت، فجاء إليه يتقاضاه، فقال: لا والله لا أقضيك،حتى تكفر بمحمد، فما وسع خباب إلا أن قال: لا والله لا أكفر بمحمد، حتى تموت ثم تبعث .. فرد عليه العاص بن وائل قائلاً: إذن فموعدك الآخرة، فإني عندما أبعث ثانيا بعد الموت، سأكون هناك أيضاً ذا مال وبنين !!

وما هذا كله إلا أقاويل فارغة مصدرها الثقة الكاذبة بالنفس، وإن الثقة الكاذبة بالنفس لن تغني عن أحد شيئاً .

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾

عِزًّا : شفعاء وأنصارًا يتعززون بهم .

ضِدًّا : ذلا وهوانا لا عزا أو أعوانا عليهم .

الإنسان يريد أن يفعل ما يشاء في هذه الدنيا، من غير أن يضطر إلى مواجهة ما يستتبع سوء عمله بالضرورة من وخيم العاقبة.. وإذْ لم يكن بإمكان شخص ما أن يحصل على ضمان كهذا من قبل الله، فإنه لم يلبث أن افترض ثمة ذوات هي أحب وأقرب ما تكون إلى الله، وهي بذلك تستطيع - فيما يزعم – أن تقف إلى جانبه شافعة له في جناب الله جل وعز .. غير أن هذه كلها قياسات باطلة لا أساس لها من الصحة، وبالتالي فهي غير مجدية عن أحد فتيلاً.. حتى إن تلك الذوات التي كان المرء قد أدى لها طقوسا عبادية، زاعما إياها شريكة في الألوهية، سوف لا تلبث بدورها أن تتبرأ منه ومن عبادته، يوم القيامة، حيث لن يجد الإنسان من جانبها شيئا سوى الكراهية والمقت والنفور الشديد !!

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾

عند رفض المرء للحق، وقد ظهر أمامه في صورته الواضحة الجليلة، لما يتسبب في تمكين الشيطان من التسلل إلى داخل النفس وإغرائها بالشر .. حيث لا يلبث عقل المرء بعدئذ أن يسير في الاتجاه المضاد تماما، وبالتالي فكل دليل يقدم إليه الآن ينقلب رأسا على عقب، وقد تتجلى آيات الله الباهرة بين يديه، إلا أنه يحولها إلى غذاء لطغيانه وتمرده بتفسيرها على هواه .

والذي يستند على دعائم وهمية كاذبة يصاب دوماً بمثل هذا الجهل والسفه، ولكن الذين يخافون من الله يتخذون من الله وحده سنادهم وموضع ثقتهم.. فإن الخوف من الله يبطل عندهم وجود كل تلك الذوات التي إنما يضل الناس وينحرفون عن طريق الحق السوي باعتمادهم الكاذب عليها .. وهؤلاء هم الذين سيتم استقبالهم في الآخرة كضيوف الله المكرمين !

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾

شَيْئًا إِدًّا : منكرا وفظيعا .

يَتَفَطَّرْنَ : يتشققن ويتفتتن من شناعته .

وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَداً : تسقط مهدودة عليهم.

إن هناك احتمالين اثنين يمكن اعتبار أحدهما أو كليهما معا مصدر هذا الزعم القائل بأن لله بنين وبنات.. فإما لكون الله تعالى في حاجة إلى معين، وإما لكونه يتمنى، كالبشر العاديين، أن يكون له ولد، ومن ثم فقد اتخذ لنفسه ولداً.. وكلا هذين الاحتمالين باطل لا أساس له من الصحة .

إن تكوين الأرض والسماء كامل ومحكم لدرجة غير ممكن التصور بالمرة أن يكون صانعها ومدبر شئونها إلهاً يعاني من نقائص وعيوب كتلك التي نعاني منها نحن البشر، إن التصور القائل بولد لله ، لا ينطبق ، بأي وجه من الوجوه ، على ذلك الخالق العظيم الذي تعرفنا به مخلوقاته !

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾

وُدًّا : مودة ومحبة في القلوب .

ربما يحدث أن الذين ينهضون بالحق، يصبحون لدى الجماهير ثقيلي الظل مبغوضين، إذْ يأخذ القائمون على الصدق المغشوش ينظرون إلى حملة الحق غير الشرعي هؤلاء نظرة تقزز واشمئزاز .

على أن هذا شأن العالم الراهن وحده، وأما شأن الآخرة، فسيكون مختلفاً عن ذلك كل الاختلاف، حيث ستكون البيئة هناك بأكملها مع أولئك الذين يقيمون أنفسهم على الحق الخالص، إن الشرف والقبول في العالم الآخر، سيقعان كلياً في نصيب أولئك الأفراد وحدهم، الذين كانوا قد ربطوا وجودهم هنا بالحق الخالص، غير مبالين بسمعة الدنيا وقبولها.

في عالم الصدق المغشوش إنما يحظى بالشرف من يقوم على الصدق المغشوش كذلك، فإن الشرف في عالم يسوده الصدق الخالص، لن يفوز به إلا الذي كان قائماً على أرضية الصدق الخالص !

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ ﴾

قَوْماً لُّداً : شديدي الخصومة بالباطل .

قَرْنٍ : أمة .

تُحِسُّ : تجد . أو ترى . أو تعلم .

رِكْزاً : صوتا خفياً .

إن كتاب الله قد نزل في لغة واضحة مفهومة لدى الإنسان .. كما أن مضامينه قد روعيت فيها كل تلك الجوانب التي تجعل كتاباً ما، بحيث يستطيع أي إنسان أن يقتبس منه – إذا شاء – نور الهداية والتوجيه.. غير أن القرآن – مع هذا كله – لا يكون وسيلة هداية وإرشاد إلا لأناس يتمتعون بالجدية، وهم يتطلعون نحو معرفة الحق من الباطل، كي يتجنبوا الباطل، ويبنوا حياتهم على أساس من الحق .. وأما الذين قلوبهم خالية من الجدية وجذوة التطلع نحو المعرفة، فإنهم إذْ يسمعون تعاليم القرآن، فإنما يثيرون مناقشات فارغة حولها، ولن يستفيدوا منها شيئاً ذا بال .

والذين يتصدرون لمعارضة دعوة الحق، يظلون دوما ضحايا الغرور وسوء الفهم بأن صنيعهم ذاك لن يعرضهم لخطر أو خسارة ما، ومع أن حوادث الدمار والهلاك الذي لحق بمعارضي الحق السابقين، تكون متوفرة من حولهم، إلا أنهم لا يعتبرون بها.. ولا يزالون يحسبون، حتى اللحظة الأخيرة الحاسمة، أن كان ما حدث، إنما كان للآخرين وحدهم، وأنه لن يحدث معهم شيء من ذلك أبداً .

غير أن قانون الله عام وشامل لا استثناء فيه.. فكل واحد هنا سيلقى حتماً ما قد لقيه الآخر حسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر !!

سورة طه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾

لِتَشْقَى : لتتعب بالإفراط في مكابدة الشدائد والتأسف على قومك .

عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى : استواء يليق به تعالى .

وَمَا تَحْتَ الثَّرَى : ما وراء التراب . أو ما وراء الأرض .

إن القرآن،مع كونه قد جاء للتذكير وحده، إلا أنه لا يكون تذكيراً تقوم معه الحجة على المدعو إلا إذا بذل الداعي إليه جهده وطاقته كلها في سبيله .. وإلا إذا بلغ من النصح وحب الخير للآخرين إلى حد نكران الذات، بحيث تنطلق الألسنة تقول: إن هذا قد عرّض نفسه للعناء والمشقة من أجل إرشاد الناس إلى طريق الحق .

على أن الدعوة ، مهما تم تقديمها بأسلوبٍ كاملٍ وبليغٍ ، إلا أنه لا يوفق للاهتداء بها عملياً ، سوى ذلك العبد الذي يكون عارفاً بالحق ، والذي يتوفر لديه استعداد للتلقي والقبول ، بحيث يكون وضوح الأمر على مستوى الدليل والبرهان يصير كافياً لفتح عيونه.

إن الله الذي قام بخلق العالم،هو الذي أنزل القرآن الكريم،ولذا فليس ثمة تناقض بين القرآن والفطرة .. إن القرآن تذكير بحقيقةٍ يوجد الاستعداد لمعرفتها وإدراكها في الفطرة الإنسانية بصورةٍ مسبقةٍ !

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ

ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

وَأَخْفَى : حديث النفس وخواطره .

ربما يضطرب قلب الداعي ، وتنتابه مشاعر الهم والقلق بين حينٍ وآخر ، فيتضرع إلى الله تارةً سراً ، وقد تنفجر كلمات الدعاء من فمه تارةً أخرى بصوتٍ مسموعٍ عالٍ ، ويبدو ظاهراً كأنه وحيد ليس له من صديقٍ ، ولا نصيرٍ في هذا العالم المليء بالبشر !!

بيد أن ذلك ليس إلا وضعاً ظاهرياً محضاً ، فإن الداعي يقوم ، من حيث الحقيقة ، على أمتن دعامةٍ وأقوى سندٍ ، إنه ينادي رباً يحيط علماً حتى بالألفاظ المنطوقة في الوحدة سراً ، وبالمناجاة التي تجري في أعماق القلوب .. وإنه يضع ثقته في الله العظيم الذي يملك كل ما يُتصور وما لا يتصور من الطاقات التي يُحتاج إليها لنجدة مستنجدٍ وإغاثة مستغيثٍ ملهوف!

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾

آنَسْتُ نَاراً : أبصرتها بوضوح .

بِقَبَسٍ : بشعلة نار مقبوسة على رأس عود .

هُدًى : هاديا يهديني إلى الطريق .

وُلد موسى - عليه السلام - في مصر ، وقد قُتل يوماً رجل من القبط بيده عن غير عمدٍ، ففارق بعدئذٍ بلاد مصر ، وذهب إلى مدين ، حيث مكث عدداً من السنين .. وتزوج هناك من امرأةٍ ، ثم رجع عائداً برفقة زوجته إلى مصر ، وقد كان معه إذْ ذاك قطيع من الغنم أيضاً.

وفي أثناء سفره ذاك ، كان سيدنا موسى يمرّ بوادي الطور ، جنوبي شبه جزيرة سيناء، إذْ انتشر ظلام الليل الدامس ، فصار لا يتبين له وجه الطريق الصحيح ، وزيادةً

على ذلك فإنها كانت ليلة شتاء شديدة البرودة ، وبينما هو على هذه الحال رأى ناراً من بعيدٍ تتوقّد ؛ فاتجه نحوها ، لكي يأتي منها بجذوة يستدفئ بها هو وأهله ، وإن كان ثمة أحد يسأله عن الطريق!

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾

الْمُقَدَّسِ : المطهر أو المبارك .

طُوًى : اسم للوادي .

أَكَادُ أُخْفِيهَا : أقرب أن أسترها من نفسي .

فَتَرْدَى : فتهلك .

إن النار التي رآها موسى لم تكن ناراً عاديةً ، بل كانت إحدى تجليات الله .. ومن ثم فلما دنا منها ، تم إشعاره بأية بقعةٍ هو الآن .. كما أُمر بخلع النعلين من قدميه ، لكي ينصت لما يلقى إليه في تواضع وأدبٍ ، ثم قرع سمعه صوت يقول : إن الذي يكلمك الآن – يا موسى – إنما هو الله جل جلاله ، وقد اختارك الله لإبلاغ رسالته.

وإن ما أوحي إلى موسى حينذاك ، هو التعاليم التي توحي إلى كل الأنبياء والمرسلين على الدوام ، ألا وهي اتخاذ الله الواحد إلهاً ، وإفراده وحده بالعبادة ، وذكره تعالى على كل حالٍ ، وفي كل حينٍ .. ثم أخبر موسى بحقيقة الحياة هذه ، بأن العالم الراهن هو عالم امتحانٍ واختبارٍ ، وقد أخفى الله الحقائق وراء ستار الغيب إلى أمدٍ معينٍ محدودٍ، ومع قيام الساعة لا يلبث أن يتمزق هذا الستار ، فتنكشف الحقائق كلها بجلاءٍ ، وستبدأ بعدئذٍ المرحلة التالية لحياة الإنسان ، حيث يجد الكل مكانه بحسب أعماله التي

كان قد مارسها في الحياة الدنيا .

والمرء حين يستبد به الهوى ، وتغلبه الشهوات ، وبالتالي ينغمس في ملاذ الدنيا ومتعها ، غير مكترث بالآخرة ولا حاسبٍ لها أي حسابٍ ، فإنه يخترع نظرياتٍ شتى تبريراً لفعله ويبين موقفه وسلوكه بعباراتٍ جميلةٍ رائعةٍ ، مما يجعل الآخرين أيضاً غافلين عن الآخرة ، وفي مثل هذه الحالة ينبغي للمؤمن أن يكون على حذرٍ دائمٍ ، يُمكِّنه من صوْن نفسه من أن تتأثر بالغافلين عن الله واللامبالين بمطالب الآخرة ، أو تنخدع بمعسول كلامهم ، فيتخلى عن السعي لأجل سعادة الآخرة!

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

أَتَوَكَّأُ : أتحامل عليها في المشي ونحوه .

وَأَهُشُّ بِهَا : أخبط بها الشجر ليساقط الورق .

مَآرِبُ أُخْرَى : حاجات ومنافع أخرى .

حَيَّةٌ تَسْعَى : تمشي بسرعة وخفة .

سِيرَتَهَا الأُولَى إلى حالتها التي كانت عليها .

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ... ﴾ لقد وُجه هذا السؤال إلى موسى إيقاظاً لوعيه .. وكان الغرض منه أن يتجدد لدى موسى الشعور بكون عصاه عصاً لا غير .. حتى إذا انقلبت، بقدرة الله، إلى حيةٍ في اللحظة التالية، أدرك مدى أهميتها وقيمتها حق الإدراك .

إن صيرورة عصا موسى حيةً ، قد كانت حادثةً غريبةً تماماً كصيرورة التراب والماء إلى خشبةٍ .. وإن كل ما نراه فوق الأرض ، إنما هو تحول شيءٍ إلى شيءٍ آخر ، كتحول الغازات إلى مركب الماء ، وتحول التراب إلى صنوف النبات والشجر .. إلخ ، وبما أن

هذه التحولات تتم ، في الظروف المعتادة ، على نحوٍ تدريجي ، لا يكاد الإنسان يشعر بما فيها من جوانب الدهشة ، والإعجاز .. وأما عصا موسى فلكونها أخذت فجأةً شكل حيةٍ تسعى ، أصبحت تبدو عجيبةً .

والحقيقة هي أن كل ما يوجد في هذا العالم أو يحدث فيه ، هو برمته معجزات الله ، سواء كان ذلك خروج الخشب من باطن الأرض ، أو تحول خشبةٍ إلى حيةٍ .. وإنما يتم إظهار المعجزات غير العادية على أيدي الأنبياء ، لكيما يصير البشر أهلاً لرؤية المعجزات العادية المنبثة هنا وهناك في أرجاء الكون المحيط بهم ، حتى وفي ذات أنفسهم كذلك!

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾

إِلَى جَنَاحِكَ : إلى جانبك تحت العضد الأيسر .

بَيْضَاءَ : لها شعاع يغلب شعاع الشمس .

غَيْرِ سُوءٍ : غير داء برص ونحوه .

طَغَى : جاوز الحد في العتو والتجبر .

إن وقائع الأنبياء السابقين ذُكرت في التوراة كما ذكرت في القرآن الكريم ، غير أن هناك فروقاً ذات مغزىً بالغ الأهمية ، في أكثر من موضعٍ ، بين روايتي القرآن والتوراة .. وعلى سبيل المثال جاء في التوراة فيما يتصل بمعجزة اليد هذه ما يلي : «ثم قال له الرب أيضاً: أدخل يدك في عبك ، فأدخل يده في عبه ، ثم أخرجها ، وإذا يده برصاء مثل الثلج» . (سفر الخروج ٤:٧) .

تصف التوراة بياض يد موسى بـ «البرص»، وفي حالةٍ كهذه، فإن زيادة القرآن عبارة ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾، في معرض الحديث عن معجزة اليد البيضاء،مما يدل صراحةً على

أن القرآن غير مستمدّ من التوراة ، بل هو تنزيل من الله علام الغيوب ، وهو بذلك جاء مصححاً لما وقع في التوراة من تحريفاتٍ بشريةٍ .

وقد أُعطي موسى - عليه السلام - معجزتين خاصتين : وقد كانت معجزة الحية بمثابة رمزٍ للقوة بالنسبة إليه.. بينما كانت معجزة اليد البيضاء علامةً على أنه على حقٍ وضّاء منيرٍ .

أما طغيان فرعون أي تجاوزه الحد فهو أنه حين امتلك زمام السلطة ، ظن نفسه إلهاً.. ومعنى فرعون اللفظي هو : ابن الشمس ، فقد كان المصريون القدامى يعتبرون الشمس كبير الآلهة (الرب الأعلى) ، فادعى فرعون أنه المظهر الأرضي لإله الشمس ، وبالتالي نُحتت له تماثيل وأصنام ، وُضعت في كل مدن مصر وقراها ، وأصبحت موضع التقديس والعبادة .

إن السلطة نعمة من الله تعالى .. وينبغي على المرء ، إذا ما أتيحت له هذه النعمة ، أن تستيقظ في داخله مشاعر الشكر والامتنان لربه ، غير أن الإنسان الطاغي حين يحصل على السلطة ، يأخذ في اعتبار نفسه هو إلهاً !

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾

وَزِيراً : ظهيرا ومعينا .

أَزْرِي : ظهري وقوتي .

أُوتِيتَ سُؤْلَكَ : أعطيت مسؤولك ومطلوبك .

عقب حصوله على النبوة ، كان من الممكن أن تتولد في نفس موسى مشاعر الفخر ،

غير أن ما سأله ربه حينذاك ، يوضح أنه لم ينظر إلى النبوة على أنها مفخرةً ، بل على أنها مسئولية .. فالكلمات التي نطق بها حينذاك ، هي التي تصدر من لسان مَنْ يستشعر ويعي خطورة مسئولية الدعوة الملقاة على عاتقه .

وانشراح الصدر بالنسبة للداعي هو أن تتوارد على قلبه تلقائياً معانٍ بليغة ومؤثرة بحسب مقتضيات الأحوال .. وتيسير الأمر هو : ألا ينجح المعارضون في عرقلة طريق الدعوة أبداً .. وأما حل عقدة اللسان فهو: حصول القدرة على عرض الدعوة أمام جموعٍ حاشدةٍ من الناس من غير تلعثم ولا تهيبٍ .

ولقد منح الله موسى كل هذا تمكيناً له من القيام بأداء واجبات النبوة والرسالة كما أيده - استجابةً لطلبه - بجعل أخيه - هارون - مساعداً قوياً له .. وهذا النصر أو التأييد الذي اختص به النبي ، يمكن أن يحصل للداعي غير النبي كذلك .. وذلك بشرط أن يربط الداعي وجوده كله بعمل الدعوة تماماً كما كان النبي قد ربط به كل وجوده .

إن التسبيح والذكر هو المقصود الأصلي للدين ، غير أن المراد بالتسبيح والذكر ليس أي نوعٍ من الأوراد اللفظية ، بل إنما المراد بذلك تلك الكيفية التي تتولد كنتيجةٍ طبيعيةٍ لإدراك الحق .. فحينئذٍ - يجرب وجود الإنسان صفات الله الكمالية بحيث ينغمس فيها، ويغمره الشعور بالجلال الإلهي بحيث يعود مبشراً به ، داعياً إليه أينما حل وسار !

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ : فألقيه واطرحيه في نهر النيل.

وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي : لتربى بمراقبتي أو بمرأى مني .

مَن يَكْفُلُهُ : من يضمه إليه ويحفظه ويربيه .

تَقَرَّ عَيْنُهَا : تسر بلقائك .

وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً : خلصناك من المحن تخليصاً .

جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ: على وفق الوقت المقدر لإرسالك .

لقد كان الأقباط سكان مصر الأصليين ، وكان يمثلهم - سياسياً ودينياً - فرعون الطاغية .. أما بنو إسرائيل فقد كانوا شعباً وافداً على مصر من الخارج ، حيث جاءوا هنا واستوطنوا في عهد سيدنا يوسف - عليه السلام - .. وفي الزمن الذي وُلد موسى في بيتٍ من بني إسرائيل ، كان فرعون قد أصدر أمره بالقضاء على نسل إسرائيل ؛ بإعدام كل طفلٍ يُولد في بيوت الإسرائيليين ، وقد أنقذت أم موسى وليدها من القتل ، إذْ وضعته - على حسب الإلهام الإلهي - في سلةٍ وألقتها في النيل .

وانطلقت هذه السلة تجري مع تيار الماء ، حتى اقتربت من قصر فرعون ، حيث وقع بصره هو وزوجته على الطفل الصغير بداخلها ، فرقّ له فؤادهما ، فأمرا بعض الخدم بانتشاله من الماء ، وإدخاله القصر .. ثم جيء بأم موسى، امتثالاً لطلب أخته ، لتتولى حضانته وإرضاعه ، إذْ كان الله قد زهّده في المراضع الأخرى ، فلم يكن يقُبل على ثدي إحداهن .. وإنها لمعجزة من الله ، أن تتم تنشئة موسى وتربيته بواسطة فرعون نفسه ، الذي سيصبح مستقبلاً أعدى أعدائه !!

وذات يومٍ ، وقد كبر موسى وصار فتىً قوي البأس وافر القوة ، رأى قبطياً كان يتشاجر مع أحد الإسرائيليين، فوكزه وكزةً مات في إثرها على نحوٍ غير متوقعٍ ، وبعدئذٍ صدر من جانب الحكومة قرار بإلقاء القبض على موسى ، ولكنه نجح في الفرار من

مصر خفيةً ، ووصل إلى مدين ، حيث ذاق المزيد من ألوان التجارب الحياتية ، في أحضان بيئة صحراويةٍ طبيعيةٍ .. وقد تضرع موسى ، في أعقاب هلاك القبطي على يده، إلى الله ، ودعاه، وكانت نتيجة ذلك أن جعل الله تعالى هذا الحادث وسيلةً أخرى لتعليمه وتربيته!.

﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي : اصطفيتك لرسالتي وإقامة حجتي .

وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي :لا تفتُرا في تبليغ الرسالة.

لما بلغ سيدنا موسى - بعد مروره بصنوف البلاء وألوان التجارب - إلى آخر درجةٍ من كمال الشعور ونضج الوعي ، ألقى الله على عاتقه أمانة الدعوة النبوية وتبعة إبلاغ الرسالة .. وقد أوصاه الله حينذاك بوصيتين خاصتين : أولاهما : عدم التقصير أو التراخي في ذكر الله .. والثانية هي: الأخذ بأسلوب الملاطفة واللين في الدعوة .

والمراد بذكر الله هو امتزاج اليقين بالله بقلب المرء وفكره بحيث لا يفتأ يعاوده ذكره تعالى كل حينٍ وآنٍ.. وأن تكون كل مشاهدةٍ وكل حادثةٍ من حياته مرتبطةً بشعوره الإلهي ، بحيث تصير موقظةً له من الفتور والغفلة على الدوام.

إن البشر العاديين يعيشون على الأغذية المادية ، أما داعية الحق فهو يعيش على ذكر الله ، وكما أن ذكر الله رأس مال المؤمن في هذه الحياة فهو ذاته بضاعة الداعي كذلك .

الوصية الثانية تؤكد على ضرورة الأخذ بمنهج الرفق واللين في الدعوة .. والتأكيد على ذلك ، وبخاصةٍ عند البعث بالرسول إلى طاغية جبار كفرعون ، مما يبرهن على أن الرفق واللين في الدعوة مطلوب على نحوٍ مطلقٍ ودائمٍ ، فأي عنادٍ أو سوء معاملةٍ من قبل المدعو لا يعطي للداعية الحق في أن يتخلى عن منهج اللين والملاطفة في ممارسة

نشاطه الدعوي !.

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

يَفْرُطَ عَلَيْنَا : يعجل علينا بالعقوبة .

يَطْغَى : يزداد طغيانا وعتواً وجرأة .

إِنَّنِي مَعَكُمَا : حافظكما وناصركما .

كان فرعون قد بلغ أقصى حدود التكبر والطغيان؛إذْ كان يظن نفسه إلهاً،اغتراراً بما أتيح له من السلطة والقوة .. ولذلك فقد أحس موسى بنوعٍ من الخوف من أن فرعون حين يستمع إلى رسالته التي يبلغها إليه عن إلهٍ آخر سواه،فلن يلبث أن يشتعل غضباً.. غير أن نبي الله يكون في عصمةٍ من الله،وتحت رعايته الدائمة،ومن ثم أُمر بأن اذهب إلى فرعون واثقاً تمام الثقة،من أنه لن يستطيع إصابتك بأي أذىً أو مضرةٍ .

إن بني إسرائيل كانوا مسلمي العصر القديم .. ومع كونهم في الأصل شعباً موحّداً، إلا أنهم بسبب تعايشهم جنباً إلى جنبٍ مع شعب مصر الوثني منذ أمدٍ بعيدٍ ، كانوا قد تأثروا بالحضارة الوثنية السائدة أسوأ التأثر ، ويضاف إلى ذلك أن الحكام المشركين كانوا قد استبعدوهم وسخروهم في الخدمات والأعمال الشاقة ، بحيث لم يعودوا معها أهلاً ليتفكروا بجديةٍ فيما يتعلق بالتوحيد والآخرة من حقائق ومعانٍ سامية ، ولهذا السبب أُمر سيدنا موسى بإخراجهم من تلك البيئة الوثنية الموبوءة ، والذهاب بهم إلى بقعةٍ أخرى مستقلةٍ ، لكي يمكن إصلاحهم وتربيتهم بعيداً عن مناخ الشرك والجاهلية !

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾

خَلْقَهُ : صورته اللائقة بخاصته ومنفعته .

هَدَى : أرشده إلى ما يصلح حاله .

فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى ؟: فما حال وما شأن الأمم ؟

لاَّ يَضِلُّ رَبِّي : لا يغيب عن علمه شيء ما .

إن سؤال فرعون ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ لم يكن يعني أنه على غير علمٍ بأي إلهٍ آخر سواه ، أو أنه لا يعترف بوجود ربٍ أعلى إطلاقاً .. بل إنما كان ذلك استخفافاً منه بقول موسى ، وليس إنكاراً له على الإطلاق .. فقد سبق أن قام سيدنا يوسف - عليه السلام - بنشر عقيدة التوحيد في مصر ، وكان لا يزال هناك مئات الآلاف من بني إسرائيل موجودين وهم يؤمنون بالإله الواحد ، الأحد ، الفرد الصمد ، وهكذا فإن عقيدة الرب الواحد الأعلى، وإن كانت باقيةً بمصر ، إلا أن كل أسباب القوة ومظاهر الأبهة والسلطان كانت قد تجمعت بالفعل حول فرعون الطاغية ، الذي كان يمثل ، طبقاً لاعتقاد المصريين ، المظهر الأرضي لكبير آلهتهم (الشمس) ، وهو بذلك كان يعتبر الملك الإلهي أو الشبيه بالإله (God-king) وبالتالي صارت تماثيله موضع التقديس والعبادة في طول البلاد المصرية وعرضها.

وفي مقابل ذلك فإن موسى - عليه السلام - كان فرداً من بني إسرائيل ، الذين كانوا يُعدون قوماً من العبيد والعمال في مصر يومذاك ، وللسبب ذاته فقد كانت عقيدتهم الدينية هي الأخرى عقيدةً لا يُقام لها وزن ولا تستحق الذكر بجانب عقائد المصريين .

الدنيا حافلة بأشياء لا تُعد ولا تُحصى .. وكل شيءٍ له هيئة أو تكوينه المتفرد ، كما أن له منهج عملٍ محدد يختلف عما سواه تمام الاختلاف. ومن المستحيل إحداث تغييرٍ ما في تكوين أحد الأشياء ولا في منهج عمله .. ولا يُستثنى من ذلك حتى طاغية جبار كفرعون .. مما يقيم دليلاً صارخاً على وجود خالقٍ عظيمٍ وربٍ أعلى.

وحين قدم موسى هذا الدليل ، حتى شعر فرعون بأنه عاجز عن رده بطريقٍ مباشرٍ، فما لبث أن غيّر مسار الحديث .. وحيث أراد ، بعد أن بدا ضعفه وعجزه في ميدان الدليل ، أن يستثير عواطف التعصب الكامنة في النفوس، حفاظاً على تفوقه وكبريائه بين الناس ، فقال: إن كان ما تقوله أنت - يا موسى - هو الحق ، فأي مصيرٍ لقي أو سيلقاه أسلافنا العظماء الذين قد ماتوا في حالة ضلالٍ وانحرافٍ عن الحق ، بمقتضى نظريتك التي جئت بها .. وفي جواب ذلك سلك سيدنا موسى مسلك الإعراض .. إذْ قال له : مالك ولمن مضى من الناس ؟ لتفوض أحوالهم ومآلهم إلى الله العليم الخبير ، وإنما عليك بنفسك ، فلتفكر في إصلاحها .. فتلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولك ما كسبتَ ، ولا تُسأل عما كانوا يفعلون !.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

مَهْداً : كالفراش الذي يوطأ للصبي .

سُبُلاً : طرقا تسلكونها لقضاء مآربكم .

أَزْوَاجاً :أصنافاً أو ضروباً .

شَتَّى : مختلفة الصفات والخصائص .

لأُوْلِي النُّهَى : لأصحاب العقول والبصائر .

إن خلق الأرض ، وإقامة نظام المطر ، ونمو النباتات ، وما إلى ذلك من التدابير الأخرى التي جعلت العالم الراهن صالحاً لسكنى الكائنات الحية بما فيها الإنسان ، تبلغ من العظمة والروعة حداً يبعث على الدهشة والذهول .. إنها آية تبرهن على أن خالق هذا العالم وما لكه إله عظيم ؛ فإن إيجاد عالمٍ كعالمنا الراهن ، يتطلب قدرةً كبيرةً وشاملةً لا يتمتع بها أي شمسٍ ولا أي ملكٍ .. فلا مناص إذن من أن نؤمن بأن صانعه والقائم بإدارته وتدبير شئونه هو الله الواحد العلي العظيم لا غير .

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾

وَأَبَى : امتنع عن الإيمان والطاعة .

سُوًى : وسطا أو مستويا من الأرض .

يَوْمُ الزِّينَةِ : يوم عيدكم (يوم مشهود) .

لم يزل موسى - عليه السلام - يدعو فرعون مدةً من الزمان طويلةً .. وقد بين له في أثنائها دلائل وبراهين عقليةً من جهةٍ كما أراه معجزاتٍ وخوارق حسيةً من جهةٍ أخرى.. إلا أنه لم يؤمن بموسى .. فإن الإيمان بصدق موسى كان سيعني _ بالنسبة إلى فرعون - نفياً لذاته ، ومن ثم فقد حالت نفسية فرعون المفعمة بالغرور والاستكبار دون إقراره بالصدق على حساب ذاته !

وقد حاول فرعون إبطال أدلة موسى العقلية وإضعاف تأثيرها على النفوس بإثارة قضايا غير ذات الصلة بالموضوع ، ووصف ما جاء به من المعجزات بأنه سحر ، أي أنه شيء لا علاقة له بالله البتة ، وأن كل شخصٍ يستطيع تحصيل المهارة التي تمكنه من إظهار الشعوذات من هذا القبيل .. وقد جرّه هذا العناد والتعنت إلى أن يتحدى قائلاً :

إنه بإمكاننا أيضاً أن نُظهر ، بواسطة سحرتنا ، شعوذةً مثل التي أظهرتها أمامنا .. وهنا ينتهي الحوار باتفاق الطرفين على أن يُحشر السحرة الماهرون من مختلف أنحاء الدولة ، بمناسبة المهرجان القومي القادم ، لتُقام بينهم وبين موسى مبارزة أو مسابقة يشهدها الناس!

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾

فَجَمَعَ كَيْدَهُ :سحرته الذين يكيد بهم .

فَيُسْحِتَكُم : فيستأصلكم ويبدكم .

بعث فرعون برسله ليأتوا بالخبراء بفنون السحر من سائر أنحاء مملكته ، ولما اجتمع هؤلاء في مكان المهرجان ، ألقى عليهم سيدنا موسى خطبةً ، قبل الشروع في المسابقة .. ولم تكن تلك الخطبة تحتوي على شيءٍ جديدٍ على الناس بالمرة ، بل كانت نوعاً من التذكير .. إذْ من المؤكد أن السحرة وغيرهم من الناس كانوا قد تعرفوا مسبقاً على حقيقة رسالة موسى، وذلك من خلال دعوته - عليه الصلاة والسلام - منذ أمدٍ غير قصيرٍ .. فكانوا يعرفون جيداً بأن موسى قد نهض برسالة التوحيد في مواجهة الشرك .

وفي هذه الخلفية ، أراد سيدنا موسى أن يتوجّه إليهم أخيراً بالتذكير والنصيحة من باب قطع العذر وإقامة الحجة .. فقال لفرعون وسحرته : لا تعتبروا هذه القضية سحراً؛ فإن وصف الآية الإلهية بالسحر ، ومحاولة التغلب عليها بواسطة السحر الإنساني ، أمر متناهٍ في الخطورة .. إنها معارضة حقيقةٍ واقعةٍ بشيءٍ لا حقيقة له إطلاقاً .. وهي لا ولن تؤدي بكم إلا إلى الهلاك والدمار المحقق .. وأنتم تريدون إثبات أني كاذب ، غير أن ذلك - والعياذ بالله - محاولة لإثبات الله نفسه كاذباً .. والذين يمارسون هذا النوع من العناد والطغيان ، لن يُكتب لهم النجاح والفلاح في دنيا الله

أبداً!

﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾

وَأَسَرُّوا النَّجْوَى : أخفوا التناجي أشد الإخفاء .

بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى : بسنتكم وشريعتكم الفضلى .

فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ : فأحكموا سحركم واعزموا عليه .

أَفْلَحَ : فاز بالمطلوب .

لقد أحدث خطاب موسى الفرقة في صفوف السحرة ، وبالتالي أخذوا يتشاجرون فيما بينهم ؛ فمن قائل : ليس هذا بكلام ساحرٍ ، إنما هذا كلام نبيٍ ، ومن قائل : بل هو ساحر مثلنا تماما [1].

لقد كان السحرة - من غير شكٍ - يعرفون نظراءهم .. فما لبث المحنكون وذوو الخبرة منهم أن أحسوا بأنها ليست بقضية سحرٍ ، إنما هي قضية معجزةٍ إلهيةٍ .. ومن ثم فقدوا همّتهم للمبارزة .. إلا أنهم تقدموا للمبارزة - رغماً عنهم - بناءً على تحريضات فرعون وأصحابهم المتحمسين المتكررة .. و«الطريقة المثلى» تعني الطريقة الأفضل .. إن بنيان حياة المصريين أيامئذٍ ، كان بأكمله قائماً على العقائد المشركة .. وقد كانت شخصية فرعون ، باعتبارها المظهر الجثماني لكبير الآلهة (الشمس) ، تمثل أساس نظامهم السياسي والاجتماعي.. فاستشار فرعون كوامن التعصب لدى شعبه قائلاً : إن هذا النظام هو نظامنا القومي المفضل.. ولئن كانت الكرة اليوم لحملة التوحيد علينا ، فسوف ينهار نظامنا القومي هذا من القواعد ، ولن تقوم له قائمة بعدئذٍ !

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٨٥.

﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ : أضمر أو جد . وأحس في نفسه .

تَلْقَفْ : تبتلع وتلتقم بسرعة .

كانت كيفية بدء المبارزة أن ألقى السحرة أولاً ما جاءوا به من عصيٍ وحبالٍ في الساحة ، فإذا بها تتراءى حياتٍ وثعابين تتحرك وتسعى .. بيد أن ذلك لم يكن يعدو الشعوذة أو عملية التصرف في العيون بالحيل .. أي أن العصي والحبال لم تتحول إلى حياتٍ وثعابين في واقع الأمر ، وإنما استولى أولئك السحرة على ملكة الخيال لدى الحاضرين ، من خلال التصرف في عيونهم بالحيلة والدجل ، بحيث بدا لهم كأن الحبال والعصى قد انقلبت حيات تسعى .

وعندها ألقى سيدنا موسى - بأمر الله - عصاه في الميدان ، فصارت من فورها ثعباناً عظيماً هائلاً يسعى، ولم يلبث أن ابتلع طلاسم السحرة وحيل تصرفهم في العين والخيال ، وبالتالي عادت تلك الأشياء - التي كانت تبدو قبل لحظةٍ متحركةً مثل الحيات - حبالاً وعصياً كما كانت .

وكان السحرة قد سبق لهم أن تأثروا بكلام موسى منذ الوهلة الأولى .. وها هم أولاء يرون الآن - بعد أن تمت المواجهة العملية - صدق موسى وصحة دعواه رأي العين .. ويعلمون علم اليقين بأن ما جاء به موسى ليس من السحر البشري في شيءٍ ، وإنما هو معجزة إلهية .. وقد بلغ هذا اليقين من العمق حداً جعلهم يبادرون في الوقت

نفسه بإعلان قبولهم بدين موسى على رؤوس الأشهاد!.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾

إن هذه المبارزة لم تكن مواجهةٍ بين فريقين من المشعوذين والدجالين ، بل كانت مواجهةً بين التوحيد والشرك .. أي كان المفروض أن يتقرر من خلالها كون الصدق إلى جانب الشرك ، أو إلى جانب التوحيد .. وبما أن مجد فرعون وسلطانه كانا قائمين على دعائم الشرك ، لم يكد يتحمل هزيمة الشرك هذه ، وبالتالي حكم على السحرة المؤمنين بأشد العقوبات قسوة كانت رائجة لدى المصريين في ذلك الزمان .

ولما انهزم فرعون في ميدان الدليل ، حاول قهر الحق بالقوة .. وتلك هي نفسية أرباب السلطة بوجهٍ عام ، وعلى اختلاف الزمان والمكان ، وسواء في ذلك أكانوا هم من ذوي السلطات الملوكية ، أم ذوي السلطات غير الملوكية !

﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾

وَالَّذِي فَطَرَنَا : أبدعنا وأوجدنا وهو الله تعالى.

لقد كان أمام السحرة – من جانب – بينات موسى .. ومن جانب آخر شخصية فرعون الطاغية الغشوم .. وقد كانت هذه مقابلةً أو موازنةً بين "دليل" و"شخصية" ، وقد فضل السحرة الدليلَ على الشخصية .. مع العلم بأنهم سيضطرون إلى دفع الثمن غالياً جداً لقاء هذا التفضيل ..

إن إيمان السحرة لم يكن بأي إيمان رسمي تقليدي أو متوارثٍ أباً عن جدٍ .. إن إيمانهم كان عندهم بمثابة اكتشافٍ .. والإيمان الذي يفوز به أحد الناس كاكتشافٍ ، يكون قوياً لدرجة أن كل شيءٍ آخر عداه يبدو له بعدئذٍ تافهاً عديم القيمة .

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾

تَزَكَّى : تطهر من دنس الشرك والكفر .

ما معنى كوْن أحد الناس مجرماً ؟ إن كوْنه مجرماً يعني عدم اعتباره واتعاظه بآية الله تتجلى أمامه .. وإهماله للحق يُوضح له بلغة الأدلة والبراهين الساطعة .. وعدم تمكنه من الاعتراف بالحقيقة ، متحرراً من أسر القوى الظاهرية والمصالح المادية الزائلة .

ولأمثال هؤلاء عذاب شديد في الآخرة .. إن مصيبةً ما من مصائب الدنيا ، مهما كانت عظيمة قاسيةً ، إلا أنها محدودة الأمد ، قصيرة الأجل على كل حالٍ ، وهي تنتهي لا محالة بمجيء الموت يوماً ما .. غير أن الآخرة مكان يحيط بالمرء فيه طوفان المصائب والآلام من كل جانبٍ ، والمرء لا ولن يجد إلى الهرب من هناك سبيلاً ، كما لن يأتيه الموت ليضع حداً لسلسلة الآلام التي لا تُوصف !!

الجنة لمن زكّى نفسه .. والتزكية تعني : أن يترك المرء حياة الغفلة والفتور ، ويختار حياة اليقظة والشعور .. ويجنّب نفسه كل ما يحول دون تقدمه نحو الحق .. فإن اعترضت طريقه المصلحة ، مضى أمامها معرضاً عنها ، غير ملقٍ لها بالاً .. وإذا انبعثت شهوة من شهوات النفس ، كبتها على الفور .. وإذا ما تيقظت مشاعر الغرور والكبرياء والظلم ، وأدها في داخله .

وهؤلاء هم المؤمنون الصادقو الإيمان .. وقد نما إيمانهم في الدنيا وازدهر بشكل

حديقةٍ من الأعمال الصالحة .. وإنها لسوف تُرد إليهم في الآخرة بشكل الجنان الخالدة ، التي لا يفنى بهاؤها ، ولا تذهب نضارتها ، وبهجتها إلى الأبد !!

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾

أَسْرِ بِعِبَادِي : سر ليلا بهم من مصر .

يَبَساً : يابسا لا ماء فيه ولا طين .

لاَّ تَخَافُ دَرَكاً : لا تخشى إدراكا ولحاقا أو تبعه .

وَلاَ تَخْشَى : الغرق من الأمام .

فَغَشِيَهُم : علاهم وغمرهم .

في أعقاب المبارزة التي جرت بينه وبين السحرة ، بقي موسى بمصر عدداً من السنين.. وفي خلال ذلك ما زال يدأب - من ناحيةٍ - على دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان بالله الحق ، وطالبهم - من ناحيةٍ أخرى - بأن اسمحوا لي بالذهاب بأصحابي إلى بريّة سيناء ، حيث نعبد الله الواحد الأحد بكامل الحرية .. غير أن فرعون لم يتقبل الدعوة ، ولم يسمح لموسى بالانطلاق مع بني إسرائيل .

وقد قرر موسى آخر الأمر - وعلى حسب الإرشاد الإلهي - أن يهاجر من أرض مصر في صمت .. فاجتمع كل من آمن بموسى من بني إسرائيل وغير بني إسرائيل في مصر يومذاك ، اجتمعوا ، تحت خطةٍ مدروسةٍ مسبقاً ، في مكانٍ معينٍ ، وانطلقوا من هناك مجتمعين في جوف الليل المظلم .

ولم تكد تبلغ هذه القافلة شمالي الخليج المتفرع من البحر الأحمر ، حتى طلع عليهم فرعون وجنوده يتعقبونهم .. وقد كان ذلك موقفاً حرجاً للغاية ، حيث يتقدم نحوهم

جنود فرعون من الخلف سراعاً ، ويمتد أمامهم خليج واسع عريض يشبه البحر .. وهنا ضرب موسى سطح الماء بعصاه - كما أمره الله تعالى - فانفلق الماء ، ووقف كالسور يميناً وشمالاً ، حتى استطاع موسى وأصحابه أن يسيروا فيه على اليبس ، ويعبروا إلى الضفة الأخرى .. ولم يلبث فرعون وجنوده أن اقتحموا هم الآخرون الطريق اليابس بين المياه المنحسرة ، خلف بني إسرائيل ، إذ رأوهم يسيرون فيه ، دون أن يمسهم أذىً ، إلا أنهم حين توسطوا البحر ، انطبق عليهم الماء من كلا الجانبين ، فهلكوا عن آخرهم غرقى ، لم يفلت أحد منهم ممن دخلوا الماء.. إن بحراً واحداً ، قد صار بالنسبة لعباد الله الأوفياء طريق النجاة والخلاص ، بينما أصبح ، بالنسبة إلى أعداء الله ، هاوية الموت والدمار!!

والناس كثيراً ما يهملون الحق ويعرضون عنه ، اعتماداً على قادتهم وكبرائهم .. غير أن مثال فرعون يدلنا على أن سناد القادة أهون وأضعف ما يكون ، وإنما المتكئ على سنادٍ حقيقيٍ في هذا العالم ، هو الذي يحدد طريقه ووجهة حياته في ضوء آيات الله ، وليس في ضوء آراء أكابر الشعب وأحلامهم !!

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾

المَنَّ : مادة صمغية حلوة كالعسل .

وَالسَّلْوَى : الطائر المعروف بالسمان .

وَلاَ تَطْغَوْا : لا تكفروا نعمه . أو لا تظلموا .

فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ : فيجب عليكم ويلزمكم .

هَوَى : هلك . أو وقع في الهاوية .

عقب اجتياز الخليج ما برح موسى وأصحابه يسيرون ، حتى وصلوا إلى برية سيناء .. ثم استقدمهم الله إلى سفح جبل الطور ، حيث منحهم الشريعة تحت عناية خاصةٍ .. وقد قضى هؤلاء في برية سيناء أربعين عاماً، أتيح لهم خلالها طعام وشراب (المن والسوى) كنعمةً خاصةٍ .. وقد ظلت هذه النعمة توُفَّر لهم من غير انقطاعٍ، إلى أن دخلت أجيالهم التالية في أرض فلسطين الخصبة الحافلة بالخيرات .

إن من حق العباد على الله أن يتيح لهم أسباب الرزق على كل حالٍ وفي كل مكانٍ .. ومن حق الله على عباده ألا يطغوا ولا يتمردوا عليه أبداً ، فالذين يعيشون شاكرين لأنعم الله، يعطون المزيد من رحمات الله ، وأما الذين يسلكون مسلك التمرد والطغيان ، فإنما ينتظرهم عند ربهم عذاب غليظ شديد ، لن يزول ولن يخفف عنهم أبداً !

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ ﴾

وَمَا أَعْجَلَكَ : ما حملك على العجلة ؟

فَتَنَّا قَوْمَكَ : ابتليناهم . أو أوقعناهم في فتنة .

عقب خروجه من مصر ، ضرب الله لموسى موعداً ، ليأتي مرة أخرى إلى سفح جبل الطور نفسه ، حيث كان قد تلقى النبوة أول الأمر .. وقد كان على موسى أن يذهب هناك ، مصطحباً قومه معه ، ليتسلّم التوراة من عند ربه فيها هدى ونور .. إلا أنه تقدمهم وحده إلى المكان الموعود ، بدافع الشوق الشديد ، فوصل قبل الموعد المضروب بأيام، وقد صار ابتعاد موسى عن قومه فتنةً لهم ؛ إذْ كان لا يزال بينهم أناس ذوو نزعاتٍ وأفكارٍ وثنيةٍ، وكان زعيمهم السّامري .. فانتهز هؤلاء فرصة غياب موسى عن القوم ، فأضلوهم عن جادة الحق ، وشغلوهم بعبادة العجل ، كما كانت شائعة مألوفةً

لدى المصريين في ذلك الزمان!

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ ﴾

أَسِفاً : حزينا . أو شديد الغضب .

مَوْعِدِي : وعدكم لي بالثبات على ديني .

لما أخبر الله تعالى موسى بافتتان قومه عن دينهم ، رجع إليهم غضبان حزيناً .. وأخذ في لومهم وتأنيبهم ؛ مذكراً إياهم بأن العهد قريب ، والأمد غير بعيد ، إذ أنعم الله عليكم بإحسانات عظيمةٍ ، وأظهر لكم من آيات قدرته الباهرة ما هو أعظم وأكثر ، إذن ، فما أسرع نسيانكم لها ، وما أسرع سقوطكم في الغي والضلالة!!

ولقد ذهب موسى إلى الطور ليأتي من عند ربه بكتابٍ فيه هدىً وموعظةً ورحمة لبني إسرائيل .. وفي أثناء غيبته تلك ، انخدعت غالبية بني إسرائيل بكلام بعض الغواة منهم ، فانشغلت في عبادة غير الله .. مما يدل على مدى تأثر بني إسرائيل وانبهارهم ببيئة مصر الوثنية، وعلى صيرورتهم بذلك في حاجةٍ ماسةٍ إلى أن يتم إخراجهم من أرض مصر في المقام الأول ، حتى يمكن إعادة تربيتهم على مبادئ التوحيد وعبادة الله الواحد من جديدٍ.

إن أنشطة موسى التي قام بها إزاء فرعون ، كانت من باب الدعوة إلى الدين الحق.. وأما أنشطته التي مارسها بالنسبة إلى بني إسرائيل ، فكانت من باب الحفاظ على الدين .. وقد عُني بتأدية كلا العملين جنباً إلى جنبٍ وفي وقتٍ واحدٍ .. مما يوضح لنا أهمية هذين العملين وضرورة العناية بهما بنفس الدرجة .. فلو كان المسلمون "فاسدين" ، فليس ذلك بمستلزمٍ لترك القيام بواجب الدعوة والتبليغ العام ، كما لو

أُريد القيام بالدعوة والبلاغ العام ، فلن يكون ذلك بأن نتخلى بالمرة عن عملية الإصلاح الداخلي بين المسلمين .. بل يجب أن يسير هذا وهذا معاً ، من غير أن يطغى أحدهما على الآخر ، أو يتم إنجاز أحدهما على حساب الآخر !

﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾

مَلْكِنَا : بقدرتنا وطاقتنا .

أَوْزَاراً : أثقالا وآثاما وتبعات .

من زِينَةِ القَوْمِ : من حلي قبط مصر .

عِجْلاً جَسَداً : مجسدا : أي أحمر من ذهب.

لهُ خُوَارٌ : صوت كصوت البقر.

لعل نساء بني إسرائيل كن قد خرجن - على حسب العادة المتبعة قديماً - وهن متبرجاتٍ بأحمالٍ من الزينة والحلي ثقيلةٍ .. وعندما حل القوم رحالهم للاستراحة في بعض الطريق ، خلعن حليهن تلك ، ووضعنها في مكانٍ بعضها فوق بعضٍ .. وكان بينهم «السامري» لديه خبرة بصناعة نحت الأصنام المصرية القديمة ، فعمد إلى هذه الحلي ، فأذابها في النار ، وصاغ منها تمثالاً على هيئة عجلٍ .. وقد كان العجل فارغاً من الداخل ، مسبوكاً بمهارةٍ فنيةٍ فائقةٍ ؛ بحيث إذا مرت الريح من داخله ، سُمع له خوار مثل خوار البقر .. وعندها توجه السامري إلى سفهاء بني إسرائيل قائلاً : هذا هو معبودكم الذي يتواجد هنا بين أيدينا ، وما بال موسى راح يبحث عن المعبود في بعض الجبال!!

وإن "السامري" له أشباه ونظائر في كل زمانٍ ، يتغفلون الجماهير الغبية على هذا النحو .. فهم يتخذون من أحد الأشياء المحسوسة هدفاً ، ثم يقيمون الأدلة المفتعلة على أنه هو الحق الأعظم والصدق الأوحد ، وإذا بالعوام البسطاء ينساقون وراءهم زرافاتٍ ووحدانا ، مخدوعين بطلاسم الألفاظ الوهمية .. إن عبادة الظواهر المحسوسة تمثل موطن ضعف الإنسان الأكبر.. ولا فرق في ذلك بين إنسان العصر القديم ، وبين إنسان العصر الحديث !!

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾

كان سيدنا هارون هو المسئول - بعد ذهاب موسى إلى الطور - عن رعاية شئون القوم ، والنظر في مصالحهم .. وقد حاول إفهامهم أنهم فُتنوا بالعجل ، وجهد أن يردهم عن عبادته .. إلا أنهم لم يلتفتوا إليه ، ولم تفلح محاولاته في ردهم عن تلك الفتنة ..ومرجع ذلك إلى أن هارون لم يكن لدى القوم مهيباً مرهوب الجانب كما كان سيدنا موسى .. ومن ثم قالوا له في صرامةٍ وتصميم ، عندما شدد النكير عليهم : إن ما قد جرى بالفعل ، سيبقى الآن كما هو ، ولن نبرح قائمين عليه ، حتى يرجع إلينا موسى ويبتّ في هذا الأمر .. ولو أن هارون قام باستعمال وسائل القسوة معهم حينذاك ، لم يكن ذلك ليجدي نفعاً ما ، لأن عدد أصحابه الواقفين إلى جانبه كان قليلاً .. ولذلك رأى أن لزوم الصبر - بصفةٍ وقتيةٍ - والتوجه إلى الله بالدعاء لهداية الناس ، وإعادتهم إلى سبيل الرشد ، قد يكون خيراً وأحسن مغبةً في الحالة الراهنة ، من اتخاذ إجراءات لا تثمر شيئاً ذا بالٍ ، بل ربما تؤدي إلى نتائج عكسيةٍ !.

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾

مَا مَنَعَكَ : ما حملك واضطرك .

لقد حاسب سيدنا موسى أخاه أعنف محاسبةٍ وأقساها .. فاعتذر إليه هارون بأنني لم أقصر في النصح أيما تقصيرٍ .. ولم آلُ جهداً في نهي السفهاء والجاهلين من القوم عن هذا العمل الوثني المنكر ، وإفهامهم بكل صراحةٍ وقوةٍ أنهم قد ضلوا عن الطريق السوي .. ولكن المشكلة هي أن غالبيتهم وقفوا إلى جانب السامري مفتونين بمكره وحيلته.. ولما اشتد نكيري عليهم استعدوا للحرب والقتال ، فخشيت لو استمر إلحاحي في النكير عليهم أن يؤدي ذلك إلى تناحر القوم وإراقة بعضهم دماء بعضٍ .

وبعدما استفحل الأمر إلى هذا الحد ، وكاد الشر أن يستطير ، كنت بين اثنين: فإما أن يقاتل بعضنا بعضاً ، وإما أن نؤجل حسم هذه القضية إلى حين عودتك .. وقد اخترت الخيار الثاني ؛ باعتباره أهون الخيارين مضرةً وأقلهما شراً .

إن هناك كثيراً من الظروف والمناسبات ، حيث يكون مقتضى الدين ، أن نلزم الصمت والسكوت على الأمر الواقع - بصورةٍ وقتيةٍ - تفادياً لنشوب القتال الداخلي بين المسلمين ، أو تجنباً للفرقة بين صفوف الجماعة ، حتى ولو كان ذلك الأمر متناهياً في القبح والشناعة كالشرك!

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾

فَمَا خَطْبُكَ : فما شأنك الخطير ؟

بَصُرْتُ : علمت بالبصيرة .

أَثَرِ الرَّسُولِ : أثر فرس جبريل عليه السلام

فَنَبَذْتُهَا :القيتها في الحلي المذاب .

سَوَّلَتْ :زينت وحسنت .

لاَ مِسَاسَ : لا تمسني ولا أمسك .

لَنَنسِفَنَّهُ : لنذرينه .

لما علم موسى بأن السامري هو رأس الفتنة وموقد نارها ، توجه إليه يستجوبه ، ويسأله عن الأسباب التي حدت به إلى هذا العمل المنكر .. وإذا بالسامري يستخدم مرةً أخرى وسائل المكر والدهاء ، حيث أخذ في تبرير فعله قائلاً : إنما صنعت ما صنعت بناءً على "كشفٍ" حصل لي خاصةً دون غيري ، وقد أضفت إليه أيضاً حفنةً من أثر الرسول على وجه التبرك!! . وبسبب محاولته لخداع النبي ومراوغته ، ازداد السامري جرماً على جرمٍ ؛ إذْ جاء تبريره من قبيل العذر الذي هو أقبح من الذنب كما يقال .. وقد عاقبة الله تعالى ، على حسب رواية التوراة ، بأن أصابه بمرض "البرص" ، مما أحال بدنه مبعث الكراهية والنفرة لدرجة أن الناس أصبحوا يتجنبون مواجهته ، ويفرون منه تقززاً ، واشمئزازاً.

لقد سعى السامري ليكون شخصاً محبوباً لدى الشعب على أساسٍ من الكذب والتدجيل ، فكان عقابه في الدنيا ، أن جُعل أبغض ما يكون إلى الناس .. وأما ما ينتظره في الآخرة من عذابٍ ، فهو أشد وأخزى من ذلك بكثيرٍ .

ولكي يقضي على ما رسخ في قلوب فريقٍ من إسرائيل من مشاعر التعظيم والإجلال نحو المظاهر الوثنية ، عمد موسى إلى العجل الذي عبدوه فحرقه أمام أعينهم ، وذرا رماده في مياه البحر !

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

وِزْراً : عقوبة ثقيلة على إعراضه .

زُرْقاً : زرق العيون . أو عمياً . أو عطاشاً .

يَتَخَافَتُونَ : يتسارون ويتهامسون.

أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً : أعدلهم وأفضلهم رأيا ومذهبا .

إن المصير الذي لقيه المكذبون للأنبياء والرسل على مدى الأحقاب والأجيال ، كان بمثابة ظهورٍ جزئيٍ في هذا العالم ، لذلك القضاء الإلهي الذي سيواجه البشرية جمعاء في يوم القيامة بصورة كليةٍ شاملةٍ .. وقد جاء القرآن الكريم "مذكراً" بهذه الحقيقة البالغة الخطورة .

والمرء حين يقابل الحق في هذه الدنيا بالإهمال واللامبالاة ، فربما يبدو له ذلك أمراً هيناً جداً .. غير أن صنيع المرء هذا سيتحول في الآخرة إلى عبءٍ باهظٍ ثقيلٍ ينوء بحمله .. فحين سيعلن البوق الإلهي (الصور) بدويّه المجلل الرهيب بأن فترة الامتحان المحددة قد انتهت ، سيجد الناس أنفسهم فجأة في عالمٍ آخر تماماً .. وإذ يفجأ المرء باكتشاف أن الدنيا التي ظل يتصرف فيها على هواه ، باعتبارها دنياه هو ، إنما كانت في الحقيقة دنيا الله ، فسوف يعتريه وقتئذٍ من الهول والرهبة الشديدة ما يتغير بسببه حتى لون وجهه !

وطالما يعرض الإنسان عن أمر الآخرة في هذه الحياة الدنيا ، غير مكترثٍ به أيما

اكتراث ؛ كما لو كان ذلك شيئاً بعيداً بعيداً .. ولكن بعد ما تقوم الساعة ، ستبدو حياة هذه الدنيا للمرء كما لو أنها لم تكن سوى أيامٍ معدوداتٍ قصيراتٍ ، وبعد انقضائها تواجهه الحياة الباقية ، والتي ستكون في طبيعتها من جنس عمله ، خيراً أو شراً ، سيظل يعيشها في عالم الآخرة إلى الأبد !

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٨﴾ ﴾

يَنسِفُهَا : يقتلعها أو يفتتها ويفرقها بالرياح .

قَاعاً : أرضا ملساء لا نبات فيها ولا بناء فيها .

صَفْصَفاً : ارضا مستوية أو لا نبات فيها .

عِوَجاً : مكانا منخفضا . أو إنخفاضا .

أَمْتاً : مكانا مرتفعا . أو ارتفاعا .

لاَ عِوَجَ لَهُ : لا يعوج له مدعو ولا يزيغ عنه .

هَمْساً : صوتا خفيا خافتا .

عند قيام الساعة ، سوف تُحول أرضنا هذه إلى فراشٍ واسعٍ ممهدٍ ، بحيث لن يبقى ها هنا يومئذٍ أعالي الجبال ولا أعماق البحار .. وسيبُعث الناس كلهم ثانيةً ، ويُحشرون فوق هذه الأرض الجديدة .. إن صوت الله ، إذْ يرتفع في العالم الراهن على لسان داعي الله ؛ فالناس يقابلونه بالإعراض وعدم الاكتراث ، وأما في يوم القيامة ، حين سينادي الناس ربُ الناس بنفسه ، فلن يلبث الناس أن يتجهوا نحو ندائه مسرعين ، من غير تلفتٍ ولا انحرافٍ .. وسيكون الموقف كله حينذاك تسوده الرهبة ، والنفوس يخيّم عليها الرعب والهول ، لدرجة أن أحداً لن يجرؤ على أن يتفوه بكلمةٍ .. فلا يُسمع هناك

صوت ولا كلام سوى وقع أقدام الناس وهم سائرون نحو ساحة المحشر في صمتٍ وخشوعٍ وسكونٍ !

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾

وَعَنَتِ الوُجُوهُ : ذل الناس وخضعوا

لِلْحَيِّ : الدائم الحياة بلا زوال .

القَيُّوم : الدائم القيام بتدبير الخلق .

حَمَلَ ظُلْماً : شركا وكفراً .

هَضْماً : نقصاً من ثوابه .

إن كون الشفاعة مؤثرة في ذاتها على القضاء الإلهي زعم باطل كل البطلان ؛ إذْ ليس الله - عز وجل - بغافلٍ أو جاهلٍ عن شئون العباد حتى يحتاج إلى مَنْ يخبره بها ، ولا هو ضعيف حتى يضغط عليه أحد أي نوعٍ من "الضغط".. على أنه من غير المستبعد كذلك أن يشاء الله بنفسه ، في بعض الأحوال الخاصة ، التكرم على أحد عباده بقبول ما يرفعه إليه من طلبٍ يرتضيه .. و إنما ستكون الأهمية كل الأهمية في يوم القيامة ، لما قد يأتي به كل شخصٍ بنفسه من رصيد القول والعمل .. فالذي سيكون قد أقام حياته في العالم الراهن على أساسٍ من الباطل ، محكوم عليه بالفشل والخيبة في الآخرة ولا ريب .. وإنما سيُكتب النجاح والفوز هناك لأولئك الذين عرفوا ربهم في الغيب ، وصاغوا حياتهم العملية وفق مرضاته سبحانه وتعالى !.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ

لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

وَصَرَّفْنَا فِيهِ : كررنا في بأساليب شتى .

ذِكْراً : عظة واعتباراً .

أَن يُقْضَى إِلَيْكَ : أن يفرغ ويتم إليك .

قد أنزل الله كتابه ، الذي يحوي الدلائل والبراهين من كل نوعٍ ، بإحدى اللغات البشرية ، وهي اللغة العربية.. مما حول هذه اللغة إلى لغةٍ حيةٍ خالدةٍ تبقى بقاء الدهر .. وهكذا فقد صارت هداية الله بحيث يتمكن إنسان كل عصرٍ من أن يقرأها ويتفهمها متى شاء .

وينبغي للداعي ، إذا نهض بالدعوة إلى الحق ، أن يضع نصب عينيه هدفين اثنين : أما الهدف المطلوب السعي إلى تحقيقه بالدرجة الأولى؛ فهو أن تتولد في داخل المخاطب ثورة نفسية ؛ تحيله إنساناً يتقي الله ويخشاه .. أما الهدف الثاني : فهو أن يصبح كلام الداعي مثار تساؤل واستفهام في ذهن المخاطب .

وفي أثناء مسيرة الدعوة الإسلامية بمكة كانت تُثار ألوان شتى من الأسئلة من جانب الناس كل اليوم ، كما كانت تتولد قضايا ومشكلات جديدةٍ بين الحين والآخر ، ومن ثم كان طبيعياً أن يرغب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أن تكون فترات الوحي متقاربةً ، حتى لا يزال يتلقى التوجيه الإلهي بأكبر قدرٍ ممكنٍ من السرعة تتناسب وسرعة تطور الأحداث وبروز مشاكل جديدةٍ .. فقرر الله تعالى أن منهج التدرج والمرحلية، الذي تم الأخذ به في تنزيل القرآن ، إنما هو شرع إلهي ثابت لا يتغير .. وإنه سيظل يتنزل هكذا ، وسيبلغ تمامه على أية حالٍ .. إذن ، فليس لك أن تطمع في استنزال قرآن المستقبل في الحال ، وإنما عليك بالأحرى أن تسأل الله أن يزيد

من فهمك للقرآن، ويمنحك الاستعداد لسبْر أغوار آي القرآن الحكيم ، وإدراك ما يمكن فيها من معانٍ سامية دقيقةٍ ، ومرام بعيدةٍ عميقةٍ.. وبدلاً من الاستعجال بما لم ينزل عليك من القرآن بعد ، يجب عليك أن تحرص على معرفة الحكمة والسير في تنزيله على هذا النحو من التدرج والترتيب المرحلي.

ونخلص من ذلك إلى **أن الداعي** ينبغي له أن يكون على حذرٍ دائمٍ من العجلة والإسراع .. فشرح مسائل **الجهاد** والقتال في مرحلة الدعوة والتبليغ ، وتلقين الأحكام المتصلة بالإقدام الجماعي في طور الإصلاح الفردي ، والاستشهاد بآيات القتال في مواقع تتطلب الصبر ، كل هذا يدخله في نفس هذا الباب ، ولابد للداعي أن يحترس من ذلك أشد الاحتراس !

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾

عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ : أمرناه أو أوحينا إليه .

أَبَى :امتنع من السجود استكباراً .

للاستقامة على أمر الله لابد من إرادة صلبةٍ وتصميم قوي .. وسوف ينحرف المرء عن طريق الله حتماً ، لو أنه مازال يتأثر ويفتتن بأشياء أخرى لا تهمه .. وليست المعرفة بأمر الله وحدها كافيةً لكي تظل أقدامك ثابتةً على جادة الحق ، بل يجب - مع ذلك - أن يتوفر لديك عزم أكيد على الاستمرار في مقاومة كل شيءٍ يقف حجر عثرةٍ دون امتثالك لأمر الله، ويقظة دائمة لتحصين نفسك ضد كل المؤثرات الخارجية الطارئة على طول الخط .

لقد خر الملائكة كلهم ساجدين ، فور سماعهم لأمر الله بالسجود لآدم .. وأما

الشيطان فأبى أن يكون من الساجدين .. وما هو سر هذا الفارق؟ السر في ذلك أن الملائكة كانوا قد اعتبروا ذلك الأمر أمر الله ، وأما إبليس فقد اعتبره - بالعكس - أمر إنسانٍ .. وإنه إذْ يُعتبر أمر ما أمراً إلهياً ، فلا يكون أمام المرء إزاءه غير خيارٍ واحدٍ لا ثاني له، وهو أن يذعن له ويطيع .. ولكن حين يتم اعتباره أمر إنسانٍ ، فسوف ينظر المرء إلى الإنسان المتواجد بين يديه ، فإن كان قوياً ذا بأسٍ ، خضع واستسلم على الفور، وإن كان غير ذي قوةٍ ولا بأسٍ، أبى الخضوع والاستسلام ، حتى ولو كان مقتضى الحق الواضح أن يُخضع نفسه له من غير إباءٍ أو جدالٍ !

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾

وَلاَ تَعْرَى : لا يصيبك عرى عن الملابس .

وَلاَ تَضْحَى : لا تبرز للشمس فيصيبك حرها .

لاَّ يَبْلَى : لا يزول ولا يفنى .

سَوْءَاتُهُمَا : عوراتهما .

وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ : أخذا يلصقان ويلزقان .

وَعَصَى آدَمُ : خالف النهي سهوا أو بتأول .

فَغَوَى : فضل عن مطلوبه أو عن النهي .

اجْتَبَاهُ : اصطفاه للنبوة وقربه .

إن الجنة التي وُضع فيها آدم وزوجته ، كانت تتوفر فيها كل حاجات الحياة اللازمة، بما فيه الكفاية وأكثر .. حيث هيأ الله لهما هناك كل شيءٍ من الغذاء واللباس ، والماء ،

والظل (المسكن الطيب المريح) .. إلخ .. مجاناً .. إن هذه الأشياء - التي لا تتأتى للمرء في العالم الراهن إلا بعد كدحٍ طويلٍ وجهدٍ جهيد - كانت متاحةً لهما في الجنة بدون كدحٍ ولا مشقةٍ .

وإنما كانت ثمة شجرة واحدة ، حُظر على آدم أن يأكل من ثمرها .. فوسوس إليه الشيطان ، مغرياً إياه بأكلها، زاعماً له أنها تضمن لمن أكلها الخلود والأبدية.. وما لبث آدم وزوجته أن تأثرا بكلامه ، فأكلا من ثمار تلك الشجرة.. ففوجئ الاثنان بعدئذٍ بأنهما قد عريا من اللباس الذي كان يستر عوراتهما .. مما كان بمثابة علامةٍ دالةٍ على أن ذمة الله قد رُفعت عنهما ، تلك التي كانت هي السبب في تمتعهما بالرزق المتاح من غير كسبٍ ولا تعبٍ حتى ذلك الوقت .. ومع أن آدم وزوجته قد عُفي عنهما بعد ذلك ، نظراً لمبادرتهما بالتوبة والتضرع إلى الله طلباً للغفران والرحمة ، إلا أنهما أُخرجا منذئذٍ من عالم الرزق «المجاني» ؛ وأدخلا عالم الرزق المتوقف على الكسب والسعي ، وما يستلزمه من الكد والمشقة والإرهاق .. وهكذا كانت بداية النوع البشري الحالي على وجه هذه الأرض .

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾

مَعِيشَةً ضَنكاً : ضيقة شديدة (في قبره) .

لقد أسكن الله كلاً من آدم وإبليس في الأرض .. مع إنذارهما مسبقاً بأنه سيكون هناك صراع مستمر بين ذريتيكما إلى يوم القيامة .

حيث سيبذل إبليس جهده في إغواء النوع البشري وإضلاله .. وفي مقابل ذلك يتعين على الإنسان أن يفهم عدوه الأكبر - إبليس - فهماً دقيقاً ، ويحاول بالتالي جهد طاقته تحصين نفسه ضد وساوسه وإغراءاته .. ولمزيدٍ من هداية الإنسان وإرشاده إلى سبيل الحق والخير ، فقد أرسل الله رسله تترى .. الذين ظلوا ، الواحد تلو الآخر ، يخبرون البشر بحقيقة الحياة باللغة المفهومة لديهم .. والآن ، فإنما يتوقف نجاح الإنسان وفشله على ما إذا كان يؤمن بهدي الأنبياء أم لا .. فالذي يؤمن به ، ستتاح له من جديدٍ حياة الجنة الحافلة بالنعيم المقيم وأسباب الراحة الأبدية .. وأما الذي يرفض الإيمان به، فسوف تكون حياته غايةً في القسوة والشدة ، وهو لن يستطيع التخلص منها أبداً .

المعرضون عن الهداية سيُبعثون في الآخرة عمياناً .. ذلك لأنهم إنما مُنحت لهم العيون في الدنيا لكي يبصروا بها آيات الله ، فيعرفوها ويؤمنوا بها .. ولكنهم كانوا ، كلما تجلت لهم آيات الله ، يتعامون عنها ، ولا يعرفونها .. وهكذا أقاموا الدليل على أنهم عميان ، رغم تمتعهم بالعيون في ظاهر الأمر .. ومن ثم يقول الله يوم القيامة : لِمَ سأعطي العميان كهؤلاء عيوناً ، ما داموا قد اختاروا بأنفسهم العمى على الهدى ؟!!

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ : أغفلوا فلم يبين لهم مآلهم .

كَمْ أَهْلَكْنَا :كثرة إهلاكنا الأمم الماضية .

لأُوْلِي النُّهَى : لذوي العقول والبصائر .

لَكَانَ لِزَاماً : لكان إهلاكهم عاجلا لازما .

وَأَجَلٌ مُّسَمًّى : يوم القيامة (عطف على كلمة)

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ : صل وأنت حامد لربك .

آنَاءِ اللَّيْلِ : ساعاته .

إن سر إبادة أمةٍ ما ، أو صيرورتها مغلوبة على أمرها ، بعد أن كانت تتمتع بالغلبة والرفعة وعز السلطان في الأرض ، يكمن دوماً في طغيانها وتجاوزها حد العبودية .. وكل أمةٍ بائدةٍ تمثل موطن درسٍ وعبرةٍ لمن يأتون بعدها ، ويتبوؤون الأرض مكانها .. غير أن الناس قلما يعتبرون بمثل هذه الوقائع ، بل يعيش أكثرهم في غفلةٍ ، وإذا مروا عليها أو ذُكِّروا بها لا يتذكرون .

وما جاء في هذه الآيات من الحث على التسبيح والصلاة ، يرجع إلى العهد المكي ، حيث كانت الظروف قد بلغت منتهى القسوة .. ومن هذا يتضح لنا أن الصلاة وذكر الله جُنة المؤمن ضد عواصف الإنكار الهوجاء ، وفي غمار أشد أحوال المعارضة عنفاً وخطورةً .. فمن خلال ذلك تتمهّد له السبل ، وتنفتح أبواب الفتوح والانتصارات ، وبذلك ينال المرء كل شيءٍ بمقدار هائلٍ يملأ صدره رضاً وحبوراً وطمأنينةً !!

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾

أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ : أصنافا من الكفار .

زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا : زينتها وبهجتها .

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ : لنجعله فتنة لهم وابتلاء .

هذه الآيات ، وإن كان الخطاب فيها موجهاً إلى الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - ولكن المراد سائر المؤمنين .

إن شخصاً حين يختار حياة الإيمان والدعوة في هذا العالم ، تتحول معيشته ، نتيجةً لذلك ، إلى معيشةٍ كلها كفاح مرير ، وعناء متصل ، وسلسلة آلامٍ ومحنٍ لا تعرف حداً تقف عنده .. هذا في جانبٍ .. وفي جانبٍ آخر فإن الذين يعيشون متحررين من مثل هذه المسئوليات والالتزامات ، ربما يصبحون ويمسون في عافيةٍ وهناءةٍ وفراغ بال.. والشيطان يتناول هذا الوضع بالتضخيم في عين المرء ، ويثير في قلبه ألواناً شتى من الوساوس وخواطر السوء ؛ كل ذلك سعياً منه إلى زلزلة أقدام المؤمنين والدعاة ، وبث مشاعر النقص والحرمان واللايقين في نفوسهم ، حتى تحدو بهم الرغبة في الاستمتاع بنعيم الدنيا ، واقتناء خيراتها ، إلى نبذ الوفاء بمقتضيات الإيمان ، والتقاعس عن النهوض بمسئوليات الدعوة.

ولكن لو نظرنا بإمعانٍ ودقةٍ ، لرأينا ثمة فارق آخر وأولى بالاهتمام من هذا الفارق الظاهري .. وذلك الفارق هو أن كل ما أتيح لمحبي الدنيا ، إنما أتيح لهم من أجل الامتحان والابتلاء ، وهو متاع عارض وقتي سريع الزوال .. ثم ليس لهؤلاء من بعد ذلك شيء في الحياة الأبدية القادمة .. وأما الشيء الذي حصل عليه المؤمن والداعي ، ثمرة ولائه لله وارتباطه به ، فهو أثمن وأغلى من الدنيا وما فيها .. ألا وهو : ذكر الله ، وهمّ الآخرة ، وحياة قوامها العبادة والتقوى ، والسهر على إنقاذ عباد الله من عقاب الآخرة .. إلخ ، وهذا أيضاً رزق .. بل هو رزق أفضل وأسمى وأرفع درجةً من سائر أنواع الرزق الأخرى بكثير ؛ ذلك لأنه سوف يُرد إلى المرء في الآخرة في صورة نعمٍ لا تُحصى ولا تنفد أبداً !

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ

أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

بَيِّنَةُ : هي القرآن المعجز أم الآيات .

مَن قَبْلِهِ : من قبل الإثبات بالبينة .

وَنَخْزَى : نفتضح في الآخرة بالعذاب .

مُتَرَبِّصٌ : منظر مآله .

الصِّرَاطِ السَّوِيِّ : الطريق المستقيم .

إن من عناية الله سبحانه وتعالى بنبي آخر الزمان - صلى الله عليه وسلم - ، أن بشّر بمجيئه مسبقاً على ألسنة الأنبياء السابقين ، وفي الكتب المنزلة عليهم كذلك .. وهذه البشائر أو النبوءات لا تزال توجد - رغم كل التحريفات والإضافات البشرية - في الكتب السماوية السابقة حتى اليوم .. وقد كان ذلك أكبر دليلٍ على صدق نبي آخر الزمان - صلى الله عليه وسلم - ، غير أن فهم الدليل والإحساس بقوته وثقله ، يتطلب الجدية.. وهي شيء كان وما يزال أندر ما في الوجود على الدوام !

سورة الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ ﴾.

اقترب : قرب ودنا .

محدث : تنزيله بالوحي .

وأسروا النجوى : بالغوا في إخفاء تناجيهم .

كل امرئٍ في هذا العالم أقرب إلى الموت منه إلى الحياة .. وعلى هذا الاعتبار فالكل أدنى ما يكون من يوم حسابه .. ولكن عجيب أمر هذا الإنسان ، حيث إنه لا يلقى بالاً لأي تذكيرٍ يُوجه إليه ، سواء تم ذلك بواسطة النبي أو غير النبي .. وإنه ينظر إلى قول داعية الحق على أنه قول «بشرٍ» ، لا غير ، وبالتالي يقابله بالرفض والإهمال .

ولما بدأ رسول الله ﷺ دعوته في مكة عبر القرآن ، أخذت آياته تأسر قلوب الناس ، مما أقض مضاجع الرؤساء هناك ؛ فإن ذلك كان يمثل خطراً يتهدد رئاستهم .. حيث كان القرآن يدعو إلى التوحيد ، بينما كان رؤساء مكة قد أسسوا رئاستهم على دعائم الشرك والوثنية .. ومن ثم شرعوا في محاولة صرف اهتمام الناس عن القرآن قائلين : إن ما ترونه في الظاهر من روعةٍ وتأثيرٍ أخاذٍ في هذا الكلام ، ليس لأنه كلام الله ، إن قوته غير مستمدةٍ من الصدق ، بل إنما هي قوة مستمدة من السحر .. إذن فهي قضية السحر

البياني ، وليست بقضية الكلام الإلهي .

والذين يلوكون مثل هذه الأقاويل ، وإن كانوا يشيرون إلى الله ويرددون اسمه في غضون أحاديثهم ، إلا أنهم ليسوا على يقينٍ من أن الله يراهم ويسمع ما يقولون .. ولو أنهم أيقنوا حقاً بكون الله عالم الغيب ، لم يكن ليصدر من ألسنتهم كلام غير جادٍ كهذا أبداً !

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ .

أضغاث أحلام: تخاليط أحلام رآها في نومه .

إن الداعي إلى الحق إنما يقدم دعوته دوْماً معتمداً على قوة الدليل والبرهان .. وعندما يشعر المعارضون بأنهم عاجزون كل العجز عن مقاومتها بالدليل ، يلجأون إلى إثارة ألوانٍ شتى من الأباطيل ضدها ، في محاولتهم لتنفير الجماهير منها .. ومن ذلك مثلاً قولهم : إن هذا شعر .. أو إنه سحر أبدي ، أو إنه تخيلات مجنونةٍ .. أو إنه حديث مفترىً .. إلخ .

وبما أن رسول الله ﷺ لم يأت أهل مكة بأية معجزةٍ حسيةٍ ، لذا فقد كانوا يقولون أيضاً، بغية التشكيك في صدق رسالته : إن كان هذا رسول الله حقاً ، فلِمَ لم يأتنا إذن بأية معجزةٍ من عند ربه ، كما بُعث بها الأنبياء السابقون إلى أممهم !؟!

بيد أن تجارب التاريخ شاهدة بأن الذين يرفضون التصديق بأمر الحق اقتناعاً بالدليل ، لا يستعدون للتصديق به حتى بالرغم من رؤيتهم لما اقترحوا من المعجزات والخوارق، ولذلك فإن مقتضى النصح وحب الخير للناس أن تظل عملية تذكيرهم وإنذارهم من خلال الأدلة والبراهين جارية باستمرارٍ ، رجاء عودتهم إلى الرشد

والصواب ، دون أن يقفل باب التذكير ، وتقام عليهم الحجة بإظهار المعجزة في أول فرصةٍ ، فإن المعجزة ، إذا ما تمادى القوم في الإنكار والتكذيب بعد ظهورها ، إنما تعقبها مرحلة الهلاك والدمار العاجل بدون تأجيلٍ ولا إمهالٍ !

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ .

جسداً : أجساداً ، أو ذوي جسد.

الذين كانوا ينكرون رسالة النبي ﷺ محتجين بأنه ليس إلا بشراً مثلنا ؛ قيل لهم رداً على ذلك : لو كنتم جادّين ، بمعنى الكلمة ، في اعتراضكم هذا ، فالخطب هين ، والسبيل إلى حله غير عسيرٍ .. وهو أن هناك عدداً جماً من العلماء المطلعين على أحوال الكثير من تلك الشخصيات السابقة التي لا جدال في كونها عندهم ولا عندكم من أنبياء الله المرسلين ، إذن ، فاسألوا هؤلاء العلماء عما إذا كانوا هم بشراً أم غير بشرٍ .. فإن كانوا بشراً ، فكيف يسوغ لكم أن ترفضوا التسليم برسالة النبي الحالي لكونه وُلد من أبٍ وأمٍ كما يُولد الآخرون عداه من بني البشر!؟!

كما يدل تاريخ الأنبياء السابقين أيضاً أن مقابلتهم بالإقرار أو الإنكار لم يكن بالنسبة إلى أقوامهم محض إقرارٍ أو إنكارٍ يسير .. بل أدّى ذلك بكل واحدٍ من الفريقين إلى مصير حتمي مختلفٍ عن الآخر بشكلٍ واضحٍ ملموسٍ ؛ حيث فاز المقرّون المؤمنون بالنجاة والفلاح ، بينما نزل بالمنكرين الجاحدين عذاب قطع دابرهم .. ومن ثم فينبغي لكم أن تكونوا جادين فيما يتعلق بهذا الأمر إلى أقصى حدود الجدية !

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن

قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾.

فيه ذكركم: موعظتكم أو شرفكم وصيتكم.

وكم قصمنا: كثيراً أهلكنا.

أحسو بأسنا : أدركوا بحاستهم عذابنا الشديد.

يركضون: يهربون مسرعين.

أترفتم فيه : نعمتم فيه فبطرتم.

حصيداً: كالنبات المحصود بالمناجل.

خامدين: ميتين كالنار التي سكن لهبها.

إن كتاب الله ليس محض كتابٍ بالمعنى العادي المعروف ، وإنما هو تذكير وإنذار بأن مجيء الإنسان إلى العالم الراهن ليس نتيجة صدفةٍ واتفاق ، بل هو نتيجة تدبير إلهي .. وذلك التدبير هو أن تُتاح للإنسان هنا حرية مؤقتة لأجل الامتحان والابتلاء ، ثم يُكافأ الكل ، بعد انقضاء مدة الامتحان بحسب عمله ، خيراً أو شراً .. وقد ظلت هذه الحقيقة تتجلى ، بصورةٍ جزئيةٍ ، من خلال وقائع الهلاك والدمار النازل بالأمم الظالمة بين فترةٍ وأخرى على مدار التاريخ الإنساني .. وإنها لسوف تظهر في يومٍ القيامة بصورةٍ كليةٍ شاملةٍ ، حيث سيُبعث كل الناس من جديدٍ ، ويُحضرون بين يدي ربهم للحساب الأخير .

وإنه حين تلوح بوادر البطش الإلهي ، تصير كل الأسباب والوسائل المادية في عين المرء مدعاةً للمصيبة والشقاء، تلك التي كان اعتماده عليها مبعث إعراضه عن دعوة الحق من ذي قبل .. فهو لا يستعدّ للخروج من الغفلة، ما لم تتخل عنه الأسباب المادية ، وإذا تخلت عنه تلك الأسباب ، انفتحت عيناه للحال ، ولكن حيث لا ينفعه ، ولا يغني عنه ذلك شيئاً .. فإن كل الأشياء حينذاك تكون قد فقدت طاقتها ، وأن الله وحده هو القادر بعدئذٍ على أن ينفع أحداً ، دون الآلهة والمعبودات الباطلة!

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

نتخذ لهوا: ما يُتلهى به من صاحبة أو ولد.

نقذفُ بالحق: نرمي به ونورده.

فيدمغه: يمحقه ويدحضه.

زاهق : ذاهب مضمحل.

الويل: الهلاك أو الخزي أو وادٍ بجهنم.

إن الذين لا يقفون من دعوة الله موقفاً جدياً ؛ كأنما هم يعتبرون العالم الراهن نوعاً من اللعبة الإلهية ، والتي ليس وراءها من هدفٍ أو غايةٍ تذكر سوى التسلية الوقتية .. ولكننا حين نتعرف على صفات الخالق ، التي يستلزمها بالضرورة ما يوجد في هذا العالم من الروح المدهشة والحكمة اللامتناهية ، يبدو لنا مستحيلاً أن يكون هذا الخالق إلهاً أوجد هذا العالم عبثاً للهو والتسلية فقط .. كلا .. كلا.

إن العالم الراهن يضم في أحضانه مخلوقاً فذاً كالإنسان ، الذي تكمن في فطرته القدرة على تمييز الحق من الباطل .. وإن وجود مخلوقٍ كهذا في العالم ، يحكم على منهجٍ معينٍ بأنه حق ، وعلى آخر بأنه باطل ، ثم نشوب صراعاتٍ ومواجهاتٍ تحت شعاري الحق والباطل بين حينٍ وحينٍ ؛ مما يوضح أن وقتاً سيأتي لا محالة ، تنحسم فيه هذه القضية نهائيا ، إذْ يظهر بصورةٍ جليةٍ لا يكتنفها غموض ، ما هو الحق وما هو الباطل في الواقع ، ثم يكتب النجاح للذين كانوا قد آمنوا بالحق ونصروه ، ويُقضى على الذين رفضوا الحق وخذلوه بالفشل والخسران .

إن العالم الذي توجد فيه ((حجارة)) تحطم ((رأس)) أي شخص يُرمى بها ، أفلا يُوجد هناك حق من شأنه أن يبرهن على بطلان الباطل ويزهقه!؟!

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ : لا يكلون ولا يعيون .

لاَ يَفْتُرُونَ : لا يسكنون عن نشاطهم في التسبيح والعبادة .

إن كل ما في الأرض والسماوات إنما هو مخلوق .. وكل شيءٍ لا يفعل إلا ما قد أُمر أن يفعل من ((فوق)) ، أي من جهة الرب الأعلى .. وإنما هو الإنسان وحده ، من بين سائر موجودات الكون،الذي يتمرد ويطغى .

أما الذين لا يؤمنون بوجود الله مطلقاً ، فإنهم يمارسون التمرد والطغيان ، قائلين بأنه ليس ثمة مالك ولا حاكم أعلى فوق رؤوسنا ، إذن فنحن أحرار في أن نفعل هنا ما نشاء ، ونتصرف في أنفسنا وفيما حولنا كما نشاء .

وأما الذين يؤمنون بوجود الله مبدئياً ، فهم الآخرون يتمردون ويطغون ، إلا أنهم

يبّررون طغيانهم بوجهٍ آخر .. حيث يفترضون أحداً من غير الله شفيعاً ووسيلة النجاة لهم في الآخرة .. وبجعله «مقرباً» إلى الله ، يزعمون أنه سيشفع لنا عند الله ، وشفاعته لن تُرد ، وبالتالي سينقذنا حتماً من عذاب الله ، ما دمنا نُبدي إزاءه مشاعر التعظيم والاحترام ، ونحيطه بهالةٍ من الإجلال والتقديس والتمجيد .. ومن الناس مَنْ يتخذون من الملائكة شفعاء لهم ، ومنهم مَنْ يتخذون شفعاء آخرين سواهم .

غير أن كل النظريات من هذا القبيل تبلغ من البطلان والسخافة حداً يدعو للضحك والسخرية .. ولو أن أحداً أتيح له بصر يُمَكِّنه من النظر إلى الحقيقة على المستوى الكوني ، فسيرى أن الشفعاء (المزعومين) لا يسعهم إلا أن يظلوا خاضعين بين يدي الله خاشعين ، لما يغمرهم من الرهبة والجلال الإلهي ، بينما الإنسان يمارس الطغيان في الدنيا باسمهم ، ثقةً منه بنصرتهم ، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً !.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

هُمْ يُنشِرُونَ : هم يحيون الموتى - كلا .

لَفَسَدَتَا : لاختل نظامهما وخربتا للتنازع

إن الأرض ليست بمنفصلةٍ عن بقية الكون .. بل هي مرتبطة ارتباطاً دائماً مستمراً بهذا الكون الفسيح المترامي الأطراف .. وإنه لا يمكن بقاء الحياة ونمو النبات الأخضر فوق الأرض ، إلا إذا وُجد بينها وبين بقية الكون توافق وانسجام كامل .. وإن هذا التفاعل المتوافق المتكامل بين الأرض والسماء بكافة أجزائهما ، يُثبت أن تدبير وإدارة

شئون الأرض والسماء بيد ذاتٍ واحدةٍ ليس إلا ، إذ لو كان ذلك بيد ذاتين اثنتين أو أكثر ، لاندلع بين بعضها حتماً تنازع وصدام متصل ، وبالتالي بات قيام الحياة الراهنة فوق الأرض مستحيلاً .

وإن الخالق الذي يعرفنا به هذا الكون العظيم ، بنظامه البديع العجيب ، وما ينطوي عليه من روحٍ غريبةٍ وحكمةٍ تدعو إلى الدهشة والإكبار ، هو من غير شكٍ ولا ريبٍ إله منزه عن كل أنواع العيوب والنقائص .. وإنه لتقدير بخْس للكون الحالي ، واستخفاف بعظمته، أن نجعل خالقه ومدبره ذاتاً تُعاني من النقائص ومواطن الضعف والقصور ! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

إن افتراض آلهةٍ أخرى غير الله الواحد الأحد ، لا يستند على أي دليلٍ واقعيٍ ، وإنما يستند على جهلٍ محضٍ.. إذْ لا يتوفر لدى القائلين بأن لله شركاء وأنداداً ، لا دليل أو برهان لصالح عقيدتهم ، لا في ضوء العلم الإنساني ، ولا في ضوء الوحي السماوي .. وإذا كان هؤلاء يُعرضون عما قد يقدم إليهم من الأدلة والبراهين القاطعة على صدق عقيدة التوحيد ، فإن السبب في ذلك لا يرجع إلى قناعتهم الاستدلالية بشركهم ، بل إلى تعصبهم الكامن لا غير .. إن طبيعتهم المتعصبة هي التي جعلت عقيدتهم تترسخ وتضرب بجذورها في أعماق أنفسهم لدرجة أنهم لا يكادون يستعدون للتخلي عنها ، ولا يرضون بها بديلاً ، رغم كونها باطلةً لا حقيقة لها من حيث الاستدلال بنوعيه العقلي والنقلي!

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

وَلَداً : قالوا الملائكة بنات الله .

مُشْفِقُونَ : خائفون حذرون .

الملائكة من المخلوقات الغيبية .. وإنما تم إعلام الإنسان بوجودهم عن طريق الأنبياء والمرسلين ، ليستشعر قدرة الله ، ولكن من العجائب أنه لم يلبث أن جعل من الملائكة بنات الله ، وراح يعتقد ، بناءً على خرافاتٍ لا أساس لها ، أنه إذا نجح في نيل رضاهن بممارسة بعض الطقوس العبادية بأسمائهن ، فسوف يشفعن له عند ((أبيهن)) ، ويتكفلن بمغفرته ونجاته في الآخرة !!

إن كل العقائد من هذا النوع تنفي ألوهية الله .. إذْ ليس الله إلهاً إلا لأنه منزه عن مثل هذه النقائص جميعاً ، وإنه لم يكن ليكون إلهاً لو كان يعاني من هذه النقائص كلها أو بعضها!

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

كَانَتَا رَتْقاً : كانتا ملتصقتين .

كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ : كل شيء نام حيوانا أو نباتا .

((الرتق)) معناه كوْن شيءٍ ما ملتحماً منضم الأجزاء .. أما ((الفتق)) فيعني فك تلك

الأجزاء الملتحمة المنضمة ، وفصلها بعضها عن بعض .. وربما يكون المراد بذلك حالة الأرض والسماء البدائية ، تلك التي تسمى في العصر الحديث بـ ((نظرية الانفجار العظيم)) .. حيث كانت جميع العناصر المكونة للأرض والسماء ، تبعاً للكشوف العلمية الحديثة ، توجد في البداية بشكل كتلةٍ ضخمةٍ (خارقةٍ للعادة) ، وقد كانت كل أجزائها حينذاك ، طبقاً لقوانين الطبيعة المعلومة ، متماسكةً مشدودةً حول مركزها الداخلي ، ومرتبطةً بعضها ببعض بمنتهى القوة ، ثم حدث في هذه الكتلة المركزة المتماسكة انفجار شديد ، فإذا بأجزائها أخذت تتمدد وتنتشر ، وأطرافها تتباعد نحو الفضاء الخارجي .. مما أدى نهائياً إلى تشكل هذا الكون الفسيح المترامي الأطراف الذي نراه اليوم .. ولا يمكن تصور حدوث هذه الواقعة غير العادية في الكتلة المادية الأولى ، بدون تدخّل خارجي .. وهكذا فإن تاريخ بداية الكون يثبت بوضوح أن هناك إلهاً مستقلاً قائماً بذاته وراء هذا الكون ، وأنه يتصرف في الكون ويؤثر عليه بقدرته الذاتية كما يشاء .

إن الماء يشكل العنصر الأساسي الأكبر في تركيب كل الكائنات الحية في هذا العالم .. ولولاه لانتهت الحياة الآدمية والحيوانية والنباتية بالمرّة .. وهذا الماء لا يتوفر في أي مكانٍ آخر غير الأرض .. إن توفر الماء ، على نحوٍ استثنائي ، في مكانٍ واحدٍ ، في هذا الكون الرحيب ، له دلالته الواضحة على ((خصوصية الخلق والتكوين)) .. إذن ، فما أكثر إثارةً للدهشة والاستغراب ألا يتوصل الإنسان إلى الله ، ويظل محروماً من معرفته تعالى ، رغم مشاهدته مثل هذه الآيات البينات المنبثة في مختلف أرجاء الوجود!

﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

رَوَاسِيَ : جبالا ثوابت .

أَن تَمِيدَ بِهِمْ : لئلا تضطرب بهم فلا تثبت .

فِجَاجاً سُبُلاً : طرقا واسعة مسلوكة .

سَقْفاً مَّحْفُوظاً : مصونا من الوقوع أو التغير .

كُلٌّ : من الشمس والقمر .

فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ : يدورون . أو يجرون في السماء .

ذُكرت هنا بعض أبرز آيات الأرض ؛ التي من شأنها أن تذكر الإنسان بربّه ، حتى يعيش عبداً شاكراً له على ما خوّله من نعمٍ جليلةٍ لا تحصى .. منها سلاسل الجبال هذه ، التي قد ارتفعت هنا وهناك فوق سطح الأرض ، حفاظاً على توازنها ، بإزاء المواد الثقيلة المنخفضة في أعماق البحار .. ولعل المراد بذلك هو الذي يُعرف في اصطلاح العلم الجيولوجي الحديث باسم «توازن القشرة الأرضية» (Isostasy).

ومن الآيات الإلهية كذلك كوْن الأرض صالحةً لكي يتخذ الإنسان فيها سبلاً ومسالك شتى لتنقله عبر القارات والأقاليم : في شكل الميادين الفسيحة المعبدة في مكانٍ ، وعلى هيئة الثغور والممرات الجبلية في مكانٍ آخر ، وفي صورة الثقوب أو الأخاديد البحرية في مكانٍ ثالثٍ .

أما «سقف» السماء ، وهو الغلاف الجوي الذي فوقنا ، فقد تم تصميمه بحيث إنه يحمينا من أشعة الشمس الضارة ، ويحول دون وصول الشهب والنيازك المتساقطة باستمرارٍ نحونا .. وكذلك حركة الشمس والقمر كل في فلكٍ محدودٍ ، وطريقٍ مرسومٍ؛ دون اصطدام أحدهما بالآخر ، وما يترتب على ذلك من تعاقب الليل والنهار على الأرض في غاية الضبط والانتظام .. إن هناك آياتٍ لا تعد ولا تحصى من هذا النوع ؛

يزخر بها هذا الكون ، لو تأمل المرء فيها بجديةٍ وإمعانٍ ، لغمره الإحساس بقدرة الله الباهرة وآلائه العظيمة المدهشة .. غير أن المرء يُعرض عنها ، ولا يعيرها أي اهتمامٍ .. ولا يزال أعمى وأصم ، كأنه لم ير ولم يسمع شيئاً يدعو إلى التفكر والاعتبار!!

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

وَنَبْلُوكُم : نختبركم مع عملنا بحالكم .

كان أهل مكة مشغولين ، ليل نهار ، باتخاذ كل التدابير والمحاولات الممكنة ، لإفشال رسول الله ﷺ حتى إنهم قد عقدوا النيّة على القضاء عليه بصورةٍ أو أخرى ، وذلك ظناً منهم أن هذه الرسالة إذا صارت مقطوعة الصلة بأصلها ومصدر طاقتها - وهو الرسول صلى الله عليه وسلم - فلن تقوم لها بعدئذٍ قائمة إلى الأبد .. وهنا يكشف القرآن عن مدى جهلهم وغرورهم حيث يقرر أن الذين يحيكون مثل هذه المؤامرات ضد النبي ، ينسون هذه الحقيقة البديهية القائلة: بأن القبر الذي هم يحفرونه للغير ، هو ذاته مثواهم الأخير كذلك .. فإن الجميع يصير إلى الفناء لا محالة ، ولا خلود لأحدٍ في هذه الحياة .. إذن، فماذا عساهم يفعلون دفعاً عن أنفسهم ، حين سيمثلون بين يدي المالك الحقيقي بعد الموت!!

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

إن آلهة قريش كانت ، في الغالب ، تمثل أكابر قومهم .. وقد كانت عظمة هؤلاء الأكابر الخيالية مستقرةً في أعماق أفئدتهم وعقولهم .. بينما كان النبي - من جهة أخرى - لم يكن حينذاك بأكثر من رجلٍ عاديٍ .. وعبر هذه المقارنة كان النبي يبدو لهم

شخصاً ضئيلاً جداً .. وبالتالي كثيراً ما كانوا يقولون على سبيل التهكم والازدراء : أهذا الذي جاء يتناول أكابرنا بالنقد ، ويقدم إلينا ديناً آخر غير الدين الذي نحن عليه ، والذي كان عليه آباؤنا وأكابرنا من قبل!؟!

لقد كان رسول الله - ﷺ - يدعو الناس إلى الله الواحد وحده ، غير أن الله لم يكن عندهم موضع اهتمامٍ ، وإنما كانت اهتماماتهم كلها مرتبطةً بأكابرهم ، حيث كانوا قد أحاطوهم بهالةٍ من القدسية ، ورفعوهم إلى درجة الألوهية .. وبما أن دعوته - ﷺ - كانت تصدم مشاعر القوم تجاه أكابرهم ، ناصبوه العداء ، وتصدوا لمعارضته بأقصى طاقتهم .. وقد غاب عن هؤلاء أنه - عليه الصلاة والسلام - إذ رفض الآلهة والمعبودات (الباطلة) ، فإنما كان يقدم مكانها الله رب العالمين ، دون ذاته هو! ، فلا داعي إذن لمهاجمته والنقمة عليه ، اللهم إلا أن يكون القوم يسوءهم ذكر الرحمن والدعوة إلى إفراده وحده بالعبادة والتعظيم دون أحدٍ سواه ، كائناً من كان !!

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

لَا يَكُفُّونَ : لا يمنعون ولا يدفعون.

بَغْتَةً : فجأة .

فَتَبْهَتُهُمْ : تحيرهم وتدهشهم .

يُنظَرُونَ : يمهلون ويؤخرون .

فَحَاقَ : أحاط وأنزل .

إن العرب لم يكونوا منكري الآخرة أصلاً .. وإنما كانوا ينكرون الآخرة في طبيعتها الموضوعية تلك ، التي جاء ينذرهم بها رجل منهم وهو ((محمد بن عبد الله)) . فقد كانوا فخورين بأنهم على دينٍ هو ضمان فلاحهم الأكيد ، لا يتطرق إليه شك .. ومن ثم ثار ثائرهم عندما تناول النبي محمد - ﷺ - يقينهم ذاك بالرفض والإبطال.. وبلغت بهم الجرأة إلى أن أخذوا يقولون له متعجلين : ائتنا بالعذاب الذي تهددنا به إن كنت صادقاً !!

فقال تعالى رداً عليهم : إن سبب استعجالهم هذا إنما يرجع إلى ما يبدو ظاهراً من بُعد المسافة بينهم وبين العذاب الموعود ، لكونهم في مرحلة الامتحان .. وأما إذا حان اليوم الذي تنتهي فيه هذه المهلة ، ويحيط بهم عذاب الله من كل جانبٍ ، فعندئذٍ سيدركون كم كانوا قد ارتكبوا خطأً فادحاً عظيماً ، إذْ لم يأخذوا دعوة الرسول بمأخذ الجد!!

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

يَكْلَؤُكُم : يحفظكم ويحرسكم .

يُصْحَبُونَ : يجارون ويمنعون أو ينصرون .

إن قضية مؤاخذة الله ليست بقضيةٍ متعلقةٍ بأي مستقبلٍ بعيدٍ .. بل هي قضية الساعة الراهنة ؛ بحيث إنها تكمن في صميم هذه الأيام والليالي التي يحسب المرء نفسه

فيها آمناً محفوظاً من كل خطرٍ يتهدد وجوده أو حياته .. فعلى سبيل المثال : لو اقتربت الشمس من الأرض ، بمقدار النصف من مسافتها الحالية ، لارتفعت حرارة أيامنا لدرجة تحرقنا كلنا بالنار.. وعلى نقيضٍ من ذلك ، فلو ابتعدت مسافة الشمس عن الأرض ، ضعف ما هي عليه الآن، لاشتدت برودة لياليا إلى حدٍ نتجمد معه مثل الثلج !!

وإن الوجود الذي أنشأ هذا النظام الكوني البديع الملائم للحياة والأحياء إلى أقصى الحدود ، ويقوم على إدارته وحفظه من الخلل والاضطراب كل حينٍ وآنٍ ، هو وحده الجدير بأن يخصه الإنسان بأسمى عواطفه ، ويوجه إليه كل ما يخفق به فؤاده من مشاعر الحب والتعظيم والولاء .. دون أن يأخذ في عبادة تلك المعبودات الباطلة التي لا تقدر على إعطائه شيئاً !

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

كان المكِيَون في ذلك الزمان يُعدّون قادة العرب عامةً .. وقد كانت هذه المكانة القيادية نعمةً من الله عليهم .. إلا أنهم إنما استمدوا منها غذاء الكبر والغرور .. مما كان سبباً في إنكارهم لمحمدٍ ﷺ حين جهر بالحق أمامهم ، ودعاهم إلى اتباعه .

هذا كان حال الإسلام في مكة .. أما سكان القرى الأخرى خارج مكة ؛ الذين لم يكونوا مصابين بتعقيداتٍ نفسيةٍ كهذه ، فقد كان الإسلام ينتشر بينهم بشكلٍ ملحوظٍ .. فبينما كان الإسلام قد قُوبل في مكة بالرفض ، كان، في الوقت نفسه ، يحظى بالقبول والتوسع لدى القبائل العربية القاطنة في أطرافها .. وبدخول مجموعةٍ كبيرةٍ من سكان يثرب (المدينة) في الإسلام قد ظهر بجلاءٍ أن نفوذ المكيين بدأ يتقلص ، ودائرة قيادتهم آخذةً في الانكماش .. وقد كان ذلك تحذيراً واضحاً .. غير أن المصابين بعقدة

الاستعلاء والتكبر قلما يعتبرون بالتحذيرات ، مهما كانت صريحةً قاطعةً!

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

نَفْحَةٌ : دفعة يسيرة . أو نصيب يسير .

((الإنذار بالوحي)) يعني تحذير الناس بواسطة الدليل .. فالداعي إلى الحق يعرض أمره دائماً بلغة الدليل .. كما لا يكون أمام الناس كذلك من سبيلٍ إلى معرفته ، إلا أن يعرفوه بلغة الدليل ذاتها .

وأما الذين لا يزالون يتعامون ويتصامون عن دلائل الحق ، فلا تنفتح عيونهم إلا إذا تجلت قدرة الله بصورةٍ واضحةٍ مكشوفةٍ ، وعندها سيعترف لتوّه كل متكبرٍ جبارٍ عنيدٍ، غير أن الاعتراف وقتئذٍ لن يغني عن أحدٍ شيئاً !

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

القِسْطَ : العدل . أو ذوات العدل .

((الميزان)) علَم على أداةٍ يقاس بها وزن شيءٍ ما في العالم الراهن .. ومن ثم فقد استخدم الله – سبحانه وتعالى– هذا الاصطلاح الشائع المعروف لدى البشر لتقريب شئون الآخرة إلى أفهامهم .. إن الميزان الدنيوي يقيس وزن الأشياء المادية .. أما ميزان العدل الإلهي في الآخرة ، فإنه سيقيس وزن الحقائق المعنوية بمنتهى الضبط والدقة .

وإنه لا يحصل المرء على شيءٍ أو سلعةٍ ما في هذه الدنيا إلا إذا دفع ثمنها ، ومن يبذل هنا الكثير ، ينال الكثير ، والعكس بالعكس .

وهكذا سيكون الشأن في الآخرة تماماً .. فلن يحصل المرء على شيءٍ من نفائسها إلا بدفع الثمن .. وكما لا ينال أحد شيئاً من أشياء الدنيا بدون ثمنٍ ، فإن أشياء الآخرة بدورها ، لن تُتاح إلا لِمَنَ يتقدم بدفع أثمانها اللازمة .. وإنما جاء القرآن كدليلٍ أو كتابٍ مرشدٍ للناس إلى هذا ((الثمن)) نفسه ، المطلوب دفعه لنيل ما في عالم الآخرة من نفائس قيّمةٍ ، وسلعٍ غاليةٍ!!

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

مِثْقَالَ حَبَّةٍ : وزن أقل شيء .

مُشْفِقُونَ : خائفون حذرون .

إن ما أُعطي لسيدنا موسى عليه السلام من ((الفرقان)) ، و((ضياءٍ)) و((ذكرٍ)) ، هو مثل ما أُعطي كل الأنبياء والمرسلين من عند الله .. والمراد بالفرقان : هو ذلك المعيار النظري الذي يُمَكِّن المرء من التمييز بين الحق والباطل .. والمقصود بالضياء : هداية الله التي تُخرج الإنسان من ظلمات الغي والضلال ، وتقوده إلى سبيل الرشاد المستقيم المنير .. وأما الذكر فهو التذكير والعظة .. أي بيان ما تنطوي عليه الأشياء من جوانب النصيحة والعبرة ، وتصبح مستودعاً لكنوز المعرفة والدرس والعبرة .

هكذا هيأ الله - بفضله ورحمته - أسباب هداية الإنسان .. غير أن صحيفة الهداية الإلهية لا تكون مصدر الهداية للمرء حقاً ، إلا إذا كان يهمّه أمر عاقبته ، وبالتالي يعيش على خوفٍ وحذرٍ من سوء المصير .. وتجعله يعير أمر الحق والصدق اهتماماً أكبر وأهميةً أكثر من أي أمرٍ أو شيءٍ آخر سواه!

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

التَّمَاثِيلُ : الأصنام المصنوعة بأيديكم .

لقد جرت سنة الله تعالى بالعطاء بقدر الاستعداد أو الكفاية .. وقد علم الله الكفاية التي أقام سيدنا إبراهيم الدليل عليها ، عبر اجتيازه لضروب المحن والاختبارات بنجاحٍ .. فأعطاه بحسب ذلك الهداية والمعرفة وتلك هي معاملة الله - سبحانه وتعالى- مع كل عبدٍ من عباده .

لم يتأثر إبراهيم - عليه السلام - ببيئته المشركة التي نشأ وترعرع فيها ، بل حاول استكناه الأشياء وفحصها بعقله هو ، حتى توصل إلى صدق التوحيد على رغم البيئة .. وقد كان هو في عالمٍ ارتبطت فيه كل أنواع الشرف والرقي بالشرك .. غير أنه لم يبال بأي شيءٍ، وتناول معتقدات قومه الخرافية بالنقد الصريح ، وجهر أمامهم بالحق ، بغض النظر عن كل المصالح والأخطار .

وهذه هي الصفات التي تؤهل شخصاً ما لتلقي هداية الله!!

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

فَطَرَهُنَّ : خلقهن وأبدعهن.

جُذَاذاً : قطعا وكسرا .

إن الأفكار الوثنية والأوهام المشركة ، كانت ، في زمن سيدنا إبراهيم ، قد بلغت من السيطرة والغلبة على عقول الناس ، بحيث أنهم ظنوا أن إبراهيم في نقده أول الأمر هازلاً غير جادٍ .. ومن ثم سألوه قائلين : ترى هل كلامك هذا صادر حقاً عن الرويّة والتدبر والتفكير، أو هو تلاعب بالألفاظ على سبيل المزاح والتفكّه !؟!

فأجاب سيدنا إبراهيم،في عزمٍ وتأكيد،قائلاً: إنه لما يدل على مدى جهلكم وسخافة عقولكم أن تعدّوا هذه الحقيقة البالغة الأهمية أمراً غير جادٍ .. في حين يشهد بصدقها كل ما في السموات والأرض .. ثم إنه - إلى جانب تلك المحاجة الكلامية - أقدم بشجاعةٍ فذةٍ وجرأةٍ نادرةٍ على خطوة أخرى ، وهي أنه توجه في اليوم التالي إلى أصنام القوم، فأهوى على رؤوسها تحطيماً .. وكأنما أراهم سيدنا إبراهيم بذلك عملياً: إن هذه الأصنام باطلة لا حقيقة لها في الواقع ، تماماً كما سبق أن بيّنت لكم ذلك شفهياً بالأمس !

﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ : ظاهراً بمرأى من الناس .

وقد كانت الصدمة قاسيةً شديدة الوطأة على نفوس القوم ، عندما دخلوا في المعبد صبيحة اليوم التالي ، فوجدوا أصنامه محطّمةً مكسورةً .. وترجح لديهم آخر الأمر أنه لابد أن يكون هذا صنيع ذلك الفتى الذي ثار على دين آبائنا ، وقد سمعناه يصرح بآراء مناقضةٍ له تماماً !

وخلال تحطيمه لأصنام المعبد ، كان سيدنا إبراهيم قد ترك ، عن عمدٍ ، الصنم الأكبر، ولم يمسه بسوءٍ .. فلما دُعي الآن للمحاكمة والاستجواب ، رد عليهم قائلاً : إنه يجدر بكم أن توجهوا هذا السؤال إلى صنمكم الأكبر ذاك، الذي مازال صحيحاً سليماً .. فلْيشرحْ لكم ، إن كان في الحقيقة إلهاً كما تزعمون ، كيف جرى هذا الحادث مع تلك الأصنام المكسورة!! ، ولم ينطق سيدنا إبراهيم في هذه المناسبة بأي كلمةٍ على نحوٍ مباشرٍ ، وإنما عبّر عن مراده باستخدام الأسلوب غير المباشر ، الذي كان في ذلك الحين أوقع في النفوس وأفعل في هزّ الضمائر من الكلام الصريح المباشر!!

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ : رجعوا إلى الباطل والعناد .

أُفٍّ لَّكُمْ : كلمة تضجر وكراهية وتبرم .

وقد كان من المحتمل ، بعد سماع ردود إبراهيم الحاسمة هذه ، أن يتذمّر القوم ويشتعلوا غضباً عليه ، باعتباره سيئ الأدب ، طويل اللسان كما جرت بذلك عادة الناس في مثل هذه المواقف .. ولكن ، بالرغم من جمودهم على عبادة الأصنام ، كانت ضمائرهم لم تخل من شرارة الحياة بعد .. ومن ثم فقد استشعروا ما احتوت عليه أجوبته من قوة الحجة وثقل البرهان .. واعترفوا ، مطرقين رؤوسهم خجلاً وحياءً ، بكونهم على ضلالٍ وبعدهم عن الحق .. ولولا أن استبدت بهم مشاعر التعصب وحمية الجاهلية الرعناء في نهاية المطاف ، لكادت تلك التجربة أن تكون كافية لإدخالهم في حظيرة الإيمان !

﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

إن أصحاب السلطات ، إذا خسروا المعركة في ميدان الدليل ، يلجأون دوْماً إلى ممارسة الظلم والعدوان على خصومهم .. وقد تكررت نفس هذا الأسلوب مع سيدنا إبراهيم كذلك .. ففي أعقاب حادثة تحطيم الأصنام ، عندما أحس قادة القوم بعجزهم عن مقاومة إبراهيم بالدليل والبرهان ، أخذوا في مخاشنته وتضييق الخناق عليه .. حتى انتهى بهم الغرور بالقوة يوماً إلى حدّ أنهم ألقوه في محرقةٍ رهيبةٍ .

غير أن رسول الله يكون ممثلاً لله في الأرض .. وقضيته تكون قضية الله ؛ ولذلك فإن الله ينصر رسوله نصراً غير عاديٍ ، ويعْصمه على نحوٍ استثنائيٍ ، ومن ثم فقد أمر الله بالنار التي أضرموها لإبراهيم ، فاستحالت برداً وسلاماً عليه .. ويمكن أن تنزل مثل هذه النصرة الإلهية لغير الأنبياء كذلك ؛ بشرط أن يربط هؤلاء أنفسهم بشرع الله ، تماماً كما يربط به الرسول نفسه !

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ .

إِلَى الأَرْضِ : منتهيا إلى أرض الشام .

نَافِلَةً : عطية أو زيادة عما سأل .

وُلد سيدنا إبراهيم في العراق .. ولما صار قومه ، من جمهور الشعب ، إلى الكهنة ، إلى الملك نمرود يناصبونه الشر والعداء ، غادر وطنه ، بعد أن بلغ الدعوة ، وأقام الحجة .. واتجه ، كما أمره الله تعالى ، نحو بلاد الشام وفلسطين الخصيبة .. ومع كونه لم

يحظ بين أبناء وطنه بالأتباع والأنصار ، إلا أن الله تعالى قد وهب له من الأولاد والأحفاد مَنْ ساروا على دربه ، واقتدوا بقدوته .. حتى إن صلاحهم تقبله الله بقبولٍ حسنٍ لدرجة أنه بدأ في نسله سلسلة النبوة ، حيث كانت أكثرية الأنبياء الذين جاءوا بعده من ذريته - عليه الصلاة والسلام .

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

قَوْمَ سَوْءٍ : فساد وفعل مكروه .

المراد بالحكمة : المعرفة ، وبالعلم : الوحي .. وقد أُعطي ذلك لسيدنا لوط ، تماماً كما أُعطي ذلك لكل مَنْ سبقه ومَنْ جاء بعده من الأنبياء والمرسلين من عند الله .. وأما بعد ختم النبوة ، فإن القرآن هو قائم مقام الوحي الآن، وأما الحكمة (المعرفة) فإن غير الأنبياء أيضاً يظفرون منها بنصيبهم ؛ كل بقدر كفايته واستعداده .

والذين يكونون موضع عناية الله ، فإن الله يصير كفيلهم ووليّ أمرهم ، بحيث يخرجهم من مجتمع الأشرار والفاسقين ، ويبوئ لهم مكاناً في مجتمع الأخيار والصالحين .. ويأخذ بأيديهم عند كل شدةٍ ، ويمدهم بنصره في كل طورٍ من أطوار الحياة .. ويحبوهم بالحكمة التي تغتسل أرواحهم بعدها في فيض الرحمات الإلهية!!

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

لقد ظل سيدنا نوح عليه السلام يدعو قومه إلى الله لمدةٍ طويلةٍ جداً ، غير أن دعوته إلى الإصلاح لم يتلقاها بالقبول سوى نفرٍ قليلٍ .. فلم يلبث نوح أن توجه آخر الأمر إلى

ربه بالدعاء على قومه بالهلاك .. فجاء بعدئذٍ طوفان عارم شديد لدرجة عجزت معها حتى قمم الجبال الشاهقة من أن تنقذ الناس! ومع أن هذه الحادثة وقعت على مستوى النبي .. إلا أنها تنطوي على جانبٍ عظيمٍ من العزاء والسلوى للبشر العاديين كذلك.. إذْ يتضح لنا من خلالها أن المفسدين في هذه الدنيا ليسوا أحراراً مطلق الحرية .. وأن مَنْ يتقدم هنا برفع لواء الحق ليس وحيداً مطلق الوحدة كذلك .. فلو أن شخصاً ربط وجوده بالحق بحيث هو يصير في هذه الدنيا ممثلاً للحق ، فإنه لا يعود بعدئذٍ في هذه الدنيا وحيداً ، بل يكون الله معه، ومَنْ كان الله معه ، تُرى هل يستطيع أحد أن يقهره أو يتغلب عليه؟! كلا !!

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠ ﴾

الحَرْثِ : الزرع . أو الكرم .

نَفَشَتْ فِيهِ : انتشرت فيه ليلا بلا راع فرعته .

صَنْعَةَ لَبُوسٍ : عمل الدروع تلبس في الحرب .

لِتُحْصِنَكُم : لتحفظكم وتقيكم .

ذكرت هذه الآيات نبيين من أنبياء بني إسرائيل ، وهما : سيدنا داود ونجله سيدنا سليمان – عليهما السلام – .. لقد وهب الله لهما القدرة على الفصل بين الناس ، وإصابة الحكم في القضايا الإنسانية .. وقد كان سيدنا داود يسبّح لله – تبارك وتعالى – بطريقة رائعة ، لدرجة أن الجبال والطيور كانت تأخذ بدورها في التجاوب معه .. كما قد علمه الله – سبحانه وتعالى – كيفية استعمال

الحديد .. وإنها لحقيقة لا سبيل إلى إنكارها أن أنبياء الله هم الذين علموا الإنسان كيف يسبّح لربه ويمارس عبادته .. غير أن هذه الآيات تدلنا - إلى جانب ذلك - على أن الأنبياء يرجع إليهم الفضل كذلك في تزويد الإنسان بمعرفة الأشياء الضرورية الأخرى على وجهها .. كمبدأ العدالة الاجتماعية ، وكيفية استعمال المعادن مثلاً، إنما تَعَرَّف الناس عليها عن طريق الأنبياء .. وربما يكون الإنسان قد حصل على المعرفة الأولية (البدائية) عن كل أمرٍ ضروريٍ من أمور الحياة بواسطة حضرات الأنبياء أنفسهم - عليهم صلوات الله وسلامه !

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

عَاصِفَةً : شديدة الهبوب .

يَغُوصُونَ لَهُ : في البحار لاستخراج نفائسها .

لَهُمْ حَافِظِينَ : من الزيغ عن أمره أو الإفساد .

المراد بـ ((تسخير الرياح)) هنا : هو الملاحة البحرية .. إن السفر البحري في الزمان القديم قد فوجئ بثورةٍ نقلته من طورٍ إلى طورٍ آخر ؛ عندما اكتشف الإنسان طريقة إنشاء السفن الشراعية .. حيث كانت هذه الأشرعة بمثابة أجهزة تسخير الرياح ، وكانت تقوم ، بالنسبة إلى سفن ذلك الزمان بوظيفة المحركات في أيامنا هذه .. إن اختراع السفن الشراعية مكّن من استخدام البحار لأغراض النقل والمواصلات على أوسع نطاقٍ .. يوضح أن علم الملاحة البحرية ربما يكون هو الآخر مما تلقاه الإنسان بواسطة الأنبياء الكرام ، عليهم صلوات الله وسلامه .

وزيادةً على ذلك ، فقد سخر الله تعالى لسليمان عليه السلام طائفةً من الجن كذلك .. وقد كان هؤلاء يُنجزون له أعمالاً رفاهيةً ضخمةً يعجز البشر العاديون عن القيام بمثلها .. إن هناك صنوفاً من الأجهزة والآلات اختُرعت في هذا العصر التكنولوجي الحديث لتتولى القيام بالأعمال الأكبر مشقةً والأكثر فائدةً للإنسان .. وقد جعل الله الجن مسخَّرين لنبيّه ، قبل العصر التكنولوجي ، لإنجاز مثل هذه الأعمال والمشروعات الكبيرة!

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

إن الله - سبحانه وتعالى - يُقيم ، بواسطة أنبيائه ، أروع الأمثلة وأسماها من كل نوعٍ ؛ لكي يكونوا للناس قدوةً يقتدون بها في حياتهم .. ومن ذلك مثال سيدنا أيوب - عليه الصلاة والسلام - وسيدنا أيوب ، هو ، في أغلب الظن ، نبي من بني إسرائيل بُعث في القرن التاسع قبل الميلاد .. وقد كان أول الأمر ، على حسب ما جاء في التوراة ، رجلاً ذا مالٍ وثروةٍ كبيرةٍ .. حيث بلغ ما كان عنده من الزروع والمواشي والمساكن والأولاد من الكثرة حداً راح يُوصف معه بأن ((هذا الرجل أعظم كل بني المشرق)) .. وبالرغم من ذلك كله فقد كان أيوب عبداً شاكراً وفياً لله .. وبالتالي صارت حياته نموذجاً حياً يدل الناس كيفية استمرارية المرء عبداً متواضعاً مطيعاً لربه ، رغم حصوله على مراتب الشرف والعزة ، وأسباب الغنى والثراء !

بيد أن الشيطان لم يلبث أن جعل هذه الواقعة مثار فتنةٍ للناس ، إذْ ألقى في نفوسهم أن اهتمام أيوب غير العادي هذا بعبادة ربه ، ليس إلا لكونه يتمتع بنعمٍ غير عاديةٍ ، ولو سُلب كل هذه النعم ، لأصبح ما يمارسه من شكرٍ وطاعةٍ في خبر كان !

وقد أقام الله بعد ذلك من خلال ذاته مثالاً آخر .. حيث هلكت مواشيه ، وضاعت زروعه ، ومات أولاده ، وحتى راح جسده هو الآخر ضحية مرضٍ ألزمه الفراش ؛ فتخلى عنه الصديق والقريب ، ولم يبق معه سوى زوجةٍ واحدةٍ .. ولكن أيوب قابل القضاء الإلهي بالرضا التام والصبر الجميل ، وقد ذكرت التوراة هذا الموقف في العبارة التالية : ((.. فقام أيوب ، **ومزق جبّته** ، وجزّ شعر رأسه ، وخرّ على الأرض ، وسجد ، وقال : عرياناً خرجت من **بطن أمي** ، عرياناً وأعود إلى هناك ؛ الربّ أعطى ، والرب أخذ ؛ فليكن اسم الرب مباركاً .. في كل هذا لم يخطئ أيوب ، ولم ينسب لله جهالةً)).

(سفر أيوب ، الإصحاح الأول ٢٠-٢٢) .

ولما بدا من سيدنا أيوب هذا الصبر والرضا الكامل بما أصابه من ألوان البلاء والمكروه كُتب له أحسن الأجر في الآخرة وجُوزي في هذه الدنيا بتحسين أحواله كذلك .. ((فزاد الرب - كما تحكي التوراة - على كل ما كان لأيوب ضعفاً، وبارك الرب آخرة أيوب أكثر من أولاه..)) . (انظر سفر أيوب، الإصحاح الثاني والأربعين) .

وقد عُبّر عن ذلك في الحديث بلغة التمثيل كما يلي : ((لما عافى الله أيوب ، أمطر عليه جراداً من ذَهبٍ..)) [1].

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

وَذَا الكِفْلِ : قيل هو إلياس عليه السلام .

كان سيدنا إسماعيل ولد سيدنا إبراهيم الخليل - عليهما السلام - وأما إدريس ، فقد ذهب بعض علماء التفسير إلى أنه النبي الذي ورد ذكره في التوراة باسم ((أخنوخ))

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٥١٨ .

(Enouch).. وأما ذو الكفل فربما يكون المراد به هو النبي المذكور في التوراة باسم ((حزقيال)).

وأبرز صفةٍ كان يتسم بها هؤلاء الأنبياء ، حسبما أشارت إليه الآية ، هي : ((الصبر))؛ ذلك لأن الصبر أساس كل الأعمال التعبدية التي يُقصد بها وجه الله تعالى .. ومعنى الصبر : هو أن تتجنّب نفسية رد الفعل ، والذي لا يتجنب نفسية رد الفعل ، لن يوفق في عالم الامتحان هذا أبداً للثبات على مرضاة الله سبحانه وتعالى . والحقيقة هي أن الصبر هو المدخل إلى رحمات الله في هذه الدنيا وفي تلك الدار الآخرة!

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـْۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

وَذَا النُّونِ : صاحب الحوت يونس عليه السلام.

مُغَاضِباً : غضبان على قومه لكفرهم.

لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ : لن نضيق عليه بحبس ونحوه .

بُعث سيدنا يونس عليه السلام برسالة الله إلى ((نينوى)) ؛ إحدى مدن العراق القديم .. وقد كان عدد سكانها إذْ ذاك يبلغ مائة ألف نسمةٍ أو أكثر من ذلك بقليلٍ .. وقد ظل يدعو أهل المدينة إلى التوحيد والآخرة ردحاً من الزمن .. إلا أنهم مازالوا يعاندون ويصّرون على ما هم عليه من الكفر والإباء عن الإيمان .. وقد جرت سنة الله في الأنبياء بأن قوماً إذا ما تمادوا في الغي والإنكار ، رغم إنذار النبي إليهم ، وإقامة الحجة عليهم من خلال تبليغ الرسالة وأداء الأمانة المنوطة به ، أمر النبي بمغادرة القرية ، وأخذ القوم بالعذاب .. ومن ثم خيّل إلى سيدنا يونس أن ذلك الوقت قد حان ، فلم

يلبث أن فارق قومه من غير انتظارٍ لأمر الله إياه بالهجرة .

وفي أعقاب خروجه من القرية توجه إلى الساحل ، حيث ركب في سفينةٍ .. وفي بعض الطريق أخذت السفينة تضطرب وكادت أن تغرق ، مما جعل الركاب يظنون أن عبداً قد أبق (هرب من سيده) ، واندس بينهم .. وكان الحل ، تبعاً للعادة المتبعة قديماً ، وهو العثور على ذلك العبد وإلقاؤه في البحر ، فاقترعوا فيما بينهم ، فوقعت القرعة على يونس ، وبالتالي ألقوه في البحر .. وقيض الله في الوقت نفسه حوتاً عظيماً لالتهامه ؛ فمكث في بطنه ما شاء الله أن يمكث ، إلى أن نبذه الحوت بالساحل وهو سقيم ، فلما أفاق ، انصرف عائداً إلى قومه من جديدٍ .

إنها قصة جرت مع نبيٍ لكونه تخلى عن جبهة الدعوة قبل بلوغها حد التمام ، فما عسى أن يكون مصير ورثة الأنبياء أولئك ، الذين تخلوا عن جبهة الدعوة بالمرة !؟!

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

رَغَباً وَرَهَباً : وجاء في الثواب وخوفا من العقاب.

خَاشِعِينَ : متذللين خاضعين .

إن الأنبياء هم صفوة خلق الله المنعم عليهم بوجهٍ خاصٍ .. وأكبر صفةٍ شخصيةٍ يمتازون بها عمن سواهم هي أن سعيهم في الحياة لا يكون موجَّهاً نحو الدنيا ، بل نحو أشياء لها قيمة واعتبار في الآخرة .. وهم يدركون عظمة الله وجلاله بحيث يبدو لهم الله تعالى وحده كل شيءٍ ؛ فلا يخافون إلا منه ، ولا يتضرعون إلا إليه ، ولا يزالون ملتزمين بالخشوع والتواضع له تعالى على كل حالٍ من الأحوال .

وقد كانت هذه الصفات متوفرةً في سيدنا زكريا والأنبياء الآخرين عداه على أتم درجةٍ وأكملها .. ولهذا السبب أغدق الله عليهم بنعمه الخاصة .. وبقدر ما يقيم عامة المؤمنين الدليل على هذه الأوصاف العالية ، بقدر ما سيُعتبرون أهلاً لنصرة الله وعناياته !

﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا : حفظته من الحلال والحرام .

مِن رُّوحِنَا : من جهة روحنا وهو جبريل .

الصفة الخاصة التي نُعتت بها مريم - عليها السلام - هنا ، هي أنها ملكت شهوتها .. فكوُفِئتْ على ذلك بأن جُعلت والدة نبي خُلق عن طريق معجزةٍ إلهية مباشرةٍ .

وهذا الأمر نفسه ينطبق على النساء والرجال العاديين كذلك .. إذ المطلوب من الإنسان في العالم الراهن أن يملك نفسه وشهواتها ، وبقدر ما يبرهن المرء على هذا الضبط والالتزام ، بقدر ما يكون نصيبه من ألطاف الله وعناياته الخاصة!

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ .

أُمَّتُكُمْ :ملتكم (الإسلام) .

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم : تفرقوا في دينهم فرقا وأحزابا .

لقد بعث الله كل الأنبياء بدينٍ واحدٍ لا غير ، وهو يتلخص في توحيد الله ، وإفراده تعالى بالعبادة .. ولو ظل الناس قائمين على هذا الدين الأصلي وحده ، لكانوا كلهم أمةً واحدةً .. غير أن الناس لم يلبثوا أن أعدوا نسخاً مختلفةً للدين باختراع مباحث وتفريعاتٍ جديدةٍ حوله من عند أنفسهم ؛ فمنهم مَنْ استمسك بهذه ، ومنهم من أخذ بتلك.. وهكذا تحول الدين الواحد إلى أديانٍ شتى .

إن العبرة عند الله إنما هي بالإيمان والعمل الصالح .. أي معرفة الله الصادقة ، وطاعة الله الصادقة كذلك .. وأما ما عداهما من شيء ؛ فلن يُقابل عند الله بأي تقديرٍ ولا اعتبارٍ ؛ مهما كان ذلك الشيء لدى أحد الناس جديراً بالتقدير والاعتبار وفق منظوره الذاتي!

﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ .

وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ : ممتنع البتة على أهل القرية.

لَايَرْجِعُونَ : إلينا بالبعث والجزاء .

حَدَبٍ : مرتفع من الأرض .

يَنسِلُونَ : يسرعون المشي في الخروج .

الوَعْدُ الحَقُّ : البعث والحساب والجزاء .

شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ : مرتفعة لا تكاد تطرف .

إن كون رجوع قريةٍ ما إلى الإيمان حراماً - أي ممتنعاً عليها - يعني أن يفقد أهلها استعدادهم لقبول الإيمان.. فمن شأن الحق، إذا ظهر مصحوباً بأدلةٍ وبراهين واضحةٍ، أن المرء يجد نفسه مضطراً، بحكم فطرته، إلى معرفته، والذين لا يعرفون الحق في لغة الدلائل، لن يعرفوه إلا إذا مزّقت القيامة غشاوة أبصارهم؛ بيد أن الإيمان وقتئذٍ، سوف لا يغني عن أحدٍ شيئاً، لأنه يكون وقت نيل جزاء الإيمان وليس وقت الإيمان!

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

حَصَبُ جَهَنَّمَ : حطبها ووقودها الذي به تهيج .

لَهَا وَارِدُونَ : فيها داخلون .

زَفِيرٌ : تنفس شديد تنتفخ منه الضلوع .

حَسِيسَهَا : صوت حركة تلهبها .

الفَزَعُ الأَكْبَرُ : حين نفخة البعث .

كان عبد الله بن الزَّبعري من فحول شعراء العرب الجاهليين .. ولما نزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ ، قال للناس أن سلوا محمداً : عما إذا كنت تزعم أن كل الآلهة من دون الله تَرد مع عابديها إلى جهنم ،

فإننا نعبد الملائكة ، والنصارى يعبدون المسيح ، واليهود يعبدون عزيراً ؛ أفهم جميعاً من حصب جهنم؟! وقد طار المشركون فرحاً بمقالته هذه وذهبوا يسألون النبي ﷺ عن الجواب.. فقال عليه الصلاة والسلام .. : «كل مَنْ أحب أن يعبد من دون الله فهو مع مَنْ عبده» ، وقد كان هذا الرد حاسماً لم يدعْ لعبد الله بن الزبعري متسعاً لمزيد من الأخذ والرد، ويقال إنه قد اعتنق بعدئذٍ الإسلام [1].

ومن هذا نعلم أن مصداق الآية هو الأصنام المنحوتة من الحجارة ونحوها ، أو الذي كان راضياً باتخاذ الآخرين إياه إلهاً يُعبد من دون الله .. وإنما يُلقى بمن اتخذ أحداً من دون الله إلهاً ، وبمن رضي بهذا التأليه لنفسه ، يلقى بكليهما معاً في نار الجحيم ليكون عبرةً للناس .

إن يوم القيامة سيكون يوماً رهيباً للغاية .. غير أن الذين كُتب لهم التوفيق ليكونوا على وجلٍ وخوفٍ من الساعة قبل حلولها ، سيكونون في مأمنٍ من فزع ذلك اليوم الرهيب ، وسيدخلون في دنيا الجنة الحافلة بصنوف النعم وأسباب الراحة والهناء!

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

السِّجِلِّ : الصحيفة التي يكتب فيها .

لِلْكُتُبِ : على ما كتب في السجل .

الزَّبُورِ : الكتب المنزلة .

الذِّكْرِ : اللوح المحفوظ .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٩.

لَبَلاغاً : كفاية أو وصولا إلى البغية.

إن امتداد الكون الحالي إنما كان لأجل إيجاد عالم الامتحان .. وأما حين يأتي وقت بناء عالم الجزاء ، فسوف يطوي الله بساط هذا العالم ويلم أطرافه ، ولعله سيبني من هذه ((المادة)) عالماً آخر جديداً يناسب متطلبات القضاء والجزاء الأخير .. وإن ظهور عالمٍ إلى حيز الوجود يكفي بحد ذاته دليلاً على إمكان إيجاد عالمٍ آخر كذلك .

وإنه لطالما يتمكن شرار الناس من احتلال مراكز الشرف والكبرياء في العالم الراهن .. غير أن ذلك ليس إلا لحين انقضاء فترة الامتحان المحددة ، فإذا انتهت فترة الامتحان ، وتكوّن العالم الأبدي الكامل على أنقاض هذا العالم ، فإنما ستقع هناك كل ألوان العزة والراحة في نصيب أولئك وحدهم ، الذين كانوا خلال فترة الامتحان الحالية عباداً أوفياء مخلصين لله حقاً.

وقد ورد هذا المعنى أيضاً في الزبور - وهو يُعرف عند أهل الكتاب اليوم بسفر ((المزامير)) - بشيءٍ من التفصيل.. وهاك عبارة من الإصحاح السابع والثلاثين ، وهي تقول : ((لا تغرْ من الأشرار ، ولا تحسد عمال الإثم ، فإنهم مثل الحشيش سريعاً يُقطعون ، ومثل العشب الأخضر يذبلون .. اتكل على الرب ، وافعل الخير ، (فهو) يخرج مثل النور برَّك ، وحقَّك مثل الظهيرة .. لأن الرب يحب الحق ، ولا يتخلى عن أتقيائه ؛ إلى الأبد يُحفظون .. أما نسل الأشرار فينقطع ، الصديقون يرثون الأرض ، ويسكنونها إلى الأبد))!!

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا

تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ .

آذَنتُكُمْ : أعلمتكم ما أمرت به .

عَلَى سَوَاءٍ : مستوين جميعا في الإعلام به .

وَإِنْ أَدْرِي : وما أدري وما أعلم .

فِتْنَةٌ لَّكُمْ : امتحان لكم .

إن كل الأنبياء المرسلين من عند الله - سبحانه وتعالى - إنما بُعثوا لغاية واحدةٍ ليس إلا .. حيث كان الله تعالى يريد من خلالهم جميعاً تزويد البشر بعلم الحقيقة الذي يجعلهم - إن هم أخذوا به وساروا على ضوئه - أهلاً لسكنى الجنان الأبدية .. غير أن البشر مازالوا يرفضون الأنبياء والرسل الواحد تلو الآخر .. وعلى هذا فقد كان سائر أنبياء الله رحمةً من الله للخلق .. وإنما تكمن ميزة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في أن الله تعالى جعل منه وسيلةً لعنايةٍ خاصةٍ بعباده ، وهي أن الله تعالى قرر أن يفتح بواسطته - عليه الصلاة والسلام - باب الهداية ذاك ، الذي كان قد ظل مغلقاً ولهذا السبب قضى الله بالنسبة إلى أمته المدعوة قضاءً حتمياً خاصاً بإرشادها إلى طريق الحق على أية حالٍ .. ذلك لكي تقف إلى جانب الرسول جماعة مؤمنة قوية تقوم بتفجير ثورةٍ في العالم ؛ تغير مجرى التاريخ ! ومن نافلة القول أن شرع الرحمة الإلهية الخاص هذا ، قد تحقق على يد النبي العربي وأصحابه الكرام على نحوٍ أتم وأكمل ما يكون!

سورة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤ ﴾ .

زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ : أهوال القيامة وشدائدها.

تَذْهَلُ : تغفل وتشغل لشدة الهول .

مَّرِيدٍ : متمرد عان متجرد للفساد.

تَوَلَّاهُ : اتخذه وليا وتبعه .

﴿ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا ﴾ هذه العبارة تبين أهوال القيامة بلغة التمثيل .. أي سيصل أمر الناس يومئذٍ إلى أنه لو كانت هناك مرضعة ، ذهلت عن الرضيع في أحضانها لما ينتابها من هولٍ مروعٍ ، وإن كانت ثمة حامل ، سقط حملها من شدة الفزع الطارئ عليها!!

والزلازل التي تقع في عالمنا الراهن هي صورة صغيرة جداً لحادث القيامة .. وأما إذا جاء زلزال القيامة العظيم، فسوف لا يلبث المرء أن ينسى كل شيءٍ كان اهتمامه به وإقباله عليه قد أنساه يوم القيامة ، وهو لا يكاد يذكر ساعتئذٍ حتى أحب الأشياء لديه

في الحياة الدنيا !!

إن كلام النبي يرتكز على أساسٍ من العلم .. وهو يُوضحه ويثبته بأدلةٍ وبراهين قاطعةٍ.. غير أن الذين يأبون عن الاعتراف بوجود حقٍ ما خارج ذواتهم ، يثيرون حول كلام النبي جدلاً كاذباً ، ليتظاهروا بأنهم على الحق أو باحثون عن الحق على أقل تقديرٍ .. إن موقفاً كهذا بمثابة التمرد على الله .. والذين يعتمدون على مثل هذا الجدال بالباطل ، تبريراً لعدم اعترافهم بالحق ، كأنما هم جعلوا من الشيطان مستشاراً لهم ، ويقيمون بذلك الدليل على أن أفئدتهم خالية من خوف الله كل الخلو .

إن نفسية اللاخوف تجرد المرء من صلاحية معرفة الحق والاعتراف به .. وهو يصبح أداة «طيعةً» في يد الشيطان يستخدمها كما يشاء .. ومثل هذا الشخص لن يوقظه شيء سوى هدير القيامة الرهيب ؛ إلا أن زلزلة القيامة إنما تأتي لتفتح لأمثال هؤلاء العتاة المتمردين أبواب جهنم ، لا لتقودهم إلى طريق الهداية !

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧ ﴾

نُّطْفَةٍ : مَنيّ .

عَلَقَةٍ : قطعة دم جامدة .

مُّضْغَةٍ : قطعة لحم قدر ما يمضغ

مُّخَلَّقَةٍ : مستبينة الخلق مصورة .

لِتَبْلُغُوا : كمال قوتكم وعقلكم .

أَرْذَلِ الْعُمُرِ : أخسه ، أي الخوف والهرم .

هَامِدَةً : ميتة يابسة قاحلة .

اهْتَزَّتْ : تحركت بالنبات .

وَرَبَتْ : ازدادت وانتفخت .

زَوْجٍ بَهِيجٍ : صنف حسن نضير

إن اشتباه المرء في الحياة الآخرة إنما يرجع إلى كونه يتعذر عليه أن يفهم أن الإنسان إذا مات ، وأصبح رميماً ؛ كيف سيقوم حياً من جديد ؛ كيف سيعود الوجود الميت إلى وجودٍ نابضٍ بالحياة ؟!!

وردّ هذه الشبهة يكمن في تكوين عالمنا الراهن نفسه .. فما هذا العالم الذي نعيش فيه الآن ؟ إنه تغير حالٍ إلى حالٍ .. فالشيء الذي نطلق عليه «الوجود الحي» ، ليس في حقيقته سوى نتاج تغيرٍ طارئٍ على وجودٍ غير ذي حياةٍ.. إن تحليل الجسم الإنساني يدلنا على أنه يتألف من : الحديد ، والفحم (الكربون) ، والكالسيوم ، والأملاح ، والمياه، والغازات .. إلخ . وكل هذه العناصر التركيبية للوجود الإنساني جامدة ولا روح فيها .. ولكن نفس هذه العناصر غير الحية، تأخذ شكل أعضاء حيةٍ ، يتكون من مجموعها المتناسق إنسان يتحرك ويمشي .. إذن ، فما الذي يدعو إلى الدهشة أو

الاستغراب في أن يعود هذا الإنسان مرةً أخرى إلى الحياة بعد الموت ، كما قد صار حياً بعد أن كان ميتاً أول مرةٍ ؟!

وهكذا فلننظر في نبات الأرض .. إن التراب أو الأشياء الأخرى التي يتكوّن منها النبات ؛ كلها تخلو في مبدأ الأمر من تلك الخصائص التي يطلق على مجموعها اسم ((النبات)).. غير أن هذا ((اللانبات)) هو الذي يتحول إلى ((نبات)) ، وهذا التحول يحدث أمام أعيننا كل اليوم ، إذن فما الذي يجعلنا نستبعد وقوع هذا الحادث مرةً ثانيةً ؟!

الحقيقة هي أن ظهور العالم الأول إلى الوجود يقوم في ذاته دليلاً قاطعاً على إمكان ظهور العالم الآخر .. إنه بعد تجربة الحياة الأولى لا تعود ثمة صعوبة ما في فهم الحياة الثانية من الناحية العقلية والمنطقية!

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠ ﴾

ثَانِيَ عِطْفِهِ : لاويا لجانبه تكبرا وإباء .

خِزْيٌ : ذل وهوان .

أعدى أعداء الدعاة إلى الدين الخالص ، على اختلاف الأعصار والأمصار أولئك الذين يقوم صرح قيادتهم على أساسٍ من الدين المغشوش .

وهؤلاء كثيراً ما يثيرون جدلاً فارغاً حول دعوة الحق ودعاته ، سعياً منهم إلى تشكيك أتباعهم في صدق الدعوة الجديدة ، وجعْلهم بالتالي يظلون آخذين بأهداب الدين التقليدي السائد ، معتقدين - كسابق عهدهم - أنه وحده الحق وما سواه باطل .

وإنما يتصدى هؤلاء لمعاداة الحق حفاظاً على كبريائهم ومجدهم الكاذب الذي يتمتعون به في ظل الدين المزعوم.. فإن اهتمامهم يكون مصروفاً نحو ذاتهم أكثر منه نحو الحق .. وأمثال هؤلاء من أشد الناس جرماً عند الله سبحانه وتعالى ، وإنهم لن يحصلوا في الآخرة على شيءٍ سوى الخزي وعذاب الحريق !

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾

عَلَى حَرْفٍ : شك وقلق وتزلزل في الدين .

الناس رجلان : رجل يكتشف الدين من حيث إنه هو الحق المطلق .. وبالتالي يأخذ الدين من عقله وقلبه كل مأخذٍ.. فيسلم نفسه ويسخر وجوده كله للدين بدون أدنى تحفظٍ .. ويصير كل شيءٍ آخر سواه في نظره ثانوياً .. وهذا هو المؤمن الصادق عند الله سبحانه وتعالى .

أما الآخرون فهم الذين يربطون أنفسهم بالدين بدافعٍ سطحي أو تأثرٍ وقتيٍ فقط ، بينما ترتبط اهتماماتهم الحقيقية بمصالحهم .. وارتباطهم هذا بالدين إنما يدوم مالم يجرّ عليهم خسارةً ما ، أو يعرّض مصالحهم لخطر الضياع.. ومن ثم فحين يحسّون بأن الدين ومصلحتهم لا يستطيعان أن يسيرا جنباً بجنبٍ ، يتمسكون بمصلحتهم الذاتية ، متخلين عن الدين بالمرة!!

وهذا الصنف الثاني من الناس هو الذي يُطلق عليه ((المنافق)) .. والمنافق يظل فاشلاً في الحصول على الدنيا والآخرة معاً .. وسبب ذلك أن النجاح في كلٍ من الدنيا والآخرة يتوقف على توافر شرطٍ واحدٍ ، ألا وهو تركيز الفكر .. وتلك هي الصفة القلبية التي لا تكاد تتوفر لدى الإنسان المنافق أبداً .. فإنه بسبب ميوله واهتماماته

الثنائية أو المزدوجة لا يتمكن من تركيز فكره على الآخرة ولا على الدنيا على نحوٍ تامٍ ، وإنما يظل يتردد بين هذه وهذه ، وهكذا فلا يوفق لدفع الثمن اللازم للظفر بأي واحدةٍ منهما .. وينتهي الأمر بأمثال هؤلاء إلى أن يصبحوا رمزاً للحرمان المزدوج!

﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾

المَوْلَى : الناصر .

العَشِيرُ : المصاحب المعاشر .

التخلي عن الله يكون دوماً نتيجة الاعتماد على غير الله .. فحين ينحرف أحد الناس عن طريق الله المستقيم أو يُعرض عنه ، فإنما يرجع السبب في ذلك إلى كونه معتمداً على أي شيءٍ آخر غير الله .. و((غير الله)) هذا قد يكون وثناً أو صنماً ، وقد يكون شيئاً آخر عدا الأصنام والأوثان .

على أن أحداً من دون الله في هذا العالم - كائناً من كان - لا يتمتع بشيءٍ من القدرة أو الطاقة .. ومن ثم فحين يضع المرء ثقته في الآخرين دون الله فإنه يتخلى عن القادر ذي القوة ، ويلجأ إلى شيءٍ وهمي لا وجود له من حيث القدرة والطاقة .. فهل هناك حماقة يمكن تصورها أشد من هذه الحماقة ؟ !!

وفوق ذلك ، فإن ارتباطك بالله واعتمادك عليه ليس مقتضى الضرورة وحدها ، بل هو مقتضى الحقيقة كذلك.. فإنه من حق الله على الإنسان .. ولذا فحين يلجأ المرء إلى الأشياء الوهمية متخلياً عن الله ، تُقدر له أضرار ذلك بصورةٍ فوريةٍ وحتميةٍ .. وأما

منافع هذا اللجوء فإنها غير عائدةٍ عليه أبداً ، لأنها هي الأخرى وهمية لا وجود لها بالفعل .

وفي دنيا كهذه ، فإن الذين أقاموا الدليل على سمو الفكر برفع أنفسهم عن البيئة المحيطة ، واكتشاف الله الحق في خضم الآلهة الباطلة .. ثم بصبغ حياتهم كلها بالصبغة الإلهية من أجل الآخرة وحدها ، هم أثمن وأغلى أرواح هذه الدنيا إطلاقاً .. وسوف يتلقاهم ربهم بحفاوةٍ وتقديرٍ ؛ بحيث يُسكنهم في عالم الجنة الكامل ، ليستمتعوا بما فيه من راحةٍ ونعيمٍ مقيم إلى الأبد!

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

يَنصُرَهُ اللهُ : ينصر الله رسوله ﷺ .

بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ : بحبل إلى سقف بيته.

ثُمَّ لْيَقْطَعْ : ثم ليختنق به حتى يموت .

كَيْدُهُ : صنيعه بنفسه .

أخذت هوة الخلاف والمعارضة تتسع بين النبي ﷺ والمشركين على توالي الأيام.. حتى بدا أن رافعي راية الباطل سيقضون يوماً على حملة لواء الحق .. وهنالك نشأ في قلوب بعض المسلمين - وهم يمرون بأحوال بالغة الخطورة كهذه - تساؤل عما إذا كنا نحن على الحق ؛ فلم لا يُمدنا الله تعالى بنصره ؛ وما الذي جعله يقف على الحياد من هذا الصراع المحتدم بين الحق والباطل ؟!

فقال : إن الله ينصر الحق دائماً ولا ريب .. ولكن ليس من سنة الله أن يتدخل تدخلاً فورياً .. وإنما هو ينتظر حتى تصل الأحداث إلى حد ؛ يقوم معه الدليل القاطع على كوْن أحد الفريقين على الحق وكوْن الأخرى على الباطل .. وحين يأتي هذا الحد ، يتدخل الله في الأمر ويحسمه بدون تأخيرٍ ولا مزيد إمهالٍ .

وتلك هي سنة الله .. وينبغي للمرء أن يوطّن نفسه على قبول هذه السنة الإلهية كما هي .. إذْ لا يمكن أي شيءٍ آخر سواها في هذا الكون .. وكل طريق لا يتفق وهذه السنة يقود إلى الموت وليس إلى الحياة!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

وَالصَّابِئِينَ : عبدة الملائكة أو الكواكب .

ذكرت هذه الآية ست طوائف دينية :

- المسلمين (وهم الذين آمنوا برسالة النبي العربي ﷺ) .

- اليهود (المنتسبين إلى سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام) .

- الصابئة (وهم قوم كانوا يؤمنون - على حد بعض الأقوال الواردة فيهم - بسيدنا يحيى - عليه الصلاة والسلام) .

- النصارى (وهم المنتسبون إلى ملة عيسى عليه السلام) .

- المجوس (وهم أتباع زرادشت) .

- ومشركي مكة (وهم الذين كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم - عليه السلام) .

وقد كان هؤلاء جميعاً موحِّدين في البداية .. ولكنهم لم يلبثوا أن أفسدوا دينهم ..

وهم الآن قائمون على هذا الدين الفاسد .. أما المسلمون فبالإمكان أن يصير حالهم مثل الطوائف الضالة الأخرى تماماً .. فإن المسلمين ، وإن كان كتابهم (القرآن) لا يزال محفوظاً ، ولكن ليس ثمة ما يمنعهم في عالم الامتحان هذا من أن يتخذوا ديناً مزعوماً بتأويل القرآن والسنة على هواهم ؛ ويحسبوا ، وهم متمسكون بدينهم المزعوم ذاك ، أنهم على دين الله!!

إن دين الله الحقيقي واحد لا غير .. إلا أنه يتحول إلى ألف دينٍ ودينٍ نتيجة التفسيرات البشرية .. ومن ثم فحين يكون الناس على دين الله الحق ، تزدهر بينهم الوحدة .. وأما إذا أخذ الناس في اتباع الدين المزعوم ، حل الشقاق محل الوحدة ، وثارت بينهم خلافات دينية شتى .. وهذه الخلافات لا تزال تتفاقم وتزداد حدةً وعمقاً إلى غير نهايةً ، ولا تكاد تعرف حداً تقف عنده .. بيْد أن الله - سبحانه وتعالى - يحيط علماً بأحوال كل شخصٍ ، وأخبار كل طائفةٍ .. وهو تعالى سيكشف القناع في يوم القيامة عمّن كان على الحق ومَنْ كان على الباطل !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾

يَسْجُدُ لَهُ : يخضع له وينقاد لإرادته تعالى.

حَقَّ عَلَيْهِ : ثبت ووجب عليه .

إن لله قانوناً سنّه لبقية الكون تماماً كما جعل الله قانوناً معيناً لبني الإنسان. وإن الكون كله يسير على قانون الله بمنتهى التوافق والانسجام ، وبدون أي اعتراضٍ ولا اختلافٍ .. إنما هو الإنسان وحده الذي يثير صنوف الاعتراضات والخلافات .. ويتبع

سبلاً جديدةً باختلاق تفسيرات مزعومةٍ شتى للقانون الإلهي .

وإنهم لمن أكابر المجرمين عند الله ؛ الذين يُحدثون الخلافات في دين الله .. فإنهم يريدون أن يعيشوا ((مختلفين)) في كون منسجمٍ ((غير مختلفٍ)) .. وهم مشغولون بوضع ((أديانٍ عديدةٍ)) في عالم يُلقنّ في كل أنحائه درس ((الدين الواحد)) على أوسع وأشمل نطاقٍ !

إن كون الله مظهر عملي لمرضاة الله .. والذين يسيرون على عكس هذا الأنموذج العملي الذي أقامه الله تعالى، فإنهم يبرهنون اليوم على استحقاقهم للعذاب الإلهي .. وإنما ستأتي القيامة لتعلن إعلاناً لفظياً عن تلك النتيجة التي يتم إعلانها العملي في العالم الراهن كل حينٍ وآنٍ !!

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾

خَصْمَانِ : المؤمنون وسائر الكفار .

الحَمِيمُ : الماء البالغ نهاية الحرارة .

يُصْهَرُ بِهِ : يذاب به .

مَّقَامِعُ : مطارق أو سياط .

إن الطوائف البشرية - حسب التقسيم الإجمالي - نوعان : أهل الحق ، ومعارضوهم. والذين يتخاصمون مع أهل الحق في العالم الراهن ، ربما يحسبون أنهم

يستندون على جبلٍ من الأدلة والبراهين .. غير أنه ليس إلا عدم جديتهم الذي يجعلهم ينظرون إلى جدالهم العقيم على أنه معارضة الدليل بالدليل .. وبما أنهم لا يريدون الاعتراف بالحق إطلاقاً، يثيرون حوله ضروباً من النزاعات الباطلة . وأمثال هؤلاء سيلقون في الآخرة عاقبة عَدم اعترافهم عذاباً شديداً لن يجدوا منه مهرباً إلى الأبد!

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾

صِرَاطِ الحَمِيدِ : الإسلام الذي ارتضاه لعباده .

إن التعرف على صدق الإيمان عمل صعب جداً ؛ ولا سيما في بيئةٍ تروج فيها بضاعة الألفاظ الخادعة والأفكار المموهة .. وحيث يتمتع بالغلبة والسيادة المنحرفون عن جادة الحق .. وأشد من ذلك صعوبةً أن تأخذ نفسك عملياً باتباع طريق الإيمان هذا .. إنهم أناس كُتب لهم التوفيق لتلقي ((القول الطيب)) وسط ضجيج من الأقوال الصاخبة .. والذين وقعت أبصارهم على ((صراط الحميد)) في خضم السبل الملتوية الكثيرة فعرفوه .. وإن الذين يقيمون الدليل على هذه الكفاية العظيمة في هذا العالم ، هم أثمن وأغلى أفراد البشرية .. وهم جديرون حقاً بأن يتم إسكانهم في الجنان الأبدية !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ : مكة (الحرم) .

العَاكِفُ فِيهِ : المقيم فيه الملازم له .

وَالْبَادِ : الطارئ غير المقيم .

بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ : بميل عن الحق .

إن أحد الأمثلة على إنكار الحق هو الذي شهدته مكة القديمة إبان فجر الدعوة الإسلامية .. حيث لم يتحمل أهلها حتى أن يقوم رسول الله ﷺ بالدعوة والتبليغ بطريقةٍ سلميةٍ للغاية .. وفرضوا عليه قيوداً شتى وضيقوا عليه الخناق .. وجعلوا منه ومن أصحابه - عليه الصلاة والسلام - عرضةً للظلم والعدوان بغير حقٍ .. وأوغلوا في الظلم إلى حد أنهم منعوه وأصحابه عن دخول المسجد الحرام!!

وسلوك أهل مكة هذا كان إضافة الطغيان إلى جانب الإنكار .. وأمثال هؤلاء الطغاة الظالمين ينتظرهم عند الله عذاب شديد ؛ سواء أكانوا ظالمي الماضي أو الحاضر ، وسواء أكان طغيانهم يتصل بالمسجد الذي بناه سيدنا إبراهيم أو بذلك "المسجد الفسيح" الذي أنشأه الله في صورة الأرض لعباده أجمعين!

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾

بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ : وطأنا . أو بينا له .

أمر الله تعالى سيدنا إبراهيم أن يذهب إلى منطقة الحجاز غير المأهولة ، ويسكن ذريته هناك. وقد كان الغرض من هذا الإسكان في منطقةٍ نائيةٍ غير مأهولةٍ ، أن ينشأ جيل جديدٍ في مناخٍ فطري بسيطٍ بعيداً عن آثار الشرك والوثنية .

وتبعاً لهذه الخطة الإلهية أسكن سيدنا إبراهيم ذريته في مكة التي كانت غير مأهولةٍ بالمرة حينذاك .. كما قام سيدنا إبراهيم - إلى جانب ذلك - ببناء مسجدٍ وهو الكعبة ، ليكون لهذا الجيل الجديد - وبالتالي للعالم أجمع - مركزاً لعبادة الله الواحد الأحد!!

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

وَأَذِّن فِي النَّاسِ : ناد فيهم وأعلمهم .

رِجَالاً : مشاة على أرجلهم .

ضَامِرٍ :بعير مهزول من بعد الشقة .

فَجٍّ عَمِيقٍ : طريق بعيد .

بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ :الإبل والبقر والضأن والمعز .

لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ : ثم ليزيلوا بالتحلل أوساخهم أو ثم ليؤدوا مناسكهم .

لقد كان الغرض من بناء الكعبة أن تكون مركزاً لعبادة الله الواحد للعالم أجمع .. وقد تحقق هذا الغرض على أكمل وجهٍ .. وإن المناسك التي يؤديها الحاج هنا ، تم بيانها في القرآن الكريم بإيجازٍ وفي السنة النبوية بكل دقةٍ وتفصيلٍ .

ومعنى قوله :﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ ﴾ أن يشاهدوا هناك فوائد الدين بالفعل ، تلك التي يسلمون بها كعقيدةٍ.. فإن الأماكن التي يزورها الحاج يرتبط بها تاريخ مجيد لدين

الله .. ومن ثم تتسبب زيارتها في إلانة قلوب الزائرين وإرهاف مشاعرهم .. ويجتمع المسلمون هناك من أقطار العالم كافة ، وهكذا يتجلى للعيون ظاهراً ما يتمتع به الإسلام من امتدادٍ ونفوذٍ دولي .

واجتماع الحج السنوي يكون باعثاً على إيجاد الوحدة وتمتين روابط الإخاء والتآلف بين المسلمين على المستوى العالمي .. كما يكتسب المرء خلال رحلة الحج هذه تجارب دينيةً ودنيويةً كثيرةً ، وهي بدورها تكون خير مِعوانٍ له على بناء الحياة .. وما إلى ذلك من المعاني السامية والفوائد الجليلة التي لا يتسع المقام لحصرها هنا!

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾

حُرُمَاتِ اللهِ : تكاليفه من مناسك الحج وغيرها .

الرِّجْسَ : القذر والنجس وهو الأوثان.

قَوْلَ الزُّورِ : قول الباطل والكذب القبيح .

ما هو الحلال وما الحرام ؟ وأي شيءٍ يستحق التقديس ، وأي شيءٍ لا يستحق التقديس ؟ ، وما الطرق الصحيحة للعبادة ، وما الطرق الخاطئة؟ كل ذلك مما بيّنه الله - سبحانه وتعالى - على ألسنة أنبيائه ورسله بوضوحٍ تامٍ .. ولا يجوز تناوله بأي نوعٍ من التغيير أو التعديل .. وكل تعديلٍ يتم إدخاله على هذه الأمور بناءً على الأهواء والآراء البشرية ، يُعتبر عند الله كذباً ، بل هو الكذب الأعظم .. إذن فيجب على الإنسان أن يقف في هذا الخصوص عند تعاليم الأنبياء ويتمسك بها حرفياً، ولا يزيد فيها أو ينقص منها شيئاً على أية حالٍ.

إنها أمور لا يعرف حقيقتها إلا الله سبحانه وتعالى .. وحين يقول المرء عنها شيئاً من

عند نفسه ، فإنه يدّعي العلم بشيءٍ لا علم له به إطلاقاً .. ومن الظاهر - والحالة هذه - أن هذا كذب ، بل هو كذب ليس بعده من كذبٍ أعظم منه!

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

حُنَفَاءَ لله: مائلين عن الباطل إلى الدين الحق .

تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ : تسقطه وتقذفه .

مَكَانٍ سَحِيقٍ : موضع بعيد مهلك .

إن القوة المركزية في هذا الكون واحدة لا غير .. ألا وهي ذات الله الواحد الأحد الفرد الصمد .. فمن ربَط نفسه بالله ، فقد حصل على مستقرٍ حقيقي له ، وارتكز على أرضيةٍ صلبةٍ .. وعلى نقيضٍ من ذلك فمن لم يربط نفسه بالله ، أو هو يقر بوجود الله بمحض لسانه ، بينما يقيم علاقته القلبية بأحدٍ سواه ، فكأنه مقطوع الصلة بالمركز الذي ليس ثمة مركز آخر عداه لهذا الكون .. ومثل هذا الشخص كمثل الذي صوّرته هذه الآية الكريمة أبلغ تصويرٍ!

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾

شَعَائِرَ اللهِ : الأنعام المهداة للبيت المعظم .

مَحِلُّهَا : وجوب نحرها .

إِلَى البَيْتِ العَتِيقِ : منهية إلى أرض الحرم كله .

كلمة ((الشعيرة)) تعني : العلامة (Symbol) .وإن العبادات التي شرعها

الإسلام لها جانبان : ظاهري وباطني .. أما الجانب الباطني فهو أصل العبادة وجوهرها .. وأما الجانب الظاهري فهو علامة (شعيرة) على الجانب الباطني .. والشعائر التي قررها الله - سبحانه وتعالى- ولا نستطيع الوفاء بحقها بأن نعظمها تعظيماً شكلياً ظاهرياً فقط ، بل لابد لتأدية حقّها من تقوى القلوب ..

ومن شعائر الله حيوانات الهدْي والنذور .. وهي بدورها تمثل علامةً على حقيقةٍ ، وليست حقيقة في حد ذاتها.. وليس مما يسر الله ويقع عنده موقع الرضا أن نصبغ هذه الأضاحي والهدايا بفاقع الألوان ، أو نتجنب الركوب على ظهورها ، ولا ننتفع بها أية فائدةٍ.. وإنما يكمن رضا الله - سبحانه وتعالى - في ألا نعمل عملاً ما إلا خالصاً لوجهه الكريم .. فإن العبرة عند الله بالحالة القلبية ، وليس بالحالة الشكلية الظاهرية!

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

مَنسَكاً : نسكا وعبادة (الذبح قربة لله) .

وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ : المطمئنين إلى الله أو المتواضعين له .

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ : خافت هيبة وإجلالا منه تعالى .

هناك نفسيتان تتولّدان في داخل المرء إزاء ما يحصل عليه في هذا العالم من المنتوجات؛ زراعيةً كانت أو حيوانيةً أو صناعيةً .. أولاهما : هي أنها نتيجة كدْحي أنا ، أو أنها بركة الآلهة والمعبودات .. وهذه نفسية وثنية مشركة تماماً .

أما النفسية الثانية : فهي أن يعتبر المرء كل ما يحصل عليه هبةً من الله .. وتمثل الزكاة والعشر والتضحية أساليب محددة للتعبير الخراجي عن هذه العاطفة الداخلية .. حيث

ينذر المرء جزءاً مما كسبه في سبيل الله ، فيقر بذلك إقراراً عملياً بأن كل ما يتوفر لديه إنما هو من عطايا الله ، وليس نتاج كدْحه هو .

ولو أن الإنسان عرف ربه حق المعرفة ، لطرأت على قلبه بعدئذٍ تلك الحالة التي أطلق عليها هنا «الإخبات» ، فمثل هذا الشخص يتوجه بكيانه كله إلى الله ، وتغمره كيفية العجز والتواضع والخشوع .. ويرتعد فؤاده بتصور جلال الله وعظمته .. وهو يأخذ ينظر إلى كل شيءٍ على أنه ملك الله ، وليس ملكه الذاتي!!

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وَالْبُدْنَ : الإبل . أو هي البقر المهداة للبيت .

شَعَائِرِ اللهِ : أعلام شريعته في الحج.

صَوَافَّ : قائمات صففن أيديهن .

وَجَبَتْ جُنُوبُهَا : سقطت على الأرض بعد النحر .

وَأَطْعِمُوا القَانِعَ : السائل .

وَالْمُعْتَرَّ : الذي يتعرض لكم دون سؤال.

لو لم تكن هناك البهائم والأنْعام كالإبل وغيرها على الأرض .. وإنما وُجدت الأسود والدببة والذئاب وحدها ، لواجه الإنسان صعوبةً كبيرةً في تسخيرها واستخدامها .. وإن هذه لمنة من الله عظيمة أنه لم يخلق الوحوش والسباع المفترسة

فحسب ، بل خلق - إلى جانب ذلك - حيواناتٍ تنقاد لإرادة الإنسان وتمكنه من نفسها بصورةٍ جبليةٍ .. وحين يقوم الإنسان بذبحها للغذاء أو التضحية ، تبلغ طبيعة الانقياد المودعة في فطرتها إلى أقصى الحدود!

وإن الله - سبحانه وتعالى - لم يشرع التضحية لكونه في حاجةٍ إلى اللحم والدم إذْ أن التضحية ليست سوى عملٍ رمزيٍ .. والتضحية بالحيوان صورة ظاهرية للإنسان الذي يكون قد ذبح نفسه لله .. إنها في الحقيقة ((ذبيحة النفس)) التي تتجسد في ((ذبيحة الحيوان)) .. والسعداء هم الذين تصير التضحية بالحيوان عندهم بمثابة التضحية بالنفس!!

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

خَوَّانٍ كَفُورٍ :خائن الأمانات جاحد النعم .

صَوَامِعُ :معابد رهبان النصارى.

وَبِيَعٌ : كنائس النصارى.

وَصَلَوَاتٌ : كنائس اليهود .

وَمَسَاجِدُ : للمسلمين .

إن عبداً من عباد الله ، أو حزباً من الأحزاب إذْ يتبع سبيل الله ، فلا يعود وحيداً في

هذه الدنيا ؛ فحين يتخذ الغافلون والطغاة منهم عرضةً لظلمهم وعدوانهم يقف الله إلى جانبهم ..والله - سبحانه وتعالى - يمتحن أول الأمر المؤمنين بل ويمحص قلوبهم ..والذين يقيمون الدليل على إخلاصهم عبر هذا الامتحان ينصرهم الله حتماً ، ويخلق لهم ظروفاً تمكنهم من الثبات على جادة الحق والوفاء بمقتضياته رغم كل العوائق والصعوبات .

وإن إقدام أهل الإيمان الحقيقي هو الدعوة ليس غير .. فهم يبدؤون نشاطهم بالدعوة ، ولا يزالون قائمين بالدعوة وحدها على طول الخط .. وقد يقومون تارةً بالحرب كذلك عند الضرورة ، ولكن حربهم تكون دوماً للدفاع دون الاعتداء .

ولو أن طائفةً ما ظلت قابضةً على زمام الحكم والسلطة لمدةٍ من الزمن طويلةٍ ، أصابها البطر والطغيان والغرور.. ولذلك سن الله - سبحانه وتعالى - قانون ((الدفع)) في هذا العالم .. حيث إنه تعالى لا يزال ينحي طائفةً عن مركز السلطة بيد طائفةٍ أخرى حيناً بعد حينٍ ، وهكذا يبقى التوازن السياسي مستمراً عبر الأجيال .. ولو لم يفعل الله ذلك لاشتد عناد الناس وبلغ طغيانهم حداً لن تسلم معه من أيديهم المشغولة بالهدم والتخريب حتى المؤسسات المقدسة كدور العبادة !!

وهناك أسلوبان لهذا الدفع .. أولهما : أن يتم القضاء على هيمنة طائفةٍ ما بصورةٍ مطلقةٍ .. وأحد الأمثلة لذلك بريطانيا ؛ التي قُضي على ما كان لها من هيمنةٍ ونفوذٍ واسعين بواسطة حركات الاستقلال الوطني .

والأسلوب الثاني : هو الذي رأينا مثالاً له خلال الحرب الباردة بين الكتلة الشيوعية (المتمثلة في الاتحاد السوفيتي) والكتلة الرأسمالية الإمبريالية (المتمثلة في الولايات المتحدة) ، وهو يتلخص في الحدّ من طغيان قوةٍ بأخرى حفاظاً على التوازن في ساحة السياسة الدولية!

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾

الشرط الأساسي لاستحقاق نصرة الله هو أن يكون الإنسان بحيث إذا حصل على السلطة لم يبطر .. وإذا نال الرفعة والكبرياء لم يزده ذلك إلا شعوراً بالعجز والتواضع .. والذين يقيمون الدليل على صلاحهم هذا في أحوال ما قبل الحصول على السلطة ؛ أولئك وحدهم يمكن أن يظلوا صالحين مستقيمين في أحوال ما بعد الحصول على السلطة كذلك .. وهؤلاء هم الذين إذْ يتم تمكينهم من السلطة، يخضعون لله ، ويقومون بتأدية حقوق العباد خير قيامٍ .. ويتصرفون في كل شأنٍ من شئون الحياة بحسب ما يرضاه الله ، ويتجنبون كل ما لا يرضاه الله من قولٍ وفعلٍ !

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾

وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ : قوم شعيب عليه السلام.

فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ : أمهلتهم وأخرت عقوبتهم.

كَانَ نَكِيرِ : إنكاري عليهم بإهلاكهم .

المراد بالذين ((كذبوا إبراهيم وموسى وغيرهما من الأنبياء)) هم معاصروهم ، وليس الذين كانوا في عصر نزول القرآن ؛ فإن كل الناس في ذلك العصر كانوا يدّعون الإيمان بأولئكم الأنبياء الكرام - عليهم صلوات الله وسلامه .

وتلك هي قصة جميع الأنبياء والمرسلين .. حيث كذبهم معاصروهم ، بينما رفعهم

اللاحقون إلى مقام العظمة والجلال والقدسية .

ومن هذا ندرك مَنْ هم المؤمنون بالرسول حقاً .. إن المؤمنين بالرسول في الحقيقة هم الذين يتعرفون على ((رسول الدعوة)) .. وأما الذين يتعرفون على ((رسول المجد)) وحده ، فإنهم مؤمنون بالتاريخ وليسوا حقيقةً مؤمنين برسول الله !

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾

فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ : فكثير من القرى .

خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا : ساقطة حيطانها على سقوفها االمتهدمة .

وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ : مرفوع البنيان خال من سكانه.

المُبصرون عند الله هم الذين ينظرون إلى الأشياء بعين التذكر والاعتبار.. أما الذين يشاهدون الوقائع ولا يتعظون بها ؛ فإنهم عند الله عميان .. ورؤيتهم رؤية الحيوان ، وليست رؤية الإنسان .

ولقد بثّ الله - سبحانه وتعالى - عبراً لا تحصى فوق الأرض .. منها المآثر والتذكارات القديمة التي خلّفتها الأمم الغابرة في هذه الدنيا .. وقد كانت تلك الأمم على ذروةٍ سامقةٍ من المجد والسلطان في يومٍ من الأيام .. ولكن لم تعد هناك علامة على وجودها اليوم سوى هذه الأطلال والخرائب المحطّمة!!

وهذه الواقعة تذكر كل إنسانٍ بمصيره المحتوم .. ولكن الناس إذا فقدوا ((عين القلب)) فإن ((عين الرأس)) لا تعود تُريهم شيئاً معبِراً ذا معنىً!.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾

أَمْلَيْتُ لَهَا : أمهلتها.

إن شخصاً أو أمةً ما لابد وأن تتعرض لمؤاخذة الله إذا هي عتت عن أمره تعالى وتمردت عليه .. غير أن الله لا يعجل بالمؤاخذة أبداً .. وقد يمكن أن يعود الإنسان فارغ الصبر في يومٍ واحدٍ ، ولكن الله تعالى لا يستنفذ حلمه وصبَره .. حيث إنه تعالى يرى الناس يقترفون شتى الآثام والذنوب وينتهكون محارمه ، ثم هو يُمهلهم - مع ذلك - لمدةٍ من الزمن طويلةٍ ؛ لكي يقوموا بإصلاح أنفسهم إن أرادوا الإصلاح .. وإن الله لا يؤاخذ فرداً أو شعباً ما إلا إذا هو أقام الدليل على إجرامه بصورةٍ قاطعةٍ .. وقد عامل الله السابقين هذه المعاملة .. وسوف يعامل الله اللاحقين بدورهم وفق سنته هذه!

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾

مُعَاجِزِينَ : ظانين أنهم يعجزوننا ويفوتوننا .

إن قضية الإنسان المصيرية هي أنه سيصل بعد الموت إلى عالمٍ حيث يُتاح للمؤمنين الصالحين راحة أبديّة ونعيم مقيم .. وللذين رفضوا الحق ووقفوا إزاءه موقف العناد والطغيان عذاب النار الأبدية .

وإن إنذار الناس بهذا اليوم القادم هو هدف الدعوة الإسلامية الحقيقي .. وطبيعة

العمل هذه توضح أن الواجب الرئيسي الملقى على عاتق الداعي ينحصر في الإعلام والإنذار وحسب.. وأما ما وراء ذلك فمرجعه إلى الله ، وهو وحده يقدر على البت في الأمر وتحديد مصيره النهائي ، كما يشاء !

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

تَمَنَّى : قرأ الآيات المنزلة عليه .

أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ : ألقى في قلوب أوليائه الشبهة فيما يقرأه للفتنة .

فَتُخْبِتَ لَهُ : فتطمئن وتسكن للقرآن .

إن الداعي إلى الحق ، سواء أكان نبياً أم غير نبي ، يحدث معه دائماً أنه حين يقوم بإعلان أمر الله ، يتلمس المعاندون ألواناً شتى من العيوب والمطاعن في كلامه لكي يشككوا بها الناس في صدقه .

ومثل هذه المطاعن تكون دوماً باطلةً لا تستند على أساسٍ من الصحة .. وهي حين تثار تسنح للداعي الفرصة لمزيد من البرهنة على أحقية كلامه بتسليط الضوء الكاشف على بطلانها.. مما يزيد المخلصين يقيناً إلى يقينهم .. وتصبح صلتهم بالله أقوى وآكد من ذي قبل.. وأما الذين تخلو قلوبهم من الإخلاص ، فإن هذه المطاعن تصير فتنةً لهم، فتبهرهم بطلائها وتُبعدهم عن الحق .. وقوله : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ

صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ يعني ، أن الجادّين بشأن الإيمان حق الجدية ، لا يتأثرون أبداً بالدعايات الكاذبة ، ولا ينخدعون بطلاسم الألفاظ البراقة .. حيث يصبح الإيمان بالنسبة إليهم علماً يسبرون معه أغوار كل أمرٍ ، ولا يدعهم يتعلقون بالقشور وظواهر الأمور !

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ ﴾

مِرْيَةٍ مِّنْهُ : شك وقلق من القرآن .

يَوْمٍ عَقِيمٍ : لا يوم بعده (يوم القيامة) .

ظل المشركون دوماً أسرى الشكوك والشبهات ؛ لأنهم يريدون رؤية الحق عبر الأمجاد الظاهرية ، وأما سنة الله فقد جرت بعرض الحق على الناس في صورةٍ مجردةٍ ، لكي يتعرف عليه وينضوي تحت رايته ذوو البصر العارفون بالحقيقة .. ويقيم السطحيون - الذين لا يرون غير المظاهر - الدليل على إجرامهم بتجاهله وإهماله .

و((تكذيب الآيات)) هو أن يتجاهل المرء الحق الذي يظهر على مستوى الدليل ..وألا يرضى بقبول الصدق يتجلى أمامه في صورته المجردة!

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾

مُّدْخَلاً : الجنة . أو درجات رفيعة .

إن المؤمن المخلص في إيمانه يستعدّ للتضحية بكل شيءٍ آخر عدا الإيمان .. فإنه لا يستعدّ للتضحية به على أية حالٍ .. فهو يترك وطنه فيما لو اضطُر إلى تركه في سبيل الإيمان.. ولا يبالي بأن يقع قتيلاً وهو يدافع عن الإيمان، وبالجملة فإنه يظل متمسكاً بالإيمان ، مربوطاً برباطه على مدى الحياة ، إلى أن يلفظ آخر أنفاسه !

والذين يقيمون الدليل في الحياة الدنيا على مثل هذا الإخلاص للإيمان والتفاني في سبيله وبذل النفس والنفيس من أجله ، فإن الله سيشكر لهم ويقدر عملهم بحيث يمنحهم أثمن أشياء الآخرة ، وهي الجنة ، التي سيعيشون فيها خالدين حياةً سعيدةً هانئةً إلى الأبد!

﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ : ظلم بمعاودة العقاب .

إن أهل الإيمان كانوا قد أمروا بأن يتخذوا منهج الله الغفور الرحيم منهجاً لهم في الحياة .. فهو تعالى لا يزال يعفو ويصفح عن عباده رغم إساءتهم وبغيهم ، ومن ثم فقد كانت جماعة الصحابة الكرام - رضى الله عنهم أجمعين - متحليةً على العموم بهذه الأخلاق الرّبانية .. حيث كانوا يصبرون على الأذى والظلم يقع عليهم .. ويتجاوزون عن الشتائم والكلمات الاستفزازية توجّه إليهم .. على أن هناك مواقف عديدةً قام فيها بعض المسلمين بردّ العدوان بمثله بدافع الانتقام الفوري وسبّبوا بعض الخسائر لمن كبّدهم خسائر فادحةً في الأموال أو الأرواح .. وقد جعل الأعداء من هذا ذريعةً للدعاية المكثفة ضد المسلمين .. وقد نسي هؤلاء أو تناسوا أعمالهم العدوانية بالمرة ،

وباتوا يشوهون سمعة المسلمين بتضخيم مواقفهم العادية واعتبارها ظلماً وعدواناً !!

وسيلقى هؤلاء عاقبة ظلمهم عذاباً شديداً ، ولن تستطيع دعاياتهم الكاذبة كهذه أن تضر أهل الحق أو تنال منهم شيئاً !

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾

يُولِجُ : يدخل .

إن نظام الكون يلقّن الإنسان درساً عظيماً بلسان الصمت .. فيحدث هنا كل يوم أن الليل يغشى النهار بظلامه ، ثم يعقبه النهار المضيء فيقضي بدوره على ظلام الليل .. إنه إعلان كوني ، بلغة التمثيل ، عن هذه الحقيقة القائلة بأن طائفةً ما إن كانت تتمتع بمظاهر الأبهة والسلطان ، فينبغي لها ألا تغتر بأن سلطانها لن يزول أبداً .. وهكذا فإن كانت هناك طائفة ما مقهورةً ومظلومةً فليس لها أن تظن أنها هي الأخرى ستبقى مظلومة ومقهورةً بقاء الدهر .

فإن الله الذي يتحكم في عالم الأفلاك بتحويل النور إلى الظلام تارةً وإحلال الظلام محل النور تارةً أخرى، هو قادر على إحداث وقائع من هذا النوع في عالم البشر كذلك .. وليس ثمة قوة تحول دون فعل الله هذا ، فهو الفعال لما يريد .. وإذا أراد شيئاً أن يكون ، قال له: كن فيكون !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ ﴾

إن الله – سبحانه وتعالى – يعرض علينا مشهداً معبراً كل عامٍ ، وهو مشهد الأرض إذْ يصفر نباتها ويتهشّم لشدة حرارة الصيف ، وتبدو تربتها قاحلة مجدبة،كأنما لم يعد فيها أي إمكانٍ للحياة .. ثم يهطل المطر، فإذا بها تنتعش وتمتلئ نباتاً آخر وزهوراً وثماراً مختلفة الألوان والروائح والطعوم!!

إن هذا نموذج من قدرة الله يتم إظهاره على المستوى المادي كل سنةٍ .. إذن ، فهل يعجز الله أو يصعب عليه أن يظهر معجزةً مماثلةً على المستوى الإنساني كذلك؟ كلا !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

إن كل الأشياء فوق الأرض لا تزال محتفظةً بتوازنٍ خاص في داخلها بصورةٍ مستمرةٍ .. ولو اختل هذا التوازن لسببٍ من الأسباب لانقلبت الأشياء ضارةٍ بدلاً من أن تكون نافعةً .. وإذا نحن ألقينا بقطعةٍ من حديدٍ في إناءٍ مملوءٍ بالماء استقرت في قاع الإناء على الفور .. ولكن الله جعل الماء خاضعاً لقانونٍ خاصٍ ، وهو الذي يمكن السفن المتخذة من الحديد أو الخشب أن تطفو فوق الماء دون أن تغرق فيه .. وهناك كواكب ونجوم لا حصر لها تدور في الفضاء الفسيح ؛ ينبغي لها – على ما يبدو – أن تقع على الأرض .. ولكنها لا تزال معلقةً في الفضاء تتحرك في مداراتها المعينة وفق نظامٍ دقيقٍ خاصٍ .

وإن الإنسان لم يخلق نفسه بنفسه .. وإنما خلقه الله – سبحانه وتعالى – ثم أسكنه في عالم كله رحمة له.. ولكن الإنسان قد أصبح ، بسبب الحرية المتاحة له ، عنيداً وطاغياً لدرجة أنه لا يعترف بإحسان أكبر المحسنين إليه !!

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

مَنْسَكاً : شريعة خاصة أو نسكا أو عبادة .

للعبادة جانبان : أولهما : حقيقتها الداخلية .. والآخر : أسلوب أدائها الظاهري . أما الحقيقة الداخلية فهي جزء أصلي للعبادة .. وأما أسلوب الأداء الظاهري فهو جزء إضافي لها .. ولكن طائفةً ما حين تظل تمارسها مدةً طويلةً من الزمن بأسلوبٍ معينٍ ، يغيب عنها هذا الفارق الجوهري بين الجزأين .. حيث إنها تأخذ فى النظر إلى الممارسة الشكلية على أنها أصل العبادة .

وهذا هو الجمود عينه .. ومن ثم فقد جرت سنة الله بأن يُدخل نوعاً من التغيير على الشريعة (الأسلوب الشكلي) التي يبعث بها الرسول القادم .. ويكون الغرض من ذلك تحطيم جمود الناس ، وإخراجهم من حالة العبودية للمظاهر والشكليات وتربيتهم على العبادة الحية.. والآن فإن الذين يعتبرون الآداب والقواعد الشكلية هي كل شيءٍ ؛ يرفضون الطاعة للنبي الجديد .. وعلى نقيضٍ من ذلك فإن الذين يدركون حقيقة العبادة ؛ يبادرون إلى اتباع النبي والعمل بشريعته .. وهذا التغيير يبعث روحاً جديدةً في عبادتهم ، ويخرجهم من حالة الإيمان الجامد إلى حالة الإيمان الحي المتجدد!

وهذه هي الحكمة الخاصة من تنويع المناسك (أساليب العبادة) واختلافها بين نبيٍ وآخر.. وكلما جاء نبي بمنسكٍ جديدٍ ، بدأ الجامدون على القديم المألوف في إثارة زوبعةٍ من الاعتراضات ضده .. إلا أن الله قد أمر الأنبياء والرسل بأن يركزّوا كل

جهودهم على نشر التعاليم الأساسية والجوهرية وحدها ، ولا يسمحوا لمثل هذه الأمور الجانبية بالتحوّل إلى موضوع للجدل والنقاش العقيم !

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾

سُلْطَاناً : حجة وبرهانًا .

المُنكَرَ : الأمر المستقبح من العبوس والتجهم .

يَسْطُونَ : يثبون ويبطشون غيظا وغضبا .

إن الدعوة إلى التوحيد الخالص تكون دوماً أمراً لا يُحتمل لدى أولئك الذين يعبدون أنداداً آخرين غير الله الواحد ..ويتوجهون إليهم حباً واحتراماً وإجلالاً . فهؤلاء لا يكادون يسمعون نقداً يوجه إلى معبوداتهم وشخصياتهم المحببة ؛ حتى يشتعلوا غضباً .. وعجزهم عن مقاومة دعوة الحق بالدليل ، يملؤهم غيظاً وحنقاً على دعاة الحق ، لدرجة لا يلبثون معها أن يهاجموهم بغية القضاء عليهم .

وقد قيل لأمثال هؤلاء: إن موقفكم هذا موقف سخيف غير عاقل تماماً .. إنكم لا تطيقون اليوم صبراً على النقد اللفظي ، تُرى ، ماذا سيكون حالكم غداً إذ يُرمى بكم في نار الجحيم لقاء موقفكم هذا ؟ فهل تقدرون على احتمالها وتطيقون الصبر عليها ؟!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ

ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

مَا قَدَرُوا الله : ما عظموه ، أو ما عرفوه.

إن الذباب كائن تافه حقير للغاية .. ومع ذلك ليس في مقدور كل مَنْ في السموات والأرض أن يقوموا بإيجاد ذبابةٍ واحدةٍ .. إذن ، فكيف يجوز اعتبار أحد غير الله مقدساً؟!

والحق أن كل العقائد من هذا النوع نتاج تقدير بخسٍ لألوهية الله وجلاله .. فالناس رغم كونهم - مبدئياً - يؤمنون بالله ، إلا أنهم غير عارفين بعظمة الله وقدرته .. ولو أنهم آمنوا بالله كما ينبغي أن يؤمنوا به ، لبدت لهم عقائدهم تلك لغواً مثيراً للضحك والسخرية ، وبالتالي تخلّو عنها من تلقاء أنفسهم !

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

إن الخطة المعينة التي خلق الله الإنسان وأسكنه في الأرض بمقتضاها ، كانت تستوجب أن يهيئ الله أسباب هداية البشر ؛ فيدلهم على طريق الجنة ليسلكوه ، وعلى طريق النار ليجتنبوه .. ومن ثم جرت عادة الله - سبحانه وتعالى - بأن يختار من بين البشر رسلاً يبلغون عنه، وينزل عليهم كلامه بواسطة بعض ملائكته .

وعن طريق هذا التدبير يتم إبلاغ الإنسان بالحقيقة الأصلية من ناحيةٍ ، بينما يقوم الله تعالى بالمراقبة الدائمة على أعمال الناس من ناحيةٍ أخرى .. ثم يُرجع البشر عن آخرهم إلى خالقهم ومالكهم ، ليلقى الجميع عاقبة أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ .

هُوَ اجْتَبَاكُمْ : اختاركم لدينه وعبادته ونصرته .

حَرَجٍ : ضيق بتكليف يشق ويعسر .

هُوَ مَوْلاكُمْ :مالككم وناصركم ومتولِّي أموركم

الخطاب في هذه الآيات موجه أصلاً إلى صحابة الرسول ، وبالتبعية إلى سائر المؤمنين بالقرآن .. فقد اختار الله هذه الأمة لمهمة خاصةٍ ، وهي العمل على إبلاغ دين الله الحق إلى شعوب الأرض قاطبةً إلى يوم القيامة .. وقد قام الرسول - صلى الله عليه وسلم - بواجب الشهادة هذا بالنسبة لمعاصريه ، والمطلوب من أتباعه أن يقوموا بهذا الواجب بالنسبة إلى معاصريهم .

وإن هذا عمل خطير للغاية .. ولابد للقيام به من الجهاد والكفاح الدائب .. وإنه لن يُوفق لتأديته على الوجه الحقيقي المطلوب سوى أولئك الذين أصبحوا خاضعين لله حقاً .. والذين يشتد نصحهم للآخرين لدرجة يبذلون معها وقتهم وأموالهم في سبيل هدايتهم عن رضا وسرور .. والذين يضعون كل ثقتهم في الله الواحد الأحد دون أي شيءٍ آخر سواه .. وعلى الجملة هم أولئك الذين صاروا في الحقيقة مصداق وصف «المسلمين» الذي أُطلق عليهم بوجه خاص . على أن الله تعالى قد اختص عمل الشهادة هذا بعناية خاصةٍ .. حيث أزال من طريقه كل العوائق والعقبات الخارجية للأبد .. فالثورة التي تم تفجيرها على يد رسول الله ﷺ قضت ، وبصورة دائمة ، على

كل تلك العوائق التي كانت تواجه الأنبياء السابقين وأتباعهم .. فلم تعُد الآن أية عقبةٍ حقيقية تحول دون هذا العمل.. اللهم إلا أن يضع حاملو القرآن ، بسبب جهلهم أو سوء تدبيرهم ، بعض العراقيل المزعومة في طريقهم، ويحولوا بالتالي عملاً سهلاً إلى عمل صعب عسير التحقق على نحو مصطنع!

سورة المؤمنون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ ﴾

أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ : فازوا وسعدوا ونجوا .

خَاشِعُونَ :متذللون خائفون ساكنون .

اللَّغْوِ : ما لا يجمُل من القول والفعل .

العَادُونَ : المجاوزون الحلال إلى الحرام .

الفِرْدَوْسَ : أعلى الجنان وأوسطها وأفضلها.

لا نجاح في دنيا الله هذه إلا للمؤمن وحده .. الذي يكون موصول القلب بالله الواحد مقطوع الصلة بكل مَنْ عداه .. والذي تكون حياته الداخلية والخارجية قد انصهرت في بوتقة الإيمان .

وإن شخصاً إذْ يوفق للحصول على الإيمان ؛ فلا يكون ذلك أمراً يسيراً .. إنه يكون مرادفاً لتفجرّ ثورةٍ في حياته .. فهو يعود الآن عابداً لله خاضعاً لجلاله .. وتبلغ جديته

حداً يرى معه الاشتغال باللغو وإضاعة الوقت فيما لا طائل تحته مؤدياً إلى الهلاك في الدنيا والآخرة .. وهو يقتطع جزءاً مما يكسبه باسم الله ، ويبذله ابتغاء مرضاته تعالى في إعانة الفقراء والمحتاجين .. وهو يمتلك زمام رغباته الشهوانية ، فلا يشبعها إلا في إطار الحدود التي قررها الله سبحانه وتعالى .. وهو يمارس حياته في الدنيا كإنسانٍ مسئول ملتزمٍ ؛ فلا يخون أمانة الآخرين أبداً ، ولا يخلف عهداً إذا ما عاهد أحد الناس .

والذين يتحلّون بالأوصاف الجليلة ، هم عباد الله المطلوبون .. وهؤلاء هم الذين هيأ الله لهم عالم الفردوس الأعلى .. وسيدخلون بعد الموت في أجوائه العطرة ، ليتمتعوا بالنعيم الأبدي والسعادة السرمدية!

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

سُلالَةٍ : خلاصة (مائية مكونة من الغذاء) .

قَرَارٍ مَّكِينٍ : مستقر متمكن وهو الرحم .

عَلَقَةً : دما متجمداً.

مُضْغَةً : قطعة لحم قدر ما يمضغ .

خَلْقاً آخَرَ : مباينا للأول بنفخ الروح فيه .

فَتَبَارَكَ الله : فتعالى ، أو تكاثر خيره وإحسانه .

أَحْسَنُ الخَالِقِينَ :أتقن الصانعين، أو المصورين .

ينشأ طفل الإنسان في بطن أمه .. ولقد كانت فترة ما بين حصول الحمل وحتى الولادة ، وكل ما يجري خلالها سراً مكتوماً في الزمان القديم .. وإنما استطاع الإنسان أخيراً، في القرن العشرين ، أن يتوصل إلى معلوماتٍ مباشرةٍ فيما يتعلق بنشأة الجنين ونموه داخل البطن عبر المشاهدة بواسطة الآلات العلمية المخترعة حديثاً .

ومما يدعو إلى الدهشة والإكبار أن مراحل خلق الإنسان التطورية أو التدريجية التي قررها القرآن قبل الأربعة عشر قرناً ، جاءت مطابقةً تماماً للمشاهدة الآلية في العصر الحديث.. وهذا دليل ناطق بأن القرآن كتاب الله .. ولولا ذلك لم يكن ممكناً أن يُوجد ثمة هذا التوافق التام بين تصريح القرآن الكريم والكشوف الحديثة .

وواقع الخلق هذا ، الذي يحدث في بطن الأم كل اليوم ، يدل على أن خالق هذا العالم يتصف بمنتهى الكمال.. وواقعة خلق الإنسان الأول المذهلة ، التي نشهدها بأعيننا كل يومٍ ، كافية في ذاتها للإقناع بما لا يدع مجالاً للشك ، بأن واقعة الخلق الثاني هي الأخرى ستحدث كذلك ، وأنها ستكون مطابقةً تماماً لما أخبر به الأنبياء والمرسلون الصادقون !

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

سَبْعَ طَرَائِقَ : سبع سموات طباقا أو طرقا للملائكة أو للكواكب في مسيرها .

بِقَدَرٍ : بمقدار الحاجة والمصلحة .

وَشَجَرَةً :هي شجرة الزيتون .

بِالدُّهْنِ : ملتبسا ثمرها بالزيت .

وَصِبْغٍ : إدام لهم يغمس فيه الخبز .

الأَنْعَامِ : الإبل والبقر والضأن والمعز .

لَعِبْرَةً : لعظة وآية على القدرة والرحمة

وَعَلَيْهَا : وعلى الإبل منها .

الإنسان كائن حقير بالمقارنة مع هذا الكون الفسيح الذي يبلغ من العظمة والاتساع وترامي الأطراف درجةً تبعث على الحيرة والذهول .. وأكثر جوانب هذا الكون إثارةً للدهشة هو أنه ملائم لحياة الإنسان إلى أقصى الحدود!

والمطر لو بدأ يهطل بغزارةٍ مفرطةٍ ، لهلك كل الناس غرقاً ، ولكن المطر بدوره له حد معيّن لا يتجاوزه .

والمخزونات المائية التي تتوافر على الأرض يمكن أن تذهب كلها في أغوارها ، أو تتحول إلى البخار وتتلاشى في الفضاء اللامتناهي ، غير أن هذا لا يحدث أبداً . وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الأرض - التي نعيش على ظهرها - هي كوكب استثنائي، بحيث يبدو وكأنما أوجده الخالق آخذاً في الاعتبار كل حاجات الإنسان الحياتية بصفةٍ خاصةٍ.. ومن ثم يتوافر هنا كل شيءٍ يحتاج إليه الإنسان، ابتداءً بالمواد الغذائية ، وانتهاءً بالمتطلبات الصناعية .. وحيوانات الأرض مع كونها في الظاهر مخلوقات وحشية، إلا أن الله تعالى قد جعلها مفيدةً للإنسان بشتى الوجوه .. فمنها حيوانات - مثلاً - بطونها مصنع عجيب يأخذ العشب والعلف الرخيص ويحوّلها إلى أشياء ثمينة كالحليب

واللحم.. و منها أخرى تنقاد للإنسان وتمكنه من نفسها بسهولةٍ لكي يركبها ويستخدمها في أغراضه الأخرى .

وهذه الواقعات تفرض على الإنسان أن يعرف ربّه الكريم المحسن ، ويعيش عبداً شاكراً له على الدوام!

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

المَلأُ : وجوه القوم وسادتهم .

يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ : يترأس ويشرف عليكم .

بِهِ جِنَّةٌ : به جنون أو جنٌّ يخبلونه .

فَتَرَبَّصُوا بِهِ :انتظروا واصبروا عليه .

إن الأمة التي بُعث فيها سيدنا نوح عليه السلام لم تكن ((كافرةً)) بالمعنى المعروف .. بل هي كانت أمة آدم عليه السلام التي كانت مؤمنةً بالله وبالرسالة مبدئياً.. وأما سبب إبائها - مع ذلك - عن الإيمان برسالة نوحٍ ، فإنما يرجع إلى أن نوحاً عليه السلام بدا لها كواحدٍ من أفرادها ليس غير! يعدّونه رجلاً يدعى النبوة بدافع البروز والتفوق على أقرانه ، فلا يلبثون أن يعرضوا عنه باعتباره مصاباً بالجنون!!

وما من أمةٍ إلا قد توصل أمرها في عصرٍ لاحقٍ ؛ إلى أنها تخلت عن تعاليم الله الأصلية، وتمسكت - بدلاً من ذلك - بتقاليد أسلافها .. ولما جاء النبي لكي يعرض

تعاليم الدين من جديد في صورتها النقية الصافية ، بدا لها دين النبي وتقاليد السلف على طرفي نقيضٍ.. وظهر لها السلف - وفقاً لشاكلتها الفكرية - في القمة ، ونبي العصر في الحضيض.. وهذا هو السبب الأكبر في أن دعوة الأنبياء ظلت غريبةً عن معاصريهم على اختلاف العصور!

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۖ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

بِأَعْيُنِنَا : برعايتنا وكلاءتنا .

وَفَارَ التَّنُّورُ : نبع الماء من التنور المعروف .

فَاسْلُكْ فِيهَا : فأدخل في الفلك .

لقد استمر سيدنا نوح يدعو قومه إلى الحق مدةً طويلةً من الزمن .. إلا أن القوم مازالوا يأبون عن الإيمان بدعوته .. فلم يسع نوحاً آخر الأمر إلا أن دعا الله قائلاً : يارب ! إنني لم أتمكن ، رغم استفراغ مجهودي في سبيل الدعوة والتبليغ ، من استمالتهم لقبول الحق ، فالأمر الآن إليك ، وأنت وحدك قادر على أن تهديهم - إن شئت - إلى الحق .. ولكن عندما ينتهي العمل الإنساني إلى آخر حدوده ، وتبدأ دائرة العمل الإلهي، فإنه يكون أوان البطش والمؤاخذة ، وليس أوان الوعظ والتذكير .. ومن ثم فقد جاء أمر الله في صورة طوفانٍ عارمٍ لا يُقاوم .. وبالتالي هلك القوم عن بكرة أبيهم غرقاً ، ما عدا القلة القليلة التي آمنت بسيدنا نوحٍ - عليه الصلاة والسلام .

إن عدم الاعتراف بأمر الحق هو الظلم الأكبر .. والذين يرتكبون هذا الظلم يتعرضون حتماً لبطش الله عاجلاً أو آجلاً .. وليس هناك شيء آخر - غير الإيمان بالحق

- من شأنه أن ينقذهم من هذا البطش الإلهي !

﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

مُنزَلاً : إنزالا . أو مكان إنزال .

لَمُبْتَلِينَ : لمختبرين عبادنا بهذه الآيات .

إن الأفراد القلائل الذين آمنوا بسيدنا نوحٍ كانوا قد دخلوا فور إيمانهم إلى سفينة الله من الناحية المعنوية .. وأما حين ركبوا في السفينة المتخذة من ألواح الخشب ، عند مجيء الطوفان ، فإنما كان ذلك بمثابة تنفيذٍ فعلي لقرارهم البدائي .. لقد انتشل هؤلاء أنفسهم من طوفان الشر فكرياً ؛ فأنقذهم الله بالتالي من سوء عاقبة الشر عملياً .

المؤمن يعدّ كل نجاحٍ هبةً من الله .. ولذلك فهو يتقدم بالشكر إلى الله على كل نجاحٍ يُتاح له .. أما النجاة من طوفان نوحٍ ، فكانت واقعة النصرة الإلهية في أجلى مظاهرها .. والكلمات التي تجري على لسان المؤمن في مناسبةٍ كهذه ، هي التي سجّلتها الآية المذكورة .. حيث إنه يأخذ في التماس المزيد من عنايات الله للمستقبل ؛ معترفاً بقدرته، شاكراً لما أسدى إليه من فضلٍ ونعمةٍ في الحال .. ذلك لأنه يكون على يقينٍ من أن الحال والمستقبل كليهما بيد الله وحده .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ

مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾

قَرْناً آخَرِينَ : هم عاد الأولى قوم هود .

وَأَتْرَفْنَاهُمْ : نعمناهم ووسعنا عليهم فبطروا .

في أعقاب الطوفان بدأ نسل المؤمنين بنوحٍ عليه السلام بالتكاثر .. وتوالت عليهم قرون طويلة ، إلى أن أصيبوا من جديدٍ بالفساد والضلال نفسه الذي كان قد أصيب به سابقوهم .. وربما يكون المراد بـ ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ هنا هم الذين يقال لهم ((عاد)) .. وقد بات هؤلاء مشغولين بعبادة الآلهة الباطلة غير الله الواحد الأحد .. فبعث الله إليهم مرةً أخرى رسولاً يبلغهم دعوة الحق .

ولم يكن بدعاً أن تصدى رؤساء القوم لمعارضة الرسول، كما حدث مع غيره من الأنبياء والرسل من قبل .. وقد كان هؤلاء الرؤساء أناساً يمتلكون زمام قيادة الشعب انسياقاً مع اتجاهات العصر الفكرية السائدة .. وكانوا متمتعين بالرخاء المادي . والذين يُتاح لهم الثراء والسلطة ، غالباً ما ينظرون إليهما على أنهما يقومان دليلاً على كونهم على الحق ، ولم ينج هؤلاء الرؤساء بدورهم من هذه العقدة .. حيث وقف ثراؤهم وسلطتهم حجر عثرةٍ دون إدراك أنهم يمكن أن يكونوا خاطئين!!

فقد رأوا الرسول لا يملك ثروةً طائلةً ، ولا يشغل منصب السلطة ، فاعتبروه حقيراً ضئيل الشأن.. وقد حالت عبوديتهم للمظاهر دون رؤيتهم لعظمة الرسول المعنية!!

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ .

هَيْهَاتَ : بعد وقوع ذلك الموعود .

الكلمات المنقولة هنا عن الآخرة تُقال تارةً بلسان الحال ، وطوراً بلسان المقال .. فقد يحدث حيناً أن المرء يكون بكليته مشغولاً بالدنيا وللدنيا وحدها، ويبدو غافلاً عن الآخرة كما لو أنها كانت عنده أمراً مستبعداً خارجاً عن القياس إطلاقاً .. وقد يحدث حيناً آخر أن غفلته عن الآخرة وطغيانه يبلغان به حداً لا يتحرج معه حتى من التصريح بلسانه بأن الآخرة شيء أبعد ما يكون عن القياس ، وهيهات هيهات أن يقع بالفعل .. ولذا فينبغي أن نسعى للحصول على ما هو متاح لنا اليوم .. دون أن نضيع فائدة اليوم الأكيدة من أجل فائدة الغد الوهمية!!

وقولهم : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ هو الآخر يُفسر على وجهين: فإما أن يؤدي المرء بلسانه هذه الجملة.. وإما أن يقابل داعية الحق بالإهمال واللامبالاة كما لو أن كلامه هراء مخبولٍ ؛ لا علاقة له بالله البتة!

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ : صيحة جبريل أو العذاب المصطلم .

فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً : هالكين كغثاء السيل (حميله) .

فَبُعْداً : هلاكا .. أو بعداً من الرحمة .

الشيء الذي يأتي رسول الله لإعلام البشر به ، هو أكبر حقيقةٍ وأشدها خطورةً في هذا الكون .. على أن الرسول إنما يعرض هذه الحقيقة في صورة الدليل وحده .. والمؤمنون حقاً ، هم الذين يتعرفون عليها عبر الدليل ، ويسلمون أنفسهم لها .

وحين تثبت طائفة ما ، بشكلٍ قاطعٍ ، أنها لا تمتلك الاستعداد للتعرف على الحقيقة عبر الدليل المصاحب لها ، فيظهر الله الحقيقة بعدئذٍ في صورة ((الصيحة)) .. حيث تتحول الحقيقة إلى هديرٍ مروّع لا يقدر أحد على مواجهته .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قُرُوناً آخَرِينَ : أمما أخرى .

تَتْرَا : متتابعين على فترات.

وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ : مجرد أخبار للتعجب والتلهي .

ما زالت أمم الأنبياء تُصاب بالفساد والانحلال على أعقابهم ؛ كما قد ظل الأنبياء والمرسلون يُبعثون تباعاً ، الواحد تلو الآخر ، لإصلاحها .. فجاء سيدنا نوح إلى أمة آدم .. وأرسل بعد ذلك سيدنا هود إلى أمة نوح (وهي قوم عاد) .. ثم بُعث سيدنا صالح في أمة هود (وهي قوم ثمود) .. وهكذا .. ولكن الذي حدث دائماً هو أن الذين كانوا يؤمنون بنبي الماضي بلا جدالٍ ؛ أبوا عن الإيمان بنبي الحال!

وقوله : ﴿ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، يعني: بعداً وهلاكاً للذين لا يكادون يتعرفون على سفير الله من حيث هو سفير الله ، وإنما يتعرفون على سفير الله إذا هو صار بطلهم القومي نتيجة العمل التاريخي!!

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا

عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ : برهان بَيِّنٍ مظهر للحق .

قَوْماً عَالِينَ : متكبرين أو متطاولين بالظلم .

لقد شكل وضع بني إسرائيل - وهو أنهم كانوا عبيداً للمصريين وخدماً - عائقاً لفرعون وأصحابه الذين كانوا إزاءهم في موقع الغالب المتفوق .. وبالتالي أبوْا عن التسليم بنبي من بني إسرائيل بوصفه ممثلاً لله .. ومع أن سيدنا موسى قدّم إليهم أدلةً محكمةً وبراهين ساطعةً جداً .. إلا أن ثقل الأدلة والبراهين لم يكد يُجبرهم على أن يغيروا ما بأنفسهم من غرورٍ وكبرياء ، ويعترفوا بصدقٍ جاءهم به رجل ينتمي إلى الشعب «المحكوم» المغلوب على أمره !!

وكانت نتيجة ذلك أن نصر الله - سبحانه وتعالى- نبيّه .. فأغرق فرعون مع كل قوته وجبروته.. وقد امتنّ الله على الذين ناصروا النبي ووقفوا إلى جانبه، امتن عليهم بأن أعطاهم كتاب هدايته؛ الذي يستطيع المرء،عن طريق العمل بتعاليمه،أن يضمن لنفسه النجاح والسعادة في الدنيا والآخرة !

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

وَآوَيْنَاهُمَا : صيرناهما وأوصلناهما .

إِلَى رَبْوَةٍ : إلى مكان مرتفع من البلاد .

وَمَعِينٍ : ماء جار ظاهر للعيون .

إن ولادة سيدنا المسيح عليه السلام من غير أبٍ كانت واقعةً عجيبةً خارقةً للعادة .. وماذا

كانت الحكمة من ذلك؟ إنما حدثت هذه الواقعة بوصفها «آيةً من آيات الله» لقد كان اليهود حاملي الرسالة الإلهية في قديم الزمان .. ولكنهم ، بسبب عنادهم الطويل، وطغيانهم المستمر ، فقدوا أهليتهم لهذا المنصب .. وكان الوقت قد حان أن تنتزع هذه الأمانة من أيديهم وتحُول إلى بني إسماعيل .. ولكي تقوم على اليهود حجة الله القاطعة ، وينقطع عذرهم ، خلق آخر أنبيائهم على وجهٍ معجزٍ .. كما أعطى لهذا النبي المزيد من الخوارق والمعجزات غير العادية .. ولما أصر اليهود - مع كل ذلك - على العناد والإنكار لسيدنا المسيح عليه السلام ثبت بذلك نهائياً أنهم لم يعودوا أهلاً لحمل الأمانة الإلهية.

وأما بالنسبة إلى مريم العذراء والدة المسيح - عليها السلام - فقد كان ذلك موقفاً حرجاً للغاية .. فكانت في حاجة ماسة - وهي تعاني من آلام الحمل والمخاض - إلى مكانٍ تأوي إليه بعيداً عن أنظار الناس .. حيث تشعر بالسكينة والاطمئنان ، ويتاح لها - إلى جانب هذا - كل حاجات الحياة الأساسية .. وإذا كان الله قد ابتلاها بتلك المحنة الخطيرة ، فقد هيّأ لها مأوىً هادئاً آمناً بالقرب من وطنها كذلك!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ ﴾

أُمَّتُكُمْ : ملتكم وشريعتكم .

الدين في جوهره واحد ليس غير .. وقد بُعث كل الأنبياء بهذا الدين الواحد نفسه.. وهو أن يجد المرءُ الله كواجب للوجود عظيمٍ يمتلئ خوفاً ورهبةً منه .. وأن يسيطر على قلبه وعقله إحساس دائم بأن فوقه رباً يراه ويراقبه أينما كان، ويرصد كل حركاته وسكناته ، وهو سيحاسبه بعد الموت عن كل قولٍ وفعلٍ باشره في الحياة الدنيا.

وهذه المعرفة هي أصل الدين وجوهره .. والحياة التي تنبثق عن هذه المعرفة وذلك

الإحساس لابد أن يكون صاحبها بحيث لا يأخذ من أشياء الدنيا إلا ما كان طيباً ونظيفاً .. ويسلك في كل شئونه ومعاملاته مسلك الخير والصلاح والإحسان .. فإن معرفة الله تؤدي حتماً إلى الخوف من الله .. والخوف من الله يؤدي حتماً إلى الحياة الطيبة الصالحة!

﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم : تفرقوا في أمر دينهم.

زُبُراً : قطعا وفرقا وأحزابا مختلفة .

غَمْرَتِهِمْ : جهالتهم وضلالتهم .

أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ : ما نجعله مددا لهم .

إن دين الله حين يكون حياً ، محتفظاً بروحه الأصلية ، يبعث الخوف في النفوس .. أما إذا فارق الدين روحه الأصلية ، فيعود باعثاً على الفخر .. وعندها يتفرق أهل الدين شيعاً وأحزاباً شتى ، حيث يأخذ كل حزبٍ من الدين بجانب ينطوي على دواعي الفخر له بحسب ميوله وأحواله .. وإن دين الفخر أبداً لا يكون واحداً ، بل يكون ألف دينٍ ودينٍ .. وبالمقابل فإن دين الخوف يكون دوماً واحداً ليس غير .. فإن نفسية اللاخوف تسبب الاختلاف في الآراء والتعددية في المذاهب .. وأما نفسية الخوف فهي تثمر وحدة الآراء واتحاد المذاهب .

الإنسان في العالم الراهن في حالة امتحان واختبار .. ولذا فإن شخصاً أو طائفةً ما ، لابد وأن يتاح لها متاع الحياة إلى المدة المقدرة لها في علم الله .. مما قد يجعل الغافلين

يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، وأن كل ما يفعلونه هو عين الصواب .. ولو أنهم كانوا على خطأ ، لانتزع منهم كل ما يتمتعون به من مالٍ ومتاعٍ بالمرة .. في حين أن سنة الله قد جرت بأن يتم انتزاع المال والمتاع عند انتهاء مهلة الامتحان ، وليس عند الانحراف عن طريق الهداية في أثناء الامتحان !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

إن مَنْ يجد الله بحيث تغمره خشية الله ، يكون إنساناً مختلفاً عن البشر العاديين كل الاختلاف .. فإن نفسية الخوف تجعله جاداً إلى أقصى حدٍ ، وتصبح جديته المتناهية كفيلةً بأن يُدرك ثقل الدلائل الإلهية حق الإدراك ، وبالتالي يخضع لها على الفور .. ويفقد كل شيءٍ - مما عدا الله - وزنه وقيمته عنده ، وهو يحسب دوماً أنه لم يفعل شيئاً حتى لو فعل كل شيءٍ !!

هناك طريقان للسعي والكدح مفتوحان أمام الجميع في العالم الراهن .. أحدهما طريق الدنيا ، والثاني طريق الآخرة .. وإن الذين يتحلّون بالصفات المذكورة أعلاه ، إنما هم أولئك الذين يسعون بخطىً حثيثة نحو الآخرة .

على أن السعي للآخرة عمل غير هينٍ .. بل هو أشق عملٍ في هذه الدنيا .. ومهما حاول الإنسان جهده تقع من جانبه تقصيرات شتى في أدائه .. بيد أن الله تعالى يطالب كل امرئ بقدر طاقته ، وليس فوق طاقته .. والله - سبحانه وتعالى - يحيط علماً بمدى استطاعة المرء وأعماله كماً وكيفاً .. وفي هذا ضمان أكيد لأن ينال كل شخصٍ يوم القيامة

من الإعفاء ما ينبغي أن يُتاح له بمقتضى العدل ، وأن يفوز الكل بالإنعام الذي كان يستحقه في الواقع !

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

غَمْرَةٍ : جهالة وغفلة وغطاء .

مُتْرَفِيهِم :منعميهم الذين أبطرتهم النعم .

تَنكِصُونَ : ترجعون معرضين عن سماعها.

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ : مستعظمين بالبيت الحرم.

سَامِراً : سمّارا حوله بالليل .

تَهْجُرُونَ : تهذون بالطعن في القرآن .

العابدون للدنيا ، الغارقون في ملذاتها قلما يرغبون في أحاديث الآخرة .. فإن اهتماماتهم تختلف أساساً عن اهتمامات أهل الإيمان الصادقين .. ومهما كان الحديث عن الله والآخرة بليغاً ومؤثراً ، فإنه لا يستهويهم ولا يحرك منهم ساكناً .. وبالتالي فهم لا يزالون مشغولين باهتماماتهم الأخرى معرضين عن مثل هذه الأحاديث ، ويخرجون من مجلس الداعي إلى الحق سراعاً كما لو أنهم قد انسلّوا من مجلس أحد السمّار الثرثارين !!

ولكن حين يفاجأ أمثال هؤلاء بمؤاخذة الله ، يأخذون في الصراخ والتضرع إلى الله

مستغيثين ، ناسين كل غفلتهم وطغيانهم ، وهم لا يلبثون حينئذٍ أن يخضعوا لله .. غير أن الخضوع وقتئذٍ لا يجدي شيئاً .. لأن الخضوع المعتبر به عند الله هو أن يكون المرء قد خضع لله بالنظر إلى آياته تعالى .. وأما إذا تجلى الله بقوته وجبروته ، فلا قيمة للخضوع أمامه حينذاك !.

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

بِهِ جِنَّةٌ : به جنون .

بِذِكْرِهِمْ : بفخرهم وشرفهم وهو القرآن .

الحق هو الذي يكون مطابقاً للحقيقة الواقعة .. غير أن الإنسان العابد للهوى يريد أن يستتبع الحق لهواه .. وأمثال هؤلاء الناس لا يلبثون أن يشتعلوا غضباً على الداعي حين يرفع عقيرته بالحق .. ولكونهم لا يرغبون في اتباع الحق ، يرغبون بالعكس في جعل الحق تابعاً لأنفسهم .. وهذه النفسية تجعلهم لا يلقون بالاً إلى صوت الحق .. والحق يبدو لهم غريباً .. وهم لا يستطيعون التعرف على داعي الحق في وضعه الحقيقي، ويأخذون في الطعن على الداعي وتشويه سمعته ليتظاهروا بأنهم هم المحقون المصيبون!

إن الكون - كما نشاهده - على أتم درجةٍ من الصلاح والانتظام بحيث لا نجد فيه خللاً ولا اضطراباً .. وأما العالم الإنساني فهو يسوده الفساد والفوضى في كل ناحيةٍ من نواحيه .. ومرجع ذلك إلى أن نظام الكون يسير على أساسٍ من الحق .. يعني أن يكون

ما ينبغي أن يكون ، ولا يكون ما ينبغي ألا يكون .. إذن ، فلو أن نظام الكون أخذ يسير هو الآخر تبعاً لأهواء البشر ، لعمّ هذا الفساد السائد في العالم الإنساني بقية الكائنات كذلك !!

إن النصيحة والنقد يكونان دوماً من أشد الأشياء مرارةً لدى الإنسان .. وإن هناك قلة هزيلة العدد جداً من عباد الله ، هي التي تستمع إلى النصيحة والنقد بذهنٍ مفتوحٍ .. وأما أكثر الناس فيمرون بهما معرضين أو متجاهلين!

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

خَرْجاً : جعلا وأجرا من المال .

لَنَاكِبُونَ : لعادلون عن الحق زائغون .

النبي لا يرجو أبداً تحقيق أي غرضٍ مادي من قبل مخاطبيه .. فإن علاقته بهم تكون علاقة (الداعي) ، و(المدعوّ) .. وعلاقة الداعي والمدعو هي علاقة حساسة للغاية .. ولو عرض الداعي على الناس رسالة الآخرة من ناحيةٍ ، وأثار معهم الصراع حول المطالب الدنيوية من ناحيةٍ أخرى ، لأصبحت دعوته مثار السخرية لدى الناس ، ولهذا السبب لا يطالب النبي مدعويه بأي مطلبٍ مادي ، على أيةٍ حالٍ .. مهما اضطره ذلك إلى تحمّل شتى ألوان الخسائر من طرفٍ واحدٍ.

إن أجر الداعي الحقيقي إنما يكمن في ذلك الحق نفسه ، الذي ينهض للدعوة إليه. ويكون اكتشاف الله هو رصيده ورأسماله الأكبر .. والتجارب الربانية التي يكتسبها خلال مسيرته الدعوية تغذي روحه الغذاء الأفضل .. وتكمن سكينته الكبرى في تلك اللذة التي يذوقها عبر نشاطه الدائب في سبيل تحقيق هدف حياته الأسمى !!

وإن دعوة الحق لن يتلقاها بالقبول إلا الذي يحذر الآخرة .. فإن الإحساس بخطورة الآخرة يجعل المرء جاداً ، والجدية هي العامل الوحيد الذي يرغم المرء على أن يسلم بالحقيقة.. وأما الشخص غير الجادّ فلا ولن يسلم بالحقيقة أبداً ، مهما جُعلت ثابتةً بالدلائل الواضحة والبراهين الساطعة!

﴿ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ : لتمادوا في ضلالهم وكفرهم .

يَعْمَهُونَ : يعمون عن الرشد أو يتحيرون.

فَمَا اسْتَكَانُوا : فما خضعوا وأظهروا المسكنة .

وَمَايَتَضَرَّعُونَ : ما يتذللون له تعالى بالدعاء .

مُبْلِسُونَ : متحيرون آيسون من كل خير .

لما رفضت قريش دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خلال العهد المكي ، أصاب الله أهل مكة بقحطٍ دام بضع سنين.. وكان هذا القحط شديداً لدرجة أن كثيراً منهم قد اضطروا إلى أكل الميتة!!

وتلك سنة من سنن الله العامة .. وهي أن طائفةً ما إذا استمر أفرادها في العناد والطغيان ، وأبوْا عن قبول النصيحة ، أنزل عليهم عذاباً (تحذيرياً) لكي تلين قلوبهم ، فتصغي إلى نداء الحق !

غير أن التاريخ يشهد بأن الإنسان لا يعتبر بأحوال الخير والعافية ولا بأحوال الشر

والشدة أيها اعتبارٍ .. والغرض من كلا نوعي الأحوال إنما يكمن في أن يبادر المرء بالرجوع إلى الله .. ولكن الموقف الذي يتبناه الإنسان عادةً إزاء هذه الأحوال هو أنه يعدّ الخير نتيجةً تدبيره هو ، بينما ينظر إلى الشر على أنه نتيجة تقلبات الدهر .. وهكذا فهو لا يزال محروماً من تعلّم أي درسٍ أو عبرةٍ من كلا نوعي الأحداث !!

ويظل المرء غافلاً كعهده ؛ إلى أن يفاجئه قضاء الله الأخير .. فإذا به يقف حائراً مشدوهاً لما يدرك وقتئذٍ أن الشيء الذي أهمله باعتباره غير ذي أهميةٍ ، هو الذي كان الحقيقة الكبرى ، وذات الأهمية العظمى في هذا الكون!!

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

ذَرَأَكُمْ : خلقكم وبثكم بالتناسل .

الإنسان هو المخلوق ، الذي تم تزويده بقوى السمع والبصر والتفكير العليا .. ومن المؤكد أن هذه القوى الخاصة إنما مُنحت له لأجل هدفٍ خاصٍ .. وذلك الهدف هو أن يستخدمها الإنسان في معرفة حقيقة الحياة .. فيسمع بآذانه صوت الصدق الذي يتردد صداه في أرجاء الوجود .. ويرى بعيونه تلك الآيات التي يجدها منبثة هنا وهناك في كل ما حوله .. ثم يستعمل قدرته على التفكير لتفهم تلك الآيات بعمق ، وسبر أغوارها البعيدة .. وهذا هو الشكر على نعمة السمع والبصر والفؤاد .. والذين لا يقيمون الدليل على هذا الشكر في الحياة الدنيا ، فإنهم يفقدون أهليتهم للتمتع بهذه النعم في الحياة الأبدية !

ومن صفات الله التي تتجلى أمامنا في هذا العالم أنه يحيي الميت ويميت الحي ..

وسوف يجمع الله كل الموتى عنده أحياءً في اليوم الآخر ، وكما أنه يحوّل الليل المظلم إلى النهار المضيء ، كذلك سيُزيح ستار الغفلة عن أعين الناس ، وبعدئذٍ ستنكشف على الناس حقيقة الأشياء كما هي من غير لبسٍ ولا غموضٍ !

﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ :أكاذيبهم المسطورة في كتبهم .

لقد زُوِّد الإنسان بالعقل .. والعقل يتمتع بالقدرة على أن يغوص في أعماق الأمور ويسبر أغوارها ، بحثاً عن الحقيقة الجوهرية ليتفهمها بعمقٍ ودقةٍ .. ولكن قلما يحدث أن يستعمل الإنسان عقله بالمعنى الحقيقي .. وإنما هو يتبنّى رأياً حول قضيةٍ ما ، في الأغلب الأعم ، بناءً على الانفعالات السطحية العابرة ، ويأخذ في ترديده بلا رويةٍ .. وهذا كان ديدن الناس في الماضي ، وعلى هذا المنوال ينسج أكثر الناس اليوم كذلك !.

وإن تعداد منكري البعث بعد الموت ، إنكاراً شعورياً أو لفظياً ، كان ولا يزال قليلاً جداً .. أما غالبية الناس فيمكن أن يُوصف موقفهم من هذه العقيدة بـ ((الإنكار العملي)) .. فإن هؤلاء ، مع إقرارهم الرسميّ بالحياة بعد الموت ، يمارسون حياتهم عملياً ، كما لو أنهم غير موقنين بأنهم سيُبعثون بعد الموت ، وسيُحضرون أحياءً بكامل وعيهم ومداركهم بين يدي الله ، تماماً كما هم أحياء اليوم يعون ويدركون!!

﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

مَلَكُوتُ : هو المُلْك الواسع العظيم .

وَهُوَ يُجِيرُ :يغيث ويحمي من يشاء ويمنع.

وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ : لا يغاث أحد منه ولا يمنع .

فَأَنَّى تُسْحَرُونَ؟: فكيف تخدعون عن توحيده ؟

أشارت هذه الآيات إلى ذلك التناقض الفكري الذي كان معظم البشر - وما زالوا- يعانون منه على اختلاف الأعصار والأمصار ، سواء أكانوا مشركين أم غير مشركين ، مؤمنين في ظاهرهم بالله الواحد الأحد ، أو القائلين بتعدد الآلهة .

فالكثرة الكاثرة من الناس تؤمن بأن خالق السموات والأرض إنما هو الله الواحد ، وهو مالكها ومدبر أمرها بلا منازعٍ ، وهو وحده المتصرف المختار القادر على كل شيءٍ .. إلخ .. ولكنك لو ذهبت تستعرض حياتهم العملية، فلا تجد فيها أي أثرٍ إيجابي لما يستلزمه هذا الإيمان بالضرورة!

ومقتضى هذا الإيمان العظيم أن يصبح هو جزءاً لا يتجزأ من تفكيرهم .. ويتحول شعورهم بالله إلى خوفٍ دائمٍ منه ؛ يجري في عروقهم مجرى الدم .. ويتولد في داخلهم الاستعداد للاعتراف بالحق فور ظهوره أمامهم .. وأن تنصهر حياتهم وأعمالهم كلها في بوتقته .. غير أن هذا كله لا يحدث .. فبالرغم من إيمان الناس بالله كعقيدة ، إلا أن حياتهم الحقيقية تبقى في وادٍ ، واعتقادهم بالله في وادٍ آخر !

إن تصور جمال الله وجلاله لا يُعجب الإنسان ولا يستهويه .. بينما تصير الأشياء الأخرى عنده مهمة وجذابةً لدرجة لا يدري معها كيف يتصرف لفرط إعجابه وشدة افتتانه بسحرها .. ألا ما أعجب أمر هذا الإنسان وما أكثره إثارةً للدهشة

والاستغراب؟!

﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

من طبيعة السلطة أنها لا ترضى بالتقسيم .. كما نرى أصحاب السلطات من البشر في كل زمانٍ ومكانٍ ، يصارع بعضهم بعضاً في محاولة التغلب عليه أو إخضاعه لسيادته .. حتى إنك لتجد ميثولوجيا (مجموعة أساطير) الشعوب الوثنية - القائلة بتعدد الآلهة وأنصاف الآلهة - كثيراً ما تتحدث عن معارك ساخنةٍ دارت بين إلهٍ وآخر !!

وإذا كان وضع هذا الكون - الذي نعيش فيه - بحيث لا يقع ثمة صدام بين بعض أجزائه وبعضه الآخر ، فإن هذا ينهض دليلاً على أن إله كل جزءٍ إله واحد ليس غير .. إذْ لو كانت هناك آلهة شتى لكل جزءٍ على حدةٍ ، لانفرد كل إلهٍ بجزئه ، ولا نعدم بالتالي هذا التوازن والانسجام المدهش ، الذي نراه حالياً ، بين مختلف أجزاء الكون .. بل تحول نظام الكون البديع ، نتيجة صراع الآلهة بعضهم مع بعض ، إلى فسادٍ واختلالٍ وفوضى .. إذن ، فنظرية التوحيد ، والحالة هذه ، هي الصدق عينه ، ونظرية الشرك هي باطل محض!

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ .

إن دعاء الرسول هذا يتعلق بحالة قلبه هو وليس بعذاب الله .. فهذا الدعاء يدل على أن المؤمن يكون إنساناً خائفاً من الله على كل حالٍ .. وأن قلبه ليرتعد خشيةً من

عذاب الله، حتى لو كان العذاب نازلاً على الآخرين دونه.. فلا يلبث أن يأخذ في التضرع والابتهال إلى ربه ؛ لكونه يعلم أن الإنسان إنما ينجو من العذاب بمحض عناية الله ، وليس بفضل قوته أو بأي عملٍ من أعماله

وقضاء الله قد يتم تنفيذه على منكري الرسول تارةً في حياة الرسول ، وطوراً بعد انتقاله إلى رحمة الله .. ويتضح من الآية الأخيرة (رقم ٩٥) أن قضاء الله هذا قد تم تنفيذه على منكري النبي العربي - صلى الله عليه وسلم - وهو حي ، حيث قَضى على أعدائه - عليه الصلاة والسلام - قبل رحيله إلى الرفيق الأعلى !

﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾

أَعُوذُ بِكَ : أعتصم وأمتنع بك .

هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ : نزغاتهم ووساوسهم المغرية .

إن داعي الله حين يدعو الناس إلى الحق ، فكثيراً ما يحدث أن يصير الناس له أعداء .. يشنون ضده حملة الدعايات الكاذبة .. ويتخذون منه هدفاً لصنوف الأذى والإساءة .. وعندئذٍ تستيقظ في نفس الداعي هو الآخر بواعث رد الفعل .. وقد يخطر بباله خاطر، يقول : إنه لابد لك الآن من القيام بالإساءة إلى الذين أساؤوا إليك ، فإنك إن لزمت الصمت طويلاً، ارتفعت ((معنوياتهم)) ، وازدادوا جرأة على النيل منك ، واتخاذ الإجراءات العدوانية ضدك!!

غير أن مثل هذه الأفكار والخواطر (السلبية) هي من وساوس الشيطان . فالشيطان يغري المرء في هذه المناسبة الحساسة ، ليحرّفه عن الجادة .. ولذا فينبغي على الداعي والمؤمن، في مناسبة كهذه ، أن يتعوذ بالله من الإغراءات الشيطانية ، دون أن يندفع إلى

الانتقام والتشفي من معارضيه استجابةً لتلك الإغراءات الشيطانية !!

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

وَمِن وَرَائِهِم : أمامهم .

بَرْزَخٌ : حاجز دون الرجعة .

تَلْفَحُ : تحرق .

كَالِحُونَ : عابسون أو متقلصو الشفاة عن الأسنان من أثر اللفح .

الموت يفصل المرء عن العالم الراهن .. ففي أعقاب الموت يقوم بينه وبين الدنيا حاجز، لن يستطيع العودة من ورائه إليها أبداً .

والمرء حين يدخل إلى العالم الآخر بعد الموت ، تزول فجأةً تلك الغشاوة التي كانت على بصره وبصيرته.. حيث إنه يدرك الآن أن الآخرة التي كان قد أهملها وأسقطها من حسابه تماماً ، كانت ، في الحقيقة ، هي قضية الحياة الكبرى .. وأما أسباب الدنيا فإنما كانت قد أتيحت لكي نستعين بها على كسب ثواب الآخرة، دون أن يتم اعتبارها هي نفسها المقصودة.. ومن ثم فهو يودّ ، وفؤاده يحترق هما والتياعا ، لو أعيد إلى الدنيا من جديدٍ !! غير أن هذا مستحيل .. فقد جرت سنة الله بأن تُتاح الفرصة لأي شخصٍ مرةً واحدةً فقط، لا مرتين!!

والمرء يعتمد في الحياة الدنيا على أصحابه وذوي قرابته .. إلا أنه سيكون وحيداً بلا ناصر ولا معينٍ في يوم القيامة .. وإنما سينفعه هناك عمله الذاتي وحده ، ولن يغني عنه أي شيءٍ آخر سواه!

﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

غَلَبَتْ عَلَيْنَا : استولت علينا .. وملكتنا .

شِقْوَتُنَا : شقاوتنا . أو لذاتنا وشهواتنا .

اخْسَئُوا فِيهَا : انزجروا وابعدوا كالكلاب .

إن الإنسان لن تُتاح له الفرصة ، بعد أن يرى مشاهد الآخرة رأي العين ، ليعود ثانيةً إلى الدنيا ، ويبرهن على العمل الصحيح الصالح .. فإن هدف الحياة الدنيا هو الامتحان .. وهو امتحان ما إذا كان المرء يخضع للحق بدون الرؤية المباشرة أم لا ؟! وأما بعد مشاهدة الآخرة بالفعل ، فلا قيمة للخضوع ، ولا أمل في الرجوع إلى الدنيا من جديدٍ!

وليس امتحان المرء في الإقرار عبر المشاهدة ، بل في الإقرار عبر التأمل والتفكير .إن طلبة العلم ، إنما يمتحنون قبل انكشاف ورقة الأسئلة ، وأما إذا صارت ورقات الأسئلة مكشوفة ، تتناقلها الصحف والجرائد ، فلا داعي بعدئذٍ لامتحان الطلبة !

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

سِخْرِياً : مهزوءا بهم .

فَتَعَالَى اللهُ: ارتفع بعظمته وتنزه عن العبث .

إن لله عباداً تعرفوا عليه تعالى بجلاله وكماله في الحياة الدنيا ؛ حيث لم تكن حقائق الآخرة قد تجلّت للعيان بعد .. وظهرت دعوة الحق أمامهم في ثوب الدليل المحض ، ولكنهم - مع ذلك - تيقنوا بصدقها .. وبلغت جديتهم بشأنها لدرجة أنهم جعلوها معيار نجاحهم وفشلهم .. وقد اضطُروا إلى دفع ثمن ارتباطهم الكلي بحقٍ غريبٍ غير مألوفٍ ، بأن صاروا موضوع التهكم والسخرية في المجتمع ، إلا أنهم لم يقطعوا - بالرغم من ذلك - ارتباطهم به لحظةً واحدةً ، بل ظلوا أوفياء له على مدى الحياة ، غير مبالين بلومة اللائمين، وسخرية الساخرين!

وهذه الاستقامة الفكرية هي الصبر الأعظم .. وإنما يفوز المرء بإنعام الآخرة مقابل هذا الصبر ذاته.. والسعداء الناجحون حقاً هم الذين وُفقوا لإقامة الدليل على هذا الصبر في عالم الامتحان الراهن!

﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾

الترف الحقيقي هو الذي يكون أبدياً .. أما الترف الذي لا يكون أبدياً ، فإنه يبدو - حين ينتهي - كما لو كان لمحة طارئة ، لم تكد تأتي حتى مضت إلى غير رجعةٍ !.

وإن المرء ليظل غافلاً عن هذه الحقيقة في الحياة الدنيا .. إلا أنها ستنكشف عليه في الآخرة بجلاءٍ ، فيدركها حينئذٍ تمام الإدراك ، ولكن من غير جدوى !

والحق يتجلى أمام المرء في الدنيا ، ولكنه لا يتلقاه بالقبول ، حرصاً على حياته الهادئة الرتيبة ؛ حيث لا ترضى نفسه بالتخلي عن الفائدة المتاحة (العاجلة) لأجل الفائدة الموعودة (الآجلة) .. وتبدو له عزة الحياة الراهنة وراحتها ومصالحها ثمينةً وغاليةً لدرجةٍ لا يدري معها كيف يصرف نظره عن ((الشيء)) ليوجه اهتمامه نحو ((اللاشيء)) ؟! في حين أن مهلة عمر الفرد المحددة ، وإن طالت مائة عامٍ أو أكثر ، عندما تبلغ نهايتها ، تبدو وكأنها لم تكن إلا يوماً واحداً قصيراً ، جاء وانقضى في لمح البصر !!

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

الناس رجلان : رجل يمارس حياةً مبدئيةً .. وآخر لا مبدأ له في هذه الحياة .. ومنهم مَنْ يضحي بنفسه في سبيل الصدق غير المرئي .. ومنهم مَنْ يظل مشغولاً بالأشياء المرئية وحدها .. ومنهم مَنْ يتقبل دعوة الحق على كل غرابتها في ما حولها .. ومنهم مَنْ يتجاهلها ويعرض عنها مستهزئاً بها .. ومنهم مَنْ يمسك يده عن الظلم ؛ لأن ربه قد نهاه عنه ، بينما يتحين بعض منهم الفرص للظلم والتعدي على الآخرين ، لأن نفسه تدعوه إلى ذلك!!

ولو أن هذا العالم ليس له من مصيرٍ ، وإنما هو وُجد لكي يسير هكذا وينتهي هكذا بدون هدفٍ أو غايةٍ محددةٍ، فمعنى ذلك أنه لم يكن سوى مسرحيةٍ عبثيةٍ لا معقولة! غير أن الكون ، بما فيه من روحٍ وحكمةٍ عجيبةٍ ، ينفي كل نظريةٍ فارغة عن المعنى كهذه ..

وإن نظام الكون البديع يرفض بشدةٍ أن يكون خالقه وجوده عبثاً غير جادٍ!!

إن خالق هذا الكون الفسيح ، كما نتعرف عليه من خلال الأنظمة الكونية الهائلة المليئة بالأسرار ، هو إله يتصف في ذاته بمنتهى الكمال والعدل .. وإن أبعد الأمور عن القياس وأعظمها استحالةً ، أن نتصور خالقاً هذا شأنه يرضى بالتسوية بين نوعين مختلفين من البشر!! بل الذي هو كائن حتماً أن يأتي يوم يرفض فيه مالك الكون ويهين فريقاً من الناس كما هم رفضوا الحق واستهانوا به .. ويُقدِّر فريقاً آخر منهم ويكرمهم مثلما هم قدروا الحق وأكرموه!

سورة النور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

وَفَرَضْنَاهَا :أوجبنا أحكامها عليكم .

كُلَّ وَاحِدٍ : إذا كان حرا غير محصن .

نزلت سورة النور سنة ٦ هجرية في أعقاب غزوة بني المصطلق .. وقد اتخذ منافقو المدينة من حادثٍ عاديٍ بسيطٍ ، وقع خلال هذه الغزوة ، ذريعةً لتشويه سمعة السيدة عائشة ورسول الله - ﷺ - .. فجاءت هذه السورة الكريمة تؤكد - من ناحيةٍ - على البراءة التامة للسيدة عائشة ، وتبين - من ناحيةٍ أخرى - أحكاماً عامة يجب تنفيذها عند حدوث حالاتٍ مماثلةٍ في المجتمع المسلم .

وإن الزنا من أشد الجرائم الاجتماعية خطورةً وشناعةً في نظر القانون الإسلامي . غير أن القانون الإسلامي يفرق بين نوعين من البشر ، أحدهما : هو الذي يقيم العلاقات الجنسية اللامشروعة ؛ رغم توفر فرص العلاقات الجنسية المشروعة لديه . وثانيهما : هو الذي لم تتوفر لديه بعدُ فرص إقامة العلاقة الجنسية المشروعة .

«والمائة جلدةٍ» هي عقوبة الزنا قبل الإحصان ، أي إذا كان الزاني والزانية غير متزوجين .. وأما عقوبة الزنا بعد الإحصان (الزواج) فهي الرجم ، أي رمي المجرم بالحجارة حتى الموت .. وقد ورد حكم الرجم في القرآن الكريم (المائدة : ٤٣) على وجه الإشارة والتلميح .. وهو ثابت بالسنة النبوية المتواترة بما لا يدع مجالاً للشك في

مشروعيته أو الارتياب .. وإقامة حد الزنا بمشهدٍ من الناس هي ، في الحقيقة ، إضافة جانب العبرة إلى العقوبة .. والمقصود من ذلك أن يرتدع الآخرون ، من ذوي النفوس المريضة ، عن ارتكاب مثل هذه الجريمة البشعة مستقبلاً ، خوفاً من العاقبة الوخيمة التي لقيها أحد المجرمين في الحال .

وسيصبح الزاني والزانية مثل غيرهما من المسلمين العاديين من جديدٍ ، فيما إذا بادرا بالتوبة وإصلاح سيرتهما بعد العقوبة .. وأما إن لم يتوبا ويُصلحا ، فلا يستحقان بعدئذٍ أن يقُبلا لروابط النكاح والقرابة في ظل المجتمع الإسلامي .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ ﴾ .

يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ : يقذفون العفيفات بالزنا .

ومن الطبيعي ، وقد اعتبر الزنا جريمةً من أشنع الجرائم الاجتماعية ، أن يُعدّ قذف أحد الأبرياء بالزنا هو الآخر جرماً عظيماً .. ومن ثم فقد أمر الله بمن يرمي غيره بتهمة الزنا ؛ ولا يتمكن من إثبات دعواه وفق القاعدة الشرعية ، أن يُجلد ثمانين جلدةً ؛ مضافاً إلى إسقاط اعتباره بجعله مردود الشهادة ما دام مصراً على بهتانه .. وقد ذهب الأحناف إلى أن شهادة القاذف لن تُقبل أبداً ، حتى ولو تاب وأناب وأصبح من الصالحين !! لأن رمي أحد الناس بالتهمة الكاذبة محاولة لقتله من الناحية الأخلاقية . وقد شرع الإسلام عقوباتٍ شديدةً صارمةً على مثل هذه الجريمة ، ليقطع ألسنة السوء، وليسدّ الباب على الذين يتلمسون للأبرياء العيب .. ولو أن شخصاً أفلت من العقوبة الدنيوية ، فإنه لن يفلت من عقاب الآخرة على أية حال .. اللهم إلا أن يتوب توبةً نصوحاً ، سائلاً الله - سبحانه وتعالى - العفو والمغفرة ، فإنه لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى!

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ

أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ .

وَيَدْرَأُ عَنْهَا : يدفع عنها العقوبة .

ومن مسائل هذا الباب أن شخصاً لو اتهم زوجته بالفاحشة ، ولم يكن لديه أي شهود عيان سوى نفسه هو ، فكيف يُحسم الأمر في هذه الحالة؟ والجواب هو: أن القضية ستحسم عن طريق الحلف ، وهو المعروف في الاصطلاح الشرعي بـ ((اللعان)) .

فإذا أقسم الرجل بالصيغة المذكورة ، وظلت المرأة صامتة ؛ أي امتنعت عن اللعان ، أقيم عليها حد الزّنا أخذاً بشهادة الرجل .. وأما إذا حلفت المرأة بدورها بالصيغة المذكورة أعلاه ، وادعت أنه كاذب فيما رماها به من الزنا ؛ فلا يقام عليها الحد ، ولكن يُفرق بعد ذلك بين الزوجين (المتلاعنين) بصورةٍ مؤبدةٍ .

إن القضايا الاجتماعية والأسرية تكون معقدةً غاية التعقيد .. وعندما يحاول الإنسان وضع القوانين والتشريعات في هذه القضايا ، فكثيراً ما يجنح إلى جانب على حساب الجانب الآخر .. أما التشريع الإلهي فهو يشتمل على مراعاةٍ تامةٍ دقيقةٍ للجوانب كلها .. ومن هنا كان التشريع الإلهي رحمةً للناس عظيمةً جداً !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

بِالإِفْكِ : أقبح الكذب وأفحشه .

عُصْبَةٌ : جماعة منكم .

تَوَلَّى كِبْرَهُ :تحمل معظمه (رأس المنافقين) .

إذا كان الداعي على حقٍ في الواقع ؛ فإن الدعايات المغرضة الكاذبة ضده لا تضره شيئاً ، بل تكون دوْماً في صالحه .. ذلك لأن الدعايات الكاذبة ، لابد أن يفتضح سرها في النهاية .. وعندما يفتضح السر ، يعود صدق الداعي وكونه على الحق أكثر وضوحاً وأجلى برهاناً .. هذا من جانبٍ .. ومن جانب آخر فإن الذين كانوا في حيرةٍ أو ارتيابٍ بشأنه ، يصلون بعدئذٍ إلى درجة اليقين .. إذْ يرون عملياً أن معارضي الداعي إلى الحق لا يملكون إزاءه سوى التهم والافتراءات الباطلة .

وقد كان لِعبد الله بن أبي ابن سلول (رأس المنافقين) اليد الكبرى في تلفيق وإشاعة التهمة النكراء ضد السيدة عائشة الصديقة . . وقد أخبر القرآن بأن له عذاباً عظيماً في الآخرة .. إلا أنه لم يُعاقب بأية عقوبةٍ عاجلةٍ في الدنيا ، وإنما خُلي سبيله ، حتى مات حتف أنفه .. وكان عمر قد أشار على رسول الله - ﷺ - بعد هذا الحادث بأن يُضرب عنقه .. فالتفت - عليه الصلاة والسلام - إلى عمر وقال : ((فكيف، يا عمر ، إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه)) الأمر الذي يوضح أنه قد يكون مقتضى الحكمة أحياناً ألا يؤخذ حتى أكابر المجرمين بأي عقابٍ عاجلٍ في الدنيا، بل يُحال أمرهم على محكمة الآخرة !

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

إن من حق المسلم على أخيه المسلم أن يحسن به الظن دائماً .. فإن إساءة الظن بالآخر دليل على فساد النفس وسوء الطوية .. وإحسان الظن به هو بالعكس دليل صلاح النفس ونقاء السريرة .

والأسلوب الصحيح ، إذا ما أخبر شخص عن آخر بالسوء ، أن نطالبه على الفور بإقامة الدليل والبرهان .. بحيث لا ينبغي أن يأخذ الكل في ترديد ما سمع وإشاعته بلا أناةٍ ، بل يطلب من المخبر أن يأتي بالشهداء على صدق دعواه تبعاً للقاعدة الشرعية . فلو أنه جاء بالشهداء لكان كلامه حريّا بالنظر والاعتبار ، وإن لم يأت بمن يشهدون

على صحة دعواه ، فإنه هو المجرم الأكبر .. إذْ لا يحق لأحدٍ ، كائناً من كان ، أن يتهم غيره بلا دليلٍ أو برهانٍ !

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

أَفَضْتُمْ فِيهِ : خضتم فيه من حديث الإفك .

وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً : تظنونه سهلا لا تبعة له .

سُبْحَانَكَ : تعجب من شناعة هذا الإفك .

بُهْتَانٌ : كذب يحير سامعه لفظاعته .

إن رسول الله - ﷺ - كان في مركز الداعي إلى الحق .. وأمر الداعي إلى الحق يكون أمراً بالغ الخطورة ؛ حتى إن زلّةً سلوكيةً واحدةً تكفي - لو وقع فيها فرضاً - لهدم رسالته كلها من الأساس .. وفي مثل هذا الوضع فإن الذين تلقّفوا إشاعة باطلةً عن سيدةٍ مؤمنة هي قمّة الطهر والعفة ، وراحوا ينشرونها هنا وهناك بدون تحفظٍ ، لقد ضربوا أسوأ مثالٍ لقلة الأناة واللامسئولية .. ولولا أن تفضّل الله - سبحانه وتعالى - بإبطال تلك التهمة الشنيعة عند الوهلة الأولى ، لكادت أن تتسبّب في إصابة الدعوة الإسلامية بما لا يُقدّر من خسائر ونكسات فادحةٍ ، إذْ كان من المحتمل جداً أن يقع المجتمع الإسلامي كله نتيجة لذلك فريسة سوء الظن والأراجيف ، وينقسم المسلمون بالتالي على أنفسهم ، يحارب بعضهم بعضاً ، حتى لو وصل الأمر بهذا الانقسام الداخلي والحرب الأهلية في نهاية المطاف إلى أن تقضي الأمة على نفسها بنفسها ، تلك التي أخرجها الله لكي تضطلع بمهمة القضاء على سيادة الشرك العالمية!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى

ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

المراد بإشاعة «الفاحشة» هنا إشاعة ما أُطلق عليه «الإفك» في الآية رقم (١١) من هذه السورة .. وهو يعني تلفيق تهمةٍ كاذبةٍ ضد شخص ما ، والعمل على نشرها بين الناس .

وللحديث أسلوبان : أحدهما : ألا يتفوه المرء إلا بما يتوفر لديه من دليل على صدقه في الواقع .. ويمكن إثباته شرعياً .. والثاني : أن يخترع المرء من تلقاء نفسه أمراً لا يستند على أساسٍ .. ويأخذ في إذاعته بين الناس ..

إن الأسلوب الأول هو وحده الأسلوب المشروع ، بينما الأسلوب الثاني غير مشروعٍ إطلاقاً !!

ومما يحدث على وجه العموم أن المرء حين يسمع شيئاً عن بعض خصومه ، فلا يرى ثمة حاجة إلى تناوله بالتحقيق أو التحري والتثبت من صحته أو بطلانه ، بل سرعان ما يتلقاه بالقبول بدون تمحيصٍ ولانقاشٍ ، وينطلق يردده ويحدث به إلى الآخرين .. وإن هذا ليس فعلاً يتسم باللامسئولية فحسب ، بل هو جريمة عظيمة جداً ؛ يستحق فاعلها عقوبةً شديدةً في الدنيا والآخرة !

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ : طرقه وآثارها ومذاهبه .

بِالْفَحْشَاءِ : ما عظم قبحه من الذنوب .

وَالْمُنكَرِ : ما ينكره الشرع ويكرهه الله .

مَا زَكَى : ما تطهر من دنس الذنوب .

اتباع خطوات الشيطان يعني استجابة المرء للوساوس الشيطانية .. فحين تتولد مشاعر سوء الظن أو الريبة في النفس إزاء أحد الناس ، بناءً على بهتانٍ أو تهمةٍ كاذبةٍ ، فإنما يكون ذلك نتاج وسوسةٍ شيطانيةٍ .. وكذلك حين تستيقظ الأفكار السلبية في داخل المرء ضد خصمه ، بدون مبررٍ ، فإنها هي الأخرى تمثل إحدى حيل الشيطان الخفية للسيطرة على القلب وتصريفه كما يشاء ، وينبغي للمرء إذا ما استيقظت مثل هذه الأفكار والمشاعر في داخله ، أن يقضي عليها في الداخل على الفور ، دون أن يندفع وراءها .. فإن تلبية نداء مثل هذه المشاعر والأحاسيس استجابة لنداء الشيطان رأساً !.

والاشتغال بالدعايات المغرضة ضد الآخرين عمل يتنافى مع روح التواضع.. إن المرء عادة ما يكون حسن الظن بنفسه أكثر مما يلزم ، وسيئ الظن بغيره أكثر مما يلزم كذلك .. وكلا هذين الأمرين لا يتفق والإيمان .. ولو نشأ التواضع الإيماني في داخل المرء حقاً ، لجعله مشغولاً بمحاسبة نفسه لدرجة لن يجد معها الفرصة لكي ينبري لمحاسبة الآخرين !!

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

وَلاَ يَأْتَلِ : لا يحف أو لا يقصر .

أُوْلُوا الفَضْلِ : أصحاب الزيادة في الدين .

وَالسَّعَةِ : الغنى .

كان ((مسطح بن أثاثة)) واحداً من أولئك الذين قدحوا في عرض السيدة عائشة .. وهو من فقراء المهاجرين ، وكانت تربطه بأبي بكرٍ صلة قرابةٍ بعيدةٍ ، وكان أبو بكر يساعده بشيءٍ من المال .. غير أن وقوف ((مسطح)) إلى جانب مروّجي تلك الدعاية المغرضة ضد عائشة - رضى الله عنها - وهي ابنة أبي بكرٍ ،كلفه - بطبيعة الحال - ألماً لا يُطاق ، فحلف أبو بكر ألا ينفق عليه شيئاً أبداً .

إن إعانة المحتاجين والفقراء ، كما دعا إليها الإسلام ، إنما تكون - أولاً وآخراً - نظراً إلى حاجتهم ، وليس نظراً إلى أي اعتبارٍ آخر .. ومن ثم نزل القرآن الكريم في أعقاب هذا الحادث ، يأمر المؤمنين بأنه لا يحق لأصحاب الغنى واليسار منكم أن يمتنعوا عن مساعدة المحرومين والبؤساء بناءً على أي إساءةٍ أو شكايةٍ ذاتيةٍ .. ألا تحبون - أيها المؤمنون - أن يعفو الله عنكم ويغفر لكم ذنوبكم ؟! وإذا كنتم ترجون من الله العفو والمغفرة ، فينبغي عليكم أيضاً أن تعفوا وتصفحوا عن إساءات الآخرين .. ولما سمع أبو بكر هذه الآية الكريمة قال ((بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي)) ، فأعاد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه من قل ، وقال : ((والله لا أنزعها منه أبداً)) !

وإن المؤمن إنما يعطي الأهمية الكبرى لأمر الله ، فحين يتضح أمر الله ، يبادر بامتثاله والانقياد له من فوره ، ولو كان ذلك الأمر الإلهي شديد الوطأة على نفسه ، مناقضاً لهواه تماماً !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾

الْمُحْصَنَاتِ : العفائف ، ومثلهن المحصنون .

دِينَهُمُ الْحَقَّ : جزاءهم الثابت لهم بالعدل .

الإنسان ينطق ضد الآخرين بكلمات السوء ؛ وهو لا يدري أن الكلمات الصادرة من لسانه تصل إلى الله قبل وصولها إلى الآخرين ! وإن المرء يستعمل يديه ورجليه للظلم والاعتداء على الآخرين ؛ ويغيب عن باله أن القيامة حين تقوم ، فلن تعود يداه ورجلاه في حيازته هو ، بل ستصبح شاهدةً عليه أمام الله !!

وإن هذه الغفلة هي مصدر كل الشرور والآثام .. ولو أحسّ المرء هذه الحقيقة حق الإحساس بأنه في عالمٍ ، حيث يراقبه الله كل حين وآنٍ ، لا تخفى عليه خافية ، وحيث يُسجل كل قولٍ أو فعلٍ يصدر منه تحت النظام الإلهي ، لتغيرت حياته تغيراً جذرياً

شاملاً ؛ فهو يزن كل كلمةٍ قبل أن ينطق بها وزناً دقيقاً ، ويستخدم أعضاءه وجوارحه بمنتهى الحذر والاحتياط !

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

المراد بـ ((الخبيثات)) هو الكلمات الخبيثة .. وكذلك المراد بـ ((الطيبات)) هو الكلمات الطيبة .. ومعنى ذلك أن شخصاً لا يصبح سيئاً بسبب تناوله شخصاً آخر بنعت السوء .. إذْ لا ينطبق على المرء إلا وصف يتفق مع ما هو عليه في هذا الأمر .. وأما لو وجّه الأشرار إلى الفضلاء من الناس قول السوء ، فإنما يصدق ذلك آخر الأمر على القائلين أنفسهم ، بينما يتبرأ الفضلاء مما وُجّه إليهم كل البراءة .

والذين هم طيبون في ذات أنفسهم ، لابد أن يتبرءوا مما قد يُلصق بهم من التهم الكاذبة في هذه الدنيا ، إلى جانب كون براءتهم في الآخرة مضمونةً بكل تأكيدٍ .. كما أنهم سيفوزون في الآخرة بمزيدٍ من إنعامات الله وكرامته ، ذلك لأن الأقاويل الباطلة المثارة ضدهم كانت ، في الحقيقة ، ثمناً لكونهم قطعوا صلتهم بالباطل ، واندمجوا بأنفسهم في الحق وحده!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

تَسْتَأْنِسُوا : تستأذنوا ممن يملك الإذن .

أَزْكَى لَكُمْ : اطهر لكم من دنس الريبة والدناءة .

جُنَاحٌ : إثم .

مَتَاعٌ لَّكُمْ : منفعة ومصلحة لكم .

في الحياة الاجتماعية كثيراً ما يحتاج الناس إلى اللقاء أو الزيارة فيما بينهم تحت شتى العوامل والأغراض .. ولما كان توجُّه المرء إلى أحدٍ بدون إعلامه سلفاً واقتحامه عليه داره فجأةً ؛ مما قد يسبب الحرج والإزعاج للزائر والمزور على السواء ؛ أدرجت قاعدة الاستئذان المسبق في آداب اللقاء والزيارة .

والأفضل أن يتم الاتصال - إن أمكن - بالشخص المطلوب زيارته قبل التوجه إليه، وتحديد موعد اللقاء معه سلفاً ، ثم ينبغي على الزائر ، حالما يصل إلى منزل أخيه ، أن يطلب منه أولاً السماح للدخول.. وقد يمكن أن تكون هناك أساليب مختلفة لهذا الاستئذان بحسب الأحوال التمدنية والثقافية ، ولكن لابد لكل أسلوبٍ يُتبع بهذا الخصوص أن يكون على مستوى الأدب الإسلامي الرفيع .. وإن الإسلام يريد بناء كل شئون الحياة الاجتماعية ، مهما كانت صغيرةً أو كبيرةً ، على أساسٍ من السماحة .. وهذه السماحة ذاتها مطلوبة فيما يتصل باللقاء والزيارة كذلك .. فلو توجّهت إلى بيت أحد الناس قاصداً لزيارته ، واعتذر إليك رب البيت عن اللقاء في ذلك الوقت ، فلك أن تتقبل الرجوع برحابة صدرٍ وارتياح بالٍ . على أن هذا الحكم (حكم الاستئذان) لا ينسحب على تلك الأماكن الاجتماعية، حيث الدخول مسموح للجميع بوجهٍ عام!

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ : يكفوا نظرهم عن المحرمات .

لقد أرشدت هذه الآية الكريمة إلى أدبين رئيسين ، يجب على كل رجلٍ مؤمن أن يتحلى بهما أينما كان ، أحدهما : ستر العورة ، وثانيهما : غض البصر .. (وهذا الحكم يشمل أيضاً النساء المؤمنات ، كما هو موضح في الآية التالية رقم ٣١) .

أما عورة الرجل - أي الجزء الذي لابد له من أن يستره من بدنه على كل حالٍ من الأحوال - فهي : من السرّة إلى الركبة .. فلا يحل للرّجل أن يكشف عورته هذه أمام

أحدٍ سوى زوجته ؛ اللهم إلا أن تعرض له حاجة أو ضرورة يُباح عندها حتى المحظور، كالفحص الطبي والعلاج مثلاً .

والأمر الثاني المطلوب من الرجال: أن يغضوا أبصارهم ، إذا ما التقوا بالنساء وجهاً لوجه .. إذْ لا ينبغي أن يتم اللقاء بين الرجل والمرأة بأسلوبٍ حرٍ طليقٍ كتلاقي الرجال بعضهم مع بعض .. وإنما الرجل هو المطالب بخفض بصره عند لقائه المرأة .. ولو تصادف أن وقع بصر الرجل على أجنبيةٍ ، فليصرف نظره عنها من فوره ، ولا يتعمد النظر إليها مرةً أخرى !!

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

زِينَتَهُنَّ : مواضع زينتهن من الجسد .

ظَهَرَ مِنْهَا : الوجه والكفين والقدمين .

وَلْيَضْرِبْنَ : وليلقين ويسدلن .

بِخُمُرِهِنَّ : أغطية رؤوسهن (المقانع) .

عَلَى جُيُوبِهِنَّ : على مواضعها (صدورهن وما حواليها) .

لِبُعُولَتِهِنَّ : لأزواجهن .

أَوْ نِسَائِهِنَّ : المختصات بهن بالصحبة أو الخدمة .

الإِرْبَةِ : أصحاب الحاجة إلى النساء .

لَمْ يَظْهَرُوا : لم يبلغوا حد الشهوة .

إن أحكام الإسلام عن النساء لها جانبان: أحدهما : هو الذي يسمى ((ستر العورة))، والآخر : هو الذي يحمل عنوان ((الحجاب)) .. أما الأحكام المتصلة بستر العورة فهي بيان ما يجوز للمرأة أن تكشف ، وما لا يجوز لها أن تكشف من أجزاء بدنها ، سواء كانت في البيت أو خارجه ، ومَنْ هم الذين يُباح لها أن تبدي زينتها لهم ، وما حد الزينة المسموح بإبدائها ، وما هي مرات بالمسموح لهم النظر إليها .. إلخ .

وأما الحجاب فهو يتعلق بتستّر المرأة خارج البيت خاصةً .. أي ما هو الوضع الذي فرضته الشريعة الإسلامية على المرأة أن تلتزم به عند خروجها من البيت وفي السفر .. والآية محل التفسير الآن تتحدث أساساً عن مسائل ((العورة)) ، بينما ورد الحديث عن مسألة ((الحجاب)) في سورة ((الأحزاب)) ، وسوف نبينها في موضعها إن شاء الله تعالى .

وقوله : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ يدل على أن العنصر الرئيسي والأكبر أهمية بشأن تنفيذ أحكام الشريعة هو توفر الاستعداد الداخلي في النفوس لتقبلها وامتثالها .. وقد كان الصحابة والصحابيات - عليهم رضوان الله - المثل الأعلى في هذا الخصوص .. ويتضح ذلك مما روته السيدة عائشة تقول : ((إني - والله - ما رأيت أفضل من نساء الأنصار ؛ أشد تصديقاً لكتاب الله ، وإيماناً بالتنزيل ، لما أنزلت في سورة النور ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ ، انقلب رجالهن إليهن ؛ يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل ، فاعتجرت - أي التفت - به ، تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه .. فأصبحن وراء رسول الله - ﷺ - معتجراتٍ كأن على رؤوسهن الغربان!))[1].

﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٦٠٠.

حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

وَأَنكِحُوا الأَيَامَى : من لا زوج لها ، ومن لا زوجة له .

يَبْتَغُونَ الكِتَابَ : يطلبون عقد المكاتبة المعروف .

فَتَيَاتِكُمْ :إمائكم .

البِغَاءِ : الزنى .

تَحَصُّناً : تعففا وتصونا عنه .

الإسلام يفضل الحياة الزوجية للرجل والمرأة .. فلا يجوز لأحدهما أن يمتنع عن الزواج لأي عذرٍ من الأعذار .. وإذا وُجد ثمة رجال أو نساء في المجتمع الإسلامي لم يتزوجوا ، أو لا يقدرون على التزوج بسبب عائقٍ ماديٍ أو غيره من الأسباب ، فإن الإسلام يريد لأتباعه عندئذٍ أن يعتبروها قضيةً مشتركةً تهم الجميع ، وبالتالي فلا يهدأ بالهم ولا يستريحون ما لم يقوموا بإيجاد حل شرعي للقضية .

والمراد بالكتاب أو المكاتبة تحرير وثيقة يعاهد فيها العبد - أو الأمَة - سيده بأنه سيدفع إليه في مدة كذا من الزمان مبلغ كذا من المال ، فإذا أداه ، تحرر من رق عبوديته .

ولما جاء الإسلامي كان الاسترقاق عادةً متبعةً وعرفاً سائداً في شبه الجزيرة العربية وفي سائر أنحاء العالم يومذاك.. وقد شرع الإسلام منذ أول ظهوره في القضاء على تلك العادة بصورةٍ منظمةٍ للغاية .. ومن بين الوسائل أو الأساليب التي تبناها لتحقيق هذا الغرض ما يسمى ((المكاتبة)) .. غير أن الإسلام قد سار ، وهو يقود مسيرة فك الرقاب (أي تحرير العبيد) على خطة التدرج ، كما هو شأنه في كل ما نفذه من الأحكام التشريعية والبرامج الإصلاحية .. فما زال الأرقّاء يُحررون بشتى الطرق ، حتى كادت

هذه المؤسسة أن تنعدم وتتلاشى في أواخر العهد الراشدي!!

والناس في قديم الزمان كانوا يأمرون إماءهم بالتكسّب من وراء الدعارة .. وقد كانت لدى عبد الله بن أبيّ - رأس المنافقين بالمدينة - جاريات يحترفن له البغاء ، وهو يستدرّ من خلال ذلك الماء الوفير .. وعندما أسلمت إحداهن فامتنعت عن البغاء ، أخذ في إجبارها عليه بالضرب والتهديد .. وفي نهاية المطاف تم تخليص تلك الجارية المؤمنة من يد عبد الله بن أبي بأمرٍ من رسول الله ﷺ .

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ : منورهما أو هادي أهلهما أو موجدهما .

كَمِشْكَاةٍ : كنور كورة غير نافذة .

مِصْبَاحٌ :سراج ضخم ثاقب .

زُجَاجَةٍ : قنديل .

كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ : مضيء متلألئ صاف .

هذا تمثيل مركب .. وقد أُريد بالنور في الآية هداية الله .. وبالمشكاة - وهي الكوة - قلب الإنسان .. وبالمصباح استعداده للإيمان .. وأما الزجاجة والزيت فهما يكشفان عن مزيد من خصائص ذلك الاستعداد .. فالزجاجة تشير إلى كون هذا الاستعداد داخل القلب الإنساني مصوناً من المؤثرات الخارجية .. بينما يدل الزيت الصافي على أن هذا الاستعداد قوي وعارم لدرجة أنه ينتظر في لهفةٍ وشوقٍ ، متى يظهر الحق أمامه ، حتى يسرع إلى قبوله بدون توقفٍ !!

وإنها لحقيقة لا سبيل إلى إنكارها أن الذات الإلهية هي وحدها مصدر النور في هذا الكون .. وإنما يستمد الكل النور والهداية منها وحدها لا غير .. فوق ذلك فإن الله -

سبحانه وتعالى - قد أنشأ الإنسان بحيث أودع طلب الحق في فطرته .. وهذا الطلب شديد وقوي إلى غير نهاية .. ولو أنه قد حُوفظ عليه من الضياع ، لبقي في حالة عدم الاستقرار والاضطراب الدائم بحثاً عن إجابته وتلبيته .. إن استعداد الإنسان للقبول متدفق وعارم في طبيعته ، كأنما هو النفط النقي الذي حين تقرب منه نار يشتعل من فوره !

والمؤمن هو الإنسان الحقيقي الذي لم يعرض استعداده الفطري للضياع ، فإذا ما قُدمت إليه دعوة الحق ، تحرك استعداده الكامن ، وبالتالي لم يلبث وجوده أن يصير بأكمله مضيئاً ومشرقاً بانضمام نور الفطرة إلى جانب نور الهداية الربانية !

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

بُيُوتٍ : هي المساجد كلها .

أَن تُرْفَعَ : أن تُعظم وتطهر

بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ : أول النهار وآخره .

بِغَيْرِ حِسَابٍ : بلا نهاية لما يعطي أو بتوسع .

إن المسجد من المجتمع الإنساني بمنزلة القلب من الجسم الإنساني .. وقلب الإنسان يعمر بالإيمان ، وأما المساجد فتعمر بعبادة الله .. وإن المساجد بيوت الله ، وهي لا تُبنى إلا لكي يُذكر اسم الله فيها وتتلى آياته آناء الليل وأطراف النهار .. وإن الذين يرتادونها ليس لهم من غرضٍ سوى أن يتوجهوا بقلوبهم إلى الله في رحابها ، حيث يسود جوّ روحي مشرق ، وأن يقضوا هناك بعض الوقت في عبادة ربهم بتجردٍ وإخلاصٍ بالغين .

والذي كُتب له التوفيق لكي يتعرف على صوت فطرته ، فيؤمن بالله ، ثم يشغل

نفسه بأعمال المسجد ؛ فإن الله يملأ فؤاده بخشيته والشعور برقابته الدائمة .. وإنها - بحقٍ - لأعظم نعمةٍ يفوز بها إنسان في العالم الراهن .. فإن أصحابها هم الذين يختارون طريق العبودية لله على مستوى التضحية والفداء ، ويقطعون صلتهم بالأرباب ليرتبطوا برب الأرباب وحده !

وذلك هو الإنسان الذي يستحق عند الله الإنعام الأفضل .. وإنه تعالى سيرزقه من فضله بغير حسابٍ !!

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠ ﴾

كَسَرَابٍ : شعاع يُرى ظهرا في البر عند اشتداد الحر كالماء الشارب .

بِقِيعَةٍ : في مبسط من الأرض .

بَحْرٍ لُّجِّيٍّ : عميق كثير الماء .

يَغْشَاهُ : يعلوه ويغطيه .

سَحَابٌ : غيم يحجب أنوار السماء .

هناك نوعٌ من البشر سبق ذكره في الآية رقم (٣٥) .. وهو الذي يحتفظ باستعداده الفطري ؛ فيُوفق - ثمرة ذلك - للفوز بنعمة الإيمان .. وهنا تتحدث الآيتان (٣٩ ، ٤٠) عن نوعين آخرين من البشر ؛ عن أناسٍ لا يكاد «زيْتهم» يشتعل - ولو مسّته نار دعوة الحق - غير مرةٍ !

أما أحد هذين النوعين : فهو الذي يظل متمسكاً بدين مزعوم ، ما أنزل الله به من سلطانٍ ، ويعيش فرحاً مسروراً بالآمال الزائفة مغتراً بالأوهام الباطلة .. وهكذا لا تبرح الأماني الحالمة مسيطرةً على قلبه ، مستبدةً بعقله على مدى الحياة ، حتى إذا وافاه

الأجل المحتوم تبخّرت آماله وأحْلامه كلها ، حيث يفاجأ بإدراك أن الشيء الذي كان يعتبره مستقره ومأواه ، لم يكن سوى هاوية الدمار والهلاك المؤبد!!

وأما النوع الثاني: فهو يشمل المنكرين والسائرين في طريق البغي والطغيان علناً وجهاراً ، وهؤلاء يحاولون أن يخترعوا الهداية من عند أنفسهم تاركين الهداية المنزلة من عند الله ، على أن محاولتهم هذه سرعان ما تنتهي بالفشل التام والخيبة المطلقة ؛ فإنه ليس ثمة من هادٍ في هذا العالم غير الله الواحد الأحد ، ولا يقع في نصيب المرء ، بعد التخلي عن الله - تبارك وتعالى - سوى أن يظل يتخبط في الظلام الحالك ويعمه في الضلال البعيد إلى الأبد!!

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾

صَافَّاتٍ : باسطات أجنحتهن في الهواء .

إن ما يطلبه الله سبحانه من الإنسان هو أن يعيش الإنسان في هذه الدنيا كما ينبغي له أن يعيش بمقتضى الحقيقة .. وهذا هو دين الحق .. والكون كله - من هذه الناحية - على دين الحق .. فإن كل شيءٍ في هذا الكون إنما يعمل ويتحرك تماماً كما ينبغي له أن يعمل ويتحرك بحكم الواقع .. وليس هناك شيءٍ في رحاب هذا الكون - ما عدا الإنسان - يتصادم في سيره وحركته مع الحقيقة الواقعة .

ومن بين هذه الأشياء التي لا تقع تحت الحصر ، لنتدبر مثال الطير ؛ الذي يجسد لنا ، وهو يطير باسطاً جناحيه في الهواء ، النموذج العملي الكامل لهذه الحقيقة .. حيث يبدو وكأنه يسبح في عالم الحقيقة الأبدية بمنتهى التوافق والانسجام ، وكأنه قد دمج وجوده الفردي في بحر الحقائق الممتد إلى غير نهايةٍ !!

ولكل أحدٍ من المخلوقات تسبيح إلهي ، وهو المطلوب منه.. كما أن للإنسان تسبيحاً إلهياً معيناً ، وهو مطالب به .. ولو وقف الإنسان إزاءه موقف التجاهل والغفلة أو

العناد والطغيان ، فإنه سيُضطر إلى دفع ثمن باهظٍ لذلك ، عندما يلقى ربه وجهاً لوجهٍ !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾

يُزْجِي سَحَاباً : يسوقه برفق إلى حيث يريد .

يَجْعَلُهُ رُكَاماً : متجمعا فوق بعضه .

الوَدْقَ : المطر .

مِنْ خِلالِهِ : من فتوقه ومخارجه .

سَنَا بَرْقِهِ : ضوء برقه .

ذُكرت هنا بعض الظواهر الكونية على سبيل المثال ، ثم جاء التعقيب القرآني عليها بأن فيها عبرةً لذوي البصائر .. وأصل العبرة من العبور أي الاجتياز .. ويُراد بها تلك الرحلة الذهنية التي ينتقل المرء عبرها من شيء إلى شيءٍ آخر .. فحين يربط المرء واقعةً ما بالحقيقة العليا ، وحين يدرك الجانب المعنوي لشيءٍ ما من خلال التأمل في جانبه الظاهري ، فذلك ما يُسمى «العبرة» . ولننظرْ إلى هذا السحاب المتراكم الذي ينتج عن تفاعل ما لا يُحصى من الكائنات بدءاً من الأرض وحتى الشمس ، في نظام متكاملٍ عجيبٍ .. ثم إن هذه السحب تنزل تارةً مطراً ينعش الأرض الهامدة وطوراً تمطر برداً يتلف الزرع ويهلك المخلوقات الحية بما فيها الإنسان .. وهذا هو شأن ضوء الرعد وتقلب الليل والنهار كذلك .. إن هذه المظاهر تنطوي على حقائق معنوية لا تحصى ، والذين يستطيعون ربط الظاهر بالمعنى ، أو الشكل بالمضمون ، هم وحدهم عند الله أصحاب البصر والبصيرة !

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

إن أشياء الدنيا تتسم - على ما يبدو ظاهراً - بالتعدّدية .. مما جعل المشركين قديماً وحديثاً يزعمون - قياساً على ذلك - أن الأشياء لابد أن يكون لها أكثر من خالقٍ واحدٍ .. على أن الأمر ينقلب رأساً على عقبٍ حينما ننظر إلى الأشياء من حيث الوحدة والمماثلة التي تكمن فيها جميعاً ، رغم تنوعها الشكلي وتعددّيتها الظاهرية !

وللحيوانات المتواجدة على وجه الأرض أنواع تتجاوز مئات الآلاف .. ولكن الدراسة المتعمقة تدلنا على أن أصل الجميع واحد ، وأن كل الحيوانات خاضعة لنظامٍ حياتي موحّد .. وعلى ضوء هذه الدراسة تتحول ظاهرة تعددية الأشياء واختلافها شكلاً ونوعاً ووظيفةً ، إلى دلائل قدرة الخالق المبدع وعظمته .. والأمر الذي كان يبدو، من ناحيةٍ، مؤشراً لتعدّد الخالق ، فإذا به يصبح ، من ناحيةٍ أخرى ، دليلاً على توحيد الخالق !!

وإن العالم الراهن لا يمكن فيه العثور على الحقيقة إلا وسط غبارٍ قاتمٍ يلفّها ، وفي خضم دواعي الغواية والخداع تحول دون الوصول إليها .. فلابد للمرء هنا من أن يرتفع بنفسه عن صنوف المغريات والمضلّلات ، حتى يستطيع مشاهدة الحق .

وقد زوّد الله الإنسان بالعقل لهذه الغاية السامية .. فمن يستعمل هذا المشعل الإلهي على الوجه الصحيح يهتدِ إلى سبيل الرشاد .. ومن لا يستعمله أو يسيء استعماله ، فليس له من مصيرٍ في هذا العالم سوى التخبط في متاهات الضلال!!

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ

﴿ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

مُذْعِنِينَ : منقادين مطيعين.

أَن يَحِيفَ : أن يجور .

كانت هناك طبقة من أهل المدينة قد انضمت إلى صفوف المسلمين ظاهراً ، غير أنها لم تكن مخلصةً في إيمانها ولا صادقةً في ولائها للإسلام .. وهي التي تُعرف بطبقة المنافقين .. ومع أن هؤلاء كانوا يقولون بألسنتهم ((سمعاً وطاعةً)) لله ولرسوله .. ولك حين يتعرضون يوماً لمحنةٍ أو اختبارٍ ، يكذبون دعواهم تلك بعملهم!!

وبما أن المدينة حينذاك لم تكن قد تأسست فيها المحكمة الشرعية الإسلامية بعد ، ما برح الزعماء اليهود يشغلون مركز القضاء التقليدي بين الناس كعهدهم منذ مئات السنين .. وإنما بدأ هذا الوضع يتغير ، على أثر قدوم رسول الله - ﷺ - مهاجراً من مكة إلى المدينة .. حيث أصبح - عليه الصلاة والسلام - منذئذٍ هو مرجع المؤمنين في كل شئونهم الدينية والاجتماعية .. وأما المنافقون فقد اتخذوا في هذا الشأن موقفاً مزدوجاً أو بالأحرى انتهازياً كما جرت بذلك عادتهم في كل الأمور والمعاملات .. فلو ثارت خصومة ما بين رجلين أحدهما منافق والآخر من المسلمين الصادقين ، ودعاه المسلم إلى تحكيم رسول الله ، فإنه لم يكن يرضى بذلك إلا إذا كان على يقينٍ من أنه صاحب الحق في القضية محل النظر ، وبالتالي سيصدر الحكم في مصلحته هو .. وإذا كان الأمر على النقيض من هذا ، عارض المنافق خصمه قائلاً : لنذهب إلى الزعيم الفلاني من اليهود ليحكم بيننا !

وهذا على ما يبدو لباقة أو دهاء .. غير أن صاحبه ظالم لنفسه أشد الظلم .. فإن الكاسبين على هذا النحو سيصلون إلى الآخرة وقد خسروا قضيتهم كل الخسران !

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ

وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

إن الرجل العادي يكون تابعاً لمصلحته .. أما المؤمن فهو الذي يجعل من نفسه تابعاً لله ولرسوله .. فإذا ما اتضح له حكم الله ورسوله ، أذعن إليه ونفذه كما هو من غير تلكؤٍ ولا ترددٍ أو انتحال معاذير ، سواء أكان ذلك الحكم مطابقاً لهواه أم مناقضاً له ، كفيلاً بالحفاظ على مصالحه أم مؤدياً إلى ضياع مصالحه!!

وفلاح الآخرة ليس إلا من نصيب مَنْ أخضعه إيمانه لحكم الله ورسوله .. والذي قد استقر الشعور بالله في أعماق قلبه بحيث يخاف منه أشد الخوف ، ويصبح لا هم له سوى العمل على إنقاذ نفسه من غضب الله وسخطه ، باعتبار ذلك هو قضية الحياة الكبرى!

﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ : مجتهدين في الحلف بأغلظها وأوكدها .

طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ : طاعتكم طاعة معروفة باللسان .

مَا حُمِّلَ : ما أمر به من التبليغ .

مَّا حُمِّلْتُمْ : ما أمرتم به من الطاعة والانقياد .

إن الشخص الذي يستقر الله في أعماق قلبه ، ويتغلغل الخوف منه تعالى في أحشائه، يعود خافض البصر ومعقود اللسان تواضعاً وخشوعاً .. وقد يدفعه شعوره بالمسئولية إلى تقديم التضحيات الجسام ، إلا أنه يبدو للناظرين أخرس لا يعرف الكلام ، بينما يتعالى فيما حوله ضجيج الاداعات اللسانية الجوفاء !!

وعلى نقيضٍ من ذلك فإن الذي يكون ((ناقصاً)) في علاقته بالله ، يصبح ((كثير الكلام)) حيث يحاول أن يتلافى نقص عمله بوفرة الألفاظ .. ولكونه لا يملك شهادة السلوك الحقيقي، يلجأ إلى التشدق بالكلمات الفخمة والشعارات المدوية لإقامة الدليل على اعتباره وقيمته !! والذين يريدون التأثير على الآخرين وكسب إعجابهم بهم عن طريق التلاعب بالألفاظ ، يحسبون أن القضية هي قضية البشر وحدهم ليس غير .. ولكن تفكير المرء ومنهج حياته سيتغيران تماماً ، فيما لو أيقن بأن القضية الحقيقة هي التي سيواجهها عند الله - سبحانه وتعالى !

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

إن وعد الغلبة الذي ذكرته الآية الكريمة موجّه أصلاً إلى الرسول وأصحابه - عليه الصلاة والسلام - إلا أنه يشمل بالتبع سائر الأمة المحمدية كذلك .. ويتضح من هذا أن الغلبة والسلطة لا تمثلان هدف نشاط المؤمنين أو غاية عملهم في هذا العالم ، فإنما هي منحة إلهية ، ينعم الله بها على الجماعة المؤمنة ثمرة الإيمان والعمل الصالح .

والغرض من هذه الغلبة هو تمكين أهل الإيمان من التماسك والاستقرار في الأرض، وأن تُتاح لهم الفرصة لكي يعيشوا آمنين من كل الأخطار التي تتهدد كيانهم من قِبَل أعداء الحق .. بحيث يعبدون الله بحريةً تامةٍ .. ويمارسون حياتهم كعبادٍ لله الواحد الأحد .. وسيظل أهل الإيمان متمتعين بهذه الغلبة والتمكين في الأرض ما داموا شاكرين لنعمة ربهم ، ولم يفقدوا صفة التقوى .

والخليفة في اللغة : هو الذي يخلف غيره فيقوم مقامه .. والاستخلاف يعني : إتاحة الغلبة والتمكين في الأرض لأمةٍ مكان أمةٍ بالتعاقب .. وإن الغلبة هي في الحقيقة ورقة امتحان إلهي .. فالله - سبحانه وتعالى - يمنح الغلبة لكل الشعوب والأمم ، الواحدة

تلو الأخرى ، لكي يختبرها بذلك .

وأما بالنسبة إلى الجماعة الإسلامية المؤمنة فإن هذه الغلبة إنعام وتكريم أيضاً إلى جانب كونها بلاءً وامتحاناً من الله العزيز الحكيم!

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾

مُعْجِزِينَ : فائتين من عذابنا بالهرب .

إن رحمة الله هي أن تُتاح الغلبة في الدنيا والجنة في الآخرة .. والذين يرجون رحمة الله هذه ، ينبغي عليهم أن يتحلوا بصفاتٍ ثلاث ، وهي :

١ - إقامة الصلاة .. وهي من الناحية الشكلية علم على إقامة نظام الصلوات الخمس الرتيبة .. وأما من الناحية المعنوية فإنها تعني أن يعيش الناس على الخشوع والتواضع ، وليس على التكبر والطغيان .

٢ - إيتاء الزكاة .. وللزكاة بدورها صورة وحقيقة .. أما صورتها فهي أن تدفع مبلغاً معيناً من مالك - إذا بلغ حد النصاب - إلى بيت المال على مدار السنة ، وأما الزكاة - من حيث حقيقتها الجوهرية - فهي تطهير للنفوس من الجشع والأثرة ، وتربية للناس على معاني الإيثار والنصح وحب الخير للآخرين .. حتى تتمكن هذه المعاني من قلوبهم لدرجة يعتبرون معها أن في أنفسهم وأموالهم حقاً لغيرهم !

٣ - طاعة الرسول .. إن طاعة الرسول كانت في عصره طاعة لذات الرسول .. وقد صارت فيما بعد طاعة سنة الرسول .. ومعنى ذلك : أنه يجب على الناس جميعاً أن يتخذوا من رسول الله النموذج الأعلى للحياة ؛ فينظروا إليه على أنه هو قائدهم ومرشدهم الأوحد في كل الشئون والمعاملات الحياتية .. فحين تتجلى سنة الرسول في أمرٍ من الأمور يتخلى الجميع عن آرائهم الشخصية ، وليكن الرسول دائماً إلى الأمام ، بينما يسير الكل وراءه طائعين منقادين!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

جُنَاحٌ : حرج في الدخول بلا استئذان .

وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ : العجائز اللاتي قعدن عن الحيض .

مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ : مظهرات للزينة الخفية .

يبدو أن هذه الآيات نزلت متأخرةً بعض الشيء ، وألحقت بهذا الجزء الأخير من السورة ؛ لتكون تتمةً أو توضيحاً لما سبق أن ذُكر من الأحكام والتشريعات الاجتماعية في المقاطع الأولى من هذه السورة .. ففيما كانت الآية رقم (٣١) مثلاً ، وهي تتضمن التوجيهات الخاصة بالنساء من غض البصر وستر العورات والتزام الحشمة والوقار .. إلخ ، قد أكدت على وجوب إلقاء الخمار على صدورهن ، نجد هنا الآية رقم (٦٠) قد استثنت من ذلك الحكم العام النسوة العجائز اللاتي تجاوزن سن الزواج ، حيث تقرر : إنه ليس عليهن من حرجٍ أو إثمٍ فيما إذا لم يبالغن في التستّر ، ووضعن بعض ثيابهن كالرداء والجلباب.. وقد كان من الممكن أن ينزل كلا هذين النوعين من الأحكام معاً ؛ ولكن هناك أربعة مقاطع تفصل بينهما ، تناولت موضوعات أخرى مثل آيات الله في الكون وطبيعة المنافقين ، وحسن آداب المؤمنين .. إلخ .. وكما يُستفاد من الروايات أن مجموعةً من المسائل العملية تولّدت في أعقاب نزول الأحكام المتقدم ذكرها ، فأنزل الله

هذه الآيات التوضيحية رفعاً للحرج والمشقة عن المؤمنين .. ويتضح من هذا أيضاً أن منهج القرآن الكريم هو منهج التدرج والمرحلية ، وليس منهج الإقدام على التنفيذ والتطبيق دفعةً واحدةً .. فقد كان بإمكان الله - سبحانه وتعالى - أن ينزل كل الأحكام والتشريعات في آنٍ واحدٍ ، غير أنه تعالى أنزلها تدريجياً بحسب الأحوال والظروف!

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ : مما في تصرفكم وكالة أو حفظا.

أَشْتَاتاً : متفرقين .

لم يكن في المجتمع العربي قبل الإسلام أية قيود ولا التزامات ولا آداب يتعين على الأفراد مراعاتها خلال التعامل بعضهم مع بعض .. ولما جاء الإسلام وفرض على الرجال والنساء ما سبق ذكره من الأحكام والتشريعات المتصلة بغض الأبصار وحفظ الفروج، والحجاب وأدب الاستئذان قبل الدخول إلى بيوت الآخرين.. إلخ ، خُيل إلى بعض الناس أن حياتنا الاجتماعية ستعود ، بسبب هذه القيود والالتزامات ، محدودةً وضيقةً للغاية.. فنزلت هذه الآية توضح للناس أن الله - سبحانه وتعالى - إنما يريد بفرض تلك القيود والآداب تنظيم حياتكم الاجتماعية ، وليس القضاء على حرياتكم المشروعة .. إذْ هو يعلم أن ذوي الأعذار والعاهات كالأعمى والأعرج والمريض مثلاً ، لو حيل بينهم وبين أقاربهم لكلفهم ذلك عناءً بالغاً ، فإنهم سيصبحون

بعد ذلك عملياً بلا سندٍ ولا معينٍ يرعاهم .. وظاهر أن هذا ليس مما يتوخاه الإسلام في شيء .. ومن ثم رفع عنهم الحرج ببيان جانب اليسر والتخفيف المتاح لهم في الأحكام السابقة ، مع التأكيد على ضرورة الاحتفاظ بروحها الأصلية .

وقد بين - سبحانه وتعالى - هنا أن مطلوب الإسلام الحقيقي يتلخص في أن تكون قلوب المؤمنين منطوية على مشاعر النصح والمودة وحب الخير بعضهم لبعض .. وأن الواحد منهم إذا دخل بيت أخيه فليقل : « السلام عليك ورحمة الله وبركاته » .. وهو تعبير عن تلك الروح السامية التي لو وُجدت في النفوس حقاً ، فإن معظم الشرور والمفاسد الاجتماعية ستنعدم وتتلاشى تلقائياً !

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

أَمْرٍ جَامِعٍ : أمر مهم يجب اجتماعهم له .

إن أناساً حين يرتبطون بالإسلام ويرتضونه لأنفسهم ديناً ومنهج حياةٍ ، فكثيراً ما تدعو الحاجة إلى أن يتم حشدهم في صعيدٍ واحد ، إما للتشاور حول أمرٍ من الأمور يهم المسلمين بعامةٍ ، أو لأجل الحصول على التعاون والمساعدة (المادية والمعنوية) على تحقيق مشروعٍ من المشاريع الاجتماعية ، أو لغير ذلك من الأغراض والمصالح العامة.. ويحدث في مثل هذه المناسبات أن الذي تغلب عليهم مطالبهم الفردية الخاصة ، سرعان ما يفتر حماسهم ونشاطهم ، ويدب في نفوسهم دبيب الملل والسآمة ، وبالتالي يريدون أن ينصرفوا من المجلس في صمتٍ وسريةٍ .. وهذا المزاج ليس من المزاج الإسلامي الصحيح في شيءٍ .. على أنه قد يكون هناك أفراد حتى من بين أولئك الذين يُعرفون بصدق الولاء والنزاهة والإخلاص ، يودون الذهاب قبل انتهاء الاجتماع لبعض الضرورات الوقتية القاهرة .. ومنهج أمثال هؤلاء هو أنهم لا يذهبون إلا بعد طلب

الإذن من الشخص المسئول (كما كان المؤمنون يستأذنون الرسول بوصفه هو المسئول الأوحد عن جميع شئونهم ما دام بين أظهرهم) ، وإذا لم يسمح لهم المسئول بالانصراف لأي سببٍ من الأسباب ، فإنهم لا يبرحون مكانهم حتى ينتهي آخر أعمال الاجتماع من غير شعورٍ بالضجر أو الاستياء .. هذا ، وأما الذي يكون مسئولاً عن شئون المسلمين الاجتماعية ، فينبغي له أن يتقبل من صميم قلبه عذر مَنْ يعتذر إليه بناءً على ضرورةٍ طارئةٍ ، وأن يدعو الله له بالعفو والمغفرة والتوفيق !!

﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾

دُعَاءَ الرَّسُولِ : دعوته لكم للاجتماع أو نداءكم له .

يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ : يخرجون منكم تدريجا في خفية.

لِوَاذاً : يستتر بعضهم ببعض في الخروج .

يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ : يعرضون أو يصدون .

فِتْنَةٌ : بلاء ومحنة في الدنيا .

إن طاعة الرسول المذكورة هنا كانت تتعلق بشخص الرسول في حياته ، وهي الآن، بعد وفاة الرسول ، تتصل بكل شخصٍ يُعهد إليه بولاية أمر المسلمين .. والذين يحاولون التهرّب من أداء دورهم في المعاملات الاجتماعية ، ربما يحسبون أنهم بعدم تبديد الوقت فيما يهم الجماعة ، يدعمون أمورهم الفردية .. غير أن الطائفة التي تفتقد الوحدة والجماعية ، يجد أعداؤها منفذ التسلل إلى صفوفها .

سورة الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ ﴾

تَبَارَكَ الَّذِي : تعالى وتمجد .. أو تكاثر خيره .

نَزَّلَ الْفُرْقَانَ : القرآن الفاصل بين الحق والباطل

فَقَدَّرَهُ : فهيأه لما يصلح له ويليق به .

نُشُوراً : بعثا بعد الموت في الآخرة .

كلمة ((الفرقان)) تعني المعيار الذي يُفرق به بين الحق والباطل .. والمراد به هنا : القرآن الكريم .. وإن نزول هذا الفرقان أو الكتاب الفارق من عند الله ، الذي هو عليم وخبير ، وهو الحاكم المطلق للمخلوقات كلها ، يدل على أمرين في آنٍ معاً ، أحدهما : أنه صحيح بكل تأكيد ؛ لا يتطرق إلى صحته وقطعيته أي شكٍ أو ريبٍ .. والثاني : أن عاقبة الإيمان به وعدم الإيمان به لن تكون سواء !!

إن الله هو وحده المالك لكل قوةٍ واختيارٍ .. ولا أحد يقدر على التأثير على حكمه وليس بمستطاع أحدٍ أن يحول بينه وبين أقضيته وقراراته .. وهذا الواقع كفيل بأن مَنْ

يتخذ من القرآن مرشداً له في حياته سيكتب له النجاح والسعادة في الدارين ، وأن مَنْ يهمله ويعرض عنه ، فإنه لن يتمكن أبداً من إنقاذ نفسه من ذلك الفشل المرير المحتوم الذي قدّره الله للمعرضين عن الحق !

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ ﴾

إِفْكٌ : كذب اخترعه من عند نفسه .

وَزُوراً : كذبا عظيماً لا تبلغ غايته .

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ : أكاذيبهم المسطورة في كتبهم .

بُكْرَةً وَأَصِيلاً : أول النهار وآخره : أي دائما .

يَعْلَمُ السِّرَّ : يعلم كل ما يغيب ويخفى .

لقد كان الكافرون في ظاهرهم يصفون القرآن بأنه كذب وافتراء .. إلا أن قولهم ذاك كان في الحقيقة موجهاً إلى شخص الرسول .. حيث كان الرسول يتراءى لهم إذْ ذاك إنساناً عادياً ، لدرجة أنه كان يتعذر على أفهامهم أن يكون إنسان عادي مثله صاحب كتابٍ غير عاديٍ مثل القرآن العظيم !!

إن القرآن الكريم يتناول كل أنواع الموضوعات : الدينية ، التاريخية ، النفسية ، العلمية، الاجتماعية ، وما إلى ذلك .. ولكن لم يمكن لأحد العلماء والباحثين حتى الآن أن يعثر على خطأ حقيقي واحدٍ في مضامينه .. مما يبرهن على أن القرآن كلام صادر عن

إله يحيط علماً بكل أسرار الكون خفيّها وجليها ، صغيرها وكبيرها .. ولولا ذلك لوجدنا في القرآن هو الآخر أخطاء كما نجدها في الكتب البشرية الأخرى .. وهذا الواقع يمثل في ذاته أكبر دليلٍ على كون القرآن كتاباً إلهياً !!

وإن الذين يلوكون أقاويل باطلةً حول القرآن ، هم أناس بلغوا من الجرأة والتمرد على الله إلى أبعد حدٍ .. وليس من الشك في أن أمثال هؤلاء سيتعرضون - عاجلاً أو آجلاً - لبطش الله الشديد.. ولكن لو أنهم تابوا وأنابوا إلى ربهم ، فليس من عادته - سبحانه وتعالى- أن ينتقم ممن يعود إليه تائباً .

﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۙ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٨ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ۝٩ ﴾

جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا : بستان مثمر يتعيش منه .

رَجُلاً مَّسْحُوراً : علب السحر على عقله .

حين يرى أهل الباطل بعض الناس يتأثرون بكلام النبي ، يحاولون التقليل من فاعليته وإضعاف تأثيره قائلين : إن هذا مجنون ، أو إنه رجل مسحورٍ مغلوب على عقله، أو ما إلى ذلك من الأباطيل والاتهامات .. إنهم يلجأون إلى الطعن وتلمس العيوب إذْ يجدون أنفسهم عاجزين تماماً في ميدان الدليل .. في حين أن مقاومة أحدٍ بواسطة الدليل والبرهان أمر جائز لا غبار عليه .. وأما تشويه سمعة أحد الناس بالطعن فيه فلا يجوز مطلقاً !

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ

وَنَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾

سَعِيراً : ناراً عظيمة شديدة الاشتعال .

تَغَيُّظاً : صوت غليان كصوت المتغيظ .

وَزَفِيراً : صوتاً شديداً كصوت الزافر .

مُّقَرَّنِينَ : مقرونة أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال .

ثُبُوراً : هلاكاً فقالوا وا ثبوراه .

وَعْداً مَّسْئُولاً : موعودا حقيقاً أن يسأل ويطلب .

إن معارضي الحق يتخذون غالباً من ذات الداعي إلى الحق موضوع الطعن والتشويه ، حيث يثيرون حوله أباطيل شتى لإهدار كرامته زعزعة ثقة الناس به .. وهكذا يضللون الرأي العام بأنهم أول من يبادر إلى تلبية نداء الداعي إلى الحق فيما لو كان هو طبقاً لمعيارهم .. غير أن هذا مغالطة سافرة .. فليست القضية هي أن داعي الحق ليس في نظرهم جديراً بالثقة والاعتبار ، وإنما القضية كامنة أصلاً في أنهم لا يخافون من مؤاخذة يوم القيامة ، مما جعلهم يبدأون ويعيدون ما بدا لهم من الألفاظ والعبارات الفارغة بدون أدنى تهيبٍ ولا شعورٍ بالمسئولية .

وإن أمر الحق والباطل إنما يستمد أهميته كلها من حيث إن الإنسان مسئول عنه في

الآخرة ، وأما الذين صاروا لا يخافون من حساب الآخرة فإنهم لا يلبثون أن يعودوا غير جادّين تماماً في أمر الحق والباطل ، والمرء إذْ لم يكن جاداً بالنسبة إلى شيءٍ ما ، فإنه لن يستشعر مدى أهميته وخطورته أبداً ، مهما قدمت إليه الأدلة الواضحة في صالحه .. وسوف لا ينفذ رصيد الألفاظ لدى أناسٍ كهؤلاء ، إلا إذا انتزعت زلزلة الساعة منهم ألفاظهم!

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

نَسُوا الذِّكْرَ : غفلوا عن دلائل الوحدانية .

قَوْماً بُوراً : هالكين أو فاسدين .

صَرْفاً : دفعاً للعذاب عن أنفسكم .

في معرض تفسيره لقوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ ﴾ قال ابن كثير: ((أي نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك)) [1].

والحقيقة هي أن الأمم المعاصرة للأنبياء الكرام لم تكن أمماً كافرةً ومشركةً بالمعنى المعروف ، وإنما كانت كل واحدةٍ منها أمةً منتميةً إلى أحد الأنبياء السابقين .. فقد أبلغها الأنبياء المرسلون إليها هداية الله ، إلا أنها لم تلبث ، على مرور الزمان ، أن

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٦٢٧ .

تشاغلت بالدنيا ، وانهمكت في لذائذها ، واصطنعت عن صلحائها وأنبيائها عقيدةً قائلةً: بأنهم سيكونون لها شفعاء عند الله .. ولكن القيامة ، حين تقوم ، سوف تبطل كل العقائد المزعومة من هذا النوع بالمرة ، وسيدرك أصحابها حينئذٍ أنه لم يكن هناك أي منقذٍ آخر من بطش الله وعقابه غير الله، سبحانه وتعالى .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

فِتْنَةً : ابتلاء ومحنة .

إن الرسول وأهل الإيمان ابتلاء واختبار للمنكرين ، وكذلك العكس صحيح .. أما ابتلاء المنكرين فيكمن في أن يكتشفوا العظمة المخبوءة وراء مظهر الرسول البسيط الخالي – على ما يبدو – من أي عظمةٍ ، وأما ابتلاء المؤمنين فهو ألا يثوروا ولا يفقدوا السيطرة على أعصابهم تجاه أقوال المنكرين الاستفزازية وتصرفاتهم السخيفة .. بل يجب أن يظلوا صابرين وشاكرين لربهم على كل حالٍ !

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾

لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا : لا يأملون لكفرهم بالبعث .

عُتُواً : تجاوزا الحد في الطغيان والظلم .

حِجْراً مَّحْجُوراً : حراما محرما عليكم البشرى .

هَبَاءً : كالهباء (ما يرى في الكوى مع ضوء الشمس كالغبار) .

مَّنثُوراً : مفرقاً ذاهباً .

مَقِيلاً : مكان استرواح وتمتع ظهيرة .

إن الذين يطالبون بظهور الله وملائكته عياناً كشرطٍ للإيمان برسالة الداعي ، إنما يقيمون الدليل على عدم جديتهم ليس غير .. حيث إنهم لا يدرون ماذا يعني ظهور الله والملائكة؟! والحقيقة هي أن ما يتمتعون به من فرصة للقول والفعل إنما هي قائمة ما دام الحق قد تم إظهاره على مستوى الداعي ، وأما حين يظهر الحق على مستوى الله والملائكة ، فيكون ذلك ساعة القضاء الحاسم وليس وقت الإيمان والتصديق به !

إن كثيراً من الناس يعيشون في سوء فهمٍ أو تفاؤلٍ مؤداه أن الله إذا سأل أحدهم يوم القيامة عما جئت به ؟! فسأتقدم إليه بعملي الفلاني ، أو سأقول : إن لي شرف الانتماء إلى فلان وفلان من عبادك الصالحين !! ولكن مثل هذه الآمال والأماني الحالمة سوف لا تلبث ، عند قيام الساعة ، أن تتلاشى ، كقطرةٍ من ماء تتبخر فور سقوطها على حديدٍ حارٍ .. وإنما سينفع المرء يومئذٍ عمله الحقيقي وحده ، وليس أي نوعٍ من الآمال الوهمية الكاذبة!!

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

تَشَقَّقُ السَّمَاءُ : تتفتح السماوات .

بِالْغَمَامِ : بالسحاب الأبيض الرقيق .

سَبِيلاً : طريقا إلى الهدى أو إلى النجاة .

لِلإِنسَانِ خَذُولاً : كثير الخذلان لمن يواليه .

مَهْجُوراً : متروكاً مهملاً .

حين تقوم دعوة الحق في أي مكانٍ ؛ فسرعان ما ينبري لعرقلتها ومعاداتها أولئك الذين يتخذون الحق مطيةً للمتاجرة بالباطل .. وهم يثيرون شتى الأباطيل حول شخصية الداعي لتلبيس صدقه على الناس ، وبالتالي يتحول عدد كبير منهم ، نتيجة هذه الدعاية المغرضة ، إلى أنصار ومؤيّدين لهم!

والذين يرفضون مناصرة الداعي إلى الحق ، متأثرين بكلام قادة الضلال هؤلاء ، سيدركون يوم القيامة أن أدلة القادة لم تكن أدلةً حقاً ، وإنما كانت أباطيل ملفّقة بخبثٍ ودهاءٍ ، تناولوها بالتصديق لكونها تتفق ومصالحهم ، وجعلوا منها مبرراً لابتعادهم عن الحق.. وسيندمون حينئذٍ ، دون جدوى، على كونهم ظلوا مخدوعين ببريق أباطيل القادة المضللين، ولم يستجيبوا لنداء داعية الحق!!

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾ ﴾

وَرَتَّلْنَاهُ : فرقناه آية بعد آية . أو بيناه .

وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً : اصدق بياناً وتفصيلاً .

لم ينزل القرآن الكريم في صورة كتابٍ دفعةً واحدةً ، بل تم تنزيله منجماً على مدى ٢٣ سنةً .. وقد اتخذ المنكرون من ذلك مجالاً للقدح فيه ؛ حيث قالوا: إن هذا يدل على أنه كتاب إنسانٍ ، وليس كتاب الله ، فإن إعداد كتابٍ بكامله في آنٍ واحدٍ ليس بأمرٍ عسيرٍ على الله !! فقال تعالى رداً على شبهتهم : إن القرآن ليس محض تأليف ، وإنما هو دعوة .. ومن مصالح الدعوة أن يتم عرضها على التدريج ، حتى تتمكن من القلوب رويداً رويداً ، وتضرب بجذورها في أعماق البيئة بهدوءٍ وثباتٍ .

وكل اعتراضٍ يُوجّه إلى دعوةٍ تمثل الحق الكامل ، يكون اعتراضاً كاذباً واهياً ، وإذا ما أثير أي اعتراضٍ ضدها، فتم إدحاضه بالجواب المقنع الشافي ، ثبت بذلك صدق الدعوة بمزيد الوضوح والقوة ، دون أن يكون باعثاً على أدنى درجةٍ من الشك أو الارتياب فيها !

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَل كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾

فَدَمَّرْنَاهُمْ : فأهلكناهم .

وَأَصْحَابَ الرَّسِّ: البشر - قتلوا نبيهم ودسوه فيها .

وَقُرُوناً : أمما .

تَبَّرْنَا تَتْبِيراً : أهلكنا إهلاكاً عجيبا .

مَطَرَ السَّوْءِ : حجارة من السماء .

لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً : لا يتوقعون بعثا بل ينكرونه .

إن الأنبياء الذين يعرض القرآن قصصهم بعنايةٍ وتكرارٍ ، لا نكاد نجد لأكثرهم ذكراً في صحائف تاريخ البشرية المدّون .. مما يدل على أن المعاصرين لأولئك الأنبياء لم يعيروهم أي اهتمامٍ ، أو بالأحرى لم يعتبروهم من الأهمية بمكان .. فبينما قام هؤلاء بتسجيل أحوال الملوك والأباطرة والأبطال العسكريين بحماسٍ بالغٍ ؛ لكون أحوالهم تنطوي على الجانب السياسي ، أهملوا ذكر الأنبياء ؛ لأن أحوالهم كانت تخلو من بواعث المتعة واللذة لذوي الميول السياسية!

والغريب أن هذا المزاج لا يزال باقياً كما هو حتى يوم الناس هذا ، فالذين يبرزون اليوم على المسرح السياسي يحتلون على الفور مكان الصدارة في الصحف والإذاعة والتلفزيون .. وأما العاملون في المجال غير السياسي ، فإنهم نادراً ما يُعدّون أهلاً للذكر والتنويه لدى إنسان اليوم كذلك .

وإن المطلوب الأساسي من الإنسان هو أن يعتبر بالأحداث والوقائع .. غير أن هذا هو الشيء قلما وُجد لدى البشر بقدرٍ ملحوظٍ ، سواء في عصرنا هذا ، أو فيما سبق من العصور !!

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾

هُزُواً : مهزوءاً به .

«إنه كاد أن يصرفنا عن عبادة آلهتنا ، لولا أن ثبتنا عليها» يتضح من قول المشركين هذا أن سر بقائهم على دينهم كان يكمن في تعصبهم وليس في أي دليلٍ .. حيث كانوا قد صاروا مجردين من كل سلاحٍ في ميدان الدليل عاجزين عن المقاومة .. غير أن التعصب الأعمى مكّنهم من الاستمرار على دين آبائهم .. وهكذا يكون حال أكثر الناس ؛ إذْ لا يرتكز أكثرهم على شيءٍ سوى أرضية التعصب ، بينما يدّعون بألسنتهم قائمون على أرضية الدليل والبرهان !!

لمواجهة دعوةٍ ما منهجان : أحدهما : الرد عليها بواسطة الدليل .. والآخر : يتمثل في السخرية والاستهزاء بها.. والمنهج الأول جائز ومقبول تماماً .. وأما المنهج الثاني فهو غير جائزٍ ولا مقبول إطلاقاً .. وإن الذين يتلقون دعوةً ما بالتهكم والسخرية ، إنما يثبتون أنهم خسروا الرهان في ميدان الدليل ، وهم يحاولون الآن جاهدين تغطية خسرانهم بوسائل السخرية والاستهزاء !!

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾

أَرَأَيْتَ : أخبرني .

وَكِيلاً : حفيظا تمنعه من عباده ما يهواه .

ورد في حديث أن النبي - ﷺ - قال : «ما تحت ظل السماء من إلهٍ يُعبد من دون الله تعالى، أعظم عند الله عز وجل من هوى يُتبع» .

(رواه الطبراني ، عن أبي أمامة) .

وإنها لحقيقة لا مراء فيها أن هوى النفس هو أكبر الأصنام التي يعبدها إنسان .. بل هو وحده الصنم الأصلي ، وأما بقية الأصنام عداه ، فإنما وُضعت لتبرير العبودية

للهوى ليس غير !

وحين يتخذ الإنسان قائده ومرشده في الحياة من هواه ، ينحط إلى مستوى البهائم والحيوانات .. إن الحيوانات لا تتحرك بناءً على تأملٍ أو تفكيرٍ ، بل تبعاً لدوافع الغريزة وحدها .. إذن ، فأي فرقٍ سيبقى بين الإنسان والحيوان ، في حالة ما إذا أصبح الإنسان هو الآخر لا يستعمل مواهبه الفكرية ، ولا يسترشد عقله ، وإنما يسير في الاتجاه الذي يدفعه إليه هوى نفسه !!

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾

مَدَّ الظِّلَّ : بسطه بين الفجر وطلوع الشمس .

اللَّيْلَ لِبَاساً : ساترا لكم بظلامه كاللباس .

وَالنَّوْمَ سُبَاتاً : راحة لأبدانكم ، بقطع أعمالكم .

النَّهَارَ نُشُوراً : انبعاثا من النوم للسعي والعمل .

الرِّيَاحَ بُشْراً : مبشرات بالرحمة وهي المطر .

تحوي هذه الآيات الكريمة إشارةً رائعةً ، بلغة المشاهدة العامة ، إلى تلك الظاهرة التي تُعرف اليوم بدوران الأرض المحوري .. فالأرض تتم دورةً واحدةً حول محورها في كل أربعٍ وعشرين ساعةً .. وهذا الدوران المنتظم هو سبب مجيء الليل والنهار

بالتعاقب .. وإن هذا لَمن عجائب قدرة الله الباهرة .. فلولا دوران الأرض محورياً لظلّ نصفها معرضاً دائماً لأشعة الشمس الشديدة الحرارة ، وغمر نصفها الآخر ظلام حالك دائم ، ولأصبحت الحياة فوق الأرض نتيجة ذلك ، جحيماً لا يُطاق !

ونظام الأرض هذا ينطوي على كثيرٍ من العبر والنصائح البليغة .. فكما أنه لابد من مجيء ضوء النهار بعد ظلمة الليل، كذلك ليس ثمة بد من سيادة الحق على هذه الأرض عقب اندحار الباطل .. والنهوض صباحاً على أثر النوم ليلاً ، يذكرنا كل يومٍ بوقوع البعث بعد الموت في العالم الآخر .. وما إلى ذلك.

وهكذا هناك درس ذو مغزيٍ هامٍ يكمن في نظام المطر إلى جانبه المادي .. فكما تصبح الأرض الهامدة ناضرةً خضراء بسبب المطر ، كذلك تحوّل هداية الله القلب الإنساني إلى حديقة الإيمان والتقوى ؛ فيما إذا كان القلب يحمل جذوة الاستعداد حقاً ، ولم يكن قد صار كأرضٍ سبخةٍ بائرةٍ فقدت كل مقومات الحياة!

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ : أنزلنا المطر على أنحاء مختلفة .

كُفُوراً : جحودا وكفرانا بالنعمة .

لقد بيّن القرآن قضايا التوحيد والآخرة مراراً وتكراراً وبأساليب مختلفةٍ ومتنوعةٍ ، ولو أنصت المرء إلى آيات القرآن هذه بجديةٍ ، لألهبت فؤاده ، وملأته باللهفة والقلق الدائم على مصيره.. غير أن الإنسان الغافل لا يتأثر بأي دليلٍ مهما بلغ من الوضوح وقوة التأثير !

وقوله : ﴿ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾ ﴾ يعني جاهد بالقرآن جهاداً كبيراً .. ويتضح من هذا أن الجهاد بالقرآن ، وبعبارة أخرى كفاح الدعوة السلمي ، هو الجهاد الحقيقي ، بل هو الجهاد الأكبر .. حتى لو حاول المنكرون توريط أهل الإيمان في المجالات الأخرى ، بصرفهم عن المجال الدعوي ؛ فينبغي لأهل الإيمان أن يحاولوا جاهدين حصر نشاطهم في مجال الدعوة القرآنية ، و أن يتخذوا كل التدابير الممكنة للعودة بنشاطتهم إلى حقل الدعوة من جديدٍ في حالة ما إذا تغير مساره يوماً بسبب خصومات أو معارك ، يوقد نيرانها المعارضون!!

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴿٥٤﴾ ﴾

مَرَجَ البَحْرَيْنِ : أرسلهما في مجاريهما أو أجراهما .

عَذْبٌ فُرَاتٌ : حلو شديد العذوبة .

مِلْحٌ أُجَاجٌ : شديد الملوحة والحرارة أو المرارة .

بَرْزَخاً : حاجزا عظيماً يمنع اختلاطهما .

وَحِجْراً مَّحْجُوراً : حراما محرماً تغير صفاتهما .

نَسَباً : ذوي نسب ذكورا تغير صفاتهما .

وَصِهْراً : ذوات صهر إناثا يصاهر بهن .

عندما يلتقي نهران في ممرٍ مائيٍ واحدٍ ؛ أو ينصب نهر كبير في أحد البحار ، فإن كلا الماءين ، رغم التقائهما، يبقى أحدهما مستقلاً عن الآخر، ويبدو أن ثمة خيطاً يمر بينهما،

كحدٍ فاصلٍ على مدى البصر .. وقد اتفق لكاتب هذه السطور أن شاهد هذا المنظر عند ملتقى نهري الكنج والجامونا في مدينة ((الله آباد)) .. ويحدث هذا الواقع بموجب القانون الطبيعي الذي يسمى في العصر الحديث بـ ((قانون المطّ أو التوتر السطحي)) .. وهذا هو شأن الأنهار القريبة من السواحل ، حيث يطغي ماء البحر ، عند حدوث ((المدّ)) ، على ماء النهر ، ولكنهما لا يختلطان ، بل يفصل التوتر السطحي أحدهما عن الآخر ، وحين يقع ((الجزر)) ، فيرجع الماء البحري الأجاج أدراجه من فوق ، بينما يبقى ماء النهر تحته عذباً كالمعتاد .. وإن قانون التوتر السطحي هذا هو السر في أن تتواجد ذخائر مياه عذبةٍ حتى في وسط بحار مالحةٍ، لتوفر الماء العذب للمسافرين عبر البحار!!

إن أصل الجسم الإنساني هو الماء .. فقد خُلق الإنسان من الماء .. ثم بدأ نسله يتوالد ويتكاثر عن طريق روابط النسب والمصاهرة .. وهناك وقائع شتى كثيرة من هذا القبيل في هذا الأرض ، فلو وقفنا عندها وقفة تأملٍ ، لرأينا فيها من آيات قدرة الله - جل جلاله - ما يحير العقول ويبهر الأبصار!

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً : معينا للشيطان على ربه بالشرك .

لقد أسكن الله الإنسان في عالمٍ ، يشهد كل شيءٍ فيه وكل ما حوله على وحدانية الخالق .. غير أن الإنسان لا يهتدي بذلك إلى نور الحق .. بل هو يتوغل في ضلاله وغوايته إلى حد أنه يبني نظام حياته على أساس الشرك بدلاً من التوحيد .. وإذا قام عبد من عباد الله يدعو الناس إلى التوحيد ، تصدى لمعارضة دعوته والحيلولة دون انتشارها

بكل وسيلةٍ .

بيد أن داعي الحق - مع ذلك - غير مسموحٍ له باللجوء إلى وسائل العنف والعدوان لنشر دعوته، وإنما يجب عليه أن يواصل عمله في إطار التذكير والنصيحة وحده ، ولو أن الدعوة لم تعد تجدي شيئاً ، فليس من شأنه أن يضيف العنف والعدوان إلى الدعوة، وإنما المطلوب إضافته منه في هذه الحالة يتلخص في : الدعاء والابتهال إلى الله، وإنهاء كل النزاعات المادية من طرفٍ واحدٍ، والتأثير على قلب المدعو عن طريق النزاهة والإخلاص والأخلاق النبيلة السامية!

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ ﴾

وَسَبِّحْ : نزهه تعالى عن جميع النقائص .

بِحَمْدِهِ : مثنيا عليه بأوصاف الكمال .

اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ : استواء يليق بكماله تعالى .

وَزَادَهُمْ نُفُوراً : تباعداً عن الإيمان .

إن التأكيد في قوله : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ ينصب على المسؤول عنه ، وهو الرحمن ، وليس على الشخص الخبير به .. والمعنى : أنه لو كان هناك شخص يعرف عجائب قدرة الرحمن وروائع خلقه حق المعرفة ، لأخبركم بمدى عظمة ذاته وكمال صفاته .. وإن الكشوف الكونية التي قام بها علماء الطبيعة في العصر الحديث هي

مصداق ، بصورةٍ جزئيةٍ ، لهذه الآية الكريمة .. فأسرار الكون التي ظهرت نتيجة بحوث العلماء ، مدهشة لدرجة أن المرء يشعر برعدةٍ ، وهو يقرؤها ، تدبّ في أوصاله ، بحيث لا يلبث معها أن يخضع لعظمة الخالق وجبروته في عجزٍ وتواضعٍ وخشوعٍ!

والمراد بـ «ستة أيامٍ» هو أيام الله .. وبالإمكان التعبير عنها ، بلغة البشر ، بستة أدوارٍ أو مراحل .. وإتمام عملية الخلق في ست مراحل ، يدل على أن إيجاد الكون تم على نحوٍ مخطَّطٍ .. والشيء الذي يتم إيجاده بعنايةٍ ووفق تخطيطٍ معينٍ ، لا ولن يكون عبثاً وبلا هدفٍ أبداً !!

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

تَبَارَكَ الَّذِي : تعالى وتمجد أو تكاثر خيره .

بُرُوجاً : منازل للكواكب السيارة .

خِلْفَةً : يخلف أحدهما الآخر ويتعاقبان .

لفظ البرج يعني الحصن أو القصر العالي .. وأما بروج السماء التي يذكرها القرآن الكريم ، فقد ذهب المفسرون ، قديماً وحديثاً ، في تفسيرها مذاهب شتى .. ولكن لم تتفق كلمتهم بعد ، على ما هو المراد بها بالضبط .. ويُحتمل أن يكون المراد بها ما يطلق عليه اليوم وصف «النظام الشمسي» .. حيث توجد في هذا الكون آلاف الملايين من الأنظمة الشمسية.. ومنها هذا النظام الذي يقع قريباً منا ، والذي يضم أرضنا ، وشمسنا ، وقمرنا وغيرها من الكواكب .

ومن آيات هذا النظام الشمسي التي لا تعد ولا تحصى ، حركة الأرض حول الشمس بانتظام .. وهي دورتها الانتقالية أو السنوية في مدارها ، التي تنشأ عنها

الفصول الأربعة .. ولها دورة أخرى حول محورها ، تتم في كل ٢٤ ساعة ، تتسبب في حدوث الليل والنهار وتعاقبهما .

إن دوران الأرض في الفضاء الرحيب المترامي الأطراف بدقةٍ متناهيةٍ ، وكونه ملائماً للاحتياجات والمصالح البشرية إلى حدٍ لا يوصف ، لواقع مدهش لدرجة أن الشخص الذي يتأمل فيه بإمعانٍ ، لا يلبث أن يغرق في فيضٍ غامرٍ من عواطف الشكر والامتنان لله رب العالمين!

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾ ﴾

هَوْناً : بسكينة ووقار وتواضع .

قَالُوا سَلاماً : قولاً سديداً يسلمون به من الأذى .

كَانَ غَرَاماً : لازما أو ممتداً . كلزوم الغريم .

وَلَمْ يَقْتُرُوا :لم يضيقوا تضييق الأشحاء .

قَوَاماً : عدلا وسطا بين الطرفين .

إن ((المشي)) علامة على شخصية الإنسان بكاملها .. والذين تمتلئ قلوبهم إيماناً ويقيناً بالله ، يصيرون كأنهم كلهم تواضع وانكسار .. فخشية الله تسلب منهم الشعور بالكبرياء والاستعلاء .. وينطبع غدوّهم ورواحهم ، وقيامهم وقعودهم ، وحركاتهم

وسكناتهم كلها بطابع العبودية الصادقة .

ولو وقف أمر عباد الرحمن عند هذا الحد ، لما تعرض لهم أحد في الدنيا أبداً .. غير أن معرفة الله - سبحانه وتعالى - تجعلهم أيضاً دعاةً إلى الله .. ومن هنا يحتدم الصراع بينهم وبين الآخرين .. حيث يعود إعلانهم عن الحق أمراً لا يُحتمل لدى أنصار الباطل .. مما يدفعهم إلى التصدي لهم والاصطدام بهم .. بيْد أن خوف الله يمنع عباده ، حتى عند هذه النقطة ، عن الاصطدام المضاد ، وإنما هم يعرضون عنهم داعين لهم بالهداية للإيمان .

ومما يترتب على معرفة الله أيضاً أن نوعاً من الاضطراب والقلق الدائم يعود جزءاً لا يتجزأ من حياتهم ، بحيث إنهم لا يتضرعون إلى الله في لهفةٍ وخشوعٍ في أوقات النهار فحسب، بل تصبح خلوتهم في ساعات الليل هي الأخرى عامرةً بذكر الله وحمده .

كما يجعلهم الإحساس بجلال الله حذرين أبلغ الحذر في كافة شئون الحياة ، واستحضار ساعة المثول بين يدي الله للحساب يلزمهم جادة الاعتدال والاحتياط فيما يتعلق بالتكسب والإنفاق .. وقد جاء في حديثٍ نبويٍ أنه : ((من فقه الرجل قصدُه في معيشته)) . (أخرجه الإمام أحمد في مسنده) .

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾

يَلْقَ أَثَاماً : عقاباً وجزاءً في الآخرة .

ذُكرت هنا ذنوب ثلاثة: الشرك ، وقتل النفس بغير حقٍ ، والزنا .. وهذه الذنوب الثلاثة هي أكبر الكبائر في حق الله وفي حق العباد .. وآية الإيمان الحقيقي بالله أن يتجنّب المرء هذه الكبائر الثلاث .. وأما الذين سبق أن ارتكبوها بالفعل ، فبإمكانهم أن يتخلصوا من وخيم عاقبتها بالتوبة النصوح .. وأما الذين يموتون بدون التوبة والإنابة ، فإن لهم عند الله عذاباً شديداً لن يجدوا إلى الخلاص منه سبيلاً أبداً !

الحسنة الأصلية عند الله هي أن يصير المرء دائم الحذر والخوف من الله .. إن الحسنة التي تجرد صاحبها من خوف الله في الحقيقة سيئة .. وبالعكس فإن السيئة التي تملأ فؤاد صاحبها بخوف الله ، هي حسنة من حيث عُقْباها .. ولو اقترف المرء سيئةً ، ثم ذكر الله، وتصور شدة بطش الله وحسابه ، فارتعدت فرائصه وجلاً وإشفاقاً ، فاندفع نحو ربه تائباً مستغفراً ، فإن الله سيبدل من فضله ورحمته سيئةً كهذه بالحسنة ، لكونها قد صارت باعثاً على رجوع المرء وإنابته إلى الله سبحانه وتعالى!!

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾

مَرُّوا بِاللَّغْوِ : بما ينبغي أن يلغى ويطرح .

مَرُّوا كِرَاماً : مكرمين أنفسهم بالإعراض عنه.

لَمْ يَخِرُّوا : لم يسقطوا ولم يقعوا .

قُرَّةَ أَعْيُنٍ : مسرة وفرحاً .

إِمَاماً : قدوة وحجة أو أئمة .

إن الرذائل والأعمال الخاطئة التي توجد في العالم الراهن ، قد جعلها الشيطان ، من الناحية الشكلية الظاهرية ، جميلةً ومزخرفةً .. فكل متبعٍ للباطل يعرض نظريته في ثوبٍ قشيبٍ من الألفاظ والعبارات الرائقة .

وبسبب هذا التمويه الشكلي والخلابة الظاهرية يميل الناس نحو هذه الأشياء ، ولو أُزيح عنها هذا الغلاف الخارجي الأنيق ، لبدا كل شيءٍ منها بشعاً كريه المنظر بدرجة أن شخصاً ما لن يرضى بالاقتراب منه!

وعلى هذا الاعتبار فكل رذيلةٍ نوع من الكذب والتمويه الذي يُبتلى به المرء ، وإن امتحان المرء في العالم الراهن هو أن يتعرف على الكذب ، ويمزق الستار الظاهري ليرى الأشياء كما هي في صورها الحقيقية .

وحينما يُوجه إلى أحد الناس نصيحة تصدم كبرياءه ، فلا يلبث أن يثور ويشتعل غضباً على الفور .. إن شخصاً كهذا أصم أعمى عند الله .. فإنه لم يستعمل بصره لرؤية الحقيقة .. ولا استخدم آذانه لسماع صوت الحق .. إنه لم يستقبل النصيحة كإنسان سميعٍ وبصيرٍ ، وإنما استقبلها كمن حُرم مواهب السمع والبصر .. وإن البصير والسميع عند الله حقاً هو الذي إذا رأى اللغو أعرض عنه ، وإذا قُدِّمت إليه نصيحة صادقة تلقاها من فوره بالقبول .. وكل رب عائلةٍ «إمام» لعائلته .. فإن كان أفراد عائلته «متقين» ، فهو إمام للمتقين ، والعكس بالعكس !!

﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾

يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ : أعلى نازل الجنة وأفضلها.

يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي : ما يكترث وما يبالي بكم .

دُعَاؤُكُمْ : عبادتكم له .

يَكُونُ لِزَاماً : يكون جزاء تكذيبهم عذابا دائما .

إن غرف الجنة العليا سيدخلها أولئك الذين كانوا قد أذلّوا أنفسهم لأجل الحق في هذه الدنيا .. وحيث إنهم كانوا قد تواضعوا لله في الأرض،يرفع الله درجاتهم في الآخرة،ويقابلهم بغاية التوقير والإكرام .. وقد عبر سيدنا المسيح عن هذا المعنى حين قال: ((طوبى للمساكين بالروح،لأن لهم ملكوت السماوات))! والأوصاف التي تؤدي بأحد الناس إلى الجنة،إنما يُوفقّ للتحلّى بها من يكون مستعداً للصبر .. والجنة هي مقام أعلى،حيث تتحقق كل رغبات الإنسان بصورةٍ كاملةٍ.. غير أن أبوابها لن تُفتح إلا لذلك الإنسان الصبور الذي منع نفسه عن الانسياق وراء رغباته في الدنيا منعاً باتاً .. إن الجنة سلعة غالية ثمنها الصبر .. وأما جهنم فهي مصير الشخص الذي لم يكن قد رضي بدفع ثمن الصبر المطلوب في الحياة الدنيا !

سورة الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦﴾ ﴾

بَاخِعٌ نَّفْسَكَ : مهلكها حسرة وحزناً .

أَعْنَاقُهُمْ : جماعاتهم أو رؤساؤهم ومقدموهم .

تظهر دعوة الحق ، حينما تظهر ، في ثوب ((الكلام المبين)) .. فمن علامات كوْن دعوةٍ ما دعوةً إلهيةً أن تكون واضحةً غاية الوضوح ، وأن تكون كل مبادئها قائمةً على أساسٍ من الدلائل الساطعة ، لدرجة أن شخصاً قد يمكنه أن يقابلها بالإنكار ، ولكنه لا يستطيع أن يقول - إذا التزم الصدق والإنصاف - بأنها رسالة غامضة يتعذر عليه فهمها !!

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ ﴾ تدل هذه الجملة على ذلك النصح التام الذي يُكنّه الداعي للمدعو .. إن العمل الدعوي ينبع من عاطفة النصح الخالص .. ومن ثم فحين يرى الداعي إصرار المدعو على رفض رسالته ؛ يأخذ يذوب حسرةً وأسىً ، تماماً كما تذوب الأم الساهرة على تربية ولدها همّا وغما إذا انحرف عن الطريق السوي .. ولقد وردت جملة القرآن هذه مورد التنويه بما يضمره الداعي من مشاعر النصح الفياض ، وليس في

معرض النقد له .

إن دعوة الحق تكون دعوةً إلى الله .. وإن الله هو الوجود القوي الجبار ، الذي لو شاء لأخضع الجميع لإرادته، ولم يترك لأحدٍ مجالاً للإنكار والعناد والطغيان ، غير أن هذا الوضع ناشئ عن الخطة الإلهية نفسها .. حيث يريد الله لإعمار جنّته أرواحاً ذكيةً نفيسةً تتعرف على الحق في دنيا حافلةٍ بأسباب الخداع والتدجيل .. وبالتالي تخضع له طوعاً بدون قهرٍ ولا أي ضغوطٍ خارجيةٍ .. وانتخاب أناسٍ كهؤلاء لم يكن ممكناً إلا في ظل أحوال تكون حرّية الفكر والعمل فيها متاحةً لكل أحدٍ !

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

زَوْجٍ كَرِيمٍ : صنف حسن كثير النفع .

إن خروج شجرةٍ خضراء مثمرةٍ من باطن الأرض واقعة عجيبة تماماً كما لو خرج من باطن الأرض - مثلاً - جمل يمشي!! ولو أن الناس فوجئوا ذات يومٍ بحدوث الواقعة الأخيرة، لأصيبوا بدهشةٍ وذهول يفوق الوصف .. بينما تحدث على الأرض كل لحظةٍ واقعة أعجب وأكبر من ذلك بكثيرٍ ، ولكنهم لا يندهشون بها ، ولا يرون فيها درساً أو عبرةً !

والشيء الذي يطلبه الله من الإنسان هو أن يلاحظ الجوانب غير العادية الكامنة وراء الوقائع العادية .. وأن يشاهد التصرف الإلهي المباشر في إحداث ما يبدو ناتجاً عن الأسباب والعلل الظاهرة .. والذين يقيمون الدليل على هذه البصيرة النافذة ، هم المؤمنون بالله حقاً .. وهم الذين سيُغدق الله عليهم فيوض رحماته الأبدية !

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾

بُعث سيدنا موسى بدعوة التوحيد إلى فرعون ، طاغية مصر ، الذي كان يحكم أكبر دولةٍ متحضرةٍ في العالم آنذاك .. بينما كان سيدنا موسى ، من ناحيةٍ أخرى ، رجلاً من بني إسرائيل ، الذين كانوا بمنزلة العبيد والعمال أو أحط منهم شأناً في مصر وقتذاك .. وكان قد قُتل على يده رجل من القبط - قوم فرعون - عن غير قصدٍ .. هذا بالإضافة إلى أن سيدنا موسى كان يشعر في نفسه بضعف المقدرة على البيان ، وعدم طلاقة اللسان .. بيْد أن الله - سبحانه وتعالى- اختاره لتبليغ رسالته .

والحقيقة هي أن الله ينظر إلى باطن المرء أكثر من ظاهره .. وإذا ما وجد أحداً يحمل الجوهر الباطني ، اختاره لخدمة دينه .. إذن ، فعلى المرء أن يعنى بجوهره الباطني ، ويعمل على تربيته وإنمائه بقدر المستطاع .. أما لو أنه كان يعاني من عوزٍ أو نقصٍ ما في الظاهر ، فإنما يتم تلافيه من عند الله عز وجل !!

﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

الكَافِرِينَ : الجاحدين لنعمتي .

إن الشخص الذي يقع اختيار الله عليه لتمثيله والتبليغ عنه ، يكون بكل المقاييس ، في عصمةٍ من الله وتحت حمايته .. كما يتم تأييده بآياتٍ خاصةٍ صريحة الدلالة على أن أمره أمر إلهي ، غير أن الإنسان ظالم لدرجة أنه لا يستعد ، مع ذلك ، للاعتراف به .

ماذا كان الغرض من مطالبة موسى فرعون بإرسال بني إسرائيل معه؟ إن القرآن لا

يورد أي تفاصيل بهذا الشأن.. وأما التوراة فقد جاء فيها بهذا الخصوص ما يلي :

- ((وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون ، هكذا يقول الرب إله إسرائيل، أطلق شعبي ليعيّدوا لي في البريّة)) (خروج ٥:١) .

- ((فدعا فرعون موسى وهارون وقال : اذهبوا ، اذبحوا لإلهكم في هذه الأرض ، فقال موسى: لا يصلح أن نفعل هكذا ، لأننا إنما نذبح رجس المصريين للرب إلهنا ، إن ذبحنا رجس المصريين أمام عيونهم أفلا يرجموننا؟!.. نذهب سفر ثلاثة أيامٍ في البرية ، ونذبح للرب إلهنا كما يقول لنا)) (خروج ٨:٢٥ - ٢٧) .

ومن بيان التوراة يبدوا ظاهراً أن سفر موسى هذا لم يكن للهجرة ، بل كان لأجل التربية ، فقد كانت البقرة تعتبر معبودةً مقدّسة لدى المصريين .. وبفعل التعايش معهم منذ قرونٍ طويلةٍ ، كان بنو إسرائيل هم الآخرون قد تأثروا بمعتقداتهم وطقوسهم الوثنية .. فأراد موسى أن يذهب بهم لمدةٍ من الزمان ، بعيداً عن المجتمع المصري المشرك ، ويقوم بتربيتهم وتزكية نفوسهم في مناخ نقي!

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾

الضَّالِّينَ : المخطئين لا المتعمدين .

عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ : اتخذتهم عبيداً لك مستذلين .

عرض موسى دعوة التوحيد على فرعون ، فما لبث فرعون أن ذكّره في هذه المناسبة لتقليل أهميته والحط من شأنه أمام الملأ ، بحادثين من سابق حياته : أحدهما : كونه - عليه السلام - قد نشأ وتربى وليداً في البلاط الفرعوني.. والآخر : ما كان من قتله للرجل القبطي .. وقد أجاب موسى عن ذلك قائلاً : إن كنت قد تربيت في بيتكم ،

فإنما يرجع السبب في ذلك إلى ظلمكم واضطهادكم ؛ إذْ كنتم تقتلون أطفال بني إسرائيل ، فخبأتني والدتي في صندوقٍ وألقته في البحر ، ثم التقطت بعد ذلك بأيديكم أنفسكم ، وأُدخلت داركم ، وأما قتل القبطي ، فإنني لم أفعل ذلك عن عمدٍ ، وإنما كان بمحض الصدفة حين ضربته دفاعاً عن أخي الإسرائيلي المضطهد.

وعلى إثر قتل القبطي فارق سيدنا موسى بلاد مصر وذهب إلى مَدين ، حيث أقام سنين عديدةً .. وربما كان خروجه - عليه الصلاة والسلام - من جو المدينة المصطنع ، ليقضي أعواماً في أحضان البيئة الفطرية البسيطة أمراً ضرورياً لتربيته وإعداده .. فبينما هو ينصرف من مدين عائداً إلى مصر ، شرفه الله بالنبوة و الرسالة في الطريق!

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

الضَّالِّينَ : المخطئين لا المتعمدين .

عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ : اتخذتهم عبيداً لك مستذلين .

﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؟ إن سؤال فرعون هذا كان في الحقيقة على وجه

الاستهزاء وليس على وجه الاستفسار .. غير أن موسى أجاب عنه بهدوءٍ بالغٍ وبدون أدنى تأففٍ أو تذمرٍ .. فحاول فرعون مرةً أخرى احتقار موسى ، حيث قال لحاشيته بأسلوبٍ ساخرٍ : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؟! ولكن موسى مضى يتابع حديثه بتلطفٍ كالمعتاد وغير حافلٍ بسخريته اللاذعة.. حتى اشتعل فرعون غضباً جعله ينسب موسى إلى الجنون ، على أن موسى - مع ذلك- لم يفقد هدوءه ورزانته .. ولما هدّد فرعون بإلقائه في غياهب السجن ، أظهر له موسى أدلته ممثلاً في المعجزة الباهرة، بحيث لم يعد بعدئذٍ أمام فرعون مجال لمزيد من الأخذ والرد ، إلا أنه أرغى وأزبد ، ولم يعترف بهزيمته ، بل تمادى في عناده وتعنته ، فاستخف بشأن المعجزة التي أراها موسى إياه قائلاً : إنها ليست بواقعة إلهيةٍ ، وإنما هي واقعة سحرية .. وبإمكان أي ساحرٍ أن يعرض شعوذةً كهذه .

لقد كانت دعوة موسى دعوةً سلميةً بمعنى الكلمة .. ولم يكن لها أية صلةٍ مباشرةٍ بالسياسة والحكم كذلك .. وإنما كان فرعون يقصد إثارة قومه ضد موسى إذْ قال : إنه يريد أن يخرجنا من بلادنا .. ويكفي دليلاً على عدم جدية فرعون أنه رمى موسى بمحاولة إخراجه هو وقومه من أرض مصر، بينما كان - عليه السلام - قد طلب منه أن يسمح له بالانطلاق مع قومه - بني إسرائيل - من مصر!

﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

أَرْجِهْ وَأَخَاهُ : أخر أمرهما ولا تعجل بعقوبتهما .

حَاشِرِينَ : الشرط يجمعون كل السحرة .

هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ؟: حث على الاجتماع واستعجال له .

نظر فرعون وحاشيته إلى قضية موسى على أنها لا تعدو أن تكون قضية السحر . ولذلك وضعوا خطةً لمواجهته عن طريق السحر ، لئن كان موسى يقدر على تحويل عصاه إلى حية ، فإن عندنا أيضاً من السحرة الماهرين مَنْ يستطيعون الإتيان بمثل ذلك، هذا هو الحد الذي وصل إليه تفكيرهم ولم يتجاوز إلى ما وراءه .. وحيث قد اعتبر القوم أمر موسى أمراً بشرياً ، أرادوا مقاومته بواسطة البشر .. وغاب عن بالهم أن أمر موسى أمر إلهي .. ومَنْ ذا يستطيع من البشر أن ينبري لمواجهة الله أو محاربته !؟

وتعيّن يوم الزينة ، وهو عيد سنوي كان يحتفل به المصريون القدامى ، للمقابلة بين موسى والساحرين .. وقد اختير لهذا الغرض ساحة كبيرة جداً ، ليجتمع هناك أكبر عددٍ ممكنٍ من الناس ، مما سيكون ، طبعاً أقوى حافزٍ مشجّع للسحرة على إتقان صناعتهم وإبراز مهارتهم!

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

لما ألقى السحرة بحبالهم وعصيّهم في الساحة ؛ خُيل إلى الناظرين وكأنها قد انقلبت حيات وثعابين تتحرك .. غير أن هذا لم يكن أي تغير حقيقي ، وإنما كان محض تصرفٍ في العيون ، وعلى العكس من ذلك كان تحوّل عصا موسى إلى الحية ، يعني صيرورة العصا إلى معجزةٍ إلهيةٍ ، ومن ثم فلم تكد تتحول عصا موسى إلى حيةٍ تسعى في الساحة، حتى أبطلت كل طلاسم السحرة بالمرة ، وبالتالي أصبحت حبالهم وعصيهم

حبالاً وعصياً فقط كما كانت من قبل .

لقد كان السحرة يعتبرون موسى قبلئذٍ ساحراً مثلهم ، إلا أن التجربة فتحت عيونهم الآن ؛ ولكونهم خبراء بفنون السحر أدركوا من فورهم أن هذا ليس بسحرٍ ، بل هو النبوة والرسالة .. بيد أنه كان بإمكانهم ألا يعترفوا برسالة موسى ، ويرفضوه مجاراةً لفرعون ، معتمدين على بعض الألفاظ الرنانة الكاذبة ، ولكن الإنسان الحي يستحيل عليه ألا يعترف بالحق بعد ظهوره بجلاءٍ ووضوح تامٍ ، وقد كان السحرة من هذا الصنف الحي من البشر ، ومن ثم لم يلبثوا أن اعترفوا على التوّ بصدق سيدنا موسى - عليه السلام .

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٧٢﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

لاَ ضَيْرَ : لا ضرر علينا فيما يصيبنا .

كان إيمان السحرة بموسى مبعث إهانةٍ كبيرةٍ بالنسبة لفرعون .. ولكي يدفعها عن نفسه راح يصف كل ما جرى بأنه نتاج مؤامرة مدروسة سلفاً ضد الحكم القائم ، فقال موجهاً خطابه للسحرة: إنكم متواطئون مع موسى، وإنما تظاهرتم بالهزيمة أمامه عن قصدٍ مبيتٍ ، حتى تسري هيبة موسى في النفوس ، وبالتالي يسهل عليكم تحقيق نواياكم وأهدافكم المشتركة.

وباعتبارهم متمردين على الدولة ، أصدر فرعون حكمه النهائي على السحرة : ستقطع أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ، وستُصلبون على مشهدٍ من الناس .

وبالرغم من هذا الحكم الشديد البالغ القسوة ، لم يفقد السحرة همتهم ؛ ففيما كان هؤلاء السحرة من ذي قبل يقسمون بعزة فرعون وسلطانه ، تودّداً إليه ، راجين منه جزيل العطاء والتكريم ، إذا بهم الآن توجهوا إليه قائلين دونما خوفٍ أو وجلٍ : افعل بنا ما شئت .. فإننا لن نتخلى عن دين موسى على أية حال .

وقد كان سر هذه العزيمة وعلوّ الهمة يكمن في الاكتشاف الإيماني .. فإن المرء إنما يتحمل فقدان شيء ما ، إذا كان يرجو الحصول على شيءٍ أكبر مما يفقده .. وقبل الإيمان بالحق كان أكبر شيءٍ في نظر السحرة هو التقرب من فرعون وجوائزه الغالية ، بينما صار الله ورضوانه يبدو لهم هو الشيء الأكبر بعد الإيمان .. وهذا هو السبب في أنهم لم يلبثوا، عقب إيمانهم ، أن استعدوا للتضحية عن رضاً وسرورٍ ، بما كان يتعذر عليهم أن يضحوا به قبل الإيمان !

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾

إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ : يتبعكم فرعون وجنوده .

حَاشِرِينَ : جامعين الجيش ليتبعوهم .

لَشِرْذِمَةٌ : لطائفة قليلة بالنسبة إلينا .

حَاذِرُونَ : محترزون ، أو متأهبون بالسلاح .

على الرغم من جهودٍ دعويةٍ مضنيةٍ دامت سنواتٍ طوال ، لم يؤمن فرعون برسالة

موسى .. إلى أن أمر الله موسى ، بعد قيام الحجة ، بمغادرة مصر مع بني إسرائيل .. وحين بلغ نبأ انطلاق بني إسرائيل الجماعي من مصر إلى فرعون ، خرج بجنوده وأمراء مملكته يطاردونهم .

إن إقدام فرعون هذا كان ، على ما يبدو ، ضد بني إسرائيل ، ولكنه صار عملياً إقداماً ضد نفسه هو .. إذْ توصل فرعون وأصحابه هكذا ، تاركين بلادهم الخصبة ومساكنهم الأنيقة الفخمة ، إلى حيث قدر لهم الهلاك غرقاً عن بكرة أبيهم !

ولقد حرم الله فرعون وأصحابه ، لقاء ظلمهم من كل نعمه التي أغدقها عليهم في مصر ، هذا من جانبٍ .. ومن جانبٍ آخر فقد منَّ الله - سبحانه وتعالى - على صلحاء بني إسرائيل بأن أوصلهم ، بعد مدةٍ من الزمان ، إلى بلاد فلسطين ، حيث أعطاهم من فضله هذه النعم كلها وزيادة!

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

مُّشْرِقِينَ : داخلين في وقت الشروق .

تَرَاءَى الجَمْعَانِ : رأى كل منهما الآخر .

فَانفَلَقَ : انشق اثني عشر فرقا .

فِرْقٍ : قطعة من البحر مرتفعة .

كَالطَّوْدِ العَظِيمِ : كالجبل المنطاد في السماء .

أفضي المسير ببني إسرائيل في نهاية المطاف إلى حيث وجدوا أنفسهم أمام بحرٍ هائلٍ مترامي الأطراف ، ومن ورائهم فرعون وجنوده يتعقبونهم مسرعين .. وقد أفزع هذا الموقف الخطير بني إسرائيل لدرجة أنهم توجهوا إلى موسى - طبقاً لراوية التوراة - قائلين : ((هل لأنه ليست قبور في مصر ، أخذتنا لنموت في البرية ، ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر))؟! (خروج ١٤:١١) .

بيد أن سيدنا موسى كان على يقينٍ من أن الله سينصره حتماً .. فأمر الله موسى عندئذٍ أن يضرب البحر بعصاه ؛ فانشق الماء على أثر الضرب ، ووقف كالجدران الشامخة إلى جانبي اليمين واليسار ، وبينهما طريق يابس ، سار بنو إسرائيل عبره إلى الشاطئ الآخر ..

لم يكد يقتحم فرعون وجنوده الطريق اليابس خلف بني إسرائيل ، ويتوسطون البحر ، حتى انطبقت المياه المنحسرة عليهم بأمر الله من كلا الجانبين ، فغرق فرعون وجنوده عن آخرهم ، ولم يفلت منهم أحد .. إن خريطة واحدةً بعينها كانت تنطوي على النجاة لطائفةٍ والهلاك لطائفةٍ أخرى!!

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ : قربنا هنالك آل فرعون من البحر .

كان هناك - من جانبٍ - قوم إبراهيم ، الذين أخذوا بدورهم في ممارسة ما رأوا آباءهم السابقين يفعلون من عبادة الأصنام والتماثيل .. ومن جانبٍ آخر كان سيدنا

إبراهيم الذي فكر بعقله هو ، وارتفع بنفسه عما حوله بحثاً عن الصدق ، وهذه هي الصفة الخاصة التي توصل المرء إلى معرفة الله .. والذي يتمتع بهذه الصفة إلى درجة الكمال ، يختاره الله - سبحانه وتعالى - لتمثيل دينه وإبلاغ رسالته .. وعبارة ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ تدل على أن القوم قد وجدوا أنفسهم عاجزين تماماً عن التقدم بأي دليل في أثناء جدالهم مع سيدنا إبراهيم - عليه السلام - إلا أنهم أبوا عن الإيمان ، ومازالوا متمسكين بدين آبائهم على أساس التعصب الأعمى .

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾

أَفَرَأَيْتُم : أتأملتم فعلمتم .

يأتي الإنسان إلى هذا العالم كوجودٍ مستقلٍ ، يتمتع بعقل يميز الخير من الشر ، ويستخرج الكليات من الجزئيات ، ويتوصل إلى المعقول عبر المحسوس .. وتوجد هنا أشياء تعمل وفق نظامٍ رائعٍ دقيقٍ ، على توفير الرزق اللازم للإنسان بصورةٍ مستمرةٍ ، كما يجد المرء أيضاً ، حين يمرض ، أن كل الأسباب الضرورية متوفرة هنا ، لإبراز فن الطب والعلاج إلى الوجود .. ثم يكتشف المرء كيف أنه ، مع تمتعه في ظاهر الأمر بكامل الاختيار وحرية التصرف في ذاته وفيما حوله ، عاجز تمام العجز أمام الموت ، فكل إنسان له عمر معين محدود ، حين يبلغه يموت دون تأخير أو تأجيلٍ !.

وهذه الوقائع لا يمكن أن تكون لها علاقة بأحدٍ سوى الله الواحد ، إذن فكيف يسوغ لأحدٍ أن يعبد شيئاً أو شخصاً ما من دون الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ،

وينبغي للمرء ، بالإضافة إلى ذلك ، أن يكون جاداً بهذا الشأن إلى أقصى حدود الجدية .. لأن نفس هذه الوقائع تشير أيضاً إلى أن الله الذي هو فاعل كل هذا ، سوف يستحضر جميع البشر أمامه يوماً للحساب عما صنعوه في الحياة الدنيا .. وإن الموت هو بداية عملية الاستحضار هذه !

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾

لِسَانَ صِدْقٍ :ثناء حسنا ورزقا جميلا .

وَلاَ تُخْزِنِي : لا تفضحني ولا تذلني بعقابك.

بِقَلْبٍ سَلِيمٍ : برئ من مرض النفاق والكفر .

المراد بـ ((الحكم)) هنا هو الفهم الصحيح الصائب ، وهو يعني رؤية الأشياء كما هي في الواقع .. وهو أعظم نعمةٍ يفوز بها عبد بعد النبوة .. وقد جاء في الحديث : ((مَن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)) .

وقد أجيب سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام في جميع دعواته ، ما عدا دعاءه بالمغفرة لأبيه (آزر) .

إن القيمة الحقيقة عند الله إنما هي لـ ((القلب السليم)) .. والقلب السليم هو القلب الصحيح أو القلب النقي الطاهر من رجس الشرك والنفاق ، ومن مشاعر الحسد والبغضاء .. وبعبارة أخرى أن يلقى المرء ربه وهو يحمل بين جوانحه نفس القلب

الذي كان الله قد أعطاه إياه يوم ولدته أمه ، دون أن يلقاه تعالى حاملاً أي قلب آخر سواه!!

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ :قربت بحيث يرى نعيمها .

وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ : أظهرت بحيث ترى أهوالها .

لِلْغَاوِينَ : الضالين عن طرق الحق .

فَكُبْكِبُوا : فألقي الأصنام على وجوههم مراراً .

إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ: نجعلكم وإياه سواء في استحقاق العبادة وأنتم أعجز الخلق .

حَمِيمٍ : قريب أو شفيق يهتم بأمرنا .

كَرَّةً : رجعة إلى الدنيا .

لا يبعد المرء عن جنته أو جحيمه بمسافةٍ كبيرةٍ ، وإنما يحول بينه وبينها ستار مؤقت ، وحين تزيح القيامة هذا الستار، فسوف يرى كل امرئٍ أنه كان من جنته أو جحيمه على

قاب قوسين أو أدنى ، وإن كان الإنسان الغافل يراها بعيدةً ، بعيدةً جداً !

المقصود بـ ((المجرمين)) هنا القادة الكاذبون المضللون .. الذين كانوا يحتلون مراكز السيادة والكبرياء في مجتمعهم .. وهؤلاء لم يرفضوا دعوة الحق ، حين رفضوها ، إلا حفاظاً على كبريائهم وسيادتهم .. ولقد وقف كبرهم وشعورهم بالاستعلاء حجر عثرةٍ دون اعترافهم بالحق .. مما جعل أتباعهم هم الآخرين لم يعيروا دعوة الحق جانب اهتمامٍ، ولا اعتبروها شيئاً يقام له وزن!

و((تسوية القادة برب العالمين)) يعني : وضع كلمتهم في مستوى كلمة الله رب العالمين.. وقد شرح ذلك ابن كثير ، يقول : ((أي نجعل أمركم مطاعاً ، كما يُطاع أمر رب العالمين))[1].

والذين كانوا يمتثلون لأمر قادتهم في الدنيا كامتثالهم لأمر الله ، سينادون قادتهم في الآخرة بوصف ((المجرمين)) .. إلا أن ذلك لن يغني عنهم شيئاً ؛ فإن مكان التعرف على ((المجرم)) من ((متبع الحق)) كان هذا العالم دون العالم الآخر!!

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

الأَرْذَلُونَ : السفلة الأدنياء من الناس .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير٢/ ٦٥١.

قُوبل سيدنا نوح بالتكذيب من قبل قومه .. في حين أن دعوته - عليه الصلاة والسلام - كانت تحمل معها أقوى الأدلة وأوضحها .. كما كانت سيرته - عليه السلام - إلى جانب ذلك ، تؤكد على صدقه وحقيته .. حيث كان قومه يعرفون - في ضوء خبرتهم - أن نوحاً رجل صادق وأمين .. وأن الدعوة التي يعرضها عليهم لا ترتبط بها أية مصلحةٍ من مصالحه الذاتية .. وقد كانت هذه الخصوصيات كافيةً للبرهنة على جديته المتناهية .. والذي يكون جاداً بالنسبة إلى المخلوق ، لن يكون غير جادٍ بالنسبة إلى الخالق !

لقد وقف قوم نوحٍ من دعوة نبيهم موقف الرفض والإنكار ، مع أنهم لم يكونوا يملكون في حق إنكارهم هذا شيئاً سوى أقاويل غير ذات صلةٍ بالموضوع .. فإن رفض دعوة ما بحجة أن أنصارها أناس عاديون ، ليس تفنيداً للدعوة ، بل هو تفنيد للذات .. فمعنى ذلك أن المرء ، وإن كان لا يجد مجالاً للقول ضد الدعوة على أساس الدليل ، إلا أنه إنما يستنكف عن مناصرتها لأن أتباعها من ضعفاء الناس وفقرائهم ، ولكونه لا يرجو ما إذا كان انضمامه إليها سيُعلى قدره أو يمكّنه من الحصول على أي مركز مرموقٍ ذي بالٍ !

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾

فَافْتَحْ : فاحكم .

الْمَشْحُونِ : المملوء بالناس والداوب والمتاع .

استمر نوح - عليه السلام - يدعو قومه إلى الحق قروناً طويلةً ، ولكنهم ظلوا يأبون الاستجابة لدعوته .. إلى أن قرروا أخيراً أن يرموه بالحجارة حتى يموت ، ويستريحوا بالتالي من سماع موعظته التي كان يغاديهم ويراوحهم بها .. ولما وصل عناد القوم وطغيانهم إلى هذا الحد ، صدر الحكم الإلهي بالقضاء عليهم .. وحكم الله هذا هو الذي برز في صورة دعاء سيدنا نوحٍ على قومه .. وصنع نوح بأمرٍ من الله تعالى سنة فينةً كبيرةً ضخمةً ، شحنها بجميع أصحابه ، وبزوجين اثنين من كل أنواع الحيوانات .. ثم أرسل الله طوفاناً عارماً شديداً، بحيث أخذ الماء يتدفق من باطن الأرض، ويهطل بغزارة من السماء ، حتى هلك كل مخلوق حي غرقاً ، ما عدا ركاب السفينة .

وهذا مثال تاريخي يوضح بما لا يدع مجالاً للشك أن النجاة والفلاح في هذا العالم من نصيب المؤمنين إيماناً صادقاً وحدهم ، أما بقية الناس فلا ينتظرهم هنا سوى الهلاك والدمار!

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾

رِيعٍ : طريق . أو مكان مرتفع .

آيَةً : بناء شامخاً كالعلم في الارتفاع .

تَعْبَثُونَ : ببناءها أو من يمر به .

مَصَانِعَ : حصونا أو قصوراً أو حياضاً للماء .

أَمَدَّكُم : أنعم عليكم .

إن ﴿ عَادٌ ﴾ هو الشعب الذي كُتب له التألق والازدهار في الدنيا بعد هلاك قوم نوح .. كما قال تعالى في شأنهم : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

فقد حباهم الله سبحانه بكل نعمه ، من صحة الأجساد ، وقوة الأبدان ، وخصوبة الأرض ، ورغد العيش ، والسلطة .. إلخ ، ولو أنهم شكروا الله على هذه الأشياء ، لاستيقظت في قلوبهم مشاعر التواضع والانكسار .. إلا أنهم جعلوا منها موضع التفاخر والمباهاة .. وكان نتيجة ذلك أن صاروا لا همّ لهم إلا أن يكرسوا كل ما عندهم من وسائل وأسباب في رفع مستوى معيشتهم ، وتخليد أسمائهم ، وفي تشييد آثارٍ حجريةٍ تنطق بمجدهم وعظمتهم ، باعتبار ذلك كله هو العمل الأكبر والأولى بالاهتمام في هذه الحياة !

وأمثال هؤلاء تستولي على نفوسهم مشاعر الكبر والغرور والتعالي بحيث إنهم إذا اختلفوا مع أحدٍ ، أو ثارت بينهم وبينه خصومة ما ، فلا يعرفون حداً يقفون عنده ، بل يستبيحون لأنفسهم كل ألوان الجور والعدوان ضده ، ويريدون أن يسحقوه بكل قوتهم .. فإن استقامة أمور دنياهم تجعلهم لا يخافون بطش الآخرة .. ومَنْ يعتبر نفسه في مأمنٍ من بطش الآخرة ، لن يبقى الآخرون في مأمنٍ من غوائل بطشه وفتكه بهم أبداً !

والذين يتاح لهم أسباب الرخاء والقوة والتفوق المادي ، تتولد فيهم ثقة كاذبة

بأنفسهم .. وهذه الثقة الكاذبة تقف حجر عثرةٍ دون اعترافهم بأي صدقٍ يأتي من الخارج.. فهم لا يكترثون بقول الناصح ولا يقيمون له وزناً ، مهما كان قوله مهماً وجديراً بالاعتبار في ذاته ، حتى ولو كان صادراً من رسول الله .. ولا يكاد يعترف أناس كهؤلاء إلا إذا أجبرهم عذاب الله على الاعتراف بذلك !

﴿ قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾

خُلُقُ الأَوَّلِينَ : عادتهم في اعتقاد أن لا بعث .

حالت ثقة قوم عاد الكاذبة بأنفسهم دون إذعانهم لكلام رسولهم .. حتى إنهم ظلوا يسخرون منه ويستهزئون برسالته .. ويعتبرون ما هم فيه من سعة ورغد عيشٍ علامةً على أنهم شعب الله (المدلّل) المنعم عليه .. وعجزوا عن أن يدركوا السر القائل بأن: متاع الدنيا إنما يتاح للمرء على سبيل الامتحان وليس على سبيل الاستحقاق .

ولما قام الدليل القاطع على أنهم لا يؤمنون ، سلّط الله عليهم عاصفة هوجاء مصحوبةً بالمطر والبرد الشديدين ، دامت تهب بكل أهوالها ليل نهار على مدى سبعة أيامٍ ، إلى أن دمرت عاد بمدنيتها الفخمة شر تدميرٍ .. ولم يعد لديار هذا الشعب من أثرٍ اليوم سوى رمال الصحراء المترامية الأطراف ، تلك التي تمتد ما بين عُمان واليمن الحاليّين .. ولقد كانت هذه المنطقة خصبةً وعامرةً للغاية في قديم الزمان ، ولكن لا يوجد هناك اليوم أي نوعٍ من الحياة أو العمران !

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا

عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾

طَلْعُهَا : ثمرها الذي يؤول إليه الطلع .

هَضِيمٌ : رطب نضيج أو متدل لكثرته .

فَارِهِينَ : حاذقين بنحتها أو متجبرين .

كانت ثمود هي الشعب الذي ازدهر بعد قوم عاد،وقطع في ميدان التقدم والرقي أشواطاً شاسعةً .. (الأعراف ٧٤) .. وقد كانت مساكنهم بالمنطقة الواقعة ما بين خيبر وتبوك ، التي يقال لها «الحجر».. ولقد نال هذا الشعب من أسباب الرخاء ، والهناءة ومظاهر القوة والغلبة أوفر منال .. غير أن أفراده لم يلبثوا بدورهم أن اتجه اهتمامهم كله نحو الارتقاء المادي وترفيه العيش الدنيوي وحده ، شأنهم في ذلك شأن عاد الذين سبقوهم .. وربما يكون هذا الشعب - ثمود - هو الذي بدأ ، ولأول مرةٍ في التاريخ، بتحويل الجبال إلى البيوت الضخمة عن طريق النحت والحفر ؛ ذلك الفن العريق الذي يوجد له نماذج أكثر تطوراً في صورة كهوف أجانتا وأيلورا (Ajanta-Ellora) في الهند على مقربة من مدينة أورنغ آباد .

وإنه ما من شخصٍ أو شعبٍ يحصل على أسباب الدنيا وزخارفها ، إلا يقع في سوء فهم قائلٍ بأن هذا حقه ، وله أن يستعمله كما يشاء .. بيد أن هذه حماقة كبرى .. إذْ الحقيقة هي أن أسباب الحياة الدنيا إنما تتاح لأجل الامتحان بصفةٍ مؤقتةٍ، وإنها ستنتزع، بعد انقضاء فترة الامتحان المحدودة ، من يد صاحبها بحيث لن يبقى لديه منها

شيء!!.

والمسرف هو الشخص الذي إذا نال الثروة، أصيب بنفسية الفخر بدلاً من الشكر .. وإذا حصل على السلطة، امتلأ بمشاعر الكبر والخيلاء .. وإذا ما عُهد إليه بوظيفةٍ أو منصبٍ، استغله لتدعيم جاهه بروزه الشخصي، بدلاً من أداء الواجب وخدمة الصالح العام.. وإن إساءة استخدام الفرص والمواقع هي التي تورث الفساد في المجتمع .. وقد كان كبراء قوم ثمود مصابين بهذا النوع من الإسراف .. وكان عامتهم ينسجون على منوالهم .. ومن هنا حذّرهم النبي - صالح - قائلاً : إن هؤلاء الذين تعدّونهم «كبراء» ، هم بأنفسهم ضالون منحرفون ، إذن ، فكيف يستطيعون هداية غيرهم إلى طريق الرشاد !!

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾

مِنَ الْمُسَحَّرِينَ : المغلوب على عقولهم بكثرة السحر .

لَّهَا شِرْبٌ : نصيب مشروب من الماء .

لم يلبث قوم صالح أن رموا صالحاً بالجنون .. واستمر هذا الصراع قائماً إلى زمنٍ طويلٍ .. ثم اقترحوا عليه آخر الأمر بالإتيان بمعجزةٍ .. فأظهر الله - سبحانه وتعالى - آيةً كانت معجزةً باهرةً ومظهر العدالة الإلهية في حق الشعب في وقتٍ واحدٍ .

وقد تمثلت تلك المعجزة في ناقةٍ خُلقت على وجهٍ خارقٍ للعادة .. فقال سيدنا صالح

لقومه : إن هذه ناقة الله؛ دعوها تطوف بحقولكم وبساتينكم ترتع فيها ، بحريةٍ تامةٍ وتختص بشرب الماء وحدها يوماً ؛ لا تقربون منه في اليوم الخاص بها .. فمكث القوم على ذلك مدةً غير طويلةٍ ، إلى أن قام رجل طاغٍ منهم بقتل الناقة .. فلم تكد تمضي عليهم بعد ذلك ليالٍ ثلاث حتى فوجئوا بزلزالٍ عنيف أهلكهم أجمعين!

ومع أن جريمة قتل الناقة ارتكبها رجل واحد ، ولكن عُبّر عنها بصيغة الجمع حيث قال : ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ ، والسبب في ذلك أن القوم لم يمنعوا الرجل عن قتل الناقة عندما همّ بها.. ولا رفعوا أصواتهم بالنكير والتنديد بفعله فيما بعد .. وإنما راح الجميع يدافعون عنه ، ساخرين من إنذار صالح إياههم بأن العذاب سيحل بهم بعد ثلاثٍ ، لما انتهكوا من حرمة الله، فلئن كان العاقر قد اقترف الجريمة بيده ، كان الباقون مشاركين معه في الجريمة بقلوبهم وألسنتهم ، ومن ثم أصبح الجميع عند الله في عداد المجرمين !

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

قَوْمٌ عَادُونَ : متجاوزون الحد في المعاصي .

بُعث لوط إلى قومٍ كانوا قد تجاوزوا الحد في العبودية للشهوات والاندفاع وراء اللذات.. حيث لم يكتفوا بما أحلّ الله لهم من الاستمتاع بأزواجهم ، بل أخذوا في ممارسة الفاحشة بالغلمان .. فدعاهم سيدنا لوط إلى عبادة الله وتقواه .. ونهاهم عن سوء ما كانوا يفعلون .

وقد نهض لوط بينهم كداعيةٍ تمتاز شخصيته بنزاهة السلوك والابتعاد الكلي عن

الكذب واللغو وسفاسف الأمور .. كما أنه لم يُثر مع قومه أي نزاعٍ على المطالب المادية .. وقد كانت هذه الوقائع كافية لإثبات أن ما يقوله لوط ، إنما يقوله عن جدّيةٍ وإخلاصٍ تامين.. غير أنهم لم يلبثوا أن ناصبوه العداء ؛ لأن دعوته كانت مناقضةً لاتجاههم وأهوائهم ، .. ولإعطاء كلام لوط أهميةً تُذكر ، كان لابد من توفر خوف الله في النفوس .. على حين أن هذا هو الشيء الذي كانت نفوس قومه قد خلت منه كل الخلو .. إذن ، فما الذي كان سيجعلهم يعيرون كلام نبيهم أبي اهتمامٍ!؟

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ ﴾

مِنَ القَالِينَ : من المبغضين أشد البغض .

فِي الغَابِرِينَ : في الباقين من العذاب كأمثالها .

دَمَّرْنَا الآخَرِينَ : أهلكناهم أشد إهلاك .

مَّطَراً : حجارة من سجيل مهلكة .

المناطق الواقعة بجنوبي وشرقي البحر الميت تبدو اليوم خربةً مقفرةً .. غير أنها كانت خلال الفترة ٢٣٠٠ - ١٩٠٠ ق.م منطقةً خصبةً للغاية .. وكانت مساكن قوم لوط بهذه المنطقة ، ورغم جهود سيدنا لوط الدائبة في التذكير والبلاغ ، إلا أنهم لم يقوموا بإصلاح أنفسهم .. وبلغ بهم التعنت والعناد إلى حد أنهم تصّدوا لقتل النبي .. فعندئذٍ تم إهلاكهم بزلزالٍ رهيبٍ .. ومنذ ذلك الحين وجزء من هذه المنطقة الخربة

مدفون تحت البحر الميت .. بينما تحول الجزء الآخر منها إلى خرائب وأطلالٍ .. وقد حلت بها هذه الكارثة المدمرة في القرن ١٩ قبل الميلاد .

وإن امرأة لوط لم تستطع أن تسمو بنفسها عن مستوى التقاليد القومية ، حيث إنها قد ظلت - مع كونها زوجة النبي - وفيةً لديانتها القومية ، وكانت النتيجة أن هلكت هي الأخرى عندما نزل العذاب الإلهي بعامة المنكرين !

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾

الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ : أصحاب الغيضة الكثيفة الملتفة الشجر (قرب مدين) .

الْمُخْسِرِينَ : من الناقصين للحقوق بالتطفيف .

وَلاَ تَبْخَسُوا : لا تنقصوا .

وَلاَ تَعْثَوْا : لا تفسدوا أشد الإفساد .

وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ : وخلق الخليقة والأمم الماضين .

((الأيكة)) في اللغة هي : الشجر الملتف ، أو البقعة الكثيرة الأشجار الملتفة الأغصان .. وهي الاسم القديم لمدينة تبوك ؛ التي كانت عاصمة البلاد التي سكنها قوم شعيب .. ولذلك سماهم القرآن الكريم ((أصحاب الأيكة)) .. وقد كان هؤلاء من سلالة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام .

إن أصل كل الشرور الأخلاقية والمفاسد الاجتماعية واحد ، ألا وهو الإخلال بـ ((الميزان)) .. والميزان الصحيح (المستقيم) هو أن يعطي المرء غيره ما ينبغي له أن يعطيه بمقتضى الحق ، ويأخذ منه ما ينبغي له أن يأخذه بمقتضى الحق كذلك ، من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ .. وهذا هو الميزان الإلهي .. وحين يتم الإخلال بهذا الميزان ، تتعرض الحياة الاجتماعية للفساد والاضطراب .. وسر الثبات على هذا الميزان يكمن في خوف الله .. ولو أصبح فؤاد المرء فارغاً عن مشاعر خوف الله ، فلن يعود ثمة شيء يرغمه على التمسك بميزان الحق والعدل!

وكل رسولٍ بُعث من عند الله خاطب قومه قائلاً : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ .. ومن هذا يُفهم أن الداعي لابد له من التحلي بصفة الأمانة والاعتبار .. ومن وجوانب هذا الاعتبار ألا يثير الداعي مع شعبه المدعو أي نزاعٍ اقتصاديٍ أو مادي ، حتى لا تشوب إخلاصه ونزاهته شوائب جرّ أية منفعةٍ .. وهذا الاعتبار بالغ الأهمية لدرجة أن الحصول عليه ضروري على كل حالٍ ، وبأي ثمنٍ .. حتى ولو اضطُر الداعي ، من أجل الحصول عليه ، إلى التخلي عن حقوقه المادية .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

المُسَحَّرِينَ : المغلوبة عقولهم بكثرة السحر .

كِسَفاً : صحابة أظلتهم ثم أمطرتهم ناراً .

كان قوم شعيب متأكدين من صدق منهج آبائهم لدرجة أن كلام الرسول بدا لهم لغواً فارغاً .. ومن ثم قالوا له : لعل بعض الخلق تناولك بسحرٍ شديدٍ أفقدك صوابك، وجعلك بالتالي تخلط وتتكلم بما لا ينبغي ولا يُعقل !!

وقولهم : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ لم يكن موجهاً إلى الله ، بل إلى شعيب ، وإنما تحدّوْه بذلك استخفافاً بشأنه ، إذا لم يكونوا يظنونه - عليه السلام - بحيث ينزل عليهم العذاب السماوي لقوله فقط !!

وقد أسفر عن تمادي القوم في العناد والطغيان ، أن ساق الله إليهم في نهاية المطاف ، غمامةً كالعريش ، فاجتمعوا للاستظلال بها من وهج الشمس ، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا أجمعين!

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾

زُبُرِ الأَوَّلِينَ : كتب الرسل السابقين .

لئن كان القرآن الكريم قد نزل بأحد الألسنة البشرية ، فإن عظمته الأدبية غير عادية لدرجة أنه يشهد - من حيث لغته وأسلوبه - على كونه كلاماً إلهيّاً أعلى .. وهناك دليل آخر على صدق القرآن وحقيقته .. وهو أن الأنبياء الذين جاءوا قبل نزول القرآن بأزمانٍ طويلةٍ ، قد تنبئوا به ، ولا زالت نبوءاتهم تلك موجودةً في كتبهم حتى الآن ، ولا سيما في صحائف التوراة والزبور والإنجيل .. وبناءً على هذه النبوءات آمن به عدد من العلماء المسيحيين واليهود في فجر الإسلام ، ولم يزل هذا العمل جارياً مستمراً على امتداد التاريخ وإلى يومنا هذا دون انقطاعٍ!

وتنزيل كلام الله باهتمامٍ خاصٍ وعنايةٍ بالغة كهذه ، لابد وأن يكون لأجل هدفٍ خاصٍ بالغ الأهمية .. وذلك الهدف هو أن يتم إنذار الإنسان بخطورة اليوم القادم الذي ينتظره .. ولقد جاءت كل الكتب السماوية السابقة تهدف أساساً إلى إنذار الآخرة، وإن القرآن الكريم يتخذ بدوره من إنذار الآخرة هدفه الرئيسي كذلك.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

بَغْتَةً : فجأة .

هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ : ممهلون لنؤمن ؟ كلا .

نزل القرآن باللغة العربية ، وقد كانت العربية هي اللغة الأم للنبي الذي جاء به .. مما أتاح للمنكرين فرصة القول بأن هذا الكلام من وضعه هو .. فمن حيث إنه عربي ، قام بتأليف ((قرآنٍ)) بالعربية!

وأسلوب الاعتراض هذا ينم في ذاته عن أنه ليس باعتراضٍ جادٍ .. والذين لا يكونون جادين بشأن أمرٍ ما، يفتعلون دوماً بعض المآخذ وأسباب المعارضة .. ولنفترض - مثلاً - أن هذا القرآن العربي لو تم إنزاله على عجميٍ ، فقرأه على هؤلاء ، مع كونه غير عارفٍ بلسان العرب ، قراءةً صحيحةً فصيحةً ، لأنكروه من فورهم قائلين : ((إنه لابد أن يكون أحد العرب قد قام بتعليمه وتلقينه هذا الكلام)) !!

والذين يقيمون بنيان حياتهم على أسس الباطل ، يكون الاعتراف بالحق عندهم بمثابة نفي الذات .. وإذا تجلّى الحق أمام أناسٍ كهؤلاء ، فلم يعترفوا به مؤثرين

مصالحهم الذاتية عليه ، اندمج مزاج الإنكار في نفسياتهم بحيث لا يستطيعون الفكاك من أسره مرةً أخرى!

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾

أَفَرَأَيْتَ : أخبرني .

مَا أَغْنَى عَنْهُم : أي شئ أغنى عنهم – لم يغن .

إن الدعوة إلى الله ، حينما تظهر على مستوى النبي ، تظهر في أكمل صورها .. ولهذا السبب يتحتم نزول العذاب الإلهي على الشعب الذي يقابل النبي بالجحود والإنكار .. على أن الإنسان ربما يعتبر نفسه بمأمنٍ من العذاب ما لم يباغته بالفعل .. فهو لا يزال يتبجح ويتلاعب بالألفاظ الكاذبة سعياً وراء الإجهاض على دعوة الحق .. فيلجأ تارةً إلى الاستخفاف بشخصية الرسول وتلويث سمعته .. ويرمي كلامه تارةً أخرى بالكذب والافتراء، ويقول طوراً : إن الله إذا لم يكن معنا كما تزعم ، فلِمَ لا يعذبنا!؟

وإن مسئولية النبي ، أو بالتبع مسئولية الداعي ، إنما تنحصر في قيامه بإعلام الناس بأمر الحق خير قيامٍ .. وأما ما وراء ذلك من شئونٍ فمرجعها إلى الله ، وهو تعالى وحده يُحدثها متى يشاء !

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ

فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ : ألن جانبك وتواضع .

وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ : ويرى تقلبك في الصلاة مع المصلين .

إن اتخاذ أحدٍ غير الله إلهاً أعظم جريمةٍ عند الله عز وجل .. وبعد اقترافها لن ينجو أحد - كائناً مَنْ كان - من العقوبة الإلهية أبداً .. حتى ولا الشخص الذي كان يتظاهر برفع شعار التوحيد وإعلاء كلمته بواسطة اللسان والقلم !

وواجب الداعي الأساسي هو أن يجنب نفسه الشرك بكل ألوانه ومظاهره ، ويدعو الناس جميعاً إلى الحق ، بمن فيهم أهله وقرابته من باب أولى .

ولكي تناصر الحق لابد أولاً من أن تحطّم صنم كبريائك .. وذلك هو السر في أن الكبراء قلّما يستعدون للوقوف إلى جانب الحق وتأييده .. وإنما ينهض لمناصرة الحق ، في الأغلب الأعم ، المستضعفون ، وأصحاب الحيثيات الضئيلة في المجتمع .. وهذا الواقع يكون بالنسبة إلى الداعي امتحاناً عسيراً جداً، إذْ يتعين عليه أن يتحاشى النظر إليهم بعين الاحتقار كما يراهم الآخرون .. حتى لا يشعر هؤلاء بأنهم ، رغم انضمامهم إلى المحيط الإسلامي، مازالوا من الضعة والهوان حيث كانوا في المجتمع غير الإسلامي .

والداعي هو الإنسان الذي تتوثق صلته بالله لدرجة أنه لا يلبث أن يقوم من فراشه آناء الليل قلقاً مضطرب البال يذكر ربه ويدعوه في ضراعةٍ وابتهالٍ .. والذي تشتد عنايته بأصحابه الساجدين ويغالي بقيمتهم إلى حد أنه يجعل منهم مركز اهتماماته كلها !

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ

ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

أَفَّاكٍ أَثِيمٍ : كثير الكذب والإثم كالكهنة.

يَهِيمُونَ : يخوضون ويذهبون كل مذهب .

لقد كان الإعجاز في كلام النبي واضحاً لدرجة أنه لم يكن حتى بإمكان المنكرين أن يتجاهلوه أو يكذبوه .. ومن ثم لم يجدوا إلى طمأنة الجماهير الضالعة معهم سبيلاً إلا أن يقولوا : إن هذا الرجل كاهن وساحر .. وسر إعجاز كلامه إنما يكمن في كونه كاهناً وساحراً، وليس في كونه نبياً مرسلاً .. وكذلك كانوا يصفون القرآن الكريم أحياناً بأنه شعر.. فقال تعالى رداً عليهم : إنه يكفي لتفنيد هذا الزعم الفارغ أن تقارنوا بين النبي وبين الكُهّان والشعراء .. فإنكم ستجدون بين حياة الفريقين بوناً هائلاً لن يتمكن معه رجل جاد - وهو بكامل عقله ووعيه - أن يقيس أحدهما بالآخرة !!

فالشعر يعتمد على الخيال دون الحقائق والواقعات .. وهذا هو السبب في أن الشعراء تجدهم دوْماً يحلقون في عالم الخيالات والأحلام ؛ يتحدثون عن شيءٍ تارةً ، وعن نقيضه تارةً أخرى!

وأما النبي وأصحابه ، فإنهم - بالعكس - قائمون على أساس الله الذي هو الحقيقة الكبرى في هذا الوجود .. وحياتهم تقدم أروع الأمثلة العملية على الانسجام بين القول والفعل .. ومعرفة الله العميقة قد جعلتهم مشغولين بذكر الله على الدوام .. وهم يمارسون حياتهم بحذرٍ شديدٍ لدرجة أنهم لا يتخذون إجراءً ما ضد أحد الناس إلا إذا

هو كان قد تجنّى عليهم وظلمهم ظلماً سافراً .

إن خطورة المستقبل تجعل المرء جاداً بالنسبة لحاله .. والشخص الذي لا يكون يقظاً مرهف الحس إزاء مستقبله، لن يكون يقظاً مرهف الحس نحو حاضره كذلك !

سورة النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓ ۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ ﴾

هُدًى : هاد من الضلالة .

فَهُمْ يَعْمَهُونَ : يعمون عن الرشد أو يتحيرون .

إذا تجلى الحق أمام المرء ، فتلقاه بالاعتراف والقبول بدون أدنى تحفظٍ ؛ نتج عن ذلك أنه يسير من فوره في الاتجاه الصحيح ، وتأخذ حياته تصلح وتستقيم من سائر النواحي .. وأما الشخص الذي لا يرضى بصياغة نفسه طبقاً للحق ، فإنه يُضطر بالعكس إلى أن يصوغ الحق طبقاً لهوى نفسه .. وإن ((تزيين الأعمال)) هو الاسم الآخر لهذه الحالة النفسية .

ويصير أمثال هؤلاء غافلين تماماً عن إصلاح شأنهم .. وفي مقابل اعتبار خطئهم صواباً يدفعون الثمن باهظاً ؛ إذْ يظلون يسيرون في طريقٍ لا يؤدي بهم في نهاية المطاف إلا إلى هاوية الجحيم!

﴿ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ

قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾

آنَسْتُ نَاراً : أبصرتها إبصاراً بيناً .

بِشِهَابٍ قَبَسٍ : بشعلة نار ساطعة مقبوسة من أصلها .

تَصْطَلُونَ : تستدفئون بها من البرد .

بُورِكَ : قدس وطهر وزيد خيرا .

مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا : الذين في ذلك الوادي الذي:بدا فيه النور وهم موسى والملائكة .

بعد هلاك القبطي كان موسى قد فارق بلاده مصر وذهب إلى مدين .. وقد كانت مدين على الساحل الشرقي لخليج العقبة الذي يتفرع من البحر الأحمر .. ولقد قضى موسى - عليه السلام- بهذه المنطقة نحو ثمانية أعوام.. ثم انصرف برفقة زوجته عائداً إلى مصر .. وفي أثناء سفره هذا مر بناحية الجبل الواقع بين خليجي البحر الأحمر ، ذلك الذي كان يسمى قديماً بـ ((الطور)) ، وهو يُعرف الآن بـ ((جبل موسى)) .

ولعلها كانت ليلة شتاء شديدة البرودة .. وقد لاحت لموسى من بعيدٍ نار تتوهج فوق الجبل .. فيّمم نحوها .. ولكنه لما اقترب منها نعلم أنها تجلّي الرب ، وفوق هذا الجبل ، حيث كان موسى قد أبصر النار ، لا تزال تتواجد حتى اليوم شجرة قديمة يُعتقد أنها هي الشجرة التي سمع موسى من وسطها صوت الله يناديه .. ولقد بنى المسيحيون هنا فيما بعد ديراً وكنيسةً يزورها الناس اليوم من شتى أقطار العالم للسياحة والتبرك!!

﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ

وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾

تَهْتَزُّ : تتحرك بشدة واضطراب .

كَأَنَّهَا جَانٌّ : حية خفيفة في سرعة حركتها .

وَلَمْ يُعَقِّبْ : لم يرجع على عقبيه أو لم يلتفت .

فِي جَيْبِكَ : فتحة القميص حيث يدخل الرأس .

بَيْضَاءَ : نيرة يغلب نورها نور الشمس .

غَيْرِ سُوءٍ : غير داء برص ونحوه .

مُبْصِرَةً : واضحة بينة هادية .

وَعُلُوّاً : ترفعا واستكبارا على الإيمان بها .

كان موسى قد توجه نحو الجبل ليأتي بجذوةٍ نارٍ ، ولكنه بعدما وصل هناك ، علم أنه قد جيء به للنبوة .. والله سبحانه وتعالى إذْ يمنح أحد عباده عطيةً خاصةً فإنما يمنحها بصورةٍ مفاجئةٍ وغير متوقعةٍ كهذه ؛ لكيما يعتبرها العبد منحةً من عند الله مباشرةً ، وبالتالي يمتلئ كيانه كله بمشاعر الشكر والامتنان لربه المنعم الوهاب!

وإن بني إسرائيل ، مع كونهم أمةً مسلمةً في ذلك الزمان ، إلا أنهم كانوا قد صاروا بالفعل كتلةً هامدةً لا حياة فيها .. هذا إلى جانب أن موسى عليه السلام كان عليه أن يعرض

دعوة التوحيد على ملك جبارٍ كفرعون .. ولذلك فقد أعطاه الله منذ الوهلة الأولى معجزة العصا.. وقد كانت هذه العصا تأييداً إلهياً دائماً لسيدنا موسى .. وقد ظهرت بواسطتها تسع معجزاتٍ في مواجهة فرعون .. وأما المعجزات الأخرى التي ظهرت خاصةً لبني إسرائيل ، فكانت علاوةً على التسع الأولى .

ولقد كان صدق موسى قام عليه الدليل القاطع من خلال معجزاته .. ولكن فرعون وأصحابه أبوا الاعتراف بنبوته عليه السلام وسر ذلك كان يكمن في ظلمهم وعلّوهم .. حيث لم يكن فرعون ولا أصحابه مستعدّين لوضع القيود على حرياتهم ، وكانوا يعرفون أن الإيمان بموسى يعني نفياً لكبريائهم أنفسهم .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾

مَنطِقَ الطَّيْرِ : فهم أغراضه كلها من أصواته .

كان داود - عليه السلام - ملكاً من ملوك بني إسرائيل ونبياً من أنبيائهم ، وكان ولده سليمان هو الآخر ملكاً ونبياً .. وقد اتسع ملكه إلى درجةٍ كبيرةٍ ؛ حتى شمل فلسطين وشرق الأردن والشام .. وقد أعطاه الله شتى أنواع المعلومات الفنية والصناعية .. كما خصّه بخصوصيات خارقةً للعادة .. حيث علمه لغات الطيور ، وكيفية تدريبها على نقل الرسائل وما إلى ذلك .. وكان سيدنا سليمان قد توافرت له أسباب العظمة ومظاهر الأبهة والغلبة غير العادية على أهل زمانه .. غير أن هذا كله لم يزده إلا تواضعاً .. إذا كان ينظر إلى كل ما يملكه على أنه عطية من الله مباشرة ، لا دخل لمواهبه أو رجاحة عقله في الحصول عليها .. وعهد مملكة سليمان - عليه السلام -

يتراوح بين سنة ٩٦٥ق.م وحتى سنة ٩٢٦ ق.م وعلى هذا فقد دام حكمه زهاء أربعين عاماً !

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

فَهُمْ يُوزَعُونَ : يوقف أوائلهم لتلحقهم أواخرهم .

لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ : لا يكسرنكم ويهلكم .

أَوْزِعْنِي : الهمني وحرضني واجعلني .

إن جيوش سليمان - عليهما السلام - لم تكن مشتملةً على البشر وحدهم ، بل كانت تضم الجن والطيور أيضاً .. وذات يومٍ مرَ سليمان ، وهو يقود جيشه ، بوادٍ فيه نمل كثير .. وقد اعترفت النملات هناك بمجد سليمان وضخامة جيشه على نحوٍ غير عاديٍ .. ولم يفت سليمان أن فهم بدوره الحديث الذي دار بين النمل في تلك المناسبة.

إن واقعةً كهذه ربما تكفي لإصابة إنسانٍ عادي بالفخر والغرور والاستعلاء ، بيد أن سليمان عندما نظر إلى حاله ذاك ، صار كله شكراً وخضوعاً .. وكل ما كان ملكاً له في ظاهر الأمر ، لم يلبث أن عزاه برمته إلى فضل الله.. وهذا هو منهج الإنسان المؤمن الصالح في كل زمانٍ ومكانٍ !

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾

لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾

بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ: بحجة تبين عذره في غيبته.

يُخْرِجُ الخَبْءَ: يظهر المخبوء المستور أيا كان.

كانت سبأ أو السبئيّون من أغنى شعوب العالم القديم .. ويمتد زمانهم من سنة ١١٠٠ ق.م إلى سنة ١١٥ ق.م. وكانت عاصمتهم مدينة مأرب باليمن .. حيث لا تزال توجد بهذه المنطقة حتى هذا اليوم بعض أطلالٍ رائعةً تذكر بغابر مجدهم .. وفي عهد سليمان - عليه السلام - كانت تحكم امرأة تُدعى "بلقيس" .. وقد كان هؤلاء يعبدون الشمس ؛ إذا ألقى الشيطان في قلوبهم بأنه لا يكون إلهاً جديراً بالعبادة إلا ما كان أبرز وأشد وضوحاً .. وبما أن الشمس هي أبرز وأوضح شيءٍ من بين كل الأشياء المرئية ، لذا فهي وحدها تصلح لكي تُتخذ إلهاً يُعبد!

وقد حصل سيدنا سليمان على معلوماتٍ مستفيضةٍ عن قوم سبأ وملكتهم بوساطة الهدهد .. وربما كان هذا الهدهد من ضمن طيوره المجنّدة ، وكان قد تلقى تدريباتٍ عمليةً راقيةً !

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ

إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

تَوَلَّ عَنْهُمْ: تنح عنهم قليلاً.

أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ: لا تتكبروا عليَّ .

مُسْلِمِينَ: مؤمنين. أو منقادين مستسلمين.

لقد كانت قوة سليمان ودولته هبةً إلهيةً .. وكذلك الموقف الذي تبناه عليه السلام إزاء مملكة سبأ كان هو الآخر أمراً إلهياً .. وقد كتب ((الشاه عبد القادر الدهلوي)) في شرح هذه الآيات الكريمة وما يليها فقال : ((إن أي نبي من الأنبياء لم يخاطب أحدً - خاصةً في مبدأ الأمر - بمثل هذا الأسلوب (القطعي الصارم) ، وإنما خاطب سليمان بهذا الأسلوب لكونه متمتعاً - على وجه الاستثناء - بقوة ملكوت الله عز وجل)) .

أما ملكة سبأ (بلقيس) فقد نظرت في الموضوع نظرة واقعية خالصة .. إذ رأت : إننا لو اصطدمنا بسليمان،فأغلب الظن أننا سوف نرجع خائبين مهزومين،وبالتالي سيعاملوننا معاملة الغالب للمغلوب .. وعلى العكس من هذا فلو أننا خضعنا لطاعته، لنجونا من الهوان والدمار .. بيْد أن الملكة لجأت إلى إرسال الهدايا والتحف بهدف تقديرٍ أولي لحقيقة الأمر .. ولكي تعلم جيداً ما إذا كان سليمان مجرد طامعٍ في ثروتها وخيرات بلادها ، أو ينطوي طلبه منها الحضور إليه خاضعةً بلا ترددٍ على أي جانبٍ

مبدئي ؟!

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا : لا طاقة لهم:بمقاومتها .

وَهُمْ صَاغِرُونَ : ذليلون بالأسر والاستعباد .

إن الثروة الثمينة التي كان سليمان قد نالها بشكل المعرفة الإلهية والحكمة والنبوة ، جعلت كل ثروةٍ أخرى دونها تفقد قيمتها في نظره .. ومن ثم حين وصلت إليه هدايا الذهب والفضة من جانب ملكة سبأ ، لم يقبلها ، حتى ولم ينظر إليها .

وبموقفه العملي هذا ترك سليمان في نفوس السفراء المبعوثين من ملكة سبأ انطباعاً فحواه : إن أمري هو أمر المبدأ دون أمر المصلحة .. وقد كتب المفسر ابن كثير في شرح ذلك ما نصه : ((أي أتصانعونني بمالٍ ؛ لأترككم على شرككم وملككم))؟! [1]

﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ : آصف أو جبريل أو ملك آخر .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٦٧١ .

لِيَبْلُوَنِي : ليختبرني ويمتحنني

إن سليمان - عليه السلام - وإن كان يمتلك قوةً غير عاديةٍ ، إلا أنه خطّط لإخضاع قوم سبأ عن طريق عرض القوة بدلاً من استعمال القوة .. ومن ثم أحضر عرش الملكة من قصرها الكائن بمأرب إلى أورشليم (فلسطين) بواسطة أحد رجاله المخصوصين .. وربما يكون قد فكر في إحضار العرض لما خرجت الملكة من بلاد اليمن في إثر عودة الرسل إليها ، قاصدةً زيارة سليمان في عاصمة ملكه لكي تتفاوض معه مباشرةً .. ومن المقطوع به أنها تكون قد اعتزمت على هذه الرحلة ، بخدمها وحشمها ، حينما علمت أحوال عظمة سليمان وحكمته غير العادية وخلقه العظيم بألسنة سفرائها العائدين من فلسطين .

وتقع مدينة مأرب على بعد ألف وخمسمائة ميل تقريباً من أورشليم .. وقد طُويت هذه المسافة بحيث لم يكد يفرغ سليمان من إصدار أمره ، حتى كان العرش الذهبي المرصع بالجواهر واللآلئ ماثلاً بين ناظريه .. وبالرغم من هذه القوة الخارقة لم تتولد في نفس سليمان عاطفة الفخر للحظةٍ ، وإنما ظل - عليه السلام - خاضعاً لله تواضعاً على مدى الحياة !

﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

نَكِّرُوا : غيروا .

ادْخُلِي الصَّرْحَ : القصر . أو ساحته أو بركته .

حَسِبَتْهُ لُجَّةً : ظنته ماءا عذبا .

صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ : مملس مسوى .

مِّن قَوَارِيرَ : زجاج شفاف .

ووصلت ملكة سبأ إلى بيت المقدس ، حيث دخلت قصر سليمان ؛ ففوجئت بسريرٍ وُضع في المكان المهيأ لاستقبالها على هيئةٍ غريبةٍ ، وقيل لها : ﴿ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾؟! فوقعت في حيرةٍ شديدةٍ من قدرة الله ، إذْ وجدت أن العرش الذي كانت قد تركته في قصر مأرب وراء الأبواب والأقفال ، ها هو ذا قد وصل إلى بيت المقدس قبل وصولها هي طاوياً مسافة الألف والخمسمائة ميل الهائلة بطريقةٍ عجيبةٍ غامضةٍ !!

وانتهت الملكة ، وهي تمشي داخل قصر سليمان ، إلى حيث كان البلاط مكوناً من صفائح سميكة من الزجاج البلوري الشفاف ، يجري تحته الماء الرقراق .. فخيل إليها وكأن أمامها حوض ماءٍ ، فراحت تفعل عندئذٍ ما يفعله الشخص الذي يريد اقتحام الماء ؛ أي شمرت أذيالها في حركةٍ غير إراديةٍ لا شعوريةٍ خشية أن تبتل .

ومن خلال هذا كأنما تم إعلامها بأن الإنسان كثيراً ما ينخدع بالظاهر ، بينما تكون الحقيقة الأصلية في أغلب الأحوال مختلفةً عما تراه العيون ظاهراً .. وهكذا ربما يأخذ الإنسان في عبادة الشمس والقمر بالنظر إلى بروزهما ولمعانهما الظاهريين ؛ في حين أن الإله الحقيقي موجود وراء وفوق هذه الظواهر كلها .

وقد كانت ملكة سبأ تعبد الشمس تأثراً بتقاليدها القومية .. ولكن الذي سمعت ورأت عند سليمان غسل دماغها من كل أحاسيس التعظيم والإجلال لغير الله .. فنبذت بالتالي دين الشرك ، واختارت دين التوحيد عن صدقٍ وإخلاصٍ وتفانٍ !

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

اطَّيَّرْنَا : تشاءمنا حيث أصبنا بالشدائد .

طَائِرُكُمْ عِندَ اللهِ : شؤمكم عملكم المكتوب عليكم عنده تعالى .

قَوْمٌ تُفْتَنُونَ : يفتنكم الشيطان بوسوسته .

لما بدأ صالح - عليه السلام - بدعوة التوحيد الخالص ، انقسم قومه إلى قسمين :

القسم الأول : عارضوه ووقفوا ضده ، والقسم الثاني : لبوا نداءه ووقفوا إلى جانبه.. ونشبت بين هاتين الطائفتين مناقشات خلافية حادة .. وقد كان معارضوه يقولون في زهوٍ وتبجحٍ : إننا نرفض دينك .. إذن ، فلتأتنا بما شئت من العذاب لقاء إنكارنا .. وكانوا إذا حلت بهم نكبةٌ أو مصيبةُ ما، قالوا إنما أصبنا بهذا بسبب شؤم صالح وأصحابه لا غير .. ولقد كانوا يرددون هذا الأقاويل استخفافاً بدعوة صالح ، وليس إظهاراً لأي فكرةٍ جادةٍ .. وقد كانت أحوالهم الحسنة والسيئة كلتا هما من عند الله تعالى .. ولكنهم فيما استمدوا من حسن حالهم غذاء الفخر الزائف ، استمدوا من سوء حالهم غذاء الشكوى الكاذبة!!

﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَٰسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ

كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

تِسْعَةُ رَهْطٍ : أشخاص من الرؤساء مع كل رهط .

تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ : تحالفوا بالله ، أو احلفوا به .

لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ : لنقتلنهم ليلاً بغتة .

مَهْلِكَ أَهْلِهِ : هلاكهم .

دَمَّرْنَاهُمْ : أهلكناهم .

خَاوِيَةً : خالية خربة أو ساقطة متهدمة .

كان في القوم تسعة رؤساء كبراء .. ولأجل الحفاظ على كبريائهم كانوا لا يزالون في محاولةٍ دائبةٍ لتصغير الحق ، وإن محاولةً كهذه مبعث الفساد الأكبر في الأرض ولا ريب.

وفي نهاية المطاف دبّر هؤلاء مؤامرةً لإهلاك صالح - عليه السلام - .. ولكن الله قد بادرهم بالبطش قبل أن يُنفذوا على خطتهم الخفية الجائرة ضد النبي صالح .. حيث تم تدميرهم ، رغم كل مظاهر عظمتم ، بحيث لا يوجد على وجودهم من أثرٍ في مساكنهم اليوم سوى خرائب وأطلال محطمة .

وإن الوقائع التاريخية كهذه لتنطوي على أغلى الدروس والعظات .. على أنه لن يتعظ بها إلا شخص يربطها بالقانون الإلهي .. وأما الذين يردونها بالعكس إلى القوانين الطبيعية ، فإنهم لن يستفيدوا منها أي درسٍ أو عبرةٍ أبداً!

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ

لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ۞

وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ : لا تبالون إظهارها مجانة .

يَتَطَهَّرُونَ : يزعمون التنزه عما نفعل .

قَدَّرْنَاهَا : حكمنا عليها .

مِنَ الغَابِرِينَ : يجعلها من الباقين في العذاب .

مَّطَراً : حجارة من السماء مهلكة .

كان قوم لوط قد بلغ بهم المجون والاستهتار إلى حد اللواط .. فقال لوط ، وهو يؤنب قومه ويهز ضمائرهم النائمة : لقد مُنحتم - يا عباد الله - عيوناً لتصبروا وعقولاً لكي تميزوا الخير من الشر ، وما ينبغي مما لا ينبغي ، فكيف إذن ، تمارسون عملاً هو غاية في القبح والشناعة على رؤوس الأشهاد دون تحرجٍ أو استحياء)) ؟!

ولم يكن القوم يملكون جواباً على هذا السؤال .. ولا كانوا يستطيعون أن يردوا كلام النبي بالدليل .. ولذلك ما لبثوا أن استعدوا للاعتداء عليه .. ولكنه عندما يصل الأمر إلى هذه النقطة ، يظهر القضاء الإلهي الحاسم من غير تأخيرٍ .. فأمطر الله عليهم مواد محرقةً أهلكتهم أجمعين .. ولم يخلص من هذا العذاب حتى امرأة لوطٍ التي كانت ضالعةً مع المشركين .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى إنما يعامل كل شخصٍ بناءً على عمله

الذاتي ، وليس بناءً على نسبه أو عشيرته أو انتمائه !!

وإن الشخص الذي يتأمل في وقائع التاريخ الآنفة الذكر ، سوف يخرج من تأملاته وهو يصرخ قائلاً : إن الحمد الكثير والشكر الوافر الدائم لله العظيم الذي تفضل بتهيئة أسباب هداية الإنسان في كل العصور .. كما سيمتلئ صدره بمشاعر الحب والاحترام والتقدير لأولئك العباد الأخيار الذين وهبوا أنفسهم وحياتهم كلها لله عن رضاً وسرورٍ، لأجل تكميل مشروعِ إبلاغ الهداية الإلهية إلى البشرية جمعاء!

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

الكون عظيم إلى حدٍ لا يمكن تصوره .. وفي مقابل سعته وعظمته تعود كل الألفاظ والتعابير غير كافية إطلاقاً ، تلك التي ظل المنحرفون الضالون من الناس يرددونها في كل عصرٍ لتفسير الكون على أساسٍ غير إلهي .. سواء تمثل ذلك في أصنام الإنسان المشرك القديم ، أو في نظريات الإنسان الملحد الحديث التي هو يعرضها في ثوب مصطلحات براقةٍ مثل قوانين العلة والمعلول والصدفة والإتقان .. إلخ .

إن خلق أجرامٍ لا تحصى وتحريكها في الفضاء اللانهائي في نظام دقيقٍ ، وجعْل الكرة الأرضية ملائمة للحياة إلى أقصى الحدود .. وتوفير أشياء لا تُثمن كالماء والنبات بمقادير هائلةٍ للغاية ، وإيجاد أحوال السكون التام فوق هذه الأرض المتحركة باستمرارٍ، وجعْل الأرض قابلةً للسكنى والاستقرار بواسطة إرساء الجبال والبحار .. ومنع المياه العذبة والمالحة عن الاختلاط أحدهما في الآخر عن طريق قانون التوتّر

السطحي .. إن هذه الوقائع وأمثالها هي أعظم من أن يتمكن من إحداثها صنم ، أو يبرزها أي قانون من قوانين الطبيعة العمياء إلى الوجود!

والحقيقة هي أن تفسير الكون على أسسٍ أخرى غير الله الواحد الأحد ، وضع لتفسير باطلٍ في موضع التفسير الحق .. وهو في الواقع انحراف وضلال ، وليس من التفسيرات في شيءٍ!

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

رَحْمَتِهِ : المطر الذي به تحيا الأرض .

إن الوفاء بحاجة أحد المحتاجين لا يمكن إلا إذا واتته كل الأسباب الكونية وفي حالة كهذه ، تُرى ، هل ثمة من أحد غير الله الواحد ، القادر المطلق ، يتمكن من تنسيق جميع الأسباب المواتية ، وتطويعها على هذا المستوى الضخم؟! كلا .

وهكذا فإن زوال أمةٍ واحتلال أمة أخرى مكان الصدارة دونها .. ومواصلة السفن البحرية ، والطائرات في العصر الحديث رحلاتها في الظلام والنور على السواء عبر الاستفادة من إمكانات الطبيعية .. وارتفاع مياه البحر بخاراً في الجو ، ثم تساقطها مطراً مدراراً على الأرض ، وإيجاد الأشياء من العدم ، وإعادة خلقها من جديرٍ ، وتهيئة أسباب الرزق بمختلف أنواعه للإنسان على نطاقٍ واسعٍ .. كل هذه أمور ذات مستوىً إلهيٍ .. ولن يستطيع القيام بها أحد غير الله الواحد الكبير المتعال وحده! وهذا هو شأن

كل الوقائع تحدث على وجه الأرض .. حتى إن واقعة بسيطةً واحدةً يتطلب إحداثها توفر عناصر جمةٍ لا يمكن إحضارها إلا للوجود الذي في قبضته الكون كله .. إذن ، فما أسخفه من رجلٍ ، مَنْ يجعل من أحدٍ غير الله الواحد مركزاً لعواطف عبوديته .. ومَنْ يتوجه إلى أحدٍ من دون الله الواحد بالعبادة والخضوع!

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ : تكامل واستحكم علمهم بأحوالها وهو تهكم بهم لفرط جهلهم بها .

عَمُونَ : عمي البصائر عن دلائها البينة .

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ : أكاذيبهم المسطرة في كتبهم .

إن القوى اللازمة للقضاء بين الأمم وتحديد مصائرها ، لا يمتلكها إلا الله الواحد علام الغيوب .. وقد ينفذ تعالى قضاءه في عالمنا الراهن بصفةٍ جزئيةٍ ، وهو وحده سيقضي بين الخلائق أجمعين في عالم الآخرة بصورةٍ كليةٍ شاملةٍ وأبديةٍ !

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ

﴿ ٧٢ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ٧٤ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ٧٥ ﴾

ضَيْقٍ : حرج وضيق صدر .

وقوله ((ولا تحزن..)) ليس نهياً للداعي إلى الحق عن الحزن لذاته .. إذْ الحزن هو غذاء الداعي ، وحياته سلسلة أحزانٍ متواصلةٍ .. وهذا في الحقيقة رفض للإحساس الذي قد يطرأ على النفس بهوان الحق وضعفه عند تأزّم الأحوال.. والمعنى إن الحق وأنصاره سيُكتب لهم النجاح آخر الأمر حتماً رغم كل العقبات والظروف غير الملائمة .

ليس ثمة حماقة يرتكبها المرء أكبر من أن يعتبر الفرصة المتاحة له على وجه الاختبار والابتلاء فرصةً للتمرد والطغيان !

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٧٧ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ٧٨ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ٧٩ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ٨١ ﴾

مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ : ما تخفي وتستر من الأسرار .

غَائِبَةٍ : شيء يغيب ويخفى عن الخلق .

الإنسان مخلوق يتمتع بقدرات السمع والبصر والتعقل .. وهذه القدرات لو تم استخدامها بتمام اليقظة والانفتاح ، لكانت وسائل فعالةً تعين صاحبها على رؤية

الحقائق كما هي والتعرف عليها بدون خطأ أو التباسٍ .. ولكن لو أن شخصاً فرض على نفسه أي تصورٍ مصطنعٍ ، فإن قواه المردكة لا تلبث أن تتعطل وتفتقد فاعليتها تلقائياً .. وبعدئذٍ تتجلى له الحقيقة في صورتها المكشوفة العارية ، ولكنه يظل غافلاً عنها كما لو أنه أصم وأعمى .. والحق أنه لا يمكن إراءة الطريق في هذه الدنيا إلا لشخصٍ يبحث عن الطريق بدأبٍ وإخلاصٍ.. وأما الذي يخلو فؤاده من شرارة البحث والشوق للاهتداء ، فلن يجدي عنه هداية ولا توجيه مرشدٍ شيئاً .

ولكي تكون متبع الحق لابد لك أن تتحلى بخاصية الاعتراف .. فإن الهداية لا ينالها في هذا العالم إلا الشخص الذي يملك استعداداً للمبادرة إلى قبول الأمر فوراً ، إذا قام لديه الدليل على صحته ويجعل حياته بالتالي تابعةً له من غير أدنى ترددٍ أو تفظٍ .

والذين يأبون عن الخضوع لدعوة الله ، يضطرون في نهاية المطاف إلى الخضوع لقضاء الله المبرم ، غير أن الخضوع وقتئذٍ لن يغن أحدٍ شيئاً !

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

وَقَعَ القَوْلُ : دنت الساعة وأهوالها الموعودة .

دَابَّةً : هي من أشراط الساعة الكبرى.

فَوْجاً : جماعة وزمرة .

فَهُمْ يُوزَعُونَ : يوفق أوائلهم لتلحقهم أواخرهم ثم يساقون جميعا .

إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يضع نهايةً لتسلسل تاريخ العالم الراهن ، ظهرت ، قبل الختام الأخير، علامات غير عاديةٍ .. منها خروج الدّابة .. فالأمر الذي رفض الناس الإيمان به ، وقد بلّغ إليه دعاة من البشر أمثالهم ، سيتم إعلانه على لسان مخلوقٍ غير إنسانيٍ.. بيد أن هذا سيكون بمثابة جرس الإنذار بانتهاء مهلة الامتحان ، وليس إعلاناً عن بداية موعد الامتحان !

وإذا جُمع الأولون والآخرون يوم القيامة ، وُزِّعوا على مجموعاتٍ .. المؤمنون في جانبٍ .. والمنكرون في جانبٍ آخر .. وبعد ذلك سيُسأل المنكرون عما هو الدليل العلمي الذي كنتم تستندون عليه حين قابلتم الحق بالرفض والإنكار؟! ووقوف القوم في ساحة المحشر يومئذٍ مبهوتين ذاهلين لا يحيرون جواباً ، سيقيم الدليل القاطع على أن إنكارهم إنما كان مرتكزاً على أساسٍ من العناد والتعصب ليس غير ؛ وإن كانوا يقدمون في الدنيا أدلةً زائفةً للتظاهر بأنهم على الحق .. كما سينكشف عليهم حينئذٍ أن أمر الحق كان من الوضوح والجلاء في الحياة الدنيا بحيث كان نظام الليل والنهار هو الآخر ينبّههم إليه بلغةٍ غير منطوقةٍ إلى جانب كلام الداعي المنطوق .. حيث كان النوم ليلاً يمثل الموت ، والنهوض صباحاً يمثل البعث بعد الموت .. ولكنهم ، بالرغم من هذه العناية الفائقة والاهتمام غير العادي بإعلان الحق وتجليته ، ظلوا محرومين من اكتشاف الحق ، فيا له من حرمانٍ وشقاءٍ مرير!!

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ

مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

فَفَزِعَ : خاف خوفا يستتبع الموت .

دَاخِرِينَ : صاغرين أذلاء بعد الموت .

فَكُبَّتْ : ألقوا منكوسين .

حين ينفخ في الصور تنهار كل صروح المجد والعظمة والكبرياء كجدران الرمال .. وإنها ستكون لحظةً رهيبةً مروعةً لدرجة تستحيل معها حتى الجبال الراسيات هباءً منثوراً، ناهيك عن الإنسان ذلك المخلوق الضعيف .. وحينئذٍ سكون العجز كله إلى جانبٍ .. والقدرة كلها إلى جانبٍ آخر .

وسوف تفقد يومئذٍ كل الأشياء أهميتها ، تلك التي كان الناس يعتبرونها ذات الأهمية القصوى في الحياة الدنيا.. والعمل الصالح وحده سيكون هناك ذا وزنٍ واعتبارٍ .. وكم من «الخاسرين» سيفلحون يومئذٍ ، وكم من «المفلحين» هنا سيصبحون هناك في عداد الخائبين المحرومين إلى الأبد!!

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

وردت الإشارة إلى مكة في الآية (٩١) : ﴿ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ﴾ مراعاةً لمخاطبي القرآن الأولين .. وهذا أمر يعني به الباحثون في أسلوب القرآن وبلاغته .. وأما مقتضى

الآية الأصلي فهو تنبيه الإنسان إلى الحقيقة الأزلية القائلة بأنه له في هذه الحياة منهجاً صحيحاً واحداً ليس غير ، ألا وهو أن يعيش عبداً عابداً لله الواحد الأحد .

ومهمة الداعي تتلخص في «التلاوة» .. أي إعلان أمر الحق .. والإنسان مطالب بإدراك الحقيقة المعنوية الكامنة في نداء الداعي اللفظي .. وبمشاهدة تجلي القوة الإلهية في الدعوة المجردة - على ما يبدو - من كل أسباب القوة .. والذين يقيمون الدليل على هذه الصلاحية ، هم الذين سيُعتبرون أهلاً لإنعامات الله الأبدية .

«سيريكم آياته» هذه النبوءة يتصل أحد جوانبها بقريش مكة - المخاطبين الأوائل - للقرآن الكريم - حيث أراهم الله آياته في القرآن الأول في صورة غزوة بدر الكبرى وفتح مكة .. ولها جانب آخر يتعلق بخلود القرآن وأبديته.. ومن هذه الناحية الثانية تنطبق هذه النبوءة غير العادية أيضاً ، بمعناها الواسع الشامل ، على الآيات والكشوف العلمية التي ظهرت في عصرنا الحديث !

سورة القصص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

عَلا فِي الأَرْضِ : تجبر وطغى فى أرض مصر .

شِيَعاً : أصنافا فى الخدمة والتسخير والإذلال .

وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ : يستبقى بناتهم للخدمة .

يَحْذَرُونَ :يخافون من ذهاب ملكهم .

أُدين فرعون هنا بجريمة الإفساد فى الأرض .. وقد كان إفساد فرعون تمييزه فى التعامل مع شعبين فى مصر .. فبينما أتاح للقبط - قومه هو - أفضل الفرص العملية من كل نوع حرم بنى إسرائيل مِن كل الفرص .. وليس ذلك فحسب ، بل أخذ يقتل مواليدهم الذكور ، حتى ينقطع نسلهم رويداً رويداً .. وقد كان عمل فرعون هذا تدخلاً صريحاً فى نظام الفطرة .. وبمقتضى القانون الإلهى فإن التوافق مع نظام الفطرة اسمه الإصلاح ، بينما التدخل فى نظام الفطرة اسمه الإفساد .

إن القضاء بالعزة أو بالهوان إنما يكون من عند الله تعالى .. وقد قرر الله على عكس ما قرره فرعون .. إذ قرر الله تعالى أن يعطى بنى إسرائيل العزة والسلطة ، ويهلك فرعون مع جنوده .. ولقد أثبت فرعون ، بإصراره على العناد والطغيان والظلم ، بعد قيام الحجة عن طريق موسى - عليه السلام - أثبت أنه مستحق للعقاب .. فما لبث أن أغرقه الله فى البحر وقضى على تجبره وطغيانه إلى الأبد .. وجعل من بنى إسرائيل حكام سوريا وفلسطين بعد إخراجهم من أرض مصر بسنين!!

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

كَانُوا خَاطِئِينَ : مذنبين آثمين .

قُرَّتُ عَيْنٍ : هو مسرة وفرح .

وُلد موسى وعملية ذبح المواليد الذكور من بنى إسرائيل جارية على قدمٍ وساقٍ ، مما أقضَّ مضجع أمه وملأ صدرها خوفاً وقلقاً على حياته .. فأعلمها الله ساعتئذٍ - ربما فى المنام - هذا التدبير ، بأن تضعه فى قارب صغير وترسله فى بحر النيل .. وقد فعلت هكذا بعد ثلاثة أشهرٍ .. وجرى هذا القارب مع الماء ، حتى انتهى به المسير إلى الساحل المواجه لقصر فرعون ، ولقد كانت امرأة فرعون (آسية بنت مزاحم) امرأة طيبةً ، فحين وقع بصرها على الطفل موسى البريء الوسيم الطلعة ، فاض قلبها رقةً وعطفاً عليه .. فلم يلبث موسى أن أُدخل قصر فرعون واستُبقى هناك نزولاً على طلبها

ورغبتها .

ويُروى أن زوجة فرعون حينما قالت لزوجها : "إن هذا الغلام قرة عينٍ لنا" ، أجابها قائلاً : "أما لك فنعم ، وأما لى فليس بقرة عينٍ" .. وهذه الكلمة ربما تكون قد صدرت من فرعون بسبب الفارق النفسى بين طبيعة الرجل وطبيعة المرأة .. إلا أنها تحققت بالفعل حرفياً فيما بعدُ !

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

فَارِغاً : خاليا من كل ما سوى موسى .

لَتُبْدِى بِهِ : لتصرح بأنه ابنها لشدة وجدها .

رَّبَطْنَا : بالعصمة والصبر والتثبيت .

قُصِّيهِ : اتبعى أثره وتعرفى خبره .

فَبَصُرَتْ بِهِ : أبصرته .

عَن جُنُبٍ : عن بعد أو عن مكان بعيد .

يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ :يقومون بتربيته لأجلكم .

تَقَرَّ عَيْنُهَا : تسر وتفرح بولدها .

بَلَغَ أَشُدَّهُ : قوة بدنه ونهاية نموه .

وَاسْتَوَى : اعتدل عقله وكمل .

لقد نسب الله أمر صيانة موسى بحذافيره إلى ذاته العليا .. بينما تفاصيل ذلك تشير على أن كل ما جرى إنما حصل بمقتضى الأسباب والعلل .. ومن هذا نعلم أن ظهور المشيئة الإلهية فى عالم الامتحان الراهن يتم على نمط الأسباب والمسببات ، وليس على نمط الخوارق والشعوذات المطلسمة .

وقد أُلقى بموسى ، وهو طفل عاجز ضعيف ، فى أمواج البحر .. إلا أنه بلغ الساحل بسلامٍ وعافيةٍ بالغين .. وخطط ملك زمانه لقتله .. ولكن الله هيأ أسباب تربيته بوساطة ذلك الملك نفسه .. وقد وُلد - عليه السلام - فى أسرةٍ عاديةٍ متواضعةٍ ، بيد أن الله - جل شأنه - بإيصاله إلى القصر الملكى أتاح له فرصة تعلم العلوم والآداب والفنون الرائجة فى ذلك العصر على مستوى أعلى وأرقى .. وهذا مثال يدل على أن قدرة الله لا تُحد .. وأنه ليس فى مقدور أحدٍ ، كائناً من كان ، أن يقف فى وجه تحقق ، تدبير الله ومراده!

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فَوَكَزَهُ مُوسَى : ضربه فى صدره بجمع كفه .

ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ : معينا لهم .

ومن أحداث ما قبل النبوة ؛ إذْ كان موسى فى عاصمة مصر ، أن رأى ذات يومٍ رجلين - أحدهما إسرائيلى والآخر قبطى - يتنازعان .. فناداه الإسرائيلى ، لكونه واحداً من بنى شعبه ، طالباً نجدته ليدفع عنه شر القبطى ، ولما أراد موسى أن يفصل بينهما ، خاض معه القبطى فى جدالٍ ومشاكسةٍ ، فوكزه موسى - على سبيل الدفاع والتأديب - وكزةً أصابت - صدفةً - بعض مقاتله ، فمات فى الحال !

ولقد كان الأقباط فى ذلك الوقت يضطهدون بنى إسرائيل شر اضطهاد ، ويذيقونهم ألوان العذاب .. وفى مثل هذا الوضع فلو أن موسى نظر فى هذا الحادث من المنظور القومى ، لملئ فخراً واعتزازاً باعتباره بطولةً جهاديةً .. ولكنه بالعكس ندم على هلاك القبطى أشد الندم ، فتوجه من فوره إلى الله يسأله العفو والمغفرة .

وقوله : ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ يعنى لن أنصر أحداً من الآن فصاعداً بدون تحقيقٍ أو تحرٍ .. فإن مجرد انتماء شخصٍ إلى شعبٍ مظلوم مضطهد ، أو استنصاره ضد غيره بوصفه ظالماً ، ليس بكافٍ لإثبات أن الشخص الأخير ظالم فى الواقع ، وأن المستغيث هو المظلوم .. ولذلك فالمنهج الصحيح هو أن نتناول الأمر فى مثل هذه المناسبات بالتحرى الدقيق ، ولا نندفع لنصر أحد الأطراف إلا إذا ثبت لدينا كونه مظلوماً معتدى عليه فى ضوء تحرياتٍ نزيهةٍ غير متحيزةٍ !

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا

ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

يَتَرَقَّبُ : يتوقع المكروه .

يَسْتَصْرِخُهُ : يستغيثه من بعد .

إِنَّكَ لَغَوِى : ضال عن الرشد .

يَبْطِشَ : يأخذ بقوة وعنف .

يَسْعَى : يسرع فى المشى .

. **إِنَّ الْمَلَأَ** : وجوه القوم وكبرائهم .

يَأْتَمِرُونَ بِكَ : يتشاورون فى شأنك .

وفى اليوم التالى كان ذلك الإسرائيلى نفسه يتنازع مع قبطى آخر .. وقد كان هذا قرينةً واضحةً الدلالة على أنه رجل ديدنه النزاع واللدد والخصومة ، فما يمر عليه يوم إلا وهو يتشاجر أو يتقاتل مع بعض الناس .. ومن هنا فبالرغم من كونه ينتمى إلى شعبه هو ، أنحى عليه موسى باللائمة ، واعتبره مجرماً .. وقد ثبت كون الإسرائيلى المذكور مجرماً بمزيد الوضوح من أنه حين رأى موسى لا يتقدم لنجدته اليوم ، بل أخذ يزجره وينذد بفعله على عكس رجائه منه ، فلم يلبث أن فضح ، بمنتهى الدناءة واللامسئولية ، أمر قتيل الأمس ، الذى لم يكن قد علم به أحد غيرهما بعدُ .

ولم يكد ينطق الإسرائيلى باسم القاتل حتى التقطته آذان القبطى وآخرين عداه من المارة ، فسرى هذا الخبر فى طول البلاد وعرضها سريان النار فى الهشيم .. حتى أخذ المسئولون يتشاورون فى إعدام موسى .. فاطلع على ذلك رجل شريف من آل فرعون،

فاتصل بموسى سراً ، وأعلمه علم القوم ، وأشار عليه: إن الأحرى بك الآن أن تغادر هذا المكان .. فقبل موسى منه هذه النصيحة الغالية ، وذهب على وجهه يريد أرض مدين ، التى كانت تقع على الساحل الشرقى لخليج العقبة ، وكانت خارجةً عن حدود المملكة الفرعونية.

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

تِلْقَاءَ مَدْيَنَ : جهتها ونحوها (قرية شعيب)

سَوَاءَ السَّبِيلِ : الطريق الذى فيه النجاة .

أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ : جماعة كثيرة منهم .

تَذُودَانِ : تمنعان أغنامهما عن الماء .

مَا خَطْبُكُمَا ؟: ما شأنكما ؟ ما مطلوبكما ؟

يُصْدِرَ الرِّعَاءُ : يصرف الرعاء مواشيهم عن الماء .

كانت رحلة موسى هذه بمثابة رحلةٍ إلى المجهول .. والكيفية التى تعترى قلب المؤمن فى ظروفٍ كهذه ، كانت طارئةً عليه تماماً .. حيث كان يتابع سيره بخطىً حثيثةً فى ظلال الأدعية المتدفقة حرارةً وخشوعاً .. حتى وصل، بعد مسير عشرة أيامٍ تقريباً ، إلى مدين ؛ وقد أرهقه التعب ، ونزل به أيضاً ، فى أغلب الظن ، جوع شديد.

وتقدّم موسى بإعانة المرأتين من أهل مدين بدافع العطف على الضعفاء ؛ مما مهّد له الطريق للوصول إلى أبيهما.. وقد كان هذا الشيخ من ذرية مديان بن إبراهيم ، وموسى من ذرية إسحاق بن إبراهيم ، وعلى هذا فقد كانت بين كليهما رابطة القرابة السلاليّة كذلك.

وفى ذلك الوقت خرج من فم موسى الدعاء التالى : ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ،وهذا الدعاء يدلنا كيف يكون حال المؤمن فى مثل هذه الأوقات .. إنه يفوض أمره كله إلى الله ؛ لكونه واثقاً من أن كل ما ينال العبد فإنما يناله من عند الله ، وأن الخير هو الذى يتلقاه من عند الله - سبحانه وتعالى !

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

تَأْجُرَنِى : تكون لى أجيرا فى رعى الغنم .

حِجَجٍ : سنين .

عادت البنتان إلى البيت فى يومها ذاك مبكرتين بعض الشيء على خلاف المعتاد ، وعندما سألهما الشيخ أبوهما عن سبب التبكير بالعودة ، أخبرتاه بما كان من تطوع

الرجل الغريب لسقى أغنامهما .. فقال الشيخ : لِمَ لم تأتيا بالرجل حتى يتناول معنا الطعام؟! فانطلقت إحداهما إلى البئر وجاءت بموسى إلى منزلها .. ومن تجربة أيام عدة ظهر للعائلة المضيفة أن موسى رجل جدٍ واجتهادٍ وإنسان صدقٍ وأمانةٍ .. ومن ثم فقد اتفق الشيخ مع رأى إحدى ابنتيه على استبقاء موسى أجيراً عنده .. والواقع أن كلا هذين الوصفين : الأمانة والقوة ، جامع لكل الأوصاف الضرورية.. ولو أردنا تحديد مقياسٍ لاختيار الرجل الكفء ، فلن نجد هناك ما يعبر عنه تعبيراً أدق وأفضل من هاتين الكلمتين .

وقد زوج الشيخ موسى بإحدى ابنتيه فيما بعد .. وبما أنه كان إذْ ذاك فى حاجةٍ ماسةٍ إلى رجل يتعهد شئونه المنزلية والعقارية ، طلب من موسى أن يقيم عنده ثمانى أو عشر سنواتٍ ثم له بعد ذلك أن يذهب إلى حيث يشاء !

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

آنَسَ : أبصر بوضوح.

نَاراً : هى فى الواقع نور ربانى .

جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ : عود فيه نار بلا لهب .

تَصْطَلُونَ: تستدفئون بها من البرد .

تَهْتَزُّ :تتحرك بشدة واضطراب .

كَأَنَّهَا جَانٌّ: حية خفيفة فى سرعة حركتها .

وَلَمْ يُعَقِّبْ : لم يرجع على عقبة أو لم يلتفت .

جَيْبِكَ : فتحة القميص حيث يدخل الرأس .

بَيْضَاءَ : لها شعاع يغلب شعاع الشمس .

غَيْرِ سُوءٍ: غير داء برص ونحوه .

وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ : الخوف من الحية .

قضى موسى فى بلاد مدين نحواً من عشرة أعوامٍ ..ثم انصرف موسى ومعه زوجته وولدان أيضاً – طبقاً لرواية التوراة – عائدين إلى أرض مصر .. وقد مرت عليه وهو فى بعض الطريق تجربة الطور .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

رِدْءاً : عوناً .

سَنَشُدُّ عَضُدَكَ : سنقويك ونعينك .

سُلْطَاناً : حجة أو تسلطاً وغلبة .

إن الله - سبحانه وتعالى - حين يعين أحد الناس بوصفه مأموراً للدعوة إليه والتبليغ عنه ، يوفر له أيضاً كل الأسباب الضرورية لأداء العمل الدعوى على نحوٍ مؤثرٍ فعالٍ .. ومن ثم فقد أعطى لسيدنا موسى من عند الله أشياء عديدة بحسب ظروفه وأحواله .. حيث مُنح خوارق ومعجزاتٍ كشهادةٍ على تعيينه أو مأموريته من قبل الله تعالى .. وقُيّض له مساعد يشد من أزره ، ويتعاون معه فى تحمل أعباء الدعوة والصدع بالحق .. وأُسبغ عليه نوع من الهيبة الشخصية تحول دون أن يجرؤ فرعون وأصحابه على التعرض له أو النيل منه .. هذا إلى جانب ما سبق تقديره من الله أن الغلبة نهائياً لا تكون إلا لموسى وأتباعه (بنى إسرائيل) وحدهم !

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ۖ فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

مُفْتَرًى : تنسبه إلى الله كذبا .

صَرْحاً : قصراً أو بناءً عالياً مكشوفاً .

إن شخصاً يعدّ نفسه كبيراً ، إذْ يتناوله رجل عادى فى مظهره بالنقد الصريح فإنه لا يلبث أن يشتعل غضباً ، ويأخذ فى الاستهزاء بناقده ، والنيل منه بكل حيلةٍ ووسيلةٍ .. وقد اتخذ فرعون هذا الموقف تجاه النبى موسى لما عرض عليه دعوة الحق، وهدم دعوى ربوبيته من الأساس .

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ ليس هذا بأى قولٍ جادٍ ، ولم يقصد فرعون من هذه العبارة بيان الحقيقة، بل أراد الاستخفاف بشأن موسى .. وهكذا لما توجه فرعون إلى وزيره هامان قائلاً : بأن اطبخ الآجر ، و ابن لى عمارةً شامخةً رفيعةً ، تأخذ فى السماء صعداً ، لأطلع إلى إله موسى . لم يكن ذلك أمراً جدّياً ؛ فلم يكن معناه أنه يصدر أمراً إنشائياً إلى وزيره ، وإنما كان ذلك سخرية من موسى .

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ : ألقيناهم وأغرقناهم فى البحر .

أَئِمَّةً : قادة فى الضلال .

لَعْنَةً : طردا وإبعاداً عن الرحمة .

مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ : المبعدين أو المشوهين فى الخلقة .

الْقُرُونَ الْأُولَى : الأمم الماضية المكذبة

بَصَائِرَ لِلنَّاسِ : أنوار لقلوبهم تبصر بها الحقائق .

لقد كانت دعوة موسى تهدف إلى تفجير الثورة الرّبانية فى ضمير الفرد الإنسانى.. كان مؤداها – باختصارٍ – أن يخاف الإنسان من الله وحده ، وأن يعيش فى هذه الدنيا

عبداً مطيعاً لله رب العالمين .. وقد عرض موسى هذه الرسالة نفسها على الأفراد والآخرين بعامة ن تماماً كما عرضها ، بوجهٍ خاصٍ ، على ذلك الفرد الذى كان جالساً على سدة الحكم!

إن الإنسان عادةً يصاب بنفسية الكبر والغرور حين يحصل على السلطة والاختيار .. وهكذا كان حال فرعون هو الآخر تماماً .. فحذَره موسى قائلاً : إنك لو عشت متكبراً فى أرض الله ، لتعرضت لبطش الله ، ولكن فرعون لم يتلق النصيحة بالقبول .. وكانت النتيجة أن أهلك هو وجنوده أجمعون .

كان فرعون إمام الحضارة الوثنية القديمة .. وكان يحتل مركزاً مرموقاً عالياً فى ظل الحضارة الوثنية .. غير أن حضارة الشرك والوثنية قد انتهت ودالت دولتها ، لا من أرض مصر وحدها ، بل من كل بقاع المعمورة .. وغالبية سكان العالم اليوم إما مسلمون أو يهود أو نصارى .. وكل هؤلاء يعتبرون فرعون ملعوناً بالإجماع .. وليس هناك من أحدٍ فى عالم اليوم يؤمن بعظمة فرعون أو يعتقد فى ربوبيته!

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قَضَيْنَا : عهدنا .

ثَاوِياً : مقيما .

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبين - عبر القرآن - وقائع موسى على نحوٍ مفصلٍ ، كما لو أنه واقف على مسرح الأحداث يسمع ويرى كل ما يجرى

هناك.. بينما الواقع أنه - ﷺ - وُلد فى مكة بعد موسى بألفى عامٍ.. وقد كان هذا دليلاً واضحاً على أن القرآن كلام الله ، لأن أى إنسانٍ ليس بقادر على أن يدلى ببيانٍ كهذا .

ففى عهد الرسول - ﷺ - لم تكن توجد كتب ولا مؤلفات ، كما هو الحال فى أيامنا هذه .. أما وقائع موسى فقد كانت مذكورةً فى كتب اليهود غير العربية ، والتى لم يكن لها سوى عدة نسخٍ محفوظةً فى معابد اليهود .. وهى بكل تأكيدٍ كانت بعيدة عن متناول النبى - صلى الله عليه وسلم - .. وفوق ذلك فإننا نجد هناك فروقاً ذات مغزى دقيقٍ بين ما جاء فى القرآن الكريم وما جاء فى الكتب اليهودية .. والقرينة تدل على أن ما جاء فى القرآن هو الأصح والأجدر بالقبول .. وعلى سبيل المثال فإن هلاك القبطى على يد موسى ، طبقاً لما ورد فى القرآن بهذا الخصوص ، إنما حدث عن غير عمدٍ ، بينما تقول التوراة عن موسى فى موقفه ما نصه : "فالتفت إلى هنا وهناك.. ورأى أن ليس أحد ، فقتل المصرى ، وطمره فى الرمل" (سفر الخروج ٢ : ١٢) .

ومن الواضح أن بيان القرآن هو أنسب وأليق بمكانة شخصية جليلةٍ كموسى عليه السلام، وليس بيان التوراة .. إذن ، فكيف استطاع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بدون أية وسيلةٍ ظاهرةٍ ، أن يعرض وقائع موسى بهذا القدر من الصواب والدقة؟!.. ونحن لن نجد جواباً مقنعاً عن هذا سوى أن الله عالم الغيب والشهادة هو الذى أخبره بكل ذلك عن طريق الوحى !

﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ

قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾

قَضَيْنَا : عهدنا .

ثَاوِياً : مقيما .

لما عرض موسى رسالته على المصريين الأقدمين ، أردف ذلك أيضاً بإظهار معجزات العصا واليد ، تأكيداً على صدقه وحقية رسالته .. غير أن القوم لم يؤمنوا به ، وأنكروه قائلين: إن هذا سحر ليس غير .. وأما حين عرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعوة الحق على سكان الجزيرة العربية المعاصرين له ، على أساسٍ من الدلائل والبراهين ، فقالوا : إن كان هذا نبياً ، فما باله لا يُظهر معجزات مثلما أظهر موسى؟!

كل هذه أقاويل خرجت عن الأذهان غير الجادة .. إن ألزم شرطٍ للإيمان بالحق فى العالم الراهن هو أن يكون المرء جاداً .. وأما الذى لا يكون جاداً بالنسبة إلى قضية الحق والباطل ، فلن يجبره أى شيءٍ على الاعتراف بالحق ، حيث إنه سيفتعل كل مرةٍ عذراً جديداً، وسيعثر لرفض كل حديثٍ على ألفاظٍ جديدةٍ !!

﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

وَصَّلْنَا لَهُمُ القَوْلَ : أنزلنا القرآن عليهم متواصلا .

إن المعيار الحقيقى للإيمان أو عدم الإيمان برسالة الحق واحد ، أو ينبغى أن يكون واحداً ليس غير ، وهو أن ننظر فى الرسالة من حيث جوهرها الذاتى وحده ، فلو

وجدناها تحمل فى ذاتها دليلاً على أنها الصدق الأعلى ، لكان ذلك كافياً لكى نؤمن بها، ولم نعد بعد ذلك بحاجةٍ إلى أى شيءٍ آخر للإيمان بها .

وإن الصدق إنما يقابل بالصدق مثله .. ولو أن المرء وقف من الصدق موقف الإنكار، ثم لم يتقدم فى مقابل ذلك بصدقٍ آخر أسمى ، فمعنى ذلك أنه إنما ينكر بسبب عبوديته لهوى النفس ، والذين لا يستطيعون ردّ الصدق بالعقل أو المنطق ، ثم إنهم - مع ذلك - لا يؤمنون به انسياقاً مع الأهواء ودواعى التعصب الأعمى ، هم أكثر الناس ضلالاً .. وسيُعتبر أمثال هؤلاء عند الله فى عداد الظالمين !

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

وَيَدْرَءُونَ : يدفعون .

اللَّغْوَ : السب والشتم من الكفار .

سَلامٌ عَلَيْكُمْ: سلمتم منا لا نعارضكم بالشتم .

الإيمان نوعان .. أحدهما : أن تؤمن بالحق لأنه حق .. وثانيهما : أن تؤمن به لأن عارضه ينتمى إلى طائفتك.. وأول هذين النوعين من الناس وحده يوفق للاهتداء إلى الصراط المستقيم .. ومن هذا الطراز كان أولئك الرجال الذين آمنوا فى القرن الأول

بالقرآن الكريم والنبى العربى - عليه الصلاة والسلام .

كان هناك عدد من النصارى واليهود لم يكد يستمع إلى آيات القرآن حتى انضم إلى صفوف المؤمنين به .. وقد كان هؤلاء ما زالوا متمسكين بتعاليم الأنبياء السابقين الحقيقية .. ولذا فلم يصعب عليهم أن يتعرفوا على نبى آخر الزمان .. ولقد تعرف هؤلاء بالفعل على النبى الجديد تماماً كما كانوا قد تعرفوا على الأنبياء الذى سبقوه .. غير أن تأهيل أنفسهم لذلك كان قد فرض عليهم المرور بمراحل "الصبر" العسيرة .

إنهم حافظوا على أذهانهم من التأثر بعوامل لا تدع المرء صالحاً لمعرفة الحق .. تلك العوامل التاريخية والاجتماعية التى تحوّل الدين الإلهى فى ذهن المرء إلى دين طائفى ، وبالتالى لا يكاد المرء يعرف من أمر الدين شيئاً إلا ما تلقاه من طائفته ، ويفشل فى التعرف على الدين الذى يأتيه من غير طائفته .. ولكى يبقى المرء محفوظاً من هذه المؤثرات يُضطر إلى تقديم تضحياتٍ نفسيةٍ عظيمةٍ ، ولهذا تم التعبير عن ذلك بالصبر .. وسيعطى أمثال هؤلاء ثوابهم مضاعفاً ، أولاً : على التضحية التى قاموا بها ؛ حيث لم يسمحوا لإيمانهم السابق بأن يتحول إلى إيمان طائفى .. وثانياً: على ثقوب نظرهم ؛ إذْ عرفوا النبى الجديد فور ظهوره .. وبادروا بالانضواء تحت رايته دون تحفظٍ أو ترددٍ !

وإن الأوصاف الخلقية السامية إنما تزدهر فى أناسٍ يملكون صلاحية التعرف على الحق.. فهم يحسنون إلى الناس مهما أساء الناس إليهم .. وهم ينصرون الآخرين لينصرهم ربهم .. ويسلكون فى حياتهم مسلك الإعراض والعفو دون التصدى والاشتباك !

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

نُتَخَطَّفْ : ننتزع بسرعة .

يُجْبَى إليه : يجلب ويحمل إليه من كل جهة .

يحسب المرء ، إذا ارتبطت مصالحه بنظامٍ ما ، أن الفضل فى كل ما يناله من خيرٍ ، إنما يرجع إلى هذا النظام القائم ذاته.. إنه يعلم فوائد الحاضر وحدها ، ولكنه لا يدرى عن فوائد المستقبل شيئاً !

وهكذا كان حال مشركى مكة القديمة تماماً .. حيث كانوا قد نصبوا فى الكعبة أصنام سائر القبائل العربية ، وحصلوا بذلك على الزعامة الدينية العامة للعرب ، كما كانت النذور والقرابين التى تُقدم إلى تلك الأصنام مورداً اقتصادياً خاصاً لهم . غير أن ابتعاد القوم عن الإسلام بحجة أنه يسبب لهم متاعب كثيرة ، ويحرمهم من المنافع التى يتمتعون بها الآن ، لم يكن إلا آية الضيق فى أفق تفكيرهم .. إذْ إن رسول الله كان يدعوهم إلى دينٍ كان سيجعل منهم أئمة العالم أجمع ، بينما هم كانوا يتخلون عنه من أجل دينٍ لم يكن لديه شيء سوى زمام الرئاسة العادية لقبائل الجزيرة !!

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

وَكَمْ أَهْلَكْنَا : كثيراً أهلكنا .

بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا : طغت وتمردت فى أيام حياتها .

إن أحد الناس إذْ يحصل على الاستحكام المادى فى الأرض ، فلا يلبث أن يصاب

بالغرور والاستعلاء .. بينما لا تفتأ تجارب التاريخ تعلم الدرس القائل بأن: الاستحكام المادى الذى يفوز به أى شخصٍ أو شعبٍ هنا غير دائم مطلقاً .. فكلما قابل قوم الحق بالإهمال واللامبالاة ، دُمِّروا ، مع كل مظاهر عظمتهم وأمجادهم!

فقد سبق أن برزت فى شبه الجزيرة العربية وما حولها أمم وشعوب شتى : مثل عاد، وثمود ، وسبأ ، وأصحاب مدين ، وقوم لوط .. إلخ ، وقد ابتلى الكل بالبطر والاستكبار ، غير أن استكبار كل أحدٍ منهم لم يلبث أن عفا عليه الزمن ، وأصبحوا آخر الأمر أحاديث تُروى أو قصص تحكى .. وأطلال هذه الأمم المنبثة هنا وهناك ، كانت تنفى العظمة الإنسانية .. وبالرغم من ذلك فإن الذين كانوا يتمتعون بالسيادة والكبرياء فى عهد رسول الإسلام كذبوه تكذيباً، كما لو أن وقائع الماضى لا تنطوى على عبرةٍ أو موعظةٍ لهم فى حاضرهم !

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾

مِنَ الْمُحْضَرِينَ : ممن أحضروا للنار .

مهما كان لدى المرء من مالٍ طائلٍ أو متاعٍ وافرٍ فى هذه الحياة الدنيا ، فإنه لا يلبث أن يتخلى عنه عند الموت كره أم أحب .. وإنما الشيء الذى يصحب المرء بعد الموت هو الأعمال الصالحة دون الجاه الدنيوى أو الأسباب المادية ، فالعاقل ، والحالة هذه ، هو الذى يفضل السعادة الأبدية على السعادة الوقتية الفانية .. وبالتالى يوجه اهتمامه نحو بناء الآخرة بدلاً من بناء الدنيا!

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ

حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾

أَغْوَيْنَا : دعوناهم إلى الغى فاتبعونا .

المراد بـ "الشركاء" القادة المضلون .. أى أولئك السادة الكبار الذين امتثل الناس لأمرهم كما ينبغى أن يُمتثل لأمر الله .. وإنه سيكون مشهداً عجيباً لا يوصف عندما يرى أتباع أولئك الكبار مصيرهم المشئوم يوم القيامة.. حيث يجدون هناك أن الكبار الذين كانوا يتفاخرون بالانتماء إليهم ، لم يقودوهم إلا إلى نار جهنم المستعرة .. وعندها سيقولون لهم متذمرين : إن تبعة دمارنا وهلاكنا تقع على أكتافكم أنتم .. وسيرد الكبار (المتبوعون) عليهم قائلين : ليس ثمة أحد ، غير أنفسكم ، مسئولاً عن دماركم .. فإنكم وإنْ سرتم فى طريق الغواية ظاهراً تلبيةً لندائنا ، إلا أنكم لم تلبوا نداءنا إلا لكونه يتفق مع أهوائكم ، إذن ، فقد كنتم فى الحقيقة تابعين لأهوائكم وليس تابعين لنا .. فكما اتبعنا نحن أهواءنا ، اتبعتم أنتم أهواءكم .. وكل منا الآن يلاقى مصيراً واحداً .. فلا فائدة تُرجى من التلاوم أو تبادل اللعنات وتوزيع التبعات!

﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

إن المرء حين ينكر الحق فى الدنيا ، فإنما ينكره اعتماداً على شيءٍ .. وسيُقال له فى الآخرة: أن ادع أولئك الذين كنت قد رفضت الإيمان بالحق اعتماداً عليهم لكى ينقذوك - إن استطاعوا - من سوء عاقبة الإنكار للحق!! غير أن هذا سيكون يوم ظهور الله

جل جلاله ، ومَنْ ذا يستطيع أن ينصر أحداً على الله ؟! لا يكاد المرء يرضى بالصمت فى الدنيا .. فهو لا يلبث أن يجد هنا لرفض كل دليلٍ ألفاظاً جميلةً .. ولكن كل هذه الألفاظ سينكشف زيفها وبطلانها فى يوم القيامة ، وسوف يتجرع المرء مرارة الندم والحسرة ، إذْ يدرك هناك عظم الشيء الذى خسره لأجل شيءٍ هو أتفه ما يكون!

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

الخِيَرَةُ : الاختيار .

مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ : ما تضمر من الباطل والعداوة .

إن الله – سبحانه وتعالى – يخلق البشر .. ثم هو يختار من بين هؤلاء البشر بعض الأفراد للاضطلاع بمهمةٍ خاصةٍ .. وهذا الاختيار لا يكون بناءً على قدسيته الذاتية ، وإنما يكون بناء على قضاء الله وحده .. ومن ثم فإن إحاطة أفرادٍ كهؤلاء بهالةٍ من التقديس ، وبالتالى رفعهم إلى درجة الألوهية أمر لا يستند على أساسٍ ، ولا مجال فى كون الله لمثل هذه الخرافات والمزاعم الباطلة .. وطالما يلجأ المرء لإنكار الحق إلى ألفاظٍ يرددها بلسانه ، إلا أنه يضمر فى قلبه شيئاً آخر تماماً .. فهو لا يؤمن بالحق حرصاً على مصالحه الذاتية بينما هو يظهر بالألفاظ أنه إنما ينكره على أساسٍ من الدليل والمعقولية .. وسوف لا يبقى هذا الحجاب حائلاً بين القلوب والألسنة فى الآخرة .. وعندها سيتضح بجلاءٍ أن قلب المرء كان منطوياً على غير ما ظل يبديه بترديد الألفاظ والعبارات المنمقة من أجل الحفاظ على كبريائه!

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ

ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

أَرَأَيْتُمْ : أخبرونى .

سَرْمَدا : دائما مطردا .

يُستدعى الأنبياء والذين اتبعوهم بإحسان وترسموا خطاهم من دعاة الحق ، بوصفهم شهداء الله يوم القيامة .. وسيخبرون هناك عن الأمم التى أبلغوها رسالة الله، كيف كانت مواقفها أو ردود فعلها تجاه الرسالة؟! وسيقف يومئذٍ حيارى واجمين ، كل أولئك الذين كانوا قد أهملوا دعوة الحق معتمدين على غير الله.. وسيكون حالهم فى ذلك اليوم الرهيب أنهم إذا أرادوا الدفاع عن أنفسهم ندّت عنهم الألفاظ لفرط الدهشة والهلع ، ولم تطاوعهم ألسنتهم التى طالما استخدموها بلباقةٍ واقتدارٍ فى معارضة الحق والدفاع عن مفترياتهم فى الحياة الدنيا!!

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

يَفْتَرُونَ : يختلقونه من الباطل فى الدنيا .

إن كرة الأرض - التى يسكنها الإنسان - منطوية على جوانب عجيبة مدهشة لا تُحصى .. ومنها أنها دائرة فى محورها حول الشمس بانتظامٍ ، وهى تتم دورتها المحورية

هذه فى كل أربعٍ وعشرينٍ ساعةٍ .. ولهذا السبب لا يزال يتعاقب عليها الليل والنهار الواحد تلو الآخر .. ولو توقفت الأرض عن الدوران حول محورها ، لخيم على نصف الكرة ليل دائم ، وعلى نصفها الآخر نهار دائم .. وسيترتب على ذلك أن تتحول هذه الأرض التى هى موضع الراحة والسكون للإنسان ، إلى جحيم لا يطاق !

وإن دوران الأرض فى رحاب الفضاء بهذه الدقة والانضباط لواقع عظيم لدرجة أن كل قوى الإنس والجن لا تكفى لإحداثه .. وإنه ليس ثمة أحد غير الله القادر المطلق ، يستطيع أن يحدث واقعاً عظيماً كهذا .. وفى هذه الحالة فما أعظمه من ضلال وانحرافٍ أن يتوجه الإنسان بمشاعر خوفه ومحبته نحو أحدٍ غير الله الواحد؟!

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

فَبَغَى عَلَيْهِمْ : ظلمهم . أو تكبر عليهم .

لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ: لتثقل الجماعة الكثيرة وتمل بهم .

لاَ تَفْرَحْ : لا تبطر ولا تأشر بكثرة المال .

ذُكر قارون فى المصادر اليهودية باسم قورح (Korah) ، ومع أنه كان رجلاً من بنى إسرائيل ، (وقيل: واحداً من أقارب موسى - عليه السلام) ، إلا أنه اعتزل قومه وأضحى وفياً لفرعون .. ونال ثمن ذلك بأن جعله فرعون من رجاله المقربين عنده .. وقد تمكن الرجل ، باستغلال مواهبه العملية ، من كسب المال وإحراز المتاع الدنيوى

بمقدارٍ هائلٍ ، لدرجة أنه أصبح أغنى رجلٍ فى مصر آنذاك .. وكان المفروض أن تتولد فى نفسه عاطفة الشكر على ما حصل عليه من ثروةٍ كبيرةٍ ، غير أن الثروة إنما بعثت فيه عاطفة الزهور والفخر والغطرسة ، وبالتالى لم يوجه عنايته لكسب الحسنة التى كان ينبغى أن يكسبها بوسائله الاقتصادية الجبارة .

وما هو الإفساد فى الأرض؟ إن من صور الإفساد فى الأرض ، طبقاً لمضمون الآية (٧٧) ، أن يضن المرء بما حصل عليه من الثراء العريض ، فلا يصرفه إلا فيما يخص ذاته وحدها ، دون غيره من الناس .. إن مياه الأنهار إذْ تجتمع فى البحر من شتى جهات الأرض ، فإن البحر بدوره لا يلبث أن يرفع مياهه بخاراً لتتحول ثانيةً إلى ماءٍ عذبٍ يتوزع على كل بقاع الأرض .. وهذا أحد نماذج الإصلاح فى دنيا الله .. وهذا الشيء مطلوب من البشر ، بحيث لو اجتمع لدى أحدهم - لسببٍ من الأسباب - ثروة طائلة عريضة ، فينبغى عليه أن يردها - بمختلف الطرق - إلى أناسٍ لم ينالوا من التقسيم الاقتصادى سوى حظٍ يسيرٍ .. وجملة القول : إن تمكين الأموال المتكدسة من التداول هو الإصلاح ، بينما الاحتفاظ بالأموال المتكدسة ومنعها من التداول هو الإفساد !

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

مِنَ الْقُرُونِ : من الأمم .

وَلاَ يُسْأَلُ : سؤال استعلام بل سؤال توبيخ .

إن الدور الذى حُكِى عن قارون ، هو نفسه الدور الذى ما زال يمثله الأغنياء والأثرياء على اختلاف الأعصار والأمصار .. فالرجل الثرى يحسب دوماً أن ما عنده

إنما حصل عليه بفضل علمه .. ولكن علم أى غنى أو ثرى لا يخبره بأنه قد كان هناك كثيرون قبلك ، نالوا من الغنى والثراء أكثر مما نلت ، غير أن ثروتهم لم تتمكن من إنقاذهم من الموت أو الدمار .. إذن ، فكيف ستكون ثروتك منقذةً لك من بأس الله؟!

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

فِى زِينَتِهِ : فى مظاهر غناه وترفه .

وَيْلَكُمْ : زجر لهم عن هذا التمنى .

وَلاَ يُلَقَّاهَا : لا يوفق للعمل للمثوبة .

الرجل الذى يمتلك الثروة ، تتجمع حوله زخارف الدنيا وزينتها بطبيعة الحال .. مما يجعل كثيراً من السفهاء وضعاف العقول يرمقونه بعين الغبطة والإعجاب .. أما الذين رزقوا علم الحقيقة فسرعان ما يدركون أن هذا رونق أيامٍ معدوداتٍ .. وإنه لا قيمة لرونقٍ لا يدوم سوى أيامٍ معدودةٍ قصيرةٍ .. وعلم الحقيقة هو أثمن شيءٍ فى هذا الوجود.. غير أن تحصيل علم الحقيقة يتطلب الصبر ، يعنى أن تُكوّن ذهنك من غير خضوعٍ لضغط الأحوال الخارجية، وتفكر بعيداً عن تأثير المظاهر السطحية الخلابة ، وأن تبنى رأيك بصرف النظر عن الأشياء ذات البريق الوقتى الخادع.. وهذا من غير شكٍ أصعب أنواع الصبر إطلاقاً ، غير أن المرء بعد اجتيازه هذا الامتحان العسير الشاق بنجاحٍ - وليس قبله - ينال ذلك الشيء الذى يسمى العلم والحكمة !!

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ

وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

وَيْكَأَنَّ الله : ألم تر أن الله .

وَيَقْدِرُ : يضيق على من يشاء لحكمه .

وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ :ألم تر الشأن لا يفلح .

طبقاً لرواية التوراة دعا موسى بالهلاك على قارون بسبب سوء أعماله ، فلم يلبث أن خُسف به وبأصحابه وبكنوزه الأرض .. وقد أظهر الله بذلك ، على مستوى الشهود ما هو المصير الذى يلقاه من يعبد المال والثروة متخلياً عن عبادة الله وحده؟!

وإن رزق الدنيا إنما هو فى الأصل متاع الامتحان .. وكل امرئٍ يُعطى منه نصيباً قل أو كثر بحسب مشيئة الله وحكمته .. فينبغى للمرء إذا قل نصيبه من الرزق أن يصبر ، وإذا نال حظاً وافراً من الرزق أن يشكر .. فإن هذا هو الطريق الوحيد الذى يؤدى بسالكه إلى النجاة والفلاح فى الدنيا والآخرة !.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

المؤهلون لسكنى الجنة هم الذين خلت صدورهم من مشاعر الكبرياء والتعالى نحو أنفسهم .. والذين أدركوا عظمة الله وجلاله بحيث لم يعودوا يرون إلى جانب ذاتهم شيئاً سوى الصغار والهوان .

إن الفساد فى الأرض هو عدم توافق المرء مع مراد الله .. وأن يأخذ يسير فى دنيا الله

على عكس مرضاة الرب - سبحانه وتعالى .. والذين تخلو صدورهم من الكبر و الغرور ، فإن نفوسهم تخلو بالضرورة من جراثيم الفساد كذلك .. والذين يتحلون بهذه الأوصاف العالية هم أولئك الذين يسكنهم الله فى جنانه الأبدية !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

مَعَادٍ : مكة المكرمة ظاهراً عليها .

ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ : معينا لهم على ما هم عليه .

إن أمر النبى يكون ، بكل المقاييس والاعتبارات ، أمراً إلهياً .. حيث إنه يُعطَى النبوة من عند الله دون طلبٍ منه .. وهو يكون قائماً على الحق بوجوده كله ، ويكون مكلفاً بأن يصدع بالصدق الخالص النقى من كل شوبٍ ، مهما كان ذلك مزعجاً للناس ، أو شديد الوطأة على نفوسهم .. كما يُقدر له سلفاً أن يصل عاقبة الأمر إلى غايته المنشودة على كل حالٍ ، لا تستطيع أية عقبات أو عوائق الطريق ، مهما كثرت وصعبت، أن تحول دونه .

وهكذا يكون الأمر تماماً بالنسبة إلى الداعى الذى يسير على درب النبوة من بعد النبى ويقتدى بهداه .. فبقدر ما يتشبه الداعى بالنبى ، إيماناً وعملاً ومنهجاً وسلوكاً ، بقدر ما يصير أهلاً لكى تتحقق فيه وعود الله تلك ، التى وعدها لأنبيائه فى كتابه الكريم!

فهرس الموضوعات

تفسير سورة يونس ٥
تفسير سورة هود..... ٥٨
تفسير سورة يوسف..... ١١٠
تفسير سورة الرعد..... ١٥١
تفسير سورة إبراهيم..... ١٧٥
تفسير سورة الحجر..... ١٩٩
تفسير سورة النحل..... ٢٢٤
تفسير سورة الأسراء..... ٢٨٦
تفسير سورة الكهف ٣٣٩
تفسير سورة مريم..... ٣٨٠
تفسير سورة طه..... ٤٠٧
تفسير سورة الأنبياء..... ٤٤٤
تفسير سورة الحج..... ٤٧٨
تفسير سورة المؤمنين..... ٥١٠
تفسير سورة النور..... ٥٣٨
تفسير سورة الفرقان..... ٥٦٥
تفسير سورة الشعراء..... ٥٨٧

تفسير سورة النمل..... ٦١٨

تفسير سورة القصص..... ٦٣٩